العلوم والفنون في القرآن

إبراهيم أبو عواد

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

مقدمة

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِين، والصَّلاة والسَّلام على النبيِّ مُحمَّد وإخوته الأنبياء الكِرام، وآلِ كُلٍّ ، وصَحْبِ كُلٍّ .

يُمثِّل هذا الكتاب جُهدًا ذاتيًّا ومحاولةً شخصيةً لبيان العُلُوم والفُنُون في القُرآن الكريم ، وعلاقتها بحياة الفرد ومسار المجتمع . وهذا يكشف ضرورة ربط الأفكار بالواقع ، مِن أجل تغيير الواقع إلى الأفضل ، مِمَّا يَعُود بالخَير على الجميع بلا استثناء . وهُنا ، تَبْرُز خُطورة فَصْل الأفكار عن الواقع ، لأنَّ هذه العملية ستجعل الحياة مُجرَّد وعاء للشِّعارات الخالية مِن الرُّوح والمعنى . وكُل تَنظير لا يُصاحبه تطبيق عملي ، سَيُؤَدِّي بالضرورة إلى الفَرَاغ الروحي والعَدَم الاجتماعي .

يشتمل هذا الكتاب على مواضيع في غاية الأهمية ، فهو يتحدَّث عن فَضْل العِلْم والعُلَماء ، ويُبيِّن أهمية طَلَب العِلْم ، والعمل به ، وقِيام العُلَماء بنشره في المجتمع باعتبارهم القادة الرُّوحيين للناس ، وقُدوتهم ، ومَثَلهم الأعلى . وفَضْلُ العِلْم والعُلَماء يُقَابله ذَم الجَهْل والجاهلين ، فالجهلُ هادم للحضارة والمجتمع ، والجاهلون يُشكِّلون خطرًا على أنفسهم وغَيرهم . ويجب تعليمهم وإرشادهم . لذلك ، لَيس غريبًا أن يحثُّ القُرآنُ على التَّفَقُّه في الدِّين ، والتَّفَكُّر ، والتفكير ، واستخدام العقل ، ونَشر العِلْم وعَدَم كِتمانه ، وتأسيس منهجية الحِوار والنِّقَاش والمُجَادَلَة على العِلْم والأدلة والبراهين والحُجَج النقلية والعقلية،بلا عُنف ولا صُرَاخ ولا عِنَاد ولا مُكَابَرَة ولا هَوى.

ويجيء مَوضوع الفَلَك والكَوَاكِب ، ليُرشِد العقلَ البشري إلى ضرورة التفكُّر في الأجرام السَّماوية الهائلة ، حيث إن المصنوعات المُتقَنة تدلُّ على الصانع العظيم البديع .

ثُمَّ يأخذنا الحديثُ إلى مَوضوع التَّقويم وأهميته ، وعِدَّة الشُّهور ، والشَّهْر الحَرَام ، الذي يَمتاز بالعَظَمَة والتَّقدير والاحترام في الجاهلية والإسلام ، ولا يجوز انتهاك حُرمته . ثُمَّ يأتي توضيح الأشهر المعلومات ، وشَهْر رَمَضَان الفضيل الذي أُنزِل فيه القُرآن الكريم . ولا يَخفَى أن صِيام رَمَضَان مِن أركان الإسلام ، ومِن المَعلوم مِن الدِّين بالضَّرورة . ونَختم كلامنا في هذا المَبحَث بالحديث عن اليَوم عِند اللَّه تعالى ، فهذا اليَوم الإلهيُّ يَختلف عَن اليَوم المعروف عِند الناس في الدُّنيا ، الذي هو فترة زمنية قياسية مُدَّته ٢٤ ساعة ، ومُكوَّن مِن الليل والنهار ، اللذين يتعاقبان باستمرار دَوَرَان الأرض حَول مِحْوَرها .

ويَبْرُز موضوع المِلاحَة ، ودَورها المُهِم في تدعيم الاقتصاد ، ورَفْع شأن الفَرْد والجماعة ، ودَفْع عَجَلَة التَّقَدُّم والحضارة إلى الأمام .

ولا يُمكن تجاوز أهمية الفُنُون ، إذْ إنها تَملِك دَوْرًا مركزيًّا في الرُّقِيِّ الرُّوحي والمادي في المجتمع ، وكذلك البَلاغة والشِّعْر ، فالعربُ أُمَّة البيان والبَلاغة والفَصَاحة ، وتُعظِّم شُعَرَاءها ، وقد كان الشاعرُ العربي حامل لواء أمجاد القبيلة ، ولسانها الناطق ، وسَيفها القاطع ، والحامي لشرفها.

ونتطرَّق إلى بعض الحقائق العِلمية الواردة في القُرآن ، وأهمية دَعوة الإنسان إلى اكتشافها ، والوقوف على حقيقتها ، لمعرفة الخالق العظيم ، والصانع البديع ، الذي أتقنَ كُلَّ شَيء . فالمخلوق يدلُّ عل الخالق ، والمصنوع يدلُّ على الصانع . وهذه الحقائقُ العِلمية مُتنوِّعة ، وذات علاقة وثيقة بالإنسان ، الذي يُعْتَبَر خليفة اللَّه في الأرض ، والحارس الأمين للكائنات الحَيَّة والطبيعة . والإنسانُ هو مركز الكَون ، والعُنصر الأساسي في نظام الوُجُود القائم على الحِكمة والمصلحة ، والبعيد كُل البُعد عن العَبَث والصُّدفة .

واللَّهَ أسألُ أن يكون هذا الكِتابُ حُجَّةً لي لا حُجَّة عَلَيَّ ، وأن يَنفع به الناسَ في كُل زمان ومكان . وإنْ وَجَدْتَ عزيزي القارئ في الكِتاب خَيْرًا ، فهو مِن اللَّه وَحْدَه ، وإنْ وَجَدْتَ غَيْرَ ذلك فَمِن نَفْسِي والشَّيطانِ ، وعُذري أنَّني قد حاولتُ ، ولي شَرَف المُحَاوَلَة . ولا شَكَّ أنَّ الإنسان مَحصور في دائرة الخطأ والنِّسيان والضَّعْف والعَجْز والنَّقْص ، والكَمَالُ للَّهِ وَحْدَه . والحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِين أوَّلًا وآخِرًا ، دائمًا وأبدًا .

إبراهيم أبو عواد

١ـ فَضْل العِلْم والعُلَماء

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي أنزلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فأمَّا الذينَ في قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تشابهَ مِنْهُ ابتغاءَ الفِتنةِ وابتغاءَ تأويلِهِ وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللَّهُ والرَّاسخونَ في العِلْمِ يقولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ ربِّنا وما يَذَّكَّرُ إلا أُولُو الألبابِ ﴾ [آل عِمران : ٧] .

إنَّ اللَّه أنزلَ على النبيِّ مُحمَّد ﷺ القُرآنَ، مِنهُ آياتٌ واضحاتُ المعنى ، ظاهراتُ الدَّلالة . أُحْكِمَتْ بالتَّفصيل والتَّوضيح والبيان ، حُجَجُها ساطعة ، وأحكامُهُا واضحة ، لا لَبْسَ فِيها ، ولا خَفاء، كآياتِ الحلال والحرام، والوَعد والوعيد، والثواب والعِقاب . وهذه الآياتُ الواضحة هي أساسُ القُرآنِ وأصْلُه [١] . وسُمِّيَت هذه الآياتُ مُحْكَمات [٢]، مِنَ الإحكام ، فقد أحْكَمَها اللَّه ، وليس للناس تصرُّفٌ فيها بسبب وضوح ألفاظها ، وظُهور مَعناها ، وهي مَحفوظة من الاحتمال والاشتباه . واللَّهُ تعالى قال : ﴿ أُمُّ الكتابِ ﴾ ولَم يَقُلْ: أُمَّهات الكتاب، لأنَّ الآياتِ كُلَّها وَحدة واحدة ، يُصَدِّق بَعْضُها بَعْضًا ، وهي متكاملة لا متناقضة ، وكلامُ اللَّهِ واحدٌ ، لا تَفاوُت فِيه ، ولا تَضارُب ، ولا تعارُض .

---

١ قال الطبري في تفسيره (٣/ ١٧٠) : ((وإنما سَمَّاهُنَّ ﴿ أُمُّ الكتابِ ﴾ لأنهنَّ مُعظَم الكِتاب ، ومَوْضِع مَفْزَع (مَلْجَأ) أهله عند الحاجة إليه ، وكذلك تفعل العرب تُسمِّي الجامع مُعظمَ الشيء أُمًّا له ، فَتُسَمِّي راية القَوم التي تجمعهم في العساكر : أمُّهم ، والْمُدَبِّر مُعظَم أمرِ القرية والبلدة : أمُّها)) .

٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٥٠و٣٥١) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ مِنهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ ﴾ ، الْمُحْكَم الْمُتْقَن الْمُبَيَّن . وفي المراد به هاهنا ثمانية أقوال: أحدها أنه الناسخ ، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسُّدي في آخرين. والثاني أنه الحلال والحرام ، رُوِيَ عن ابن عباس ومجاهد. والثالث أنه ما عَلِمَ العلماءُ تأويلَه ، رُوِيَ عن جابر بن عبد اللَّه . والرابع أنه الذي لَمْ يُنْسَخْ ، قاله الضَّحاك. والخامس أنه ما لَمْ تتكرر ألفاظُه ، قاله ابن زَيد . والسادس أنه ما استقلَّ بنَفْسه ولَمْ يَحْتَجْ إلى بيان ، ذَكَره القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد. وقال الشافعي وابن الأنباري:هو ما لَمْ يَحتمل مِن التأويل إلا وَجْهًا واحدًا . والسابع أنه جميع القرآن غير الحروف الْمُقَطَّعة . والثامن أنه الأمر والنَّهْي ، والوعد والوعيد ، والحلال والحرام ، ذكر هذا والذي قَبْلَه القاضي أبو يعلى)) .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٦٠) : ((يُخبِر تعالى أنَّ في القرآن آياتٍ مُحْكَمات ، هُنَّ أُم الكتاب ، أي بَيِّنات ، واضحات الدَّلالة ، لا التباس فيها على أحد . ومِنهُ آيات أُخَر فيها اشتباه في الدَّلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فَمَن رَدَّ ما اشتبهَ إلى الواضح مِنه ، وحَكَّمَ مُحْكَمَه على مُتشابِهِه عِندَه ، فقد اهتدى ، وَمَن عكس انعكس)) .

وعن عبد اللَّه بن خَلِيفة قال: سَمِعْتُ ابن عباس ــ رضي اللَّه عنهما ــ يقول: ((إنَّ في الأنعام آياتٍ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الكتاب)) ، ثُمَّ قرأ: ((﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عَلَيْكُم ﴾ الآية)) [٣].

﴿وأُخَرُ مُتشابِهاتٌ﴾ [٤]. في القُرآنِ آيَاتٌ أُخَر تَحتمل وُجوهًا مُتعدِّدة بسبب اشتباه دَلالتها.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٧) : ((مُحْتَمَلات لا يتَّضح مَقصودها ــ لإجمالٍ أو مُخالَفةِ الظاهر ــ إلا بالفحص والنظر ، ليظهر فيها فضلُ العلماء ، ويزداد حِرْصُهم على أن يجتهدوا في تَدَبُّرها ، وتحصيل العُلوم المُتوقِّف عليها استنباط المُراد بها، فينالوا بها ــ وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها والتوفيق لِمَا بَيْنَها وبين المُحْكَمات ــ معالي الدَّرَجَات)) .

والسؤالُ الذي يَفرض نَفْسَه : لماذا اشتملَ القُرآنُ على المُحْكَم والمُتشابِه ؟ . وما فائدةُ المُتشابِه إذا عَلِمْنا أنَّ القُرآن نَزَل للبَيَان والتَّوضيح ؟ . لقد أراد اللَّهُ اختبارَ عِباده وتمييزهم ، فيتَّضح المُؤمن مِن المُنافق ، والعَالِم مِن الجاهل . ويتَّضح معنى إعجاز القُرآن وتَحَدِّيه للكافرين .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٥١ــ ٣٥٣) : ((فعنه أربعة أجوبة : أحدها أنَّه لَمَّا كان كلام العرب على ضَرْبَيْن أحدهما المُوجَز الذي لا يَخفى على سامعه، ولا يَحتمل غَير ظاهره، والثاني المَجَاز والكِنايات والإشارات والتَّلويحات ، وهذا الضَّرْب الثاني هو المُسْتَحْلَى عند العرب والبديع في كلامهم، أنزلَ اللَّهُ تعالى القُرآنَ على هَذين الضَّرْبَيْن ، ليتحقق عَجْزُهم عن الإتيان

---

٣ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٧) برقم (٣٢٣٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٥١) : ((وفي الْمُتشابِه سبعة أقوال: أحدها أنه المنسوخ ، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسُّدي في آخرين. والثاني أنه ما لَم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل كقِيام الساعة، رُوِيَ عن جابر بن عبد اللَّه . والثالث أنه الحروف الْمُقَطَّعة كَقَوْلِه : ﴿ الم ﴾ ونَحْو ذلك، قاله ابن عباس. والرابع أنه ما اشتبهت معانيه، قاله مجاهد . والخامس أنه ما تكرَّرت ألفاظُه ، قاله ابن زيد. والسادس أنه ما احتمل من التأويل وُجُوهًا.وقال ابن الأنباري : الْمُحْكَم ما لا يحتمل التأويلات ولا يخفى على مُمَيِّز ، والْمُتشابِه الذي تعتوره تأويلات. والسابع أنه القَصَص والأمثال، ذَكَره القاضي أبو يعلى)).

بِمِثْلِه فكأنه قال : عَارِضوه بأيِّ الضَّرْبَيْن شِئْتُم ، وَلَوْ نَزَلَ كُلُّه مُحْكَمًا واضحًا لقالوا: هَلَّا نَزَلَ بالضَّرْب المُستحسَن عِندنا ، ومتى وقع في الكلام إشارة أو كِناية أو تعريض أو تشبيه كان أفصح وأغرب . والجواب الثاني أن اللَّه تعالى أنزله مُخْتَبِرًا به عبادَه ، ليقف المؤمن عنده، ويَرُدَّه إلى عَالِمه فَيَعْظُم بذلك ثوابُه ، ويَرتاب به المُنافق ، فَيُداخله الزَّيْغ فيَستحق بذلك العُقوبة كما ابتلاهم بنهر طالوت. والثالث أن اللَّه تعالى أراد أن يُشْغِل أهلَ العِلْم بِرَدِّهم المُتشابِه إلى المُحْكَم، فيَطُول بذلك فِكْرُهم ، ويتَّصل بالبحث عنه اهتمامُهم ، فَيُثابون على تعبهم ، كما يُثابون على سائر عباداتهم.ولوْ جَعل القرآنَ كُلَّه مُحْكَمًا لاستوى فيه العَالِم والجاهل، ولَم يُفَضَّل العَالِم على غَيْره، وَلَمَاتت الخواطر،وإنَّما تقع الفِكرة والحِيلة معَ الحاجة إلى الفَهْم.وقد قال الحُكَماء: عَيْبُ الغِنى أنه يُورِث البَلادةَ، وفَضْلُ الفقر أنه يَبعَث على الحِيلة، لأنه إذا احتاجَ احتالَ. والرابع أن أهل كُل صِناعة يَجعلون في علومهم معاني غامضة ومسائل دقيقة ، لِيُخْرِجُوا بها مَن يُعَلِّمون ويُمَرِّنوهم على انتزاع الجواب، لأنهم إذا قَدَرُوا على الغامض كانوا على الواضح أقْدَر، فلمَّا كان ذلك حَسَنًا عند العُلَماء جازَ أن يكون ما أنزل اللَّهُ تعالى مِن المُتشابِه على هذا النَّحْو. وهذه الأجوبة معنى ما ذَكَرَه ابن قُتَيبة وابن الأنباري)) .

﴿ فأمَّا الذينَ في قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تشابهَ مِنْهُ ابتغاءَ الفِتنةِ وابتغاءَ تأويلِهِ ﴾ .

الذين في قُلُوبهم مَيْلٌ عَن الحَق، أوْ هَوى مُتجذِّر، أوْ شَكٌّ راسخ ، يَتَّبعون الآياتِ المُتشابِهة فيُفسِّرونها حَسَبَ أهوائهم الباطلة ، وعُقولهم المريضة ، ومصالحهم الشخصية . فَهُم يتعلَّقون بالظاهر أو يتمسَّكون بتأويل باطل ، وذلك من أجل إشاعة الفِتنة في المُجتمع، وإثارة البَلبلة والاضطراب ، وتشكيكِ المُسلمين بدِينهم ، والتَّشويشِ على الشريعة الإسلامية ، والطَّعْن فِيها.

وهذا هو مَنهج المُنحرِفين في كُل زمان ومكان ، فهُم يَتَستَّرون بالعِلْم والتَّنوير وحريةِ التفكير والاجتهادِ، والجَهْلُ يَعْصِف بهم مِن كُل الجِهَات ، وسُوء النِّية يُسيطر على أفكارهم . وهؤلاء الجُهَّال الذين يَرْتَدُون ثِيابَ العلماء ، يَنطبق عليهم المَثَل المعروف : " تَزَبَّبَ قَبْلَ أن يَتَحَصْرَم " . والذينَ في قُلوبهم زَيْغٌ هُم الكُفَّار والمُنافقون والزَّنادقة وأصحاب البِدَع .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٥٣) : ((في هؤلاء القَوم أربعة أقوال : أحدها أنهم الخوارج ، قاله الحسن . والثاني المُنافقون ، قاله ابن جُرَيج . والثالث : وَفْد نَجْرَان مِن النَّصَارى ، قاله الربيع . والرابع : اليهود ، طلبوا معرفة بقاء هذه الأُمَّة مِن حِسَاب الجُمَّل ، قاله ابن السائب)) .

وعلى المَرء _ قَبل أن يَقرأ القُرآنَ _ أن يُنظِّف قلبَه من الأهواء والأفكار المُنحرِفة المُسبقة ، مِن أجل أن يَهبِط النُّورُ القُرآنِيُّ في قَلْبه، وسِوى ذلك فَسَوْفَ يكون القُرآنُ عَلَيه عَمى . فلا بُد مِن قلبٍ نظيف طاهر لكي يَقْدِر على تلقِّي النَّفَحَات الإيمانية . والنُّورُ الإلهيُّ لا يَهبِط في قلبٍ قَذِر. والخطايا تُنسِي الإنسانَ العِلْمَ ، ومَن أرادَ العِلْمَ والحِفْظَ فلا بُدَّ أن يَبتعد عَن الذُّنُوب . والنجاةُ تَكمُن في رَدِّ المُتشابِه إلى المُحْكَم ، والتَّوفيقِ بين معاني الآيات ، وليس ضَرْب القرآن بالقرآن .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٦٠) : ((﴿ فيتَّبعون ما تشابه مِنه ﴾ ، أي إنما يأخذون منه بالمُتَشَابِه الذي يُمكِّنهم أن يُحرِّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، ويُنْزِلوه عليها ، لاحتمال لَفْظه لِمَا يَصرفونه ، فأمَّا المُحْكَم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم، وحُجَّة عليهم، ولهذا قال اللَّهُ تعالى : ﴿ ابتغاءَ الفِتنة ﴾ ، أي الإضلال لأتْبَاعهم إيهامًا لهم أنهم يَحْتَجُّون على بِدْعتهم بالقُرآن، وهو حُجَّة عليهم لا لهم ، كما لو احتجَّ النَّصَارى بأن القُرآن قد نطق بأن عِيسى رُوحُ الله وكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مريم ورُوحٌ مِنه، وتركوا الاحتجاجَ بِقَوْله : ﴿ إنْ هُوَ إلا عَبْدٌ أنعَمْنا عَلَيْهِ ﴾ [الزُّخرُف: ٥٩])).

وعن عائشة _ رضي اللَّهُ عنها _ قالت : تلا رسول اللَّه ﷺ هذه الآية : ((﴿ هو الذي أَنزل عَلَيْكَ الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وأُخَر مُتشابِهات فأمَّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفِتنة وابتغاءَ تأويله ﴾)) ... . قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : ((فإذا رَأيتَ الذين يَتَّبعون ما تَشَابَهَ مِنه ، فأولئك الذين سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُم)) [٥].

الآياتُ المُحكَمات هي الواضحات لَفْظًا ومَعْنًى ودَلالةً ، والمَحفوظات مِن احتمال الاشتباه والتأويل . وهذه الآياتُ هي أساس القُرآن وأصْلُه . والآياتُ المُتشابِهات هي التي تَحتمل أكثر مِن مَعنى ، ولا بُد مِن النَّظَر فيها ودراستها بعُمق . والضَّالُّون المُضِلُّون يتَّبعون الآياتِ المُتشابِهة ، ويُفَسِّرونها حَسَب أهوائهم ومصالحهم ، مِن أجل إضلال الناس ، وإبعادهم عن دِينهم ، وإيقاعهم في الشُّكُوك والشُّبُهَات .

وقد حذَّر اللَّهُ الأُمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية مِن أهل الزَّيْغ والضَّلال الذين يتمسَّكون بالآيات المُتشابِهة ، ويَتركون الآيات المُحكَمة ، من أجل فِتنة الناس عن دِينهم. كما حذَّر النبيُّ ﷺ أُمَّته مِن هؤلاء الضَّالِّين المُضِلِّين ، وأخبرَ أنَّهُم هُم الذين وَصَفَهم اللَّهُ بقَوله : ﴿ فأمَّا الذينَ في قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تشابهَ مِنْهُ ﴾ ، أي : الذين في قُلوبهم شَك وهَوى وضلال وانحراف عن الحق ،

---

٥ متفق عليه. البخاري (٤/ ١٦٥٥) برقم (٤٢٧٣) ، ومسلم (٤/ ٢٠٥٣) برقم (٢٦٦٥) .

هُم الذين يتَّبعون الآياتِ المُتشابِهة ، ويَتركون الآياتِ المُحكَمة ، مِن أجل إضلال المؤمنين ، ونَشْر الفِتنة بَينهم ، وإبعادهم عن الهُدى والحَق والصَّوَاب .

وآياتُ القُرآن تَنقسِم إلى مُحْكَمَاتٍ(وهي الآيات التي يُعرَف تفسيرها بدِقَّة ، ودَلالتها واضحة ولا تحتمل إلا وَجْهًا واحدًا)، ومُتشابِهاتٍ (وهي الآيات التي لا يُعرَف تفسيرها بدِقَّة لأنها تَحتمل أكثر من وجه ، ودَلالتها غَير قَطعية). والواجبُ الإيمانُ بالقرآن الكريم كُلِّه ، فلا حُجَّة فيه لِمُبتدِع أو ضال. فكلامُ اللَّه لا يتناقض ، بل يُصدِّق بَعْضُه بعضًا ، ولا يَدحَض بعضُه بعضًا . وينبغي رَدُّ المُتشابِه إلى المُحْكَم ، للتخلُّص مِن التَّعارض الظاهري غَير الحقيقي الذي قد يَنشأ في الأذهان بسبب قُصُور الفَهْم ، والضَّعْفِ في مَعرفة دَلالات اللغة .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢١٠) : ((قَوْله : " فإذا رَأيتَ الذين يَتَّبعون ما تشابه مِنه " . قال الطبري : قِيل : إن هذه الآية نزلت في الذين جَادَلوا رسولَ اللَّه ﷺ في أمر عِيسى، وقِيل : في أمر مُدَّة هذه الأُمَّة. والثاني أَوْلَى، لأن أمر عيسى قَد بَيَّنه اللَّهُ لِنَبِيِّه فهو معلوم لأُمَّته بخلاف أمر هذه الأُمَّة، فإن عِلْمَه خَفِيَ عن العباد. وقال غَيْرُه: المُحْكَم مِن القُرآن ما وَضَحَ معناه ، والمُتشابِه نقيضه. وسُمِّيَ المُحْكَم بذلك ، لوُضوح مُفرَدات كلامه ، وإتقان تركيبه بِخِلاف المُتشابِه . وقِيل : المُحْكَم ما عُرِفَ المُراد مِنه إمَّا بالظُّهُور،وإمَّا بالتَّأويل.والمُتشابِه ما استأثر اللهُ بِعِلْمه كَقِيام الساعة، وخُروج الدَّجال، والحُرُوف المُقطَّعة في أوائل السُّوَر. وقِيل في تفسير المُحْكَم والمُتشابِه أقوال أخرى غَير هذه نَحْو العَشَرَة لَيس هذا مَوْضِع بَسْطها،وما ذَكَرْتُه أشهرها وأقربها إلى الصواب)).

وفي فتح القدير للشَّوكاني (١/ ١٧) : ((أخرجَ ابنُ سعد أن عَلِيًّا قال لابن عباس : اذهبْ إليهم ــ يعني الخوارج ــ ولا تُخاصِمْهم بالقُرآن فإنَّه ذُو وُجوه ، ولكنْ خَاصِمْهم بالسُّنَّة، فقال له : أنا أعْلَمُ بكتاب اللَّه مِنهُم ، فقال : صَدَقْتَ ، ولكنَّ القُرآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجوه)) .

ما قاله عليُّ بن أبي طالب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ حقيقةٌ واقعية ، فالقُرآنُ يُحمَل عليه كل تأويل فَيَحْتَمِلُه ، وهو ذُو مَعَانٍ مختلفة . لذلك مِن الصَّعْب مُناظرة الفِرَق الضَّالة كالخوارج والمُعتزلة والشِّيعة الروافض بالقُرآن الكريم، بسبب وجود تفاسير خاصَّة بهم للآيات القُرآنية ، وبسبب قُدرتهم على لَوْي أعناق الآيات ، وإخراجها مِن سياقها اللغوي والتاريخي ، وتجريدها مِن أسباب النُّزول ، ووَضْعها في غَير مَوْضِعها . أمَّا مُخاصمتهم بالسُّنَّة ، فَسَوْفَ تَكشِف باطلَهم ، لأنَّها لا تَحتمل الوُجُوهَ والتَّأويلات والاحتمالات . ولا شَكَّ أن السُّنَّة هي تطبيقٌ عملي للآياتِ القُرآنية ، وترجمةٌ لها إلى واقع مَحسوس .

والإنسانُ إذا اختلطتْ عليه الأمور، فليرجعْ إلى العُلَماء الثِّقات، المَعروفين بالتَّدَيُّن العميقِ، والعِلْم الواسع ، فليسألهم عن القضايا التي تَشْغَل بالَه ، وَلْيَقْطَع الشَّكَّ باليَقين كي يرتاح ضميرُه ، وتهدأ نَفْسُه ، ويطمئن قَلْبُه ، وَلْيَدَعْ ما يَشُكُّ فِيه إلى ما لا يَشُكُّ فيه ، كما قال رسول اللَّه ﷺ : ((دَعْ مَا يُرِيبُكَ إلى ما لا يُرِيبُكَ ، فإنَّ الخَيْرَ طُمَأنينة ، وإنَّ الشَّرَّ رِيبَة)) [٦].

اترُك الشَّيْءَ الذي تَشُكُّ فِيه ، إلى الشَّيْء الذي لا تَشُكُّ فِيه ، فإنَّ الخَير ترتاح إلَيه النُّفُوس ، وتطمئن به القُلوب . والشَّرُّ ترتاب بِه النُّفُوس ، ولا تطمئن إلَيه القُلوب . وهذا يدلُّ على أهمية الرُّجُوع إلى القلب عِند الاشتباه والشُّعور بالقلق ، لأنَّ قَلْب المؤمن دليله إلى الخَير والحق .

والحديثُ يُوضِّح أهمية الطُّمَأنينة واليقين والثبات على الحق ، وضرورة الابتعاد عن الشُّكُوك والشُّبُهات والوساوس والقلق . وينبغي أن يَترك المُؤمنُ الأُمُورَ التي يَشُكُّ فيها ، ولا يطمئن إلَيها، إلى الأُمُور التي لا يَشُكُّ فِيها ، ويطمئن إلَيها ، فإنَّ الشَّكَّ يُفسِد الدِّينَ ، أمَّا اليَقِين فيُقوِّيه .

وفي فَيض القدير (٣/ ٤٢٤) : ((فَمَا اطمأنَّ إليه القَلْب ، فهو بالحلال أشبَه ، وما نَفَرَ عنه فهو بالحرام أشبَه . قال الحكيم: هذا عِند المُحقِّقين المَوصوفين بطَهَارة القُلُوب ونُور اليَقين ، فأُولئك هُم أهل هذه الرُّتبة ، أمَّا العَوَام والعُلَماء الذين غُذُّوا بالحَرَام ، فلا التفات إلى ما تطمئن إليه قلوبهم المُحجَّبة بِحُجُب الظُّلُمَات)) .

وفي المرجع السابق (٣/ ٥٢٨) : (((دَعْ ما يُريبك) أي يُوقعك في الشَّك . والأمر للنَّدْب لِمَا أن تَوَقِّي الشُّبُهَات مَندوب لا واجب ، على الأصح (إلى ما لا يُريبك) أي اترُك ما تَشُكُّ فِيه مِن الشُّبُهَات ، واعْدِلْ إلى ما لا تَشُكُّ فِيه مِن الحَلال البَيِّن ، لِمَا سَبَقَ أنَّ مَن اتَّقَى الشُّبُهَات فقد استبرأ لِعِرْضه ودِينه . قال القاضي : ... . والمَعنى أنَّ مَن أُشْكِلَ عليه شَيء والتبس، ولَم يتبيَّن أنَّه مِن أيِّ القَبِيلَيْن هُوَ ، فليتأمَّل فيه إنْ كان مِن أهل الاجتهاد ، ويَسأل المُجتهدين إنْ كان مِن المُقلِّدين ، فإنْ وَجَدَ ما يَسْكُن إلَيه نَفْسُه ، ويطمئن به قَلْبُه ، ويَنشرح صَدْرُه ، فليأخذ به ، وإلا فَلْيَدَعْهُ ، وَلْيَأخُذ بما لا شُبهة فيه ولا رِيبة ، هذا طريق الوَرَع والاحتياط)) .

وفي المرجع السابق (٣/ ٥٢٩) : (((دَعْ ما يُريبك) أي اترُك ما تَشُكُّ في كَونه حَسَنًا أو قبيحًا أو حلالًا أو حرامًا (إلى ما لا يُريبك) أي : واعْدِلْ إلى ما لا شَكَّ فيه ، يعني : ما تَيَقَّنْتَ حُسْنَه وحِلَّه (فإنَّ الصِّدْق طُمَأنينة) أي : يَطمئن إليه القَلْبُ ويَسْكُن . وفيه إضمار ، أي: مَحَل

---

٦ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ١٥) برقم (٢١٦٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

طُمَأنينة أو سبب طُمَأنينة (وإنَّ الكَذِب رِيبة) أي: يُقلِق القَلْبَ ويضطرب . وقال الطيبي : ... إذا وَجَدْتَ نَفْسَكَ ترتاب في الشَّيء فاتركه ، فإنَّ نَفْس المُؤمن تطمئن إلى الصِّدق ، وترتاب مِن الكَذِب، فارتيابك مِن الشَّيء مُنبِئ عن كونه مَظِنَّة للباطل فَاحْذَره. وطُمَأنينتك للشَّيء مُشعِر بحقيقته ، فَتَمَسَّكْ به. والصِّدْقُ والكَذِبُ يُسْتَعْمَلان في المَقَال والأفعال وما يَحِق أو يَبطُل مِن الاعتقاد ، وهذا مَخصوص بِذَوِي النُّفُوس الشَّريفة القُدْسِيَّة المُطهَّرة عَن دَنَس الذُّنُوب ، ووَسَخ العُيُوب . اهـ . والحاصل أنَّ الصِّدْق إذا مَازَجَ قَلْبَ الكامل امتزجَ نُورُه بنُور الإيمان ، فاطمأنَّ ، وانطفأ سِرَاجُ الكَذِب ، فإنَّ الكَذِب ظُلْمَة ، والظُّلْمَة لا تُمَازِج النُّورَ)) .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٨١٤) : عن سعيد بن جُبَير قال : قال رَجُل لابن عباس : إنِّي أَجِدُ في القُرآن أشياءَ تختلف عَلَيَّ. قال: ﴿ فلا أنسابَ بَيْنَهم يَوْمَئذٍ ولا يَتساءلون ﴾ [المؤمنون : ١٠١]. ﴿ وأقْبَلَ بَعْضُهم على بَعْضٍ يَتساءلون ﴾ [الصَّافَّات: ٢٧] . ﴿ ولا يَكْتُمونَ اللَّهَ حَديثًا ﴾ [النِّساء : ٤٢]. ﴿ واللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشرِكين ﴾ [الأنعام : ٢٣]، فقد كَتَموا هذه الآية . وقال : ﴿ أَمِ السماءُ بناها (٢٧) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (٢٨) وأغطَشَ لَيْلَها وأخْرَجَ ضُحاها (٢٩) والأرضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاها (٣٠) ﴾ [النَّازعات] . فَذَكَرَ خَلْقَ السماء قَبْلَ خَلْق الأرض، ثُمَّ قال : ﴿ أئِنَّكم لَتَكْفرونَ بالذي خَلَقَ الأرضَ في يَوْمَيْنِ ﴾ إلى قَوْله: ﴿ طائعين ﴾ [فُصِّلَتْ : ٩_ ١١] . فَذَكَرَ في هذه خَلْقَ الأرض قَبْل السماء . وقال : ﴿ وكانَ اللَّهُ غَفورًا رَحيمًا ﴾ [النِّساء : ٩٦] . ﴿ عَزيزًا حَكيمًا ﴾ [النِّساء : ٥٦] . ﴿ سَميعًا بَصيرًا ﴾ [النِّساء : ٥٨] . فكأنَّه كان ثُمَّ مضى . فقال _ يعني ابن عباس _ : ((﴿ فلا أنسابَ بَيْنَهم ﴾ في النَّفْخَة الأُولَى، ثم يُنفَخ في الصُّور ﴿ فَصَعِقَ مَن في السماواتِ وَمَن في الأرضِ إلا مَن شاءَ اللَّهُ ﴾ [الزُّمَر : ٦٨]. فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثُمَّ في النَّفْخَة الآخِرة : ﴿ أقْبَلَ بَعْضُهم على بَعْضٍ يَتساءلون ﴾ . وأمَّا قَوْله: ﴿ ما كُنَّا مُشرِكين ﴾ ، ﴿ ولا يَكْتُمونَ اللَّهَ حَديثًا ﴾ ، فإن اللَّه يَغفِر لأهل الإخلاص ذُنُوبَهم ، فقال المُشركون : تَعَالَوْا نقول : لَم نَكُنْ مُشرِكين ، فَخُتِمَ على أفواههم ، فتَنطِق أيديهم ، فعِند ذلك عُرِفَ أن اللَّه لا يُكتَم حديثًا، وعِندَه : ﴿ يَوَدُّ الذينَ كَفَروا ﴾ الآية . وخَلَقَ الأرضَ في يَوْمَيْن ثُمَّ خَلَقَ السماءَ ، ثُمَّ استوى إلى السماء ، فَسَوَّاهُنَّ في يَوْمَيْن آخَرَيْن ، ثُمَّ دحا الأرض ، ودَحْوُها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخَلَقَ الجبالَ والجِمال والآكام وما بينهما في يومَيْن آخرَيْن، فذلك قَوْله : ﴿ دحاها ﴾. وقَوْلُه: ﴿ خَلَقَ الأرضَ في يَوْمَيْنِ ﴾ ، فَجُعِلَت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلِقَت السماوات في يَوْمَيْن .﴿ وكانَ اللَّهُ غَفورًا رَحيمًا ﴾ ، سَمَّى نَفْسَه بذلك ، وذلك

قَوْله . أي : لَم يَزَلْ كذلك ، فإن اللَّه لَم يُرِدْ شيئًا إلا أصابَ به الذي أراد ، فلا يَختلِف عَلَيك القُرآن ، فإنَّ كُلًّا مِن عِند اللَّه)) .

إن جَوَاب العَالِم الرَّبَّانِيِّ المُتمكِّن يُزيل الشُّبُهَات والشُّكُوك ، ويُرِيح النُّفُوس ، ويَغسِل القُلوب. وعلى المَرء أن يُؤمن بمَبدأ التَّوفيق بين آياتِ القُرآن ، لأن آياتِ القُرآن حَقٌّ وصِدْق وخَيْرٌ ، والحقُّ لا يُعارِض الحقَّ ، والصِّدْق لا يُناقض الصِّدْقَ ، والخَيرُ لا يَتصادم مَعَ الخَير . وفي هذا السِّياق يَبْرُز سُؤال في غاية الأهمية : كَيف يُمكن التَّوفيق بين هاتَيْن الآيتَيْن : ﴿ كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ﴾[هُود : ١]. فالآيةُ تَذكُر أن القُرآنَ كتابٌ مُحكَم ، و﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ كِتابًا مُتشابِهًا ﴾ [الزُّمَر : ٢٣]. وهذه الآية تَذكُر أنَّ القُرآنَ كتابٌ مُتشابِه ؟ .

في الحقيقة لا تعارُض بين الآيتَيْن ، لأن كُل آية لها معنى خاص بها ، ولها سِياق مُحدَّد .

﴿ كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ﴾ . يَعني أنَّه كاملٌ لا نَقْص فِيه ولا عَيْب. ألفاظُه قوية، ومعانيه راقية. أمَّا قَوْلُه تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ كِتابًا مُتشابِهًا ﴾ . فالمعنى : اللَّهُ نَزَّلَ القُرآنَ (أحسنَ الكلام) ، يُشبِه بَعْضُه بَعْضًا في الحُسْن والفَصَاحة والبَلاغة والبَيَان والتَّأثير .

﴿ وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللَّهُ والرَّاسخونَ في العِلْمِ يقولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ ربِّنا وما يَذَّكَّرُ إلا أُولُو الألبابِ ﴾ . وما يَعلَم تفسيرَ المُتشابِه إلا اللَّهُ وَحْدَه. والعُلماءُ المُخْلِصون الأثبات المُتمكِّنون يَقولون : آمَنَّا بالمُتشابِه لأنَّه حَقٌّ وصِدْق مِن عِند اللَّه ، وهو وَحْدَه يَعلَم معناه. وكُلٌّ مِنَ المُتشابِه والمُحكَم مِن عِند اللَّه تعالى ، وكلامُ اللَّهِ كُلُّه حَق ، ليس فيه تعارُض ولا تناقض . وما يَذَّكَّرُ إلا أصحابُ العُقول النَّيِّرة ، والأذهان الصافية . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٧) : ((﴿ وما يَذَّكَّرُ إلا أُولو الألبابِ ﴾ . مَدْحٌ للراسخين بِجَودة الذِّهن ، وحُسن النَّظَر . وإشارة إلى ما اسْتَعَدُّوا به للاهتداء إلى تأويله ، وهو تجرُّد العَقْل مِن غَواشي الحِس)) .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ المُتشابِه في الآيةِ إذا كان وَقْت القِيامة ، فاللَّهُ وَحْدَه يَعلَمه . أمَّا إذا كان المَقصودُ بالمُتشابِه أمورًا لَيْسَتْ غَيْبِيَّةً . فاللَّهُ يَعلَمها ، والعُلَماءُ الثابتون المُتمكِّنون يَعلَمونها ، ولا تَخفَى عَلَيهم . فَمِنَ المُحال أن يُخاطِب اللَّهُ عِبادَه بما لا يَعرِفه أحَدٌ مِنَ الخَلْق .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢١٨) : ((واختلف العلماء في الراسخين في العِلْم، هل يَعلَمون تأويلَ المُتشابِه ، وتكون الواو في ﴿ والراسخون ﴾ عاطفة ، أم لا ويكون الوقف على ﴿ وما يعلم تأويله إلا اللَّه ﴾ ، ثم يبدأ قوله تعالى: ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾ ؟ . وكُل واحد مِنَ القَوْلَيْن مُحتمَل واختاره طوائف.والأصح الأول، وإنَّ الراسخين يَعلَمونه

لأنَّه يَبْعُد أن يُخاطِب اللَّهُ عِبادَه بما لا سبيل لأحد مِن الخَلْق إلى مَعرفته . وقد اتفق أصحابنا وغَيرهم مِن المُحقِّقين على أنَّه يَستحيل أن يتكلَّم اللَّه تعالى بما لا يُفيد ، واللَّه أعلم)) .

وعن طاوس قال : قرأ ابن عباس : ﴿ وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللَّهُ والرَّاسخونَ في العِلْمِ ﴾ ، فقال : ((كُنَّا نَحفَظ الحديث، والحديث يُحفَظ عن رسول اللَّه ﷺ ، حَتَّى رَكِبْتُمُ الصَّعْبَ والذَّلُولَ)) [٧].

المعنى: كُنَّا نأخذ الحديثَ النبويَّ مِن الناس لِعِلْمنا بِصِدْقهم، ونَحفظه، ونعتني به أشدَّ العناية، والحديثُ جديرٌ وحَقِيق أن يُعْتَنَى به لِسُمُوِّ مكانته ، وعظيمِ شأنه ، حَتَّى نَقَلْتُم الحَديثَ بلا إدراك ولا تحقيق . و" ركبتم الصَّعْبَ والذَّلُولَ " كِناية عن الإفراط والتَّفْريط في النَّقْل ، بحيث لَم يَعُدْ هناك مَعنى للاعتماد على نَقْلهم ، ولا فائدة مِن التَّعويل عَلَيه .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿شَهِدَ اللَّهُ أنَّهُ لا إلهَ إلا هُوَ والملائكةُ وأُولُو العِلْمِ قائمًا بالقِسْطِ لا إلهَ إلا هُوَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ [آل عِمران: ١٨] [٨]**. وضَّح اللَّهُ لعباده وبيَّن لهم أنَّهُ الإله وَحْدَهُ، لا شريك له ، المُنفرِد بالأُلوهية والوَحدانية ، ولا مَعبود بِحَق إلا هُوَ ، وذلك بإنزال الآيات ، وإظهار الدلائل**

---

٧ رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ١٩٦) برقم (٣٨٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٦١و٣٦٢) : ((سبب نزول هذه الآية أنَّ حَبْرَيْن مِن أحبار الشام قَدِمَا النبيَّ ﷺ ، فلمَّا أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصِفة مدينة النبيِّ الذي يخرج في آخر الزمان، فلمَّا دَخَلا على النبيِّ ﷺ عَرَفَاه بالصِّفة، فقالا: أنتَ محمَّد؟ قال : " نعم" ، قالا: وأحمد ؟، قال : " نعم"، قالا: نسألك عَن شَهَادة، فإن أخبرتنا بها آمَنَّا بِكَ وصَدَّقْناك ، فقال : "سَلاني"، فقالا: أخْبِرنا عن أعظم شَهَادة في كتاب الله، فنزلت هذه الآية، فأسلما. قاله ابن السائب . وقال غَيْرُه: هذه الآية رَد على نصارى نَجْران فِيما ادَّعَوْا في عِيسى عليه السلام... . وقال سعيد بن جُبَير: كان حَول الكعبة ثلاثمائة وسِتُّون صَنَمًا ، وكان لكُل حَي مِن العرب صَنَم أوْ صَنَمَان ، فلمَّا نزلت هذه الآية خَرَّت الأصنام سُجَّدًا . وفي معنى ﴿شَهِدَ اللَّهُ ﴾ قَولان : أحدهما أنَّه بمعنى قَضَى وحَكَمَ، قاله مجاهد والفَرَّاء وأبو عُبَيدة ، والثاني بمعنى بَيَّنَ ، قاله ثعلب والزَّجاج . قال ابن كَيسان: شَهِدَ اللَّهُ بتدبيره العجيب وأُموره الْمُحكَمات عِند خَلْقه أنَّه لا إلهَ إلا هُوَ . وسُئِلَ بعض الأعراب: ما الدليل على وجود الصانع؟. فقال: إن البَعْرة تدل على البَعِير، وآثار القَدَم تدل على المسير، فَهَيكل عُلوي بهذه اللطافة ، ومركز سُفلي بهذه الكثافة، أمَا يَدُلَّان على الصانع الخبير؟!. ﴿ قائمًا بالقِسْطِ ﴾ ، أي : بالعَدْل .قال جعفر الصادق: وإنما كرَّر ﴿ لا إلهَ إلا هُوَ ﴾ ،لأن الأُولَى وَصْف وتَوحيد.والثانية رَسْم وتعليم،أي:قولوا: لا إلهَ إلا هُوَ)).

والحُجَج والبراهين الدَّالَّة على تَوحيده . وشَهَادةُ اللَّه حَق وصِدق ، وكَفَى بِه شَهِيدًا ، واللَّه هو أصدق القائلين . وشُبِّهَت دَلالته عَلى وَحدانيته بشَهادة الشَّاهِد في البيان والتَّوضيح والكَشْف .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٤٤) : ((قَوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ ﴾ ، أي : بَيَّنَ وأعْلَمَ ، كما يُقَال : شَهِدَ فُلان عِند القاضي ، إذْ بَيَّنَ وأعْلَمَ لِمَن الحَق ، أوْ على مَن هُوَ . قال الزَّجاج : الشَّاهِدُ هُوَ الذي يَعْلَم الشَّيْءَ ويُبيِّنه ، فقد دَلَّنَا اللَّهُ تعالى عَلى وَحدانيته بِمَا خَلَقَ وَبَيَّنَ)) .

وشَهِدَت الملائكةُ والعُلَماءُ بأُلوهية اللَّه ووَحدانيته ، وهذا يعني الإقرار بتَوحيد اللَّه تعالى . وهذا تشريف عظيم للعُلَماء ، وخُصوصية لهم حيث عُطِفَت شَهَادتهم على شَهادة اللَّه وملائكته الكِرام _ عليهم السَّلام _ . ﴿ قائمًا بالقِسْطِ ﴾ ، قائمًا بالعَدْل في جميع أُموره ، وقائمًا بتدبير شُؤون الخَلْق وَفْق الحِكمة والاستقامة والمصلحة . وكَرَّر ﴿ لا إلهَ إلا هُوَ ﴾ للتَّأكيد ، والتَّنبيه على ضرورة معرفة أدلة التَّوحيد . واللَّهُ هُوَ العزيز في مُلْكه ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشَرْعه وصُنْعه وقضائه وقَدَره . وتقديم العزيز على الحكيم ، يعني أنَّ العِلْم بقُدرة اللَّه مُقدَّم على العِلْم بحِكمته . ومَن أدركَ آثارَ قُدرة اللَّه ، فَهِمَ حِكمته البالغة .

لقد بدأ اللَّهُ بنَفْسه المُقدَّسة ، وثَنَّى بملائكته الكِرَام الذين يُعاينون قُدرةَ اللَّه العظيمة ، وثَلَّثَ بالعُلَماء ، وهذا يدل على شرف العِلْم ، وفَضْل العُلَماء ، ومكانتهم العظيمة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٤٩٠) : ((قَوله : ﴿شَهِدَ اللَّهُ ﴾ ، أي : بَيَّنَ وأعْلَمَ . قال الزَّجاج : الشَّاهِد هُوَ الذي يَعْلَم الشيء ويُبيِّنه ، فقد دَلَّنَا على وَحدانيته بما خَلَقَ وبَيَّنَ . وقال أبو عُبَيدة : شَهِدَ اللَّهُ ، بمعنى قَضَى ، أي : أعْلَمَ . قال ابن عطية : وهذا مَردود مِن جِهات . وقِيل: إنَّها شُبِّهَتْ دَلالته عَلى وَحدانيته بأفعاله ووَحْيه بشَهَادة الشَّاهِد في كَونها مُبيِّنة ... . ﴿ والملائكةُ ﴾ عطف على الاسم الشريف، وشهادتهم إقرارهم بأنَّه لا إله إلا اللَّه . وقَوله: ﴿ وأُولُو العِلْمِ ﴾ مَعطوف أيضًا على ما قَبْلَه ، وشهادتهم بمعنى الإيمان مِنهُم ، وما يقع مِن البَيَان للناس على ألسنتهم . وعلى هذا لا بُدَّ مِن حَمْل الشَّهَادة على معنى يَشمَل شَهَادَةَ اللَّه، وشهادةَ الملائكة وأُولِي العِلْم . وقد اخْتُلِفَ في أُولِي العِلْم هؤلاء ، مَن هُم ؟ ، فقِيل : هُم الأنبياء ، وقِيل : المُهاجرون والأنصار ، قاله ابن كَيسان . وقِيل : مُؤمنو أهل الكتاب ، قاله مُقاتل . وقِيل: المؤمنون كُلُّهُم ، قاله السُّدي والكلبي ، وهو الحق إذْ لا وجه للتخصيص . وفي ذلك فضيلة لأهل العِلْم جليلة، ومَنقَبة نبيلة، لقُربهم باسمه واسم ملائكته . والمُراد بأُولِي العِلْم هُنا عُلَماء الكِتاب والسُّنَّة ، وما يُتَوَصَّل به إلى معرفتهما ، إذْ لا اعتداد بعِلْم لا مَدخَل له في العِلْم الذي اشتمل عليه الكِتاب

العزيز والسُّنَّة المُطهَّرة . وقَوله : ﴿ قائمًا بالقِسْطِ ﴾ ، أي العَدْل ، أي : قَائِمًا بالعَدْل في جَميع أُمُوره ، أوْ مُقِيمًا له . وانتصاب ﴿ قائمًا ﴾ على الحال مِن الاسم الشَّريف . قال في الكَشَّاف : إنها حال مُؤكِّدة . وجازَ إفراده سُبحانَه بذلك دُون ما هو مَعطوف عليه من الملائكة وأُولِي العِلْم لعدم اللبس . وقِيل : إنَّه منصوب على المَدح . وقِيل : إنَّه صِفَة لِقَوله : ﴿ إله ﴾ ، أي : لا إله قائمًا بالقِسْط إلا هُوَ ، أوْ هو حال مِن قَوله : ﴿ إلا هُوَ ﴾ ، والعامل فيه مَعنى الجُملة ، ... . ﴿ لا إلهَ إلا هُوَ ﴾ تكرير لقَصد التأكيد . وقِيل : إنَّ قَوله : ﴿ أنَّهُ لا إلهَ إلا هُوَ ﴾ كالدَّعوى ، والأخيرة كالحُكم . وقال جعفر الصادق : الأُولَى وَصْف وتَوحيد ، والثانية رَسْم وتعليم . وقَوله : ﴿العزيزُ الحكيمُ ﴾ مُرْتَفِعَان على البَدَلِيَّة مِن الضَّمير ، أو الوَصْفِيَّة لفاعل شَهِدَ ، لتَقرير معنى الوَحدانية)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٤٤) : ((وقد قِيل : إنَّ المُراد بأُولِي العِلْم الأنبياء عليهم السَّلام . وقال ابن كَيسان : المُهاجرون والأنصار. مُقاتل: مُؤمنو أهل الكِتاب. السُّدي والكلبي : المُؤمنون كُلهم ، وهو الأظهر لأنه عام . في هذا الآية دليل على فَضْل العِلْم وشَرَف العُلَماء وفَضْلهم ، فإنَّه لَوْ كان أحدٌ أشرفَ مِن العُلَماء لَقَرَنَهُم اللَّهُ باسمه ، واسم ملائكته ، كَمَا قَرَنَ اسمَ العُلَماء . وقال في شَرَف العِلْم لِنَبِيِّه ﷺ : ﴿ وقُل رَبِّ زِدْني عِلْمًا ﴾[طه : ١١٤]، فَلَوْ كان شيء أشرف مِن العِلْم لأمَرَ اللَّهُ تعالى نَبِيَّه ﷺ أن يَسأله المَزِيدَ مِنه ، كما أمَرَ أن يَستزيده مِن العِلْم. وقال ﷺ : " إنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنبياء " [٩]، وقال : " العُلَمَاءُ أُمَنَاءُ اللَّه عَلى خَلْقِه " [١٠]. وهذا شَرَف للعُلَماء عظيم ، ومَحَل لهم في الدِّين خَطِير)) .

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٢/ ١٥) : ((مِن أطْرَف ما قَرَأتُ في بيان فَضْل العِلْم تِلك المُحاوَرة اللطيفة بين العَقْل والعِلْم حيث يَقول القائل وقد أبدعَ وأجادَ :

---

٩ قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٣): ((حديث: " العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأنبياء ". أخرجه أبو داود والتِّرمذي وابن ماجة وابن حِبَّان في صحيحه مِن حديث أبي الدَّرداء)) اهـ. وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٤/ ٣٨٤): (((العُلَماء وَرَثة الأنبياء) لأن الميراث يَنتقل إلى الأقرب ، وأقرب الأُمَّة في نِسبة الدِّين = =العُلَماء ، الذين أعْرَضُوا عَن الدُّنيا ، وأقْبَلُوا على الآخِرة ، وكانوا للأُمَّة بَدَلًا مِن الأنبياء الذين فازوا بالحُسْنَيَيْن : العِلْم والعَمَل ، وحازوا الفَضِيلَتَيْن : الكَمَال والتَّكميل)) .

١٠ في كشف الخفاء (٢/ ٧٤٠) : ((رواه العُقَيلي في الضُّعَفاء . وقال العامري : حَسَن)) .

عِلْمُ العَلِيمِ وَعَقْلُ العَاقِلِ اختلفا مَن ذا الذي مِنهما قد أحرزَ الشَّرَفا
فالعِلْمُ قالَ : أنا أحْرَزْتُ غَايَتَهُ والعَقْلُ قالَ : أنا الرَّحمن بي عُرِفَا
فأفصحَ العِلْمُ إفصاحًا وقال له بأيِّنا اللَّه في فُرقانه اتَّصَفا
فَبَانَ للعَقْلِ أنَّ العِلْمَ سَيِّدُهُ فَقَبَّلَ العَقْلُ رَأسَ العِلْمِ وانصَرَفا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذا جاءهُم أمرٌ مِنَ الأمنِ أوِ الخَوْفِ أذاعوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وإلى أُولي الأمرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النِّساء : ٨٣] .

يجب على المَرء أن يتحقَّق مِن الأخبار ، ويتثبَّت مِنهَا ، هل هي صحيحة أَم غَير صحيحة ؟ ، كما يجب عليه أن يُفَكِّر في حَال تأكُّده مِن صِحَّتها ، هل المصلحة في نَشْرها أَم في كِتمانها ؟ .

كان المُنافقون أو ضُعَفاء المؤمنين إذا جاءهم خَبَر عَن المؤمنين بالنَّصْر أو الهزيمة، أفْشَوْهُ، ونَشَرُوه، وتَحَدَّثوا به ، قبل أن يُدرِكوا ماهيته ، ويَعرِفوا حقيقته ، فَتَضعُف قُلوب المؤمنين ، وَلَوْ أرْجَعُوا الخَبَرَ إلى النبيِّ ﷺ ، وإلى أكابر الصَّحابة (عُلَماء الصَّحابة أصحاب العُقول الراجحة والفِكر السليم والنظر العميق) ، لَعَلِمَه الذين يَستخرجونه مِن النبيِّ ﷺ وأُولي الأمر . والاستنباطُ في اللغة الاستخراج . وهو يدلُّ على الاجتهاد في حال عَدم وُجود نَص وغِياب الإجماع .

والآيةُ تُشير بوُضوح إلى أهمية العُلَماء (أصحاب الرَّأي والعِلْم والتَّجَارُب) القادرين على الاستنباط ، والتعامل مع القضايا الخطيرة بحِكمة وعَقلانية وحِنكة وذكاء .

وهذه الفِئةُ المُنحرفة المَذكورة في الآية تتلقَّف الأخبارَ وتُذيعها دون تثبُّت ، فهي لا تعتمد على التحقُّق مِن الأنباء والأخبار لتقف على حقيقتها ، بَل تَنشُرها في كُل الجِهات دُون غَرْبلتها ، ولا تَدقيقها ، سَوَاءٌ بحُسْن نِيَّة (حالة ضُعَفاء المؤمنين)، أَمْ بسُوء نِيَّة (حالة المُنافقين). وهذا الأمرُ شديد الخُطورة ، ويُؤَثِّر سَلْبًا على وَحدة الصَّف الإسلاميِّ ، إذْ إنَّه يُعرِّض المُجتمعَ الإسلاميَّ للخَطَر الذي لا يُمكن توقُّع مَصدره . وإذاعةُ الأسرار الحربية مِن شأنه إضعاف قُلوب المؤمنين ، وإسقاط معنوياتهم ، وتحطيم قُوَّتهم، وتَشتيت جُهُودهم، وإحداث ثَغَرَات في صُفُوفهم، وهذا يُسهِّل دخولَ العدو ويُقوِّي مَوْقِفَه . وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٥٤): ((وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَبعَث السَّرَايا ، فإذا غَلبوا أو غُلبوا بَادَرَ المُنافقون يَستخبرون عَن حالهم، فَيُفْشُون ويُحدِّثون به قَبل أن يُحدِّث به رسول اللَّه ﷺ ، فيُضعِفون به قلوب المؤمنين)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٧٤١) : ((قَوله : ﴿ وإذا جاءهُم أمرٌ مِنَ الأمنِ أوِ الخَوْفِ أذاعوا بِهِ ﴾ . يُقَال : أذاعَ الشَّيْءَ ، وأذاعَ به : إذا أفْشَاه وأظهره . وهؤلاء هُم جَماعة مِن

ضَعَفَة المُسلمين ، كانوا إذا سَمِعُوا شيئًا مِن أمر المسلمين فيه أَمْن نَحْو ظَفَر المُسلمين ، وقَتْل عَدُوِّهم ، أوْ فِيه خَوف نَحْو هزيمة المسلمين وقَتْلهم ، أَفْشَوْهُ ، وهُم يَظُنون أنَّه لا شيء عليهم في ذلك. قَوله : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وإلى أُولي الأمرِ مِنْهُمْ ﴾ ، وهُم أهل العِلْم والعُقول الرَّاجحة الذين يَرجِعون إليهم في أُمُورهم ، أوْ هُم الوُلاة عَلَيهم ، ﴿ لَعَلِمَهُ الذينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ ، أي: يَستخرجونه بتدبيرهم وصِحَّة عُقُولهم.والمعنى:أنَّهُم لَوْ تَركوا الإذاعةَ للأخبار حَتَّى يكون النبيُّ ﷺ هو الذي يُذيعها ، أوْ يكون أُولِي الأمر مِنهُم هُم الذين يَتَوَلَّوْنَ ذلك ، لأنهم يَعْلَمون ما يَنبغي أن يُفْشَى ، وما يَنبغي أن يُكتَم . والاستنباط مَأخوذ مِن اسْتَنْبَطْتُ المَاءَ : إذا اسْتَخْرَجْتُهُ . والنَّبَط : المَاء المُسْتَنْبَط أوَّل ما يَخرُج مِن مَاء البِئر عَند حَفْرها . وقِيل : إنَّ هؤلاء الضَّعَفَة كانوا يَسْمَعُون إرجافات المُنافقين على المُسلمين ، فيُذيعونها ، فَتَحْصُل بذلك المَفْسَدَة)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٤٥و١٤٦ و١٤٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا جاءهُم أمرٌ مِنَ الأمنِ أوِ الخَوْفِ ﴾ ، في سَبَب نُزُولها قَولان : أحدهما أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا اعتزلَ نِساءه ، دَخل عُمَر المسجد، فسمع الناس يقولون : طَلَّقَ رسولُ اللَّه ﷺ نِساءه ، فَدَخل على النبيِّ عليه السلام ، فسأله : أَطَلَّقْتَ نِساءك ، قال : " لا " ، فَخَرَجَ فنادى ، ألا إنَّ رسول اللَّه لَم يُطلِّق نِساءه ، فنزلت هذه الآية ، فكان هو الذي استنبطَ الأمرَ . انفرد بإخراجه مُسلم من حديث ابن عَبَّاس عن عُمَر . والثاني أنَّ رسول اللَّه ﷺ كان إذا بَعَثَ سَرِيَّةً مِن السَّرايا فغَلبت أو غُلبت ، تَحَدَّثُوا بذلك وأَفْشَوْهُ ، وَلَم يَصبِروا حتى يكون النبيُّ هو المُتحدِّث به ، فنزلت هذه الآية . رواه أبو صالح عن ابن عَبَّاس . وفي المُشار إليهم بهذه الآية قَولان: أحدهما أنَّهُم المُنافقون ، قاله ابن عَبَّاس والجمهور . والثاني أهل النِّفاق وضَعَفَة المُسلمين ، ذَكَرَه الزَّجاج . وفي المُراد بالأمن أربعة أقوال:أحدها فَوْز السَّرِيَّة بالظَّفَر والغَنِيمة،وهو قَول الأكثرين. والثاني أنَّه الخَبَر يأتي إلى النبيِّ ﷺ أنَّه ظَاهِر على قَوم فَيَأمَن مِنهُم ، قاله الزَّجاج . والثالث أنَّه ما يَعزِم عَلَيه رسولُ اللَّه ﷺ مِن المُوَادَعَة والأمان لقَوم ، ذَكَرَه الماوردي . والرابع أنَّه الأمن يَأتي مِن المَأمَن ، وهو المدينة ، ذَكَرَه أبو سُلَيمان الدمشقي مُخرجًا مِن حديث عُمَر . وفي الخَوف ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه النَّكْبَة التي تُصيب السَّرِيَّةَ ، ذَكَرَه جماعة مِن المُفسِّرين . والثاني أنَّه الخَبَر يَأتي أنَّ قَوْمًا يَجْمَعُون للنبيِّ ﷺ ، فيَخاف مِنهم ، قاله الزَّجاج . والثالث ما يَعزِم عليه النبيُّ مِن الحرب والقِتال ، ذَكَرَه الماوردي . قَوله تعالى : ﴿ أذاعوا بِهِ ﴾ ، قال ابن قُتَيبة : أشاعوه . وقال ابن جرير : والهاء عائدة على الأمر . قَوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ ﴾ ، يعني : الأمر ﴿ إلى الرَّسُولِ ﴾ حَتَّى يَكُون هو المُخبِر به ، ﴿ وإلى

أُولي الأمرِ مِنْهُمْ ﴾ ، وفِيهم أربعة أقوال : أحدها أنَّهُم مِثْل أبي بَكْر وعُمَر وعُثمان وعليٍّ ، قاله ابن عباس . والثاني أنَّهُم أبو بَكْر وعُمَر ، قاله عِكرمة . والثالث العُلَماء ، قاله الحَسَن وقَتادة وابن جُرَيج . والرابع أُمَرَاء السَّرَايا ، قاله ابن زيد ومُقاتل . وفي الذين يَستنبطونه قَولان : أحدهما أنَّهُم الذين يَتَتَبَّعُونه مِن المُذيعين له ، قاله مُجاهد. والثاني أنَّهُم أُولُو الأمر ، قاله ابن زيد. والاستنباط في اللغة الاستخراج.قال الزَّجاج:أصْلُه مِن النَّبَط،وهو الماء الذي يُخرَج مِن البئر أوَّل ما تُحفَر... قال ابن جرير : ومعنى الآية : وإذا جاءهم خَبَر عَن سَرِيَّة للمُسلمين بِخَيْر أوْ بِشَر أَفْشَوْهُ ، وَلَوْ سَكتوا حَتَّى يَكون الرَّسُولُ وذَوُو الأمر يَتَوَلَّوْنَ الخَبَرَ عن ذلك ، فيُصحِّحوه إنْ كان صحيحًا ، أوْ يُبطِلوه إنْ كان باطلًا ، لَعَلِمَ حقيقة ذلك مَن يَبحث عَنه مِن أُولِي الأمر)) .

وفي صحيح مسلم (١/ ١٠) : عن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : ((كَفَى بالمَرْء كَذِبًا أن يُحدِّث بِكُلِّ ما سَمِعَ)) .

في مَجَال الأنباء والأخبار ، يجب على المَرء أن يَكون كالإسفنجة لا المِرْآة، بمعنى أن يَمْتَصَّ الخَبَرَ ويَفحصه ، فيَأخذ الخَيْرَ ، ويَترُك الشَّرَّ ، لا أن يَعكِس كُلَّ الأخبار التي تَصِله دون تحقُّق مِنها ولا تَثَبُّت، فَنَشْرُ الأخبار دُون فَحْصها وتدقيقها مِن شأنه تَفتيت التماسك الاجتماعي، وإشاعة البَلبلة والإشاعات والاضطرابات في المجتمع ، وهذا يُؤَدِّي إلى انهياره التَّدريجي أو المُفاجئ .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٢) : (((كَفَى بالمَرْء كَذِبًا أن يُحدِّث بِكُلِّ ما سَمِعَ) أي:إذا لَم يَتَثَبَّتْ، لأنَّه يَسمع عادةً الصِّدْقَ والكَذِبَ ، فإذا حَدَّثَ بكُل ما سَمِعَ، لا مَحالة يَكذِب. والكَذِب الإخبار عَن الشَّيء على غَير ما هو عليه ، وإنْ لَم يَتَعَمَّد ، لكن التَّعَمُّد شَرْط الإثم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأمثالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ وما يَعْقِلُها إلا العَالِمُون ﴾[العنكبوت: ٤٣].

وتِلك الأشباه يُوضِّحها اللَّهُ ويُبيِّنها في القُرآن لتقريب المعاني إلى أذهان الناس ، ما يَفهمها ويُدرِك معناها ودَلالتها وفائدتها إلا العُلَماء الرَّاسخون المُتدبِّرون الذين يتفكَّرون في الأشياء عَلى الوَجْه الصحيح ، ويَعقِلون عن اللَّه مُرَادَه . والعَالِمُ مَن عَقَلَ عَن اللَّه أمْرَه ونَهْيَه ، فعملَ الطاعات ، واجتنبَ المعاصي . والمَثَلُ : كلام سائر يتضمَّن تَشبيه الآخِر بالأوَّل .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٤٤) : ((وقَوله : ﴿ وَتِلْكَ الأمثالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ ﴾ . يَقول تعالى ذِكْرُه : وهذه الأمثال ، وهي الأشباه والنظائر ، نَضرِبها للناس . يقول : نُمثِّلها ونُشبِّهها ونَحتج بها للناس ﴿ وما يَعْقِلُها إلا العَالِمُون ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : وما يَعقِل أنَّه أُصيب بهذه الأمثال التي نَضرِبها للناس مِنهُم الصواب والحق فيما ضَرَبْتُ له مَثَلًا إلا العَالِمُون باللَّه وآياته)) .

وقال الحَكيم التِّرمذي في الأمثال مِن الكتاب والسُّنَّة (١/ ١٣و١٤) : ((اعْلَمْ بأنَّ ضَرْبَ الأمثال لِمَن غابَ عَن الأشياء ، وخَفِيَتْ عليه الأشياءُ ، فالعِباد يَحتاجون إلى ضَرْب الأمثال لِمَا خَفِيَت عليهم الأشياء ، فَضَرَبَ اللهُ لهم مَثَلًا مِن عِند أنفسهم ، لا مِن عِند نَفْسه ، لِيُدْرِكوا ما غابَ عَنهم ، فأمَّا مَن لا يَخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فلا يَحتاج إلى الأمثال، تعالى اللَّهُ عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا. فَلا جَرَمَ ما ضَرَبَ الأمثالَ مِن نَفْسه لِنَفْسه، وكَيف ، ولا مِثْل له ولا شَبيه له، فلذلك قال جَلَّ ذِكْرُه: ﴿ فَلا تَضرِبوا للَّهِ الأمثالَ ﴾ . فالأمثال نموذجات الحِكمة لِمَا غاب عن الأسماع والأبصار لِتَهديَ النُّفُوسَ بما أدركت عِيَانًا. فَمِن تدبير اللَّه لعباده أنْ ضَرَبَ لهم الأمثالَ مِن أنفسهم لحاجتهم إليها لِيَعْقِلُوا بها ، فَيُدْرِكوا ما غابَ عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة ، فَمَن عَقَلَ الأمثالَ سَمَّاه اللَّهُ تعالى في كِتابه عَالِمًا ، لِقَوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأمثالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ وما يَعْقِلُها إلا العَالِمُون ﴾)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ [فَاطِر : ٢٨] .

إنَّما يَخاف اللَّهَ ، ويَلتزم أوامرَه ، ويَجتنب نَواهيه ، العُلَمَاءُ ، لأنَّ لَدَيهم عِلْمًا ومعرفة ويقينًا بِقُدرة اللَّه على كُل شيء ، ومَن عَلِمَ ذَلك أيقنَ بِعَظَمَة العُقوبة الإلهية على الذنوب والمعاصي ، فخافَ مِنَ اللَّه ، واتَّقاه ، وأطاعه في كُل صغيرة وكبيرة ، تَعظيمًا للَّه ، وحُبًّا له ، وخَوْفًا مِن عَذابه . وكُلَّما ازدادت معرفةُ العبد باللَّه ، ازداد خَوْفُه مِنه . ومَن كَانَ عَالِمًا باللَّه وصِفاته المُقدَّسة ، ازدادَ تعظيمُه للَّه ، وخَشْيته ، والخَوف مِنه . وقَد حَصَرَ اللَّهُ الخَشْيَةَ في العُلَمَاء دُون غَيْرهم ، لأنهم العَالِمُون باللَّه وعَظَمَته وقُدرته ، المُوقِنُون بِقُدرته على كُل شيء ، وإرادته النافذة في كُل شيء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٨٦) : ((يعني : العُلَماء باللَّه عَزَّ وَجَلَّ . قال ابن عباس : يُريد إنَّما يَخافني مِن خَلْقي مَن عَلِمَ جَبروتي وعِزَّتي وسُلطاني . وقال مُجاهد والشَّعبي : العَالِمُ مَن خَافَ اللَّهَ . وقال الربيع بن أنس : مَن لَم يَخْشَ اللَّهَ فليس بعَالِم)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٢٩): ((أي : إنَّما يَخْشاه حَقَّ خَشْيته العُلماءُ العارفون به، لأنَّه كُلَّما كانت المعرفةُ للعظيم القدير العليم المَوصوف بصِفات الكمال المَنعوت بالأسماء الحُسنى ، كُلَّما كانت المعرفة به أتم ، والعِلْم به أكمل ، كانت الخَشْية له أعظم وأكثر . قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قَوله تعالى : ﴿ إنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ . قال: الذين يَعْلَمون أن اللَّه على كُل شيء قدير . وقال ابن لَهِيعة عن ابن أبي عَمْرَة عن عِكْرمة عن ابن عباس قال: العَالِمُ بالرحمن مِن عباده مَن لَم يُشْرِكْ به شيئًا، وأحلَّ حَلالَه ، وحرَّم حَرامَه ، وحَفِظَ وَصِيَّته ،

وأيقنَ أنه مُلاقيه، ومُحَاسَب بعمله. وقال سعيد بن جُبَير: الخَشْية هي التي تَحُول بينك وبين معصية اللَّه عَزَّ وَجَلَّ. وقال الحسن البصري: العَالِمُ مَن خَشِيَ الرَّحمنَ بالغَيب، ورَغِبَ فيما رَغَّبَ اللَّهُ فيه، وزَهِدَ فيما سَخَط اللَّهِ فيه ... . وعن ابن مسعود رضي اللَّه عنه أنه قال : " ليس العِلْمُ عَن كثرة الحديث ، ولكنَّ العِلْمَ عن كَثرة الخَشْية " . وقال أحمد بن صالح المصري عن ابن وَهْب عن مالك قال : إنَّ العِلْم ليس بكثرة الرِّواية ، وإنَّما العِلْم نُور يَجعله اللَّهُ في القلب . قال أحمد ابن صالح المصري : معناه أن الخَشْية لا تُدرَك بكثرة الرِّواية ، وإنَّما العِلْم الذي فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أن يُتَّبَع فإنَّما هو الكتاب والسُّنَّة . وما جاء عن الصحابة رضي اللَّه عنهم ، ومَن بَعْدهم مِن أئمة المسلمين ، فهذا لا يُدرَك إلا بالرِّواية . ويكون تأويل قَوْله : نُور يُريد به فَهْم العِلْم ومعرفة مَعانيه . وقال سُفيان الثَّوري عن أبي حَيَّان التَّيمي عن رَجل قال: كان يُقَال : العُلماء ثلاثة : عَالِم باللَّه عَالِم بأمر اللَّه ، وعَالِم باللَّه ليس بعَالِم بأمر اللَّه ، وعَالِم بأمر اللَّه ليس بعَالِم باللَّه . فالعَالِمُ باللَّه وبأمر اللَّه ، الذي يَخْشَى اللَّهَ تعالى، ويَعْلَم الحُدودَ والفرائضَ. والعَالِمُ باللَّه ليس بعَالِم بأمر اللَّه ، الذي يَخْشَى اللَّهَ ، ولا يَعْلَم الحُدودَ ولا الفرائضَ . والعَالِمُ بأمر اللَّه ليس العَالِم باللَّه ، الذي يَعْلَم الحُدودَ والفرائضَ ، ولا يَخْشَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوي الذينَ يَعْلَمُونَ والذينَ لا يَعْلَمُونَ إنَّما يَتذكَّرُ أُولُو الألبابِ ﴾ [الزُّمَر : ٩] .

هَل يَتَسَاوى العُلَمَاءُ الذين يَعْلَمُون أهمية الطاعات ، وما فِيها مِن الثواب ، ويَعْلَمُون خُطورة المعاصي ، وما عَلَيها مِن العِقَاب ، معَ الجُهَّال الذين لا يَعْلَمُون ذلك ؟ ، لا يَتَسَاوَيَان . إنَّما يَعتبر ويَتَّعظ أصحابُ العقول السليمة . والآيةُ تُشير إلى فضيلة العِلْم ومكانة العُلَماء الجليلة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٦٤٤) : ((﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوي الذينَ يَعْلَمُونَ والذينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي : الذي يَعْلَمُون أنَّ ما وَعَدَ اللَّهُ بِه مِن البَعْث والثَّوَاب والعِقَاب حَق ، والذين لا يَعْلَمُون ذلك ، أو الذين يَعْلَمون ما أنزلَ اللَّهُ على رُسُله ، والذين لا يَعْلَمُون ذلك ، أو المُراد العُلَمَاء والجُهَّال . ومَعلوم عِند كُل مَن له عَقْل أنَّه لا استواء بين العِلْم والجَهْل ، ولا بَين العَالِم والجاهل . قال الزَّجاج : أي كما لا يَسْتَوي الذين يَعْلَمُون ، والذين لا يَعْلَمُون ، كذلك لا يَسْتَوي المُطيع والعاصي . وقِيل : المُراد بالذين يَعْلَمُون ، هُم العاملون بعِلْمهم ، فإنهم المُنتفعون به ، لأن مَن لَم يَعْمَلْ بِمَنزلة مَن لَم يَعْلَمْ ، ﴿ إنَّما يَتذكَّرُ أُولُو الألبابِ ﴾ ، أي : إنَّما يتَّعظ ويتدبَّر ويتفكَّر أصحابُ العُقُول ، وهُم المُؤمنون لا الكُفَّار ، فإنَّهُم وإنْ زَعَمُوا أنَّ لهم عُقُولًا فَهِيَ كالعَدَم)) .

إنَّ العُلَمَاء وَرَثَةُ الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، فهُم يَحْمِلُون أمانةَ العِلْم في أرجاء المَعمورة ليُخرجوا الناسَ مِن ظلام الجَهْل إلى نُور العِلْم . إنَّهم يَأخذون بأيدي الناس إلى خالقهم ، ويَفتحون عُيونَهم أمام المعارف والمَظاهر الكَوْنية ، ويَكشِفون لهم عَن عُلومها وأسرارها وأبعادها الفكرية . والعِلْمُ لَيس شَهادةً مُعلَّقة على الحائط ، أو حَرْفًا يُوضَع أمام اسم الشخص . إنَّ العِلْمَ مِنهاج حَياتي متكامل ، وبِدُونه تَفقِد الإنسانيةُ مَعناها ، ويَخسَر الوُجُودُ أسمى ما فيه ، وتُصبح الحياةُ بلا جَدوى . ولا يمكن أن يتساوى العَالِمُ والجَاهِل ، لأن النُّور والظَّلام ضِدَّان لا يَجتمعان ، ونقيضان لا يَلْتقيان .

وعن أبي الدَّرداء _ رضي اللَّهُ عنه _ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((مَن سَلَكَ طريقًا يَطلُب فِيه عِلْمًا، سَلَكَ اللَّهُ بِه طريقًا مِن طُرُق الجَنَّة ، والمَلائكةُ تضع أجنحتها رِضًا لطالب العِلْم ، وإنَّ العَالِم يَستغفر له مَن في السَّماوات ، ومَن في الأرض ، والحِيتانُ في المَاء ، وفَضْلُ العَالِم على العابد كَفَضْلِ القَمَر لَيْلَةَ البَدْرِ على سائر الكواكب، إنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنبياء ، إنَّ الأنبياءَ لَم يُوَرِّثُوا دِينارًا ولا دِرْهَمًا ، وأَوْرَثُوا العِلْمَ ، فَمَن أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)) [١١].

العِلْمُ يُنير القلبَ بالحَق ، ويَفتح آفاقَ العَقْل ، والعِلْمُ أساس التَّقَدُّم والنهضة والحضارة . وقد حَثَّ الإسلامُ على طَلَب العِلْم النافع ، والعمل بِه ، وتطبيقه على أرض الواقع ، مِن أجل النُّهُوض بالفَرْد والمجتمع ، وإعمار الأرض ، وإقامة شعائر الدِّين معنويًّا وماديًّا ، لذلك لَيس غريبًا أن يُعظِّم الإسلامُ قيمةَ العِلْم ، ويَرفع شأن العُلَماء ، ويَمنحهم المكانة العظيمة بين الناس ، وكُل طَالِب للعِلْم هو عَالِم ، والعُلَماء يتفاوتون في التَّقْوى والذكاء والفَهْم والمعرفة والاطِّلاع [١٢].

---

١١ رواه ابن حِبَّان في صحيحه (١/ ٢٨٩) برقم (٨٨) .

١٢ في إحياء عُلوم الدِّين (١/ ٥٩) : ((قال الخليل بن أحمد : الرِّجال أربعة ، رَجُل يَدْري ويَدْري أنَّه يَدْري ، فذلك عَالِم فاتَّبعوه ، ورَجُل يَدْري ولا يَدْري أنَّه يَدْري ، فذلك نائم فأيقظوه ، ورَجُل لا يَدْري ويَدْري أنَّه لا يَدْري ، فذلك مُسترشِد فأرشِدوه ، ورَجُل لا يَدْري ولا يَدْري أنَّه لا يَدْري ، فذلك جاهل فارفضوه. وقال سُفيان الثَّوري رحمه اللَّه : يَهتِف العِلْمُ بالعَمَل ، فإن أجابه وإلا ارتحل . وقال ابن المبارك: لا يَزال الْمَرْءُ عَالِمًا ما طَلَبَ العِلْمَ ، فإذا ظَنَّ أنَّه قد عَلِمَ فقد جَهِلَ. وقال الفُضَيل بن عِيَاض رحمه اللَّه : إنِّي لأَرْحَمُ ثلاثة : عَزِيزَ قَوم ذَل ، وغنيَّ قَوم افتقر ، وعَالِمًا تَلعب به الدُّنيا . وقال الحسن: عُقُوبة العُلَماء مَوت القلب،ومَوت القلب طَلَب الدُّنيا بعَمَل الآخِرة)) اهـ .وفي نَشر طَي التَّعريف(١/ ٢١٤): ((وقال=

مَن مَشَى في طريق يَطلُب فِيه عِلْمًا نافعًا ، طَالِبًا لِرِضَا اللَّه ، مُخْلِصًا له ، وفَّقه اللَّهُ إلى الحَق والهُدى والطاعات والعبادات ، وهذا هو طريق الجَنَّة . وإنَّ الملائكة تَضَع أجنحتها لِتَكون وِطاءً لطالب العِلْم إذا مَشَى ، أوْ تُساعده في طَلَب العِلْم وتَيسير أُمُوره .

وفي النِّهاية في غريب الأثر (١/ ٨٢١) : ((أي : تَضَعُها لِتَكُون وِطَاءً له إذا مَشَى . وقِيل : هو بمَعْنَى التَّواضُعِ له تَعْظِيمًا لحقِّه. وقِيل : أراد بوَضْع الأجْنِحَة نُزُولَهُم عِند مَجالِس العِلْم وتَرْكَ الطَّيَرَان . وقِيل : أرادَ به إظلالَهم بها)) .

وإنَّ العَالِم يَطلُب له المَغفرة أهلُ السَّماوات ، وأهلُ الأرض ، والحِيتانُ في المَاء ، بسبب عِلْمه النافع الذي نَشَرَه ، فعمَّت الخَيراتُ والبَرَكات ، وتحقَّقت الفوائد والمنافع والمصالح على جميع الأصعدة . وفَضْلُ العَالِم الذي جَمَعَ بين التَّقْوى والعِلْم النافع عَلى العابد الذي ركَّز جُهوده على العِبادة مَعَ معرفة بالعِلْم الضَّروري ، كفَضْل القَمَر لَيْلَةَ البَدْرِ على سائر الكواكب ، لأنَّ نُوره يَعُمُّ الأرضَ . وفي فَيض القدير (٤/ ٤٣٣) : ((قال البَيضاوي : العِبادة كَمال ونُور لازم ذات العابد ، لا يتخطاه ، فشابه نُور الكواكب ، والعِلْم كَمال يُوجِب للعَالِم في نَفْسِه شَرَفًا وفَضْلًا ، ويتعدَّى مِنه إلى غَيره ، فيَستفيض نُورُه وكَمَالُه ، ويَكْمُل بواسطته ، لكنَّه كَمال لَيس للعَالِم في ذاته، بَل نُوره يَتَلَقَّاه مِن المُصْطَفَى ﷺ ، فلذلك شُبِّهَ بالقَمَر، ولا نَظُن أنَّ العَالِم المُفضَّل عارٍ عن العمل، ولا العابد عن العِلْم ، بَل إنَّ عِلْم ذلك غَالِب على عمله ، وعَمَل هذا غَالِب على عِلْمه ، ولذلك جعل العُلَماء وَرَثَة الأنبياء ، والمُراد بالفَضْل كثرة ثواب ما يُعطيه اللَّهُ للعبد في الآخِرة مِن دَرَجَات الجَنَّة ولَذَّاتها ومَأكَلها ومَشرَبها ونعيمها الجُسماني،أوْ مَا يَمنح مِن مَقَامات القُرب،ولَذَّة النَّظَر إليه، وسَمَاع كلامه ، ولَذَّة المعارف الإلهية الحاصلة عِند كَشْف الغِطَاء ، ونَحْو ذلك. قال ابن الملقي : فِيه أنَّ نُور العِلْم يَزيد على نُور العِبادة ، كما مَثَّلَه بالقَمَر بالنِّسبة لباقي الكواكب ... . المُراد في هذه الأخبار بالعَالِم مَن صَرَفَ زَمَنَه للتعليم وللإفتاء والتصنيف ونَحْو ذلك ، وبالعابد مَن انقطعَ للعِبادة تاركًا ذلك ، وإنْ كان عَالِمًا)) .

إنَّ العُلَماء وَرَثَةُ الأنبياء ، حَيث حَمَلُوا عُلُومَ الأنبياء وأخلاقَهم الحميدة وتعاليمَهم العظيمة ، ونَشَرُوها في المجتمعات، لهداية الناس إلى الحَق والهُدى والصَّواب، وإرشادهم إلى سعادة الدُّنيا،

=سعيد بن جُبَير رحمه اللَّه: لا يزال الرَّجُل عَالِمًا مَا تَعَلَّمَ، فإذا تَرَكَ التَّعَلُّمَ، وظَنَّ أنه قد استغنى واكتفى بما عِنده ، كان أجهل ما يَكون . وقِيل لبَعضهم : مِن مَتَى التَّعَلُّم وإلى مَتَى ؟ قال: مِن المهد إلى اللحد)) .

ونعيم الآخِرة . ولَم يُرسِل اللَّهُ الأنبياءَ كَي يَجمعوا المالَ ، ولَيس مِن شأنهم تَوريثه . لقد وَرَّثُوا العِلْمَ النافعَ ، فَمَن أخَذَه بِحَقِّه ، وعَمِلَ به ، وعَلَّمَه للناس ، فقد أخذَ بنصيب كامل .

وفي شَرح سُنَن ابن ماجة (ص ٢٠) : ((قَوله : " إنَّ الأنبياءَ لَم يُوَرِّثُوا دِينارًا ولا دِرْهَمًا " ، وذلك إشارة الى رذالة الدُّنيا ، وأنَّهُم لَم يَأخذوا مِنها الا بقَدْر ضَرُورتهم ، فَلَم يُورِّثوا مِنها شيئًا مُبَالَغَةً في تَنزيههم عَنها ، ولذا قِيل: الصُّوفي لا يَملِك ولا يُملَك . وفيه إيماء إلى كمال توكُّلهم على اللَّه تعالى في أنفسهم وأولادهم ، وإشعار بأنَّ طالب الدُّنيا لَيس مِن العُلَماء الوَرَثَة ، ولا يَرِد الاعتراض بأنَّه كان لبعض الأنبياء غَناء كثير ، لأنَّ المُراد أنَّهم ما تركوا بَعْدَهم مِيراثًا لأولادهم وأزواجهم . ويُذكَر عن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أنَّه مَرَّ يَوْمًا في السُّوق على المُشتغلين بتجاراتهم ، فقال : أنتم هَهُنا ومِيراث رسول اللَّه ﷺ في المَسجد ، فقاموا سِرَاعًا ، فلم يَجِدُوا فيه إلا القُرآن أو الذِّكْر أوْ مجالس العِلْم، فقالوا: أينَ ما قُلْتَ يا أبا هُرَيرة، فقال:هذا مِيراث مُحمَّد ﷺ يُقْسَم بَين وَرَثته ، وليس مَواريثه دُنياكم)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٩٣) : (((أَكْرِمُوا العُلَمَاءَ) لِعِلْمهم بأنْ تُعاملوهم بالإجلال والإعظام ، وتُوَفُّوهم حَقَّهم مِن التَّوقير والاحترام (فإنَّهُم) حقيقيون بالإكرام إذْ هُم (وَرَثَة الأنبياء) أراد به ما يَشمَل الرُّسُل كما هو بَيِّن ، والأنبياء لَم يُورِّثوا دِينارًا ولا دِرْهَمًا ، إنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ . قال بعضُ العارفين : إنَّما يَرِث الإنسانَ أقربُ الناس له رَحِمًا ونَسَبًا وعَمَلًا ، فلمَّا كان العُلَماء أقرب الناس إلَيهم ، وأجرأهم على عَمَلهم ، وَرِثُوهم حالًا وفِعْلًا وقَوْلًا وعَمَلًا ظاهرًا وباطنًا، فَعُلِمَ أنَّه إنَّما يَنال هذا المَنصِب مَن عَمِلَ بِعِلْمه ، فالعاملون به يَستحقون الإكرام والإعظام ، لأنَّهُم مِن الخَلْق أسرارُه ، وعلى الأرض أنوارُه ، وللدِّين أوتاد ، وعلى أعداء الله أجناد ، فهُم للَّه أولياء ، وللأنبياء خُلَفاء ﴿ أُولئكَ حِزْبُ اللَّه ﴾ [المُجَادِلَة : ٢٢] . قال بعضُ العارفين : العُلُوم مُنحصِرة في ثلاث: عِلْم يتعلَّق بالدُّنيا وأسبابها وما يَصلُح فِيها ، وعِلْم يتعلَّق بالآخِرة وما يُوصِل إلَيها ، وعِلْم يتعلَّق بالحق عِلْم أذواق وشُرب ، فالأنبياء جَمعوا هذه العُلُومَ ، ثُمَّ وَرِثَها عَنهُم مَن تأهَّل لرُتبة الوِرَاثة ، وما عَدَاهُم فإنَّما يتعلَّق بالبَعْض)) .

إنَّ العِلْمَ النافع هو الطريق الرئيسي إلى الجَنَّة . وهذا العِلْمُ يجب أن يَقترن بالإخلاص (النِّية الصالحة) والعَمَل (التَّطبيق على أرض الواقع) ، ولا يَخفَى أنَّ الأعمال بالنِّيات ، والعِلْم المُنفصل عَن العَمَل ، مَضيَعة للوقت والجُهد . والمَلائكةُ ــ عليهم السلام ــ تضع أجنحتها لطالب العِلْم ، وذلك بالدُّعاء والاستغفار له. واستغفارُ المَلائكة مَقبول حَتْمًا. ووَضْعُ الأجنحة يتضمَّن معنى إظلال

طالب العِلْم ، والتواضع له تعظيمًا لِقَدْره . ومِن مزايا العَالِم أنَّ المَخلوقات تَستغفر له ، وهذا يدل على جَلالته ، وعَظَمَة مَكانته . والعَالِمُ أفضل مِن العابد ، لأنَّ العابد صلاحه لِنَفْسِه ، أمَّا العَالِمُ فصَلاحه إصلاحٌ للآخَرين، وأخذٌ بأيديهم إلى طريق الحَق . فَهُوَ القمرُ المُنير الذي يُرشد الحيارى، ويدل التائهين . والعُلَماءُ أفضل البشر بعد الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، وهُم حَمَلَةُ المِيراث النبويِّ ، الذي يُكمِلون مَسيرةَ الأنبياء ، ويُطبِّقون تعاليمَهم ، ويَنشرونها بين الناس .

والقُدوةُ العُليا في هذا المَوضوع هُم الأنبياء ، الذين كانوا يَحرِصون على العِلْم النافع ونَشْره ، فَلَم يَجمَعوا مَتَاعَ الدُّنيا الزَّائل ، وَلَم يُوَرِّثوا مَالًا ، بَل وَرَّثُوا العِلْمَ النافع .

واللَّهُ تعالى إذا أراد بعبدٍ خَيْرًا سَيَرزقه عِلْمًا لأنَّه رأس الأُمُور . ولا شَكَّ أنَّ العِلْمَ أفضل مِن المَال ، لأنَّ العِلْمَ يَحرُس المَالَ ، أمَّا المَالُ فلا يَحرُس العِلْمَ . ومَن أراد الدُّنيا فَعَلَيه بالعِلْم ، ومَن أراد الآخِرة فَعَلَيه بالعِلْم ، ومَن أرادَ الدُّنيا والآخِرَةَ مَعًا فَعَلَيه بالعِلْم . وكما قال الشاعر :

تَفنَى الكُنُوزُ على الزَّمان وصَرْفِه والعِلْمُ يَبْقَى مَعَ بَقَاءِ الأعْصُرِ

الكُنُوزُ زائلة ، تَذهبُ الأموالُ أدراجَ الرِّياح، والناسُ غارقون في حركة التاريخ ، ودَوَرَانِ الزَّمان . فَكَم مِن غنيٍّ صارَ فقيرًا ، وكَم مِن فَقير صارَ غَنِيًّا . أمَّا العِلْمُ فهو الشَّرَف الرفيع الباقي رَغْم تغيُّر الحِقَب الزَّمنية ، واختلافِ الوُجُوه والأزمنة والأمكنة .

وَصَدَقَ عليٌّ بن أبي طالب _ رضي اللَّهُ عنه _ حين قال :

فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيًّا بِهِ أبَدًا النَّاسُ مَوْتَى وأهْلُ العِلْمِ أحياءُ

إنَّ العِلْمَ يَمنح الإنسانَ الخُلُود . فالعَالِمُ لا يَمُوت ، لأنَّ أفكاره وكتاباته تظلُّ أبَدَ الدَّهْر ، ولا يُمكن أن تندثر تحت التراب مِثل أجساد البشر . ونحن نرى أنَّ الناس عندما يَمُوتون يَذهبون إلى النِّسيان ، وتَختفي جُثَثهم تحت التراب ، ويَغيب ذِكْرُهم بين الناس ، لأنهم لم يَتركوا آثارًا أوْ بصماتٍ في تاريخ المجتمعِ والحضارةِ . أمَّا العُلَمَاءُ فيبقى ذِكْرُهم باقيًا ، ويظلُّ تأثيرُهم وآثارُهم حَتَّى يَوم القيامة ، لأنَّهُم صَنعوا مَجْدًا عِلْمِيًّا باقيًا ، وتَركوا أفكارًا جليلة وكتاباتٍ لامعة في سِجِل الوُجود البشريِّ . وهذا هو الفَرْق الجوهريُّ بين العَالِم والجاهل . والجديرُ بالذِّكْر أنَّ ما كان للَّه ، دَامَ واتَّصَل ، وما كان لغَيره ، انقطعَ وانفصَل .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ انشُزُوا فانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الذينَ آمَنُوا مِنكُم والذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المُجَادِلة : ١١]. وإذا قِيل لكم أيُّها المؤمنون : قُوموا مِن المَجلِس لتُوسِّعوا لغَيركم ، أو انهَضُوا وقُوموا إلى صَلاة أوْ جِهَاد أوْ عَمَل خَير، فَقُوموا، ولا تُقصِّروا ، ولا تتكاسلوا . يَرفَع اللَّهُ المؤمنين مِنكُم بامتثال أوامر اللَّه ورسوله ، والعُلَمَاءَ خَاصَّةً دَرَجَاتٍ عالية في الشَّرَف والكرامة في الدُّنيا ، ويَمنحهم الأجرَ العظيمَ في الآخِرة . وهذا مَدْحٌ إلهيٌّ للعُلَماء ، وتشريف لهم ، وتعظيم لِقَدْرهم . وتَخصيص الذين أُوتُوا العِلْم بالذِّكْر ، بسبب جَمْعهم بين العِلْم النافع والعَمَل به .

والآيةُ تدلُّ على أنَّ المُؤمن العَالِم أعظم وأفضل مِن المُؤمن غَير العَالِم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٢٥١) : ((وبَيَّنَ في هذه الآية أنَّ الرِّفعة عِند اللَّه تعالى بالعِلْم والإيمان ، لا بالسَّبْق إلى صُدُور المَجالس)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤١٥): ((قالوا: ومَعنى قَوله : ﴿ وإذا قِيلَ انشُزُوا فانشُزُوا ﴾ أي:انهَضُوا للقِتال. وقال قَتادة: ﴿ وإذا قِيلَ انشُزُوا فانشُزُوا ﴾ ، أي: إذا دُعيتم إلى خَير فأجيبوا. وقال مُقاتل: إذا دُعيتم إلى الصَّلاة ، فارتفِعُوا إلَيها . وقال عبد الرحمن بن زَيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عِند النبيِّ ﷺ في بَيته ، فأرادوا الانصراف ، أحَبَّ كُلٌّ مِنهُم أن يكون هو آخِرَهم خُروجًا مِن عِنده ، فرُبَّما يَشُقُّ ذلك عليه _ عليه السلام _ ، وقد تكون له الحاجة ، فأُمِرُوا أنَّهُم إذا أُمِرُوا بالانصراف أن ينصرفوا ، ... . وقَوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الذينَ آمَنُوا مِنكُم والذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ، أي : لا تَعتقدوا أنَّه إذا أفسحَ أحد مِنكُم لأخيه إذا أقبلَ ، أوْ إذا أُمِرَ بالخُروج فَخَرَجَ، أن يكون ذلك نَقْصًا في حَقِّه ، بَل هو رِفعة ورُتبة عِند اللَّه ، واللَّهُ تعالى لا يُضِيع ذلك له ، بَل يَجْزيه بها في الدُّنيا والآخِرة ، فإنَّ مَن تَوَاضَعَ لأمر اللَّه ، رَفَعَ اللَّهُ قَدْرَه ، ونَشَرَ ذِكْرَه ... . وقال الإمام أحمد : حَدَّثَنا أبو كامل حَدَّثَنا إبراهيم حَدَّثَنا ابن شِهاب عن أبي الطُّفَيل عامر بن وَاثِلة أنَّ نافع بن عبد الحارث لَقِيَ عُمر بن الخَطَّاب بِعُسْفان _ مَوضِع بالحِجَاز _، وكان عُمر استعمله على مكة ، فقال له عُمر : مَن استخلفتَ على أهل الوادي ؟ قال : استخلفتُ عَلَيهم ابن أبزى ، رَجُل مِن مَوَالينا،فقال عُمر: استخلفتَ عَلَيهم مَوْلَى ؟، فقال:يا أمير المؤمنين،إنَّه قارئ لكتاب اللَّه، عَالِم بالفرائض ، قاضٍ ، فقال عُمر رضي اللَّهُ عنه : أمَا إنَّ نَبِيَّكُم ﷺ قد قال : " إنَّ اللَّه يَرفَع بهذا الكِتاب قَوْمًا ، ويَضَع به آخَرِين " ، وهكذا رواه مُسلم مِن غَير وجه عن الزُّهري به ، ورُوِيَ مِن غَير وجه عَن عُمر بنَحْوه . وقد ذَكَرْتُ فَضْلَ العِلْم وأهله ، وما ورد في ذلك مِن الأحاديث مُستقصاة في شَرْح كتاب العِلْم مِن صحيح البخاري ، وللَّهِ الحَمْدُ والمِنَّة)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٩٢و ١٩٣) : ((وفي المُراد بهذا القِيام خَمْسة أقوال : أحدها أنَّه القِيام إلى الصَّلاة ، وكان رِجال يتثاقلون عَنها ، فَقِيل لهم : إذا نُودِيَ للصَّلاة فانهَضُوا ، هذا قول عِكرمة والضَّحاك . والثاني أنَّه القِيام إلى قِتال العدو ، قاله الحسن . والثالث أنَّه القِيام إلى كُل خَير مِن قِتال ، أوْ أَمْر بمَعروف ، ونَحْو ذلك ، قاله مُجاهد . والرابع أنَّه الخُروج مِن بَيت رسول اللَّه ﷺ ، وذلك أنهم كانوا إذا جَلسوا في بَيت رسول اللَّه ﷺ أطالوا ، لِيَكُون كُل واحد مِنهُم آخِرَهم عَهْدًا به ، فأُمِرُوا أن يَنشُزوا إذا قِيل لهم: انشُزُوا ، قاله ابن زيد . والخامس أنَّ المَعنى : قُوموا وتحركوا وتوسَّعوا لإخوانكم ، قاله الثعلبي . قَوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الذينَ آمَنُوا مِنكُم ﴾ ، أي : يَرفعهم بإيمانهم على مَن لَيس بمَنزلتهم مِن الإيمان ، ﴿ والذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ عَلى مَن لَيس بِعَالِم . وهَل هذا الرَّفْع في الدُّنيا أَمْ في الآخِرة ، فِيه وَجْهَان : أحدهما أنَّه إخبار عن ارتفاع دَرَجَاتهم في الجَنَّة ، والثاني أنَّه ارتفاع مَجَالسهم في الدُّنيا ، فَيَكُون ترتيبهم فِيها بِحَسَب فضائلهم في الدِّين والعِلْم . وكان ابن مَسعود يَقول : أيُّها الناس ، افْهَمُوا هذه الآية ، وَلْتُرَغِّبْكُم في العِلْم ، فإنَّ اللَّه يَرفَع المُؤمنَ العَالِم فَوق مَن لا يَعلَم دَرَجَاتٍ)) .

وعن عُثمان بن عَفَّان قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : ((يَشفَع يَوْمَ القِيامة ثلاثة : الأنبياءُ ، ثُمَّ العُلَماء ، ثُمَّ الشُّهَداء)) [١٣].

الحديثُ ضَعيف ، وتَكَلَّمَ فِيه العُلَماء ، ومعَ هذا ، فهو يُوضِّح شَرَفَ العِلْم ، ومَنزلة العُلَماء الرَّفيعة بين الأنبياء الذين اختارهم اللَّهُ لحمل وَحْيِه السَّماويِّ إلى الناس ، وبين الشُّهَداء الذينَ بَذلوا أرواحَهم رخيصةً في سبيل اللَّه تعالى .

قال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٤٦٢) : ((قال القُرطبي : فَأعْظِمْ بمَنزلة هي بَين النُّبُوَّة والشَّهَادة ، بِشَهَادة المُصْطَفَى ﷺ . ولَمَّا كان العُلَماء يُحسِنون إلى الناس بعِلْمهم الذي أَفْنَوْا فِيه نفائسَ أوقاتهم ، أكرمهم اللَّهُ تعالى بولاية مَقَام الإحسان إلَيهم في الآخِرة بالشَّفاعة فيهم جَزَاءً وِفَاقًا ، وقد أخذَ بقضية هذا الخَبَر جَمْع جَم ، فَصَرَّحُوا بأنَّ العِلْم أفضل مِن القَتْل في سبيل اللَّه ، لأنَّ المُجاهِد وكُل عامل إنَّما يتلقَّى عَمَلَه مِن العَالِم، فهو أَصْلُه وأُسُّه، وعَكَسَ آخَرُون . وقد رُوِيَت أحاديث من الجانبَيْن ، وفيها ما يدلُّ للفريقَيْن . قال ابن الزملكاني : وعِندي أنه يجب التَّفصيل في التَّفضيل ، وأن يُحمَل على بَعض الأحوال ، أو بَعْض الأشخاص ، كُلٌّ بدليل)) .

---

١٣ رواه ابن ماجة في سُننه (٢/ ١٤٤٣) ، وضعَّفه العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٨) .

٢ ـ ذم الجَهْل والجَاهِلين

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

يَأمرُ اللَّهُ النبيَّ ﷺ بمَكارم الأخلاق، ومحاسن الصِّفات ، وفضائل الأعمال ، والالتزام بالقواعد الأخلاقية في الشريعة الإسلامية . تَعَامَلْ مَعَ الناس يا مُحمَّد بِرِفْق ولِين وأدب ، وخُذ بالسَّهْل اليسير في مُعاملتهم ومُعاشرتهم ، وَأْمُرْ بالمعروف والأقوال الحَسَنة والأفعال الجميلة . والمَعروف هو كُل ما يَعرِفه الشَّرْع ، ويَعرِف حُسْنَه كُلُّ شخص . وأهْمِل السُّفَهاءَ والجَهَلَةَ، ولا تلتفت إلَيهم، ولا تَعْبَأ بهم، ولا تُقابِلهم بِطَيْشهم وسَفَههم ، وتَجَاوَزْ عَن جَهْلهم وسُوء أخلاقهم ، واحلُم عليهم، وَاصْفَحْ عَنهُم ، معَ وُجوب الإنكار عليهم ، وفَضْح باطلهم ، وإظهار الحق .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢ / ٤٠٦) : ((﴿ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ أي: إذا أَقَمْتَ الحُجَّةَ في أمرهم بالمعروف ، فَلَم يَفعلوا ، فَأعْرِضْ عَنهُم ، ولا تُمارهم ، ولا تُسافههم مُكافأةً لِمَا يَصْدُر مِنهُم مِن المِرَاء والسَّفَاهة)) .

والخِطَابُ الإلهيُّ ـ وإنْ كان مُوَجَّهًا للنبيِّ ﷺ ـ إلا أنه يَشمَل جميعَ الناس ، لأن العلاقات الاجتماعية مَبنية على الأخلاق الحَسَنة والاحترام المُتبادل. ويجب على الجميع التَّحَلِّي بالأخلاق.

والآيةُ تدل على أخلاق النبيِّ الحميدة ، ورِفعة مَنْزلته ، وعُلُوِّ مكانته ، وشَرَف صِفاته . فهو يتعامل مع الناس بأدب واحترام وتقدير . وهذه الصِّفات الحَسَنة تَنبُع مِن القُوَّة والقُدرة والعِزَّة ، ولَيس مِن الضَّعْف والاستكانة والذُّل . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٨٤): ((﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾ أي : خُذ ما عفا لك مِن أفعال الناس ، وتَسَهَّلْ ، ولا تطلُب ما يَشُقُّ عَلَيهم مِن العَفْو ، الذي هو ضد الجَهْد (المَشَقَّة).أوْ: ﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾ عَن المُذنبين،أو الفَضْل وما يَسهُل مِن صَدَقَاتهم، وذلك قَبل وُجُوب الزكاة ﴿ وأْمُرْ بالعُرْفِ ﴾ المَعروف المُسْتَحْسَن مِن الأفعال ﴿ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾، فلا تُمارهم ، ولا تُكافئهم بِمِثْل أفعالهم . وهذه الآية جامعة لِمَكارم الأخلاق ، آمِرة للرسول باستجماعها)) اهـ . وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنِّي أعِظُكَ أن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [هُود : ٤٦] .

يُنبِّه اللَّهُ النبيَّ نُوحًا ﷺ ويُحذِّره أن يَكون مِن الجاهلين الآثِمين . وهذا لَيس وَصْفًا له بالجَهْل ، بَل تعظيم لنُوح ﷺ ، ورَفع لِقَدْره ، وتَنزيه لشَأنه. وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٢/ ٧٢٦):((أي أُحذِّرك أن تكون مِن الجاهلين.وقِيل: المعنى: أَرفعك أن تكون مِن الجاهلين.قال ابن العربي: وهذه زيادة من اللَّه، ومَوعظة يَرفَع بها نُوحًا عَن مَقَام الجاهلين ، ويُعْليه بها إلى مَقَام العُلَماء العاملين)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ للذينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تابوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وأصْلَحُوا إنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِها لَغَفُورٌ رحيم ﴾ [النَّحْل : ١١٩] .

ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ يا مُحمَّد للذين ارتكبوا الذُّنُوبَ بِجَهْل ، واقترفوا المَعَاصي بِطَيْش وسَفَه ، ولَم يُدرِكوا الآثار السَّلبية للذُّنوب والمعاصي ، وما فاتهم من الثواب ، وما استحقوه مِن العِقاب ، لِغَلَبَة الشَّهوة ولَذَّةِ الإثم الخَادعة ، ثُمَّ أقلَعوا عن ذُنوبهم ، ونَدِموا ، ورَجعوا إلى اللَّه بِصِدْق وإخلاص ، وأصلَحوا حالَهم وعَمَلَهم بعد سُقوطهم في الذَّنْب والمَعصية، واستقاموا على التَّوبة، وعملوا الطاعات، وابتعدوا عن المعاصي. إنَّه تعالى كَثير الغُفران ، وعظيم الرَّحمة .

والآيةُ رحمة للناس كُلِّهم ، وتَشمل الكافرين وعُصاة المؤمنين ، وترغيب وتبشير لهم ، وفَتْح لِبَاب التَّوبة . لقد تكرَّمَ اللَّهُ على عباده ، وتفضَّلَ عليهم بأن فتح لهم باب التَّوبة، ووعدهم بأن يَتوب على مَن تاب مِنهم . ووعدُ اللَّه حق وصِدق ، لا يتخلَّف ، وهو واقعٌ لا مَحَالة .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٥/ ١٤٨) : ((﴿ ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ للذينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ ، أي:بسبب جَهَالة أو مُلتبسين بها لِيَعُمَّ الجهلَ باللَّه وبعقابه وعدم التدبُّر في العَوَاقب لِغَلَبة الشَّهوة. والسُّوء يَعُمُّ الافتراءَ على اللَّه تعالى وغَيْرَه ﴿ ثُمَّ تابوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي : مِن بَعْد ما عملوا ما عملوا ، والتصريح به مع دَلالة ﴿ ثُمَّ ﴾ عَلَيه للتأكيد والمُبالَغة ، ﴿ وأصْلَحُوا ﴾ أي : أصلحوا أعمالهم ، أو دخلوا في الصلاح ﴿ إنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِها ﴾ مِن بَعْد التَّوبة ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لذلك السُّوء ﴿ رحيم ﴾ يُثيب على طاعته تَركًا وفِعْلًا. وتكرير قَوله تعالى:﴿ إنَّ رَبَّكَ﴾ لتأكيد الوَعْد وإظهار كَمَال العِناية بإنجازه . والتَّعَرُّض لوَصْف الرُّبُوبية مع الإضافة إلى ضَميره ﷺ معَ ظُهور الأثر في التائبين، للإيماء إلى أنَّ إفاضة آثار الرُّبُوبية مِن المغفرة والرحمة عليهم بِتَوَسُّطه ﷺ ، وكَوْنهم مِن أتباعه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأرضِ هَوْنًا وإذا خَاطَبَهُمُ الجاهلونَ قالوا سَلامًا ﴾ [الفُرقان : ٦٣] .

هذه الآية تتضمَّن مَظْهَرَيْن لِحُسن سُلوك المؤمنين الذين هُم عِباد الرَّحمن وصَفْوته مِن خَلْقه . المَظهر الأوَّل هو المَشْي على الأرض بوَقار وسَكِينة بدون تكبُّر أو خُيَلاء. وهذه طبيعتهم بلا رِياء أو تصنُّع . والمَظهر الثاني هو مُقابلة الإساءة بالإحسان والعَفْو عَن الجُهَّال ، ومُقابلة كلامهم القبيح بالكلام الطَّيب .

والجديرُ بالذِّكر أن الإضافة في ﴿ وَعِبَادُ الرَّحمنِ ﴾ للتخصيص والتفضيل والتعظيم والتشريف والتفخيم ، أي إنَّهُم أولياءُ اللَّه وصَفوته مِن خَلْقه ، وإلا فالناسُ كُلُّهم عِباد الرَّحمن .

إنَّ عباد اللَّه المؤمنين الصالحين هُم نُخبة المجتمع ، وسادة الناس ، وأشرافهم ، يَمشون على الأرض بهُدوء وتواضع وطُمأنينة بدون استكبار ولا غُرور ولا عَجْرفة ولا سَعْي بالفسادِ والمعاصي ، ويتحمَّلون تفاهةَ الجُهَّال وسَفاهتهم وكلامهم السَّيئ ، ويَصفحون عنهم ، ولا يَرُدُّون الإساءةَ بالإساءة ، وإنما يَقولون لهم كلامًا جميلًا طَيِّبًا بِرِفْق ولِين . وبعبارة أخرى ، إذا خاطبهم الجاهلون السُّفهاءُ بما يَكْرَهونه ، قالوا لهم قَوْلًا لَيِّنًا يَسْلَمُون فيه مِن الإثم ، ويَنْجُون مِن أذاهم وشَرِّهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١٠١/٦):((قَوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحمنِ الذينَ يَمْشُونَ﴾. وقال ابن قُتَيبة : إنَّما نَسَبَهم إليه لاصطفائه إيَّاهم . ومَعنى : ﴿ هَوْنًا ﴾ مَشْيًا رُوَيْدًا ، ومِنه يُقال : أَخْبِبْ حَبيبك هَوْنًا ما . وقال مُجاهد : يَمشون بالوَقار والسَّكِينة ، ﴿ وإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قالوا سَلامًا ﴾ ، أي: سَدَادًا. وقال الحسن: لا يَجْهَلُون على أحد، وإن جَهِلَ عليهم حَلِمُوا. وقال مُقاتل ابن حَيَّان قالوا : سَلامًا، أي قَوْلًا يَسْلَمُون فيه مِن الإثم. وهذه الآية مُحْكَمَة عِند الأكثرين، وزعم قَوم أن المُراد بها أنهم يقولون للكفار: ليس بَيننا وبَينكم غَير السَّلام ، ثُم نُسِخَت بآية السَّيف)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٣) : ((﴿ وإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قالوا سَلامًا ﴾ أي : إذا سَفِهَ عليهم الجُهَّال بالقَول السَّيئ لَم يُقابلوهم عَلَيه بمِثْله ، بل يَعْفُون ويَصْفَحُون ، ولا يَقولون إلا خَيْرًا ، كما كان رسول اللَّه ﷺ لا تزيده شِدَّة الجاهل عليه إلا حِلْمًا)) .

وما أجملَ قَول الإمام الشافعيِّ :

يُخاطِبُني السَّفِيهُ بكلِّ قُبْحٍ ... فَأَكْرَهُ أن أكونَ لَهُ مُجِيبا
يَزِيدُ سَفَاهَةً وأزِيدُ حِلْمًا ... كَعُودٍ زادَهُ الإحراقُ طِيبا

*

٣_ الحَث على التَّفَقُّه في الدِّين

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما كانَ المؤمنونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائفةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون ﴾ [التَّوبة : ١٢٢] .

عِندما أمرَ اللَّهُ بالجِهَاد، وعَظَّمَ شَأنَه، ووبَّخ المُتخلِّفين عَنه، صارَ المُسلمون إذا بَعَثَ النبيُّ ﷺ سَرِيَّةً لِقِتال الكافرين ، يَخرُجون جميعًا إلى الجِهَاد في سبيل اللَّه ، ويَتركون النبيَّ ﷺ وَحْدَه في المدينة . وقد بيَّن اللَّهُ لهم أنَّه لا يَجوز ولا يَستقيم ولا يَصِحُّ أن يَخرُجوا جميعًا إلى الجِهَاد ، ويَتركوا المدينةَ خاليةً . فَهَلَّا خَرَجَ إلى الجِهَاد مِن كُل قبيلة (جماعة كثيرة) فِئة قليلة، ويبقى معَ النبيِّ ﷺ جماعة ، يعني الفِرقة القاعدين ، يتعلَّمون مِنه القُرآنَ والفرائض والسُّنَن والحُدُود وأحكام الشريعة والفِقه في الدِّين ، لِيُصبحوا فُقَهاء وعُلَماء، ويُعلِّموا قَوْمَهم إذا رَجعوا إلَيهم مِن الجِهاد ، ما نَزَلَ مِن القُرآن ، ويُخوِّفوهم بِه ، ويُرشدوهم إلى الحق والهُدى والصواب ، لعلَّهم يَحْذَرُون عذابَ اللَّه ومعصيته ، ويَخافون عِقابه الشديد بامتثال أوامره واجتناب نَوَاهيه .

والآيةُ تدلُّ على أنَّ الجِهاد فَرْض كِفَاية لا فَرْض عَيْن ، إذا قَامَتْ بِه جَمَاعة سَقَطَ الإثمُ عَن الجميع ، وإذا لَم يَقُمْ به أحد ، فالجميعُ آثِمُون . كما تدلُّ الآيةُ على ضرورة طَلَب العِلْم ، وأهمية التَّفَقُّه في الدِّين،لأنَّ جميع العِبادات قائمة عَلى الفِقْه ، وبدُون فِقْه تَبطُل العِبادات ، وتَفقد مَعناها.

وقد قالَ النبيُّ ﷺ : ((مَن يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين)) [١٤].

هذا يُشير إلى فَضيلة العِلْم ، وأهميةِ التَّفَقُّه في الدِّين، وضَرورة طَلَب العِلْم ، والحَث عَلَيه ، والدَّعوة إلَيه ، والمنزلة الرفيعة للعُلَماء والفُقَهاء ، الذين جَمَعُوا بين العِلْم النافع والعمل به . والفِقْهُ هو الطَّريق إلى تَقوى اللَّه ، وسعادةِ الدُّنيا ، ونعيمِ الآخِرة . ولَوْلا العُلَمَاء لَضَاعَ الناسُ وهَلَكُوا ،

---

١٤ متفق عليه. البخاري (١/ ٣٩) برقم (٧١) ، ومسلم (٢/ ٧١٨) برقم (١٠٣٧) . وفي سُنن ابن ماجة (١/ ٨٠) : (((يُفَقِّهْهُ في الدِّين) الفِقْه في الدِّين هو العِلْم الذي يُورِث الخَشية في القَلْب ، ويَظهَر أثَرُه على الجوارح. ويترتَّب عليه الإنذار ، كما يُشير إليه قَوله تعالى : ﴿ وما كانَ المؤمنونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائفةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون﴾ ، ... .__ قال الحسن __ : إنما الفقيه الزاهد في الدُّنيا ، الراغب في الآخِرة ، البصير بأمر دِينه ، الْمُدَاوِم على عِبادة رَبِّه)) .

وانهارت الحضارةُ ، وتَمَزَّقَ المجتمع ، وفَسَدَت الحياة ، ولَم يَعُدْ لها مَعنى ولا جَدوى . ولا شَكَّ أنَّ العِلْم بالتَّعَلُّم ، وذلك بمُلازَمة العُلَماء الرَّبَّانيين الذين جَمعوا بين التَّقوى والعِلْم النافع ، والتَّعَلُّم مِنهُم ، وطرح الأسئلة عَلَيهم ، للاستفادة مِن عِلْمهم ومَعرفتهم ، وشِفَاءُ العِيِّ (الجَهْل) السؤالُ . ومَفهوم الحديثُ أنَّ الشخص الذي لَم يَتَفَقَّه في الدِّين ، لَم يُرِد اللَّهُ بِه خَيْرًا . وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٢٤٢): (((مَن يُرِد اللَّهُ به خَيْرًا) بالتَّنكير في سِياق الشَّرْط فَيَعُم ، أي : مَن يُرِد اللَّهُ به جَميعَ الخَيرات (يُفَقِّهْهُ) بسُكون الهاء، لأنَّها جَواب الشَّرْط (في الدِّين) أي : يُفَهِّمْهُ عِلْمَ الشريعة بالفِقْه ، لأنَّه عِلْم مُسْتَنْبَط بالقَوانين والأدلة والأقْيِسَة ، والنَّظر الدَّقيق ، بِخِلاف عِلْم اللغة والنَّحْو والصَّرْف))اهـ.وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٥١٦ و٥١٧) : ((قَوله تعالى: ﴿ وما كانَ المؤمنونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ ، في سَبب نُزولها أربعة أقوال:أحدها أنَّه لمَّا أنزلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عُيوبَ المُنافقين في غَزوة تَبُوك،قال المؤمنون:واللَّهِ لا نتخلَّف عَن غَزوة يَغزُوها رسولُ اللَّه ﷺ ولا سَرِيَّة أبدًا ، فلمَّا أرسلَ السَّرَايا بعد تَبُوك نَفَرَ المُسلمون جميعًا ، وتركوا رسولَ اللَّه وَحْدَه ، فنزلتْ هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ... . قال الزَّجاج : ولَفْظ الآية لَفْظ الخَبَر ، ومَعناها الأمر ... . والمَعنى : ينبغي أن يَنفِر بعضُهم ، ويَبقى البعض . قال الفَرَّاء : يَنفِر ويَنفُر بكَسْر الفاء وضَمِّها لُغَتان . واختلف المُفسِّرون في المُراد بهذا النَّفِير على قَوْلَيْن : أحدهما أنَّه النَّفِير إلى العدو ، فالمعنى : ما كان لهم أن يَنفِروا بأجمعهم ، بَل تَنفِر طائفة ، وتبقى معَ النبيِّ ﷺ طائفة ، لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّين ، يَعني الفِرقة القاعدين ، فإذا رَجَعَت السَّرَايا ، وقد نَزَلَ بَعْدَهم قُرآن ، أوْ تَجَدَّدَ أمرٌ ، أعْلَمُوهم به ، وأنذروهم به ، إذا رجعوا إلَيهم . وهذا المعنى مرويٌّ عن ابن عباس . والثاني أنَّه النَّفِير إلى رسول اللَّه ﷺ ، بَل تَنفِر مِنهُم طائفة لِيَتَفَقَّه هؤلاء الذين يَنفِرون ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهم المُتخلِّفين ، هذا قول الحَسَن ، وهو أشبَه بظاهر الآية . فعلى القَول الأوَّل يَكون نَفِير هذه الطائفة مع رسول اللَّه ﷺ إنْ خَرَجَ إلى غَزَاة ، أوْ مَعَ سَرَاياه . وعلى القول الثاني يَكون نَفِير الطائفة إلى رسول اللَّه لاقتباس العِلْم)) اهـ . وقال القُرطبي في تفسيره (٨/ ٢٦٦) : ((طَلَب العِلْم يَنقسِم قِسْمَيْن : فَرْض على الأعيان كالصَّلاة والزكاة والصِّيام ... . وفَرْض على الكِفَاية ، كتحصيل الحُقُوق ، وإقامة الحُدُود ، والفَصْل بين الخُصُوم ، ونَحْوه ، إذْ لا يَصلُح أن يتعلَّمه جميع الناس ، فتضيع أحوالهم ، وأحوال سَرَاياهم ، وتَنقُص أو تَبطُل معايشهم ، فَتَعَيَّنَ بَيْن الحَالَيْن أن يَقوم به البعض مِن غَير تَعيين ، وذلك بحَسَب ما يسَّره اللَّهُ لعباده ، وقَسَمَه بينهم مِن رحمته وحِكمته بسَابِق قُدرته وكَلِمته . طَلَبُ العِلْم فضيلة عظيمة ، ومرتبة شريفة ، لا يُوازيها عَمَل)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما أرْسَلْنا قَبْلَكَ إلا رِجَالًا نُوحِي إلَيْهِم فَاسْأَلُوا أهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون ﴾ [الأنبياء : ٧] [١٥].

وما بَعَثَ اللَّهُ قَبْلَكَ يا مُحمَّد إلا رُسُلًا مِن البشر ، لا مَلائكة ، يُوحِي إلَيهم بواسطة المَلَك الشرائعَ والأحكامَ وبعضَ الأُمور الغَيْبِيَّة . فكيفَ يُنكِر المُشركون رسالتك يا مُحمَّد لأنَّكَ رَجُل مِن البَشَر ؟ . إنَّ جَميع الرُّسُل كانوا مِثْلَكَ يا مُحمَّد مِن البَشَر ، إلا أنَّهُم يُوحَى إلَيهم .

فاسألوا يا أهلَ مَكَّة عُلَمَاءَ اليَهُود والنصارى (أهل التَّوراة والإنجيل) ، هل كان الرُّسُل الذين جاؤوهم بَشَرًا أم مَلائكة ؟ ، إن كُنتم لا تَعْلَمُون ذلك .

وعلماءُ اليهودِ والنصارى يَعْلَمُون هذه الحقيقة ، ولا يُنكِرونها . وهذا يعني أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَيس بِدْعًا مِن الرُّسُل ، ولم يجئ بشيء غريب أو شاذ ، كما أنَّ ما أُوحِيَ إلى مُحمَّد ﷺ لا يُعَارِض ما أُوحِيَ إلى الرُّسُل مِن قَبْله. وجميعُ الرُّسُل كانوا رِجَالًا يَنتمون إلى الجِنس البشريِّ ، ولَيسوا مَلائكة.

وقد أمرَ اللَّهُ المُشركين بسؤال عُلماء أهل الكِتاب ــ مَعَ أنَّهُم يُنكِرون نُبُوَّةَ مُحمَّد ﷺ ــ ، لأنَّ المُشركين إلى تَصديق الكافرين بالنبيِّ ﷺ أقرب مِنهُم إلى تَصديق المؤمنين به . وأيضًا ، لقد كانَ المُشركون يُشاورون أهلَ الكتاب في أمر النبيِّ ﷺ ، ويَثِقون بكلامهم ، ويأخذون برأيهم ، وهذا يُفيد الإلزام ، وإقامة الحُجَّة على المُشركين ، وإزالة شُبهتهم . كما أنَّ إخبار العدد الكثير مِن الناس يُوجِب العِلْم ، وإن كانوا كُفَّارًا .

لقد كانَ الرُّسُلُ بَشَرًا ، وهذا فضل ونِعمة مِن اللَّه على الناس ، إذْ بَعَثَ فِيهُم رُسُلًا مِنهُم (مِن جِنسهم) ، كَي يتمكَّنوا مِن الأخذ عنهم ، والتعامل معهم ، بلا حواجز ، ولا عوائق .

---

١٥ قال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/ ٤٤٩و٤٥٠): ((... ، فاسألوا يا مَعْشَرَ المشركين أهلَ الذِّكْر ، وفيهم أربعة أقوال : أحدها أنهم أهل التَّوراة والإنجيل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أهل التَّوراة، قاله مجاهد. والثالث أهل القُرآن، قاله ابن زيد. والرابع العلماء بأخبار مَن سَلَفَ، ذَكَرَه الماوردي . وفي قَوله تعالى : ﴿ إن كُنتم لا تَعْلَمُون﴾ قَولان : أحدهما لا تَعْلَمُون أن اللَّه تعالى بَعَثَ رَسُولًا مِن البَشر . والثاني لا تَعْلَمُون أن محمدًا رسول اللَّه. فعلى القَول الأوَّل جائز أن يُسأل مَن آمنَ برسول اللَّه ومَن كَفَر ، لأن أهل الكتاب والعِلْم بالسِّيَر مُتَّفقون على أن الأنبياء كُلَّهم مِن البشر . وعلى الثاني إنما يُسأل مَن آمنَ مِن أهل الكتاب . وقد رُوِيَ عن مجاهد : ﴿ فَاسْأَلُوا أهْلَ الذِّكْرِ ﴾ ، قال : عبد اللَّه بن سلام . وعن قَتادة قال : سلمان الفارسي)) .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه : وما أرْسَلْنا يا مُحمَّد رَسُولًا إلى أُمَّة مِن الأُمم التي خَلَتْ مِن قَبْل أُمَّتك إلا رجالًا مِثْلَهُم ، نُوحِي إليهم ما نُريد أن نُوحِيَه إلَيهم ، مِن أمْرِنا ونَهْيِنا ، لا ملائكة . فماذا أنكَروا مِن إرسالنا لَكَ إلَيهم وأنتَ رَجُل كسائر الرُّسُل الذين قَبْلك إلى أُمَمهم . وقَوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون﴾ . يقول للقائلين لمُحمَّد ﷺ في تَناجيهم بَيْنَهم : هل هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُم ، فإن أنكرتم وجَهِلْتُم أمرَ الرُّسُل الذين كانوا مِن قَبْل مُحمَّد ، فلم تَعْلَمُوا أيُّها القَوم أمْرَهم ، إنسًا كانوا أم ملائكة ، فاسألوا أهل الكُتب مِن التَّوراة والإنجيل ما كانوا ، يُخبروكم عَنهُم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٤٠) : ((قَوله تعالى : ﴿وما أرْسَلْنا قَبْلَكَ إلا رِجَالًا نُوحِي إلَيْهِم ﴾ . هَذا رَد عَلَيهم في قَولهم : ﴿ هَل هَذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُم ﴾ [الأنبياء : ٣] ، وتأنيس لِنَبِيِّه ﷺ . أي : لَم يُرسَل قَبْلَك إلا رِجَالًا ، ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون﴾ . يُريد أهلَ التَّوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ، قاله سُفيان. وسمَّاهم أهلَ الذِّكْر، لأنهم كانوا يَذكُرون خَبَرَ الأنبياء مِمَّا لَم تَعْرِفْه العربُ،وكان كُفَّار قُرَيش يُراجعون أهلَ الكِتاب في أمر مُحمَّدﷺ وقال ابن زَيد : أراد بالذِّكْر القُرآن ، أي : فاسألوا المُؤمنين العَالِمِين مِن أهل القُرآن . قال جابر الجُعفي : لمَّا نَزلت هذه الآية ، قال عليٌّ رضي اللَّهُ عنه : نَحْنُ أهل الذِّكْر . وقد ثبت بالتواتر أن الرُّسُل كانوا مِن البَشَر ، فالمعنى : لا تَبدؤوا بالإنكار ، وبقَولكم : يَنبغي أن يَكون الرَّسول مِن الملائكة ، بَل نَاظِرُوا المؤمنين لِيُبَيِّنُوا لكم جَواز أن يَكون الرسول مِن البَشَر . والمَلَكُ لا يُسمَّى رَجُلًا ، لأن الرَّجُل يَقع على ما له ضِد مِن لَفْظه ، تقول : رَجُل وامرأة ، ورَجُل وصبي. فقَوله: ﴿ إلا رِجَالًا ﴾ مِن بَني آدم ... ﴿ نُوحِي إلَيْهِم ﴾ . مسألة : لَم يختلف العُلماء أن العامَّة عليها تقليد عُلمائها،وأنَّهُم المُراد بقَول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ:﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون﴾[النَّحْل: ٤٣]. وأجْمَعُوا على أن الأعمى لا بُد له مِن تَقليد غَيْرِه مِمَّن يثق بمَيزه بالقِبلة إذا أُشكِلَتْ عَلَيه ، فكذلك مَن لا عِلْمَ له ولا بَصَر ، بمعنى ما يَدين به ، لا بُد له مِن تَقليد عَالِمه ، وكذلك لَم يختلف العُلَماءُ أنَّ العامَّة لا يَجوز لها الفُتيا لجَهْلها بالمعاني التي مِنها يَجوز التَّحليل والتحريم)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣٤) : ((يقول تعالى رادًّا على مَن أنكرَ بَعثةَ الرُّسُل مِن البشر : ﴿وما أرْسَلْنا قَبْلَكَ إلا رِجَالًا نُوحِي إلَيْهِم ﴾ ، أي : جَميع الرُّسُل الذين تَقَدَّمُوا كانوا رِجالًا مِن البَشَر ، لم يكن فيهم أحد مِن المَلائكة ، كما قال في الآية الأُخرى : ﴿ وما أرْسَلْنا مِن قَبْلِكَ إلا رِجَالًا نُوحِي إلَيْهِم مِن أهْلِ القُرَى ﴾[يُوسُف : ١٠٩] . وقال تعالى : ﴿ قُل ما كُنتُ بِدْعًا مِنَ

الرُّسُلِ ﴾[الأحقاف : ٩] . وقال تعالى حِكايةً عمَّن تَقَدَّمَ مِن الأُمم ، لأنهم أنكَروا ذلك، فقالوا: ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُوننا ﴾[التَّغَابُن : ٦]. ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون﴾ أي : اسألوا أهلَ العِلْم مِن الأُمَم كاليَهود والنَّصارى وسائر الطوائف : هل كان الرُّسُل الذين أَتَوْهُم بَشَرًا أو مَلائكة ؟ ، وإنَّما كانوا بَشَرًا ، وذلك مِن تَمَام نِعمة اللَّه على خَلْقه ، إذْ بَعَثَ فِيهِم رُسُلًا مِنهُم يتمكَّنون مِن تناوُل البَلاغ مِنهُم ، والأخذ عَنهُم)) .

*

٤_ الحَث على التفكر واستخدام العقل

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أتأمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وَتَنسَوْنَ أنفُسَكُم وأنتُم تَتْلُونَ الكِتَابَ أفلا تَعْقِلُون ﴾ [البقرة : ٤٤] .

هؤلاء يأمرون الناس بالخَير ويَنْسَوْنَ أنفسَهم . أي إن كلامهم يتعارض معَ واقع حالهم . وهذا الانفصام في الشخصية يؤدِّي إلى ضياع البُوصلة الإنسانية، وتحوُّل الفرد إلى كيان مُفرَغ مِن المعنى ، وتُصبح الكلماتُ مُجرَّد شِعارات رنَّانة ، لا تنعكس على السلوك البشريِّ والحياةِ العامة .

وهذه الآفةُ موجودة في كل العُصور، وتكمن خطورتها في انشغال المجتمع بالكلام دون العمل ، واختفاء العِلْم في حِبر الكُتب دون القُدرة على الاستفادة مِنه على أرض الواقع .

والنهضةُ الاجتماعية في شتَّى المجالات لا تَحصل إلا بالعمل بالعِلْم النافع ، أي تحويل العِلْم إلى واقع ملموس ، وتحويل النظريات الفكرية إلى تطبيقات في الحياة المُعاشة ، تُساهم في رفع مستوى الإنسان روحيًّا وماديًّا ، وجعل المجتمع أكثر إشراقًا وتقدُّمًا .

والعِلْمُ المُجَرَّدُ من العمل يَقُود إلى غياب الثقة بين الفرد ونَفْسه ، وبين الفرد والجماعة ، فيتحول المجتمعُ إلى جُزُر مُتباعدة بلا هُوية ، ولا رابط بينها ، مشغولة بالجِدال العقيم ، ومحرومة مِن العمل المُفيد . والمِحَكُّ الحقيقيُّ هو العمل ، لأن الكلام سَهْلٌ لا يحتاج إلى جهود جبَّارة وخُطط تنموية وبرامج إصلاح ومشاريع تطوير ، ولكن التطبيق العملي في غاية الصعوبة .

والاستفهامُ في الآية: ﴿ أَتَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ ﴾ معناه التَّوبيخ والتقريع. والخطابُ الإلهيُّ لليهود.

كيفَ تأمرون الناسَ بالخَير والحق والطاعة والإيمان بمُحمَّد ﷺ ، وأنتم ثابتون على الشر ، ومُتمسِّكون بالباطل، ومُلازِمون للمعصية ، ومُكذِّبون بمُحمَّد ﷺ ، وتتركون أنفسَكم فلا تأمرونها بذلك ، وأنتم تقرؤون وتَدْرُسون التَّوراةَ وفيها صِفة مُحمَّد ﷺ ، وتَعْلَمُون ما فيها مِن الوعيد على مُخالَفة القَول الفِعل. أفلا تَعقِلون أنه حق فتتَّبعونه ؟! . وكُل طاعة للَّه تُسمَّى بِرًّا . وقد كان الرَّجل من اليهود يقول لقريبه وحليفه من المسلمين إذا سأله عن أمر مُحمَّد ﷺ : اثبُت على دِينه ، فإن أمره حق ، وقَوله صِدق. وفي الدُّر المَنثور للسُّيوطي (١/ ١٥٦) : وأخرج الثعلبي والواحدي عن ابن عباس قال : ((نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة ، كان الرَّجل منهم يقول لصِهْره ولذوي قرابته ولمن بَيْنه وبَيْنهم رَضاع من المسلمين : اثبُت على الدِّين الذي أنتَ عليه ، وما يأمرك به هذا الرَّجل _ يَعنون به مُحَمَّدًا _ ، فإنَّ أمره حق ، وكانوا يأمرون الناس بذلك ، ولا يَفعلونه)) .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٢٩٦) : ((عن ابن عباس : ﴿ أَتَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُم وَأَنتُم تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾ . أي : تَنْهَوْنَ الناسَ عن الكُفر بما عِندكم مِن النُّبُوَّة والعُهدة مِن التَّوراة ، وتتركون أنفسكم . أي : وأنتم تكفرون بما فيها مِن عَهْدي إليكم في تصديق رسولي ، وتنقُضون مِيثاقي، وتَجْحَدون ما تَعْلَمُون مِن كتابي... . عن ابن عباس في قَوله: ﴿ أَتَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ ﴾ . يقول : أتأمرون الناسَ بالدخول في دِين مُحمَّد ﷺ وغَير ذلك مِمَّا أُمِرْتُم بِه مِن إقام الصَّلاة ﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُم ﴾ ... . _ وقال الطبري _: أتأمرون الناس بطاعة اللَّه وتتركون أنفسكم تعصيه ؟ ، فهلَّا تأمرونها بما تأمرون به الناس من طاعة رَبِّكم ؟ مُغَيِّرهم بذلك ، ومُقَبِّحًا لهم قَبيح ما أَتَوْا به . ومعنى نسيانهم أنفسهم ... تركوا طاعة اللَّه فتركهم اللَّهُ من ثوابه ... . يَعني بقَوله: ﴿ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾ أفلا تَفقَهون وتَفهمون قُبْحَ ما تَأتون مِن معصيتكم ربكم التي تأمرون الناس بخِلافها ، وتَنْهَوْنَهم عن ركوبها ، وأنتم راكبوها ، وأنتم تعلمون أن الذي عليكم من حق اللَّه وطاعته واتِّباع مُحمَّد والإيمان به وبما جاء به ، مِثل الذي على مَن تأمرونه باتِّباعه ؟ ... . عن ابن عباس : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾ يقول : أفلا تَفْهَمون ؟ . يَنهاهم عن هذا الخُلُق القبيح . قال أبو جعفر _ الطبري _ : هذا يدل على صحة ما قُلنا من أمر أحبار يهود بني إسرائيل غَيْرَهم باتِّباع مُحَمَّد ﷺ ، وأنهم كانوا يقولون : هو مَبعوث إلى غَيْرنا)) .

وكما قال الشاعر :

وَصَفْتَ التُّقى حتى كأنك ذو تُقى ورِيحُ الخطايا مِن ثيابك تَسْطَعُ

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((يُجَاءُ بالرَّجل يوم القيامة ، فيُلقَى في النار ، فَتَنْدَلِقُ أقتابُه _ أي أمعاؤه _ في النار ، فيدور كما يدور الحِمار برَحاه ، فيجتمع أهل النار عليه ، فيقولون : أي فُلان ، ما شَأنُك ؟ ، أليسَ كُنتَ تأمرُنا بالمعروف وتنهانا عن المُنكَر ؟ ، قال : كُنتُ آمُرُكُم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المُنكَر وآتيه)) [١٦].

يُوضِّح الحديثُ خُطورة عدم تطابق القَول والفِعل . وهذا التناقض الصارخ يؤدي إلى عواقب وخيمة . ففي الدُّنيا يَغدو الفردُ مُنفصِمَ الشَّخصية ، لا يَشعُر بحلاوة الإيمان وتطبيقاته العملية على أرض الواقع ، وهذا يجعل الفردَ ضائعًا في مَتاهة القَلَق والحَيْرة وعَدَم الاستمتاع بالحياة .

---

١٦ متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٩١) برقم (٣٠٩٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠)برقم (٢٩٨٩) .

وفي الآخرة سوف يُلاقي جزاءَ سيِّئاته، فقد كان يُرشد الآخرين إلى المعروف، وهو يَغوص في المُنكَر . ومَثَلُه كَمَثَل إنسان يُرشِد الآخَرين إلى الطريق الآمِن ، ويقع هُوَ في الحُفرة .

والحديثُ يَحمل وعيدًا شديدًا وتخويفًا رهيبًا لكل شخص يُخالِف قَوْلُه فِعْلَه.وعلى الإنسان أن لا يُكذِّب نَفْسَه بنَفْسه،ولا يُكثِّر حُجَجَ اللَّه عليه،ويجب أن يسعى جاهدًا لتطهير نَفْسه مِن الذُّنُوب والآثام . وفي نفْس الوقت ، يُرشِد الآخرين إلى طريق الإيمان والعبادات والطاعات . والمُسلم مِرْآة أخيه ، وهو قُويٌّ بإخوانه . وإذا ارتكبَ ذَنْبًا أو اقترفَ مُنْكَرًا ، فليرجع إلى اللَّه بالتَّوبة الصادقة .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُم لا يَعْقِلُون ﴾ [البقرة : ١٧١] .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للكافرين ، في ضَلالهم وجَهْلهم وعِنادهم وغَبائهم . وهذا المَثَل الإلهيُّ الحَكيم يُوضِّح حالَ الكافرين السَّيئة ، فهُم كالأنعام والبهائم والدواب التي تَسمع صَوت الرَّاعي ، ولكن لا تَفهم مَعناه ، ولا تَعقِله . يَصِلها الصَّوت بشكل مُجرَّد، ولكن لا تَعرف المقصود مِنه . إنها تَحُسُّ بالنِّداء وتَشعر بِه، ولكنها لا تَفهم مَعناه ، ولا تعرِف مَغزاه . والنعيق والنعق صياح الراعي بالغنم.وكذلك الكافرون يَسمعون كلامَ اللَّه ومواعظه وحِكَمه وإرشاداته،لكنهم لا يَنتفعون بشيء مِن ذلك، ولا يَستفيدون مِنه،فكأنهم لَم يَسمعوه أصلًا. وهذا يدل على غرقهم في الكفر والضلال، مِمَّا أدَّى إلى غياب عقولهم، ومَوت قلوبهم، وتعطُّل حواسِّهم،وعجزهم عن التفكر والتأمُّل والفهم.

إن النبيَّ ﷺ يَدعو الكافرين إلى نُور الإيمان واعتناق الحق ، بالأسلوب اللطيف ، والكلام البَليغ المُؤثِّر ، والدليل والبُرهان ، ويَستخدم الترغيبَ والترهيب ، ويُوضِّح القضايا والمسائل ، ويُزيل الشُّبُهات ، ويُقيم عليهم الحُجَّة ، ويَقطع أعذارهم . ولكن الكافرين لا يَستفيدون مِن هذه المواعظ ، ولا يَنتفعون بِها ، ولا يتدبَّرونها ، كالبهائم التي تَسمع صَوت راعيها ، ولكنها لا تَفهمه.

وقد وصفهم اللَّهُ بالصُّم لأنهم لا يَسمعون الحق ، والبُكْم (الخُرْس) لأنهم لا يَقولون الصوابَ، ولا يَنطِقون بالحق ، ولا يَعترفون بالوَحْي والنُّبُوَّة ، والعُمْي لأنهم لا يَرَوْنَ الآيات الباهرة ، والمُعجِزات العظيمة ، والبراهين الواضحة ، ولا يُبصِرون طريقَ الحَق والهُدى والصَّواب .

إنَّهُم لَم يَستفيدوا مِن أعضائهم وجوارحهم وحواسِّهم في معرفة الحق والإيمان والهدى. وقد رَفضوا الإيمانَ ، ولَم يَقبلوا بالوَحْي والنُّبُوَّة ، ولَم يَستفيدوا مِن الآيات والمواعظ ، فكان وجود حواسِّهم كعدمها ، بلا فائدة ، ولا نَفْع ، ولا جَدوى . وهذا يدلُّ على غياب تام للعقل والفهم . إنهم لا يَعقِلون ، ولا يَفهمون .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٢٠٩): ((شبَّه تعالى وَاعِظَ الكفار وداعيهم ، وهو مُحمَّد ﷺ بالرَّاعي الذي يَنعِق بالغنم والإبل ، فلا تسمع إلا دُعاءه ونداءه ، ولا تفهم ما يقول . هكذا فسَّره ابن عباس ، ومُجاهد ، وعِكرمة ، والسُّدي ، والزَّجاج ، والفرَّاء ، وسِيبَوَيْه ، وهذه نهاية الإيجاز)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ كذلكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُم تَعْقِلُون ﴾ [البقرة : ٢٤٢] .

يُوضِّح اللَّهُ للناس الأحكامَ والشرائعَ والحلالَ والحرامَ والحُدُودَ والأوامرَ والنَّوَاهي ، ويُفَسِّرها لهم ، كَي يَعقِلوا ما فِيها ، ويَفهموها ، ويتدبَّروها ، ويَعملوها بمُوجبها ، ويُطبِّقوها على أرض الواقع.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٤١) : ((﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ ﴾ ، وَعَدَ بأنَّه سَيُبَيِّن لِعِباده مِن الدَّلائل والأحكام ما يحتاجون إليه مَعَاشًا ومَعَادًا ، ﴿ لَعَلَّكُم تَعْقِلُون ﴾ ، لَعَلَّكُم تَفهمونها ، فتستعملون العَقْلَ فيها)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (١/ ٢٣٧) : ((﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ ﴾ الدَّالَّة على أحكامه التي شَرَعَها لعباده ، ﴿ لَعَلَّكُم تَعْقِلُون ﴾ ، لِكَي تَفهموا ما فِيها ، وتَعْمَلُوا بمُوجبها)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٨٧) : ((أي : يُثبِت لكم وَصْفَ العُقَلاء باستعمال ما بيَّن لكم . وثَمَرَةُ العَقْل استعمال الأشياء المُستقيمة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يُؤْتي الحِكمةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكمةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيْرًا كثيرًا وما يَذَّكَّرُ إلا أُولُو الألبابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

الحِكْمَةُ مَأخوذة مِن الإحكام ، وهو الإتقان في القَول والفِعل . والحِكمةُ هِيَ العِلْم النافع المُؤدِّي إلى العمل الصالح ، وهي تَمنع الإنسانَ من السَّفَه والطَّيش والأقوال السَّيئة والأفعال القبيحة،وتُرشده إلى الحق والصواب . والحِكمة _ أيضًا_ هي العمل بالعِلم النافع . ورأس الحِكمة مخافة اللَّه . واللَّهُ يُؤتي الفهمَ والإصابة في القَول والفِعل مَن يشاء مِن خَلْقه. وهذا يدل على خُصوصية الحِكمة، وأنَّها تُمنَح لأشخاص مُحدَّدين ، وَفْق مَشيئة اللَّه النافذة وحِكمته البالغة .

ومَن يُعْطَ الحِكمةَ فقد أُعْطِيَ خَيرًا كثيرًا وفضلًا عظيمًا ، لأنَّها طريق السَّعادة في الدُّنيا ، والنعيم الأبديِّ في الآخِرة. وتَكرير ذِكْر الحِكمة لبيان عَظَمَتها وأهميتها وشَرَفها . وما يتَّعظ بآيات اللَّه وأحكامه وشرائعه ، إلا أصحاب العُقول السليمة البعيدة عن الأوهام والأهواء ، الذين عَقَلُوا عَن اللَّه أمْرَه ونَهْيَه ، وحوَّلوا العِلْمَ النافع إلى تطبيق عَمَلي . والآيةُ تدلُّ على أنَّ المواعظ لا تَنفع إلا أصحابَ العُقول النَيِّرة ، أمَّا الجُهَّال فلا يَستفيدون مِن المواعظ ، ولا يَنتفعون بالأحكام . وهذا يُوضِّح أهمية العَقْل ، فهو مَنَاط التَّكليف . وإذا أَخَذَ اللَّهُ ما أَوْهَب ، أسقطَ ما أَوْجَب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٢٤): ((في المُراد بهذه الحِكمة أحد عشر قَوْلًا : أحدها أنها القُرآن ، قاله ابن مسعود ومُجاهد والضَّحاك ومقاتل في آخرين. والثاني معرفة ناسخ القُرآن ومَنسوخه ومُحْكَمه ومُتَشَابِهه ومُقَدَّمه ومُؤخَّره، ونَحْو ذلك، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث النُّبُوَّة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع الفَهْم في القُرآن، قاله أبو العالية وقَتادة وإبراهيم . والخامس العِلم والفِقه ، رواه ليث عن مجاهد. والسادس الإصابة في القَول، رواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد. والسابع الوَرَع في دِين اللَّه ، قاله الحسن . والثامن الخَشية للَّه ، قاله الربيع ابن أنس . والتاسع العَقْل في الدِّين ، قاله ابن زيد . والعاشر الفَهْم ، قاله شَريك. والحادي عشر العِلم والعَمل. لا يُسمَّى الرَّجل حكيمًا إلا إذا جمعهما، قاله ابن قُتَيبة)) .

إنَّ النُّبُوَّة هي الحِكمة العُليا التي لا يَعلوها شيء . ولكن الحكمة لا تختصُّ بالنُّبُوَّة ، فمفهوم الحكمة واسع وشامل . والسائرون على خُطى الأنبياء لهم نصيب مِن الحق والهدى والخير ، لأنهم تابعون لأعظم البشر الذين يأتيهم الوَحْيُ السماويُّ . وهؤلاء التابعون هم العُلماء الراسخون في العِلم ، الذين يَعملون بالعِلم النافع .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : ((مَن قَرأ القُرآنَ ، فقد استدرجَ النُّبُوَّةَ بين جَنْبَيْه ، غَيْرَ أنَّه لا يُوحَى إلَيه)) [١٧] .

تتَّضح فضيلةُ القُرآن العظيمة. فَمَن قَرأ القُرآنَ وحَفِظَه، وأصبحَ في صَدره محفوظًا ، فقد جَمَعَ النُّبُوَّةَ في صَدْره ، لأنَّ القُرآنَ كلامُ اللَّهِ أوحاه اللَّهُ إلى مُحمَّد ﷺ، فَمَن اعتنى بالقُرآن قراءةً وحِفْظًا وفَهْمًا صارَ شَبيهًا بالنبيِّ ﷺ إلا أنه ليس نَبِيًّا ولا يُوحَى إلَيه لأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ خَاتَمُ الأنبياء .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ لآيَاتٍ لأُولي الألبابِ ﴾ [آل عِمران : ١٩٠] .

إنَّ في خَلْق السَّماوات والأرض بهذا الشَّكل البديع ، والصُّورة الرائعة ، وما فِيهما مِن المَصنوعات الرائعة والعجائب الباهرة ، وتعاقُب الليل والنهار على الدوام (المَجيء والذهاب والطُّول والقِصَر) ، لَعَلامات عَلى وُجود اللَّه الصانع ، ووَحدانيته ، وعِلْمه الشامل ، وقُدرته المُطْلَقة ، لأصحاب العقول النَيِّرة الذين يتفكَّرون في الدَّلائل ، ويتدبَّرونها ، ويُدرِكون حقائق الأشياء، بعيدًا عن الأوهام الذاتية ، والأهواء الشخصية ، والمصالح المادية الدنيئة .

---

١٧ رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٧٣٨) برقم (٢٠٢٨) وصحَّحه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ ﴾ ، في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ قُرَيْشًا قالوا لليهود : ما الذي جاءكم به مُوسى ؟ ، قالوا : عَصَاه ويَده البَيضاء ، وقالوا للنَّصارى : ما الذي جاءكم به عِيسى ؟ ، قالوا : كان يُبرِئ الأكمهَ والأبرصَ ، ويُحْيي المَوتى ، فَأتَوا النبيَّ ﷺ ، وقالوا : ادْعُ رَبَّكَ يَجعل لنا الصَّفَا ذَهَبًا ، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن جُبَير عن ابن عباس . والثاني أنَّ أهل مكة سَألوه أن يَأتِيَهم بآية ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث أنَّه لمَّا نزل قَوله تعالى : ﴿ وإلَهُكُم إلَهٌ واحد ﴾ [البقرة : ١٦٣] ، قالت قُرَيش : قد سَوَّى بين آلهتنا ، ائْتِنَا بآية ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو الضُّحى ، واسمه مُسلم بن صُبَيح)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٢٩) : ((﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ لآيَاتٍ لأُولي الألبابِ ﴾ ، لَدَلائل واضحة على وُجود الصانع، ووَحْدته، وكَمال عِلْمه ، وقُدرته ، لِذَوِي العُقول المَجْلُوَّة الخالصة مِن شَوَائب الحِس والوَهْم ... . ولعلَّ الاقتصار على هذه الثلاثة في هذه الآية ، لأنَّ مَنَاط الاستدلال هو التَّغيير ، وهذه مُتعرِّضة لجُملة أنواعه ، فإنَّه إمَّا أن يكون في ذات الشَّيء ، كَتَغَيُّر الليل والنَّهار ، أو جُزئه كَتَغَيُّر العناصر بِتَبَدُّل صُوَرها ، أو الخارج عَنه كَتَغَيُّر الأفلاك بِتَبَدُّل أوضاعها . وعن النبيِّ ﷺ : " وَيْلٌ لِمَن قَرَأها وَلَم يتفكَّر فِيها " [١٨])) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (١/ ١٩٧) : ((﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ لآيَاتٍ ﴾ ، لَأدلة واضحة على صَانع قديم عليم حكيم قادر ﴿ لأُولي الألبابِ ﴾ ، لِمَن خَلَصَ عَقْلُه عَن الهَوى خُلُوص اللُّب عَن القِشْر ، فَيَرى أنَّ العَرَض المُحْدَث في الجواهر ، يدلُّ على حُدوث الجواهر ، لأنَّ جَوْهَرًا ما لا يَنفك عَن عَرَض حَادِث ، وما لا يَخلو عن الحَادث، فهو حَادِث ، ثُمَّ حُدُوثها يدلُّ على مُحْدِثها ، وذا قديم ، وإلا لاحتاجَ إلى مُحْدِث آخَر إلى ما لا يتناهى. وحُسن صُنعه يدلُّ على عِلْمه ، وإتقانه يدلُّ على حِكمته، وبقاؤه يدلُّ على قُدرته)) .

وفي صحيح البخاري (٥ / ٢٢٩٥) : عن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : بِتُّ في بَيت مَيمونة ، والنبيُّ ﷺ عِندها ، فلمَّا كان ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ ، أوْ بَعْضُه ، قَعَدَ ، فَنَظَرَ إلى السَّماء ، فَقَرَأ : ((﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ لآيَاتٍ لأُولي الألبابِ ﴾)) .

---

١٨ رواه ابن حِبَّان في صحيحه (٢/ ٣٨٦) .

كان ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ والصحابة عُمومًا ، حريصين على معرفة طريقة حياة النبيِّ ﷺ، وأسلوب معيشته ، وتفاصيل عبادته ، كَي يَقتدوا بِه ، ويُحاولوا التَّشَبُّه به في كُل صغيرة وكبيرة . وابن عباس ـ بحُكم قرابته مِن النبيِّ ﷺ ـ استفادَ مِن عِلْم النبيِّ ﷺ وعِبادته وأُسلوب حياته الشخصية ، فهو ابن عَم النبيِّ ﷺ ، وابن أُخت زَوجته مَيمونة بنت الحارث أُم المؤمنين .

لقد بَاتَ ابن عباس عِند خالته مَيمونة ، والنبيُّ ﷺ عِندها ، فلمَّا كان ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ ، أوْ بَعْضُه ، وهذا وَقْت شريف عظيم مُناسب للعبادة والتَّقَرُّب إلى اللَّه تعالى ، قَعَدَ النبيُّ ﷺ ، فَنَظَرَ إلى السَّماء مُتَأمِّلًا في عَظَمتها ، ومُتفكِّرًا في صُنعها البديع ، الذي يدلُّ على عَظَمَة اللَّه الصانع ، ووَحدانيته وعِلْمه وقُدرته ، فَقَرَأ ﷺ : ((﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ لآيَاتٍ لأُولي الألبابِ ﴾)) . والمعنى : إنَّ المخلوق يدلُّ على الخالق ، والمصنوع يدلُّ على الصانع . وفي خَلْقُ السماوات والأرض وتعاقُب الليل والنهار لَعَلامات على عَظَمَة اللَّه ووَحدانيته ، لأصحاب العُقول النَيِّرة الذين يتفكَّرون في حقائق الأشياء ، ويتدبَّرونها ، ويَعرِفون عَظَمَةَ الصانع .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذا نَادَيْتُمْ إلى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بأنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُون ﴾ [المائدة : ٥٨] .

إذا أذَّنتُم إلى الصلاة ودَعَوْتُم إليها، سَخِرَ اليهود والنصارى والمشركون مِنها،واستهزؤوا بكم. إنهم يتضاحكون ويتغامزون فيما بينهم ، ويَغرَقون في السَّفَه والطَّيْش والمُجُون تجهيلًا للمؤمنين وسُخريةً مِنهم ، ومِن أذانهم وصلاتهم .

وهذا يدل على جهلهم باللَّهِ وكُرههم للحق ، وحسدهم للمؤمنين ، وعدم معرفتهم بشريعة اللَّه ومعنى عبادته . لذلك اعتمدوا مبدأ الاستهزاء بأحكام الشريعة ، والسُّخرية مِن الدِّين . وفي هذا دَلالة واضحة على كُفرهم وضلالهم وشقاوتهم . وكان الكفارُ إذا سَمِعُوا الأذانَ إلى الصَّلاة سَخِرُوا واستهزؤوا،وإذا شاهدوا المسلمين يَركعون ويَسجُدون، ضَحِكُوا ولَعِبُوا . إن الصلاة أعظم الأعمال وأفضل العبادات لَو كانوا يَفهمون أو يَعْقِلون، ولكن عقولهم محصورة في مصالح الدنيا،ومنافعهم الشخصية، ولا يَفهمون حِكمة الأذان والصلاة ، ولا يَعْرِفون معنى العبادات وأهميتها . ونَفْيُ العقل عنهم ، لأنهم لَم يستفيدوا مِنه في أمر دِينهم ، ولَم يَنتفعوا بِه لفهم المُراد الإلهيِّ ، ووُجُودُ عُقولهم كعدمه . فكأنهم بلا عقول أصلًا .

والسُّخريةُ والاستهزاء واللعب مِن خصائص الجاهلين الطائشين السُّفَهاء ، أمَّا العُقَلاء فإن عقولهم تمنعهم مِن القبائح والأمور السَّيئة .

والآيةُ تدل بوضوح على شرعية الأذان ، وثُبوته بنَص القُرآن . كما تدل على أن المُستهزِئ بالأذان أو الصلاة، هو عَدُوٌّ أحمق ، ينبغي إيقافه عن حَدِّه ، وعدم محبته ولا مُوالاته . والإيمانُ الحقيقيُّ يَرفض مُوالاة أعداء الدِّين .

والدِّينُ الإسلاميُّ مُنَزَّهٌ عن السُّخرية والاستهزاء واللعب ، والمُستهزِئ إنما يَضُرُّ نَفْسَه ، ويُدمِّر حياته، ويَقضي على مستقبله، ويَجعل نَفْسَه أضحوكةً في الدنيا ، ومصيره عذاب النار يوم القيامة. وما ضَرَّ السَّحَابَ نُباحُ الكلاب . والقافلةُ تَسير والكلاب تَنبح . وصدق القائل : لَن تصل أبدًا إلى وِجهتك إذا توقفتَ لتُلقيَ حجرًا على كُل كلب ينبح .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٨٥و٣٨٦):((قَوله تعالى: ﴿ وإذا نَادَيْتُم إلى الصَّلاةِ ﴾ في سبب نزولها قَولان : أحدهما أنَّ مُنادي رسول اللَّه ﷺ كان إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها ، قالت اليهود : قاموا لا قاموا ، صَلُّوا لا صَلُّوا ، على سبيل الاستهزاء والضحك ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب . والثاني أن الكفار لَمَّا سمعوا الأذانَ حسدوا رسولَ اللَّه ﷺ والمسلمين على ذلك ، وقالوا : يا مُحمَّد لقد أبدعتَ شيئًا لَم نسمع به فيما مضى من الأمم الخالية ، فإن كنتَ تدَّعي النُّبُوَّة فقد خالفتَ في هذا الأذان الأنبياء قَبلك ، فما أقبحَ هذا الصوت وأسمجَ هذا الأمر ، فَنَزلت هذه الآية ، ذكره بعض المفسرين . وقال السُّدي : كان رَجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي يُنادي : أشهد أن مُحمَّدًا رسول اللَّه ، قال : حُرِقَ الكاذب ، فَدَخلت خادمة ذات ليلة بنار وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارة ، فأحرقت البيت ، فاحترق هو وأهله . والمُناداة هي الأذان ، واتخاذهم إيَّاها هُزُوًا تَضَاحُكُهم وتَغَامُزُهم . ﴿ ذَلِكَ بأنهم قَوْمٌ لا يَعْقِلُون ﴾ ما لهم في إجابة الصلاة ، وما عليهم في استهزائهم بِها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ما جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ ولا سائِبَةٍ ولا وَصِيلَةٍ ولا حَامٍ ولَكِنَّ الذينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلى اللَّهِ الكَذِبَ وأكْثَرُهُم لا يَعْقِلُون ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

قَوْله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ ﴾، أي: ما حَرَّمَ اللَّهُ ، وحقيقةُ الجَعْلِ غير مُرادة ، لأن كُلَّ شيء خَلَقَه اللَّهُ تعالى . والآيةُ تُوضِّح بِدْعَةَ المُشركين التي اخترعوها مِن بنات أفكارهم . وقد كان أهلُ الجاهلية يَخترعون عقائد وشرائع ما أنزلَ اللَّهُ بها مِن سُلطان . وهذه الشرائعُ الباطلة خاضعة لأهوائهم الذاتية ومصالحهم الشخصية ، بلا دَليل نَقْلي ولا بُرهان عَقْلي . وقد وَضَعُوا شرائع باطلة تختص بالأنعام ، وهذا مِن تَلبيس إبليس ، وتلاعبه بهم . وصارت هذه الشرائعُ الباطلة دِينًا لازمًا ، وسُلوكًا اجتماعيًّا .

﴿ بَحِيرَةٍ ﴾ : هي النَّاقةُ التي إذا نُتِجتْ خَمسةَ أَبطُنٍ شَقُّوا أُذُنَها، وحُرِّمَتْ على النِّساء ، ويُمنَح دَرُّها (لَبَنُها) للطواغيت ، فلا يَحْلُبها أحدٌ مِن النَّاس .

﴿ سائِبَةٍ ﴾ : هي الأُنثَى مِن النَّعَم التي كان يُسيِّبها الكُفَّارُ لطَواغيتهم ، فلا يُحمَل عليها شيء، أو التي تُسيَّب في المَرعَى ، فلا تُرَدُّ عن حَوض ولا عَلَف ، وكان الواحدُ مِنهم يُسيِّبها بنَذْر؛ إنْ سُلِّم مِن مَرض ، أو بُلِّغ مَنزلَه ، أنْ يَفعَلَ ذلك .

﴿ وَصِيلَةٍ ﴾ : هي الأُنثى مِن النَّعَم إذا وَلَدَتْ سَبعةَ أبطُن، نظَروا ، فإنْ كان السَّابعُ ذَكَرًا ذُبح، فأكَلَ مِنه الرِّجالُ والنِّساءُ، وإنْ كان أُنثى تُرِكَتْ ، وإنْ كان ذَكرًا وأُنثى قالوا: قد وَصَلَتْ أخاها ، فَلَم تُذبَح بَدَفْعِها عَنه الذَّبحَ ، وكانتْ لُحومُها حَرامًا على النِّساء ، ولبَنُ الأُنثى حَرامًا على النِّساءِ إلَّا أنْ يَموتَ مِنهما شيءٌ فيأكلَه الرِّجالُ والنِّساءُ .

﴿ حَامٍ ﴾ : الحَامِي هو الفَحْلُ مِن النَّعَم إذا نُتِجَ مِن صُلبِه عَشرة أبطُن، كان يُقَال:حَمَى ظَهْرَه، فيَتركونَه للطَّواغيتِ، ويُحمَى مِن الحَمْلِ والركوبِ عليه والانتفاعِ به، بسبب تتابُع الأولاد مِن ضِرابِه.

والعقلُ التَّشريعي الجاهلي لَم يَكتفِ بفَرْض نُفوذه على البشر، بَل فَرَضَه أيضًا على الأنعام ، وهذا يدل على المنهجية الوثنية الساعية لفرض نفوذها على جميع عناصر الطبيعة ، وأن لا يُفلِت من تأثيرها شيء. لذلك تم اختراع شرائع خاصة متعلقة بالأنعام من أجل تكريس الجانب التشريعي في المنظومة الوثنية، فظهرت مُصطلحات متعلقة بالأنعام ذات مرجعية دِينية وثنية صَنمية ، وكأن أهل الجاهلية يريدون القول إن دِينهم عبارة عن نظام متكامل يَشمل كُلَّ مناحي الحياة .

وقال الواحدي في الوجيز (ص ٣٣٨) : ((والبَحيرة : النَّاقة إذا نُتجت خمسة أبطن شَقُّوا أُذنها وامتنعوا من ركوبها وذبحها . ﴿ وَلا سَائِبَةٍ ﴾ ، هو ما كانوا يُسَيِّبونه لآلهتهم في نَذْر يَلزمهم إن شُفِيَ مريض ، أو قُضيت لهم حاجة . ﴿ وَلا وَصِيلَةٍ ﴾ ، كانت الشَّاةُ إذا وَلَدَتْ أُنثى فهي لهم ، وإنْ وَلَدَتْ ذَكَرًا جَعلوه لآلهتهم ، وإنْ وَلَدَتْ ذَكَرًا وأُنثى قالوا : وَصَلَتْ أخاها ، فَلَم يَذبحوا الذَّكر لآلهتهم . ﴿ وَلا حَامٍ ﴾ ، إذا نُتجت مِن صُلْب الفَحْل عَشرة أبطُن ، قالوا : قد حَمَى ظَهْرَه ، فلم يُركَب ، ولم يُنتفَع بِه ، وسُيِّبَ لأصنامهم ، فلا يُحمَل عليه)) .

وهذه التعابيرُ التي اخترعها أهلُ الجاهلية وجعلوها شريعةً إلهية يجب تطبيقها ، تعكس مَبْلغ كذبهم على اللَّه تعالى، وأنهم سائرون على غَير هُدى ، يُشرِّعون اعتمادًا على أهوائهم وآرائهم ومصالحهم الشخصية . وحَتَّى الأنعام لَم تَسْلَمْ مِن تأثير طُقوسهم الوثنية . وقد أبطلَ الإسلامُ هذه الشرائع الباطلة ، وألغى هذه العادات الوهمية . واللَّهُ ما أوْجَبَ ذلك ، ولا أمرَ به ، ولا أنزلَ بِه

سُلطانًا ، ولكنَّ الكافرين يَكذِبون على اللَّه تعالى ، ويَنسُبون التَّحريمَ إلَيه ، وأكثرهم لا يَعقِلون أنَّ هذا كَذِب وافتراء، ولا يَعرِفون الحَلالَ مِن الحَرام ، ولا يُفرِّقون بين الحق والباطل ، ولكنَّهم يتَّبعون أهواءهم ، ويُقلِّدون آباءهم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٣٦) : ((وقد أعلمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآية أنَّه لَم يُحَرِّمْ مِن هذه الأشياء شيئًا ، وأن الذين كَفروا افْتَرَوْا على اللَّه عَزَّ وَجَلَّ . قال مُقاتل: وافتراؤهم قَولهم إن اللَّه حَرَّمَه وأَمَرَنا به ، وفي قَوله : ﴿ وأَكْثَرُهُم لا يَعْقِلُون ﴾ قَولان : أحدهما وأَكْثَرُهُم ، يعني : الأتباع ، لا يَعقِلون أنَّ ذلك كَذِب على اللَّه مِن الرُّؤساء الذين حَرَّمُوا ، قاله الشَّعبي . والثاني لا يَعقِلون أنَّ هذا التَّحريم مِن الشَّيطان ، قاله قَتادة)) .

وقد كان رأسُ الضَّلال في هذا السِّياق رَجُلًا مِن خُزاعة ، اسْمُه : عَمْرو بن عامر بن لُحَيٍّ ، فهو الذي غَيَّر دِينَ إبراهيم ﷺ ، وكان أوَّلَ مَن اخترعَ فِكرةَ السَّائبة . وقد تَبِعَتْهُ العَرَبُ في كُفره بلا بَصَر ولا بصيرة ، وبدُون دليل نَقْلي ، ولا بُرهان عَقْلي. وهذا التَّقليدُ الأعمى مَرَدُّه إلى الجَهْل والهَوى . وقد قال عنه النبيُّ ﷺ : ((كان أَوَّلَ مَن غَيَّرَ عَهْدَ إبراهيم)) [١٩].

هذا يَعني أنَّ العربَ قَبْلَه كانوا على دِين إبراهيم حُنفاء غَير مُشركين ، وهو قام بإضلالهم .

وعن أبي هُرَيرة ــرضي اللَّهُ عنهــ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: ((رَأيتُ عَمْرو بنَ عامرِ بنِ لُحَيٍّ الخُزَاعيَّ يَجُرُّ قُصْبَه في النار ، وكان أوَّلَ مَن سَيَّب السَّوائب)) [٢٠]. هذا الشَّخْصُ هو الذي حَمَل العربَ على عبادة الأصنام ، واخترع المنظومةَ الجاهلية بكل هَلْوستها . وبالطبع ، فالعربُ الغارقون في التقليد الأعمى ، قد اتَّبعوه وحَرَسوا ميراثَه الوثني دون تفكير . فها هو في النار يَجُرُّ قُصْبَه ــ أمعاءهــ عُقوبةً له.وفي صحيح البخاري(٦/ ٢٤٨٢) عن عبد اللَّه بن مسعودــرضي اللَّهُ عنهــ قال : ((إنَّ أهلَ الإسلام لا يُسَيِّبون ، وإن أهل الجاهلية كانوا يُسَيِّبون)) .

قال الحافظ في الفتح (١/ ١٣٦): ((كانوا في الجاهلية إذا نَذروا قال أحدُهم: ناقتي سائبة، أي تُسَرَّح ولا تُمنَع مِن مَرْعى. والسائبة أن يقول لعبده : أنتَ سائبة ، أو أعْتَقْتُكَ سائبة)).

---

١٩ رواه ابن حِبَّان في صحيحه (١٦/ ٥٣٥) برقم (٧٤٩٠) .

٢٠ متفق عليه. البخاري(١٢٩٧/٣) برقم (٣٣٣٣) ومسلم(٢١٩١/٤)برقم(٢٨٥٦). وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٤٦) : ((عمرو هذا هو ابن لُحَيِّ بن قَمَعة ، أحد رؤساء خُزاعة الذين وَلُوا البَيت بعد جُرْهُم ، وكان أوَّلَ مَن غَيَّر دِين إبراهيم الخليل ، فأَدخلَ الأصنامَ إلى الحِجَاز ، ودعا الرَّعَاعَ من الناس إلى عبادتها ، والتقرُّب بها ، وشَرَعَ لهم هذه الشرائعَ الجاهلية في الأنعام ، وغَيرها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذينَ لا يَعْقِلُون ﴾[الأنفال : ٢٢].

إنَّ أسوأ الخَلْق وشَرَّ مَا دَبَّ على الأرض في حُكم اللَّه وقضائه، الصُّمُّ الذين لا يَسمعون الحقَّ، ولا يَعتبرون بِه، ولا يتَّعظون، الخُرْس الذين لا يَنطِقون بالحق، ولا يَعقِلون أوامرَ اللَّه ونَواهيه، ولا يَفهمونها . ولا يَعرِفون ما فيه صلاحهم فيفعلونه ، ولا يُدرِكون ما فيه هلاكهم فيجتنبونه .

وهؤلاء أسوأ المخلوقات على الإطلاق، لأن اللَّه خلقهم للعبادة ، فكفروا وضَلُّوا . والآيةُ تدل على أن الكفار شَر ما دَبَّ على الأرض . ومعَ أنهم يَسْمَعون ويَنطِقون ، إلا أن اللَّه وَصَفَهم بالصُّم البُكم ، لأنهم لَم يَستفيدوا مِن السَّمع والنُّطق ، ولَم يَنتفعوا بِهما ، فصار وجودهما كعدمه .

وقد سَمَّى اللَّهُ الكُفَّارَ ﴿ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ ، وهذا مُنتهى الذَّم والتَّحقير، لأن اللَّه أعطاهم العقولَ والجوارح والحواس، فلم يَستخدموها للتمييز بين الحق والباطل، والتفريق بين الخير والشر، ومعرفة الإيمان. لقد أبطلوا نِعمةَ العقل التي ميَّزهم اللَّهُ بها ، وفضَّلهم بسببها على سائر مَخلوقاته ، وعاندوا الحقَّ بعد مَعرِفته، ورَفضوا الهُدى بعد ظُهوره،واستكبروا عَن تَوحيد اللَّه بعد ظُهور الأدلة والحُجَج ، فصاروا بلا عُقول ، ولا فَهْم ، ووصلوا إلى الحضيض ، وصاروا أسوأ مِن الحيوانات وأقل مِنها . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٤/ ١٥) : ((﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ استئناف مَسُوق لبيان كمال سُوء حال المُشَبَّه بِهم مُبالغةً في التحذير ، وتقريرًا للنَّهْي إثر تقرير ، أي : إنَّ شَر ما يَدِبُّ على الأرض أو شَر البهائم ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي:في حُكمه وقضائه ﴿ الصُّمُّ ﴾ الذين لا يَسْمَعون الحق ﴿ البُكْمُ ﴾ الذي لا يَنطِقون بِه . وُصِفوا بالصَّمَم والبُكْم ، لأن ما خُلِق له الأُذُن واللسان، سَماع الحق والنُّطق به ، وحيث لَم يُوجد فيهم شيء من ذلك ، صاروا كأنهم فاقدون للجارحتَيْن رأسًا . وتقديم ﴿ الصُّمُّ ﴾ على ﴿ البُكْمُ ﴾ لِمَا أن صَمَمهم مُتقدِّم على بُكمهم، فإن السُّكوت عن النُّطق بالحق مِن فُروع عدم سَماعهم له ، كما أن النُّطق به مِن فُروع سَماعه ، ثُمَّ وُصِفوا بعدم التَّعَقُّل، فَقِيل : ﴿ الذينَ لا يَعْقِلُون ﴾ تحقيقًا لكمال سُوء حالهم ، فإن الأصم الأبكم إذا كان له عقل رُبَّما يَفهم بعض الأمور ، ويُفهِمه غَيْرُه بالإشارة ، ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه ، وأمَّا إذا كان فاقدًا للعقل أيضًا، فهو الغاية في الشَّرية وسُوء الحال ، وبذلك يَظهر كَوْنهم شَرًّا من البهائم ، حيث أبْطَلُوا ما به يَمتازون عنها ، وبِه يُفضَّلون على كثير مِن خَلْق اللَّه _ عَزَّ وَجَلَّ _ ، فصاروا أخسَّ مِن كُل خسيس)) .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٧٠٣) عن ابن عباس : _ ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذينَ لا يَعْقِلُون ﴾ . قال : ((هُم نَفَر مِن بني عبد الدار)) .

وهذه الجماعة الضَّالَّة مِن بني عبد الدار كانوا يقولون : نحن صُم بُكم عمَّا جاء به مُحمَّد . وتوجَّهوا لقتال النبيِّ ﷺ معَ أبي جَهْل .

والدَّواب جَمْع دَابَّة، وهي كُل ما يَدِبُّ على الأرض ، والمقصود _ في هذا السياق _ الكفار.

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٤/ ٧٠) : ((﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، شبَّه الكفارَ بالبهائم ، بَل جعلهم شرًّا مِنها ، وذلك مُنتهى البلاغة ، ونهاية الإعجاز ، إذْ إن الكافر لا يَسمع الحق، والبهائم لا تَسمع ، ولا يَنطِق بِه ، والبهائم لا تَنطِق ، ويأكل والبهائم تأكل ، بَقِيَ أنه يَضُر ، والبَهَائم لا تَضُرُّ ، فكيفَ لا يكون شَرًّا مِنها ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأُولي الألبابِ ﴾ [يُوسُف : ١١١] .

لقد كانَ في قِصَّة يُوسُف ﷺ وإخوته عِظَة وعِبْرَة لأصحاب العُقول النَيِّرة البعيدة عن الأهواء والأوهام ، الذين يُفكِّرون ويتفكَّرون ويتأمَّلون ويتدبَّرون ويَعتبرون ويتَّعظون . وهذا يدلُّ على أنَّ الهَدَف مِن قَصَص القُرآن وأخباره هو الاعتبار وأخذ الدُّرُوس والعِبَر والعِظَات،والاستفادة مِن ذلك.

ومَن قَدَرَ على رَفْع مكانة يُوسُف ﷺ وإعزازه وتَمليكه مِصْر بعدما كان عبدًا ، قادر على إعزاز مُحمَّد ﷺ ، ورَفْع شأنه ، ونَصْره ، وتأييده .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٨٨) : ((﴿ لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِم ﴾ ، أي: قَصَص الرُّسُل ، ومَن بُعثوا إلَيه مِن الأُمَم ، أوْ في قَصَص يُوسُف وإخوته وأبيه ﴿ عِبْرَةٌ لأُولي الألبابِ ﴾ ، والعِبْرَةُ الفِكْرة والبَصِيرة المُخلَّصة مِن الجَهْل والحَيرة . وقِيل: هي نَوع من الاعتبار ، وهي العُبُور مِن الطَّرَف المَعلوم إلى الطَّرَف المَجهول . وأُولُو الألباب هُم ذَوُو العُقول السليمة الذين يَعتبرون بعُقولهم، فَيَدْرُون ما فيه مصالح دِينهم،وإنَّما كان هذا القَصَص عِبْرَة لِمَا اشتملَ عَلَيه مِن الإخبارات المُطَابِقَة للواقع مَعَ بُعْد المُدَّة بَين النبيِّ ﷺ وبَين الرُّسُل الذين قُصَّ حديثهم ، ومِنهُم يُوسُف وإخوته وأبوه ، مَعَ كَوْنه لَم يَطَّلع على أخبارهم ، ولا اتَّصل بأحبارهم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٩٧): ((قَوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِم ﴾ ، أي : في خَبَر يُوسُف وإخوته ﴿ عِبْرَةٌ ﴾ ، أي : عِظَة ﴿ لأُولي الألبابِ ﴾ ، أي : لِذَوِي العُقُول السَّليمة ، وذلك مِن وَجْهَيْن : أحدهما ما جرى ليُوسُف مِن إعزازه وتَمليكه بعد استعباده ، فإنَّ مَن فَعَلَ ذلك به، قادر على إعزاز مُحمَّد ﷺ، وتَعْلية كَلِمته. والثاني أنَّ مَن تَفَكَّرَ عَلِمَ أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مَعَ كَوْنه أُمِّيًّا ، لَم يَأتِ بهذه القِصَّة على مُوَافَقَة ما في التَّوراة مِن قِبَل نَفْسِه ، فاستدل بذلك على صِحَّة نُبُوَّته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أنَّما أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعْمَى إنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُو الألبابِ ﴾ [الرَّعْد : ١٩] .

الهَمزةُ للاستفهام الإنكاريِّ . هل يَستوي المؤمنُ الذي صَدَّقَ النبيَّ ﷺ وخَضع للوَحْي الإلهيِّ الذي أنزله اللَّهُ على النبيِّﷺ، مَعَ الكافر الذي كَذَّبَ النبيَّ ﷺ ورَفض الوَحْيَ الإلهيَّ ؟. لا يَستويان. والفرقُ بينهما كالفرق بين الثُّرَيَّا والثرى. ولا مُقارَنة بين المؤمن المُبصِر الذي يَرى الحقَّ ويتَّبعه ، وبين الكافر الأعمى الذي لا يَرى الحقَّ ولا يتَّبعه. والكافرُ أعمى البصيرة، لا يَرى الحقَّ ولا يَخضع له، لذلكَ يَتخبَّط في متاهة الضَّلال والكُفر. إنما يتَّعظ بآياتِ اللَّه ويَلتزم بأوامره ويَجتنب نَواهيه أصحابُ العقول المستنيرة الواعية التي تُفكِّر، وتَعرِف المسارَ والمصيرَ ، وتخضع للأدلة والبراهين، وترفضَ الأوهامَ والعِنادَ والمُكَابَرَةَ والتقليدَ الأعمى .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٣) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ أفَمَن يَعْلَمُ أنَّما أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحقُّ كَمَنْ هُوَ أعْمَى ﴾ . قال ابن عباس : نَزلت في حمزة وأبي جَهْل . ﴿ إنَّما يَتَذَكَّرُ ﴾ أي : إنما يَتَّعظ ذَوُو العقول ، والتَّذكر الاتِّعاظ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٧٠) : ((يَقول تعالى : لا يَسْتَوي مَن يَعْلَم مِن الناس أنَّ الذي ﴿ أُنزِلَ إلَيْكَ ﴾ يا مُحمَّد ﴿ مِن رَبِّكَ ﴾ هو الحَق الذي لا شَك فيه ، ولا مِرْية ، ولا لَبْس فيه، ولا اختلاف فيه ، بَل هو كُلُّه حق يُصدِّق بَعْضُه بعضًا ، لا يُضَاد شَيء مِنه شيئًا آخَر ، فأخبارُه كُلُّها حَق ، وأوامره ونَواهيه عَدْل ، فلا يَسْتَوي مَن تَحَقَّقَ صِدْقَ ما جِئتَ به يا مُحمَّد ، وَمَن هو أعمى لا يهتدي إلى خَير ، ولا يَفْهَمه ، ولو فَهِمَه ما انقادَ له ولا صَدَّقه ولا اتَّبعه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿هذا بَلاغٌ للنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أنَّما هُوَ إلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الألبابِ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

هذا القُرآنُ بَلاغٌ كافٍ للإنس والجِن ، أقامَ اللَّهُ بِهِ الحُجَّةَ عَلَيهم ، وأزالَ عُذرَهم ، بِما فِيه مِن المواعظ الرفيعة ، والعِبَر الجليلة ، والتَّذكيرِ البليغ ، والأخلاقِ الفاضلة ، وَلِيُنذَروا بهذا البَلاغ ، ويُخَوَّفوا عِقابَ اللَّه وغضبَه ، وَلِيَتَحَقَّقُوا بما فيه مِن الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة والحُجَج القاطعة ، عَلى أنَّ اللَّه إلَهٌ واحدٌ ، لا شَريك له ولا نِد ، وَلِيَتَّعِظ بهذا القُرآن أصحابُ العُقول النَيِّرة.

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٤٨٧): ((يقول تعالى ذِكْرُه: هذا القُرآن بَلاغ للناس، أبلغَ اللَّهُ به إلَيهم في الحُجَّة عَلَيهم، وأعذرَ إلَيهم بما أنزلَ فِيه مِن مَوَاعظه وعِبَره، ﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ ، يقول : وَلِيُنذَرُوا عِقَابَ اللَّه ، ويَحْذَرُوا به نَقِمَاته ، أنزله إلى نَبِيِّه ﷺ ، ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أنَّما هُوَ إلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ .

يقول : وَلِيَعْلَمُوا بما احتجَّ به عليهم مِن الحُجَج فيه أنَّما هو إله واحد ، لا آلهة شَتَّى، كما يَقوله المُشركون باللَّه ، وأن لا إلهَ إلا هُوَ ، الذي له ما في السَّماوات وما في الأرض ، الذي سَخَّرَ لهم الشمسَ والقمرَ والليلَ والنَّهارَ ، وأنزلَ مِن السَّماء ماءً ، فأخرجَ به مِن الثَّمَرَات رِزْقًا لهم ، وسَخَّرَ لهم الفُلْكَ لِتَجْرِيَ في البَحْر بأمره ، وسَخَّرَ لهم الأنهارَ ، ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الألبابِ﴾ ، يقول : وَلِيَتَذكَّر فَيَتَّعِظ بما احْتَجَّ اللَّهُ به عَلَيه مِن حُجَجه التي في هذا القُرآن ، فينزجر عن أن يَجعل معه إلَهًا غَيْرَه ، ويُشْرِك في عبادته شيئًا سِواه ، أهلُ الحِجَى والعُقُول ، فإنهم أهل الاعتبار والادِّكار ، دُون الذين لا عُقُول لهم ، ولا أفهام ، فإنهم كالأنعام ، بل هُم أضلُّ سبيلًا .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ للمُتَوَسِّمِين ﴾ [الحِجْر : ٧٥] .

إنَّ في عذاب القَوم الكافرين وإهلاكهم لَعَلامات ، يُسْتَدَل بها ، للناظرين المُتَأمِّلين المُتفكِّرين في الأمر حَتَّى يَعرِفوا حقيقته .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٥٢٧): ((يقول : إنَّ في الذي فَعَلْنا بقَوم لُوط مِن إهلاكهم ، وأَحْلَلْنا بهم مِن العذاب ، لَعَلامات ودَلالات ، للمُتَفَرِّسين المُعْتَبِرين بعَلامات اللَّه ، وعِبْرَة على عَواقب أُمور أهل مَعَاصيه، والكُفر به . وإنَّما يَعْني تعالى ذِكْرُه بذلك قَوم نبيِّ اللَّه ﷺ مِن قُرَيش . يَقول : فَلِقَوْمِكَ يا مُحمَّد في قَوم لُوط ، وما حَلَّ بِهم مِن عذاب اللَّه ، حِين كَذَّبُوا رَسُولَهم ، وتَمَادَوْا في غَيِّهم وضَلالهم ، مُعْتَبَر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أهْلَكْنا قَبْلَهُم مِنَ القُرُونِ يَمْشُونَ في مَسَاكِنِهِم إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولي النُّهَى ﴾ [طه : ١٢٨] .

أفَلَمْ يَتبيَّن لكُفار مكة الذين كَذَّبوكَ يا مُحمَّد بَيَانًا يَهتدون بِه إذا نظروا إلى آثار الأمم السابقة التي كَفرت بأنبيائها وكَذَّبَتْهُم ، فدفعت ثمن كُفرها وتكذيبها ، وتَمَّ تعذيبها عذابًا شديدًا .

والاستفهامُ في ﴿ أفَلَمْ ﴾ للإنكار والتوبيخ والتقريع .

لقد أعرضَ كُفار مكة عن الحق والهدى ، وغرقوا في الشَّهوات والشُّبهات ، فلم يَتأمَّلوا حال الأمم السابقة التي صارت أثَرًا إثْرَ عَيْن، واعتقدوا أنهم في أمن وأمان، وأنهم استثناء مِن القاعدة ، ومُحصَّنون مِن العذاب . وهذا هو الغُرور القاتل ، والوَهْم المُدمِّر . لقد اغترُّوا بِحِلْم اللَّه عليهم ، وثناء الجُهَّال عَلَيهم ، وغَرَّهم رَغَد العَيش وطُول الأمل ، وكثرة الأموال والأولاد . وهذه الرفاهيةُ منعتهم مِن النظر والتفكر والاعتبار ، ودائمًا غُرور القُوَّة قاتل . والعاقلُ مَن اتَّعظَ بِغَيره ، والجاهل مَن اتَّعظَ بِنَفْسِه . وعلى الإنسان دراسة التاريخ لأخذ العِبَر والدروس وتجنُّب الأخطاء .

والمشكلة أن الناس لا يَتعلمون مِن التاريخ ، لاعتقادهم أنهم استثناء ، وأنَّ ما أصابَ غَيْرَهم لَن يُصيبهم ، لذلك يُكرِّرون نَفْسَ الأخطاء ، ويَرتكبون الكوارثَ ذاتها ، ويُسيرون إلى حَتْفهم بأقدامهم ، ثُمَّ يَندمون بعد فوات الأوان ، ويَوم لا يَنفع الندم .

لقد كان كفار مكة (قُرَيش) يُسافرون إلى الشام مِن أجل التجارة ، ويَرَوْنَ ديارَ عَاد وثَمُود وقُرى قَوم لُوط ، وما فيها مِن آثار الهلاك والعذاب . لقد كانوا يُشاهدون بأعينهم آثارَ هلاكهم ، أفلا يَتَّعظون ويَعتبرون ؟! .

ينبغي أن يَأخذوا العِبرةَ مِمَّا يُشاهدونه ، ولا يَسيروا في نَفْس طريقهم لِكَيلا يُلاقوا نَفْسَ مصيرهم، وهو العذاب والدمار والهلاك. والمفروض أن مُشاهدتهم لآثار هلاكهم يُوجِب أن يَعتبروا ويتَّعظوا ويَهتدوا إلى الحق ، لئلا يَحِلَّ بهم مَا حَلَّ بأولئك مِن العذاب والهلاك .

إنَّ في آثار هذه الأمم الهالكة لَعَلامات ودَلالات وعِبَرًا لأصحاب العقول السليمة التي تَنهى أصحابَها عن التَّغَافُل والتَّعامي والمعاصي والقبائح . وَلَوْ تفكَّر كفارُ مكة في حال الأمم السابقة ، لَعَلِمُوا أن استئصالهم بالعذاب لِكُفرهم وتكذيبهم وجُحودهم ، فلا يَفْعَلون مِثْلَ ما فَعلوا .

وقال أبو السعود في تفسيره (٦/ ٤٩) : ((﴿ إنَّ في ذلكَ ﴾ تعليل للإنكار، وتقرير للهِداية مع عدم اهتدائهم ، و﴿ ذلكَ ﴾ إشارة إلى مَضمون قَوله تعالى : ﴿ كَم أهْلَكْنا ﴾ إلخ . وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بِبُعد مَنْزلته ، وعُلُوِّ شأنه في بابه ، لآيات كثيرة عظيمة ، واضحات الهِداية ، ظاهرات الدَّلالة على الحق)) .

وإهلاك الأُمَم السابقة واضحٌ أمام الأنظار ، إذْ إن آثار ديارهم ماثلة أمام الناس الذين يَمُرُّون بِها في أسفارهم، فيُشاهدون بقايا الأمم السابقة بكل وضوح. فالديارُ الخاليةُ التي هَلَكَ أصحابُها تُشير إلى حالهم ، وتدل على وجود أقوام سابقين عَمروا المكانَ ثُمَّ زالوا . ومِن آثارهم تعرفونهم . وهذا الخرابُ الجاثم على صدر المكان يُشير إلى العذاب الذي حَل بهؤلاء الأقوام، لكنَّ أصحاب العقول ــ وَحْدَهم ــ هم القادرون على التفكر وأخذ العِبَر ، والاستفادة مِن دروس التاريخ .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٧٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ : أَفَلَم يَهْدِ لِقَومك المشركين باللَّه . ومعنى يَهْدِ: يُبَيَّن. يقول: أفَلَم يُبَيَّن لهم كثرة ما أَهْلَكْنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها ، التي يَمشون في مساكنهم ودُورهم ، وَيَرَوْنَ آثار عقوباتنا التي أحْلَلْناها بهم سُوء مَغَبَّة ما هُم عليه مُقيمون مِن الكفر بآياتنا ، ويَتَّعظوا بِهم، ويَعتبروا، ويُنيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا باللَّه ورسوله، خَوْفًا أن يُصيبهم بِكُفرهم باللَّه مِثْل ما أصابهم ... وقَوله : ﴿ إنَّ في ذلكَ

لآياتٍ لأُولِي النُّهى ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه : إنَّ فِيما يُعَايِن هؤلاء ، وَيَرَوْنَ مِن آثار وقائعنا بالأمم المُكذِّبة رُسُلَها قَبلهم ، وحُلول مَثُلاتنا (عُقوباتنا) بِهم لِكُفرهم باللَّه ﴿ لآياتٍ ﴾ ، يقول: لَدَلالات وعِبَرًا وعِظَات ﴿ لأُولِي النُّهى ﴾ ، يعني : لأهل الحِجَى والعُقُول ، وَمَن يَنهاه عقله وفَهْمه ودِينه عن مُواقَعة ما يَضُرُّه)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٠) : ((يُريد أهل مكة ، أي : أفلم يَتبيَّن لهم خَبَر مَن أَهْلَكْنا قَبلهم مِن القُرُون ، يَمشون في مساكنهم إذا سافروا وخرجوا في التجارة طلب المعيشة ، فَيَرَوْنَ بلادَ الأمم الماضية والقرون الخالية خاوية، أي : أفلا يخافون أن يَحِلَّ بهم مِثل ما حَل بالكفار قبلهم ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أفَلَمْ يَسِيرُوا في الأرضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فإنَّهَا لا تَعْمَى الأبصارُ ولَكِن تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصُّدُورِ ﴾ [الحَج : ٤٦] .

أفَلَم يُسافر كُفَّار مَكَّة الذين يَرفضون وَحدانيةَ اللَّه ويَجحَدون نُبُوَّةَ مُحمَّد ﷺ ، في البلاد ، ويَرَوْا هذه القُرى المُدَمَّرة ، فيعتبروا ويتَّعظوا بما حَل بأصحابها من العقوبة والعذاب، ويَحرصوا على عدم نزول العذاب الإلهيِّ بهم كما نَزل بالأمم الكافرة قبلهم؟. واللَّهُ يَحُثُّهم على السَّفَر لِيَرَوْا مَصَارِعَ الأقوام التي أهلكها اللَّهُ بكُفرهم وضَلالهم،ويتَّعظوا بمصيرها السَّيئ.أفَلَم يسيروا في الأرض فَيُشاهِدوا بأعينهم مَصَارِع الكافرين مِن الأمم السابقة ، ومواضع هلاكهم وعذابهم ، فيتفكروا ويَعتبروا ويتَّعظوا ، ويُدْرِكوا أن مصير الكافرين المُكذِّبين هو الهلاك والعذاب ، وأن عذاب اللَّه شديد وأليم واستئصالي ، فيتركوا الشِّرْك ، ويَعبدوا اللَّهَ وَحْدَه، ويلتزموا أوامرَه ، ويجتنبوا نَواهيه ؟ .

وكُفَّارُ مَكَّة قد سافروا كثيرًا في حياتهم للتِّجارة وغَيرها ، ولكنَّهم لَم يُسافروا للاتِّعاظ بمواضع هَلاك الأمم السابقة والاعتبار بأحوالهم . لذلك ، تَمَّ اعتبارهم غَير مُسافرين ، ودُعُوا إلى ذلك . واللَّهُ يُنكِر على أهل مكة عدم الاعتبار بالآثار والأطلال وبقايا الدِّيار ، وعدم الاتِّعاظ بمصير الأمم السابقة التي كَفرت باللَّه ، وكَذَّبت رُسُلَه _ عليهم الصلاة والسلام _ . والسَّيْرُ في الأرض إنما هو سَيْرٌ بالأبدان والفِكر مَعًا . السَّيْرُ بالأبدان لمُشاهدة مواقع هلاك الكافرين وعذابهم ، والسَّيْر بالفِكر، لتحليل هذه المَشَاهِد ، وأخذ الدروس والعِبَر منها . وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٥) : ((قال بعض الحُكماء : أَحْيِ قَلْبَكَ بالمواعظ، ونَوِّرْه بالتَّفَكُّر، ومَوِّتْهُ بالزُّهد، وقَوِّه باليقين، وذَلِّلْهُ بالمَوت، وقَرِّرْهُ بالفَنَاء، وبَصِّرْهُ فَجَائعَ الدنيا،وحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْر ، وفُحْشَ تقلُّب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذَكِّرْه ما أصاب مَن كان قَبله، وسَيِّرْهُ في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا وأين حَلُّوا وعَمَّ انقلَبوا ، أي : فانظُروا ما حَلَّ بالأُمَم المُكذِّبة مِن النِّقَم والنَّكال)) .

واللَّهُ يَدعوهم إلى التفكر والتفكير والاعتبار والاتِّعاظ، ومعرفة حُجَج اللَّه على خَلْقه، وضرورة أن يَفهموا الإيمانَ والتوحيد ، ويَعرفوهما حَقَّ المعرفة . وينبغي أن يستمعوا إلى الحق والمواعظ والإرشادات وأخبار الأمم السابقة الهالكة ، التي مَصْدرها الوَحْيُ الإلهيُّ .

وقد أُضيف العقل إلى القلب ، لأن القلب هو مَحَل العَقل ، كما أن الأُذُن مَحَل السَّمْع . وقد جَعل اللَّهُ الجوارحَ والحواس خاضعةً للقلب ، وتابعةً له . وما استقرَّ في القلب ظَهَرَ عَلَيها . والقلبُ مَلِكُ الأعضاء . وأمرُ المَلِكِ يَسْري على كُل مَن هُوَ دُونه .

وقال الثعالبي في تفسيره (٣/ ٨٣) : ((وَبَّخهم تعالى على الغفلة وترك الاعتبار بِقَوله : ﴿ أفَلَم يَسيروا في الأرضِ فَتَكُونَ لهم قُلوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ﴾ . وهذه الآية تقتضي أن العقل في القلب،وذلك هو الحق،ولا يُنكَر أن للدِّماغ اتصالًا بالقلب يُوجب فساد العقل متى اختل الدماغ)).

وفي حقيقة الأمر، إن العمى الحقيقي ليس الذي يُصيب البصر ، وإنما الذي يُصيب البصيرة . والقلبُ الأعمى لا فائدة مِنه ، لأنه لا يَعتبر ولا يتَّعظ ولا يَستوعب حقيقةَ الإيمان . وأعمى البصر يستطيع رؤية الآيات والتفكر بها والاعتبار والاستدلال . أمَّا أعمى القلب فلا يتفكر ولا يتَّعظ . والمشكلةُ إنما كانت في بصائر الكافرين لا أبصارهم، والخَلَل في عقولهم لا حَوَاسِّهم ، لأنهم غارقون في تقليد آبائهم ، ومُتَّبعون لأهوائهم وشهواتهم ، ومُنْهَمِكُون في غَفلتهم وضلالهم .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٩١) : ((معناه أن العمى الضَّار هو عَمى القلب ، فأمَّا عَمى البصر فليس بضار في أمر الدِّين . قال قتادة : البصر الظاهر : بُلغة ومُتعة ، وبصر القلب : هو البصر النافع)) .

وقال ابن حَزْم في الإحكام (١/ ٩) : ((وقال بعض السلف الصالح : ترى الرجل لبيبًا داهيًا فَطِنًا ، ولا عقل له ، فالعاقلُ مَن أطاعَ اللَّهَ _ عَزَّ وَجَلَّ)) .

والقلوبُ لا تُوجَد إلا في الصدور . وهذا أمرٌ معروف للجميع . لذلك كانت الآية : ﴿ التي في الصُّدورِ ﴾ للتأكيد على الكلام وتَوكيده ، وإثبات الأمر على حقيقته ، ونفي توهُّم المَجَاز .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٣٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ أفَلَم يَسيروا ﴾ . قال المفسرون: أفَلَم يَسِرْ قَوْمُكَ في أرض اليَمَن والشَّام ، ﴿ فَتَكُونَ لهم قُلوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ﴾ إذا نظروا آثارَ مَن هَلَك، ﴿ أوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ﴾ أخبارَ الأمم المُكَذِّبة، ﴿ فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ﴾، قال الفَرَّاء:الهاء في قَوله : ﴿ فإنها ﴾ عماد ، والمعنى أن أبصارهم لَم تَعْمَ ، وإنما عَمِيَت قلوبُهم. وأمَّا قَوله : ﴿ التي في الصُّدورِ ﴾ ، فهو توكيد ، لأن القلب لا يكون إلا في الصَّدْر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ [الرُّوم : ٢٤] .

وَمِن آيات اللَّه الدَّالَّة على وُجوده ووَحدانيته وعَظَمَته وقُدرته ، أنَّه يُرِيكُم البَرْقَ خَوْفًا مِن الصَّوَاعِق ، وطَمَعًا في الغَيث والمطر . أوْ : خَوْفًا للمُسافر ، وطَمَعًا للمُقيم . أوْ : خَوْفًا مِن البَرْد الذي يُتلِف الزَّرْعَ ، وَطَمَعًا في الغَيث الذي يُنبِت الزَّرْعَ . ويُنزِّل مِن السَّماء مَطَرًا ، فَيُحْيي بذلك المطر الأرضَ المَيْتَة الجَرداء ، إنَّ في هذا الفِعْل لَعِبَرًا وعِظَاتٍ وأدلة لِقَوم يَعقِلون عن اللَّه حُجَجَه وبَراهينَه ، ويتدبَّرون بعقولهم نِعَمَ اللَّه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، وبها يستدلُّون على قُدرته المُطْلَقة ، وحِكمته الجليلة .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٦) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : ومِن حُجَجه ﴿ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا ﴾ لكم إذا كُنتم سفرًا أن تُمطَروا فتتأذَّوْا به ﴿ وَطَمَعًا ﴾ لكم إذا كُنتم في إقامة أن تُمطَروا فَتَحْيَوْا وتُخْصِبُوا، ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ ، يَقول: ويُنزِّل مِن السَّماء مطرًا، فَيُحْيِي بذلك الماء الأرضَ المَيْتَةَ ، فَتُنبِت، ويَخرج زَرْعُها بعد مَوْتها ، يعني جُدُوبَها ودُرُوسها ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾، يقول : إنَّ في فِعْلِه ذلك كذلك لَعِبَرًا وأدلة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ عن اللَّه حُجَجَه وأدِلَّتَه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿كِتَابٌ أنزَلْناهُ إلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الألبابِ﴾[ص: ٢٩].

أنزلَ اللَّهُ على النبيِّ مُحمَّد ﷺ كتابًا عَظيمَ الشَّأن ، رَفيعَ المَنْزِلة ،كَثِيرَ الخَير والبَرَكة ، يَشتمل على المنافعِ الدُّنيوية والدِّينية ، وخَيراتِ الدُّنيا والآخِرة ، وهو القُرآن الكريم ، لِيَتَفَكَّرُوا في آياتِه ، وَيَفهموا ما فِيها مِنَ الحُجَجِ الباهرة ، والأحكامِ الجليلة ، والشرائعِ العظيمة، والأسرارِ العجيبة ، والمَواعظِ المُؤثِّرة ، والإرشادات المُهِمَّة ، وَلِيَتَّعِظَ أصحابُ العقول السليمة . وهنا تبرز أهميةُ العمل بالقُرآنِ وعدم الاكتفاء بقراءته وتفسيره، فلا بُدَّ مِن تحويل الآياتِ القُرآنية إلى واقع ملموس. فَمَن عَمِلَ بالقُرآنِ فقد قَرَأه حتى لَوْ لَم يَقْرَأه ، ومَن لَم يَعمل بالقُرآن فلم يَقْرَأه حتى لَوْ قَرَأه .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٥٧٦) : ((وقَوله : ﴿ كِتَابٌ أنزَلْناهُ إلَيْكَ ﴾ ، يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ : وهذا القُرآن ﴿ كِتَابٌ أنزَلْناهُ إلَيْكَ ﴾ يا مُحمَّد ﴿ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ ﴾ ، يقول : لِيَتَدَبَّرُوا حُجَجَ اللَّه التي فيه، وما شَرَعَ فِيه مِن شَرَائعه ، فَيَتَّعِظُوا ، ويَعْمَلُوا به ، ... . يعني: لِيَتَدَبَّرَ هذا القُرآنَ مَن أرسلناكَ إلَيه مِن قَوْمِك يا مُحمَّد ، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الألبابِ﴾ ، يَقول : وَلِيَعْتَبِرَ أُولُو العُقُول والحِجَا ما في الكِتاب مِن الآيات ، فَيَرْتَدِعُوا عَمَّا هُم عَلَيه مُقيمين مِن الضَّلالة، ويَنْتَهُوا إلى ما دَلَّهُم عَلَيه مِن الرَّشَاد وسبيل الصَّواب)) .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣) : ((قال الحَسَن البَصْري : واللَّهِ ما تَدَبُّرُه بِحِفْظ حُرُوفه ، وإضاعة حُدُوده، حَتَّى إنَّ أحَدَهم لَيَقُول : قَرأتُ القُرآنَ كُلَّه ، ما يُرى له القُرآن في خُلُق ولا عَمَل. رواه ابن أبي حاتم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الذينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ أُولئكَ الذينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وأُولئكَ هُمْ أُولُو الألبابِ (١٨) ﴾ [الزُّمَر] .

فَبَشِّرْ يا مُحمَّد عِبَادِي الذين يَستمعون القُرآنَ، فَيَتَّبِعُون مُحْكَمَه، ويَفهمونه، ويَعملون بما فيه . أُولئك الذين وفَّقهم اللَّهُ إلى الحق والصواب ، وهداهم في الدُّنيا والآخِرة ، وأُولئكَ أصحاب العُقول السليمة الخالية مِن الأهواء والأوهام .

وهذا مدحٌ إلهيٌّ لهم بذكائهم ، وتفوُّقهم العَقلي ، ونفاذ بصائرهم ، ودِقَّة نظرهم ، وقُدرتهم على تمييز الأحسن والأفضل .

واللَّهُ لَم يَقُلْ : فَبَشِّرْهُم ، وإنَّما قال : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ ، ووضعُ الظاهر مَوضِع الضَّمير ، لتشريفهم وتعظيمهم بإضافتهم إلَيه سُبحانَه وتعالى .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٦٤٩): ((والمعنى: يَستمعون القَوْلَ الحَقَّ مِن كتاب اللَّه وسُنَّة رَسُوله ، فَيَتَّبِعُون أحْسَنَه ، أي : مُحْكَمَه ، ويَعملون به . قال السُّدي : يتَّبعون أحسنَ ما يُؤْمَرُون به ، فَيَعملون بما فِيه . وقِيل : هو الرَّجُل يَسمَع الحَسَنَ والقبيحَ ، فيتحدَّث بالحَسَن ، وينكف عن القَبيح ، فلا يتحدَّث به . وقِيل : يَستمعون القُرآنَ وغَيْرَه ، فَيَتَّبعون القُرآنَ . وقِيل: يَستمعون الرُّخَص والعزائم ، فَيَتَّبعون العزائمَ ، ويَتركون الرُّخَص . وقِيل : يَأخذون بالعَفْو ، ويَتركون العُقوبةَ ، ثُمَّ أثنى سُبحانَه على هؤلاء المَذكورين ، فقال : ﴿ أُولئكَ الذينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وأُولئكَ هُمْ أُولُو الألبابِ ﴾ ، أي : هُم الذين أوصلهم اللَّهُ إلى الحَق ، وهُم أصحاب العُقُول الصحيحة ، لأنَّهم الذين انتفعوا بعُقُولهم ، ولَم ينتفع مَن عَدَاهم بعُقُولهم)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٥١) : ((أراد أن يَكونوا نُقَّادًا في الدِّين ، يُميِّزون بين الحَسَن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران : وَاجِب ونَدْب ، اختاروا الواجب ، وكذا المُباح والنَّدْب ، حِرْصًا على ما هو أقرب عِند اللَّه ، وأكثر ثوابًا ، أوْ يَستمعون القُرآنَ وغَيْرَه، فَيَتَّبعون القُرآنَ ، أوْ يَستمعون أوامرَ اللَّه ، فَيَتَّبعون أحْسَنَهَا ، نَحْو القِصَاص والعَفْو ، ونَحْو ذلك ، أوْ يَستمعون الحديثَ مَعَ القَوم فيه مَحَاسِن ومَسَاوِئ ، فيُحدِّث بأحسن ما سَمع ، ويكفُّ عمَّا سِوَاه ، ﴿ أُولئكَ الذينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وأُولئكَ هُمْ أُولُو الألبابِ ﴾ ، أي: المُنتفعون بعُقُولهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ واختلافِ الليلِ والنَّهَارِ وما أنزلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِن رِزْقٍ فأحْيَا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ [الجاثية : ٥] .

وفي تعاقُب الليل بِظَلامه والنهار بِنُوره ، وتفاوُتهما في الطُّول والقِصَر، وَفْق نظام مُحكَم دقيق، بلا خَلَل ولا اضطراب ، وفِيما أنزله اللَّهُ مِنَ المَطَر ، وسَمَّاه رِزْقًا لأنَّه سبب الرِّزق ، فأحيا بالمطر الأرضَ بعدما كانت جَافَّةً يابسةً ، وأخرجَ فِيها النَّبات والثِّمار ، وتَقليب الرِّياح جَنُوبًا وشَمَالًا ، باردةً وحَارَّة ، علامات واضحة على وُجود اللَّه ووَحدانيته وقُدرته ، لقَوم يَعقِلون عن اللَّه حُجَجَه ، ويَفهَمون مواعظَه ، ويتدبَّرون آياتِه .

وقال الطبري في تفسيره(١١/ ٢٥٣):((يَقول تَبَارَكَ وتعالى: وفي ﴿ اختلافِ الليلِ والنَّهَارِ ﴾ أيُّها النَّاس ، تعاقُبهما عَلَيكم ، هذا بظُلمته وسَوَاده ، وهذا بنُوره وضِيائه ، ﴿ وما أنزلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِن رِزْقٍ ﴾ ، وهو الغَيث الذي به تُخرِج الأرضُ أرزاقَ العِباد وأقواتَهم ، وإحيائه الأرض بعد مَوْتها . يقول : فأنبتَ ما أنزلَ مِن السَّماء مِن الغَيْثِ مَيْتَ الأرض ، حَتَّى اهتزَّت بالنَّبات والزَّرع مِن بَعد مَوْتها،يعني:مِن بَعْد جُدُوبها وقُحُوطها ومصيرها داثرة، لا نَبْت فيها ولا زَرْع.وقَوله: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ ﴾ ، يقول: وفي تَصريفه الرِّياح لكم شَمَالًا مَرَّةً، وجَنُوبًا أُخرى ، وصَبًا أحيانًا ، ودَبُورًا أُخرى لمنافعكم . _ الصَّبَا تأتي مِن مَطْلِع الشَّمْس ، والدَّبُور تأتي مِن المَغرِب _ . وقد قِيل : عَنَى بتَصريفها بالرَّحمة مَرَّةً ، وبالعذاب أُخرى . وقَوله : ﴿ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : في ذلك أَدِلَّة وحُجَج للَّهِ على خَلْقه ، لقَوم يَعقِلون عن اللَّهِ حُجَجَه، ويَفهمون عَنه ما وَعَظَهم بِه مِن الآيات والعِبَر)) .

*

٥_ الحَث على نشر العِلْم وعدم كِتمانه

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ الذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أبْنَاءَهُم وإنَّ فريقًا مِنهُم لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُم يَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

عُلماء أهلِ الكِتاب يَعْرِفون وَصْفَ النبيِّ ﷺ وصِحَّةَ رِسالته تمامَ المعرفة، كما يَعرفون أبناءهم ، بحيث لا يَشتبه عليهم أبناؤهم وأبناء غَيرهم . ووَصْفُ النبيِّ ﷺ ثابتٌ في كُتبهم .

والعربُ تَضرِب المَثَلَ في صِحَّة الشَّيء بمعرفة الرَّجل لابنه. والرَّجلُ قادرٌ على معرفة ابنه بين الناس ، وهذا يُشير إلى قُوَّة المَعرفة ، وكمالِ العِلْم ، وتمام اليقين .

والآيةُ : ﴿ كَما يَعْرِفُونَ أبناءَهُم ﴾ بيانٌ واضح للمَعرفة الأكيدة، والعِلْم الذي لا يَقْبَل الشَّك ، إذْ إنَّ معرفة الآباء للأبناء هي الغاية القُصوى في العِلْم والمَعرفة واليقين . وتخصيص الأبناء دُون البنات ، لأنَّ معرفتهم بأبنائهم أشدُّ وأقوى ، وهُم يُحِبُّونهم أكثر مِن بناتهم .

وقال العَيني في عُمدة القاري(١٨/ ٩٧): ((وإنما اخْتُصَّ الأبناء، لأنَّ الذكور أشهر وأعرف، وهُم لِصُحبة الآباء ألْزَم)) اهـ . وفي تفسير القرطبي (٢/ ١٥٨): ((ورُوِيَ أنَّ عُمر قال لعبد اللَّه ابن سلام: أتعرِفُ مُحَمَّدًا ﷺ كما تعرف ابْنَك ؟، فقال: نعم، وأكثر.بَعَثَ اللَّهُ أمينَه في سَمائه إلى أمينه في أرضه بِنَعته، فَعَرَفْتُه ، وابني لا أدري ما كان مِن أُمِّه)) .

إنَّ العلماء المُؤمنين يَعرفون النبيَّ ﷺ أكثر مِن معرفة أبنائهم ، لأنَّ النبيَّ ﷺ حَق لا شَك فِيه ، وجِبريل أمينُ اللَّهِ في سَمائه ، ومُحمَّد أمينُ اللَّهِ في أرضه . ومُحمَّد وجِبريل كِلاهُما مُنَزَّهٌ عن الغَدْر والكذب والخيانة . أمَّا المَرأةُ فقد تَخون زَوْجَها ، فَيُرَبِّي الزَّوْجُ ابْنَ غَيره ، وهو يظن أنه ابنُه .

ولا شَكَّ أنَّ الأم وَحْدَها هي التي تَعْلَم حقيقة ابنها الذي في أحشائها ، ومَن هُوَ أبوه. أمَّا الأبُ فَيُجري الأحكامَ على الظاهر ، ويَعتبر الولد ابنًا له ، وليس مُطَالَبًا بالشَّك وإثارة البلبلة ، لأنَّ هذا الباب إذا فُتح ، لا يُغلَق أبدًا .

ونحن في هذا العصر ، حيث التَّقدم المعرفي ، والتطور التكنولوجي ، صارَ البعضُ يَلجأ إلى تحليل الحِمض النوويِّ (DNA) في حالات إثبات النَّسَب .

وللأسف ، ففي هذا العَصْر ، زادت نِسبة الخيانة الزَّوجية من الطرفَيْن ، نتيجة ضعف الوازع الدينيِّ ، وبسبب الانفتاح الزائد ، وسهولة الوصول إلى الحرام ، وكثرة وسائل التواصل والتلاقي بين الجِنسَيْن في العالَم الواقعيِّ والعالَم الافتراضيِّ، والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية.

وقال ابن حجر في العُجاب (١/ ٣٩٩) : ((وقال يحيى بن سلام : قال الكلبيُّ : لَمَّا قَدِمَ رسولُ اللَّهِ المدينةَ ، قال عُمر بن الخطاب لعبد اللَّه بن سلام: إنَّ اللَّه أنزلَ على نَبِيِّه وهو بمكة أن أهل الكتاب يَعرفونه كَما يعرفون أبناءهم، كيف هذه المعرفة يا ابن سلام ؟، قال: نَعْرِفُ نبيَّ اللَّه بالنَّعْت الذي نَعَتَه اللَّهُ بِه إذا رأيناه فِيكم ، كما يَعرف أحدُنا ابنَه إذا رآه معَ الغِلمان ، والذي يَحلِف به عبد اللَّه بن سلام لأنَا بمُحمَّدٍ أشدُّ مِنِّي معرفةً بابني ، فقال له عُمر: كيف ذلك ؟ قال : عَرَفْتُه بما نَعَتَه اللَّهُ لنا في كتابنا أنَّه هُوَ ، وأمَّا ابني فلا أدري ما أحدثت أُمُّه ، فقال له عُمر : وَفَّقَكَ اللَّهُ ، فقد أصبتَ وصَدَقْتَ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٥٨) : ((في هاء ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ قَولان : أحدهما أنها تَعود على النبيِّ ﷺ ، قاله ابن عباس . والثاني : تَعود على صَرْفه إلى الكعبة ، قاله أبو العالية وقتادة والسُّدي ومُقاتل)) .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٢٨) : ((يَعني جَلَّ ثناؤُه بِقَوله : ﴿ الذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ أحبار اليهود وعُلماء النَّصارى . يقول : يَعرِف هؤلاء الأحبارُ مِن اليهود والعلماء من النَّصارى أنَّ البَيت الحَرام قِبْلتهم وقِبْلة إبراهيم وقِبْلة الأنبياء قَبْلَك ، كما يَعرِفون أبناءهم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٢٤٠) : ((﴿ الذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ ، قِيل : الضمير لمُحمَّد ﷺ : أي يَعرِفون نُبُوَّته، رُوِيَ ذلك عن مُجاهد وقَتادة وطائفة مِن أهل العِلْم. وقِيل: يَعرِفون تَحويلَ القِبْلة عن بيت المَقدِس إلى الكَعْبة... وبه قال جَماعة مِن المفسِّرين،ورجَّح صاحب الكشَّاف الأولَ، وعِندي أنَّ الراجح الآخَر كما يدل عليه السياق الذي سِيقت له هذه الآيات)) .

وعن سَلْمان قال : خَرَجْتُ أبتغي الدِّينَ ، فَوَقَعْتُ في الرُّهبان بقايا أهل الكتاب ، قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أبناءَهُم ﴾ ، وكانوا يقولون : هذا زمانُ نبيٍّ قد أظلَّ ، يَخرج مِن أرض العرب ، له علامات ، مِن ذلك : شَامةٌ مُدوَّرة بين كَتِفَيْه خَاتَم النُّبُوَّة ، فَلَحِقْتُ بأرض العرب ، وخَرَجَ النبيُّ ﷺ ، فرأيتُ ما قالوا كُلَّه ، ورأيتُ الخَاتَمَ ، فَشَهِدْتُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللَّه [٢١].

هذا يُشير إلى أهمية السَّعْي من أجل طلب الحق ، وضرورة السَّفَر بحثًا عن الإيمان والعِلم والخير. وسَلمان الفارسيَّ ـرضي اللَّهُ عنهـ لَم يَجلس في بيته بَحثًا عن الراحة والهدوء والسَّكينة، بَل سافرَ ، وعانى أشدَّ المعاناة بَحثًا عن الدِّين الحق ، واستمعَ إلى كلام العُلماء ، لأنَّ العلماء هُم

---

٢١ رواه الطبراني(٦/ ٢٦٧)برقم (٦١٨٠).وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٤٣٦): ((رجاله ثقات)).

الـذين يَعرفـون حقـائقَ الأمـور ، ويُوضِّـحون القضـايا والمسـائل ، ويَكشـفون الطريـقَ أمـام النـاس . والناسُ بِدُون العُلماء هُم مجموعة مِن العَوَام العُميان . وقد تَحَقَّقَ مِن أمرِ النبيِّ ﷺ بوجود علامات تُشير إلى صِدْقه وصِحَّةِ نُبُوَّته، فكانَ إيمانُ سلمان مَبْنِيًّا على العِلْم واليقين، وليس الجهل والتقليد.

﴿ وإنَّ فَريقًا مِنهُم لَيَكْتُمُونَ الحقَّ وَهُم يَعْلَمُون ﴾ .

وإنَّ طائفة مِن أهل الكتاب يُخفون ما في كُتبهم مِن صفة النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، وهُم يَعْلَمُون أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ حَق ، وما جاءَ بِه حَق. إذْ إنَّ وَصْف مُحمَّد ﷺ ثابت في التَّوراة.وقد بَيَّنَ اللَّهُ لهم الحَقَّ الذي لا شَكَّ فِيه ، كَي يتَّبعوه ، ولَم يَتركهم للاحتمالات والشُّكوك والتَّخمينات ، ولكنَّ سيطرة حُب الدُّنيا على القلوب،والأهواء الذاتية، والمصالح الشخصية، أدَّت إلى انحراف الكثيرين مِنهم.

والآيةُ تُشير إلى أنَّ كُفرهم مبنيٌّ على عِلم ومعرفة ، وهذا أسوأ أنواع الكُفر، فلم يَكونوا جُهَّالًا، ولَم يُسيطر عليهم الشَّك بخصوص نُبُوَّة مُحمَّد ﷺ . بَل كانوا مُتأكِّدين مِن صِدْق مُحمَّد ﷺ وصِحَّة نُبُوَّته ، ولكنهم كَفروا بِه عِنادًا ، وحُبًّا للرئاسة والزَّعامة والسُّلطة والنفوذ ، وحسدًا لأنَّه مِن العرب ، وليس مِن بني إسرائيل . وصدقَ القائلُ :

فَإنْ كُنتَ لا تَدْري فَتِلْكَ مُصيبةٌ وإنْ كُنتَ تَدْري فالمُصيبةُ أعظمُ

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٣):((﴿ وإنَّ فَريقًا مِنهُم لَيَكْتُمُونَ الحقَّ وَهُم يَعْلَمُون ﴾. تَخصيص لِمَن عَانَدَ ، واستثناء لِمَن آمَنَ)) .

واللَّهُ عادلٌ في أحكامه، ومُنصِف في كلامه، يُعطي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّه . فقد قالَ : ﴿ وإنَّ فَريقًا مِنهُم ﴾ . والمعنى : إنَّ هناك فريقًا آخَر لَم يَكتموا الحقَّ . وهؤلاء هُم المؤمنون، وقد أنصفَهم اللَّهُ تعالى . والآيةُ لا تَحمل تَعميمًا للجميع ، وإنما تَذُمُّ الصِّنفَ الكافر الذي كَتم الحقَّ بعد معرفته التامَّة بِه . لقد تَمَّ تخصيص فريق منهم ، لأنَّ مِن أهل الكتاب مَن أسلمَ ، ولَم يَكتم الحقَّ .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الآيةَ مُتعلِّقة بِعُلماء أهل الكتاب . فالعلماءُ هُم الذين يَقرؤون النصوصَ الدينية ، ويُفسِّرونها ، ويَعرفون الحقَّ مِن الباطل . فإمَّا أن يُظهِروا الحقَّ ويَنشروه ، وإمَّا أن يَكتموه ويَخدعوا الناسَ . والعَوَام لا علاقة لهم بالنصوص الدينية وتفسيرها ، فَهُم يتَّبعون العلماءَ ، ويَعتمدون كلامَهم . ولا شَكَّ أنَّ كُفر العوام مبنيٌّ على الجهل والتقليد واتِّباع العلماء الذينَ خانوا اللَّهَ تعالى ، وتلاعَبوا بكلامه ، للحفاظ على زعامتهم ، ورئاستهم ، ومناصبهم، وهيمنتهم على العوام ، من أجل استغلالهم واستعبادهم والاستحواذ على أموالهم بالباطل .

وقال أبو السُّعود في تفسيره(١/ ١٧٦): ((﴿ وإنَّ فَريقًا مِنهُم لَيَكْتُمُونَ الحقَّ وَهُم يَعْلَمُون ﴾ هُم الذين كَابَروا وعانَدوا الحق، والباقون هُم الذين آمنوا مِنهم، فإنهم يُظهِرون الحقَّ، ولا يَكتمونه. وأمَّا الجَهَلَة مِنهم فليست لهم معرفة بالكتاب ، ولا بما في تضاعيفه ، فما هُم بِصَدَد الإظهار ، ولا بصَدَد الكَتْم ، وإنما كُفرهم على وجه التقليد)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٥٨) : ((وفي الحق الذي كَتموه قَولان : أحدهما أنَّه النبيُّ ﷺ، قاله مجاهد.والثاني أنَّه التَّوَجُّه إلى الكَعْبة،قاله السُّدي ومُقاتل.وفي قَوله: ﴿ وَهُم يَعْلَمُون ﴾ قَولان: أحدهما وَهُم يَعلمون أنَّه حَق، والثاني وهُم يَعْلَمُون ما على مُخَالِفه مِن العِقاب)) .

إنَّ العِلْم المُجَرَّد لا يَكفي لِصِحَّة الإيمان ، فهؤلاء الكافرون من عُلماء أهل الكتاب كانوا يَعلمون الحَقَّ ، ومعَ هذا لَم يُؤْمنوا . فلا بُدَّ أن يَقترن العِلْم بالتَّصديق والعمل الصالح ، كَي يصل الإنسانُ إلى حقيقة الإيمان. والإيمانُ مَا استقرَّ في القلب، وصدَّقه اللسانُ ، وظَهَرَ على الجوارح . ((وصَحَّ عن الحسن أنه قال: " لَيس الإيمان بالتَّمَنِّي ولا بالتَّحَلِّي ، ولكنْ ما وَقَرَ في القلب ، وصَدَّقه العملُ " . ونَحْوه عن سُفيان الثَّوري)) [٢٢].

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ والهُدى مِن بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ في الكِتابِ أُولئكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُون ﴾ [البقرة : ١٥٩] .

هذه الآيةُ نزلت في عُلَماء اليهود ، كَتموا صِفَةَ النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، وآيةَ الرَّجْم ، وغَيرهما مِن أحكام التَّوراة (الكِتَابِ السَّماويِّ الذي أنزله اللَّهُ على النبيِّ مُوسَى ﷺ) .

إنَّ الذين يُخْفُون ما أنزله اللَّهُ مِن الآيات الواضحات، والدلائل الظاهرات، والأحكام والفرائض والحدود، والبراهين الجَلِيَّة على صِدْق مُحمَّد ﷺ، وصِحَّةِ نُبُوَّتِه، مِن بَعْد ما وضَّحه اللَّهُ للناس في التَّوراة، أُولئكَ يَطرُدهم اللَّهُ مِن رحمته، بسبب أعمالهم السَّيئة، وإخفائهم لوَصف النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، وتحريفهم للتَّوراة ، ويَلعنهم الملائكةُ والمؤمنون .

وعن البَرَاء بن عَازِب قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: ((﴿ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُون ﴾ ، قال : دَوَابُّ الأرض)) [٢٣]. أي : سُكَّانُها مِن الدَّوَاب والحَشَرَات وغَيرها . والمعنى : تَدعو عَلَيهم الخلائقُ ، لأنهم يَكونون سببَ المعاصي والفساد والهلاك ومَنع الخَير مِن السَّماء .

---

٢٢ حاشية ابن القَيِّم على سُنن أبي داود (١٢/ ٢٩٤) . وانظر تخريج الظِّلال (١/ ٤٠٧) .

٢٣ رواه ابن ماجة في سُننه (٢/ ١٣٣٤)، وفي الزوائد في إسناده الليث وهو ابن سُلَيم ضعيف .

واللَّهُ لَم يَقُلْ : نَلعنهم ، وإنَّما قال : ﴿ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾ ، وإظهارُ لفظ الجَلالة المُقدَّس ، لتعظيم اللَّه تعالى ، وإلقاء الخَوف والرَّهبة في القُلوب . ومَن لَعَنَهُ اللَّهُ ، فقد خَابَ وخَسِرَ وهَلَكَ .

والآيةُ تُوجب نَشْرَ العِلْم ، وإظهارَ الحق ، وبيانَ آيات اللَّه تعالى ، وتُحذِّر مِن كِتمانها . والاعتبارُ بعُموم اللفظ ، لا بخُصوص السَّبب .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٧٢) : ((هذا وَعيد شديد لِمَن كَتَمَ ما جاء به الرُّسُل مِن الدَّلالات البَيِّنة على المَقاصد الصحيحة، والهُدى النافع للقلوب، مِن بَعْد ما بَيَّنَه اللَّهُ تعالى لِعِباده مِن كُتُبه التي أنزلها على رُسُله . قال أبو العالية : نزلت في أهل الكتاب ، كَتموا صِفَةَ مُحمَّد ﷺ ، ثُمَّ أخبرَ أنَّهم يَلعنهم كُلُّ شَيء على صَنِيعهم ذلك ، فَكَمَا أنَّ العَالِم يَستغفر له كُل شيء ، حَتَّى الحُوت في الماء، والطَّيْر في الهواء، فهؤلاء بخِلاف العُلَماء ، فَيَلعنهم اللَّهُ ، ويَلعنهم اللاعنون ... ثُمَّ استثنى اللَّهُ تعالى مِن هؤلاء مَن تاب إلَيه ، فقال : ﴿ إلا الذينَ تابوا وأصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ﴾ ، أي: رَجَعُوا عَمَّا كانوا فيه ، وأصْلَحُوا أعمالَهم ، وبَيَّنُوا للناس ما كانوا يَكتمونه ، ﴿ فأُولئكَ أتُوبُ عَلَيهِم وأنا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . وفي هذا دَلالة على أنَّ الدَّاعية إلى كُفر أو بِدْعة ، إذا تابَ إلى اللَّه ، تابَ اللَّهُ عَلَيه . وقد ورد أن الأُمَم السابقة لَم تكن التَّوبة تُقْبَل مِن مِثْل هؤلاء مِنهُم ، ولكن هذا مِن شريعة نبيِّ التَّوبة ونبيِّ الرَّحمة ، صَلَوَاتُ اللَّه وسلامُه عَلَيه)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٦٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ والهُدى ﴾ . قال أبو صالح عن ابن عباس : نزلت في رُؤساء اليَهود ، كتموا ما أنزلَ اللَّهُ في التَّوراة مِنَ البَيِّنات والهُدى ، فالبَيِّنات الحَلال والحَرَام والحُدُود والفَرَائض ، والهُدى نَعْت النبيِّ وصِفَته ﴿ مِن بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ ﴾ . قال مُقاتل : لِبَني إسرائيل. وفي الكتاب قَولان : أحدهما أنَّه التَّوراة ، وهو قَول ابن عباس . والثاني التَّوراة والإنجيل ، قاله قَتادة . ﴿ أُولئكَ ﴾ ، إشارة إلى الكاتمين ، ﴿ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾ ، قال ابن قُتَيبة : أصل اللعن في اللغة الطَّرْد ... . وفي اللاعنين أربعة أقوال: أحدها أنَّ المُراد بِهم دَوَابُّ الأرض ، رواه البَرَاء عن النبيِّ ﷺ ، وهو قَول مُجاهد وعِكرمة . قال مُجاهد : يَقولون : إنَّما مُنِعْنا القَطْرَ (المطر) بذُنوبكم ، فيَلْعنونهم . والثاني أنَّهم المؤمنون ، قاله عبد اللَّه بن مسعود . والثالث أنَّهم المَلائكة والمُؤمنون ، قاله أبو العالية وقَتادة . والرابع أنَّهم الجِن والإنس ، وكُل دَابَّة ، قاله عطاء . فصل : وهذه الآية تُوجب إظهارَ عُلوم الدِّين ، مَنصوصة كانت أوْ مُسْتَنْبَطَة ، وتدلُّ على امتناع جَوَاز أخذ الأُجْرَة على ذلك ، إذْ غَير جَائز استحقاق الأجر على ما يَجِب فِعْلُه)) .

وعن أبي هُرَيرة_ رضي اللَّهُ عنه_أنَّه قال: ((لَوْلا آيةٌ مِن كِتاب اللَّه ، ما أخبرتُ أحدًا شيئًا)). قِيل : وما هِيَ يا أبا هُرَيرة ؟ ، قال : ((آية ﴿ إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ والهُدى مِن بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ في الكِتابِ أُولئكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُون (١٥٩) إلا الذينَ تابوا وأصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ﴾)) [٢٤].

لَوْلا ما في هذه الآية مِن وعيد شديد لِمَن يَكتُم العِلْمَ ، ويُخفيه ، ولا يَنشُره، ما أخبرَ أبو هُرَيرة أحدًا شيئًا ، ولا حَدَّثَ بحديث ، ولا نَشَرَ عِلْمًا . وهذه يدل على إيمان الصحابيِّ الجليل أبي هُرَيرة _ رضي اللَّهُ عنه _ ، وتَقْواه ، والتزامه بالأحكام الشرعية في القُرآن الكريم والسُّنَّة النبوية .

وهذه الآيةُ تُحذِّر مِن كِتمان العِلْم،وتُبيِّن خُطورة إخفاء الأحكام الشرعية،وعدم إظهارها للناس. ولا شَكَّ أنَّ اللَّه أنزلَ الوَحْيَ السَّماويَّ على أنبيائه الكِرَام كَي يَنشُروه بين الناس ، لإنقاذهم ، وإصلاح مُجتمعاتهم ، ومَنْحهم السعادة في الدُّنيا ، والنعيم في الآخِرة .

وقد استدلَّ العُلَماء بهذه الآية على وُجوب نَشر العِلْم ، وتبليغ الحق للناس ، دُون أخذ أَجْر عليه ، فلا يَجُوز أخذ الأجر على ما يجب فِعْلُه .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٨١) : ((وتحقيق الآية هو : أنَّ العَالِم إذا قَصَدَ كِتمانَ العِلْم عَصَى ، وإذا لَم يَقصِده لَم يَلزمه التبليغ إذا عَرَفَ أنَّه مَعَ غَيره . وأمَّا مَن سُئِلَ فقد وَجَبَ عليه التَّبليغ لهذه الآية وللحديث . أمَا أنَّه لا يَجُوز تعليم الكافر القُرآن والعِلْم حَتَّى يُسلِم ، وكذلك لا يَجوز تعليم المُبتدِع الجِدال والحِجَاج لِيُجَادِل به أهلَ الحق ، ولا يُعلِّم الخَصْمَ على خَصْمه حُجَّةً يَقطع بها مالَه ، ولا السُّلطان تأويلًا يتطرَّق به إلى مَكَارِه الرَّعِيَّة ، ولا يَنشُر الرُّخَصَ في السُّفَهاء ، فيَجعلوا ذلك طريقًا إلى ارتكاب المَحظورات ، وترك الواجبات ، ونَحْو ذلك)) .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص _ رضي اللَّهُ عنه_ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: ((مَن كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامةِ بِلِجَامٍ مِن نار)) [٢٥].

يجب العَمَلُ بالعِلْم النافع ، ونَشْرُ العِلْم النافع بين الناس ، وعَدم كِتمانه ، لأنَّ كِتمانه خِيانة ، ويُسبِّب ضررًا للناس ، ويُؤَثِّر سلبًا على حياتهم . وزَكاةُ العِلْم نَشْره وإذاعته ، وهو يَجلِب المنافعَ للناس ، ويُحقِّق مصالَحهم . والمالُ يَنقُص بنشره بين الناس وتَوزيعه عَلَيهم ، أمَّا العِلْمُ فيَكثُر

---

٢٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٨) برقم (٣٠٧٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٢٥ رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ١٨٢) برقم (٣٤٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ويَزداد بنشره بين الناس ، وبَثِّه فِيهم. ومَن كَتَمَ عِلْمًا ، وَضَعَ اللَّهُ في فمه قِطعةً مِن حديدٍ مِن نار يوم القِيامة عُقوبةً له . والجَزاءُ مِن جِنس العَمل . واللجامُ : ما يُوضَع في فَم الفَرَس لتُقاد به . والحديثُ يُحذِّر مِن كِتمان العِلْم ، ويَدعو إلى نشره بين الناس ، وتعليمه لهم ، لنقلهم مِن ظُلمات الجَهْل إلى نُور العِلْم [٢٦].

وفي صحيح البخاري (١/ ٥٩) عن عليٍّ بن أبي طالب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : ((حَدِّثُوا الناسَ بما يَعرِفون ، أَتُحِبُّونَ أن يُكَذَّبَ اللَّهُ ورسولُه ؟!)) .

---

٢٦ قال الْمُناوي في فيض القدير (٦/ ١٤٦) : (((مَن سُئِلَ عَن عِلْم) عَلِمَه قطعًا ، وهو عِلْم يحتاج إليه سائل في أمر دِينه . وقيل : ما يَلزَم عليه تعليمه كمُريد الإسلام ، يَقول : عَلِّمْني الإسلامَ . والمفتي في حلال أو حرام . وقيل: هو عِلْم الشهادتَيْن (فَكَتَمَهُ) عن أهله (ألجمه الله يوم القيامة بلِجَام) فارسي مُعرَّب (مِن نار) أي : أدخلَ في فيه لجامًا مِن نار مُكافأةً له على فِعْله ، حيث ألجمَ نَفْسَه بالسُّكوت في مَحَل الكلام ، فالحديث خَرَجَ على مُشَاكَلَة العُقوبة للذَّنْب ، وذلك لأنه سُبحانَه أخذَ الميثاقَ على الذين أُوتُوا الكِتابَ ، لَيُبَيِّنُنَّه للناس ، ولا يَكتمونه . وفيه حَث على تعليم العِلْم ، لأنَّ تَعَلُّمَ العِلْم إنما هو لنَشْره ، ودَعْوة الخَلْق إلى الحق ، والكاتم يُزاول إبطال هذه الحِكمة ، وهو بعيد عن الحكيم الْمُتقِن ، ولهذا كان جزاؤه أن يُلجَم ، تشبيهًا له بالحيوان الذي سُخِّرَ ومُنِعَ مِن قَصْد ما يُريده ، فإن العَالِم شأنه دُعاء الناس إلى الحق ، وإرشادهم إلى الصِّراط المستقيم)) اهـ . وفي نفْس المرجع (٦/ ٢١٢) : (((مَن كَتَمَ عِلْمًا عَن أهله أُلْجِمَ) بالبناء للمَفعول ، والفاعل اللَّه . وفي رواية ألجمه اللَّهُ (يوم القيامة لجامًا مِن نار) أي الْمُمْسِك عن الكلام ، مُمَثَّل بمن ألزم نَفْسَه بلِجَام ، وتنكير عِلْم في حَيِّز الشَّرْط يُوهِم شُمولَ العُموم لكل عِلْم حتى غَير الشَّرعي. وخصَّه كثير كالحَليمي بالشرعي . والمراد به ما أُخِذَ مِن الشَّرْع، أو تَوَقَّفَ هو عليه تَوَقُّف وُجود ، كعِلْم الكلام ، أو كمال كالنَّحْو والمنطِق . والحديث نَص في تحريم الكَتْم ، وخصَّه آخرون بما يَلزَمه تعليمه،وتَعَيَّنَ عَلَيه.واحْتُرِز بقَوله:"عن أهله".كَتْمه عن غَير أهله فمطلوب بل واجب . فقد سُئِلَ بعض العلماء عن شيء فلم يُجب. فقال السائل: أمَا سَمِعْتَ خَبَرَ:"مَن كَتَمَ عِلْمًا" إلخ. قال: اترُك اللجَامَ واذْهَبْ،فإنْ جاء مَن يَفْقَهه،فكتمتُه، فَلْيُلْجِمْني.وقَوله تعالى:﴿ ولا تُؤْتوا السُّفهاءَ أموالَكم ﴾ [النِّسَاء : ٥]. تنبيه على أن حِفْظ العِلْم عمَّن يُفسِده أو يَضرِبه أوْلَى. وليس الظُّلْم في إعطاء غَير المستحِق بأقل مِن الظُّلْم في مَنع الْمُستحِق. وجَعل بعضُهم حَبْسَ كُتب العِلْم مِن صُوَر الكَتْم سِيَّما إن عزَّت نُسَخُه . وأخرجَ البَيهقي عن الزُّهري: إيَّاك وغُلول الكُتب. قِيل : وما غُلولها؟، قال : حَبْسها)) .

قُدرات الناس العقلية مُختلفة ، ومواهبهم مُتفاوتة ، وإمكانياتهم لَيست وَفق مُستوى واحد . لذلك يَختلفون في الفَهْم والاستيعاب والاستنتاج . وعلى العَالِم أن يُحدِّث الناسَ وَفْق مُستوياتهم العقلية (على قَدْر عُقولهم) ، وبما يَعرِفونه ويَفهَمونه ، ولا يُحدِّثهم بالعُلوم الصعبة ، ولا يُخاطبهم بالكلام ذي المستوى العالي ، حتى لا يَدفعهم إلى تكذيب اللَّه ورسوله ﷺ ، فإنَّ الناس إذا سَمِعُوا شيئًا فوق مُستوى عقولهم ، سَارَعوا إلى تكذيبه وإنكاره . ويجب على العَالِم أن يكون ذا أُسلوب وَاضِح سَهْل ، ويُمكن أن يَجعل له مَجْلِسَيْن : مَجلِس للعَوَام ، يُوضِّح لهم القضايا السهلة ، التي لا تحتاج إلى قُدرات عقلية عالية . ومَجلِس للخَوَاص (طَلَبَة العِلْم) يَشرَح لهم القضايا الصعبة التي تحتاج إلى ذكاء وفِطنة ومعرفة .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٢٢٥) : ((والمُراد بقَوله : " بِمَا يَعرِفون " أي: يَفهمون . وزاد آدم بن أبي إياس في كتاب العِلْم له عن عبد اللَّه بن داود عن معروف في آخِره: ودَعُوا ما يُنكِرون، أي يَشتبه عليهم فَهْمُه ، وكذا رواه أبو نُعَيم في المُستخرَج . وفيه دليل على أن المُتشابِه لا ينبغي أن يُذكَر عِند العَامَّة)) .

وفي صحيح مسلم (١/ ١١) : أن عبد اللَّه بن مسعود _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : ((ما أنتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حديثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُم ، إلا كانَ لِبَعْضِهم فِتنةً)) .

يجب على العُلَماء أن يُحدِّثوا الناسَ ويُخاطبوهم على قَدْر عُقولهم ، ووَفْق قُدراتهم على الفَهْم والاستيعاب ، والناسُ مُتفاوتون في العِلْم والذكاء والمعرفة والإدراك . والحديثُ معَ الناس إذا كانَ غامضًا أو مُبْهَمًا أو صَعْبًا أو فوق مُستوى عُقولهم ، فإنَّه _ أي الحديث _ سيكون سببًا في وُقوع الناس في الفِتنة ، وغرقهم في الشُّبُهَات والوساوس والهواجس ، ورُبَّما أعْرَضُوا عَن الحقِّ ، وتَركوا الدِّينَ ، بسبب صُعوبة الكلام ، وعَجْزهم عن فَهْمه واستيعابه . لذلك ، يجب مُخاطبة الناس حَسَب مُستواهم العقلي ، ووَفْق طاقتهم الاستيعابية . وقال الحافظ في الفتح (١/ ٢٢٥) : ((ومِمَّن كَرِهَ التَّحديثَ ببَعْض دُون بَعْض،أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخُرُوج على السُّلطان، ومالك في أحاديث الصِّفات ، وأبو يُوسُف في الغرائب ، ومِن قَبْلهم أبو هُرَيرة ... في الجِرابَيْن ، وأنَّ المُرَاد ما يقع مِن الفِتَن ، ونَحْوه عن حُذَيفة . وعن الحسن أنه أنكرَ تحديثَ أنس للحَجَّاج بقِصَّة العُرَنِيِّين، لأنَّه اتَّخذها وسيلةً إلى ما كان يَعتمده مِن المُبالَغة في سَفْك الدِّماء بتأويله الواهي، وضَابِط ذلك أن يكون ظاهرُ الحديث يُقوِّي البِدعةَ ، وظاهره في الأصل غَير مُراد ، فالإمساك عنه عِند مَن يُخشَى عليه الأخذ بظاهره مَطلوب ، واللَّهُ أعْلَم)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٢٧) : (((ما أنتَ مُحدِّث قَوْمًا حديثًا لا تَبلُغه عُقُولُهُم إلا كان على بعضهم فِتنة) لأن العُقُول لا تحتمل إلا على قَدْر طاقتها ، فإنْ أُزيد على العَقْل فوق ما يَحتمله ، استحالَ الحالُ مِن الصلاح إلى الفساد . ومِن ثَمَّ وَرَدَ في خَبَر عِند الحكيم : إنَّ للَّهِ سِرًّا لَوْ أفشاه لَفَسَدَ التَّدبير، وللمُلُوك سِرًّا لَوْ أَفْشَوْهُ لَفَسَدَ مُلْكُهُم، وللأنبياء سِرًّا لَوْ أَفْشَوْهُ لَفَسَدَتْ نُبُوَّتُهم ، وللعُلَماء سِرًّا لَوْ أَفْشَوْهُ فَسَدَ عِلْمُهم ، فواجب على الحكيم والعَالِم النِّحرير الاقتداء بالمُصْطَفَى ﷺ في قَوله : " أَنزِلُوا الناسَ مَنَازِلَهُم " . وقد قال عيسى : لا تَضَعُوا الحِكمةَ في غَير أهلها فتَظلِمُوها،ولا تَمنعوها أهْلَها فتَظلِمُوهم ، وكُن كالطبيب الحَاذِق يَضعُ دَواءه حيث يَعلَم أنَّه يَنفَع. ومِن ثَمَّ قِيل: تَصَفَّحْ طُلاب حِكَمِك ، كما تَتَصَفَّح خُطَّاب حَرَمِك . وبهذا ألَمَّ أبو تَمَّام حيث قال: وما أنا بالغَيران مِمَّن دُونَ جارتي إذا أنا لَم أُصبح غَيُورًا عَلى العِلْمِ

وقِيل لحكيم : ما بَالُكَ لا تُطْلِع كُلَّ أحد على حِكمة يَطلُبها مِنك ؟ ، فقال : اقتداء بالباري تعالى حيث قال:﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِم خَيْرًا لأسْمَعَهُم وَلَوْ أسْمَعَهُم لَتَوَلَّوا وَهُم مُعْرِضُون﴾ [الأنفال : ٢٣]، فَتَبَيَّنَ أنَّه مَنَعَهم لمَّا لَم يَكُنْ فِيهم خَير ، وبَيَّنَ أنَّ في إسماعهم ذلك مَفسدة لهم . قال حُجَّة الإسلام: ومِن ذلك ما أحدثه بعضُ المُتصوِّفة مِمَّن تركوا فَلاحتهم،وأَتَوْا بكلمات غَير مفهومة يُسَمُّونها الشَّطْح، فيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائلة، أو تكون مفهومة، لكن لا يَقْدِر على تَفهيمها وإيرادها بعبارة تدلُّ على ضَميره، لِقِلَّة مُمارسته للعِلْم، وجَهْله بطُرُق التَّعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة، فلا فائدة لذلك، إلا أنَّه يُشوِّش القُلُوبَ، ويُدهِش العُقُولَ، ويُحيِّر الأذهانَ)) .

وقال ابن القَيِّم في رَوضة المُحبين (١/ ٣٠٦): ((ومِن الغَيْرَةِ الغَيْرَةُ على دَقيق العِلْم ، وما لا يُدركه فَهْم السامع أن يُذكَر له . ولهذه الغَيرة قال عليُّ بن أبي طالب رضي اللَّهُ عنه :" حَدِّثُوا الناسَ بما يَعرِفون ، أَتُحِبُّونَ أن يُكذَّب اللَّهُ ورسولُه ". وقال ابن مسعود رضي اللَّهُ عنه :" ما أنتَ بمُحدِّث قَوْمًا حديثًا لا تَبلُغه عُقُولُهُم ، إلا كان لِبَعضهم فِتنةً ". فالعَالِمُ يَغَارُ على عِلْمه أن يَبذُله لغَير أهله أو يَضعه في غَير مَحَلِّه،كما قال عِيسى بن مَرْيَم:"يا بني إسرائيل،لا تَمنعوا الحِكمةَ أهلَها فتَظلِمُوهم،ولا تَبذُلوها لغَير أهلها فتَظلِمُوها".وسُئِلَ ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما عن تَفسير قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطَّلاق : ١٢] . فقال للسائل : " وما يُؤَمِّنُكَ أنِّي إنْ أخبرتُكَ بتفسيرها كَفَرْتَ ؟ ، فإنَّك تُكذِّب بها ، وتكذيبُك بها كُفْرُك بها ". فالمَسألة الدَّقيقة اللطيفة التي تُبذَل لغَير أهلها ، كالمَرأة الحسناء التي تُهدَى إلى ضَرير مُقعَد ، كما قِيل : خَوْدٌ تُزَفُّ إلى ضَرِير مُقعَد . _ والخَوْدُ الشَّابَّة الجميلة الحَسَنَة الخُلُق)) .

يجب على المَرْءِ أن يَنْثُر كلامَه المُفيدَ في القلوب الصافية ، ويضع التعاليمَ الشريفة في البيئة النَّقية لكي تَحصل الاستفادة . وبعبارة أُخرى ، عَلَيْه أن يَضع البُذورَ في التُّربة الصالحة . وإذا لم يَفعل ذلك ، فقدْ أتعبَ نَفْسَه ، وأضاعَ وَقْتَه .

وقد وَرَدَ في إنجيل مَتَّى[٧: ٦] أن السَّيد المسيح قال : ((لا تُعطُوا ما هُوَ مُقدَّسٌ للكِلاب، ولا تَطرَحُوا جَواهِرَكُم أمامَ الخنازير ، لِكَي لا تَدُوسَها بأرجُلِها وتَنقلبَ عَلَيكم فَتُمَزِّقَكم)) .

وقال الإمام الشافعيُّ :

أأنثُرُ دُرًّا بَيْنَ سَارِحةِ النَّعَمِ ... وأنظِمُ مَنثورًا لِراعيةِ الغَنَمْ
لَعَمْري لَئِن ضُيِّعْتُ في شَرِّ بَلْدةٍ ... فَلَسْتُ مُضِيعًا فِيهِمُ غُرَرَ الكَلِمْ
لَئِن سَهَّلَ اللَّهُ العزيزُ بِلُطْفِهِ ... وصَادَفْتُ أهْلًا للعُلومِ وللحِكَمْ
بَثَثْتُ مُفيدًا واستَفَدْتُ وِدَادَهُم ... وإلا فَمَكْنُونٌ لَدَيَّ ومُكْتَتَمْ
ومَنْ مَنَحَ الجُهَّالَ عِلْمًا أضَاعَهُ ... ومَنْ مَنَعَ المُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ [٢٧]

قالَ اللَّهُ تعالى:﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قليلًا أُولئكَ ما يأكُلُونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامةِ ولا يُزَكِّيهِم وَلَهُم عذابٌ أليم ﴾ [البقرة: ١٧٤].

نزلت هذه الآية في عُلَماء اليهود وزُعَمائهم، كانوا يَأخذون مِن العَوَام والدَّهماء والرَّعاع ، الأموالَ والهدايا، وكانوا يَرْجُون أن يَكون النبيُّ المَبعوث في آخِر الزَّمان مِنهُم، أي : مِن بَني إسرائيل،فلمَّا بُعِثَ مُحمَّد ﷺ مِن العرب، خافوا أن يَفقِدوا الأموالَ والهدايا والامتيازات والمكاسب الشخصية والمصالح المادية،ويَخسَروا زعامتهم ورئاستهم،فقاموا بتغيير صِفَة النبيِّ مُحمَّدﷺ الثابتة في التَّوراة . فلمَّا نَظَرَ العَوَام في التَّوراة ، لَم يَجِدُوا صِفَةَ النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، فَكَفَرُوا به ، ولَم يتَّبعوه.

---

٢٧ سبب هذه الأبيات أن الإمام الشافعيَّ ــ رحمه اللَّهُ تعالى ــ لَمَّا دخلَ مِصْرَ ، أتاه أصحابُ الإمام مالك ــ رحمه اللَّهُ تعالى ــ ، وأقْبَلوا عَلَيه ، فلمَّا رَأَوْهُ يُخالِف مالكًا ، تنكَّروا له ، وجَفَوْهُ . انظر تاريخ الإسلام (١/ ١٥٦٩) ، وحِلْية الأولياء (٩/ ١٥٣) .

الدُّر : دُرَر العِلْم / النَّعَم : الإبِل / نثر المنظوم : الشِّعْر / غُرَر الكَلِم : الحِكَم الرفيعة / الْمُسْتَوْجِبِين : الذين يَستحقون التَّعَلُّم .

إنَّ الذينَ يُخْفُون وَصْفَ النبيِّ مُحمَّد ﷺ الثابت في التَّوراة ، وهُم عُلَماء اليهود ، ويأخذون بالمَكتوم مِن سِفْلتهم عِوَضًا حقيرًا ، وعَرَضًا تافهًا مِن حُطَام الدُّنيا الفاني . وسَمَّاه قليلًا لانقطاع مُدَّته ، وسُوء عاقبته، إنَّما يَأكلون في بُطونهم نارًا مُتأجِّجة يوم القِيامة. وسَمَّى ما أكَلُوه نارًا لأنَّه يَؤُول بهم إلَيها . ولا يُكلِّمهم اللَّهُ بالرَّحمة والرِّضا ، كما يُكلِّم المؤمنين، بَل يُكلِّمهم بالغَضَب والتَّوبيخ والتَّقريع ، كقَوله تعالى: ﴿اخْسَؤوا فِيها ولا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]،ولا يُطهِّرهم اللَّهُ مِن دَنَس الذُّنُوب، ولا يُثْني عَلَيهم ، ولهم عذاب مُؤلِم مُوجِع ، وهو عذاب جَهَنَّم الشديد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧٦) : ((قَوله تعالى : ﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ ﴾ . قال ابن عباس: نزلت في اليهود ، كَتَمُوا اسمَ النبيِّ ﷺ ، وغَيَّرُوه في كِتابهم . والثَّمَنُ القليل ما يُصيبونه مِن أتْبَاعهم مِن الدُّنيا ، ﴿ أُولئكَ ما يأكُلُونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ﴾ . قال الزَّجاج : معناه : إنَّ الذين يَأكلونه يُعذَّبون به ، فكأنَّهم يأكلون النارَ ، ﴿ ولا يُكَلِّمُهُمُ ﴾ . هذا دليل على أنَّ اللَّه لا يُكلِّم الكُفَّارَ ولا يُحاسبهم . قَوله تعالى : ﴿ ولا يُزَكِّيهِم ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها لا يُزَكِّي أعمالَهم ، قاله مُقاتل . والثاني لا يُثْني عَلَيهم ، قاله الزَّجاج . والثالث لا يُطهِّرهم مِن دَنَس كُفرهم وذُنوبهم ، قاله ابن جرير)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨٠): ((يقول تعالى : ﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ ﴾ ، يَعني : اليهود الذين كَتَمُوا صِفَةَ مُحمَّد ﷺ في كُتُبهم التي بأيديهم ، مِمَّا تَشهَد له بالرِّسالة والنُّبُوَّة ، فَكَتَمُوا ذلك لِئلا تَذهب رِياستهم ، وما كانوا يَأخذونه مِن العرب من الهدايا والتُّحَف على تعظيمهم إيَّاهم ، فَخَشُوا _ لَعَنَهُم اللَّهُ _ إنْ أظهَروا ذلك أن يتَّبعه الناس ويَتركوهم ، فكتموا ذلك إبقاءً على ما كان يَحصُل لهم مِن ذلك ، وهو نَزْر يسير ، فباعوا أنفسهم بذلك ، واعتاضوا عن الهُدى واتِّباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن اللَّه ، بذلك النَّزْر اليسير، فخابوا وخَسِرُوا في الدُّنيا والآخِرة . أمَّا في الدُّنيا ، فإنَّ اللَّه أظهرَ لعباده صِدْقَ رسوله بما نَصَبَه وجعله معه مِن الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات ، فَصَدَّقَه الذين كانوا يَخافون أن يتَّبعوه ، وصاروا عَوْنًا له على قِتالهم ، وباؤوا بغضب على غضب ، وذَمَّهم اللَّهُ في كِتابه في غَير مَوضع ، فَمِن ذلك هذه الآية الكريمة:﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قليلًا ﴾ وهو عَرَض الحياة الدُّنيا ، ﴿ أُولئكَ ما يأكُلُونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ﴾ ، أي : إنَّما يَأكلون ما يَأكلونه في مُقَابَلَة كِتمان الحق نارًا تَأجَّج في بُطُونهم يَوم القِيامة ... . وقَوله : ﴿ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامةِ ولا يُزَكِّيهِم وَلَهُم عذابٌ أليم ﴾ ، وذلك لأنَّه تعالى غَضْبان عَلَيهم ، لأنَّهم كَتَمُوا وقد

عَلِمُوا ، فاستحقوا الغضب ، فلا يَنظُر إليهم ، ولا يُزَكِّيهم ، أي: يُثْني عليهم ويَمدحهم، بَل يُعذِّبهم عذابًا أليمًا)) اهـ . وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٥٤١) : ((وقد تظافرت النُّصُوص القُرآنية على ذَم كَاتِم العِلْم : ﴿إنَّ الذينَ يَكْتُمُونَ ما أنزلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قليلًا أُولئكَ ما يأكُلُونَ في بُطُونِهِم إلا النَّارَ ﴾ . ﴿ وإذا خلا بعضُهم إلى بَعْض قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُم ﴾ [البقرة : ٧٦] ، فَوَصَفَ المَغضوبَ عَلَيهم بأنهم يَكتُمون العِلْمَ تَارَةً بُخْلًا به ، وتَارَةً اعتياضًا عَن إظهاره بالدُّنيا ، وتَارَةً خَوْفًا أن يُحْتَجَّ عَلَيهم بما أظهَرُوه مِنه. وهذا قد يُبْتَلَى به طوائف مِن المُنتسبين للعِلْم ، فإنَّه تَارَةً يَكتُمونه بُخْلًا به ، وتَارَةً كَرَاهَة أن يَنال غَيْرُهم مِن الفَضْل والتَّقَدُّم والوَجَاهَة ما نالوه ، وتَارَةً اعتياضًا برئاسة أوْ مال ، فَيَخاف من إظهاره انتقاصَ رُتبته، وتَارَةً يكون قد خَالَفَ غَيْرَه في مسألة ، أو اعتزى (انتسب) إلى طائفة قد خُولِفت في مَسألة ، فيَكتُم مِن العِلْم ما فِيه حُجَّة لِمُخَالِفه،وإنْ لَم يتيقَّن أن مُخَالِفه مُبطِل،وذلك كُلُّه مَذموم وفاعله مَطرود مِن منازل الأبرار ومَقَامات الأخيار، مُسْتَوْجِب للعنة في هذه الدَّار ودارِ القَرَار)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِم واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قليلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُون ﴾ [آل عِمران : ١٨٧] [٢٨].

---

٢٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٢١) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ ، فِيهم ثلاثة أقوال: أحدها أنهم اليهود، قاله ابن عباس وابن جُبَير والسُّدي ومُقاتل . فعلى هذا الكتاب التَّوراة. والثاني أنهم اليهود والنصارى ، والكتاب التَّوراة والإنجيل . والثالث أنهم جميع العُلَماء، فيكون الكتاب اسم جِنس . قَوله تعالى : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ﴾ ، ... . وفي هاء الكِنَاية في " لَتُبَيِّنُنَّهُ " ، و" تَكْتُمُونَهُ " قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى النبيِّ محمَّد ﷺ ، وهذا قَول مَن قال: هُم اليَهُود . والثاني أنَّها تَرجع إلى الكِتَاب ، قاله الحسن وقَتادة ، وهو أصح ، لأن الكِتاب أقرب المذكورين ، ولأنَّ مِن ضَرُورة تَبيينهم ما فيه ، إظهار صِفَة محمَّد ﷺ ، وهذا قَول مَن ذَهَبَ إلى أنَّه عام في كُل كِتاب . وقال عليٌّ ابن أبي طالب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ : ما أخذَ اللَّهُ على أهل الجهل أن يَتَعَلَّمُوا ، حَتَّى أخذَ على أهل العِلْم أن يُعلِّموا . قَوله تعالى : ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ . قال الزَّجاج : أي رَمَوْا به ، يُقَال للذي يَطرَح الشيءَ ولا يَعبَأ به ، قد جَعلت هذا الأمر بظَهْر ... . وفي هاء " فنبذوه " قَولان : أحدهما أنها تعود إلى الميثاق ، والثاني إلى الكتاب. قَوله تعالى : ﴿ واشْتَرَوْا بِهِ ﴾ ، يعني : اسْتَبْدَلُوا بما أخذَ اللَّهُ عَلَيهم القِيامَ به وَوَعَدَهُم عَلَيه الجَنَّةَ ﴿ ثَمَنًا قليلًا ﴾ ، أي : عَرَضًا يسيرًا مِن الدُّنيا)) .

واذكُرْ يا مُحمَّد العَهْدَ المُؤَكَّد على عُلَماء اليهود في التَّوراة، أن يُظهِروا ما فِيها مِن أحكام اللَّه وشرائعه وصِفَة النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، ولا يُخْفُوا مِن ذلك شيئًا ، فأهْمَلُوا العَهْدَ المُؤَكَّد (المِيثاق) ، وطَرَحُوه وراء ظُهورهم ، وأعْرضَوا عنه ، ولَم يَعْمَلُوا به ، وأخذوا بَدَلَهُ شيئًا تافهًا مِن حُطَام الدُّنيا الزائل ، مِن العَوَام والجُهَّال والرَّعاع ، مُستغلين زعامتهم الدينية ومكانتهم العِلْمية ، فَكَتَمُوا الحَقَّ ، حِرْصًا على مكاسبهم المادية ومصالحهم الشخصية ، فَبِئْسَ هذا الشِّراء ، وخَابُوا وخَسِرُوا وهَلَكُوا.

هذه الآية تُشير إلى ضَرورة نَشْر العِلْم النافع ، والأخذ بأيدي الناس إلى الهِداية ، وإرشادهم إلى الصِّراط المستقيم . وفيها بيانٌ لخُطُورة كِتمان العِلْم ، وحَجْبه عن الآخرين بسبب منافع دُنيوية دَنيئة . ويجب على العُلَماء أن يكونوا حُرَّاسَ الشريعة ، ويَنشروا أحكامَها كاملةً بدون زيادة ، ولا نُقصان ، ويُعلِّموا الناسَ تعاليمَ الدِّين ، والأخلاقَ الفاضلة ، والسُّلوكياتِ الاجتماعية الطَّيبة . وكُل ذلك وَفْق المَنهج الإلهيِّ في الدَّعوة والتَّبليغ . وهذا يتمُّ بالسَّير على خُطَى الأنبياء أعظمِ الدُّعاةِ ، والاقتداء بأسلوبهم المَعصوم في البَيان وإرشادِ الآخَرين .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧٩) في تفسير الآية : ((هذا تَوبيخ مِن اللَّه ، وتهديد لأهل الكِتاب الذينَ أخذَ اللَّهُ عَلَيهم العَهْدَ على ألسنة الأنبياء أن يُؤْمِنُوا بمُحمَّد ﷺ، وأن يُنَوِّهوا بذِكْره في الناس ، لِيَكُونوا على أُهْبَة مِن أمْرِه ، فإذا أرسله اللَّهُ تَابَعُوه ، فَكَتَمُوا ذلك ، وتعوَّضوا عمَّا وُعِدُوا عَلَيه مِن الخَير في الدُّنيا والآخِرة بالدُّون الطفيف ، والحَظ الدُّنيويِّ السَّخيف ، فَبِئْسَت الصَّفقة صَفْقتهم ، وبِئْسَت البَيعة بَيعتهم . وفي هذا تحذير للعُلَماء أن يَسلُكوا مَسْلَكَهُم ، فيُصيبهم ما أصابهم ، ويَسلُك بهم مسالكهم ، فعلى العُلَماء أن يَبذُلوا ما بأيديهم مِن العِلْم النافع الدَّال على العمل الصالح ، ولا يَكْتُمُوا مِنه شَيْئًا)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (٤/ ٢٩٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ ، هذا مُتَّصل بذِكْر اليَهُود ، فإنَّهُم أُمِرُوا بالإيمان بمُحمَّد عليه السلام ، وبيان أمره ، فَكَتَمُوا نَعْتَه ، فالآية تَوبيخ لهم ، ثُمَّ مَعَ ذلك هو خَبَر عام لهم ولغَيرهم . قال الحَسَن وقَتَادة : هي في كُل مَن أُوتِيَ عِلْمَ شيء مِن الكتاب ، فَمَن عَلِمَ شيئًا فَلْيُعَلِّمْهُ ، وإيَّاكم وكِتمان العِلْم فإنَّه هَلَكَة . وقال مُحمَّد بن كَعْب : لا يَحِلُّ لِعَالِم أن يَسكُت على عِلْمِه ، ولا للجاهل أن يَسكُت على جَهْله . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ ، وقال : ﴿ فَاسْأَلُوا أهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتم لا تَعْلَمُون ﴾ [الأنبياء : ٧] . وقال أبو هُرَيرة : لَوْلا ما أخذَ اللَّهُ على أهل الكتاب ما حَدَّثْتُكُم بشَيء ، ثُمَّ تلا هذه الآية : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ ﴾ . وقال

الحَسَن بن عُمَارة : أتَيْتُ الزُّهري بعدما ترك الحديث ، فألْفَيْتُه على بابه ، فقلتُ : إنْ رَأيْتَ أن تُحدِّثني، فقال : أمَا عَلِمْتَ أنِّي تَركتُ الحديث ؟ ، فقلتُ : إمَّا أن تُحدِّثني وإمَّا أن أُحدِّثك . قال: حَدِّثْني . قُلتُ : حَدَّثَني الحَكَم بن عُتَيبة عن يحيى بن الجَزَّار ، قال: سَمِعْتُ عليَّ بن أبي طالب يقول : ما أخذَ اللَّهُ على الجاهلين أن يَتعَلَّمُوا حَتَّى أخذَ على العُلَماء أن يُعلِّموا . قال : فَحَدَّثَني أربعين حديثًا . الهَاء في قَوله : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ﴾ ، تَرجِع إلى مُحمَّد ﷺ ، وإنْ لَم يَجْرِ له ذِكْر. وقِيل: تَرجع إلى الكِتاب، ويَدخل فيه بيان أمر النبيِّ ﷺ ، لأنَّه في الكِتاب، وقال: ﴿ولا تَكْتُمُونَهُ ﴾ ولَم يَقُلْ : تَكْتُمُنَّهُ ، لأنه في معنى الحال ، أي : لَتُبَيِّنُنَّهُ غَير كَاتِمِين ... . قَوله : ﴿ فَنَبَذُوهُ ﴾ عائدًا على الناس الذين بَيَّنَ لهم الأنبياء)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٠٦): ((فعلى العُلَماء أن لا يَبْخَلُوا بتَعليم ما يُحْسِنُون وأن لا يَمتنعوا مِن إفادة ما يَعْلَمُون ، فإنَّ البُخْل لُؤم وظُلم ، والمَنْع حَسَد وإثم ، وكَيف يَسُوغ لهم المَنع بما مَنحوه جُودًا مِن غَير بُخْل ، وأُوتُوه عَفْوًا مِن غَير بَذل ، أَمْ كَيف يَجُوز لهم الشُّح بما إنْ بَذَلُوه زادوا نَمَاءً ، وإنْ كَتَمُوه تَنَاقَصَ وَوَهَى ، وَلَو استنَّ بذلك مَن تَقَدَّمَ لَمَا وَصَلَ العِلْمُ إلَيهم ، وانقرض بانقراضهم ، وصاروا على مَرِّ الأيام جُهَّالًا ، وتَقَلُّبِ الأحوال وتَنَاقُصِها أرذالًا . ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ ﴾ . وما أحسنَ ما قال بعضُهم :

أَفِدِ العِلْمَ ولا تَبْخَلْ بِهِ وإلى عِلْمِكَ عِلْمًا فَاسْتَزِدْ
مَن يُفِدْهُ يَجْزِهِ اللَّهُ بِهِ وسَيُغْني اللَّهُ عَمَّن لَم يُفِدْ

قال الراغب : إفادة العِلْم مِن وَجْه صِناعة ، ومِن وَجْه عِبادة ، وَمِن وَجْه خِلافة اللَّه، فإنَّ اللَّه تعالى مع استخلافه ، قد فَتَحَ على قَلْبه العِلْمَ ، الذي هو أخصُّ صِفَاته تعالى ، فهو خازن لأجل خزائنه ، وقد أَذِنَ اللَّهُ له في الإنفاق عَلى كُل أحد مِمَّن لا يَفُوته الإنفاق عَلَيه ، وكُلَّما كان إنفاقُه على ما يُحِب وكما يُحِبُّ أكثر ، كان جَاهُهُ عِندَ مُسْتَخْلِفِهِ أوْفَر)) .

قال أبو هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ : ((لَوْلا ما أَخَذَ اللَّهُ على أهل الكتاب ما حَدَّثْتُكُم بشَيء ، ثُمَّ تلا : ﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ ﴾)) [٢٩].

وهُنا تتجلَّى أهمية نَشْر العِلْم وعَدَم كِتمانه . وأبو هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أكثر الصحابة روايةً للحديث . وقد بَيَّن سبب كثرة حديثه ، فهو يُريد نشر كُل ما سَمِعه مِن النبيِّ ﷺ ، لئلا يكون مِن

---

٢٩ رواه الحاكم في المستدرك(١/ ١٩٠)برقم (٣٦٦) وصحَّحه ، وقال الذهبي : ((لا أعْلَمُ له عِلَّة)).

كَاتِمِي العِلْم الذين ذَمَّهُم اللَّهُ تعالى ، وفَضَحَهم بسبب خِيانتهم للأمانة ، وعدم التزامهم بالمِيثاق القاضي ببيان الشَّرْع الإلهيِّ وتَبليغه للناس. مِمَّا يُشير إلى الأهمية البالغة لنَشْر العِلْم، وتَبليغ الحَق، وذلك لإخراج الخلائق مِن ظُلمات الجَهْل إلى نُور العِلْم ، ومِن مَتاهةِ الكُفر إلى واحة الإيمان . وهكذا ، تتَّضح أهميةُ نَشْر العِلْم كَمَنْهَجِ خَلاصٍ كَوْنِيٍّ .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ــ رضي اللَّهُ عنه ــ : أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : ((مَن كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامة بِلِجَامٍ مِن نار)) [سَبَق تخريجُه] .

هذا التحذيرُ الشديد يَعكس العاقبة الوخيمة لِكَاتِم العِلْم . فعلى المَرء أن يَخرج من دائرة العُقوبة ، وذلك بِتَبَنِّي الدَّعوة مشروعًا أُمَمِيًّا طِيلة حَياته ، حَيث النَّشْر المنهجي للعِلْم النافع ، ومُساعدة الآخرين بإرشادهم إلى إعمال عُقُولهم ، وتَنظيفها مِن شوائب الجَهْل ، كَي تَستوعب نُورَ العِلْم ، وتتلقَّى ضَوءَ الدَّعوة الصافية بلا إفراط ولا تفريط . وتظلُّ الكَلِمَةُ الخالدة في كُل زمان ومكان : زَكاةُ العِلْمِ نَشْرُه .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الذينَ يَبْخَلُونَ ويَأمُرُونَ النَّاسَ بالبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وأعْتَدْنا للكافرينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النِّساء : ٣٧] [٣٠].

إنَّ اليهود كَتَمُوا اسمَ مُحمَّد ﷺ وصِفته ، ولَم يُوضِّحوه للناس ، ولَم يُظهِروه لهم ، معَ أنَّه ثابت في التَّوراة (كتابهم المُقدَّس) . لقد بَخِلُوا بما عِندَهم مِن العِلْم ، وكَتموا ذلك ، حِرْصًا على مكاسبهم المادية ، ومصالحهم الشخصية ، ومكانتهم الاجتماعية .

---

٣٠ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨١ و٨٢) : ((ذَكَرَ المفسِّرون أنها نزلت في اليَهُود. فأمَّا سبب نُزولها ، فقال ابن عباس : كان كَرْدَم بن زَيد حَلِيف كَعْب بن الأشرف وأُسَامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع وبَحْري بن عمرو وحُيَي بن أخطب ورِفَاعة بن زيد بن التابوت،يَأتون رِجَالًا مِن الأنصار مِن أصحاب رسول اللَّه ﷺ ، وكانوا يُخالطونهم ، وينتصحون لهم ، فيقولون لهم : لا تُنفِقوا أموالَكم ، فإنَّا نخشَى عَلَيكم الفَقْرَ في ذَهَابها ، ولا تُسارِعوا في النَّفَقَة، فإنَّكُم لا تَدْرُون ما يَكُون، فنزلت هذه الآية . وفي الذي بَخِلُوا به وأَمَرُوا الناسَ بالبُخْل به قَولان: أحدهما أنَّه المال، قاله ابن عباس وابن زَيد. والثاني أنَّه إظهار صِفَة النبيِّ ﷺ ونُبُوَّته ، قاله مُجاهد وقَتادة والسُّدي، ... . وفي الذين آتاهم اللَّهُ مِن فَضْله قَولان : أحدهما أنهم اليهود ، أُوتُوا عِلْم نَعْت محمَّد ﷺ فكتموه ، هذا قول الجمهور . والثاني أنهم أرباب الأموال ، بَخِلُوا بها ، وكَتموا الغِنى ، ذَكَرَه الْمَاوَرْدِي في آخرين)) .

ويَأمر بعضُهم بعضًا بكِتمانه وإخفائه ، ويَكْتُمون ما في التَّوراة مِن وَصْف النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، ويُخْفُون ما أعطاهم اللَّهُ مِن العِلْم المُشتمل على ذلك .

وهَيَّأ اللَّهُ للكافرين في الآخرة عذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا في نار جهنَّم ، مَعَ الإهانة والإذلال والخِزْي والعار . واللَّهُ لَم يَقُلْ : وأعْتَدْنا لهم عذابًا مُهينًا ، وإنَّما قال : ﴿ وأعْتَدْنا للكافرينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ، ووضعُ الظاهر مَوضِع المُضمَر ، للتَّسجيل عَلَيهم بالكُفر والضَّلال ، وفَضْحهم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٧) : ((﴿ وأعْتَدْنا للكافرينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ، وضع الظاهر فيه مَوضِع المُضمَر ، إشعارًا بأنَّ مَن هذا شأنه فهو كافر لِنِعْمة اللَّه،ومَن كان كافرًا لِنعمة اللَّه فله عذاب يُهينه ، كما أهانَ النِّعْمَةَ بالبُخْل والإخفاء . والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار تنصيحًا : لا تُنفِقوا أموالَكم ، فإنَّا نَخشَى عَلَيكم الفَقْرَ ، وقِيل : في الذين كَتَمُوا صِفَةَ مُحمَّد ﷺ)) .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٨٧) : ((وقد قِيل : إنَّ اللَّه جَلَّ ثناؤه عَنَى بقَوله : ﴿ الذينَ يَبْخَلُونَ ويَأمُرُونَ النَّاسَ بالبُخْلِ ﴾ ، الذين كَتَمُوا اسمَ مُحمَّد ﷺ وصِفَته مِن اليَهُود ، ولم يُبيِّنوه للناس ، وهُم يَجِدُونه مَكْتُوبًا عِندَهم في التَّوراة والإنجيل ، ... . واللَّه لا يُحِبُّ ذَوِي الخُيَلاء والفَخْر ، الذين يَبخَلون بتبيين ما أمرهم اللَّهُ بتبيينه للناس مِن اسم مُحمَّد ﷺ ونَعْته وصِفَته ، التي أنزلها في كُتُبه على أنبيائه ، وهُم به عَالِمُون ، ويَأمرون الناسَ الذين يَعْلَمُون ذلك مِثْلَ عِلْمهم بكِتمان ما أمرهم اللَّهُ بتبيينه لهم، ويَكْتُمون ما آتاهم اللَّهُ مِن عِلْم ذلك ومعرفته، مَن حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيه كِتمانه إيَّاه ، ... . وأَوْلَى الأقوال بالصَّواب في ذلك ما قاله الذين قالوا : إنَّ اللَّه وَصَفَ هؤلاء القَوم الذين وَصَفَ صِفَتَهم في هذه الآية بالبُخْل بتعريف مَن جَهِلَ أمرَ مُحمَّد ﷺ أنَّه حَق ، وأنَّ مُحَمَّدًا للَّه نبيٌّ مَبعوث ، وغَير ذلك مِن الحَق الذي كان اللَّهُ تعالى ذِكْرُه قد بَيَّنَه فِيما أَوْحَى إلى أنبيائه مِن كُتُبه ، فَبَخِلَ بتبيينه للناس هؤلاء ، وأَمَرُوا مَن كانت حالُه حالَهم في مَعرفتهم به ، أن يَكْتُمُوه مَن جَهِلَ ذلك ، ولا يُبيِّنوه للناس . وإنَّما قُلنا : هذا القَول أَوْلَى بتأويل الآية ، لأنَّ اللَّه جَلَّ ثناؤه وصفهم بأنهم يَأمرون الناسَ بالبُخْل ، ولَم يَبْلُغْنا عن أُمَّة مِن الأُمَم أنها كانت تأمر الناسَ بالبُخْل دِيانةً ولا تَخَلُّقًا ، بَل ترى ذلك قبيحًا ، وتَذُمُّ فاعلَه ، وتمتدح _ وإنْ هي تخلَّقت بالبُخْل واستعملته في أنفسها _ بالسَّخاء والجُود ، وتَعُدُّه من مكارم الأفعال ، وتَحُثُّ عليه، ولذلك قُلنا : إنَّ بُخْلهم الذي وصفهم اللَّهُ به إنَّما كان بُخْلًا بالعِلْم الذي كان اللَّهُ آتاهُمُوه،فَبَخِلُوا بتبيينه للناس وكَتَمُوه ، دُون البُخْل بالأموال ، إلا أن يكون معنى ذلك : الذين يَبْخَلُون بأموالهم التي يُنفقونها في

حُقوق اللَّه وسُبُله ، ويَأمرون الناسَ مِن أهل الإسلام بتَرْك النَّفَقَة في ذلك ، فيكون بُخْلُهم بأموالهم وأمرهم الناس بالبُخْل بهذا المعنى _ على ما ذَكَرْنا مِن الرِّواية عن ابن عباس _ فيكون لذلك وَجْه مَفهوم في وَصْفهم بالبُخْل وأمْرِهم به... . ﴿ وأعْتَدْنا ﴾ ، وجَعَلْنا للجاحدين نِعْمَةَ اللَّه التي أنعمَ بها عَلَيهم مِن المَعرفة بنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ ، المُكذِّبين به بعد عِلْمهم به ، الكاتمين نَعْتَه وصِفَته ، مَن أمَرَهم اللهُ ببيانه له مِن الناس ﴿ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ، يعني : العِقَاب المُذِل مَن عُذِّبَ بخُلوده فيه عَتَادًا له في آخِرته إذا قَدِمَ على رَبِّه، وَجَدَه بما سَلَفَ مِنه مِن جُحوده فَرْضَ اللَّه الذي فَرَضَه عليه)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٦٠) : ((وقد حَمَلَ بعضُ السَّلَف هذه الآية على بُخْل اليَهُود بإظهار العِلْم الذي عِندهم مِن صِفَة مُحمَّد ﷺ ، وكِتمانهم ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأعْتَدْنا للكافرينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ، رواه ابن إسحاق عن مُحمَّد بن أبي مُحمَّد عن عِكْرمة أو سعيد بن جُبَير عن ابن عباس ، وقاله مُجاهد وغَير واحد ، ولا شَكَّ أن الآية مُحْتَمِلَة لذلك ، والظاهر أن السِّياق في البُخْل بالمال، وإنْ كان البُخْل بالعِلْم داخلًا في ذلك بطريق الأَوْلَى)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [النِّساء : ٤٤] [٣١].

أَلَم تنظُر يا مُحمَّد إلى الذين أُعْطُوا حَظًّا مِن عِلْم التَّوراة ، وهُم أحبار اليهود ، يَستبدلون الضَّلالةَ بالهُدى ، أي إنَّهُم مُتمسِّكون بالدِّيانة اليهودية الباطلة ، بعد وُضوح الأدلة والحُجَج

---

٣١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٩٦و٩٧و٩٨) : ((اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال : أحدها أنها نزلت في رِفَاعة بن زَيد بن التابوت، والثاني أنها نزلت في رَجُلَيْن كانا إذا تكلَّمَ النبيُّ ﷺ لَوَيَا ألسنتهما وعاباه ، رُوِيَ القَولان عن ابن عباس. والثالث أنها نزلت في اليهود ، قاله قَتادة . وفي النصيب الذي أُوتُوه قَولان: أحدهما أنَّه عِلْم نُبُوَّة محمَّد النبيِّ ﷺ ، والثاني العِلْم بما في كِتابهم دُون العَمَل . قَوله تعالى: ﴿ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ﴾ ، قال ابن قُتَيبة: هذا مِن الاختصار، والمعنى: يَشترون الضَّلالةَ بالهُدى ... . وفي معنى اشترائهم الضَّلالة أربعة أقوال : أحدها أنَّه استبدالهم الضَّلالة بالإيمان ، قاله أبو صالح عن ابن عباس.والثاني أنه استبدالهم التكذيب بالنبيِّ ﷺ بعد ظُهُوره بإيمانهم به قَبْل ظُهُوره ، قاله مُقاتل . والثالث أنه إيثارهم التكذيب بالنبيِّ لأخذ الرِّشوة وثُبوت الرِّئاسة لهم ، قاله الزَّجاج . والرابع أنه إعطاؤهم أحبارهم أموالهم على ما يَصنعونه مِن التكذيب بالنبيِّ ﷺ ، ذَكَرَه الماوردي . قَوله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُونَ أن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ ، خِطاب للمؤمنين ، والمراد بالسَّبيل طريق الهُدى ، واللَّه أعلم)) .

والبراهين لهم على صِدْق مُحمَّد ﷺ ، وصِحَّة رسالته ، وأنَّهُ النبيُّ ﷺ المُبشَّر به في التَّوراة والإنجيل ، ويُريدون أن تَضِلُّوا أيها المؤمنون طريقَ الحق كما ضَلُّوه ، وتُصبحوا كافرين مِثْلَهُم . إنَّ عُلَماء اليهود يتمسَّكون بالباطل ، ويُعرِضون عن الحق ، ويَختارون الكُفْرَ على الإيمان ، فقد كَتَمُوا صِفَةَ النبيِّ مُحمَّد ﷺ في التَّوراة ، حِرْصًا على عَرَض تافه مِن حُطَام الدُّنيا الفاني ، ويُحِبُّون ويُريدون لكم أيُّها المؤمنون أن تُعرِضوا عن الحق والهُدى والعِلْم النافع، لِتَكُونوا مِثْلَهُم في الكُفر والضَّلال.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٧١٥) : ((قَوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتابِ ﴾ ، كلام مُسْتَأنَف، والخِطاب لكُل مَن يتأتَّى مِنه الرُّؤية مِن المُسلمين. والنَّصيب: الحَظ ، والمُراد : اليهود أُوتُوا نصيبًا مِن التَّوراة . وقَوله : ﴿ يَشْتَرُونَ ﴾ جُملة حالية ، والمراد بالاشتراء : الاستبدال ، ... . والمعنى : أن اليهود اسْتَبْدَلُوا الضَّلالةَ، وهي: البَقَاء على اليَهُودية، بَعْد وُضُوح الحُجَّة على صِحَّة نُبُوَّة نَبِيِّنا مُحمَّد ﷺ . قَوله : ﴿ وَيُرِيدُونَ أن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ عطف على قَوله : ﴿ يَشْتَرُونَ ﴾ ، مُشَارِك له في بَيَان سُوء صَنيعهم ، وضَعْف اختيارهم ، أي : لَم يَكْتَفُوا بما جَنَوْهُ على أنفسهم مِن استبدال الضَّلالة بالهُدى ، بل أرادوا مَعَ ضَلالهم أن يتوصَّلوا بكَتْمهم وجَحْدهم إلى أن تَضِلُّوا أنتم أيُّها المؤمنون السَّبِيلَ المُستقيم ، الذي هو سبيل الحق)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتابَ يَأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وإن يَأتِهِم عَرَضٌ مِثْلُهُ يأخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثاقُ الكِتابِ أن لا يَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ والدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ للذينَ يَتَّقُونَ أفلا تَعْقِلُون ﴾ [الأعراف : ١٦٩] .

هذا ذَم إلهيٌّ لليهود الذينَ وَرِثُوا التَّوراةَ عَن آبائهم ، يأخذون حُطَامَ الدُّنيا الدَّنيء ، سواءٌ كان حَلالًا أَم حَرَامًا . والعَرَضُ مَتَاع الدُّنيا الفاني ، وسَمَّاه عَرَضًا لِقِلَّة بقائه . والأدنى هو الدُّنيا الفانية الزائلة الدَّنيئة .

وهؤلاء اليهودُ أخذوا التَّوراةَ عن آبائهم ، وقَرؤوها ، وعَلِمُوا أحكامَها ، وأدْرَكُوا ما فِيها مِن الأوامر والنَّوَاهي والحلال والحرام ، وخَالَفُوها ، ولَم يَعْمَلُوا بها ، وأخذوا الرِّشَى ، وأكلوا المالَ الحرام ، مُقَابِل التلاعب بأحكام اللَّه وتحريف كَلامه، ويَقولون بكُل غُرور وتبجُّح ووقاحة وكَذِب : سَيَغفِر اللَّهُ ما فَعَلْناه ، ويتجاوز عَنَّا ، ولا يُؤاخذنا به . إنَّهُم يَرْجُونَ المغفرةَ مِن اللَّه ، ويَتَمَنَّوْنَ عَلَيه الأماني والأباطيل ، وهُم مُتمسِّكون بالحَرَام ، ومُصِرُّون على الذَّنْب ، وكُلَّما رَأَوْا شيئًا مِن حُطَام الدُّنيا، أخذوه غَير مُبالين بكَوْنه حَلالًا أَمْ حَرَامًا. وهذه يدلُّ على شِدَّة حِرصهم على الدُّنيا الفانية ، وإصرارهم على المعاصي والذُّنُوب .

أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيهم العَهْد المُؤَكَّد في التَّوراة ألا يَقولوا على اللَّه إلا الحَق ؟. والاستفهامُ للتَّوبيخ والتَّقريع . لقد زَعَمُوا أنَّ اللَّه سَيَغفِر لهم مَعَ إصرارهم على الذَّنْب ، وهذا كَذِب على اللَّه ، فَلَيْسَ في التَّوراة وَعْد المغفرة مَعَ الإصرار على الذَّنْب . وَدَرَسَ اليهودُ ما في الكتاب ، وعَرَفُوا أحكامَه ، وهُم عَالِمُون بِكَذِبهم على اللَّه ، ومُخالفتهم للتَّوراة . وهذا أمرٌ في غاية السُّوء ، لأنَّ كُفرهم قائم على العِلْم والمعرفة ، ولَيس الجَهْل والبراءة . وهذا أقبحُ أنواع الكُفر . وصَدَقَ القائل :

فَإن كُنتَ لا تدري فتلك مُصيبة وإن كُنتَ تدري فالمصيبةُ أعظمُ

والآخِرةُ خَيْرٌ للذين يتَّقون اللَّهَ بالابتعاد عن الحَرَام والذُّنُوب والمعاصي. أفلا يَعقِلون أن الآخرة الباقية أفضل مِن الدُّنيا الفانية ؟ . والاستفهامُ للإنكار والتَّوبيخ .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ الخَلَف (بفَتْح اللام) مَن يَخلُف غَيْرَه بالخَيْر ، والخَلْف (بسُكُون اللام) مَن يَخلُف غَيْرَه في الشَّر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٤٥) : ((يَقول تعالى : فَخَلَفَ مِن بَعْد ذلك الجِيل الذين فِيهم الصالح والطالح خَلْف آخَر لا خَيْر فِيهم ، وقد وَرِثُوا دِراسةَ الكِتاب ، وهو التَّوراة . وقال مُجاهد: هُم النَّصارى ، وقد يكون أعَم مِن ذلك ، ﴿ يَأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدْنَى ﴾ ، أي: يَعتاضون عن بَذل الحق ونشره بعَرَض الحياة الدُّنيا ، ويُسوِّفون أنفُسَهم ، ويَعِدُونها بالتَّوبة ، وكُلَّما لاحَ لهم مِثْل الأوَّل وَقَعُوا فيه، ولهذا قال : ﴿ وإن يَأتِهِم عَرَضٌ مِثْلُهُ يأخُذُوهُ ﴾ . وكما قال سعيد بن جُبَير: يَعْمَلُون الذَّنْبَ ، ثُمَّ يَستغفرون اللَّهَ مِنه ، ويَعترفون للَّه ، فإنْ عَرَضَ ذلك الذَّنْب أخذوه. وقال مجاهد في قَوله تعالى : ﴿ يَأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدْنَى ﴾ ، قال : لا يُشرِف لهم شيء مِن الدُّنيا ، إلا أخذوه حلالًا كان أوْ حرامًا ، ويَتَمَنَّوْنَ المَغفرةَ ، ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وإن يَأتِهِم عَرَضٌ مِثْلُهُ يأخُذُوهُ ﴾ . وقال قَتادة في الآية : إي واللَّهِ لَخَلْفُ سَوْء، ﴿ وَرِثُوا الكِتابَ ﴾ بعد أنبيائهم ورُسُلهم. أورثهم اللَّهُ، وعَهِدَ إلَيهم ، ... . قال : ﴿ يَأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ، تَمَنَّوْا على اللَّه أماني وغِرَّة يَغْتَرُّون بها ، ﴿ وإن يَأتِهِم عَرَضٌ مِثْلُهُ يأخُذُوهُ ﴾ ، لا يَشغَلهم شيء ، ولا يَنهاهم شيء عَن ذلك ، كُلَّما هَف لهم شيء مِن الدُّنيا أكلوه ، لا يُبالون حلالًا كان أوْ حرامًا . وقال السُّدي : قَوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ ﴾ إلى قَوله : ﴿ وَدَرَسُوا ما فِيهِ ﴾ . قال : كانت بنو إسرائيل لا يَستقضون قاضيًا إلا ارتشى في الحُكم ، وإنَّ خِيارهم اجتمعوا ، فأخذَ بعضُهم على

بعض العهود أن لا يَفعلوا ، ولا يَرتشوا ، فَجَعَلَ الرَّجل مِنهُم إذا استقضى ارتشى ، فيُقال له : ما شأنك تَرتشي في الحُكم ؟ ، فيَقول : سيُغفَر لي ، فتَطعَن عَلَيه البَقِيَّة الآخَرُون من بني إسرائيل فيما صَنَعَ ، فإذا مات أو نزع ، وجعل مكانه رَجل مِمَّن كان يَطعَن عَلَيه فيَرتشي ، يقول : وإنْ يَأتِ الآخَرين عَرَض الدُّنيا يَأخذوه . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثاقُ الكِتابِ أن لا يَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ ﴾ الآية. يَقول تعالى مُنْكِرًا عَلَيهم في صَنيعهم هذا ، مَعَ ما أُخِذَ عَلَيهم مِن المِيثاق ، لَيُبَيِّنُنَّ الحَقَّ للناس ، ولا يَكتمونه ، ... . وقال ابن جُرَيج : قال ابن عباس: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثاقُ الكِتابِ أن لا يَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ ﴾ . قال : فِيما يَتَمَنَّوْنَ على اللَّه مِن غُفران ذُنُوبهم التي لا يَزالون يَعُودون فِيها ، ولا يَتُوبون مِنها . وقَوله تعالى : ﴿ والدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ للذينَ يَتَّقُونَ أفلا تَعْقِلُون ﴾ ، يُرغِّبهم في جَزيل ثَوَابه ، ويُحذِّرهم مِن وَبيل عِقابه ، أي: وثَوَابي وما عِندي خَير لِمَن اتَّقى المَحارمَ،وتَرَكَ هَوَى نَفْسِه، وأقبلَ على طاعة رَبِّه ، ﴿ أفلا تَعْقِلُون ﴾ ، يقول: أَفَلَيْسَ لِهَؤلاء الذين اعتاضوا بعَرَض الدُّنيا عمَّا عِندي عَقْل يَردَعهم عمَّا هُم فِيه مِن السَّفَه والتَّبذير)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٧٩ و٣٨٠) : ((﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ ﴾ ، المُراد بهم : أولاد الذين قَطَّعَهُم اللَّهُ في الأرض. قال أبو حاتم : الخَلْف بسُكون اللام: الأولاد، الواحد والجَمْع سَوَاء. والخَلَف بفتح اللام البَدَل ولدًا كان أوْ غَيره. وقال ابن الأعرابي: الخَلَف بالفتح الصالح ، وبالسُّكون الطالح . قال لَبيد :

ذَهَبَ الذينَ يُعَاشُ في أكنافهم وَبَقِيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأجْرَبِ

﴿ وَرِثُوا الكِتابَ ﴾ ، أي : التَّوراة مِن أسلافهم يقرؤونها ، ولا يَعْمَلُون بها ، ﴿ يَأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدْنَى ﴾ ، أخبرَ اللَّهُ عَنهُم بأنَّهم يَأخذون ما يَعرِض لهم مِن مَتَاع الدُّنيا ، لِشِدَّة حِرصهم وقُوَّةِ نَهْمتهم . والأدنى: مأخوذ مِن الدُّنُوِّ، وهو القُرب،أي:يَأخذون عَرَضَ هذا الشيء الأدنى،وهو الدنيا يتعجَّلون مصالحها بالرِّشاء،وما هو مَجعول لهم مِن السُّحْت في مُقَابَلَة تحريفهم لكلمات اللَّه وتَهوينهم للعمل بأحكام التَّوراة ، وكَتْمهم لِمَا يَكتُمونه مِنها . وقِيل : إن الأدنى مأخوذ مِن الدَّناءة والسُّقوط ، أي إنَّهُم يَأخذون عَرَضَ الشيء الدَّنيء الساقط ، ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ، أي : يُعلِّلون أنفُسَهم بالمغفرة، معَ تماديهم في الضَّلالة، وعدم رُجوعهم إلى الحق. وجُملة ﴿ يَأخُذُونَ ﴾ يُحتمَل أن تكون مُسْتَأنَفَة لبيان حالهم ، أو في مَحَل نَصْب على الحال . وجُملة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ مَعطوفة عَلَيها،والمُراد بهذا الكلام:التَّقريع والتَّوبيخ لهم.وجُملة ﴿ وإن يَأتِهِم عَرَضٌ مِثْلُهُ يأخُذُوهُ ﴾ في مَحَل نَصْب على الحال، أي يَتَعَلَّلُون بالمَغفرة ، والحال أنَّهُم إذا أتاهم عَرَض مِثْل العَرَض

الذي كانوا يأخذونه أخذوه غَير مُبالين بالعُقوبة،ولا خائفين مِن التَّبِعَة. وقِيل: الضَّمير في ﴿ يَأتِهِم ﴾ ليهود المدينة ، أي : وإنْ يَأتِ هؤلاء اليهود الذين هُم في عَصْر مُحمَّد ﷺ عَرَض مِثْل العَرَض الذي كان يأخذه أسلافهم ، أخذوه كما أخذه أسلافهم . ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثاقُ الكِتابِ ﴾ ، أي: التَّوراة، ﴿ أن لا يَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ ﴾ ، والاستفهام للتَّقريع والتَّوبيخ، وجُملة ﴿ وَدَرَسُوا ما فِيهِ ﴾ مَعطوفة على ﴿ يُؤْخَذْ ﴾ على المَعنى . وقِيل : على ﴿ وَرِثُوا الكِتابَ ﴾ . والأَوْلَى : أن تكون في مَحَل نَصْب على الحال بتقدير قد . والمعنى : أنَّهم تركوا العملَ بالمِيثاق المأخوذ عَلَيهم في الكِتاب، والحَال أن قد دَرَسُوا ما في الكِتاب وعَلِمُوه، فكان التَّرْك مِنهُم عَن عِلْم لا عَن جَهْل، وذلك أشدُّ ذَنْبًا وأعظم جُرْمًا . وقِيل : مَعنى ﴿ وَدَرَسُوا ما فِيهِ ﴾ ، أي : مَحَوْهُ بِتَرْك العمل به والفَهْم له ، مِن قَولهم : دَرَسَت الرِّيحُ الآثارَ : إذا مَحَتْهَا . ﴿ والدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ مِن ذلك العَرَض الذي أخذوه ، وآثَرُوه عَلَيها ﴿ للذينَ يَتَّقُونَ ﴾ اللَّهَ ، ويَجتنبون مَعَاصيه ﴿ أفلا تَعْقِلُون ﴾ فَتَعْلَمُون بهذا وتَفْهَمُونه ، وفي هذا مِن التَّوبيخ والتَّقريع ما لا يُقَادَر قَدْرُه ... . وأخرج أبو الشيخ، عنه،أنَّه سُئل عن هذه الآية ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتابَ يَأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدْنَى ﴾ قال : أقوام يُقْبِلُون على الدُّنيا ، فَيَأكلونها ، ويَتَّبعون رُخَصَ القُرآن ، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ، ولا يَعرِض لهم شيء مِن الدُّنيا إلا أخذوه . وأخرج ابن أبي شَيبة وعَبْد بن حُمَيد وابن جرير، وابن المُنذِر، وابن أبي حاتم، عن مُجاهد في قَوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ ﴾ ، قال : النصارى ، ﴿ يَأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدْنَى ﴾ ، قال : ما أشرفَ لهم مِن شيء مِن الدُّنيا حلالًا أو حرامًا يَشتهونه أخذوه ، ويَتَمَنَّوْنَ المغفرة ، وإنْ يَجِدُوا الغَدَ مِثْلَه يأخذوه . وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ ﴾ الآية . يقول : يَأخذون ما أصابوا ، ويَتركون ما شاؤوا مِن حلال أوْ حرام ، ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ . وأخرجَ أبو الشيخ ، عن ابن عباس، في قَوله : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثاقُ الكِتابِ أن لا يَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ ﴾ فِيما يُوجِبون على اللَّه مِن غُفران ذُنُوبهم ، التي لا يَزالون يَعُودون إلَيها ، ولا يتوبون منها . وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن أبي زيد، في قَوله : ﴿ وَدَرَسُوا ما فِيهِ ﴾ ، قال : عَلِمُوا ما في الكتاب ، لَم يَأتُوه بجَهَالة)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٣٧١) : (((العَالِم إذا أراد بعِلْمه وَجْهَ اللَّه هَابَه كُلُّ شَيء) فكان عِند أهل الدُّنيا والآخِرة في الذِّروة العُليا والرُّتبة الكُبرى (وإذا أرادَ أن يَكنِز به الكُنُوزَ هَابَ مِن كُل شيء) فَسَقَطَ مِن مَرتبته ، وهَانَ على أهل الدُّنيا وفي الآخِرة عِند اللَّه، ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتابَ يَأخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وإن يَأتِهِم عَرَضٌ مِثْلُهُ

يأخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثاقُ الكِتابِ أن لا يَقُولوا عَلى اللَّهِ إلا الحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ والدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ للذينَ يَتَّقُونَ أفلا تَعْقِلُون ﴾ . قال ابن الزملكاني : قال بعضُ مشايخنا : كأنَّ هذه الآية فِينا نَزَلَتْ ، وقد طَمَّ البَلاءُ وَعَمَّ ، بسبب طمع العلماء في الحُطَام ، وصار المؤمن القابض على دِينه معهم كالقابض على الجَمْر ، لأنهم قد تمكَّنوا مِن صُدور الخَلْق لِغَلَبَة الجَهْل عليهم، فهُم المُقْتَدَى بِهم ، والمَنظور إلَيهم ، فَهُم عِند الخَلْق عُلَماء ، وفي المَلَكُوت جُهَّال ، فَمَن تَمَسَّكَ بالسُّنَّة بَين ظَهْرَاني هؤلاء بعد تمكُّنهم مِن الرِّياسة ، ونَفَاذ القَول في الخَلْق ، فقد بارزهم بالمُحَارَبَة ، لأنَّ في تمسُّكه بها هَتْكًا لِسِتْرهم عِند العَامَّة ، وكَشْفًا لِعَوَارهم ، ونَشْرًا لفضائحهم ، فالمُتمسِّك بالحق يَرصُدونه بالعَدَاوة ، ويَرمونه عن قَوْس واحدة ، ويَقذفونه بالعظائم ، ومعَ ذلك حُرمة الإيمان مَعَهُم، فالأَوْلَى أن لا يُعذِّبهم بَل يَرحمهم . (فائدة) اعتذر ابن عربي عن تَسمية الصُّوفية العَالِم عَارِفًا ، وَلَم يُسَمُّوه عَالِمًا مَعَ أنَّه أَوْلَى لاستعماله في النُّصوص ، بأنَّ الغَيرة غَلَبَتْ عَلَيهم لَمَّا رَأَوا اسمَ العَالِم يُطلَق عُرْفًا على كُل مَن حَصَلَ عِنده عِلْم كَيفما كان ، ويكون قد أَكَبَّ على الشَّهَوَات ، وتَوَرَّطَ في الشُّبُهَات ، بَلْ وفي المُحرَّمات ، فأدركتهم الغَيرة أن يُشاركهم البَطَّال في اسم واحد ، وقد شاع ذلك وذاع ، فَفَرَّقُوا بَين المَقَامَيْن ، بأن خَصُّوا اسمَ المعرفة بهذا المَقَام العَلِيِّ ، والمعنى واحد في العِلْم والمَعرفة)) .

*

٦_ المُجَادَلَة بغَير عِلْم

قالَ اللَّهُ تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ في اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾[الحَج:٣].

بعضُ النَّاس يُخَاصِمُ في اللَّه ، ويُجادل في صِفاته ، ويُنازِع في قُدرته ، بدُون دليل نقلي ، ولا بُرهان عقلي ، وإنَّما يَقول الباطلَ بإغواء الشَّيطان بلا عِلْم ولا معرفة ، ويَزعُم أنَّ اللَّه غَير قادر على البَعْث وإحياء الأموات ، ويُطيع ويتَّبع في جِدَاله الباطل الذي لا يَقوم على عِلْمٍ كُلَّ مُتمرِّد عاتٍ، كزُعَماء الكُفر ورُؤَساء الضَّلال الذين يَصُدُّون الناسَ عَن الحق،ويُبعِدونهم عن طريق الهُدى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٧٧) : ((يَقول تعالى ذَامًّا لِمَن كَذَّبَ بالبَعْث ، وأنكرَ قُدرةَ اللَّه على إحياء المَوتى ، مُعْرِضًا عمَّا أنزلَ اللَّهُ على أنبيائه ، مُتَّبِعًا في قَوله وإنكاره وكُفره كُلَّ شَيطان مَرِيد مِن الإنس والجِن ، وهذا حال أهل البِدَع والضَّلال ، المُعرِضين عَن الحَق ، المُتَّبعين للباطل، يَتركون ما أنزله اللَّهُ على رسوله مِن الحَق المُبِين ، ويَتَّبِعُون أقوالَ رُؤوس الضَّلالة الدُّعاة إلى البِدَع بالأهواء والآراء ، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ في اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ، أي: عِلْم صحيح)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١١٣) : ((﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ في اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ . نزلت في النَّضْر بن الحارث وكان جَدِلًا ، يقول : الملائكة بنات اللَّه ، والقُرآن أساطير الأوَّلين ، ولا بَعْث بَعد المَوت ، هي تَعُمُّه وأضرابَه ، ﴿ وَيَتَّبِعُ ﴾ في المُجَادَلَة أوْ في عَامَّة أحواله ﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ، مُتَجَرِّد للفَسَاد ، وأصْلُه العُرْي)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿وَمِنَ الناسِ مَن يُجَادِلُ في اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[لُقمان:٢٠].

ومِن أهل مَكَّة مَن يُخَاصِم ويُجَادِل في تَوحيد اللَّه وصِفاته ، عِنَادًا ومُكَابَرَةً وتَعَنُّتًا ، بعد ظُهور الحق أمامه ، وقِيام الحُجَّة عليه ، وانقطاع عُذره ، بدون عِلْم ، ولا فَهْم ، ولا حُجَّة ، ولا بُرهان ، ولا دليل عَقْلي ، ولا دليل نَقْلي ، ولا بيان يَهتدي به إلى المعرفة والصواب ، ولا كِتاب مُضيء واضح بيِّن مُنقِذ مِن الجَهل والضلال ، وهادٍ إلى الإيمان والحق ، أنزله اللَّهُ تعالى . بَل مُجرَّد تقليد وعِناد واستكبار .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٢١٧) : ((وقَوله : ﴿وَمِنَ الناسِ مَن يُجَادِلُ في اللَّهِ ﴾ . يَقول تعالى ذِكْرُه : ومِن الناس مَن يُخَاصِم في تَوحيد اللَّه ، وإخلاص الطاعة والعبادة له ، ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ عِندَه بِمَا يُخَاصِم ، ﴿ ولا هُدًى ﴾ . يقول : ولا بَيان يَبِين به صِحَّة ما يَقول ، ﴿ ولا كِتَابٍ

مُنِيرٍ﴾ . يقول : ولا بتَنْزيل مِن اللَّه جاء بما يَدَّعي ، يُبيِّن حَقِّية دَعْواه . كما حدَّثَنا بِشْر قال : ثنا يَزيد قال : ثنا سعيد عن قَتادة : ﴿وَمِنَ الناسِ مَن يُجَادِلُ في اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ . ليس مَعه مِن اللَّه بُرهان ، ولا كِتاب)) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٩٠) : ((﴿وَمِنَ الناسِ مَن يُجَادِلُ في اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ . نزلت في النَّضْر بن الحارث، وأُبَي بن خَلَف، وأُمَيَّة بن خَلَف،وأشباههم. كانوا يُجَادِلُون النبيَّ ﷺ في اللَّه ، وفي صِفاته ، ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾)) .

*

٧_ الهَلَك

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لَكُم ما في الأرضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] .

يَذكر اللَّهُ دليلًا عَلى وُجوده ووَحدانيته وقُدرته مِمَّا يُشاهده الناسُ مِن خَلْق السماوات والأرض. وهذا الدَّليلُ عام وشامل وكَوْني، لأنه مُتعلِّق بخلق السماوات والأرض وطبيعة تكوين الوجود الكُلِّي الذي يَراه الإنسان بِأُم عَيْنَيْه . والإنسانُ مَحصور ضِمن البيئة والفضاء والزمان والمكان .

إنَّ الإيمان مبنيٌّ على الدليل النقليِّ والدليل العقليِّ مَعًا ، ولا يُقبَل أحدهما بدون الآخَر . ولا شَكَّ أن المصنوع يدل على الصانع ، والآثار تدل على صاحبها . واللَّهُ تعالى لَم يَترك الناسَ ضحيةً لأهوائهم ورغباتهم ومصالحهم المادية الضَّيقة، وتقليد الآباء بشكل أعمى . وإنما وَضَعَ أمامَهم الأدلة والبراهين والحُجَج مِن أجل التفكُّر فيها ، والوصول إلى الإيمان عن عِلم ومعرفة ويقين وقناعة ، دُون إكراه أو ضغوطات . والإيمانُ يَرفض التقليدَ والتسليم الأعمى ، ولا بُد مِن بناء الإيمان رُوحًا ومَعْنًى وسُلوكًا وَفْق الأدلة النقلية والعقلية مَعًا .

خَلَقَ اللَّهُ لكم أيها الناسُ (المؤمنون والكافرون) الأرضَ وما فيها لتنتفعوا بِه، وتحصلوا على الفوائد المتنوِّعة، وتعتبروا . واللَّهُ غنيٌّ عَن كُل شيء . وإنَّما أوجدَ الأرضَ وما فيها مِن العدم ، مِن أجلكم ولتحقيق مصالحكم . وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل التحريم . وواضحٌ أنَّ الخِطَاب في الآية للناس كُلِّهم ، واللَّهُ مُنعِم على خَلْقه ومُتفضِّل عليهم بلا استثناء، مؤمنهم وكافرهم . وهذا يدل على رحمة اللَّه بعباده ، ورأفته بهم ، واستغنائه عنهم . فهو يَرزق المؤمنَ والكافر ، والطائع والعاصي . ويُعامِل الناسَ بما هو أهله ، فاللَّهُ أهلُ التَّقوى وأهل المغفرة ، ولا يُعامِل الناسَ بِما هُم أهله ، فالناس أهل المعاصي والذنوب والآثام .

وهذه النِّعَمُ الإلهيةُ العظيمةُ والكثيرةُ ، بعضُها للانتفاع ، وبعضُها للاعتبار. والنِّعَمُ التي مَنَّ اللَّهُ بِها على الناس هي دليل واضح على وَحدانيته ، وتَفَرُّدِه بالخَلْق والإيجاد والرِّزق والإنعام [٣٢].

---

٣٢ في فَيض القدير (٢/ ٢٩٨): ((قال الغزَّالي رحمه اللَّه تعالى: فَتَأمَّل إذا حَبَسَ عَنْكَ رغيفًا أو دِرهمًا ، فتعلم أنه يَملك ما تُريد ، ويَقْدِر على إيصاله إلَيك ، وله الجود ، وله الفضل ، ويَعْلَم حالك، لا يَخْفَى عليه شيء ، فلا عَدِمَ ، ولا عَجَزَ ، ولا بَخِلَ تعالى عن ذلك ، فإنه أغنى الأغنياء ، وأقدر القادرين =

والجديرُ بالذِّكر أن ﴿ هُوَ ﴾ ضمير مُنفصل مَبني في مَحَل رفع مُبتدأ . والمقصودُ بهذا الضمير هو اللَّه . وهذا الضميرُ يدل على عَظَمة اللَّه وعُلُوِّه على خَلْقِه. كما أن ﴿ جميعًا ﴾ تأكيد على قُدرة اللَّه المُطْلَقَة، وأنَّ كُل شيء مخلوق له ، وخاضع لِحُكمه وإرادته ومَشيئته ، ولا شَيء يَخرج عن سيطرة اللَّه. وقد سَخَّرَ اللَّهُ للناسِ ما في الأرضِ جميعًا كرامةً مِنه سُبحانَه وتعالى، ورحمةً بِهم ، وتفضُّلًا عليهم ، ونِعمةً لهم ، وتسهيلًا لشؤون حياتهم ، وتحقيقًا لمصالحهم ومنافعهم ، وقضاءً لحوائجهم. وهو غنيٌّ عنهم ، لا يَحتاجهم ، ولا يَحتاج إلى شَيء .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧١) : ((﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لكم ما في الأرضِ جميعًا ﴾ بيان نِعمة أُخرى مُرَتَّبة على الأُولَى، فإنما خلقهم أحياء قادرين مَرَّة بعد أُخرى،وهذه خَلْق ما يتوقف عليه بقاؤهم ، وَتَمَّ به مَعاشهم ، ومعنى ﴿ لكم ﴾ لأجلكم ، وانتفاعكم في دُنياكم باستنفاعكم بها في مصالح أبدانكم ، بوسط أو بِغَير وسط ، ودِينكم بالاستدلال والاعتبار ، والتعرُّف لِمَا يُلائمها مِن لَذَّات الآخِرة وآلامها)) .

﴿ ثُمَّ استوى إلى السماء ﴾ . الاستواءُ هنا بمعنى القَصْد ، لأنه عُدِّيَ بِـ﴿ إلى ﴾ . والقَصْدُ يَعود إلى صفة الإرادة . أي : قَصَدَ إلى خَلْق السماء بعد خَلْق الأرض . واللهُ مُنَزَّهٌ عن الحركةِ والانتقالِ ، وحُلولِه في الأشياءِ والحوادثِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧١) : ((قَصَدَ إليها بإرادته)) .

وفي تفسير القرطبي (١/ ٢٩١) : ((وقال البَيهقي أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين:قَوْلُه ﴿ استوى ﴾ بمعنى أقبلَ صحيح، لأن الإقبال هو القَصْد إلى خَلْق السماء، والقَصْدُ هو الإرادة، وذلك جائز في صفات اللَّه تعالى ، ولفظةُ ﴿ ثُمَّ ﴾ تتعلق بالخَلْق لا بالإرادة)) .

﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سماواتٍ ﴾ [٣٣]. خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سماوات مُستويات ، بَعْضُهُنَّ فوق بَعْض ، لا شُقُوق فِيهِنَّ ولا صَدْع . وفي التَّسوية قَدْر زائد على الخَلْق ، لذلك كانت ﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ أبلغ مِن

=وأعلم العُلماء ، وأجْوَد الأجْوَدِين ، فتعلم أنه لَم يَمنعك إلا لصلاح ، كيف وهو يقول : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لكم ما في الأرضِ جميعًا ﴾ ، وإذا ابتلاكَ بِشِدَّة ، فإنه غنيٌّ عن امتحانك وابتلائك ، عَالِم بحالك ، بصير بضعفك ، وهو رؤوف رحيم ، فلم يُنْزِله بِك إلا لصلاح لَكَ جَهِلْتَه)) .

٣٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٥٨) : ((وأيُّهَا أسْبَق في الخَلْق الأرض أَم السماء، فِيه قَولان: أحدهما الأرض،قاله مجاهد.والثاني السماء،قاله مقاتل.واختلفوا في كيفية تكميل خَلْق الأرض وما فيها،=

(فخلقهنَّ) . وهذا يدل على القُدرة الإلهية المُطْلَقَة، والصُّنعِ الرَّبَّانيِّ المُتْقَن. والآيةُ تُشير إلى أن حجم السماوات ثابت، فلا زيادة ولا نُقصان . و" هُنَّ " ضمير السماء . أي إنه راجع إلى السماء، والسماءُ هَهُنا اسم جِنس.لفظها واحد،ومعناها الجمع بدليل قَوله تعالى: ﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ . وهذه الآية تقتضي أن الأرض وما فيها خُلِقَ قبل السماء . كما أن الآية تُوضِّح فَضْلَ خَلْق السماوات على خلق الأرض . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧١) : ((﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ عَدَلَهُنَّ وخلقهنَّ مَصونةً مِنَ العِوَج والفُطُور)) .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٢٢٢) : ((فمعنى الكلام إذًا : هو الذي أنعمَ عليكم ، فَخَلَقَ لكم ما في الأرض جميعًا ، وسَخَّره لكم تَفَضُّلًا مِنه بذلك عَلَيكم ، لِيَكُون لكم بلاغًا في دُنياكم ، ومَتاعًا إلى مُوافاة آجالكم ، ودليلًا لكم على وَحدانية رَبِّكُم ، ثُمَّ عَلا إلى السماوات السبع وهي دُخَان ، فَسَوَّاهُنَّ ، وحَبَكَهُنَّ ، وأجرى في بعضهنَّ شَمْسَه وقَمَرَه ونُجُومَه ، وقَدَّرَ في كُل واحدة مِنْهُنَّ ما قَدَّرَ مِن خَلْقِه)) .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شيء عليم ﴾ . إنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِكُل شَيء، ولا يَخفَى عَلَيه شيء . ولأنَّ اللَّهَ عَالِمٌ وعليم ، أحكمَ صُنعَ مخلوقاته ، فخلقَ السماواتِ والأرض على هذا النَّحْو البديع المشتمل على الحِكَم العظيمة والمصالح الجليلة . فالسماواتُ مُستوية ومُحْكَمَة الصُّنع مِن غَير تفاوُت ، والأرض مخلوقة بشكل جميل ، لِتَسْهُل الحَياةُ عَلَيها ، وتَمَّ تسخير ما فيها حَسَبَ مصالح أهلها ومنافعهم.

وخَلْقُ السماوات والأرض يَتميَّز بالكمال بلا عَيْب ولا نَقْص ، والكمالُ يدل على الكامل . واللَّهُ أرشدَ الناسَ إلى منافعهم الدينية والدُّنيوية ، وأنعمَ عليهم ، وسَخَّرَ لهم ما في الأرض للانتفاع والاعتبار . وقد خَلَقَ اللَّهُ كُلَّ شَيء على الوجه الذي يليق به ، لأنه سُبحانَه عليم بالأمور الظاهرة والباطنة، المُجْمَلَة والتَّفصيلية . ولا يُمكن إحكام الفِعْل المُتْقَن والمُحْكَم إلا بالعِلْم . وعِلْمُ اللَّهِ صِفة له، وصِفات اللَّه قديمة قِدَم ذاته _ سُبحانَه وتعالى _ . يَعلم كُلَّ شَيء مُجْمَلًا وتفصيلًا بِعِلْمٍ أزَلِيٍّ غَير مَخلوق ، وغَير حادث ، لا يَتغيَّر ولا يَتبدَّل ، ولا تَطرأ عليه الحوادث . والعليم جاء على بناء فَعِيل،للمُبالَغة في وَصْفه بِكَمال العِلْم.ومعنى الآية:أفلا تعتبرون أن القادر على خَلْق ذلك ابتداءً، وإيجاده مِن العَدَم، هو الخالقُ العظيم الذي هُوَ أعظم مِنكم ، وقادر على بَعْثِكم بعد

=فقال ابن عباس: بدأ بخَلْق الأرض في يَوْمَيْن، ثُمَّ خَلَقَ السماواتِ في يَوْمَيْن، وقَدَّرَ فيها أقواتها في يَوْمَيْن. وقال الحسن ومجاهد : جَمَعَ خَلْقَ الأرض وما فيها في أربعة أيام مُتوالية ، ثُمَّ خَلَقَ السَّماءَ في يَوْمَيْن)) .

الموت؟. وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٩١): ((قَوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شيء عليم ﴾ أي بِما خَلَق ، وهو خالق كُل شَيء،فوجب أن يكون عَالِمًا بِكُل شَيء، وقد قال:﴿ ألا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ ﴾ [المُلْك: ١٤] . فهو العَالِم والعَلِيم بجميع المعلومات بِعِلْمٍ قديمٍ أزَلِيٍّ واحد قائم بذاته . وَوَافَقَنَا المُعتزلة على العالمية دون العِلْمية . وقالت الجَهْمِيَّة : عَالِم بلا عِلْم ، قائم لا في مَحَل. تعالى اللَّه عَن قول أهل الزَّيغ والضَّلالات ، والرَّدُّ على هؤلاء في كتب الدِّيانات)) .

إنَّ اللَّه قد وَصْفَ نَفْسَه سُبحانَه بالعِلْم في مواضع كثيرة مِن القُرآن . قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِن عِلْمِهِ إلا بما شاء ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . لقد أثبتَ اللَّهُ لِنَفْسِه العِلْمَ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧١) : ((﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شيء عليم ﴾ فِيه تَعليل، كأنه قال: وَلِكَوْنِه عَالِمًا بِكُنه الأشياء كُلِّها، خَلَقَ ما خَلَقَ على هذا النَّمط الأكمل، والوجه الأنفع . واستدلال بأنَّ مَن كان فِعْلُه على هذا النَّسَق العجيب ، والترتيب الأنيق ، كان عليمًا ، فإن إتقان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع، لا يُتَصَوَّر إلا مَن عَالِم حكيم رحيم، وإزاحة لِمَا يَختلِج في صدورهم مِن أن الأبدان بعدما تَبَدَّدَت وتَفَتَّتَت أجزاؤها واتَّصلت بِما يُشاكلها ، كيف تُجْمَع أجزاء كُل بَدَن مَرَّةً ثانية بحيث لا يَشُذُّ شيء منها ، ولا يَنضمُّ إلَيها ما لَم يكن معها، فَيُعاد منها كما كان ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم ﴾[يس : ٧٩] . وعُلِمَ أن صِحَّة الحَشْر مَبنية على ثلاث مُقدِّمات ، وقد بَرْهَنَ عليها في هاتَيْن الآيتَيْن : أمَّا الأُولَى فهي : أن مواد الأبدان قابلة للجَمْع والحياة، وأشار إلى البُرهان عليها بِقَوله: ﴿ وكنتم أمواتًا فأحياكم ثُمَّ يُميتكم ﴾ فإن تعاقُب الافتراق والاجتماع والموت والحياة عليها يدل على أنها قابلة لها بذاتها ، وما بالذات يأبى أن يَزول ويَتغيَّر ، وأمَّا الثانية والثالثة : فإنه عَزَّ وَجَلَّ عَالِم بها وبمواقعها، قادر على جَمْعها وإحيائها . وأشار إلى وجه إثباتهما بأنه تعالى قادر على إبدائها ، وإبداء ما هو أعظم خَلْقًا ، وأعجب صُنْعًا، فكان أقدر على إعادتهم وإحيائهم، وأنه تعالى خَلَقَ ما خَلَقَ ، خَلْقًا مُستويًا مُحْكَمًا مِن غَير تفاوُت واختلال ، مُرَاعٍ فيه مصالحهم ، وسَد حاجاتهم ، وذلك دليل على تناهي عِلْمه ، وكمال حِكمته ، جَلَّت قُدرته ، ودَقَّت حِكمته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ للنَّاسِ والحَجِّ ﴾[البقرة : ١٨٩].

إنَّ الأحوال المُختلفة للأهِلَّة (جَمْع الهِلال) مِن حيث زيادتها ونُقصانها لَم تجئ عبثًا ، أوْ بمَحْض الصُّدفة ، بل هي لحِكمة جليلة ، حيث إنَّها مواقيت الناس يَعتمدون عليها في أُمُورهم المختلفة كي تستمر مصالحهم على أكمل وجه ، ولا تتعطل حياتهم . والمَوَاقيتُ جَمْع المِيقات ،

وهو الوقت . وهذه الأهِلَّةُ جَعَلَهَا اللَّهُ مَوَاقيت لصَوم المسلمين وإفطارهم ، وحَجِّهم ومَناسكهم ، وعِدَّة نسائهم والطَّلاق والحَيْض، ومُعاملاتهم المالية ، كقضاء الدُّيون ، وانقضاء مُدَّة الإجارة للأشياء التي تَمَّ استئجارها كالبيوت وغَيرها. لذلك خَالَفَ اللَّهُ بين القمر والشمس التي هي على حال واحدة .

وسُمِّيَ الهِلال بهذا الاسم ، لأن الناس يَرفعون أصواتهم بالذِّكر عند رؤيته ، مِن قَولهم : استهلَّ الصبي ، إذا صرخ حين يُولَد ، وأَهَلَّ القَوْمُ بالحَج ، إذا رفعوا أصواتهم بالتَّلبية .

لقد سَألوا عن الحِكمة في حال القمر وتبدُّل أوضاعه . لماذا يَظهر دقيقًا ثُم يزيد حتى يَمتلئ نُورًا، ثُمَّ يعود كما بَدأ؟،ولماذا لا يكون القمر مِثل الشمس على حال واحدة ؟،فأمرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أن يُجيب عن ذلك ، ويُوضِّح لهم الحِكمة الإلهية في تغيُّر أحوال القَمَر ، فقد جَعلها اللَّهُ معالم للناس وعباداتهم، يُعرَف بها أوقات العبادات وأزمنة الطاعات ، خصوصًا الحَج ، لأن وقته مُحدَّد ، لا زيادة فيه ولا نقصان .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٩٥) : ((نزلت على سبب ، وهو أن رَجُلَيْن مِن الصَّحابة قالا : يا رسول اللَّه ، ما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يزيد ويمتلئ حتى يستدير ويستويَ ثُمَّ لا يزال يَنقُص ويَدِق حتى يعود كما كان ؟ ، فَنَزلت: ﴿ يَسألونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقيتُ للناسِ والحجِّ ﴾ . هذا قول ابن عباس)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (٢/ ٣٣٩): ((﴿ قُل هي مواقيت للناس والحج ﴾، تبيين لوجه الحكمة في زيادة القمر ونُقصانه ، وهو زوال الإشكال في الآجال ، والمُعاملات ، والأيمان ، والحَج، والعِدَد (جَمْع العِدَّة)، والصَّوم، والفِطْر، ومُدَّة الحَمْل ، والإجارات ، والأكرية (أُجرة المُستأجر) إلى غَير ذلك من مصالح العباد. أفردَ سُبحانَه الحج بالذِّكر ، لأنه مِمَّا يُحتاج فيه إلى معرفة الوقت ، وأنه لا يجوز النَّسِيء (التأخير) فيه عن وقته ، بخلاف ما رأته العرب ، فإنها كانت تَحُجُّ بالعدد ، وتُبدِّل الشُّهور ، فأبطلَ اللَّهُ قَوْلَهم وفِعْلَهم ... . استدل مالك رحمه اللَّه وأبو حنيفة وأصحابهما في أن الإحرام بالحَج يَصِح في غَير أشهر الحَج بهذه الآية، لأن اللَّه تعالى جعل الأهِلَّة ظَرْفًا لذلك، فَصَحَّ أن يُحْرِم في جميعها بالحَج،وخالفَ في ذلك الشافعي لِقَوله تعالى: ﴿ الحجُّ أشهرٌ مَعلوماتٌ ﴾)) .

والناظرُ في العبادات يرى أن كثيرًا مِنها يعتمد على أوقات مُحدَّدة ، لذلك فهي تَحمِل معنى دينيًّا ، ويجب معرفة الوقت بدِقَّة كي تكون العباداتُ صحيحةً ومقبولةً . وما لا يَتِمُّ الواجبُ إلا به

فهو واجبٌ . وعن ابن عُمَر ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ أن رسول اللَّه ﷺقال:((إن اللَّه قد جعل الأهلةَ مواقيت، فإذا رأيتموه فصوموا ، وإذا رأيتموه فأفطِروا ، فإن غُمَّ عليكم ــ يعني خَفِيَ عليكم ــ، فَاقْدُرُوا له ، واعلموا أن الأشهر لا تزيد على ثلاثين)) [٣٤].

الأهِلَّةُ مواعيد زمنية دقيقة ، وصيامُ رمضان والإفطارُ يَتحدَّدان وَفْقَ رؤية الهِلال . وإذا خَفِيَ الهلالُ فيُقدَر له حسابيًّا، والحد الأعلى للشهر هو ثلاثون يَوْمًا . وهكذا ، تتَّضح أهمية الوقت في العبادات والطاعات. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٨٦): ((قال المازري: حَمل جمهور الفقهاء قَوله ﷺ: " فَاقْدُرُوا له " ، على أن المُراد إكمال العِدَّة ثلاثين ، كَمَّا فسَّره في حديث آخَر . قالوا : ولا يجوز أن يكون المُراد حساب المُنَجِّمين ، لأن الناس لو كُلِّفوا به ضاق عليهم ، لأنه لا يعرفه إلا أفراد ، والشرعُ إنما يَعرفه الناسُ بما يَعرفه جماهيرهم، واللَّه أعلم . وأمَّا قَوله ﷺ : " فإن غُمَّ عليكم " ، فمعناه : حَالَ بينكم وبينه غَيْم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إلا بالحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون ﴾[يُونُس : ٥].

يُقدِّم اللَّهُ الأدلةَ والبراهين التي تُشير إلى وَحدانيته وقُدرته وحِكمته وعِلمه ، فهو سُبحانَه أضاءَ الشمسَ في النهار، وأنارَ القمرَ في الليل . وجَعل الشمسَ والقمرَ مُختلفَيْن في الخصائص والمزايا، كَي يُعرَف الليل مِن النهار . ولا شَكَّ أن آثار الصُّنع الباهر تدل على الصانع الحكيم .

والجديرُ بالذِّكر أن الضِّياء أقوى مِن النُّور ، لأن الضياء ما كان بالذات ، والنُّور ما كان بالعَرَض. وكُل ضَوء نُور، وليس كُل نُور ضَوْءًا. وَنُورُ القمر مُستفاد ومُستمد ومُكتسب من ضَوء الشمس . وقدَّر اللَّهُ القمرَ وهَيَّأ ويَسَّرَ له منازلَ لا يُجاوزها ولا يَتَخَطَّاها ولا يتقاصر عنها ، حيث يمرُّ بأطوار مُتعدِّدة، فيبدو صغيرًا ثم يَكبُر ، ثم يعود إلى حالته الأُولَى، فيعلم الناسُ من خلال هذه الحالات المختلفة عددَ السنين ، ويُجرون الحسابات المُختلفة التي تُفيدهم في حياتهم ، ويتوقف عليها الكثير من منافعهم . وبالقمر وَحْدَه يُعرَف انقضاء الشهور والسنين ، وليس بالشمس . وبعبارة أُخرى ، يَعرِف الإنسانُ الأيامَ بالشَّمْس ، ويَعرِف الشُّهُورَ والأعوامَ بِسَير القَمَر .

والمُعَامَلات بين الناس قائمة على إحصاء الشهور والسنين. ومصالحهم الدينية والدُّنيوية قائمة على هذا الإحصاء والحساب. ولَولا هذا التقديرُ الإلهيُّ المُحكَم المُتقَن ، لَتَوَقَّفت مصالح الناس،

---

٣٤ رواه الحاكم في المستدرَك(١/ ٥٨٤)برقم(١٥٣٩)وصحَّحه.وابن خُزَيمة في صحيحه(٣/ ٢٠١).

وغرقوا في الفَوضى . وهذا يدل على رحمة اللَّه بعباده ، وتيسير شُؤونهم ، وتسهيل أمور حياتهم . والعِلْمُ بعدد السنين هو عِلْم إجمالي ، أمَّا الحساب فَعِلْم تفصيلي ، لذلك تَمَّ التمييز بينهما. والاكتفاءُ بِذِكْر السنين ، لاشتمالها على الأيام والشهور والحساب .

لقد قَدَّرَ اللَّهُ القمرَ مِن حيث سَيْره ثمانية وعشرين مَنْزِلًا في ثمان وعشرين لَيلة مِن كل شهر ، ويستتر لَيْلَتَيْن إن كان الشهر ثلاثين يَوْمًا ، أوْ لَيلة إن كان تسعة وعشرين يَوْمًا .

وقال أبو السعود في تفسيره (٤/ ١٢٠) : ((وتخصيص القمر بهذا التقدير لِسُرعة سَيْره ، ومُعايَنة منازله ، وتعلُّق أحكام الشريعة بِه ، وكَوْنه عُمدة في تواريخ العرب)) .

لَم يَخلُق اللَّهُ ذلك عَبَثًا ولا باطلاً ولا ظُلْمًا ولا مَضْيَعَةً للوقت ، وإنما خَلَقَه وَحْدَه بالحق والعدل ، بلا شريك ولا مُساعِد ، وَفْق الحِكمة الإلهية البالغة ، لتحقيق منافع الناس ومصالحهم .

وقد خَلَقَه اللَّهُ بُرهانًا على وُجوده _ سُبحانَه _ ووَحدانيته، وإظهارًا لقُدرته المُطْلَقَة، وإبرازًا لِعِلْمه وحِكمته، ودليلًا على صُنعه البديع المُتقَن . وفي الآية يُذكِّر اللَّهُ عِبادَه ببعض نِعَمه عليهم .

وكُل شيء في الكَوْن يسير وَفْق نظام دقيق ، وهذا يُشير إلى عَظَمة الخالق وكمال قُدرته ، لأن النظام الكامل لا يَصدُر إلا عن الكامل . والنظام الواحد لا يَصدُر إلا عن الواحد .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٥) : ((وقد نَبَّه سُبحانَه وتعالى بذلك على أنه خَلَقَ الشمسَ نَيِّرَةً في ذاتها ، والقمر نَيِّرًا بِعَرَض مُقابَلة الشمس والاكتساب مِنها . ﴿ وقَدَّرَهُ مَنازلَ ﴾ الضمير لِكُل واحد ، أي قَدَّرَ مَسير كُل واحد مِنهما مَنازل ، أوْ قَدَّره ذا منازل ، أو للقمر . وتخصيصه بالذِّكر لِسُرعة سَيْره ، ومُعايَنة منازله ، وإناطة أحكام الشرع بِه ، ولذلك عَلَّله بِقَوله : ﴿ لِتَعلموا عَدَدَ السنينَ والحسابَ﴾ حساب الأوقات مِن الأشهر والأيام في مُعاملاتكم وتصرُّفاتكم ﴿ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلكَ إلا بالحق ﴾ إلا مُلْتَبِسًا بالحق ، مُرَاعِيًا فيه مُقتضَى الحِكمة البالغة)) .

﴿ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون ﴾ . يُبيِّن اللَّهُ الأدلةَ والحُجَجَ والبراهين ، ويُوضِّح الآياتِ الكَونية الباهرة ، لِقَوم يَعْلَمُون قُدرةَ اللَّه وحِكمته . والذي يَعْلَمُون وَحْدَهم المُنتفعون بالتفكُّر ، والمُستفيدون بالتأمُّل ، حَيث يَستدلون بالعلامات على قُدرة اللَّه ، لذلك خصَّهم بالذِّكْر . والعاقلُ إذا عَلِمَ الحِكمةَ في صُنع المخلوقات وإبداعها ، استدلَّ بذلك على عَظَمَة الخالق ووَحدانيته وقُدرته المُطْلَقَة وعِلْمه الشامل . وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٣٢) : ((﴿ يُفَصِّلُ الآياتِ ﴾ ، يَقول : يُبيِّن الحُجَجَ والأدلة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون ﴾ إذا تَدَبَّرُوها حقيقةَ وَحدانية اللَّه ، وصِحَّة ما يَدعوهم إلَيه مُحمَّد ﷺ مِن خَلْع الأنداد ، والبَرَاءة مِن الأوثان)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٨٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون ﴾ تفصيل الآيات تَبيينها لِيُسْتَدَل بها على قُدرته تعالى ، لاختصاص الليل بظَلامه ، والنَّهار بضِيائه ، مِن غَير استحقاق لهما ، ولا إيجاب ، فيكون هذا لهم دليلًا على أن ذلك بإرادة مُريد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنا في السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاها للنَّاظِرِين ﴾[الحِجْر : ١٦] .

إنَّ اللَّه يُبيِّن للناس الأدلةَ على وَحدانيته وكمال قُدرته ، وعجز الأصنام التي يتَّخذها الكافرون آلهةً مِن دُون اللَّه تعالى. ومِن الأدلة على وَحدانية اللَّه وقُدرته وعِلمه وحِكمته، أنه خَلَقَ في السماء الدُّنيا منازلَ الشمس والقمر ، وزيَّنَ السماءَ بالشمس والقمر والنجوم والكواكب للمُتفكِّرين والمُتأمِّلين في بديع صُنع اللَّه ، مِن أجل أن يَعتبروا ويتَّعظوا ويستدلوا على وَحدانية الخالق وقُدرته.

وخَلْق البروج في السماء وتَزيينها ضِمن نظام مُحكَم ومنظومة مُتقَنة ، مِن عجائب المصنوعات وأعظمها وأبهاها. والمصنوع المُتقَن يدل على وَحدانية الصانع وكمال قُدرته ، وعِلمه الشامل ، وحِكمته البالغة . و"البُرُوج " مأخوذة مِن الظُّهُور . يُقال : تَبَرَّجَت المرأة ، أي : ظَهَرَت .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١١) : ((والعرب تَعُدُّ المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها مِن أجلِّ العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات ، والأوقات ، والخِصْب ، والجَدْب)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٨٧/٤):((قَوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنا في السماءِ بُروجًا ﴾. في البُروج ثلاثة أقوال : أحدها أنها بُروج الشمس والقمر، أي منازلها، قاله ابن عباس وأبوعبيدة في آخرين . قال ابن قُتَيبة : وأسماؤها : الحَمَل والثَّور والجَوزاء والسَّرَطان والأسد والسُّنبلة والمِيزان والعَقرب والقَوس والجَدْي والدَّلْو والحُوت . والثاني أنها قُصُور ، رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا . وقال عطية : هي قُصور في السماء فيها الحَرَس . وقال ابن قُتَيبة : أصل البُرُوج الحُصُون . والثالث أنها الكواكب ، قاله مُجاهد وقَتادة ومُقاتل . قال أبو صالح : هي النُّجوم العِظام . قال قتادة : سُمِّيَتْ بُروجًا لظُهورها . قَوله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَّاها ﴾ أي حَسَّنَّاها بالكواكب . وفي المُراد بالناظرين قَولان أحدهما أنهم المُبصِرون ، والثاني المُعتبِرون)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وحَفِظْناها مِن كُلِّ شَيطانٍ رَجِيم ﴾ [الحِجْر : ١٧] .

حَفِظَ اللَّهُ السَّمَاءَ الدُّنيا بالشُّهُب مِن كُل شَيطان لعين مَطرود مِن رحمة اللَّه أوْ مَرْمِيٍّ بالنُّجُوم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٨٧و٣٨٨ و٣٨٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وحَفِظْناها مِن كُلِّ شَيطانٍ رَجِيم ﴾ ، أي : حَفِظْناها أن يَصِلَ إليها شَيطان ، أوْ يَعلَم مِن أمرها شيئًا إلا استراقًا، ثُمَّ يَتبعه الشِّهاب. واختلف العلماءُ: هل كانت الشياطين تُرمَى بالنُّجُوم قبل مَبعَث نَبِيِّنا ﷺ أم لا ؟.

على قَوْلَيْن : أحدهما أنَّها لَم تُرْمَ حتى بُعث ﷺ ، وهذا المعنى مَذكور في رواية سعيد بن جُبَير عن ابن عباس . وقد أخرج في الصحيحَيْن من حديث سعيد بن جُبَير عن ابن عباس قال : ((انطلقَ رسولُ اللَّه ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خَبر السَّماء ، وأُرْسِلَتْ عليهم الشُّهُب)) . وظاهر هذا الحديث أنَّها لَم تكن قَبل ذلك . قال الزَّجاج: ويدل على أنَّها إنَّما كانت بعد مَولِد رسول اللَّه ﷺ أنَّ شُعراء العرب الذين يُمثِّلون بالبَرْق والأشياء المُسرعة ، لَم يُوجَد في أشعارها ذِكْر الكواكب المُنْقَضَّة ، فلمَّا حَدثت بعد مَولِد نَبِيِّنا ﷺ ، استعملت الشعراءُ ذِكْرَها ، فقال ذو الرُّمَّة : كأنَّه كَوكب في إثرِ عِفْرِيَةٍ ... مُسَوَّم في سَواد الليل مُنْقَضِبُ. والثاني أنَّه قد كان ذلك قبل نَبِيِّنا ﷺ ، فروى مسلم في صحيحه من حديث عليِّ ابن الحُسَين عن ابن عباس ، قال : بَينما النبيُّ ﷺ جالس في نَفَر مِن أصحابه إذْ رُمِيَ بنَجْم فاستنار ، فقال: " ما كُنتم تقولون إذا كان مِثْلُ هذا في الجاهلية ؟ " ، قالوا : كُنَّا نقول : يَمُوت عظيم ، أوْ يُولَد عظيم . قال : " فإنَّها لا يُرمَى بها لمَوت أحد ، ولا لحياته ، ولكنْ رَبُّنا إذا قَضَى أمرًا ، سبَّح حَمَلَةُ العَرْشِ ، ثُمَّ سبَّح أهلُ السماء الذين يَلُونهم ، حتَّى يَبلُغ التَّسبيحُ أهلَ هذه السماء ، ثُمَّ يَستخبر أهلُ السماء السابعة حَمَلَةَ العَرْش : ماذا قال رَبُّكُم ؟ ، فيُخبرونهم ، ثُمَّ يَستخبر أهلُ كُلِّ سماء أهلَ سماء حتَّى ينتهيَ الخبرُ إلى هذه السماء ، وتَخطَف الجِنُّ ، ويُرمَون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يَقْرِفُون فيه _ يعني يَكْذِبُون _ ، ويزيدون " . ورُوِيَ عن ابن عباس أن الشياطين كانت لا تُحجَب عن السماوات ، فلمَّا وُلِدَ عِيسى مُنِعَتْ مِن ثلاث سماوات ، فلمَّا وُلد رسول اللَّه ﷺ مُنِعُوا مِن السماوات كُلِّها.وقال الزُّهري:قَد كان يُرمَى بالنُّجُوم قَبل مَبعَث رسول اللَّه، ولكنَّها غُلِّظَت حِين بُعِثَ ﷺ . وهذا مذهب ابن قُتَيبة، قال: وعلى هذا وَجَدْنا الشِّعْرَ القديم. قال بِشْر بن أبي خازم وهو جاهلي:والعَيْرُ يَرهَقها الغُبارُ وجَحْشُها... يَنْقَضُّ خَلْفَهما انقضاضَ الكَوكبِ. وقال أَوْس بن حَجَر وهو جاهلي : فانقض كالدِّرِّيء يَتبعه ... نقع يثور تخاله طُنُبا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إلا مَنِ استرقَ السَّمْعَ فأتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِين ﴾ [الحِجْر : ١٨] .

حَفِظَ اللَّهُ السَّمَاءَ الدُّنيا مِن كُل شَيطان لعين قد رَجَمَه اللَّهُ وطَرَدَه،إلا مَن اختلسَ شيئًا مِن أخبار السماء ، وخَطِفَه ، فإنَّ شِهَابًا ظاهرًا للناس (شُعلة مِن النار ساطعة) يَلحَقه ، ويُدرِكه ، ويُحرِقه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٩٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ إلا مَنِ استرقَ السَّمْعَ ﴾ أي : اختطفَ ما سَمِعَه مِن كلام الملائكة . قال ابن فارس : استرقَ السَّمْعَ : إذا سَمِعَ مُسْتَخْفِيًا ، ﴿ فأتْبَعَهُ ﴾ ، أي : لَحِقَه ﴿ شِهَابٌ مُبِين ﴾ . قال ابن قُتَيبة : كَوكَب مُضِيء . وقِيل : " مُبِين " ،

بمعنى ظاهر يَراه أهل الأرض ، وإنَّما يَسترق الشَّيطانُ ما يكون من أخبار الأرض ، فأمَّا وَحْيُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، فقد صانه عَنهُم . واختلفوا ، هل يَقْتُل الشِّهابُ أم لا ؟، على قَوْلَيْن : أحدهما أنَّه يُحرِق ، ويَخبِل (يُفْسِد) ، ولا يَقْتُل ، قاله ابن عباس ومُقاتل . والثاني أنَّه يَقْتُل ، قاله الحسن . فعلى هذا القَول : هل يُقْتَل الشَّيطانُ قَبل أن يُخبِر بما سَمِعَ ؟ ، فِيه قَولان : أحدهما أنَّه يُقْتَل قَبل ذلك ، فعلى هذا لا تَصِل أخبارُ السماء إلى غَير الأنبياء. قال ابن عباس: ولذلك انقطعت الكِهَانةُ. والثاني أنَّه يُقْتَل بعد إلقائه ما سَمِعَ إلى غَيْرِه مِن الجِن ، ولذلك يَعُودون إلى الاسترَاق ، وَلَوْ لَم يَصِل لَقَطَعُوا الاسترَاقَ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنا الليلَ والنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ الليلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَبِّكُم وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ وكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصيلًا ﴾ [الإسراء : ١٢] .

يَمْتَنُّ اللَّهُ على خَلْقه بِنَعمه الكثيرة وآلائه الجليلة ، ومِنها : مُخالَفته بين الليل والنهار ، اللذَيْن هُما علامتان على وُجود اللَّه ووَحدانيته وقُدرته وحِكمته ، وعجائب صُنعه ، وبدائع خَلْقه . وهُما مُتعاقبان ضِمن نظام متكامل ، لا فوضى فيه ولا اضطراب . كما أن الليل يمتاز بظلامه مِن أجل راحة الناس ونَومهم ، والنهار يمتاز بضيائه من أجل حركة الناس وطلب الأرزاق وقضاء الحوائج .

والآيةُ هي العلامة المنصوبة للنظر والاعتبار والاستدلال . والليلُ والنهارُ مِن أعظم الآيات ، حيث يُقبِل كُل واحد مِنهما ويُدْبِر ضمن نظام فائق مُحْكَم مُتْقَن ، بلا اضطراب ولا خَلَل . كما يَنقُص أحدُهما بزيادة الآخَر، وبالعكس. وكذلك ضَوء النهار وظُلمة الليل ، يُحقِّقان معنى التكامل، بلا تنافُر ولا فوضى . وباختلاف الليل والنهار تتمُّ معرفة عدد السنين ، وحساب ساعات الأيام والليالي . وبالتالي ، معرفة مواعيد العبادات ، والمعاملات المالية كالدُّيون والإجارات وغَيرها . ولو كان الزمانُ نَمَطًا واحدًا لَمَا عُرِفَ الليل مِن النهار، ولا عُرِفَ الحِسَاب والعَدَد ، وهذا يَجعل الحياة مُستحيلة [٣٥]. وفي هذا إشارة واضحة إلى أن اللَّه أرحم بالناس مِن أنفسهم ، ولَم يَخلقهم لِيُدمِّر حياتهم ، ويَقضيَ على وُجودهم ، ويَجعل حياتهم جحيمًا لا يُطاق . وإنما خَلَقَهم لِيَرحمهم ، ويُسهِّل حياتهم ، فيقضوا حوائجهم وأمور معيشتهم، بكل سهولة ويُسر ، دُون عَقَبَات ولا مُنغِّصات ولا مشكلات. وهاتان الآيتان الباهرتان (الليل والنهار) تُشيران إلى وجود صانع قادر حكيم .

٣٥قال البغوي في تفسيره(١/٨١):((لَوْ ترك اللَّهُ الشمسَ والقمرَ كما خلقهما، لَم يُعرَف الليل مِن النهار، وَلَم يَدْرِ الصائم متى يُفطِر، ولَم يَدْرِ وقت الحج، ولا وقت حُلول الآجال ، ولا وقت السكون والراحة)) .

وتَمَّ تقديم الليل على النهار ، لأنَّه الأصل . وكُل شيء في أمر الدِّين والدُّنيا قد بَيَّنه اللَّهُ ووضَّحه، لمعرفة قُدرته المُطْلَقَة ، وحِكمته البالغة ، وكمال عِلْمه. ومِن أجل أن يَشكره الناسُ على آلائه ونِعَمه ، ويَعبدوه وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد . واللَّهُ لَم يترك الناس تائهين في الشُّكوك ، وضائعين في الشُّبُهات، وإنما وضَّح لهم طريقَ الحق بكل تفاصيله، بلا لَبْس ولا غُموض ، ونَصَبَ لهم الأدلةَ والبراهين ، وأقامَ عليهم الحُجَّةَ ، وقَطَعَ عُذرَهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٤): ((قَوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيَتَيْنِ ﴾ أي علامتَيْن ، يَدُلَّان على قُدرة خالقهما ﴿ فَمَحَوْنا آيةَ الليلِ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنَّ آية الليل القمر ، ومَحْوُها ما في بعض القمر مِن الاسوداد . وإلى هذا المعنى ذهب عليٌّ عليه السلام وابن عباس في آخرين . والثاني: آية الليل مُحِيَت بالظُّلمة التي جُعِلَت مُلازِمة لليل ، فَنُسِبَ المَحْوُ الى الظُّلمة، إذْ كانت تَمحو الأنوارَ وتُبْطِلها ، ذَكَره ابن الأنباري . ويُرْوَى أن الشمس والقمر كانا في النُّور والضَّوء سَوَاء ، فأرسلَ اللَّهُ جِبريل ، فأمَرَّ جَنَاحَه على وجه القمر وطَمَسَ عنه الضَّوءَ . قَوله تعالى: ﴿ وجَعَلْنا آيةَ النهارِ ﴾ يعني الشمس ﴿ مُبصِرةً ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها مُنيرة، قاله قَتادة . قال ابن الأنباري:وإنما صَلَحَ وَصْف الآية بالإبصار على جهة المَجَاز، كما يُقال : لَعِبَ الدَّهْرُ ببني فُلان.والثاني أن معنى﴿مُبصِرةً ﴾ مُبْصَرًا بِها،قاله ابن قُتَيبة.والثالث أن معنى ﴿ مُبصِرةً ﴾ مُبَصِّرَة ... والمعنى أنها تُبَصِّر الناسَ أي تُرِيهم الأشياء، قاله ابن الأنباري.ومعاني الأقوال تتقارب. قَوله تعالى : ﴿ لِتَبتغوا فضلًا مِن رَبِّكم ﴾ أي لِتُبْصِرُوا كيف تتصرَّفون في أعمالكم وتَطلُبون رِزقَكم بالنهار ﴿ ولِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ والحسابَ ﴾ بِمَحْو آية الليل،ولَولا ذلك لَم يُعرَف الليل مِن النهار، ولَم يُتَبَيَّن العدد﴿وكُلَّ شيء ﴾ أي ما يُحتاج إلَيه ﴿ فصَّلناهُ تفصيلًا ﴾ بَيَّنَّاه تَبيينًا لا يَلتبس معه بِغَيره)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ الليلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ [الأنبياء : ٣٣] . إنَّ اللَّه بِقُدرته وحِكمته وعِلْمه جَعَلَ الحياة نِظَامًا مُتَنَوِّعًا ومُتكاملًا ، بلا تنافُر ولا اضطراب، فَجَعَلَ فِيها لَيْلًا يَمتاز بظَلامه وهُدوئه ، ونَهَارًا يَمتاز بضِيائه وأُنسِه . يَطُول الليلُ فَيَقْصُر النهار ، ويَطُول النهار فيَقصُر الليل، ضِمن منظومة بديعة متكاملة وشاملة ودقيقة، بلا خَلَل ولا فَوضى ، نِعمةً مِن اللَّه على الناس ، وحُجَّة عليهم ، ودليلًا على وُجوده ووَحدانيته وكمال قُدرته وعظيم سُلطانه. وأيضًا خَلَقَ اللَّهُ الشمسَ آيةً للنهار، والقمرَ آيةً لليل. وهاتان الآيتان العظيمتان الباهرتان تُشيران إلى وَحدانية اللَّه ، لأن النظام الواحد المُحْكَم المُتْقَن الخالي مِن الاضطراب، يدل على صانع واحد قدير حكيم . والواحدُ يَدُلُّ على الواحد ، والكاملُ يدلُّ على الكامل .

وكُل واحد مِن الشمس والقمر والنجوم يَجْرُون على سَطح الفَلَك، ويُسْرِعُون إسراع السابح على سطح الماء ، بسهولة ويُسر وفق حركة مُنظَّمة ، بلا عوائق ولا مشكلات . وسُمِّيَ فَلَكًا لاستدارته.وقد قال اللَّهُ تعالى:﴿ يَسْبَحُون ﴾ (صِيغة العُقَلاء) ولَم يَقُل:يَسْبَح (صِيغة ما لا يَعْقِل)، لأنَّه ذَكَرَ عنها فِعل العُقَلاء مِن الجَرْي والسَّبْح ، وجَعَلَها في الطاعة بِمَنْزلة مَن يَعْقِل ، لذلك جاء الإخبار عنها بضمير العُقَلاء .

وقال القرطبي (١١/ ٢٥١): ((ذكَّرهم نِعمةً أُخرى : جعل لهم الليل ليَسكُنوا فيه ، والنهار لِيَتصرَّفوا فيها لِمَعايشهم... وجعل الشمس آية النهار، والقمر آية الليل، لتُعلَم الشُّهور والسِّنُون والحساب. ﴿ كُلٌّ ﴾ يعني مِن الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿ في فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ أي يَجْرُون ويَسيرون بسرعة ، كالسابح في الماء)) .

إنَّ هذه المظاهر الكَوْنية الهائلة لا تأتي عَبَثًا أو بمَحْض الصُّدفة . فالليلُ وُجد كي يَرتاح فيه الناسُ مِن التعب ، ويأخذوا قِسْطًا من الراحة ، ويستعيدوا نشاطهم وحيويتهم لمواصلة أعمالهم الحياتية الرامية إلى الإعمار والتعمير . والنهارُ هو وقت النشاط والاندفاع والانطلاق في طُرقات الأرض . والشمسُ تبعث الطاقة في الأرض ، وتنشر النُّورَ على البشر كي تستمر الحياة دون عوائق، أمَّا القمرُ فيُمارس وظيفته في الإنارة . كما أن الشمس والقمر يُعتمَد عليهما في إجراء العمليات الحسابية الخاصة بالشُّهور والسَّنَوَات . وهذه الظواهرُ ذات تماس مباشر مع حياة الإنسان. لكن كثرة المُشَاهَدَة تجعل الإنسانَ غارقًا في الاعتيادية ، حيث يَتعوَّد على وجود الليل والنهار والشمس والقمر ، دون تفكُّر ولا تفكير في هذا النظام البديع، فتصبح النجوم والكواكب وتعاقُب الليل والنهار _ في عيون الكثيرين _ مظهرًا عاديًّا خاضعًا لقوانين الفيزياء والكيمياء دون النظر بالبصر والبصيرة إلى عَظَمة اللَّه وقُدرته ، الذي يُحرِّك هذه الأجرام السماوية الباهرة الهائلة ، ويُسيطر عليها ، مُنذ خَلْقها . وهي تتحرَّك بِقُدرة اللَّه ، بدُون خَلَل ، ولا فَوضى ، ولا اضطراب ، ولا أعطال فَنِّية ، ولا انتهاء مُدَّة صلاحية ، ولا قِطَع غِيَار .

وينبغي على العاقل أن ينظر إلى ما وراء الأشياء ، ويتفكر في أنظمة عملها وضوابطها ، والإشاراتِ التي تحملها، وأن لا يغرق في الاعتيادية والتعوُّد على رؤية الأشياء دون تحليلها وإيجادِ روابط بينها. فلا يوجد شيء في الكون وُجِد بشكل عبثي أو بالصُّدفة . إذْ إن كل عنصر موجود لأداء وظيفة محدَّدة خلقها اللَّهُ تعالى ، ووضَّح معالمها وحدودَها بكل دِقَّة وانتظام . لكن المشكلة تَكْمُن في العُيون المَيتة التي تُبصِر بلا بصيرة ، وتَنظُر ولا تَرى .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٣١):((وقد حكى ابن حَزْم وابن المُنيِّر وأبو الفَرَج ابن الجوزي وغَير واحد من العلماء الإجماع على أن السَّمَاوات كُرة مُستديرة، واستدل على ذلك بِقَوله:﴿كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون﴾.قال الحسن:يَدُورون.وقال ابن عباس:في فَلْكَة مِثل فَلْكَة المِغزَل. قالوا:ويدلُّ على ذلك أن الشَّمس تَغرُب كُلَّ لَيلة مِن المَغرِب ثُمَّ تَطْلُع في آخِرها مِن المَشرِق)).

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُم سَبْعَ طَرَائِقَ وما كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِين ﴾[المؤمنون: ١٧].

خَلَقَ اللَّهُ فَوقكم أيُّها الناسُ سَبعَ سماوات ، بَعْضها فوق بَعْض ، ويُمسِك السَّماواتِ أن تقع على الأرض فتُهلِك الخَلْقَ ، وما كانَ اللَّهُ مُهْمِلًا لهم ، ولا ناسيًا لشؤونهم ، ولا تاركًا لأُمُورهم ، بَل يَحفظهم ، ويُدبِّر أُمُورَهم ، ويَرعَى مصالحَهم ، وَفْق ما اقتضته الحِكمة الإلهية الجليلة ، وتعلَّقت به مشيئته العظيمة . وسُمِّيَت السَّماوات طرائق ، لأنَّ بعضها فوق بعض ، أوْ لأنَّها طُرُق الملائكة .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوقكم أيُّها الناس سَبْعَ سماوات ، بعضهن فوق بعض ، والعرب تُسمِّي كُلَّ شيء فَوق شيء طريقة . وإنَّما قِيل للسَّماوات السَّبْع سَبْع طرائق ، لأن بعضهنَّ فوق بعض ، فكل سماء مِنهنَّ طريقة . وبِنَحْو الذي قُلْنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل . ذِكْر مَن قال ذلك : حَدَّثَني يُونُس قال : أخْبَرَنا ابن وَهْب قال : قال ابن زَيد في قَول اللَّه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُم سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ . قال : السَّمَاوات . وقَوله : ﴿ وما كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِين ﴾ ، يقول : وما كُنَّا في خَلْقنا السَّمَاوات السَّبْع فَوقكم عَن خَلْقنا الذي تَحتها غافلين ، بل كُنَّا لهم حافظين مِن أن تَسقُط عَلَيهم فتُهلِكهم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٦٥): ((قَوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُم سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ ، يعني السَّمَاوات السَّبْع . قال الزَّجاج :كُل واحدة طريقة . وقال ابن قُتَيبة: إنَّما سُمِّيَت طرائق بالتَّطَارُق ، لأنَّ بعضها فوق بعض . يُقَال : طارقت الشيء ، إذا جعلت بَعْضَه فوق بعض . قَوله تعالى : ﴿ وما كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِين ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها ما غَفِلْنا عَنهُم إذْ بَنَيْنا فَوقهم سماءً أطْلَعْنا فيها الشمسَ والقمر والكواكب . والثاني ما كُنَّا تاركين لهم بغَير رِزق فأنزَلْنا المطرَ . والثالث لَم نَغفُل عَن حِفْظهم مِن أن تَسقُط السماءُ عَلَيهم فتُهلِكهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وآيةٌ لهمُ الليلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النهارَ فإذا هُم مُظلِمون ﴾[يس : ٣٧] .

يُقدِّم اللَّهُ دليلًا على وَحدانيته ، وقُدرته ، وأن كُل شيء خاضع لإرادته ، ومَقهور في قبضته ، وأن اللَّه قادر على فِعل ما يشاء. فاللَّهُ يَنْزِعُ مِن الليلِ النهارَ ، ويَفصِله ويُزيله ويُخرجه ، فيختفي ضَوءُ النهار تمامًا ، ويَحُل الظلام ، ويَدخل الناسُ في الظلام بسبب مجيء الليل .

والمعنى : نَنْزِعُ النهارَ فنذهب بِه ، ونأتي بالليل . والسَّلْخُ هو الإزالةُ عن المكان ، ومُستعار مِن سَلْخ الجِلْد .

ودليلٌ لهم على وَحدانية اللَّه وقُدرته ، خَلْق الليل بظَلامه ، والنهار بضِيائه . وهُما يتعاقبان بشكل دقيق ، بلا خَلَل ولا اضطراب . يجيء الليلُ فيذهب النهارُ ، وينتشر الظلام لراحة الناس وسُكونهم ، ويجيء النهار فيذهب الليل ، وينتشر الضياءُ لحركة الناس ونشاطهم . واللَّهُ يُخْرِجُ النهارَ مِن الليل ، فإذا الناس داخلون في الظلام . والآيةُ تُوضِّح أن اللَّه خلق الليلَ قبل النهار ، وأن الظلام أقدم مِن الضَّوء ، وأن الظلام هو الأصل ، والضَّوء عارض .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٧/ ١٧): ((قَوله تعالى:﴿وآيةٌ لهمُ الليلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النهارَ ﴾ أي : وعلامةٌ لهم تدل على توحيدنا وقُدرتنا ﴿ الليلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النهارَ ﴾ . قال الفَرَّاء: نَرمي بالنهار عنه. و﴿ مِنْهُ ﴾ بمعنى عَنْه . وقال أبو عُبَيدة: نُخْرِج منه النهارَ ونُميِّزه مِنه فتجيء الظُّلْمة. قال المَاوَرْدِي : وذلك أن ضَوء النهار يتداخل في الهواء فَيُضيء ، فإذا خرج منه أظلم. وقَوله: ﴿ فإذا هُم مُظلِمون ﴾ أي: داخلون في الظلام)) .

وعن عُمر بن الخطاب_ رضي اللَّهُ عنه_قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: ((إذا أقبلَ الليلُ مِن هَاهُنا، وأدبرَ النهارُ مِن هَاهُنا ، وَغَرَبَت الشمسُ ، فقد أفطرَ الصائم)) [٣٦].

المعنى:بِغُروب الشمس،يَخرج النهارُ، ويَدخل الليل، وينتشر الظلام، فإذا الناس داخلون فيه.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٢٠٩) : ((معناه : انقضى صَوْمُه وَتَمَّ . ولا يُوصَف الآن بأنَّه صائم ، فإن بغُروب الشمس خَرج النهار ، ودخل الليل ، والليل لَيس مَحَلًّا للصَّوم . وقَوله ﷺ :" أقبلَ الليل... وأدبرَ النهار ... وغَرَبَت الشمس " . قال العلماء : كُل واحد مِن هذه الثلاثة يَتضمَّن الآخرَيْن ويُلازمهما ، وإنما جمع بينها لأنه قد يكون في وادٍ ونَحْوه ، بحيث لا يُشاهِد غُروبَ الشمس ، فيعتمد إقبالَ الظلام وإدبار الضِّياء ، واللَّه أعلم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والشمسُ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لها ذَلِكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ ﴾[يس: ٣٨] [٣٧].

---

٣٦ متفق عليه. البخاري (٢/ ٦٩١) برقم (١٨٥٣) ، ومسلم (٢/ ٧٧٢) برقم (١١٠٠) .

٣٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٧): ((﴿ والشمسُ ﴾ أي : وآيةٌ لهم الشمس ﴿ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ وفِيه أربعة أقوال : أحدها إلى مَوضِع قَرارها. روى أبو ذَر قال: سألتُ رسول اللَّه ﷺ عن قَوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ . قال: " مُستقرُّها تحت العَرْش" وقال: " إنها تذهب حتى تسجد بين يَدَي رَبِّها ،

ومِن العلامات الإلهية الباهرة التي تدل على وَحدانية اللَّه وقُدرته ، أن الشمس تَجري إلى مَوضع قرارها ، وهو حَد مُعيَّن لا تتجاوزه ولا تتعدَّاه . وقد شُبِّه بِمُسْتَقَر المسافر إذا قَطَعَ مَسيرَه . وجَرْيُ الشمس إلى حَد مُعيَّنٍ تقديرُ اللَّهِ العزيزِ في مُلْكه وسُلطانه ، الغالبِ القاهرِ ، فلا يُغالَب ، ولا يُخَالَف ، ولا يُعْتَرَض عليه ولا يُنَاقَش ، العليمِ بمصالح خَلْقه، فلا يَخفى عليه شَيء ، أحاطَ عِلْمُه بالحَرَكات والسَّكَنات، وقد قَدَّرَ حَرَكَةَ الشمس وَفْق نظام دقيق ، لا خَلَل فيه ولا اضطراب. وهذا دليل على قُدرة اللَّه وحِكمته،وأنه المُتَفَرِّد بِتَدبير شؤون خَلْقه،وهذا يَعني أنه الإله المُستحق للعبادة وَحْدَه. وعَن أبي ذَر ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال: قال النبيُّ ﷺ لأبي ذَر حِينَ غَرَبَت الشمس : ((تدري أين تذهب ؟)). قلتُ: اللَّهُ ورسوله أعلم. قال: ((فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فَيُؤذَن لها،ويُوشِك أن تسجد فلا يُقْبَل مِنها،وتَستأذن فلا يُؤذَن لها،يُقال لها:ارجعي مِن حَيث جِئتِ، فَتَطْلُع مِن مَغربها،فذلك قَوله تعالى:﴿والشمسُ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لها ذَلِكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ﴾)) [٣٨].

وعن أبي ذَر قال : سَألتُ النبيَّ ﷺ عن قَوله تعالى : ﴿ والشمسُ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لها ﴾ . قال : ((مُسْتَقَرُّها تَحْتَ العَرْش)) [٣٩].

إنَّ الشمس خاضعة للَّه، ومُنقادة لأمره، وتابعة لِحُكمه، وهي مُسخَّرة لتحقيق مصالح الخلائق. وعلى المؤمن التسليم بهذه الأحاديث دُون الخوض في كَيفيتها ، لأنَّه غَير مُطَالَب بذلك ، ولا يَمْلِك القُدرة على معرفة تفاصيل هذه العملية . وقال مُحقِّق صحيح البخاري : (((تسجد تحت العرش) تشبيه بغُروبها وهي مُنقادة لأمر اللَّه تعالى وتَسخيره، بانقياد الساجد مِن المُكلَّفين ،

فتستأذن في الطُّلوع ، فَيُؤذَن لها ". والثاني أن مستقرها مَغربها لا تُجاوزه ولا تقتصر عنه قاله مجاهد . والثالث لوقت واحد لا تَعْدُوه، قاله قَتادة. وقال مُقاتل: لوَقت لها إلى يوم القيامة. والرابع تسير في منازلها حتى تنتهيَ إلى مُستقرها، الذي لا تُجاوزه، ثُمَّ ترجع إلى أول منازلها، قاله ابن السائب. وقال ابن قُتَيبة : إلى مُستقر لها، ومستقرها أقصى منازلها في الغُروب، وذلك لأنها لا تزال تتقدَّم إلى أقصى مغاربها ثُمَّ ترجع. وقرأ ابن مسعود وعِكرمة وعلي بن الحسين والشيزري عن الكِسائي: لا مستقر لها، والمعنى أنها تجري أبدًا ، لا تثبُت في مكان واحد)) .

٣٨ رواه البخاري (٣/ ١١٧٠) برقم (٣٠٢٧) واللفظ له ، ومسلم (١/ ١٣٨) برقم (١٥٩) .

٣٩ متفق عليه . البخاري (٤/ ١٨٠٦) برقم (٤٥٢٥) ، ومسلم (١/ ١٣٨) برقم (١٥٩) .

وهو يَخِرُّ إلى أسفل مُعْلِنًا تمام انقياده ، وغاية خضوعه لأمر رَبِّه جَلَّ وعلا . وكَوْن ذلك تحت العرش ، فلأن السماوات والأرض وغيرهما مِن العوالم كُلها تحت العرش.ففي أي موضع سَقَطَتْ وغَرَبَتْ فهو تحت العرش . على أن هذا الكلام لا يُفسِّر الظواهر الكَونية ، وإنما يُشير إلى الأسرار الكامنة وراء الظواهر ، والتي أودعها اللَّهُ عَزَّ وجل هذه العوالم ، فهي مِن الغَيب الذي اختصَّ اللَّهُ تعالى بِعِلْمه ، وأطْلَعَ على شيء منه بعضَ مَن اصطفاهم مِن خَلْقه وعلى رأسهم خَاتَم النَّبيين ﷺ ، لِيُخبروا بذلك مَن أُرْسِلوا إِلَيهم ، اختبارًا لتصديقهم ، وتمحيصًا ليقينهم ، وتثبيتًا لإيمان مَن أسلم قلبُه للَّه تعالى مِنهم،ولذا نجد أصحاب رسول اللَّه ﷺ وهو يُخبرهم بذلك ، لا يستفسرون عنه ، ولا يستوضحون، وإنما يُصدِّقون ويستسلمون ويُفوِّضون عِلْمَ ما خَفِيَ عنهم إلى اللَّه عَزَّ وجَلَّ، وإلى رسوله ﷺ ، ولا يُكلِّفون أنفسهم عَنَاءَ البحث فيما سكت عنه الكتاب والسُّنة ولا يتطاولون إلى ما أدركت عقولهم أنه فوق قَدْرهم وطاقتهم بعد أن آمنوا باللَّه تعالى رَبًّا وبالإسلام دِينًا وبمُحمَّد ﷺ نَبِيًّا ورسولًا . ونحن معاشر المؤمنين الصادقين يَسَعُنا ما وَسِعَهم لا سِيَّما وهُم الرَّعيل الأوَّل الأُسْوَة الحَسَنة والنموذج الإيماني المثالي الصادق ... . وما أشار إليه ﷺ مِن رُجوع الشمس وطُلوعها مِن مَغربها ، هو مِن العلامات الكُبرى لِقُرب قِيام الساعة ، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والقمرَ قَدَّرْناهُ مَنازلَ حتى عادَ كالعُرجونِ القديمِ ﴾[يس : ٣٩] .

تقديرُ الكلام : وآيةٌ لهم القَمَر . يعني : وَمِن العلامات الإلهية الباهرة التي تدل على وَحدانية اللَّه وقُدرته، أنَّ اللَّه قَدَّرَ القمر مَنازلَ مِن حَيث سَيْره ، وهي ثمانية وعشرون مَنْزِلًا [٤٠]، في ثَمَان وعشرين لَيلة مِن كُل شهر ، ويستتر لَيْلَتَيْن إن كان الشهر ثلاثين يَوْمًا ، ولَيلة إن كان تسعة وعشرين يَوْمًا . ويَنْزِل القمرُ كُل ليلة في مَنْزِل مُحدَّد ، لا يَتعدَّاه ولا يتقاصر عنه ، وذلك مِن أول الشهر حتى آخره . إنَّ اللَّه قَدَّرَ القمرَ مَنازلَ ، وجعله يَنقُص تدريجيًّا، وإذا وَصَلَ القمرُ إلى آخر المنازل دَقَّ وتَقَوَّس واصفرَّ ، وعادَ كالعُرجون القديم (العتيق). والعُرجون هو عِذْق النَّخْلة ، فإذا صارَ قديمًا وعتيقًا ، يَبِسَ وَاعْوَجَّ وتَقَوَّسَ واصفرَّ . وقد شَبَّهَ اللَّهُ بِه القمرَ في آخِر المنازل .

---

٤٠ قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٤): ((وهي ثمانية وعشرون: الشَّرَطان ، البُطَين، الثُّرَيَّا ، الدَّبَران، الهَقْعَة ، الهَنْعَة ، الذِّراع ، النَّثْرَة ، الطَّرْف ، الجَبْهَة ، الزُّبرة ، الصَّرْفَة ، العَوَّاء ، السِّماك ، الغَفْر، الزُّبانى ، الإكليل ، القَلْب ، الشَّوْلَة ، النَّعَائِم ، البَلْدَة ، سَعْد الذَّابِح ، سَعْد بُلَع ، سَعْد السُّعُود ، سَعْد الأخْبِيَة ، فَرْغ الدَّلْو الْمُقَدَّم ، فَرْغ الدَّلْو الْمُؤخَّر ، الرِّشا وهو بَطْن الحوت)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٠) : ((فإذا صار القمر إلى آخر منازله دَقَّ ، فعاد كالعُرجون ، وهو عُود العِذْق ، الذي تركته الشماريخ ، فإذا جَفَّ وقَدُمَ يُشبه الهِلال . قال ابن قُتَيبة : والقديم هاهُنا الذي قد أتى عليه حَوْل (عام) ، شُبِّه القمر آخر ليلة يَطْلُع به)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدْرِكَ القَمَرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ [يس : ٤٠] .

مِن علامات قُدرة اللَّه وحِكمته أن جَعَلَ للشمس حَدًّا لا تتجاوزه ولا تُقصِّر عنه،وكذلك القمر. والشمسُ والقمرُ لا يَجتمعان مَعًا. والنهار لا يَدخل على الليل قبل انقضائه ، والليل لا يَدخل على النهار قبل انقضائه.كما أن نُور الشمس وضوء القمر مختلفان عن بعضهما البعض، ولا يَختلطان ، ولا يتعارضان.والليل والنهار مُتعاقبان وَفْق نظام إلهيٍّ دقيق مُحْكَم ، ولا يجيء أحدهما قبل وقته . والشمس والقمر مُسخَّران وخاضعان لِقُدرة اللَّه ، ولا يتحرَّكان في السماء لِوَحْدهما . وسُلطان الشمس بالنهار ، وسُلطان القمر بالليل ، فلا فوضى ولا اضطراب . وأيُّ خَلَل في هذا النظام سَيُدَمِّر حياةَ الإنسان والكائنات الحية ، ويَجعل الحياة على الأرض مُستحيلة . وكُلٌّ مِن الشمس والقمر والنجوم يَسيرون ويَدورون في فَلَك السماء بسهولة وانبساط دُون مشكلات ولا تعارُض. وقد قالَ اللَّهُ : ﴿ يَسْبَحُون ﴾ ولَم يقل : تَسْبَح، لأنه وصفها بِفِعل مَن يَعْقِل ، ونزلوا مَنْزلة العُقَلاء.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدْرِكَ القَمَرَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:أحدهما أنهما إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يَدَي الآخَر ، فلا يَشتركان في المنازل، قاله ابن عباس. والثاني لا يُشْبِه ضَوء أحدهما ضَوْء الآخَر، قاله مجاهد. والثالث لا يَجتمع ضَوء أحدهما معَ الآخَر ، فإذا جاء سُلطان أحدهما ذهب سُلطان الآخَر ، قاله قتادة . فيكون وجه الحِكمة في ذلك أنَّه لَو اتَّصَلَ الضَّوء لَم يُعْرَف الليل. قَوله تعالى : ﴿ ولا الليلُ سابقُ النهارِ ﴾ ... وفيه قَولان : أحدهما لا يَتقدَّم الليل قبل استكمال النهار . والثاني لا يأتي ليل بعد ليل مِن غَير نهار فاصل بينهما)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أأنتُم أشَدُّ خَلْقًا أمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ [النَّازِعَات : ٢٧] .

الاستفهامُ للتَّوبيخ والتَّقريع. والخِطَابُ لكُفَّار مَكَّة ، واحتجاج عَلَيهم ، لأنَّهم يُنكِرون البَعْثَ ، ولا يَعترفون بإعادة الخَلْق بَعد بَدْئه . هل أنتم أيُّها المُشركون الجاحدون للبَعْث أصعب خَلْقًا أَم السَّماء العظيمة ؟ . إنَّ الذي خَلَقَ السَّماء بهذا الشَّكل البديع ، ورَفَعَها بلا أعمدة ، ومَنَعَها مِن السُّقُوط ، لَن يَعجَز عَن بَعْثكم مِن قُبوركم . ومَن قَدَرَ عَلى رَفع السَّماء قَدَرَ على الإعادة .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٣٥): ((أأنتم أيُّها الناس أشدُّ خَلْقًا أَم السَّمَاء بناها رَبُّكُم؟ فإنَّ مَن بَنى السماء فرفعها سَقْفًا ، هَيِّن عَلَيه خَلْقكم ، وخَلْق أمثالكم ، وإحياؤكم بعد مماتكم ، وليس خَلْقكم بَعد مماتكم بأشد مِن خَلْق السَّماء ، وعَنَى بقَوله : ﴿ بَنَاهَا ﴾ رَفَعَهَا ، فجعلها للأرض سَقْفًا)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٣٢) : ((قَوله : ﴿ أأنتُم أشَدُّ خَلْقًا أمِ السَّمَاءُ ﴾ ، أي : أَخَلْقُكُم بَعد المَوت وبَعْثكم أشدُّ عِندكم وفي تقديركم ، أَمْ خَلْق السَّماء ؟. والخِطَاب لكُفَّار مَكَّة ، والمقصود به التَّوبيخ لهم والتَّبكيت ، لأنَّ مَن قَدَرَ عَلى خَلْق السَّماء التي لها هذا الجُرْم العظيم ، وفيها مِن عجائب الصُّنع وبدائع القُدرة ما هو بَيِّن للناظرين ، كيف يَعجَز عَن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خَلَقَها أوَّل مَرَّة ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ [النَّازِعَات : ٢٨] .

رَفَعَ اللَّهُ السَّماءَ فَوقكم بلا أعمدة ، وأعلى سَقْفَها في الهواء ، فجعلها مُستويةً ، بلا شُقُوق ، ولا فُطُور ، ولا ثُقُوب ، ولا تعرُّجات ، ولا عُيُوب .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٠٢) : ((وقَوله تعالى : ﴿بَنَاهَا ﴾ فَسَّره بقَوله : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ ، أي : جَعَلَها عاليةَ البِناء ، بَعيدةَ الفِناء ، مُستويةَ الأرجاء ، مُكلَّلة بالكواكب في الليلة الظَّلْمَاء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والسَّمَاءِ والطَّارِقِ ﴾ [الطَّارِق : ١] .

أقسمَ اللَّهُ بالسَّماء والنَّجْم الذي يَظهر بالليل ، ويَختفي بالنهار. وكُل ما يجيء لَيْلًا فهو طارق. واللَّهُ يُقْسِمُ بما شاء مِن مَخلوقاته ، تنبيهًا على شرفه وأهميته . ولا يَجُوز للعبد أن يُقْسِم إلا باللَّه .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٣٢) : ((أقسمَ رَبُّنا بالسماء وبالطارق الذي يَطْرُقُ لَيْلًا مِن النُّجوم المُضيئة ، ويَخفَى نهارًا ، وكُل ما جاء لَيْلًا قد طَرَقَ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٨٠) : ((قال ابن قُتَيبة : الطارق النَّجْم ، سُمِّيَ بذلك لأنه يَطْرُق ، أي : يَطْلُع لَيْلًا ، وكُل مَن أتاك لَيْلًا فقد طَرَقَك ، ومِنه قول هِند ابنة عُتْبَة : نحن بنات طارق ... نمشي على النَّمارق . تُريد إنَّ أبانا نَجْم في شَرَفه وعُلُوِّه)) .

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (٥/ ١٣٥) : عن جابر بن سَمُرَة : أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَقرَأ في الظُّهْر والعَصْر بِـ ﴿ والسَّمَاءِ والطَّارِقِ ﴾ و ﴿ والسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ ﴾ .

المعنى أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَقرَأ في صَلاتَي الظُّهْر والعَصْر بسُورة الطَّارق وسُورة البُرُوج .

وفي عَون المَعبود (٣/ ١٦) : ((قد تقرَّر في الأُصُول أنَّ (كان) تُفيد الاستمرار وعُمُوم الأزمان ، فينبغي أن يُحمَل قَوله : "كان يَقرَأ في الظُّهْر " على الغالب مِن حاله ﷺ ، أوْ تُحمَل على أنَّها لمُجرَّد وُقُوع الفِعْل ، لأنَّها قد تُسْتَعْمَل لذلك ، كما قال ابن دقيق العيد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وما أدْرَاكَ ما الطَّارِقُ ﴾ [الطَّارِق : ٢] .

الاستفهامُ للتَّعظيم والتَّفخيم.وما أعلمكَ يا مُحمَّد ما هذا النَّجْم الذي أقْسَمْتُ به؟. والنبيُّ ﷺ لا يَعرِف ما هو الطارق ، ولا يَدْري ما حقيقة هذا النَّجْم. واللَّهُ يُعلِّم نَبِيَّه ﷺ ، ويُرشده إلى الحق .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٣٢): ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ : وما أشعركَ يا مُحمَّد ما الطارق الذي أقْسَمْتُ به ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ [الطَّارِق : ٣] [٤١].

هذا تفسيرٌ إلهيٌّ للطَّارق . إنَّهُ النَّجْم المُضيء المُتوهِّج الذي يَثقُب الظَّلامَ بضَوئه، فيَنفُذ فيه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٥٩٢) : ((بَيَّنَ سُبحانَه ما هو الطارق ، تفخيمًا لشَأنه بعد تعظيمه بالإقسام به ، فقال : ﴿ وما أدْرَاكَ ما الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) ﴾ . الثاقب : المُضِيء ... . قال الواحدي : الطارق يقع على كُل ما طَرَقَ لَيْلًا ، ولم يكن النبيُّ ﷺ يَدْري ما المُراد به لَوْ لَم يُبَيِّنْهُ بقَوله : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ . قال مُجاهد : الثاقب المُتوهِّج . قال سُفيان : كُل ما في القُرآن: ﴿ وما أدْرَاك ﴾ فقد أخبره، وكُل شيء قال: ﴿ وما يُدريك ﴾ ، لَم يُخْبِرْهُ بِه)) .

وقال الصاوي في حاشيته (٤/ ٣٠٩) : ((قد كَثُرَ مِنه تعالى في كِتابه المَجيد ذِكْرُ الشَّمس والقَمَر والنُّجوم ، لأنَّ أحوالها في أشكالها وسَيْرها ومطالعها ومغاربها عجيبة ، دَالَّة على انفراد خالقها بالكَمَالات ، لأنَّ الصَّنعة تدلُّ على الصانع)) .

---

٤١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٨٠ و٨١) : ((قَوله تعالى : ﴿ وما أدْرَاكَ ما الطَّارِقُ ﴾ . قال المفسِّرون : ذلك أنَّ هذا الاسم يقع على كُل ما طَرَقَ لَيْلًا ، فلم يكن النبيُّ ﷺ يَدْري ما الْمُراد به حتى تَبَيَّنَه بقَوله تعالى : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ يعني الْمُضِيء . وفي الْمُراد بهذا النَّجْم ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه زُحَل، قاله عليٌّ ــ رضي اللَّهُ عنه ــ وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال: هو زُحَل ، ومسكنه في السماء السابعة ، لا يَسكُنها غَيْرُه مِن النُّجوم ، فإذا أخذت النُّجُومُ أمكنتها مِن السماء ، هبط فكان معها ، ثُمَّ رجع إلى مكانه مِن السماء السابعة ، فهو طارق حين يَنزِل ، وطارق حين يَصعَد . والثاني أنَّه الثُّرَيَّا ، قاله ابن زيد . والثالث أنَّه اسم جِنس ، ذَكَرَه علي بن أحمد النَّيسابوري)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ [الطَّارِق : ١١] .

أقسمَ اللَّهُ بالسَّماء ذات المطر ، الذي يَرجع على الناس مَرَّةً بعد مَرَّة ، أوْ لأنَّه يتكرَّر كُل عام ويَرجِع . وهو الضَّمانة لاستمرار حياتهم . ولَوْلاه لَمَاتوا ، وفَنِيَت زُرُوعُهم ، وهَلَكَتْ مَواشيهم .

وَسُمِّيَ المطر رَجْعًا ، لأنَّه يجيء ويَرجع ويتكرَّر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٤٣) : ((قال ابن عباس : الرَّجْع المطر ، وعنه : هو السَّحَاب فيه المطر ، وعنه : ﴿ والسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ ، تُمطِر ثُمَّ تُمطِر . وقال قَتادة : تُرجِع رِزْقَ العِبَاد كُلَّ عام ، ولَوْلا ذلك لَهَلَكُوا وَهَلَكَتْ مَوَاشيهم . وقال ابن زيد : تَرجع نُجُومُها وشَمْسُها وقَمَرُها ، يَأتين مِن هَهُنا)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : ﴿ والسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ ، قال : ((المطر)) [٤٢].

*

٤٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦٥) برقم (٣٩١٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٨_ الكواكب

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنيا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ ﴾ [الصَّافَّات : ٦] .

يُبيِّن اللهُ قُدرته المُطْلَقَةَ ، فقد زَيَّنَ السَّماءَ الدُّنيا بالكواكب المُضيئة ، وكأنَّها جواهر تَشُعُّ بريقًا وتتلألأ بكُل جَمَال . واللَّهُ أتقنَ كُلَّ شيء خَلَقَه ، كما أنَّ المخلوقات مَوجودة لحِكمة ، وَلَم تَجِئْ عَبَثًا . فالكواكبُ البَهِيَّة التي تُجمِّل الكَوْنَ لها مَسار مُحدَّد لا تَقْدِر على تجاوزه ، مِمَّا يدلُّ على عَظَمَة الخالق المُسيطِر على المَخلوقات ، فقد أحاطها بعِنايته . وإذا تركها فإنَّ نِظام الكَون المُحكَم سينهار ويضمحل . والمَصنوع المُتقَن يدلُّ على عَظَمَة الصانع وقُدرته وعِلْمه وحِكمته .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦) : ((يُخبِر تعالى أنَّه زَيَّنَ السماءَ الدُّنيا للناظرين إليها مِن أهل الأرض بزينةٍ الكواكب ... . فالكواكب السَّيَّارة والثوابت يَثقُب ضَوْؤُها جُرْمَ السَّماء الشَّفاف فتُضيء لأهل الأرض)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَحِفْظًا مِن كُلِّ شَيطانٍ مَارِدٍ ﴾ [الصَّافَّات : ٧] .

حَفِظَ اللَّهُ السَّمَاءَ الدُّنيا حِفْظًا مِن كُل شَيطان مُتمرِّد عاتٍ، خارج عن الطاعة ، بِرَمْي الشُّهُب .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦): ((فَقَوله جَلَّ وعلا هَهُنا: ﴿ وَحِفْظًا ﴾ تقديره:وَحَفِظْنَاها حِفْظًا ﴿ مِن كُلِّ شَيطانٍ مَارِدٍ ﴾ ، يعني المُتمرِّد العاتي ، إذا أرادَ أن يَسترق السَّمْعَ ، أتاه شِهَاب ثاقب ، فأحرقه)) .

وقال أبو حَيَّان في البَحْر المُحيط (٧/ ٣٥٢) : ((خَصَّ السَّماء الدُّنيا بالذِّكْر ، لأنها هي التي تُشَاهَد بالأبصار، وفيها وَحْدَها يكون الحِفْظ مِن الشَّياطين)) .

وفي تفسير القرطبي (١٥/ ٥٩) : ((قال قَتادة : خُلقت النُّجوم ثلاثًا ، رُجُومًا للشَّياطين ، ونُورًا يُهْتَدَى به ، وزينة لسَماء الدُّنيا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ إلى المَلأ الأعلى ويُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ [الصَّافَّات: ٨] .

لا تَقْدِر الشَّياطينُ أن تستمع إلى المَلائكة ، وتُرْمَى الشَّياطينُ مِن جوانب السَّماء بالشُّهُب .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٧/ ١٨٥) : ((وأصلُ يَسَّمَّعون يَتَسَمَّعُون . والملأُ الأعلى : المَلائكة . وعن ابن عبَّاس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : هُم الكَتَبَة . وعنه أشرافُ الملائكة ، عَلَيهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ، أي : لا يَتَطَلَّبُون السَّمَاعَ والإصغاءَ إلَيهم . ﴿ ويُقْذَفُونَ ﴾ يُرمَون ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ مِن جميع جوانب السَّماء إذا قَصَدُوا الصُّعودَ إليها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ دُحُورًا ولَهُم عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ [الصَّافَّات : ٩] .

تُطرَد الشَّياطين ، وتُبعَد عن سَمَاع أخبار السَّماء ، ولهم في الآخرة عذاب شديد دائم . وهذا يعني أنَّ الشَّياطين تُعذَّب في الدُّنيا بالرَّمْي بالشُّهُب ، وأيضًا تُعذَّب في نار الآخِرة .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ١٧) : ((﴿ دُحُورًا ﴾ مَفعول له ، أي : يُقْذَفُون للدُّحُور ، وهو الطَّرْد ، أوْ مَدْحُورين على الحال ، أوْ لأنَّ القَذْف والطَّرْد مُتقاربان فى المعنى ، فكأنَّه قِيل: يُدحَرون أوْ قَذْفًا ، ﴿ ولَهُم عَذابٌ وَاصِبٌ ﴾ دائم ، مِن الوُصُوب ، أي أنَّهم في الدُّنيا مَرجُومون بالشُّهُب ، وقد أُعِدَّ لهم في الآخرة نَوع مِن العَذاب دائم غَير مُنقطع)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفةَ فأتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصَّافَّات : ١٠] .

إلا مَن استرقَ السَّمْعَ مِنَ الشَّياطين ، فَلَحِقَه كَوكب مُضيء مُتوقِّد ، فأحْرَقَه . ولَيست الشُّهُب التي تُرجَم بها الشَّياطين مِن الكواكب الثوابت ، بَل مِن غَير الثوابت .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦) : ((وقَوله تبارك وتعالى : ﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفةَ ﴾ ، أي : إلا مَن اختطفَ مِن الشَّياطين الخَطْفَةَ ، وهي الكلمة يَسْمَعها مِن السَّماء ، فيُلقيها إلى الذي تَحته، ويُلقيها الآخَر إلى الذي تَحته،فرُبَّما أدركه الشِّهَاب قبل أن يُلْقِيَها ، ورُبَّما ألقاها بقَدَر اللَّه تعالى ، قَبل أن يأتيَه الشِّهَاب فيُحرقه ، فيَذهب بها الآخَر إلى الكاهن ، ... . ولهذا قال : ﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفةَ فأتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ ، أي : مُستنير)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٥) : ((﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفةَ ﴾ ، اختلسَ الكلمةَ مِن كِلام المَلائكة مُسَارَقَةً ، ﴿ فأتْبَعَهُ ﴾ لَحِقَه ﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ كَوكَب مُضيء قوي ، لا يُخطِئه . يَقتله ، أو يُحرقه ، أو يُخبِله . وإنَّما يَعُودون إلى استراق السَّمْع معَ عِلْمهم بأنهم لا يَصِلون إليه طمعًا في السلامة، ونَيل المُراد ، كراكب البحر . قال عطاء : سُمِّيَ النَّجْم الذي يُرمَى به الشياطين ثاقبًا ، لأنَّه يَثقُبهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنيا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُومًا للشَّياطينِ وأعْتَدْنا لَهُم عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [المُلْك : ٥] .

زَيَّنَ اللَّهُ السَّماءَ الأُولَى التي يَرَاها الناسُ ، بكواكب مُضيئة . وتَنكير " مصابيح " للتعظيم . وتُسمَّى الكواكب مصابيح لأنَّها تُضيء بالليل كإضاءة السِّرَاج ، وجَعَلَ اللَّهُ المصابيحَ رُجُومًا يُرجَم بها الشَّياطين الذين يَسْترقون السَّمْعَ. وهذا يعني أنَّ هُناك فائدتَيْن للمصابيح (الكواكب): زِينة للسَّماء الدُّنيا ، ورَجْم الشَّياطين ، حيث يَنفصل شِهاب عَن الكَوكب كالقَبَس يُؤْخَذ مِن النار ،

فيَقتل الشَّيطانَ ، أوْ يُخبِله ، أمَّا الكَوكب فلا يَزول عن مكانه . وقد قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفةَ فأتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ . وهذا يعني أنَّ الشَّياطين لا تُرجَم بالكواكب ، وإنَّما تُرجَم بالشُّهُب . وأعدَّ اللَّهُ للشَّياطين في الآخِرة بعد الإحراق في الدُّنيا بالشُّهُب عذابَ النار الشديد .

وقال الخازن في تفسيره (٤/ ١٢٥) : ((فإنْ قِيل : كيف تكون زينةً للسماء ، ورُجُومًا للشياطين، وكَونها زينة يَقتضي بقاءها ، وكَونها رُجُومًا يقتضي زوالها ، فكيف الجَمْع بين هاتَيْن الحالتَيْن ؟ ، فالجواب أنَّه لَيس المُراد أنهم يُرمَون بأجرام الكواكب ، بَل يجوز أن تنفصل من الكواكب شُعلة ، وتُرمَى الشياطين بتلك الشُّعلة ، وهي الشُّهُب ، ومَثَلُها كَمَثَل قَبَسٍ يُؤْخَذ مِن النار ، وهي على حالها)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ١٦٦): ((يقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بِمَصَابيحَ ﴾ ، وهي النُّجُوم ، وجعلها مصابيح لإضاءتها ، وكذلك الصُّبْح إنَّما قِيل له صُبْح ، للضَّوء الذي يُضيء للناس من النهار ﴿ وَجَعَلْناها رُجُومًا للشَّياطينِ ﴾ ، يقول : وجَعَلْنا المَصابيحَ التي زَيَّنَّا بها السَّماءَ الدُّنيا رُجُومًا للشَّياطين ، تُرجَم بها . وقد حَدَّثَنا بِشْر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قَتادة: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بِمَصَابيحَ وَجَعَلْناها رُجُومًا للشَّياطينِ﴾ ، إنَّ اللَّه جَلَّ ثناؤه إنَّما خَلَقَ هذه النُّجُومَ لثلاث خِصَال: خَلَقَها زِينةً للسَّماء الدُّنيا، ورُجُومًا للشَّياطين،وعلامات يَهْتدي بها. فَمَن يتأوَّل مِنها غَير ذلك ، فقد قال برأيه ، وأخطأ حَظَّه ، وأضاعَ نصيبه، وتَكَلَّفَ ما لا عِلْم له به. وقَوله: ﴿ وأعْتَدْنا لَهُم عَذابَ السَّعيرِ ﴾ ، يَقول جَلَّ ثناؤه : وأعْتَدْنا للشَّياطين في الآخِرة عذابَ السَّعير ، تُسعَر عليهم ، فتُسجَر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأنَّا لَمَسْنا السَّمَاءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾[الجِن : ٨].

يُخبِر اللَّهُ عَن الجِن أنَّهم قالوا : وأنَّا طَلَبْنا بُلُوغَ السَّماءَ لاستماع كلام أهلها ، ومعرفة خبرها كما هي عادتنا ، فَوَجَدْناها مُلِئَتْ بالمَلائكة الحَفَظَة الأقوياء الذين يَحرُسونها ، وبالشُّهُب المُحرِقة التي يُقْذَف بها مِن يُحاول الاقترابَ مِن السَّماء . والحَرَسُ جَمْع حارس ، والشُّهُب جَمْع شِهَاب ، وهو الشُّعلة المُقْتَبَسَة مِن نار الكَوكَب . وذلك لَمَّا بُعِثَ النبيُّ ﷺ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٦٥) : ((وقَوله : ﴿ وأنَّا لَمَسْنا السَّمَاءَ ﴾ . يَقول عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَن قِيل هؤلاء النَّفَر : وأنَّا طَلَبْنا السَّمَاءَ وأرَدْنَاها ، ﴿ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ ﴾ ، يَقول : فَوَجَدْناها مُلِئَتْ ﴿ حَرَسًا شَدِيدًا ﴾ ، يَعني حَفَظَة ﴿ وَشُهُبًا ﴾ ، وهي جَمْع شِهَاب ، وهي النُّجُوم التي كانت تُرجَم بها الشَّياطين. ... عن سعيد بن جُبَير قال : كانت الجِن تستمع ، فلمَّا رَجعوا

قالوا : إنَّ هذا الذي حَدَثَ في السماء لَشَيء حَدَثَ في الأرض . قال : فذهبوا يَطلُبون ، حَتَّى رَأَوا النبيَّ ﷺ خارجًا مِن سُوق عُكَاظ يُصلِّي بأصحابه الفَجْرَ ، فذهبوا إلى قَومهم مُنذِرين)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٨٠) : ((وقالت الجِن : ﴿ وأنَّا لَمَسْنا السَّمَاءَ ﴾ ، أي : أتَيْنَاها ، ﴿ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا ﴾ ، وهُم المَلائكة الذين يَحرُسونها مِن استراق السَّمْع ﴿ وَشُهُبًا ﴾ ، جَمْع شِهَاب ، وهو النَّجْم المُضيء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ للسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ [الجِن : ٩] .

كان الجِنُّ قَبل بَعثة النبيِّ مُحمَّد ﷺ ينطلقون إلى السَّماء، لمعرفة كلام أهلها ، وسَمَاع أخبارها، حَتَّى يُلقوها إلى الكُهَّان ، فَمَن يُحاول الآنَ (بَعد البَعثة النبوية الشريفة) استراقَ السَّمْع ، يَنقَض عَلَيه شِهاب يُحرِقه ويُهلِكه .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٦٥) : ((يَقول عَزَّ وَجَلَّ : وأنَّا كُنَّا مَعْشَر الجِن نَقعُد مِن السَّماء مقاعد لنسمع ما يَحدُث وما يكون فيها ، ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ ﴾ فِيهَا مِنَّا ﴿ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ ، يعني : شِهاب نار قد رُصِدَ له به . ... عن قَتادة : قَوله : ﴿ وأنَّا لَمَسْنا السَّمَاءَ ﴾ إلى قَوله : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ . كانت الجِن تَسمَع سَمْعَ السَّماء فلمَّا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّه حُرِسَت السَّماء ، ومُنِعُوا ذلك ، فَتَفَقَّدَت الجِنُّ ذلك مِن أنفُسِها . وذُكِرَ لنا أنَّ أشراف الجِن كانوا بنَصِيبِين _ اسم بلد _ ، فطلبوا ذلك ، وضَرَبُوا له ، حَتَّى سَقَطُوا على نبيِّ اللَّه ﷺ ، وهو يُصلِّي بأصحابه عَامِدًا إلى عُكَاظ . حَدَّثَني يُونُس قال : أخْبَرَنا ابن وَهْب قال : قال ابن زَيد في قَوله : ﴿ وأنَّا لَمَسْنا السَّمَاءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ ، حَتَّى بَلَغَ : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ ، فلمَّا وَجَدُوا ذلك رَجَعُوا إلى إبليس ، فقالوا : مُنع مِنَّا السَّمْع ، فقال لهم : إنَّ السماء لَم تُحرَس قَط إلا على أحد الأمْرَيْن : إمَّا لعذاب يُريد اللَّهُ أن يُنزِله على أهل الأرض بَغتَة، وإمَّا نبيٌّ مُرشِد مُصلِح)) .

وفي صحيح مُسلم (٤/ ١٧٥٠) أنَّ عبد اللَّه بن عباس قال : أخْبَرَني رَجُل مِن أصحاب النبيِّ ﷺ مِن الأنصار أنَّهُم بَينَما هُم جُلُوس لَيلةً مع رسول اللَّه ﷺ رُمِيَ بنَجْم فاستنار ، فقال لهم رسولُ اللَّه ﷺ: ((ماذا كُنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمِيَ بِمِثْلِ هذا ؟))، قالوا : اللَّهُ ورسولُه أعْلَم ، كُنَّا نقول : وُلِدَ الليلةَ رَجُل عظيم ، وماتَ رَجُل عظيم ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ : ((فإنَّها لا يُرمَى بها لمَوت أحد، ولا لحياته، ولكنْ رَبُّنا تباركَ وتعالى اسْمُه إذا قضى أمرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ العَرْش، ثُمَّ سَبَّحَ

أهلُ السَّماء الذين يَلُونَهُم، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسبيحُ أهلَ هذه السَّماءِ الدُّنيا،ثُمَّ قال الذين يَلُون حَمَلَةَ العَرْش لِحَمَلَة العَرْش: ماذا قال رَبُّكُم ؟، فيُخبرونهم ماذا قال، قال: فيَستخبر بعضُ أهل السَّماوات بعضًا حَتَّى يَبْلُغَ الخَبَرُ هذه السَّمَاءَ الدُّنيا ، فتَخطَف الجِنُّ السَّمْعَ ، فيَقذِفون إلى أوليائهم ، ويَرْمُونَ به ، فما جاؤوا به على وَجْهه فَهُوَ حَق ، ولَكِنَّهُم يَقْرِفُون فيه _ يَكذِبون_ ، ويَزيدون)) .

هذا يدلُّ على أن الرَّجْم كان قَبل مَبعَث النبيِّ ﷺ . وقد كانت الكواكب يُرمَى بها في الجاهلية في بعض الأحيان . وبعد مَبعَث النبيِّ ﷺ ، صارت حِراسة السَّماء شديدةً ، وَتَمَّ مَنع الجِن مِن استراق السَّمْع بشكل كامل ، لئلا يَختلط الوَحْيُ الإلهيُّ بالكلام الذي يَختَلِسه الجِنُّ ، ويُلقونه إلى الكُهَّان ، فيَزيدون فيه ، ويُضيفون إلَيه بعضًا مِن أكاذيبهم . وهذا يدلُّ على فضل اللَّه ورحمته ، حَيث حَفِظَ الوَحْيَ الإلهيَّ مِن الشُّكُوك والشُّبُهات ، ونزَّهه عَن كُل ما لا يَلِيق به .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٣٩) : ((﴿ وأنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا ﴾ مِن السَّمَاء ﴿ مَقَاعِدَ للسَّمْعِ ﴾ ، أي : كُنَّا نستمع ، ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ ، أُرْصِد لَه ليُرمَى به . قال ابن قُتَيبة : إنَّ الرَّجْم كان قَبل مَبعَث النبيِّ ﷺ ، ولكن لَم يَكُن مِثْل ما كان بَعد مَبعَثه في شِدَّة الحِراسة ، وكانوا يَسْتَرِقُون السَّمْعَ في بعض الأحوال ، فلمَّا بُعث النبيُّ ﷺ مُنعوا مِن ذلك أصلًا)).

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ وأنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ للسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ . " مِنْهَا " ، أي : مِن السَّماء ، و " مَقَاعِد " : مواضع يُقْعَد في مِثْلها لاستماع الأخبار من السَّماء ، يعني أنَّ مَرَدَة الجِن كانوا يَفعَلون ذلك لِيَستمعوا مِن المَلائكة أخبارَ السَّماء حَتَّى يُلقوها إلى الكَهَنَة ، فَحَرَسَهَا اللَّهُ تعالى حِين بَعَثَ رَسُولَه ، بالشُّهُب المُحرِقة ، فقالت الجِنُّ حينئذ : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ ، يعني بالشِّهاب : الكَوكَب المُحرِق . ويُقال : لَم يَكُن انقضاض الكواكب إلا بَعد مَبعَث النبيِّ ﷺ ، وهو آية مِن آياته . واختلفَ السَّلَفُ هل كانت الشياطين تُقْذَف قَبل المَبعَث ، أوْ كان ذلك أمْرًا حَدَثَ لِمَبعَث النبيِّ ﷺ ؟ ، فقال الكلبي وقال قَوم : لَم تَكُن تُحرَس السَّماء في الفترة بين عِيسى ومُحمَّد صَلَوَات اللَّه عَلَيهما وسلامه،خَمسِمائة عام،وإنَّما كان مِن أجل بَعثَة النبيِّ ﷺ، فلمَّا بُعث مُحمَّد ﷺ مُنعوا مِن السَّمَاوات كُلِّها ، وحُرِسَت بالمَلائكة والشُّهُب. قُلتُ: ورواه عَطِيَّة العَوفي عن ابن عباس، ذَكَرَه البَيهقي . وقال عبد اللَّه بن عُمر: لمَّا كان اليَوم الذي نُبِّئَ رسولُ اللَّه ﷺ ، مُنِعَت الشَّياطين ورُمُوا بالشُّهُب . وقال عبد الملك بن سابور: لَم تَكُن السَّماء تُحرَس في الفَترة بَين عِيسى ومُحمَّد عَلَيهما الصَّلاة والسَّلام ، فلمَّا بُعث مُحمَّد ﷺ حُرِسَت السَّماء ، ورُمِيَت الشَّياطين بالشُّهُب ،

ومُنِعَتْ عَن الدُّنُوِّ مِن السَّماء. وقال نافع بن جُبَير : كانت الشَّياطين في الفَترة تَسمَع فلا تُرمَى ، فلمَّا بُعث رسول اللَّه ﷺ رُمِيَت بالشُّهُب ، ونَحْوه عَن أُبَيِّ بن كَعْب قال : لَم يُرْمَ بنَجْم مُنذ رُفِعَ عِيسى حَتَّى نُبِّئَ رسول اللَّه ﷺ ، فَرُمِيَ بِهَا . وقِيل : كان ذلك قَبل المَبعَث ، وإنَّما زادت بمَبعَث رسول اللَّه ﷺ إنذارًا بحاله ، وهو معنى قَوله تعالى : ﴿ مُلِئَتْ ﴾ ، أي : زِيدَ في حَرَسها . وقال أَوْس بن حَجَر ، وهو جاهلي : فانقَضَّ كالدُّرِّي يَتْبَعُه ... نَقْعٌ يَثُورُ تَخَالُه طُنُبَا . وهذا قَول الأكثرين . وقد أنكرَ الجاحظ هذا البيت وقال : كُل شِعْر رُوِيَ فيه فهو مَصنوع ، وأنَّ الرَّمْي لَم يَكُن قَبل المَبعَث . والقَول بالرَّمْي أصح ، لقَوله تعالى: ﴿ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ . وهذا إخبار عَن الجِن ، أنَّه زِيدَ في حَرَس السَّماء حتى امتلأت مِنها ومِنهُم . ... قِيل للزُّهري : أكانَ يُرمَى في الجاهلية ؟ ، قال : نعم ، قُلْتُ _ الرَّاوي _ : أفرأيتَ قَوْلَه سُبحانَه : ﴿ وأنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ للسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ . قال : غُلِّظَتْ وشُدِّدَ أمْرُها حِين بُعث النبيُّ ﷺ ، ونَحْوه قال القُتَبي . قال ابن قُتَيبة : كان ، ولكن اشتدَّت الحِراسة بعد المَبعَث ، وكانوا مِن قَبْل يَسْتَرِقُون ويُرمَون في بعض الأحوال ، فلمَّا بُعث مُحمَّد ﷺ ، مُنعت مِن ذلك أصْلًا ... . قال الحافظ : فَلَوْ قال قائل : كَيف تتعرَّض الجِنُّ لإحراق نَفْسها بسبب استماع خَبَر ، بعد أن صار ذلك معلومًا لهم ؟ ، فالجواب: أنَّ اللَّه تعالى يُنسيهم ذلك حَتَّى تَعظُم المِحْنَة، كما يَنسَى إبليس في كُل وقت أنَّه لا يُسلِم)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٥٢) عن الآيَتَيْن (الجِن : ٨ و٩) : ((يُخبِر تعالى عَن الجِن حِين بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَه مُحَمَّدًا ﷺ ، وأنزلَ عَلَيه القُرآن ، وكان مِن حِفْظه له أنَّ السَّماء مُلِئَتْ حَرَسًا شديدًا ، وحُفَّتْ مِن سائر أرجائها ، وطُردت الشَّياطين عَن مَقَاعِدِها التي كانت تَقعُد فِيها قَبل ذلك ، لئلا يَسْتَرِقُوا شيئًا مِن القُرآن ، فيُلقوه على ألسنة الكَهَنَة ، فَيَلْتَبِس الأمر ويَختلِط ، ولا يُدرَى مَن الصادق ، وهذا مِن لُطْف اللَّه تعالى بخَلْقه ، ورحمته بعباده ، وحِفْظه لكتابه العزيز ، ولهذا قال الجِن : ﴿ وأنَّا لَمَسْنا السَّمَاءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وأنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ للسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) ﴾ ، أي : مَن يَرُوم أن يَسْتَرِق السَّمْعَ يَجِد له شِهابًا مُرْصَدًا له ، لا يتخطاه ، ولا يتعدَّاه ، بل يَمحَقه اليَوْم ويُهلِكه ، ... . ولا شَكَّ أنَّه لمَّا حدث هذا الأمر ، وهو كَثرة الشُّهُب في السَّماء والرَّمْي بها ، هَالَ ذلك الإنسَ والجِنَّ ، وانزعجوا له ، وارتاعوا لذلك ، وظَنُّوا أن ذلك لخَراب العَالَم ، كما قال السُّدي : لَم تَكُن السَّماء تُحرَس إلا أن يكون في الأرض نبيٌّ أو دِين للَّه ظاهر ، فكانت الشَّياطين قَبل مُحمَّد ﷺ قد

اتَّخذت المَقَاعِدَ في السَّماء الدُّنيا يَستمعون ما يَحدُث في السَّماء مِن أمر،فلمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًاﷺ نَبِيًّا رسولًا ، رُجموا لَيْلَةً من الليالي ، فَفَزِعَ لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هَلَكَ أهلُ السَّماء لمَّا رَأَوْا مِن شِدَّة النار في السَّماء ، واختلاف الشُّهُب ، فَجَعلوا يُعتِقون أرِقَّاءهم ، ويُسيِّبون مَوَاشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن عُمَير : وَيْحَكُم يا مَعْشَر أهل الطائف ، أمْسِكُوا عن أموالكم ، وانظُروا إلى مَعَالِم النُّجُوم ، فإن رَأيتموها مُستقرةً في أمكنتها ، فلم يَهلِك أهلُ السماء ، إنَّما هذا مِن أجل ابن أبي كَبشَة ، يَعني مُحَمَّدًا ﷺ ، وإنْ نظرتُم فلم تَرَوْها فقد هَلَكَ أهل السماء ، فنَظروا فَرَأَوْهَا ، فَكَفُّوا عَن أقوالهم ، وفَزِعَت الشَّياطين في تِلك الليلة ، فَأَتَوْا إبليسَ ، فَحَدَّثُوه بالذي كان من أمرهم ، فقال : ائتوني مِن كل أرض بقَبضَة مِن تُراب أَشُمُّها ، فَأَتَوْهُ ، فَشَمَّ ، فقال : صاحبكم بمَكَّة ، فَبَعَثَ سبعة نَفَر مِن جِن نَصِيبِين ، فَقَدِمُوا مَكَّةَ ، فوجدوا نبيَّ اللَّه ﷺ قائمًا يُصلِّي في المَسْجِد الحَرَام ، يَقرأ القُرآنَ ، فَدَنَوْا مِنه حِرْصًا على القُرآن ، حتى كادت كَلاكِلهم (جَمَاعاتهم) تُصيبه ، ثُمَّ أسْلَمُوا ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى أمْرَهم على رسوله ﷺ)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤/ ١٦٧و١٦٨) : ((... ، كانت الكِهَانَةُ فَاشِيَة في العَرَبِ ، حَتَّى قُطع بين الشياطين وبين صُعود السماء واستراق السَّمْع ، كما أخبرَ اللَّهُ تعالى عَنهُم أنَّهُم قالوا : ﴿ وأنَّا لَمَسْنا السَّمَاءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وأنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ للسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) ﴾ . وقد جاءت أشعار العرب باستغرابهم رَمْيها لكَوْنهم لَم يَعْهَدُوه قَبل النُّبُوَّة ، وكان رَمْيُها مِن دَلائل النُّبُوَّة . وقال جماعة مِن العُلَماء: ما زالت الشُّهُب مُنذ كانت الدُّنيا ، وهو قول ابن عباس والزُّهري وغَيرهما. وقد جاء ذلك في أشعار العرب . وروى فيه ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ حديثًا . قِيل للزُّهري : فقد قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ ، فقال : كانت الشُّهُب قليلةً ، فَغُلِّظَ أمْرُها ، وكَثُرَتْ حِين بُعث نَبِيُّنا ﷺ . وقال المُفسِّرون نَحْوَ هذا ، وذَكَرُوا أنَّ الرَّمْي بها وحِراسة السماء كانت موجودة قَبل النُّبُوَّة ومعلومة ، ولكن إنَّما كانت تقع عند حُدوث أمر عظيم مِن عذاب يَنزِل بأهل الأرض ، أوْ إرسال رسول إلَيهم ، ... . وقِيل : كانت الشُّهُب قَبْل مَرئيةً ومعلومةً ، لكنَّ رَجْم الشياطين وإحراقهم لَم يَكُن إلا بَعد نُبُوَّة نَبِيِّنا ﷺ)) .

*

٩_ التَّقويم

أ _ عِدَّة الشُّهُور

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا في كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ مِنْهَا أرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أنفُسَكُم ﴾ [التَّوبة : ٣٦] .

إنَّ عَدَدَ شُهُور السَّنَة في حُكْم اللَّه وقضائه وحِكمته اثنا عشر شَهْرًا ، بلا زِيادة ولا نُقصان ، على منازل القَمَر ، وهذا يُبيِّن أن الأحكام الشرعية قائمة على الشُّهُور القَمَرِيَّة المَحسوبة بالأهِلَّة ، ولَيس الشُّهور الشَّمسية ، ﴿ في كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ، أي: في اللوح المَحفوظ، يَوم خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ والأرضَ [٤٣]. أي إنَّ هذا الأمر ثابت مُنذ خَلَقَ اللَّهُ الأجرامَ السَّماويةَ والأزمنةَ والأمكنةَ .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٢٤) : ((أي أنَّ اللَّه سُبحانَه وتعالى لمَّا ابتدأ خَلْقَ السَّماوات والأرض ، جَعَلَ السَّنَةَ اثنَي عَشَر شَهْرًا)) .

وأخذت السَّنَةُ القَمَرِيَّةُ اسمها مِن المُدَّة التي يأخذها القَمَر للدَّوَرَان حول الأرض ١٢ مَرَّة ، وعُرفت قراءة كُل شَهْر مِن خِلال أشكال القمر، حيث يَبدأ أوَّلُ ضَوء مِن القمر على شَكْل هِلال وينتهي باختفاء آخِر ضَوء . و١٢ مَرَّة لتُغطِّي السَّنَةَ القمرية " الهِجْرِيَّة " عِند العرب والمُسلمين .

وأسماءُ الشُّهُور القَمَرِيَّة (الهِجْرِيَّة) هي : المُحرَّم ، صَفَر ، ربيع الأوَّل ، ربيع الثاني ، جُمَادَى الأُولَى ، جُمَادَى الآخِرة ، رَجَب ، شَعْبان ، رَمَضَان ، شَوَّال ، ذُو القِعْدَة ، ذُو الحِجَّة .

---

٤٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٣٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، قال المفسِّرون : نزلت هذه الآية من أجل النَّسِيء الذي كانت العرب تفعله ، فرُبَّما وَقَعَ حَجُّهم في رَمَضَان ، ورُبَّما وَقَعَ في شَوَّال ، إلى غَير ذلك ، وكانوا يَسْتَحِلُّون الْمُحَرَّمَ عامًا ، ويُحرِّمون مَكَانَه صَفَر ، وتَارَةً يُحرِّمون الْمُحَرَّمَ ، ويَسْتَحِلُّون صَفَر . قال الزَّجاج : أعلمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ عَدَد شُهُور المسلمين التي تُعُبِّدُوا بأن يجعلوه لِسَنَتهم اثنا عَشَر شَهْرًا على مَنازل القَمَر ، فَجَعَلَ حَجَّهم وأعيادَهم على هذا العَدَد ، فَتَارَةً يكون الحَجُّ والصَّوْمُ في الشتاء ، وتَارَةً في الصَّيف ، بخِلاف ما يَعتمده أهلُ الكِتاب ، فإنَّهم يَعْمَلُون على أنَّ السَّنَة ثلاثمائة يَوم وخمسة وسِتُّون يَوْمًا وبَعْض يَوم ، ... . قَوله تعالى : ﴿ في كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ، أي : في اللوح المحفوظ . قال ابن عباس: في الإمام الذي عِند اللَّه ،كَتَبَه يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٤٦٢) : ((﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ . عدد شُهُور المُسلمين التي تُعُبِّدُوا بأن يَجعلوها لِسَنتهم اثنا عَشَر شَهْرًا على منازل القَمَر ، واستهلال الأهِلَّة ، لا كما يَعُدُّه أهل الرُّوم وفَارِس ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ، في الإمام الذي عِند اللَّه كَتَبَه يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ١٢٢) : ((إنَّما قال : ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ ﴾ ، لِيُبَيِّنَ أنَّ قَضَاءَه وقَدَرَه كان قَبْل ذلك ، وأنَّه سُبحانَه وَضَعَ هذه الشُّهُور ، وسَمَّاها بأسمائها على ما رتَّبها عَلَيه يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ ، وأنزلَ ذلك على أنبيائه في كُتُبه المُنزَلة ، وهو معنى قَوله تعالى : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ ، وحُكْمها باقٍ على ما كانت عَلَيه لَم يُزِلْها عن ترتيبها تغيير المُشركين لأسمائها ، وتقديم المُقدَّم في الاسم منها . والمَقصود مِن ذلك اتِّباع أمر اللَّه فِيها ، ورَفْض ما كان عَلَيه أهل الجاهلية مِن تأخير أسماء الشُّهُور وتقديمها ، وتعليق الأحكام على الأسماء التي رتَّبوها عَلَيه)) .

﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [٤٤] . مِنها أربعة شُهُور مُحرَّمة: ذُو القِعْدَة ، ذُو الحِجَّة ، المُحرَّم ، رَجَب . ثلاثة سَرْد ، وواحد فَرْد (رَجَب) . وتخصيصها يدلُّ على فضلها وشرفها . وسُمِّيَت حُرُمًا ، لأنَّها مُعظَّمة ، يَحرُم القِتال فيها ، ويَعظُم فيها ارتكاب الذُّنُوب وانتهاك المحارم . وكان أهلُ الجاهلية يُعظِّمون الأشهُرَ الحُرُم ، ويَحترمونها ، ويُحرِّمون القِتالَ فِيها ، حَتَّى إنَّ الرَّجُل كان يَلقى قاتلَ أبيه فِيها ، فلا يَتعرَّض له ، تعظيمًا لحُرمة هذه الشُّهُور . وحُرمة الأشهُر الحُرُم ثابتة في الجاهلية والإسلام ، ومُستمرة إلى يَوم القِيامة ، بلا تغيير ، ولا تبديل .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٢/ ٨٨) : ((﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ ، ثلاثة سَرْد : ذُو القِعْدَة ، للقُعُود عَن القِتال ، وذُو الحِجَّة للحَج ، والمُحرَّم لتَحريم القِتال فيه ، وواحد فَرْد وهو رَجَب ، لتَرجيب العرب إيَّاه ، أي : لِتَعظيمه)) .

---

٤٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٣٢ و٤٣٣) : ((﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ ، وفِيها قَولان : أحدهما أنها رَجَب وذُو القِعْدَة وذُو الحِجَّة والْمُحَرَّم ، قاله الأكثرون . وقال القاضي أبو يعلى : إنما سمَّاها حُرُمًا لمعنيَيْن : أحدهما تحريم القِتال فِيها ، وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون ذلك أيضًا . والثاني لتعظيم انتهاك المحارم فِيها أشد مِن تعظيمه في غَيرها ، وكذلك تعظيم الطاعات فِيها . والثاني أنها الأشهُر التي أُجِّلَ المشركون فِيها للسِّياحة ، ذَكَرَه ابن قُتَيبة)) .

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ . ذلك الدِّينُ القَوِيم ، والشَّرْعُ المُستقيم ، والحِسَاب الصحيح .

والمعنى : إنَّ تحريم الشُّهُور الأربعة هو الدِّين الواضح المُستقيم ، ودِين إبراهيم وإسماعيل _ عليهما الصلاة والسلام _ ، وقد تمسَّكت العربُ بتحريم هذه الشُّهُور وتعظيمها ، وحَرَّمَتْ فِيها القِتَالَ .

﴿ فلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أنفُسَكُم ﴾ . فلا تَعْصُوا اللَّهَ في الأشهُر الحُرُم ، ولا تَرتكبوا الذُّنُوبَ ، ولا تقترفوا المعاصي . والمعصيةُ في الأشهُر الحُرُم أسوأ وأعظم إثمًا فِيما سِوَاها . والحَسَنَاتُ تُضَاعَف فيها ، وكذلك السَّيئات . وقد ذَهَبَ بعضُ العُلَماء إلى أنَّ تحريم القِتال في الأشهُر الحُرُم ثابت مُحكَم لَم يُنسَخ لهذه الآية .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٤٣) : ((﴿ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ ، أي : تحريم الأشهُر الأربعة هو الدِّين القَوِيم دِين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، والعرب وَرِثُوه مِنهما ، ﴿ فلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أنفُسَكُم ﴾ بهَتْك حُرمتها وارتكاب حَرَامها ، والجُمهور على أنَّ حُرمة المُقَاتَلَة فِيها مَنسوخة، وأوَّلُوا الظُّلْمَ بارتكاب المَعَاصي فِيهِنَّ ، فإنَّه أعظم وِزْرًا كارتكابها في الحَرَم وحال الإحرام. وعن عَطَاء أنَّه لا يَحِلُّ للناس أن يَغْزُوا في الحَرَم وفي الأشهُر الحُرُم إلا أن يُقَاتَلُوا)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦٥) : ((وقَوله : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ ، أي : هذا هو الشَّرْع المُستقيم مِن امتثال أمر اللَّه فِيما جَعَلَ مِن الأشهُر الحُرُم ، والحَذْو بها على ما سَبَقَ مِن كتاب الله الأوَّل . قال تعالى : ﴿ فلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أنفُسَكُم ﴾ ، أي : في هذه الأشهُر المُحرَّمة ، لأنَّها آكَد وأبْلَغ في الإثم مِن غَيرها ، كما أنَّ المعاصي في البَلَد الحَرَام تُضَاعَف ، لِقَوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بإلحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أليم ﴾ [الحَج : ٢٥] ، وكذلك الشَّهْر الحَرَام ، تُغلَّظ فيه الآثام ، ولهذا تُغلَّظ فيه الدِّيَة في مذهب الشَّافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا في حَق مَن قَتَلَ في الحَرَم أوْ قَتَلَ ذا مُحرِم . وقال حَمَّاد بن سَلَمة عن علي بن زيد عن يُوسُف ابن مِهران عن ابن عباس في قَوله : ﴿ فلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أنفُسَكُم ﴾ . قال : في الشُّهُور كُلِّها . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قَوله : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ ﴾ الآية ، فلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أنفُسَكم في كُلِّهِنَّ ، ثُمَّ اختص مِن ذلك أربعة أشهُر ، فجعلهنَّ حرامًا ، وعظَّم حُرُماتهنَّ ، وجَعَلَ الذَّنْبَ فِيهِنَّ أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم . وقال قَتادة في قَوله : ﴿ فلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أنفُسَكُم ﴾ ، إنَّ الظُّلْم في الأشهُر الحُرُم أعظم خَطيئة ووِزْرًا مِن الظُّلْم فِيما سِوَاها، وإنْ كان الظُّلْم على كل حال عظيمًا ، ولكنَّ اللَّه يُعظِّم مِن أمْرِه ما يشاء، وقال: إنَّ اللَّه اصطفى صَفايا مِن خَلْقه ،

اصطفى مِن المَلائكة رُسُلًا ، ومِن الناس رُسُلًا ، واصطفى مِن الكلام ذِكْرَه ، واصطفى من الأرض المساجد ، واصطفى مِن الشُّهُور رَمَضَان والأشهُر الحُرُم ، واصطفى من الأيام يوم الجُمُعة ، واصطفى مِن الليالي لَيْلَةَ القَدْر ، فَعَظِّمُوا ما عظَّم اللَّهُ ، فإنَّما تعظيم الأمور بما عظَّمها اللَّهُ به عِند أهل الفَهْم وأهل العَقْل)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٤٣٣ و٤٣٤): ((قَوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ﴾ فيه قَولان : أحدهما ذلك القَضَاء المُستقيم ، قاله ابن عباس . والثاني ذلك الحِساب الصَّحيح والعدد المُستوي ، قاله ابن قُتَيبة . قَوله تعالى : ﴿ فلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أنفُسَكُم ﴾ ، اخْتَلَفُوا في كِناية " فِيهِنَّ " على قَوْلَيْن : أحدهما أنَّها تَعُود على الاثنَي عَشَر شَهْرًا ، قاله ابن عباس ، فعلى هذا يكون المعنى : لا تَجعلوا حَرَامَها حلالًا ، ولا حَلالَها حرامًا ، كفِعْل أهل النَّسِيء . والثاني أنَّها تَرجِع إلى الأربعة الحُرُم ، وهو قَول قَتادة والفَرَّاء ، واحتجَّ بأن العرب تقول لِمَا بين الثلاثة إلى العَشَرَة : لثلاث لَيَالٍ خَلَوْنَ ، وأيَّام خَلَوْنَ ، فإذا جُزْتَ العَشَرَةَ قالوا : خَلَتْ ومَضَتْ ، ويقولون لِمَا بَين الثلاثة إلى العَشَرَة : هُنَّ وهؤلاء ، فإذا جُزْتَ العَشَرَةَ قالوا : هِيَ وهذه ، إرادة أن تُعرَف سِمَة القليل مِن الكثير . وقال ابن الأنباري : العرب تُعيد الهاء والنُّون على القليل مِن العَدَد ، والهاء والألف على الكثير مِنه ، والقِلَّة ما بَين الثلاثة إلى العَشَرَة ، والكَثرة ما جاوزَ العَشَرَةَ ، يَقولون : وَجَّهْتُ إلَيكَ أكْبُشًا فاذبحهنَّ ، وكِبَاشًا فاذبحها ، فلهذا قال : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ ، وقال : ﴿ فلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ ﴾ ، لأنَّه يَعني بقَوله : ﴿ فِيهِنَّ ﴾ الأربعة . ومَن قال مِن المُفسِّرين إنَّه يَعني بقَوله : ﴿ فِيهِنَّ ﴾ الاثنَي عَشَر ، فإنَّه مُمكِن ، لأنَّ العرب رُبَّما جَعلت عَلامةَ القليل للكثير ، وعلامةَ الكثير للقليل . وعلى قَول مَن قال : تَرجِع ﴿ فِيهِنَّ ﴾ إلى الأربعة ، يَخرُج في معنى الظُّلْم فِيهِنَّ أربعة أقوال : أحدها أنَّه المَعَاصي ، فتكون فائدة تَخصيص النَّهْي عَنه بهذه الأشهُر أنَّ شأن المَعَاصي يَعظُم فيها أشد مِن تعظيمه في غَيرها ، وذلك لفَضْلها على ما سِوَاها ... . والثاني أنَّ المُراد بالظُّلْم فِيهِنَّ فِعْل النَّسِيء، وهو تحليل شَهْر مُحرَّم ، وتحريم شَهْر حَلال، قاله ابن إسحاق . والثالث أنَّه البِداية بالقِتال فِيهِنَّ ، فيَكُون المَعنى : فلا تَظْلِمُوا أنفُسَكم بالقِتال فِيهِنَّ إلا أن تُبدَؤوا بالقِتال ، قاله مُقاتل . والرابع أنَّه تَرْك القِتال فِيهِنَّ ، فيَكُون المعنى : فلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أنفُسَكم بتَرْك المُحَارَبَة لِعَدُوِّكم ، قاله ابن بَحْر ، وهو عَكْس قَول مُقَاتِل . والسِّرُّ في أنَّ اللَّه تعالى عَظَّمَ بعضَ الشُّهور على بعض ليَكُون الكَفُّ عَن الهَوى فيها ذريعةً إلى استدامة الكَف في غَيرها ، تدريجًا للنَّفْس إلى فِرَاق مألوفها المَكْرُوه شَرْعًا)) .

وعن أبي بَكْرَة_ رضي اللَّهُ عنه_عن النبيِّ ﷺ قال: ((الزَّمانُ قد استدارَ كَهَيئته يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ والأرضَ ، السَّنَةُ اثنا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنهَا أربعةٌ حُرُم ، ثلاثةٌ مُتواليات : ذُو القِعْدَة ، وذُو الحِجَّة ، والمُحرَّم ، ورَجَبُ مُضَرَ ، الذي بَيْنَ جُمَادَى وشَعْبَان)) [٤٥].

دَارَ الزَّمانُ على التَّرتيب الذي اختاره اللَّهُ يَوْمَ ابتدأَ خَلْقَ السَّماوات والأرض ، حَيث إنَّ كُل عام اثنا عَشَر شهرًا ، وكُل شَهْر بَين تِسعة وعشرين إلى ثلاثين يَوْمًا . وكانت العَرَبُ في الجاهلية قد تلاعبت بالأشهُر الحُرُم لتحقيق مصالحها الشخصية . وقد أعادَ اللَّهُ هذه الشُّهُور المُحرَّمة إلى الترتيب الصحيح والنَّسَق السليم . والعَامُ الذي حَجَّ فِيه النبيُّ ﷺ حَجَّةَ الوَدَاع ، هو العَام الذي وَصَلَ فِيه ذُو الحِجَّة إلى مَوضعه الصحيح ، وهذا معنى استدارة الزَّمان ، فقد وَضَعَ اللَّهُ شَهْرَ ذِي الحِجَّة في هذا الوَقْت المُناسب ، فيجب حِفْظُه ، واعتماد الحَج في هذا الوَقْت ، وعدم التلاعب بترتيب الأشهُر الحُرُم كعادة أهل الجاهلية .

وتمَّت إضافة رَجَب إلى مُضَر، لأنَّه كان هناك اختلاف بين بَني مُضَر وربيعة في تحديد الشَّهْر، فأرادَ النبيُّ ﷺ أن يُوضِّح الأمرَ ، ويُزيل اللبسَ ، فحدَّده بمُضَر الذين تَمَسَّكوا بالشَّهْر وعظَّموه .

وقد كان أهلُ الجاهلية مُؤمنين بالأشهُر الحُرُم ، ومُتمسِّكين بحُرمتها ومنزلتها الرَّفيعة ، وتَحريم القِتال فِيها ، لَكِنَّ الغَزْوَ _ الذي كان مَوْرِدًا اقتصاديًّا أساسيًّا _ جَعَلَهم يَتلاعبون بالأشهُر الحُرُم تقديمًا وتأخيرًا ، وذلك لكي يَخرجوا مِن الحَرَج وإثمِ القِتال في الشَّهْر الحَرَام .

ومِن فَرْطِ تقديم الأشهُر الحُرُم وتأخيرها ، اختلط عليهم الأمر ، وعَجِزُوا عن تحديد الأشهُر . وقد أخرجهم النبيُّ ﷺ مِن المَتَاهة التي غَرقوا فِيها ، فحدَّد ﷺ الشَّهْرَ الحَرَامَ كما حَكَمَ اللَّهُ بِه يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ١٦٨) : ((وأمَّا قَوله ﷺ : " إنَّ الزَّمان قد استدارَ كَهَيئته يَوم خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ والأرضَ " ، فقال العُلَماء : مَعناه أنَّهُم في الجاهلية يتمسَّكون بمِلَّة إبراهيم ﷺ في تحريم الأشهُر الحُرُم ، وكان يَشُقُّ عَلَيهم تأخير القِتال ثلاثة أشهُر مُتواليات ، فكانوا إذا احتاجوا إلى قِتال أخَّرُوا تَحريمَ المُحرَّم إلى الشَّهْر الذي بَعده وهو صَفَر ، ثُمَّ يُؤخِّرونه في السَّنَة الأُخْرَى إلى شَهْر آخَر ، وهكذا يَفعلون في سَنَة بَعد سَنَة حَتَّى اختلطَ عَلَيهم الأمر ، وصادفت حَجَّةُ النبيِّ ﷺ تحريمَهم ، وقد تطابقَ الشَّرْع ، وكانوا في تلك السَّنَة قد حَرَّموا

---

٤٥ متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٦٨) برقم (٣٠٢٥) ، ومسلم (٣/ ١٣٠٥) برقم (١٦٧٩) .

ذا الحِجَّة لمُوافقة الحِسَاب الذي ذَكَرْناه ، فأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ الاستدارة صادفت ما حَكَمَ اللَّهُ تعالى به يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ)) .

وقال ابن سَلَّام في غَريب الحديث (٢/ ١٥٩و١٦٠) : ((عَن مُجاهد قال : كانت العربُ في الجاهلية يَحُجُّون عَامَيْن في ذِي القِعْدَة ، وعَامَيْن في ذِي الحِجَّة ، فلمَّا كانت السَّنَةُ التي حَجَّ أبو بَكْر فِيها قَبل حَجَّة النبيِّ ، كان الحَجُّ في السَّنة الثانية في ذِي القِعْدَة ، فلمَّا كانت السَّنَة التي حَجَّ فيها النبيُّ _ عليه السَّلام _ في العام المُقبِل عَادَ الحَجُّ إلى ذِي الحِجَّة)) .

إنَّ قَوْلَ النبيِّ ﷺ : " الزمانُ قد استدارَ كَهَيئته يَوم خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ والأرضَ " ، يعني أنَّ الأشهُر قد ثَبَتَتْ كما أرادها اللَّهُ تعالى، وانتهى عَصْرُ التَّلاعب بالأشهُر الحُرُم ، وتوقَّفت الأيدي العابثة بها . وثَبَتَ الحَجُّ في ذِي الحِجَّة ، وهذا هُوَ مُرَاد اللَّه تعالى . وهذا الأمرُ ثابتٌ إلى يَوم القيامة، ولا مجال للتلاعب به ، ولا تغييره ، ولا تبديله ، ولا يُمكن تقديم الأشهُر ولا تأخيرها.

ب_ الشَّهْر الحَرَام

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الحَرَامُ بالشَّهْرِ الحَرَامِ والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

إذا قاتلكم الكافرون في الشَّهْر الحَرَام ، وهَتَكُوا حُرمته ، فقاتلوهم في الشَّهْر الحَرَام ، والحُرُمَاتُ (جَمْع حُرْمَة) ما يجب احترامه والمُحافظة عَلَيه ، إذا تَمَّ انتهاكها ، فإنَّه يُقْتَصُّ بمِثْلِها. أي : إذا انتهكَ الكافرون لكم حُرْمَةً ، فانتَهِكُوا مِنهُم حُرْمَةً مِثْلَهَا على سبيل القِصَاص ، ولَيس على سبيل الابتداء . وهذه الحُرُمَات لا تَجوز للمُؤمنين إلا قِصَاصًا ، بدون ابتداء ولا اعتداء . وَجَمَع اللَّهُ الحُرُمَاتِ ، لأنَّه أرادَ حُرْمَةَ الشَّهْر الحَرَام ، وحُرْمَةَ البلد الحَرَام ، وحُرْمَةَ الإحرام .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٢٩٥) : ((﴿ الشَّهْرُ الحَرَامُ بالشَّهْرِ الحَرَامِ ﴾ ، أي : إذا قاتلوكم في الشَّهْر الحَرَام ، وهَتَكُوا حُرْمَتَه ، قاتلتموهم في الشَّهْر الحَرَام ، مُكافأةً لهم ومُجازاةً على فِعْلهم ، ﴿ والحُرُمَاتُ ﴾ ، جَمْع حُرْمَة... . والحُرْمَة : ما مَنَعَ الشَّرْعُ مِن انتهاكه. والقِصَاص : المُساواة ، والمعنى : أنَّ كُل حُرْمَة يَجْري فِيها القِصَاص ، فَمَن هَتَكَ حُرْمَةً عَلَيكم ، فَلَكُم أن تَهْتِكُوا حُرْمَةً عَلَيه قِصَاصًا)) .

للأشهُر الحُرُم مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة في الجاهلية والإسلام . فيَحْرُم فِيها القِتالُ لأنَّ لها وَضْعًا خَاصًّا مُمَيَّزًا مُتَّفَقًا عَلَيه عَبر مراحل التاريخ . والأشهُر الحُرُم (ذُو القِعْدة وذُو الحِجَّة والمُحَرَّم ورَجَب) لها حُرْمتها المُعْتَبَرَة التي تُؤثِّر في سُلوك الناس ، ولا يُمكن تجاوز حُرْمتها إلا

لغَرَض شرعي مُعْتَمَد . وقد وضَّحت النُّصُوصُ الشرعيةُ العلاقةَ الصحيحة بين الناس والأشهُر الحُرُم في الأوضاع المختلفة . وتظهر قضيةُ القِتال في الأشهُر الحُرُم وضوابطُها وأبعادُها . وهذا موضوع حَسَّاس تَبَعًا لِحَسَاسِيَة حُرمة الأشهر الحُرُم في نُفُوس الناس ، وعلى أرض الواقع .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٠١ و٢٠٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الحَرَامُ بالشَّهْرِ الحَرَامِ ﴾ . هذه الآية نزلت على سبب ، واختلفوا فيه على قَوْلَيْن : أحدهما أنَّ النبيَّ ﷺ أقبلَ هُوَ وأصحابه مُعْتَمِرِين في ذِي القِعْدَة ومَعَهُم الهَدْي، فَصَدَّهم المُشركون، فصالحهم نبيُّ اللَّه على أن يَرجِع عَنهُم ، ثُمَّ يَعُود في العام المُقبِل ، فيَكُون بمَكَّة ثلاث ليالٍ ، ولا يَدخلها بسِلاح ، ولا يَخرُج بأحد مِن أهل مَكَّة ، فلمَّا كان العام المُقبِل أقبلَ هو وأصحابه فدخلوها ، فافتخرَ المُشركون عَلَيه إذْ رَدُّوه يَوم الحُدَيْبِيَة ، فأقَصَّه اللَّهُ مِنهُم ، وأدخله مَكَّة في الشَّهْر الذي رَدُّوه فيه ، فقال : ﴿ الشَّهْرُ الحَرَامُ بالشَّهْرِ الحَرَامِ والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ ، وإلى هذا المعنى ذَهَبَ ابن عَبَّاس ومُجاهد وعطاء وأبو العالية وقَتادة في آخرين . والثاني أنَّ مُشركي العرب قالوا للنبيِّ عليه السلام: أَنُهِيتَ عَن قِتالنا في الشَّهْر الحَرَام ؟ ، قال : " نعم " ، وأرادوا أن يُفتِّروه في الشَّهْر الحَرَام ، فيُقاتلوه فيه ، فنزلت هذه الآية . يَقول : إن اسْتَحَلُّوا مِنكُم شيئًا في الشَّهْر الحَرَام، فاسْتَحَلُّوا مِنهُم مِثْلَه ، هذا قَول الحَسَن ، واختاره إبراهيم بن السَّرِي والزَّجاج ، فأمَّا أرباب القَول الأوَّل فيَقولون: مَعنى الآية : الشَّهْر الحَرَام الذي دَخَلْتُم فيه الحَرَمَ بالشَّهْر الحَرَام الذي صَدُّوكم فيه عام أوَّل ، ﴿ والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ ، اقْتَصَصْتُ لَكُم مِنهُم في ذِي القِعْدَة كما صَدُّوكم في ذِي القِعْدَة)) .

وفي لُبَاب النُّقُول للسُّيُوطي (١/ ١٣٧) : ((عَن قَتادة قال : أقبلَ نبيُّ اللَّه ﷺ وأصحابُه مُعْتَمِرِين في ذِي القِعْدَة ، ومَعَهُم الهَدْي ، حَتَّى إذا كانوا بالحُدَيْبِيَة صَدَّهُم المُشركون ، وصالحهم النبيُّ ﷺ على أن يَرجِع مِن عامه ذلك ثُمَّ يَرجِع مِن العام المُقْبِل ، فلمَّا كان العام المُقبِل أقبلَ وأصحابُه حَتَّى دخلوا مَكَّة مُعْتَمِرِين في ذِي القِعْدَة ، فأقامَ بها ثلاث ليالٍ ، وكان المُشركون قد فَخَرُوا عَلَيه حين رَدُّوه ، فأقَصَّه اللَّهُ مِنهُم ، فأدخله مَكَّةَ في ذلك الشَّهْر الذي كانوا رَدُّوه فيه، فأنزلَ اللَّهُ : ﴿ الشَّهْرُ الحَرَامُ بالشَّهْرِ الحَرَامِ والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾)) .

أرغمَ اللَّهُ أُنُوفَ المُشركين، ورَدَّهم خائبين مَهزومين . فقد دخل النبيُّ ﷺ مَكَّةَ في نَفْس الشَّهْر (ذِي القِعْدَة) الذي رَدَّه فيه المُشركون ، لِيَكُون ذلك قِصَاصًا عادلًا. لقد اقْتَصَّ اللَّهُ للمُؤمنين مِن الكافرين ، حِيث صَدُّوهم سَنَة سِت ، فَقَضَوا العُمْرَةَ سَنَة سَبْع . وقد عَلَتْ كَلِمَةُ اللَّه تعالى على كَلِمَة المُشركين ، وتَحَقَّقَتْ عُمْرَةُ النبيِّ ﷺ في الوقت الذي اختاره اللَّهُ رَغْم أُنُوفِ المُشركين .

وفي فتح الباري (٧/ ٥٠٠) : ((قال السُّهَيلي : تَسميتها عُمرة القِصَاص أَوْلَى ، لأنَّ هذه الآية نزلت فيها . قُلتُ _ أي ابن حَجَر _ : كذا رواه ابن جرير وعَبْد بن حُمَيد بإسناد صحيح عن مُجاهد ، وبه جَزَمَ سُلَيمان التَّيمي في مَغَازيه)) .

وعن جابر بن عبد اللَّه _ رضي اللَّهُ عنهما _ قال : ((لَم يَكُنْ رسولُ اللَّه ﷺ يَغْزُو في الشَّهْرِ الحَرَامِ إلا أن يُغْزَى أوْ يُغْزَوْا)) [٤٦].

إنَّ النبيَّ ﷺ لَم يَكُن يَبدأ القِتَالَ في الشَّهْر الحَرَام . ولكن إذا اعْتُدِيَ عَلَيه بأن يُغزَى فعندئذ يُقَاتِل دِفاعًا عن النَّفْس ، ورَدًّا للعُدوان . فالشَّهْرُ الحَرَام لا ينبغي القِتال فيه إلا وَفْق اعتبارات شَرعية مُحدَّدة ومُنضبطة ، فلا تُكْسَر حُرمة الشَّهْر الحَرَام إلا لضَرورة دِينية مُعْتَبَرَة ، فالقِتالُ في الإسلام لا ينفصل عن قواعده الشَّرعية المُلزِمة ، ومَبادئه السَّامِيَة غير القابلة للتلاعب والتَّمييع .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ والمَسْجِدِ الحَرَامِ وإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ والفِتنةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ ﴾ [البقرة: ٢١٧] [٤٧].

هذا السُّؤال حَوْل القِتال في الشَّهْر الحَرَام ، يُشير إلى المكانة العظيمة للشَّهْر الحَرَام في النُّفُوس وخُطورة القِتال فيه، فالقِتالُ فيه ذَنْب عظيم مُسْتَنْكَر، لأنَّه انتهاك لحُرمة الشَّهْر المُتَعَارَف

---

٤٦ رواه أحمد في مسنده (٣/ ٣٤٥) برقم (١٤٧٥٥)، وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٠٩).

٤٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٣٧): ((وفي السائلين النبيَّ ﷺ عن ذلك قَولان : أحدهما أنهم المسلمون سألوه هل أخطؤوا أَمْ أصابوا ؟ ، قاله ابن عباس وعِكرمة ومُقاتل . والثاني أنهم المشركون سألوه على وجه العَيب على المسلمين ، قاله الحسن وعُروة ومجاهد. والشهر الحرام شهر رَجَب . وكان يُدعَى الأصَم، لأنَّه لم يكن يُسمَع فيه للسلاح قَعقعة تعظيمًا له ، ﴿ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ ، أي: يَسألونك عَن قِتال فيه، ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ . قال ابن مسعود وابن عباس: لا يَحِلُّ . قال القاضي أبو يعلى: كان أهلُ الجاهلية يعتقدون تحريمَ القِتال في هذه الأشهُر ، فأعلمهم اللَّهُ تعالى في هذه الآية ببقاء التحريم . فصل. اختلفَ العُلَمَاءُ في تحريم القِتال في الأشهُر الحُرُم هل هو باقٍ أَمْ نُسِخَ ، على قَوْلَيْن : أحدهما أنَّه باقٍ . روى ابن جُرَيج أن عطاء كان يَحلِف باللَّه ما يَحِلُّ للناس الآن أن يَغْزُوا في الحَرَم ولا في الأشهُر الحُرُم إلا أن يُقَاتَلُوا فيه أوْ يُغْزَوْا،وما نُسِخَتْ.والثاني أنَّه مَنسوخ.قال سعيد بن المسيِّب وسُلَيمان بن يَسَار:القِتال جائز في الشَّهْر الحرام، وهذه الآية مَنسوخة بقَوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا المشركينَ حَيْثُ وَجَدتمُوهُم ﴾ [التَّوبة: ٥] ، وبقَوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِاليَوْمِ الآخِرِ﴾ [التَّوبة: ٢٩].وهذا قَول فُقَهاء الأمصار.

عَلَيها في الجاهلية والإسلام على السَّوَاء . وقد كانت العَرَبُ خلال الأشهُر الحُرُم لا تُغِير على عَدُوٍّ ، ولا تَسفِك دِمَاءَ أحد ، تعظيمًا لمكانة هذه الأشهُر المُميَّزة ، فينتشر السلامُ بين القبائل في هذه الأشهُر الحُرُم ، ولا أحد يَجرؤ على استحلالها بأيِّ شكل ، ولا انتهاكها بأيَّة صُورة .

يَسْأَلُكَ أصحابُكَ يا مُحمَّد عَن القِتال في الشَّهْر الحَرَام ، هل يَجوز ذلك ؟ ، قُلْ يا مُحمَّد: القِتال في الشَّهْر الحَرَام أمر عظيم مُسْتَنْكَر ، وإثم كبير . وهذا يعني أن القِتال في الشَّهْر الحَرَام ، لا يَحِلُّ ، ولا يَجُوز . والمُراد بالشَّهْر الحَرَام الجِنْس .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٣٥٩) : ((وإنَّما قال : ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ ، لأنَّ العَرَبَ كانت لا تَقْرَع فيه الأسِنَّةَ ، فيَلقَى الرَّجُلُ قاتلَ أبيه أوْ أخيه فيه ، فلا يُهيِّجه ، تعظيمًا له ، وتُسمِّيه مُضَر الأصَم ، لسُكُون أصوات السِّلاح وقَعقعته فيه)) .

وعن جُندَب بن عبد اللَّه ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال: بَعَثَ رسولُ اللَّه ﷺ رَهْطًا ، واستعملَ عَلَيهم عُبَيدةَ بن الحارث ، فلمَّا انطلقَ لِيَتَوَجَّهَ بَكَى صَبَابَةً إلى رسول اللَّه ﷺ ، فَبَعَثَ مَكَانَه رَجُلًا يُقال له عبد اللَّه بن جَحْش ، وكَتَبَ له كِتَابًا ، وأمَرَه أن لا يَقرَأه إلا لِمَكَانِ كَذَا وكَذَا ، لا تُكْرِهَنَّ أحَدًا مِن أصحابك على المَسِير مَعَك ، فلمَّا صارَ إلى ذلك المَوضِع ، قرأ الكِتابَ واسترجع ، قال : سَمْعًا وطاعةً للَّه ورسوله ، فَرَجَعَ رَجُلٌ مِن أصحابه ، ومَضَى بَقِيَّتُهُم مَعَه ، فَلَقُوا ابنَ الحَضْرَمِيِّ ، فَقَتَلُوه ، فَلَمْ يَدْرِ ذلك مِن رَجَب ، أوْ مِن جُمَادَى الآخِرَة، فقال المُشركون: قَتَلَهُم في الشَّهْر الحَرَام. فنزلت : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [٤٨].

هذا يدلُّ على أنَّ الشَّهْر الحَرَام له حُرْمَة مُعْتَبَرَة في الجاهلية ، وأنَّ المُشركين يُؤْمنون بحُرْمته ، بدليل استنكارهم لِفِعْل القَتْل في هذا الشَّهْر الحَرَام ، واستعظامهم لهذا العَمَل . وقد نَزلت الآية لِتُؤَكِّد حُرْمة هذا الشَّهْر، وأنَّ القِتال فِيه ذَنْبٌ كبير ، وإثم عظيم، وأنَّ مكانة الشَّهْر الحَرَام لَم تتغيَّر.

لقد أرسلَ النبيُّ ﷺ هذه السَّرِيَّةَ ، وأمَّرَ عَلَيها عبد اللَّه بن جَحْش ــ رضي اللَّهُ عنه ــ ، فقاتلوا المُشركين ، وقَتلوا ابنَ الحَضْرَمِي ، في آخر يَوم مِن جُمَادَى الآخِرَة ، وقد أهَلَّ رَجَب (الشَّهْر الحَرَام) ، وهُم لا يَعْلَمُون بذلك ، ولَم يَنتبهوا إلَيه ، فاستعظمَ المُشركون القِتالَ وسَفْكَ الدِّماء في الشَّهْر الحَرَام ، وعَيَّرُوا المؤمنين باستحلاله ، وانتهاكِ حُرمته ، فنزلت الآيةُ لتوضيح الأمر ، وإزالة اللبس ، وكَشْف جرائم المُشركين .

---

٤٨ رواه البَيهقي في سُننه (٩/ ١١) برقم (١٧٥٢٣)،وصحَّحه السُّيوطي في الدُّر المنثور (١/ ٦٠٠).

﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ والمَسْجِدِ الحَرَامِ وإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴾ . ومَنْعُكُم المؤمنين عَن دِين اللَّه ، وكُفْرُكُم باللَّه تعالى ، وصَدُّكُم عن المسجد الحرام في مَكَّة ، وإخراج أهل المَسْجِد مِنْه ، يعني النبيَّ ﷺ وأصحابَه حِينَ أُخْرِجُوا مِن مَكَّة ، أكبر ذَنْبًا وأعظم إثمًا مِن القِتال في الشَّهْر الحَرَام . فإن استنكرتُم أيُّها المُشركون القِتَالَ في الشَّهْر الحَرَام ، واستعظمتُم ذلك ، فإنَّ ما اقترفتموه بحق النبيِّ ﷺ وأصحابه أعظمُ وأسْوَأ وأشد قُبْحًا .

وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٤٠) : ((ومَعنى الآية على قَول الجُمهور : إنَّكُم يا كُفَّارَ قُرَيش تستعظمون عَلَينا القِتَالَ في الشَّهْر الحَرَام ، وما تَفعلون أنتم مِن الصَّد عن سبيل اللَّه لِمَن أرادَ الإسلامَ ، ومِن كُفركم باللَّه ، وإخراجكم أهل المَسْجِد مِنه ، كما فعلتم برسول اللَّه ﷺ وأصحابه أكبر جُرْمًا عِند اللَّه)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٤٠) : ((أنزلَ اللَّهُ يُعيِّر أهلَ مَكَّة : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ ، لا يَحِلُّ ، وما صنعتُم أنتم يا مَعْشَرَ المُشركين أكبر مِن القَتل في الشَّهْر الحَرَام، حِين كَفَرْتُم باللَّه ، وصَدَدْتُم عَنه مُحمَّدًا ﷺ وأصحابه ، وإخراج أهل المسجد الحَرَام مِنه ، حِين أَخرجوا مُحَمَّدًا ﷺ وأصحابَه ، أكبر مِن القَتل عِند اللَّه . وقال العَوفي عن ابن عباس: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ ، وذلك أنَّ المُشركين صَدُّوا رسولَ اللَّه ﷺ، ورَدُّوه عن المَسْجِد في شَهْرٍ حَرَام . قال: فَفَتَحَ اللَّهُ على نَبِيِّه في شَهْرٍ حَرَام مِن العَام المُقْبِل ، فَعَابَ المشركون على رسول اللَّه ﷺ القِتَالَ في شَهْرٍ حَرَام ، فقالَ اللَّهُ: ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ والمَسْجِدِ الحَرَامِ وإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ مِن القِتال فِيه،وأنَّ مُحَمَّدًاﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً ، فَلَقُوا عَمرو بن الحَضْرَمي ، وهو مُقْبِل مِن الطائف في آخِر لَيلة مِن جُمَادَى ، وأوَّل لَيلة مِن رَجَب، وأنَّ أصحاب مُحمَّد ﷺ كانوا يَظنُّون أنَّ تِلك الليلة مِن جُمَادَى وكانت أوَّل رَجَب ، ولَم يَشعُروا ، فقتله رَجُل مِنهُم ، وأخذوا ما كان معه ، وإنَّ المُشركين أرْسَلُوا يُعيِّرونه بذلك ، فقال اللَّهُ تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ والمَسْجِدِ الحَرَامِ وإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذي أصابَ أصحابُ مُحمَّد ﷺ)) .

وقد قال عبد اللَّه بن جَحْش :

تَعُدُّون قَتْلًا في الحَرَامِ عَظِيمَةً ... وأعظمُ مِنْهُ لَوْ يَرَى الرُّشْدَ رَاشِدُ

صُدُودكم عَمَّا يَقُولُ مُحمَّد ... وكُفْرٌ بِهِ واللَّهُ رَاءٍ وشَاهِدُ

وإخراجُكُم مِن مَسْجِدِ اللَّهِ أهْلَهُ لِئَلا يُرى للَّهِ في البَيْتِ سَاجِدُ
فَإنَّا وإنْ عَيَّرْتُمُونَا بِقَتْلِهِ وأرجفَ بالإسلامِ بَاغٍ وَحَاسِدُ
سَقَيْنَا مِن ابنِ الحَضْرَمِيِّ رِمَاحَنَا بِنَخْلَةَ لَمَّا أَوْقَدَ الحَرْبَ وَاقِدُ
دَمًا وابنُ عَبْدِ اللَّهِ عُثمانُ بَيْنَنَا يُنَازِعُهُ غُلٌّ مِنَ القَيْدِ عَانِدُ

﴿ والفِتنةُ أكْبَرُ مِنَ القَتْلِ ﴾. وفِتنة المُسلم عَن دِينه حَتى يَرُدُّوه إلى الكُفر بعد إيمانه ، أعظمُ وأكبر عِند اللَّه مِنَ القَتْل ، لأنَّ الرِّدة قَتْلٌ لِرُوح المؤمن ، والقَتْل العادي إنَّما هو قَتْل للجسد ، وقَتْل الرُّوح أسْوَأ مِن قَتْل الجسد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٣٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، هُوَ مَرفوع بالابتداء ، وخَبَر هذه الأشياء ﴿ أكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، وفي المراد بِـ " سبيل اللَّه " هاهُنا قَولان : أحدهما أنَّه الحَج ، لأنَّهُم صَدُّوا رسولَ اللَّه ﷺ عَن مَكَّة ، قاله ابن عباس والسُّدي عن أشياخه . والثاني أنَّه الإسلام ، قاله مُقاتل . وفي هاء الكِناية في قَوله : ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ قَولان : أحدهما أنَّها تَرجِع إلى اللَّه تعالى ، قاله السُّدي عن أشياخه وقَتادة ومُقاتل وابن قُتَيبة . والثاني أنَّها تَعُود إلى السَّبيل ، قاله ابن عباس . قال ابن قُتَيبة : وخَفْض " المسجدِ الحرام " نَسْقًا على قَوله : ﴿ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، كأنَّه قال:وصَد عن سبيل اللَّه، وعن المسجد الحرام. قَوله تعالى: ﴿ وإخْرَاجُ أهْلِهِ مِنْهُ﴾ لَمَّا آذَوْا رسولَ اللَّه وأصحابَه اضطروهم إلى الخُروج،فكأنهم أخرجوهم،فأعلمهم اللَّهُ أنَّ هذه الأفعال أعظم مِن قَتْل كُل كافر،والفِتْنَة هاهُنا بمعنى الشِّرْك،قاله ابن عُمر وابن عباس ومُجاهد وابن جُبَير وقَتادة والجماعة . والفِتْنَة في القرآن على وُجوه كثيرة قد ذَكَرْتُها في كتاب النظائر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ولا الشَّهْرَ الحَرَامَ ﴾[المائدة: ٢].

الخِطَابُ الإلهيُّ للمؤمنين : يا أيُّها الذين صَدَّقْتُم بِوَحدانية اللَّه وأقررتم بِنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ ، لا تَستحلوا حُرُمَاتِ اللَّه، ولا تَنتهكوا مَحارمه، ولا تتجاوزوا حُدودَه، ولا تَعْصُوا أوامرَه، ولا تنتهكوا حُرمةَ الشهر الحرام بالقتال فيه. وتحريمُ شعائر اللَّه ثابتٌ إلى يَوم القِيامة ، وهي أعلام دِينه ومعالمه مِن سائر ما فَرَضَ وأوجبَ ونهى وحَرَّمَ . فلا يجوز استحلال ترك الفرائض ، ولا فِعل المُحرَّمات .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٢/ ٢٧٠):((قوله تعالى : ﴿ ولا الشهرَ الحرامَ ﴾ . قال ابن عباس:لا تُحِلُّوا القِتَالَ فِيه.وفي المُراد بالشَّهْر الحَرَام ثلاثة أقوال:أحدها أنَّه ذُو القِعْدَة، قاله عِكرمة وقَتادة . والثاني أنَّ المُراد به الأشهُر الحُرُم. قال مُقاتل:كان جُنادة بن عَوف يقوم في سُوق عُكَاظ كُل سَنَة، فيقول: إلا إنِّي قد أحللتُ كَذَا وَحَرَّمْتُ كَذَا.والثالث أنَّه رَجَب،ذَكَرَه ابن جرير الطبري)).

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَامًا للنَّاسِ والشَّهْرَ الحَرَامَ﴾[المائدة: ٩٧].

جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ المُشَرَّفة،وهي البَيت الحرام، صَلاحًا ومَعَاشًا للناس،لِقِيَام أمر دِينهم ودُنياهم، وهذا ليس غريبًا، فالكعبةُ هي سبب صلاحهم في الدُّنيا والآخرة . فالخائف يشعر بالأمان ، والضَّعيفُ يَحصُل على القُوَّة، والمُضْطَرِبُ يَنال السَّكينة . ويَأمنُ الناسُ على أنفسهم ومُمتلكاتهم .

جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ قَوَامًا للناس في أمر دِينهم ودُنياهم . فالحَجُّ والعُمرة والمناسك تُمثِّل الجانبَ الدينيَّ . أمَّا الجانب الدُّنيويُّ ، فَتُجْبَى إليها الثمرات ، ويَأمن الناسُ على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، فلا يَتعرَّض لهم أحد بِسُوء .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦٩) : ((﴿ قِيَامًا للنَّاسِ ﴾ انتعاشًا لهم ، أي : سبب انتعاشهم في أمر مَعَاشهم ومَعَادهم ، يَلُوذ به الخائف ، ويَأمن فيه الضعيف ، ويَربَح فيه التُّجار ، ويَتوجَّه إليه الحُجَّاج والعُمَّار ، أوْ ما يقوم به أمر دِينهم ودُنياهم)) .

﴿ والشَّهْرَ الحرامَ ﴾ . جَعَلَ اللَّهُ الأشهُرَ الحُرُمَ (ذا القِعْدَة ، ذا الحِجَّة ، المُحَرَّم ، رَجَب) قِيَامًا للناس ، لأمنهم القِتَال فيها . وبالتالي ، يَحفظون أرواحَهم وأموالهم . وقد ذُكِر بلفظ الجِنس.

لقد عَظَّمَ اللَّهُ حُرمةَ هذه الأشهُر ، وأثبتَ حُرمتها في قُلوب الناس ، فكانوا لا يَقتلون فيها أحدًا ، ولا يَطلبون دَمًا ، ولا يُخطِّطون لثأر ولا غارة ، ولا يَهتِكون فيها حُرمةً . وكانَ الرَّجل يَلقى قاتلَ أبيه أو أخيه في الشَّهْر الحَرَام ، فلا يَتعرَّض له ، ولا يَقترب مِنه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٣١): ((فأمَّا الشَّهْرُ الحَرَام ، فالمُراد به الأشهُر الحُرُم . كانوا يَأمَن بعضُهم بعضًا فيها ، فكان ذلك قَوَامًا لهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الذينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُم سُوءُ أعْمَالِهِم واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الكافرين ﴾ [التَّوبة : ٣٧] .

النَّسِيءُ هُوَ التَّأخير . والآيةُ تتحدَّث عَن تلاعب عَرَبِ الجاهلية بالأشهُر الحُرُم ، حيث كانوا يُؤَخِّرون الأشهُر الحُرُم إلى أشهُر الحِل ، ويَسْتَحِلُّون في الأشهُر الحُرُم القِتَالَ . فالمُحَرَّمُ شَهْرُ اللَّهِ الحَرَامُ، كانوا يُحرِّمون فِيه القِتالَ،فإذا احتاجوا إلى القِتال،حَرَّمُوا صَفَرًا بَدَلًا مِنه،وقَاتَلُوا في المُحَرَّم.

وسببُ هذا التلاعب هو أنَّ العَرَبَ كانوا عائشين على الغَزْو والغَزْو المُضَاد، فكان من الصعب عليهم أن يَظَلُّوا ثلاثة أشهُر مُتوالية (ذَا القِعْدَة ، ذَا الحِجَّة ، المُحَرَّم) بلا غَزْوٍ ولا نَهْبٍ. وكانوا يَعتقدون أن هذا التوقف عَن الغَزْو سَيُؤدِّي إلى هلاكهم ، فانبثقت فِكرةُ التلاعب بالأشهُر الحُرُم .

﴿ إنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ ﴾ . إنَّما تأخيرُ حُرمة شَهْر إلى شَهْر آخَر ، زِيادةً كُفر على كُفرهم ، لأنَّ تَحليل ما حَرَّمَه اللَّهُ ، وتَحريم ما أحَلَّه اللَّهُ ، كُفر آخَر يُضَاف إلى كُفرهم المُشتمل على تعدُّد الآلهة ، وإنكار البَعْث ، وتكذيب القُرآن والنبيِّ ﷺ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٤٤) : ((﴿ إنَّما النَّسِيءُ ﴾ ، أي : تأخير حُرمة الشَّهْر إلى شَهْر آخَر . كانوا إذا جاء شَهْرٌ حَرَام ، وهُم مُحَارِبون ، أَحَلُّوه وحَرَّمُوا مَكَانَه شَهْرًا آخَر حَتَّى رَفضوا خُصُوصَ الأشهُر ، واعتبروا مُجرَّد العَدَد ، ... . ﴿ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ ﴾ ، لأنَّه تَحريم ما أَحَلَّه اللَّهُ ، وتَحليل ما حَرَّمَه اللَّهُ ، فهو كُفر آخَر ضَمُّوه إلى كُفرهم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٣٥): ((قال اللغويون: النَّسِيءُ : تأخيرُ الشيء . وكانت العرب تُحرِّم الأشهُرَ الأربعة، وكان هذا مِمَّا تَمَسَّكَتْ به مِن مِلَّة إبراهيم ، فرُبَّما احتاجوا إلى تَحليل المُحرَّم للحَرْب تكون بَينهم ، فيُؤخِّرون تحريمَ المُحرَّم إلى صَفَر ، ثُمَّ يَحتاجون إلى تأخير صَفَر أيضًا إلى الشَّهْر الذي بَعده ، ثُمَّ تتدافع الشُّهُورُ شَهْرًا بَعد شَهْر، حَتَّى يَستدير التَّحريم على السَّنَة كُلِّها ، فكأنهم يَستنسِئون الشَّهْرَ الحرام ويَستقرضونه ، فأعلمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أن ذلك زِيادة في كُفرهم ، لأنَّهم أحَلُّوا الحَرَامَ ، وحَرَّمُوا الحَلالَ ، ﴿ لِيُوَاطِئُوا ﴾ ، أي : لِيُوَافِقُوا ﴿ عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ ، فلا يَخرُجون مِن تَحريم أربعة ، ويَقولون : هذه بمَنزلة الأربعة الحُرُم ، ولا يُبالون بتحليل الحَرَام وتَحريم الحَلال ، وكان القوم لا يَفعلون ذلك إلا في ذِي الحِجَّة إذا اجتمعت العَرَبُ للمَوْسِم . قال الفَرَّاء : كانت العَرَبُ في الجاهلية إذا أرادوا الصَّدَرَ عَن مِنى ، قام رَجُل مِن بني كِنَانة ، يُقال له : نُعَيم بن ثَعْلَبَة ، وكان رئيس المَوْسِم ، فيَقول : أنا الذي لا أُعَاب ولا أُجَاب ، ولا يُرَد لي قَضَاء ، فيقولون : أنْسِئْنا شَهْرًا ، يُريدون : أَخِّرْ عَنَّا حُرْمَةَ المُحرَّم ، واجعلها في صَفَر ، فيَفعل ذلك ، وإنَّما دعاهم إلى ذلك تَوَالي ثلاثة أشهُر حُرُم ، لا يُغِيرُون فِيها ، وإنما كان مَعَاشهم مِن الإغارة، فتَستدير الشُّهُور كما بَيَّنا. وقِيل: إنما كانوا يَسْتَحِلُّون المُحَرَّمَ عامًا، فإذا كان مِن قَابِل رَدُّوه إلى تحريمه . قال أبو عُبَيد : والتفسير الأول أحَب إليَّ، لأن هذا القَول لَيس فيه استدارة . وقال مُجاهد : كان أوَّل مَن أظهرَ النَّسِيءَ جُنَادة بن عَوف الكِنَاني ، فوافقت حَجَّةُ أبي بكر ذا القِعْدَة، ثُمَّ حَجَّ النبيُّ ﷺ في العام القَابِل في ذِي الحِجَّة، فذلك حِين قال:" ألا إنَّ الزَّمان قد استدار كَهَيئته يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ والأرضَ".وقال الكَلْبي:أوَّل مَن فَعَلَ ذلك نُعَيم بن ثَعْلَبَة)).

كان العَرَبُ في الجاهلية يتلاعبون بالأشهُر الحُرُم (التي يَحْرُم فِيها القِتَالُ) تقديمًا وتأخيرًا ، وهُم بذلك يَعْتَدُون على شَرْع اللَّه مِن أجل تحقيق رغباتهم ومصالحهم الشخصية ، فصارت ثُنائية

(التَّحليل / التَّحريم) وسيلةً لِجَنْي المنافع التي يَحصُلون عليها مِن قِتال أعدائهم. والغايةُ عِندهم تُبرِّر الوسيلةَ. وقد كانت الغايةُ والوسيلةُ فَاسِدَتَيْن . والجديرُ بالذِّكر أن العرب في الجاهلية كانوا يَنظرون إلى العقائد الدينية على أنها مشاريع تجارية تُدِرُّ عليهم أرباحًا طائلة ، فإذا وَقفت العقائدُ سَدًّا أمام طُمُوحاتهم المادية ، فعِندئذ سَوْفَ يتلاعبون بالعقائد ، ويُكيِّفونها لصالح نشاطاتهم المالية،ومراكزهم الدُّنيوية، مِن أجل تحقيق المنافع المادية،والمصالح الشخصية.إنَّهُم يُغيِّرون حُكْمَ اللَّه، كَي يُحَافِظوا على سُلطتهم وزَعامتهم ورئاستهم ومصالحهم ومُكتسباتهم المعنوية والمادية.

إنَّ الأشهُر الحُرُم عِند اللَّه أربعة: ذُو القِعْدَة ، ذُو الحِجَّة ، المُحَرَّم ، رَجَب. يَحْرُم فِيها القِتالُ، وهذا الأمرُ ثابتٌ في الجاهلية والإسلام على السَّوَاء. وقد كان العربُ في الجاهلية يُحرِّمون القِتَالَ في الأشهُر الحُرُم، لَكِنَّهم كانوا يعيشون على الغارات والغَزْو فِيما بينهم. فالاقتصادُ الجاهلي قائمٌ على أساس الإغارة على الآخرين ونَهْب ما يُمكِن نَهْبُه ، فإن احتاجوا إلى القِتال في شَهْرٍ حَرَام قاموا بتحليله والقِتال فيه ، ثُمَّ تحريم شَهْر آخَر مَكَانَه . وبِما أنَّ هُناك ثلاثة أشهُر حُرُم مُتوالية : ذُو القِعْدَة ، ذُو الحِجَّة ، المُحَرَّم ، فإنَّ هذه المُدَّة الطويلة كانت تُعيق مشاريعَ الغَزْو والنَّهْب ، وهذا يعني انهيار عائداتهم المادية مِن الغارات ، لذلك لَجَؤُوا إلى التَّحايل باختراع النَّسِيء (التلاعب بالأشهُر الحُرُم تَحليلًا وتحريمًا) ، مِمَّا يُشير إلى أنَّ المَنفعة المادية أدَّت إلى قِيام العرب بتغيير أحكام الأشهُر الحُرُم ، يعني إخضاع الشَّريعة المُتَعَارَف عَلَيها لسُلطة المَصلحة المَادية الدُّنيوية ، وهكذا صارت المصالح الشخصية والمنافع المادية دِينًا جديدًا ، وشريعةً لازمةً .

﴿ يُضَلُّ بِهِ الذينَ كَفَرُوا ﴾ . يُضَلُّ بسبب النَّسِيء الكافرون ضلالًا زائدًا على ضَلالهم القديم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٣٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ يُضَلُّ بِهِ الذينَ كَفَرُوا ﴾ ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عَمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : " يَضِل" بفَتْح الياء وكَسْر الضَّاد ، والمَعنى أنَّهم يَكتسبون الضَّلالَ به. وقرأ حمزة والكِسائي وحَفْص عن عاصم : " يُضَل " بضَم الياء وفَتْح الضَّاد، على ما لَم يُسَمَّ فاعله. وقرأ الحَسَن البَصْري ويعقوب إلا الوليد :" يُضِل" بضَم الياء وكَسْر الضَّاد ، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها يُضِلُّ اللَّهُ به، والثاني يُضِلُّ الشَّيطانُ به، ذَكَرَهما ابن القاسم. والثالث يُضِلُّ به الذين كفروا الناسَ ، لأنَّهم الذين سَنُّوه لهم. قال أبو علي: التقدير: يُضِل به الذين كفروا تابعيهم . وقال ابن القاسم : الهَاء في ﴿ بِهِ ﴾ راجعة إلى النَّسِيء ، وأصل النَّسِيء المَنسُوء ، أي : المُؤخَّر ، فيَنصرِف عَن (مَفعول) إلى (فَعِيل)، كما قِيل: مَطبوخ وطَبيخ، ومَقدور وقَدِير)) .

﴿ يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ . يُحِلُّ الكافرون الشَّهْرَ الحَرَامَ عامًا ، ويُحرِّمونه عَامًا . وهذا حَسَب الحاجة والمصلحة ، فإذا قَاتَلُوا في الشَّهْر الحَرَام أحَلُّوه ، وحَرَّمُوا مَكَانَه شَهْرًا آخَر ، وإذا لَم يُقَاتِلُوا في الشَّهْر الحَرَام ، أبْقَوْا عَلى حُرمته . ويُمكن القَول إنَّهُم إذا أحَلُّوا الشَّهْرَ الحَرَامَ عَامًا، عادوا فَحَرَّمُوه في العام القَابِل .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٥٢٢) : ((قَوله : ﴿ يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ ، الضَّمير راجع إلى النَّسِيء ، أي : يُحِلُّون النَّسِيءَ عامًا ، ويُحرِّمونه عامًا ، أوْ إلى الشَّهْر الذي يُؤخِّرونه ويُقَاتِلُون فيه . أي : يُحِلُّونه عامًا بإبداله بشَهْر آخَر مِن شُهُور الحِل ، ويُحرِّمونه عامًا ، أي: يُحافظون عَلَيه ، فلا يُحِلُّون فِيه القِتَالَ ، بَل يُبقونه عَلى حُرمته)) .

﴿ لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ . لِيُوَافِقُوا عَدَدَ الأشهُر الحُرُم الأربعة . وقد كانوا لا يُحِلُّون شَهْرًا إلا حَرَّمُوا شَهْرًا ، لتظلَّ الأشهُر الحُرُم أربعة. لقد خَالَفُوا تَخصيص الأشهُر ، وتمسَّكوا بالعدد.

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٣٦٨) : ((وإنَّما معنى الكلام : أنَّهُم يُوافِقون بِعِدَّة الشُّهُور التي يُحرِّمونها عِدَّةَ الأشهُر الأربعة التي حَرَّمَها اللَّهُ ، لا يَزِيدون عَلَيها ، ولا يُنقِصون مِنها ، وإنْ قَدَّموا وأَخَّرُوا ، فلذلك مُوَاطَأة عِدَّتِهم عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٤٣٥): ((أي: لِيُوَافِقُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فلا يَخرُجون مِن تحريم أربعة، ويقولون: هذه بمنزلة الأربعة الحُرُم. ولا يُبالون بتحليل الحرام وتحريم الحلال)).

﴿ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ . فَيَسْتَحِلُّوا بذلك ما حَرَّمَه اللَّهُ تعالى.وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٥٢٢): ((قَوله: ﴿ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ ، أي: مِن الأشهُر الحُرُم التي أبدلوها بغَيرها)) .

﴿ زُيِّنَ لَهُم سُوءُ أعْمَالِهِم ﴾ . زَيَّنَ لَهُم الشَّيطانُ أعمالَهم السَّيئة حتى اعتبروها حَسَنَةً . لقد خَذَلَهم اللَّهُ ، وأعْمَى بصائرَهم حَتَّى ظَنُّوا أعمالَهم القَبيحة جميلةً . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٤٤) : ((والمَعنى : خَذَلَهم وأضَلَّهم حَتَّى حَسِبُوا قَبِيحَ أعمالهم حَسَنًا)) .

﴿واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الكافرين﴾.واللَّهُ لا يُرشِد الكافرين إلى طريق الحَق،ولا يُوفِّقهم للإيمان.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٥٢٢) : ((أي المُصِرِّين على كُفرهم ، المُستمرين عَلَيه ، فلا يَهديهم هِدَايَةً تُوصلهم إلى المَطلوب ، وأمَّا الهِداية بمَعنى الدَّلالة على الحَق والإرشاد إلَيه ، فقد نَصَبَهَا اللَّهُ سُبحانَه لجميع عِباده)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦٩) في تفسير الآية كاملةً : ((هذا مِمَّا ذَمَّ اللَّهُ تعالى به المُشركين مِن تصرُّفهم في شَرْع اللَّه بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام اللَّه بأهوائهم الباردة ،

وتحليلهم ما حرَّم اللَّهُ ، وتحريمهم ما أَحَلَّ اللَّهُ ، فإنَّهم كان فِيهِم مِن القُوَّة الغضبية والشَّهامة والحَمِيَّة ما استطالوا به مُدَّة الأشهُر الثلاثة في التَّحريم المانع لهم مِن قَضاء أوطارهم مِن قِتال أعدائهم ، فكانوا قد أَحْدَثُوا قبل الإسلام بمُدَّة ، تَحليل المُحرَّم ، فأخَّرُوه إلى صَفَر ، فَيُحِلُّون الشَّهْرَ الحرام ، ويُحرِّمون الشَّهْرَ الحلال ، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حرَّم اللَّهُ الأشهر الأربعة ، كما قال شاعرهم ، وهو عُمَير بن قَيس ، المَعروف بِجِذْل الطِّعَان :

لَقَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ بأنَّ قَوْمي ... كِرَامُ الناسِ إنَّ لهم كِرَاما
ألَسْنَا النَّاسئين على مَعَد ... شُهُورَ الحِلِّ نَجعلها حَرَاما
فأيُّ الناسِ لَم نُدْرِكْ بِوِتْرٍ ... وأيُّ الناسِ لَم نُعْلِكْ لِجَاما

وقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قَوله : ﴿ إنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ ﴾ ، قال : النَّسِيءُ أنَّ جُنَادة بن عَوف بن أُمَيَّة الكِنَاني، كان يُوَافي المَوْسِمَ في كُل عام، وكان يُكْنَى أبا ثُمَامَة، فيُنادي : ألا إنَّ أبا ثُمَامَة لا يُجَاب ، ولا يُعَاب ، ألا وإنَّ صَفَر العام الأول العامَ حَلال ، فيُحِلُّه للناس، فيُحرِّم صَفَرًا عامًا، ويُحرِّم المُحرَّم عامًا، فذلك قَول اللَّه: ﴿ إنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ ﴾ يقول : يَتركون المُحرَّم عامًا ، وعامًا يُحرِّمونه . وروى العَوفي عن ابن عباس نَحْوَه . وقال ليث ابن أبي سُلَيم عن مُجاهد : كان رَجُل مِن بَني كِنَانة يأتي كُلَّ عام إلى المَوْسِم على حِمَار له ، فيقول : يا أيُّها الناس : إنِّي لا أُعَاب ، ولا أُجَاب ، ولا مَرَد لِمَا أقُول ، إنَّا قد حَرَّمْنَا المُحرَّم ، وأخَّرْنا صَفَر ، ثُمَّ يجيء العام المُقبِل بَعْدَه ، فيَقول مِثْلَ مَقَالته ، ويَقول : إنَّا قد حَرَّمْنا صَفَر ، وأخَّرْنا المُحرَّم ، فهو قَوله : ﴿ لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ . قال : يعني الأربعة ، فَيُحِلُّوا ما حرَّم اللَّهُ ، لتأخير هذا الشَّهْر الحَرَام . ورُوِيَ عن أبي وائل والضَّحاك وقَتادة نَحْو هذا . ... إلخ)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال عن أهل الجاهلية:((ويَجعلون المُحَرَّمَ صَفَرًا)) [٤٩].

كانوا في الجاهلية يَجعلون الشَّهْرَ الحرام صَفَرًا بَدَل المُحرَّم ، لِكَيلا تتوالى عَلَيهم ثلاثة أشهُر حُرُم (ذُو القِعْدَة ، وذُو الحِجَّة ، والمُحرَّم) ، وهُم مَمنوعون مِن القِتال ، فاخترعوا هذه الحِيلة لتحقيق مصالحهم الشخصية ، ولئلا يَخسَروا أرباحَهم المادية التي يَحصُلون عَلَيها مِن الغارات .

---

٤٩ متفق عليه . البخاري (٢/ ٥٦٧) برقم (١٤٨٩) ، ومسلم (٢/ ٩٠٩) برقم (١٢٤٠) .

وقد كان أهلُ الجاهلية مُؤمنين بالأشهُر الحُرُم، ومُتَمَسِّكين بحُرمتها ومكانتها الجليلة ، وتحريم القِتال فِيها . لكنَّ الغَزْوَ ـ الذي كان مَوْرِدًا اقتصاديًّا أساسيًّا ـ جَعَلَهم يَتلاعبون بالأشهُر الحُرُم تقديمًا وتأخيرًا ، وذلك لِكَي يَخرُجوا مِن الحَرَج وإثمِ القِتال في الشَّهْر الحَرَام ، وَفْق تفكيرهم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ٢٢٥) : ((قال العُلَماء : المُراد الإخبار عن النَّسِيء الذي كانوا يَفعلونه ، وكانوا يُسَمُّون المُحَرَّمَ صَفَرًا ، ويُحِلُّونه ، ويُنسِئون المُحَرَّمَ ، أي : يُؤخِّرون تحريمَه إلى ما بَعْد صَفَر لِئَلا يتوالى عَلَيهم ثلاثة أشهُر مُحرَّمة تَضِيق عليهم أُمُورُهم مِن الغارة وغَيرها، فأضَلَّهم اللَّهُ تعالى في ذلك فقال تعالى: ﴿ إنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ ﴾ الآية)).

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٢٥) : ((وكانوا في الجاهلية على أنحاء، مِنهم مَن يُسمِّي المُحرَّم صَفَرًا فَيُحِلُّ فِيه القِتَالَ ، ويُحرِّم القِتَالَ في صَفَر ، ويُسَمِّيه المُحرَّم . ومِنهُم مَن كان يَجعل ذلك سَنَة هَكَذا ، وسَنَة هَكَذا ، ومِنهُم مَن يَجعله سَنَتَيْن هَكَذا ، وسَنَتَيْن هَكَذا ، ومِنهُم مَن يُؤَخِّر صَفَرًا إلى ربيع الأوَّل ، وربيعًا إلى ما يَلِيه ، وهكذا إلى أن يَصِير شَوَّال ذا القِعْدَة ، وذُو القِعْدَة ذا الحِجَّة ، ثُمَّ يَعود ، فَيُعيد العَدَد على الأصل)) .

وفي الدُّر المَنثور (٣/ ٢٠٢) : ((عن ابن زَيد قال : كان الناس كُلُّهم فِيهِم مُلُوك يَدفع بعضُهم عن بعض ، ولم يكن في العرب مُلُوك يَدفع بعضُهم عن بعض ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُم البَيْتَ الحَرَام قِيَامًا يَدفع بعضُهم عن بعض به ، والشَّهْر الحَرَام كذلك ، يَدفع اللَّهُ بعضَهم عن بعض بالأشهُر الحُرُم ، ويَلقَى الرَّجُلُ قاتلَ أبيه أو ابنِ عَمِّه ، فلا يَعْرِض له)) .

ج ـ الأشهُر المَعْلُومات

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الحَجُّ أشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وَقْتُ الحَجِّ أشهُرٌ مَعْلُومَات، أي: مَعروفة عِند الناس، واضحة ومُوقَّتة ومُعيَّنة ، لا لَبْسَ فيها . وهذا مُؤشِّر على وُضُوح مَوَاعيد العِبادات بلا غُمُوض أوْ تَعقيد . وقد انقسمَ العُلَماء إلى فَرِيقَيْن: الأوَّل يَرى أنَّ الحَجَّ هو حَج أشهُر مَعلومات، فالإحرامُ بالحَج في هذه الأشهُر أفضل مِمَّا سِواها مَعَ صِحَّة الإحرام في جميع السَّنة . ودَليلهم قَوله تعالى : ﴿ يسألونكَ عن الأهِلَّة قُل هي مواقيت للناس والحج ﴾، والفريق الآخَر يَرى عدم صِحَّة الإحرام بالحَج إلا في أشهُره المُحدَّدة، ودَليلهم قَوله تعالى: ﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾ ، أي إنَّ هناك أشهُرًا تَمَّ تخصيصها للحَج دُون سائر السَّنة.

وعن ابن عُمر_ رضي اللَّهُ عنهما_: ﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾، قال: ((شَوَّال، وذُو القِعْدَة ، وعَشْرٌ مِن ذِي الحِجَّة)) [٥٠].

وَضَّحَ اللَّهُ الفَرْقَ بين الحَج والعُمرة ، والاختلاف بينهما في الوقت والموعد . فجميعُ أشهر السَّنة هي وقت للعُمرة والإحرام بِها. أمَّا الحجُّ فلا يكون في غَير هذه الأشهُر . واللَّهُ لَم يَذكُر أشهُر الحَج في القُرآن ، لأنها كانت معلومة عندهم ، ومعروفة لَدَيهم ، ولا غُموض فيها .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٩) : ((اختلف أهل العربية في قَوله : ﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾ . فقال بعضُهم : تقديره: الحَج حَج أشهر معلومات ، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحَج فيها أكمل مِن الإحرام فِيما عَدَاها ، وإنْ كان ذاك صحيحًا . والقَول بِصِحَّة الإحرام بالحَج في جميع السَّنة مذهب مالك وأبي حَنيفة وأحمد بن حنبل وإسحاق بن رَاهَوَيْه ، وبه يقول إبراهيم النَّخَعي والثَّوري والليث بن سعد. واحتجَّ لهم بقوله تعالى: ﴿ يسألونكَ عن الأهِلَّة قُل هي مواقيت للناس والحج ﴾ ، وبأنه أحد النُّسُكَيْن، فَصَحَّ الإحرام به في جميع السَّنة كالعُمرة. وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه لا يَصِح الإحرام بالحَج إلا في أشهُره ، فَلَوْ أحرمَ بِه قَبلها لَم يَنعقد إحرامه به . وهل يَنعقد عُمرة؟ فِيه قَولان عنه. والقول بأنه لا يَصِح الإحرام بالحَج إلا في أشهُره مَرْوِيٌّ عن ابن عباس وجابر ، وبه يقول عطاء وطاووس ومُجاهد رحمهم اللَّهُ . والدليل عليه قَوله : ﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾ ، وظاهره التقدير الآخَر الذي ذهب إليه النُّحاة ، وهو أن وَقت الحَج أشهُر مَعلومات، فخصَّصه بها مِن بَين سائر شُهُور السَّنة ، فدلَّ على أنه لا يَصِح قَبلها كَمِيقات الصلاة)) .

وعن ابن عباس قال : ((لا يُحْرِمُ بالحَج إلا في أشهُر الحَج ، فإنَّ مِن سُنَّة الحَج أن يُحْرِمَ بالحَج في أشهُر الحَج)) [٥١].

هذا الحَديثُ المَوقوف له حُكم المَرفوع ، لأن قول الصحابي : " مِن السُّنَّة كذا " له حُكم المَرفوع إلى النبيِّ ﷺ . ولا يَخفى أن ابن عباس هو حَبْر الأُمَّة وتُرجمان القُرآن وأعظم مُفسِّريه .

وعن عبد اللَّه بن مسعود قال : ((الحَجُّ أشهُرٌ مَعْلُومات ، لَيْسَ فِيها عُمرة)) [٥٢] .

---

٥٠ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٠٣) برقم (٣٠٩٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٥١ رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٦١٦) برقم (١٦٤٢) وصحَّحه، وابن خُزَيمة في صحيحه(٤/ ١٦٢) برقم (٢٥٩٦) . وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٩) .

٥٢ رواه البَيهقي في سُننه (٥/ ٢٢) . وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٩) .

وفي تفسير ابن كثير (١/ ٣١٩) : ((قال ابن جرير : وإنَّما أراد مَن ذَهَبَ إلى أن أشهُر الحَج شَوَّال وذُو القِعْدَة وذو الحِجَّة أنَّ هذه الأشهُر لَيست أشهُر العُمرة، إنَّما هي للحَج ، وإن كان عمل الحَج قد انقضى بانقضاء أيام مِنى ، كما قال مُحمَّد بن سيرين : ما أحد مِن أهل العِلم يَشُكُّ في أنَّ عُمرة في غَير أشهُر الحَج أفضل مِن عُمرة في أشهُر الحَج . وقال ابن عَون : سألتُ القاسم بن مُحمَّد عن العُمرة في أشهُر الحَج ، فقال : كانوا لا يَرَوْنَها تامَّة (قلتُ) وقد ثبت عن عُمر وعُثمان ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ أنَّهما كان يُحِبَّان الاعتمار في غَير أشهُر الحَج ، ويَنهيان عَن ذلك في أشهُر الحَج ، واللَّهُ أعلم)) .

دــ شَهْر رَمَضَان

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدًى للناسِ وبَيِّناتٍ مِنَ الهُدى والفُرقانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كانَ مَرِيضًا أوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى مَا هَدَاكُم ولعلكم تَشْكُرُون ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

شَرَّفَ اللَّهُ شَهْرَ رَمَضَان ، وذلك بأن أنزلَ فِيه القرآنَ أعظمَ الكُتُب السَّماوية لِهداية الناس بما فيه مِن الإعجاز الباهر ، والحُجَج الساطعة ، والأخبار الصادقة ، والأحكام الجليلة التي تَدحض الباطلَ، وتُبْرِز الحَقَّ. وهذا يدل على عَظَمَة شَهْر رَمَضَان، وتَمَيُّزه عن باقي الشُّهُور. وقد نَزَلَ القُرآنُ جُملةً واحدةً إلى بَيت العِزَّة في السَّماء الدُّنيا ، ثُمَّ نَزَلَ مُفَرَّقًا حَسَبَ الأحداث والوقائع على النبيِّ ﷺ .

والشَّهْرُ مُشْتَقٌّ مِنَ الإشهار ، فهو مُشْتَهِرٌ يَعْلَمُه كُلُّ الناس ، ولا يَخفَى على أحد . أمَّا رَمَضَان فمَأخوذ مِنَ الرَّمضاء (الحِجارة المُحَمَّاة) ، وقد كانوا يَصومونه في الحَرِّ الشديد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٨٧) : ((ويُقال : شَهْر رَمَضَان مِن شِدَّة الحَرِّ ، لأنَّهم لَمَّا نَقلوا أسماء الشُّهور عن اللغة القديمة سَمَّوْها بالأزمنة التي وَقَعَتْ فِيها ، فوافقَ هذا الشَّهْرُ أيامَ رَمَضِ الحَرِّ (شِدَّته)، ويُجْمَع على رَمَضَانات وأرْمِضاء وأرْمِضة)) .

وسُمِّيَ القُرآنُ قُرآنًا لأنه يَجمع السُّوَرَ والآياتِ وما فِيها من الثواب والعِقاب ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، وأخبار الأمم الغابرة ، وأحوال الدُّنيا والآخِرة .

وعن وَاثِلة بن الأسْقَع أن رسول اللَّه ﷺ قال : ((أُنزِلَتْ صُحُفُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ في أوَّل لَيْلةٍ مِن رَمَضَان،وأُنزِلت التَّوراةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِن رَمَضَان، والإنجيلُ لِثَلاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِن رَمَضَان، وأُنزِلَ الفُرقانُ لأرْبَعٍ وعِشرينَ خَلَتْ مِن رَمَضَان)) [٥٣].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٨٧) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ الذي أُنزِلَ فِيهِ القُرآنُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه أُنزِلَ القرآنُ فيه جُملةً واحدةً ، وذلك في لَيْلة القَدْر إلى بَيْت العِزَّة مِنَ السماء الدُّنيا ، قاله ابن عباس . والثاني أن معناه أنَّه أُنزِلَ القُرآنُ بِفَرْضِ صِيامه ، رُوِيَ عن مُجاهد والضَّحاك . والثالث أنَّ معناه أنَّ القُرآن ابْتُدِئَ بِنُزوله فيه على النبيِّ ﷺ ، قاله ابن إسحاق وأبو سليمان الدمشقي)) .

﴿ وبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى والفُرقانِ ﴾ . ودَلائل وبَرَاهين وحُجَج تدلُّ على وَحدانية اللَّه ، وصِدْق القُرآن ، تَهْدي إلى طريق الحَق والرَّشاد ، وتُفرِّق بين الحلال والحرام . وهذا مدحٌ إلهيٌّ للقُرآن ، فهو ﴿ هُدًى للناسِ ﴾ مِن الضَّلال والانحراف ، ﴿ وبَيِّناتٍ مِنَ الهُدى ﴾ ودَلالات واضحة مِن الحلال والحرام والحدود والأحكام ، ﴿ والفُرقانِ ﴾ أي : الفارق بين الحق والباطل . ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ . فَمَن شَهِدَ شَهْرَ رَمَضَان وهو مُقيم وصحيح في بَدَنه ، فيجب عَلَيه الصَّوم . ومَن شَهِدَه في السَّفَر ، فهو مُخيَّر ، إمَّا أن يَصُوم ، وإمَّا أن يُفْطِر . ووَضْعُ المُظْهَر ﴿ الشَّهْرَ ﴾ مَوضِع المُضْمَر لتعظيم شَهْر رَمَضَان ، وتَفخيمه ، والمُبَالَغَة في البَيَان .

﴿ وَمَن كانَ مَرِيضًا أوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيَّامٍ أُخَرَ ﴾ . ومَن كان مريضًا أو مُسافرًا، فليُفطِر ، وعليه قضاء الأيام التي أفطرَ فيها في غَير أيام مرضه وسَفَره . وتَمَّت إعادة هذا الكلام ، لبيان أن هذا الحُكم ثابت في الناسخ ثُبوته في المنسوخ . ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾ . لقد رخَّص اللَّهُ لكم في الإفطار في حَالَتَي المرض والسَّفَر ــ معَ وُجُوب الصَّوم على المُقيم الصحيح ــ رحمةً بكم ، ورَفْعًا للحَرَج، وإزالةً للمَشَقَّة والتَّعَب. واليُسْر هو إباحة الفِطْر في المَرَض والسَّفَر . ولَم يُشدِّد ، ولَم يُضيِّق عليكم . والشَّريعةُ الإسلاميةُ قائمة على الوسطية والتيسير والتسهيل ، بلا إفراط ولا تفريط .

---

٥٣ رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٠٧) برقم (١٧٠٢٥) . وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٤٦٥): ((رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه عِمران بن داود القَطَّان ، ضَعَّفَه يحيى ، ووَثَّقه ابن حِبَّان، وقال أحمد : أرجو أن يكون صالح الحديث . وبَقِيَّة رِجاله ثِقات)) .

﴿ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ ﴾ . وَلِتُكْمِلُوا عِدَّةَ ما أفطرتم بالقضاء عِند الشفاء (زوال المرض) والإقامة (زوال السَّفَر) . ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى مَا هَدَاكُم ﴾. يعني التَّكبير لَيلة الفِطْر إذا رُئِيَ هلال شَوَّال.وهو تعظيم اللَّه على ما أرشدكم مِن الأحكام وشرائع الدِّين . ﴿ ولعلكم تَشْكُرُون ﴾ .ولعلكم تَشكُرون اللَّهَ على نِعَمه الجليلة وآلائه الكثيرة . والشُّكر هو الطاعة .

إنَّ إكمال العِدَّة إنَّما يكون بصِيام شَهْر رَمَضَان كاملًا . وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال : ((صُوموا لرؤيته ، وأفطِروا لرؤيته ، فإن غُبِّيَ عَلَيكم ، فأكْمِلُوا عِدَّةَ شَعبانَ ثلاثين)) [٥٤].

إذا أُخْفِيَ هِلال شَعبان بسبب الغُيُوم ، أوْ عدم وُضوح الرؤية ، فيتم إكمال عِدَّة شَعبان ، وهي ثلاثون يَوْمًا . وصَوْمُ يَوم الشَّك (ثلاثين شَعبان) مَنْهِيٌّ عَنه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٩٠) : ((قَوله ﷺ : (صُوموا لرؤيته ، وأفطِروا لرؤيته) . المراد رؤية بعض المسلمين ، ولا يُشترَط رؤية كُل إنسان ، بل يكفي جميع الناس رؤية عَدْلَيْن ، وكذا عَدْل على الأصح ، هذا في الصَّوم ، وأمَّا الفِطر فلا يَجوز بشَهادة عَدْل واحد على هِلال شَوَّال عِند جميع العلماء ، إلا أبا ثَوْر ، فَجَوَّزه بِعَدْل)) .

وبَعد إكمال صِيام شَهْر رَمَضَان كاملًا ، يأتي التَّكبير ، فعلى المؤمن أن يُعظِّم اللَّهَ لأنَّه أرشده إلى الهُدى والحَق ، ووفَّقه لصَوم شَهْر رَمَضَان ، وخَصَّ الأُمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية بهذا الشَّهْر دُون سائر الأمم وأصحاب المِلَل . والمقصود بالتَّكبير هو تعظيم اللَّه بالحَمد والثَّناء عَلَيه .

إن المؤمن يُعظِّم اللَّهَ ويَحمَده ويَشكُره ، لأنَّه وفَّقه إلى صِيام شَهْر رَمَضَان ، وأعانه عَلَيه . وقد كان السَّلَف الصالح يُكبِّرون اللَّهَ تعالى مِن ثبوت هِلال الفِطْر ، وهو هِلال شَوَّال إلى انقضاء أيام العيد . والتَّكبيرُ هو تعظيم اللَّه وإجلاله وتَنْزيهه عن النَّقَائص والعُيُوب .

وعِبارة " اللَّه أكبر " تعني أن اللَّه أكبر مِن كُل كبير ، وأعظم مِن كُل عظيم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٨٧و١٨٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ أي: مَن كان حاضرًا غَير مُسافر . فإن قِيل : ما الفائدة في إعادة ذِكر المرض والسَّفَر في هذه الآية ، وقد تقدَّمَ ذلك ، قِيل : لأن في الآية المُتقدِّمة مَنسوخًا، فأعاده لئلا يكون مَقرونًا بالمَنسوخ ... . قَوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ ﴾ . قال ابن عباس ومُجاهد وقَتادة

---

٥٤ متفق عليه . واللفظ للبخاري (٢/ ٦٧٤) برقم (١٨١٠). ومسلم (٢/ ٧٦٢) برقم (١٠٨١) . [غُبِّيَ : مِن الغَبَاوة ، وهي عدم الفِطنة ، وهو استعارة لخفاء الهِلال وعدم ظُهوره] .

والضَّحاك : اليُسر الإفطار في السَّفَر ، والعُسر الصَّوم فِيه . وقال عُمر بن عبد العزيز : أيُّ ذلك كان أيسر عليك فافعلْ ، الصَّوم في السَّفَر أو الفِطْر . قَوله تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ ﴾ ... . وقال ابن عباس : وَلِتُكْمِلُوا عِدَّةَ ما أفطرتم . وقال بعضُهم : المُراد به : لا تزيدوا على ما افْتُرِض كما فعلت النَّصارى ، ولا تَنقلوه عن زمانه كما نقلته ، ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى مَا هَدَاكُم ﴾ . قال ابن عباس : حَق على المسلمين إذا نظروا إلى هِلال شَوَّال أن يُكبِّروا اللَّهَ ، حتى يَفْرُغُوا مِن عِيدهم . فإن قِيل : ما وجه دُخول الواو في قَوله : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ ﴾، وليس هناك ما يُعطَف عليه ، فالجواب أن هذه الواو عطفت اللام التي بعدها على لام محذوفة ، والمعنى : ولا يُريد بكم العُسر لِيُسعدكم وَلِتُكْمِلوا العِدَّة ، فَحُذِفَت اللام الأُولَى لِوُضوح مَعناها . ذَكَرَه ابن الأنباري . ومِن السُّنَّة إظهار التَّكبير لَيلة الفِطْر ولَيلة النَّحْر ، وإذا غَدَوْا إلى المُصَلَّى)) .

هـ _ اليَوم عِند اللَّه

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ [الحَج : ٤٧] .

ويَستعجلك يا مُحمَّد مُشركو قَومك بالعَذاب في الدُّنيا سُخريةً واستهزاءً . وهؤلاء الكُفَّار الجاحدون لِوَحدانية اللَّه ، والمُكذِّبون بِنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ ، لا يَعرِفون عَظَمَةَ اللَّه ، ولا يُدرِكون سُنَنَه الكَونية ، لذلك يُكذِّبون بعذاب اللَّه ويُنكِرون مَجيئه ، ويَستعجلون به جَهْلًا مِنهُم ، وسُخريةً مِن النبيِّ ﷺ ، وتعجيزًا له _ وَفْقَ تفكيرهم القاصر_ ، واستهزاءً بالوعد الإلهيِّ الحق .

وقد رَحِمَهم اللَّهُ بأن أمهلهم ، وأعطاهم الفُرصة تِلْو الفرصة ، ولَم يُعاجلهم بالعقوبة والعذاب . ولكنَّهم _ لكُفرهم وجَهلهم وعِنادهم _ اعتبروا المُهْلَةَ إخلافًا للوَعد . وهذا العَذابُ حَق لا شَك فيه ، وواقع لا مَحَالة في الوقت الذي يُريده اللَّهُ ، وليس في الوقت الذي يُريده الناس.ولَن يُخلِف اللَّهُ وَعْدَه الذي وَعَدَك فيهم يا مُحمَّد مِن إهلاكهم وتعذيبهم. وهذا تأكيدٌ للوعد ، ووعيدٌ شديد وتخويف لهم . وقد قَتلهم اللَّهُ يَوم بَدْر . ومَصيرهم الخُلود في النار يوم القيامة . وهذا يدل على أن إنكار الكافرين للعذاب الإلهيِّ باطلٌ ، وأن سُوء تقديرهم للأمور قادهم إلى الهلاك والعذاب .

والمَعنى العام : كيف تَستعجلون بالعذاب سُخريةً واستهزاءً وتُنكِرونه أشدَّ الإنكار ، والوعدُ الإلهيُّ واقعٌ حَتْمًا ، لا يَتأخَّر عَن وَقته ولا يَتَخَلَّف ؟. إن اللَّه لا يُغيِّر كلامَه ، ولا يُخْلِف وَعْدَه.

والشَّوَاهِدُ التاريخيةُ على أرض الواقع تدلُّ على ذلك . ولا بُد مِن أخذ الدُّروس والعِبَر مِن الأُمَم السابقة التي كَفَرَتْ باللَّه، وكَذَّبت رُسُلَه، واستعجلتْ بالعذاب الإلهيِّ سُخريةً واستهزاءً ، وقد جاءها العَذاب في الوَقت المُحدَّد بلا تقديم ولا تأخير . فتمَّ استئصالهم عن بَكرة أبيهم ، ودفعوا ثمن كُفرهم وضلالهم وسُخريتهم وعنادهم . فلا بُد أن يستفيد كفار مكة من دراسة أحوال الأمم الكافرة الهالكة ، لئلا يُكرِّروا أخطاءهم ، ويَسيروا بأرجلهم إلى الهَلاك الشامل والعذاب الأبديِّ .

وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٦) : ((قال الأصمعي : كنتُ عند أبي عمرو بن العلاء ، فجاءه عمرو بن عُبَيد فقال : يا أبا عمرو، هل يُخْلِف اللَّهُ المِيعادَ ؟، فقال : لا . فذكر آية وعيد ، فقال له : أَمِنَ العَجَم أنتَ ؟ ، إنَّ العرب تَعُدُّ الرُّجُوعَ عن الوَعْد لُؤمًا ، وعَن الإيعاد كَرَمًا ، أمَا سَمِعْتَ قَول الشاعر : لا يرهبُ ابنُ العَم والجَار سَطْوتي ... ولا أنثني مِن سَطْوَةِ المُتَهَدِّدِ ... فإنِّي وإنْ أوْعَدْتُهُ أوْ وَعَدْتُهُ ... لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي)) .

ووقوعُ العذاب الإلهيِّ له وقت يُحدِّده اللَّهُ ، ويختاره وَفْق عِلْمه السابق وإرادته النافذة، وحِكمته البالغة، والناس لا علاقة لهم بالأمر ، لأن تفكيرهم قاصر ومحدود . واللَّهُ هو مُدبِّر شُؤون خَلْقه ، المُهَيْمِن على الوُجود بكل ما فيه . مَشيئته نافذة في كُل شيء ، ولا يُعجِزه شيء .

واللَّهُ لا يَعْجَل لِعَجَلة أحد ، ولا يستفزُّه كُفر الكافرين ولا معاصي خَلْقه ، وهو يُمْلي للظالم ، ويُمْهِل ولا يُهْمِل ، فهو الصَّبُور الحَلِيم . واليَوم مِن أيَّام الآخِرة كألف سَنَة في الدُّنيا ، أي : مِقدار ألف سَنَة عِند الناس كيَوم واحد عِند اللَّه تعالى. وهذا يُشير إلى حِلْم اللَّه وصَبره ، ورحمته بِخَلْقه ، حيث أمهلهم ، وأجَّلهم ، وهو القادر على الانتقام مِنهم . فلا معنى لاستعجالهم بالعذاب . فالمخلوقُ لا يُعجِز الخالقَ . والآيةُ تدل على قِصَر نظر الكافرين وجهلهم وعنادهم وسُخريتهم ، وضِيقهم الشديد ، وقلقهم المستمر ، وانعدام صبرهم . ولا يوجد عاقل يتمنَّى العذاب ويَستعجله.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٣٩): ((قَوله تعالى : ﴿ ويَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذابِ ﴾ . قال مُقاتل : نزلت في النَّضْر بن الحارث القُرَشي، وقال غَيره : هو قَولهم له : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [المُلْك : ٢٥] ، ونَحْوه من استعجالهم ، ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ في إنزال العذاب بِهم في الدنيا ، فأنزله بهم يَوم بَدْر ﴿ وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي:مِن أيام الآخِرة ﴿ كألفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ مِن أيَّام الدُّنيا ... . فإنْ قِيل : كيف انصرفَ الكلام مِن ذِكْر العذاب إلى قَوله : ﴿ وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ ﴾ فعنه جوابان: أحدهما أنهم استعجلوا العذاب في الدُّنيا ، فَقِيل لهم : لن يُخلِف اللَّهُ وَعْدَه في إنزال العذاب بكم في الدُّنيا، وإن يَوْمًا مِن أيَّام عَذابكم في الآخِرة كألف سَنَة مِن سِنِيِّ الدُّنيا ،

فكيف تستعجلون بالعذاب ؟، فقد تضمَّنت الآيةُ وَعْدَهم بعذاب الدُّنيا والآخِرة ، هذا قَول الفَرَّاء. والثاني : وإنَّ يَوْمًا عِند اللَّه وألفَ سَنَة سَوَاء في قُدرته على عذابهم ، فلا فَرْق بَين وُقُوع ما يَستعجلونه وبين تأخيره ، في القُدرة ، إلا أنَّ اللَّه تَفَضَّلَ عَلَيهم بالإمهال، هذا قَول الزَّجاج)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ [السَّجْدة : ٥] [٥٥].

يُدبِّر اللَّهُ شُؤونَ الخلائق ، ويُحْكِم الأمرَ ، ويُنزِّل القَضَاءَ والقَدَرَ مِنَ السَّماء إلى الأرض مُدَّةَ أيَّام الدُّنيا ، ثُمَّ يَصْعَد الأمرُ والتَّدبيرُ إلى اللَّه بعد زوال الدُّنيا ، لِيَحْكُمَ ويَفصِل فِيه ، في يَومٍ عظيم (يَوم القِيامة) طُوله ألف سَنَة مِن أيام الدُّنيا ، وهذا يدلُّ على صُعوبته وشِدَّته وهَوله . والكافرُ هو الذي يُعاني مِن شِدَّة أهواله ، أمَّا المؤمن فيكون خفيفًا عَلَيه . والجديرُ بالذِّكر أن مَا بَين السَّماء والأرض خمسمائة عام ، فتكون الألف سَنَة عِبارة عن النُّزول من السماء إلى الأرض ، والصُّعود مِن الأرض إلى السماء. وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ٢٨٩): ((﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ ، أي : أمر الدُّنيا ﴿ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ ﴾ إلى أن تَقوم السَّاعة ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ ﴾ ذلك الأمر كُلُّه، أي: يَصِير إلَيه لِيَحْكُم فِيه ، ﴿ في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ، وهو يَوم القِيامة ﴿ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ مِن أيَّام الدُّنيا . ولا تَمَسُّك للمُشبِّهة بقَوله : ﴿ إلَيْهِ ﴾ في إثبات الجِهَة ، لأنَّ مَعناه : إلى حَيث يَرضاه أوْ أمره ، كَمَا لا تَشَبُّث لهم بقَوله : ﴿ إنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي ﴾ [الصَّافَّات : ٩٩] . ﴿ إنِّي مُهَاجِرٌ إلى رَبِّي ﴾ [العَنكبوت : ٢٦] . ﴿ ومَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللَّه ﴾ [النِّسَاء : ١٠٠])) .

---

٥٥ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٣٣و٣٣٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ ﴾ ، في معنى الآية قَولان : أحدهما يَقضي القَضَاءَ مِن السَّماء فيُنزِّله مَعَ الملائكة إلى الأرض ،﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ ﴾ الْمَلَكُ ﴿ إلَيْهِ في يَوْمٍ ﴾ مِن أيَّام الدُّنيا ، فيَكُون الْمَلَكُ قد قَطَعَ في يَوم واحد مِن أيَّام الدُّنيا في نُزُوله وصُعُوده مَسافة ألف سَنَة مِن مسيرة الآدميِّ . والثاني يُدبِّر أمرَ الدُّنيا مُدَّةَ أيَّام الدُّنيا ، فيُنزِّل القَضَاءَ والقَدَرَ مِن السماء إلى الأرض ، ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ ﴾ ، أي : يَعُود إلَيه الأمرُ والتَّدبيرُ حِين يَنقطع أمرُ الأُمَراء وأحكام الحُكَّام ، وينفرد اللَّهُ تعالى بالأمر ﴿ في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ، وذلك في يَوم القِيامة، لأنَّ كُل يَوم مِن أيَّام الآخِرة كألف سَنَة. وقال مُجاهد: يَقضي أمرَ ألف سَنَة في يوم واحد، ثُمَّ يُلقيه إلى الملائكة ، فإذا مَضَتْ قَضَى لألف سَنَة أُخرى ، ثُمَّ كذلك أبدًا . وللمُفسِّرين في الْمُراد بالأمر ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه الوَحْي ، قاله السُّدي . والثاني القَضَاء ، قاله مُقاتل . والثالث أمر الدُّنيا)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ ألْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ ، قال : ((مِنَ الأيَّام السِّتة التي خَلَقَ اللَّهُ فِيها السَّمَاواتِ والأرضَ ، ثُمَّ يَعرُج إلَيه)) [٥٦] .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ ﴾ [المَعَارِج : ٤] .

تَصعَد المَلائكةُ وجِبريلُ أمينُ الوَحْي إلى اللَّه ، في يَوم طُوله خَمسون ألف سنة مِن سَنوات الدُّنيا التي يتعامل بها الناسُ.وهو مِقدار يَوم القِيامة،مِن وَقت البَعْث إلى أن يَفصِل اللَّهُ بين الخَلْق.

والآيةُ تدل على عَظَمَة اللَّه وقُدرته المُطْلَقَة ، وسَيطرته على الزمان والمكان ، اللذَيْن يتحكَّم بهما كما يُريد ، وَحْدَه لا شريك له .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٥): ((... هذه مسافة ما بين العَرْش إلى الأرض السابعة، في قول جماعة من السَّلَف والخَلَف ، وهو الأرجح إن شاء اللَّه)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٤٤) : ((وقال ابن عباس : هو يوم القيامة جعله اللَّهُ على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ثم يدخلون النار للاستقرار . قلت : وهذا القول أحسن ما قيل في الآية إن شاء اللَّه)) .

وتَمَّ إفراد جِبريل ــ عليه السلام ــ بالذِّكْر لشرفه ومكانته وفضله ، ولأنَّه أعظم المَلائكة ، وأمين الوَحْي .

والآيةُ : ﴿ تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ ﴾ مِن ذِكْر الخاص بعد العام ، لتعظيم جِبريل وتشريفه .

وجِبريل هُو الرُّوح : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ ﴾ [الشُّعَراء : ١٩٣] .

وسُمِّيَ رُوحًا لأن النُّفُوس تَحيا به كما تَحيا بالأرواح ، ولأنَّه نجاة الخَلْق في مَجال الدِّين ، فهو كالرُّوح الذي تَثبُت معه الحياة ، ولأنَّه خُلِقَ مِن الرُّوح ، والملائكة مِن عَالَم الرَّوحانيات . والأمين : لأنَّ اللَّه أمَّنه على وَحْيِه، وهو مُؤْتَمَن على ما يُؤَدِّيه إلى الأنبياء وغَيرهم، ويُنفِّذ أوامرَ اللَّه بلا زيادة ولا نُقصان .

وهذا اليَوم طويل جِدًّا على الكافر لِمَا يَجِد فيه مِن الشدائد والأهوال ، ويَكون خفيفًا وسهلًا على المؤمن .

---

٥٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٧) برقم (٣٥٤٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

عن أبي سَعيد الخُدري قال : قِيل لرسول اللَّه ﷺ : ﴿ يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ، ما أطْوَلَ هذا اليوم ! . فقال رسول اللَّه ﷺ : ((والذي نَفْسي بيده ، إنَّه لَيُخفَّف على المؤمن حتى يكون أخفَّ عَلَيه مِن صَلاة مَكتوبة يُصلِّيها في الدُّنيا)) [٥٧].

هذا اليوم العصيب الشديد مِن أُمور الآخِرة ، التي لا تُقَاس على أمور الدُّنيا . فلا يُقَال: كيف يأكل الشخص أو يَشرب في هذه المُدَّة الطويلة ؟. وهذا الحديثُ يَحُثُّ على عبادة اللَّه وطاعته ، والتزام أوامره ، واجتناب نَوَاهيه ، والابتعاد عن الذُّنوب والمعاصي ، مِن أجل النجاة من شدائد يوم القيامة وأهوالها الرهيبة . والمؤمنُ الطائعُ يكون هذا اليَوم بالنِّسبة إلَيه قصيرًا وسهلًا ، لأنَّ اللَّه يُسهِّله ويُخفِّفه بسبب أعمال العبد الصالحة . أمَّا الكافرُ ، فيكون هذا اليَوم شديدًا عليه ، وصعبًا للغاية . وقد جَعَلَ اللَّهُ هذه المُدَّة الطويلة (خمسين ألف سنة) على الكافرين دُون المؤمنين ، مِن وَقت البَعْث إلى أن يَفصِل بَيْن الخَلْق . وهذا يدل على خُطورة يوم القيامة ، وضرورة العمل له .

وقال المُفسِّرون : والجَمْع بين هذه الآية : ﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، وبين الآية : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [السَّجدة : ٥] ، أن القِيامة مَواقف ومَواطن ، فيها خَمسون مَوْطِنًا ، كُل مَوْطِن ألف سنة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٣٧) : ((وقَوله تعالى : ﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ ﴾ . قال عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قَتادة : تَعرُج تَصعَد . وأمَّا الرُّوح ، فقال أبو صالح : هُم خَلْق مِن خَلْق اللَّه يُشْبِهون الناس ، ولَيسوا ناسًا . قُلتُ : ويُحتمل أن يكون المُراد به جِبريل ، ويكون مِن باب عَطْف الخاص على العام ، ويُحتمل أن يكون اسم جِنس لأرواح بني آدم ، فإنَّها إذا قُبِضَت

---

٥٧ رواه أحمد في مسنده (٣/ ٧٥) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦١٠) : ((رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه)) اهـ . وقال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٢٢٩): ((حديث : سُئِل عن طُول ذلك اليوم ، فقال : " والذي نَفْسي بيده ، إنَّه لَيُخفَّف على المؤمن حتى يكون أهونَ عليه من الصلاة المكتوبة يُصلِّيها في الدنيا " . أخرجه أبو يَعلى والبَيهقي في الشُّعَب مِن حديث أبي سعيد الخُدري ، وفيه ابن لَهِيعة ، وقد رواه ابن وَهْب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة ، وهو حَسَن . ولأبي يَعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيِّد:" يَهُون ذلك على المؤمن كَتَدَلِّي الشمس للغروب إلى أن تَغرُب". ورواه البَيهقي في الشُّعَب إلى أن قال: أظنُّه رَفَعَه بلفظ " إن اللَّه لَيُخفِّف على مَن يشاء مِن عباده طُولَه، كوقت صلاة مفروضة ")) .

يُصعَد بها إلى السماء ... . وقَوله تعالى : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، فيه أربعة أقوال : أحدها : أنَّ المُراد بذلك مَسافة مَا بَيْن العَرْش العظيم ، إلى أسفل السَّافلين ، وهو قرار الأرض السابعة ، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العَرْش عن المركز الذي في وسط الأرض السابعة ، وكذلك اتِّساع العَرْش مِن قُطر إلى قُطر مسيرة خمسين ألف سنة ، وإنَّه مِن ياقوتة حَمراء ، كما ذَكَرَه ابن أبي شَيبة في كتاب صِفة العَرْش . وقد قال ابن أبي حاتم عِند هذه الآية : حَدَّثنا أحمد بن سَلَمَة ، حَدَّثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخْبَرَنا حكَّام عن عُمر بن معروف عن ليث عن مُجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ . قال : مُنتهى أمْرِه مِن أسفل الأرضِين إلى مُنتهى أمْرِه مِن فَوق السماوات خمسين ألف سنة . ﴿ وإنَّ يَوْمًا عِند رَبِّكَ كألف سنة مِمَّا تَعُدُّون ﴾ ، يعني بذلك حين يَنزِل الأمرُ مِن السماء إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء ، في يوم واحد ، فذلك مِقداره ألف سنة ، لأن ما بين السماء والأرض مِقدار مَسيرة خمسمائة عام . وقد رواه ابن جرير عن ابن حُمَيد عن حكَّام بن سالم عن عمرو بن معروف عن ليث عن مُجاهد، قَوله، لَم يَذكر ابنَ عباس ... . (القَول الثاني) أنَّ المُراد بذلك مُدَّة بقاء الدُّنيا، مُنذ خَلَقَ اللَّهُ هذا العَالَمَ إلى قِيام الساعة . قال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا أبو زُرعة أخبرنا إبراهيم ابن موسى أخْبَرَنا ابن أبي زائدة عن ابن جُرَيج عن مُجاهد في قَوله تعالى : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ . قال : الدُّنيا عُمُرها خَمسون ألف سنة ، وذلك عُمُرها يَوم سَمَّاها اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ يَوْمًا : ﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ في يَوْمٍ ﴾ . قال : اليَوم الدُّنيا . وقال عبد الرَّزاق : أخْبَرَنا مَعْمَر عن ابن أبي نَجِيح عن مُجاهد عن الحَكَم بن أبان عن عِكرمة : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ . قال : الدُّنيا مِن أوَّلها إلى آخِرها مِقدار خَمسين ألف سنة ، لا يدري أحد كَم مضى ، ولا كَم بَقِيَ ، إلا اللَّه عَزَّ وَجَلَّ . (القَول الثالث) أنَّه اليَوم الفاصل بين الدُّنيا والآخِرة، وهو قول غَريب جِدًّا . قال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا أحمد بن محمد بن يَحيى بن سعيد القَطَّان حدثنا بُهْلُول بن المُوَرِّق ، حَدَّثنا مُوسى بن عُبَيدة ، أخبرني مُحمَّد بن كَعْب: ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ . قال : هو يَوم الفَصْل بين الدُّنيا والآخِرة . (القَول الرابع) أنَّ المُراد بذلك يَوم القِيامة ، قال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا أحمد بن سِنان الواسطي حَدَّثنا عبد الرحمن بن مهدي عن إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة عن ابن عباس : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ . قال : يَوم القِيامة . وإسناده صحيح ، ورواه الثَّوري عن سِماك بن حَرْب عن عِكرمة : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يَوم القِيامة ، وكَذا قال الضَّحاك وابن زَيد ، وقال عليُّ بن أبي طلحة

عن ابن عباس في قَوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال : هو يَوم القِيامة ، جَعَلَه اللَّهُ تعالى على الكافرين مِقدارَ خمسين ألف سنة)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٤٤) : ((﴿تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ ﴾ ، أي : تَصعَد في المَعَارِج التي جَعَلَها اللَّهُ لهم ... . والرُّوح جِبريل عليه السلام ، قاله ابن عباس . دَليله قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ ﴾ [الشُّعَراء : ١٩٣] . وقِيل : هو مَلَك آخَر عظيم الخِلْقة ، وقال أبو صالح : إنَّه خَلْق مِن خَلْق اللَّه كهَيئة الناس، وليس بالناس. قال قَبِيصة بن ذُؤَيب : إنه رُوح المَيت حين يُقبَض ، ﴿ إلَيْهِ ﴾ أي : إلى المَكان الذي هو مَحِلُّهم ، وهو في السماء ، لأنها مَحِلُّ بِرِّه وكَرامته ، ... . ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، قال وَهْب والكلبي ومُحمَّد ابن إسحاق : أي عُرُوج المَلائكة إلى المَكان الذي مَحِلُّهم في وَقت كان مِقداره على غَيرهم لَوْ صَعِدَ خَمسين ألف سنة ، وقال وَهْب أيضًا : ما بَين أسفل الأرض إلى العَرش مسيرة خمسين ألف سنة ، وهو قول مُجاهد.وجمع بين هذا الآية وبَين قَوله:﴿في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[السَّجدة : ٥] في سُورة السَّجدة ، فقال : ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مِن مُنتهى أمْرِه مِن أسفل الأرضِين إلى مُنتهى أمْرِه مِن فوق السماوات خَمسون ألف سنة ، وقَوله تعالى : ﴿في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، يعني بذلك نُزول الأمر مِن سَماء الدُّنيا إلى الأرض، ومِن الأرض إلى السماء، في يوم واحد ، فذلك مِقدار ألف سنة ، لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام . وعن مُجاهد أيضًا والحَكَم وعِكرمة : هو مُدَّة عُمر الدُّنيا مِن أوَّل ما خُلِقَت إلى آخِر ما بَقِيَ خَمسون ألف سنة ، لا يَدري أحد كَم مضى ، ولا كَم بَقِيَ ، إلا اللَّه عَزَّ وَجَلَّ . وقِيل : المُراد يَوم القِيامة ، أي : مِقدار الحُكْم فِيه لَوْ تَوَلَّاه مَخلوق خمسون ألف سنة ، قاله عِكرمة أيضًا والكلبي ومُحمَّد ابن كَعْب . يَقول سُبحانَه وتعالى : وأنا أَفْرُغُ مِنه في ساعة . وقال الحسن : هو يوم القيامة ، ولكن يوم القيامة لا نَفَادَ له، فالمُراد ذِكْر موقفهم للحساب ، فهو في خمسين ألف سنة مِن سِنِيِّ الدُّنيا، ثُمَّ حِينئذ يَستقر أهلُ الدَّارَيْن في الدَّارَيْن (يعني الجَنَّة والنار) . وقال يَمَان : هو يَوم القِيامة فيه خَمسون مَوْطِنًا ،كُل موطن ألف سنة . وقال ابن عباس : هو يَوم القِيامة ، جَعَلَه اللَّهُ على الكافرين مِقدار خَمسين ألف سنة ، ثُمَّ يَدخلون النارَ للاستقرار . قُلتُ : وهذا القول أحسن ما قِيل في الآية إن شاء اللَّه)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٢٠) : ((﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مِن سِنِيِّ الدُّنيا لو صَعِدَ غَيْرُ المَلَك، وذلك أنها تَصعَد مُنتهى أمر اللَّه تعالى مِن أسفل الأرض السابعة،

إلى مُنتهى أمر اللَّه تعالى مِن فوق السماء السابعة . رَوى لَيث عن مُجاهد أنَّ مِقدار هذا خَمسون ألف سَنَة . وقال مُحمَّد بن إسحاق : لَوْ سار بنو آدم مِن الدُّنيا إلى مَوضع العَرْش لساروا خَمسين ألف سنة مِن سِنِيِّ الدُّنيا . وقال عِكرمة وقَتادة : هو يوم القيامة ، وقال الحسن أيضًا : هو يوم القيامة ، وأراد أن موقفهم للحِساب حتى يَفصِل بين الناس ، خمسون ألف سنة مِن سِنِيِّ الدُّنيا ، لَيس يعني به مِقدار طُوله هذا دُون غَيره ، لأن يوم القيامة له أوَّل وليس له آخِر ، لأنه يوم مَمدود ولو كان له آخِر لكان مُنقَطِعًا . وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : هو يَوم القيامة يكون على الكافرين مِقدار خمسين ألف سنة ... . وقِيل : معناه : لَوْ وَلِيَ مُحاسبة العباد في ذلك اليوم غَير اللَّه، لم يَفرُغ مِنه خمسين ألف سنة، وهذا معنى قَول عَطاء عن ابن عباس ومُقاتل. قال عطاء: ويَفرُغ اللَّهُ مِنه في مِقدار نِصف يَوم مِن أيام الدُّنيا)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ٢٧٨) : ((﴿ والرُّوحُ ﴾ ، أي : جِبريل عليه السلام ، خصَّه بالذِّكْر بعد العُموم لفَضْله وشَرَفه، أو خَلْق هُم حَفَظَة على المَلائكة ، كما أن المَلائكة حَفَظَة عَلَيْنا، أو أرواح المؤمنين عِند المَوت ﴿ إلَيْهِ ﴾ ، إلى عَرْشِه ومَهْبِط أمْرِه ﴿ في يَوْمٍ ﴾ مِن صِلَة ﴿تَعْرُجُ ﴾. ﴿ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ مِن سِنِيِّ الدُّنيا لَوْ صَعِدَ فيه غَيْرُ المَلَك أوْ مِن صِلَة ﴿ واقع ﴾، أي : يَقع في يَوم طَويل مِقداره خمسين ألف سَنَة مِن سِنينكم ، وهو يوم القيامة ، فإمَّا أن يكون استطالة له لشِدَّته على الكفار ، أو لأنَّه على الحقيقة كذلك ، فقد قِيل : فيه خمسون مَوْطِنًا ، كُل مَوْطِن ألف سنة، وما قَدْر ذلك على المؤمن إلا كما بين الظُّهْر والعَصْر)) .

وعن عبد اللَّه بن أبي مُلَيكة : أن رَجُلًا سأل ابنَ عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ عن قَوله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : ﴿ وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ [الحَج : ٤٧].فقال: ((مَن أنتَ ؟)) ، فَذَكَرَ له أنَّه رَجل مِن كَذا وكَذا ، فقال ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : ((فما يَوم كَان مِقداره خمسين ألف سنة ؟)) ، فقال الرَّجل : رَحِمَكَ اللَّهُ ، إنَّما سألتُكَ لتُخبِرنا ، فقال ابن عباس : ((يَوْمَان ذَكَرَهُما اللَّهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ في كِتابه ، اللَّهُ أعْلَمُ بِهما)) ، فَكَرِهَ أن يقول في كتاب اللَّه بغَير عِلْم [٥٨].

---

٥٨ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٥٢) برقم (٨٨٠٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والحديث يدل على تقوى ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ ووَرَعه ، حيث امتنع عن الإجابة بغَير عِلْم ، لأن تفسير كلام اللَّه تعالى والوقوف على دَلالاته وأبعاده ليس قضيةً سهلة، فهو يحتاج إلى تَقوى وعِلْم =

لا يُوجد تعارُض بين آيات القُرآن ، وإنَّما التعارُض يُوجَد في أذهان الذين ليس عِندَهم عِلْم، أو يُعانون مِن مُشكلة في الفَهْم والاستيعاب .

والآيةُ : ﴿ وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ ، لا تتحدَّث عن طُول يوم القِيامة ، وإنَّما تتحدَّث عن طُول الأيام عِند اللَّه تعالى ، وقَدْرها بالنِّسبة لأيام الدُّنيا التي يَعُدُّها الناس . والأيامُ عِند اللَّه هي التي يُحْدِث اللَّهُ فيها الخَلْقَ والتَّدبير . ووضَّح اللَّهُ أن اليَوم عِندَه يُساوي ألف سنة مِن أيام الناس في الدُّنيا . أمَّا الآيةُ ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ﴾ ، فهو يوم القِيامة ، جَعَلَه اللَّهُ على الكافرين خمسين ألف سنة عُقوبةً لهم ، وتشديدًا عليهم .

والجديرُ بالذِّكر أن المسافة بين السماء الدُّنيا والأرض خمسمائة سنة، ونُزولُ الأمر مِن السماء إلى الأرض ، وصُعوده مِن الأرض إلى السماء ، في يَوم واحد ، وهو يُساوي ألف سنة مِن أيام الناس في الدُّنيا . لذلك كان اليَوم عِند اللَّه كألف سَنَة مِمَّا يَعُدُّ الناسُ . وسِياق الآية الأُولَى يَختلف تمامًا عن سياق الآية الثانية ، ولا علاقة بينهما،وكُل آية تتحدَّث عن أمر مُختلف ، فلا تعارُض .

*

=أمَّا الذين يُحكِّمون أهواءهم وآراءهم الشخصية في كتاب اللَّه دون بَيِّنة ، فهم على خطر عظيم. والعَالِمُ الصادق لا يَخجل من قَول: لا أدري، ورَد العِلْم إلى اللَّه تعالى . ومَن قال: لا أدري، فقد أفتى. وللأسف، إن كثيرًا مِن الذين يُقدِّمون أنفسَهم كعُلَماء يَخجل الواحدُ مِنهُم أن يقول: لا أدري ، فتراه يُفْتي بغير عِلْم ليَحفظ مكانته عِند الناس ، فَيَضِل، ويُضِل الناسَ . وهذا يَدل على غياب النِّية الصادقة . فالعالِمُ الراسخ لا يُفْتي بغَير عِلْم مهما حصل ، وهكذا يُريح نَفْسَه ، ويُريح الآخرين . وقال ابن الجوزي في صيد الخاطر (١/ ٢٠٦) : ((وقد رُوِيَ عن مالك بن أنس أن رَجُلًا سأله عن مسألة فقال : لا أدري ، فقال : سافرتُ البُلدانَ إلَيك ، فقال : ارجع إلى بلدك ، وقُل : سألتُ مَالِكًا ، فقال : لا أدري)) اهـ . وهكذا يكون العَالِم الرَّباني ، فهو لا يخترع فتاوى مِن بنات أفكاره ليُخْفِيَ جَهْلَه أمام الناس ، ويَحفظ مكانته بَيْنهم . بل يُفتي بما يَعْلَمه ، ويَعترف بما لا يَعْلَمه ، وهذا ليس عَيْبًا أو مَنقصة . فالعِلْمُ بحرٌ واسع وعميق لا أحدٌ يَبلُغ شَاطِئَهُ مَهما عَلا كَعْبُه . فالرَّجُلُ يظلُّ عَالِمًا ما دام يَطلب العِلْمَ ، فإن قال : قَد عَلِمْتُ ، فقد جَهِلَ . والرَّجُلُ يظلُّ يَطلب العِلمَ حتى وفاته . ومَن سَمَّى نَفْسَه عَالِمًا ، فهو الجاهل الحقيقي .

١٠_ الملاحة

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُم في البَرِّ والبَحْرِ حَتَّى إذا كُنتُم في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْها رِيحٌ عَاصِفٌ وجاءَهُمُ المَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أنَّهُم أُحِيطَ بِهِم دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين ﴾ [يُونُس : ٢٢] [٥٩].

اللَّهُ يَحفظكم ويَرعاكم ، ويَحْمِلكم في البَر على الدَّواب ، وفي البَحْر على السُّفُن . أي : يَجعلكم قادرين على المَشْي على أقدامكم ، وزُكُوبِ الدَّواب للوُصُول إلى بُغيتكم ، وزُكُوبِ السُّفُن في البَحْر لتحقيق منافعكم ومصالحكم . وَلَوْ شاء اللَّهُ لأهلككم في البَر ، وأغرقكم في البَحْر . واللَّهُ يُذكِّر عِبادَه بنِعَمه العظيمة ، ويُعدِّدها عَلَيهم كَي يَشكُروه ، حَتَّى إذا كُنتم في السُّفُن ، وَجَرَت السُّفُنُ براكبيها في البَحْر بالرِّيح الليِّنة. والالتفاتُ مِن الخِطاب إلى الغَيبة في ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ ، لتوبيخ الكافرين ، والإنكار عَلَيهم ، لعدم شُكرهم النِّعْمَة [٦٠].

---

٥٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٩و ٢٠) : ((﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُم في البَرِّ ﴾ على الدَّوَاب ، وفي البَحْر على السُّفُن ، فَلَوْ شاءَ انتقمَ مِنكُم في البَر أوْ في البَحْر ... . قَوله تعالى : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ ، عادَ بَعْد الْمُخَاطَبَة لهم إلى الإخبار عَنهُم . قال الزَّجاج: كُل مَن أقام الغائبَ مَقَامَ مَن يُخاطبه جازَ أن يَرُدَّه إلى الغائب ... . قَوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبةٍ ﴾ ، أي : لَيِّنة ، ﴿ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ لِلِينها ﴿ جَاءَتْها ﴾ يعني : الفُلْك (السُّفُن) . قال الفَرَّاء : وإنْ شِئتَ جَعَلْتها للرِّيح ، كأنَّكَ قُلت: جاءت الريحَ الطِّيبة رِيحٌ عَاصِف،والعرب تقول:عَاصِف وعَاصِفة... . قال ابن عباس: الرِّيح العَاصِف: الشديدة ... . ﴿ وجاءَهُمُ المَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ، أي: مِن كُل أمكنة الْمَوْج . قَوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا ﴾ ، فِيه قَولان: أحدهما أنَّه بمعنى اليقين، والثاني أنَّه التَّوَهُّم . وفي قَوله : ﴿ أُحِيطَ بِهِم ﴾ قَولان : أحدهما دَنَوْا مِن الهَلَكَة . قال ابن قُتَيبة : وأصل هذا أنَّ العَدُوَّ إذا أحاطَ ببلد ، فقد دنا أهلُه مِن الهَلَكَة . وقال الزَّجاج : يُقال لكُل مَن وَقَعَ في بَلاء : قد أُحِيطَ بفُلان ، أي : أحاطَ به البَلاء . والثاني أحاطت بهم الملائكة ، ذَكَرَه الزَّجاج . قَوله تعالى : ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ دُون أوثانهم. قال ابن عباس: تركوا الشِّرْكَ، وأخْلَصُوا للَّه الرُّبُوبية ، وقالوا : ﴿ لَئِنْ أنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ ﴾ الرِّيح العَاصِف ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين ﴾ أي الْمُوحِّدين)).

٦٠ قال ابن الأثير في المثل السائر (٢/ ١٠) : ((فإنَّه إنما صَرَفَ الكلام ههنا مِن الخِطاب إلى الغَيبة لفائدة ، وهي أنَّه ذَكَرَ لغَيرهم حَالَهم ليُعجِّبهم مِنها ، كالْمُخبِر لهم ، ويَستدعي منهم الإنكار عليهم ، =

وفَرِحَ الرَّاكبون بتِلك الرِّيح التي يَسِيرون بها لِلِينها ، جاءت السُّفُنَ رِيحٌ شديدةُ الهُبُوب ، تُدمِّر كُلَّ شيء ، وجاء رَاكِبي السَّفينة المَوْجُ (الماء المُرتفع) مِن كُل الجِهَات ، وأيْقَنُوا أنَّ الهَلاك أحاطَ بهم ، ولا تُوجَد فُرصة للنَّجاة، تَركوا الشِّرْكَ، ونَسُوا أصنامَهم وشُركاءهم، وأخْلَصُوا الدُّعاءَ للَّه وَحْدَه ، وتَركوا ما كانوا يَعْبَدُون . وهذا دليل على أنَّ فِطْرَة الإنسان مُتَّجِهة إلى إله واحد أَحَد ، لا شريك له ، وهو اللَّه سُبحانَه، وأنَّ الخَوف مِن الهَلاك والمَوت يُزيل الشِّرْكَ ، ويَدفع الإنسانَ إلى تَوحيد اللَّه تعالى .

وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٩٣) : ((﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، أي: دَعَوْهُ وَحْدَه، وتَركوا ما كانوا يَعْبُدون.وفي هذا دليل على أنَّ الخَلْق جُبلوا على الرُّجوع إلى اللَّه في الشدائد ، وأن المُضْطَر يُجاب دُعاؤه وإنْ كان كافرًا ، لانقطاع الأسباب ، ورُجوعه إلى الواحد رَب الأرباب)) .

لَئِن أنقَذْتَنا يا رَبَّنا مِن هذه الشَّدائد والأهوال لَنَكُونَنَّ مِن الشَّاكرين لَكَ على نِعَمِك ، والعاملين بطاعتك. أي : سَوْفَ نَكُون مِن المُوحِّدين الطائعين .

وفي البَحْر المُحيط (٥/ ١٣٩): ((ومعنى الإخلاص إفراده بالدُّعاء مِن غَير إشراك أصنام وغَيرها. وقال الحسن: مُخلِصين لا إخلاص إيمان ، ولكن لأجل العِلْم بأنَّهُم لا يُنجِّيهم مِن ذلك إلا اللَّه ، فيكون ذلك جاريًا مَجْرَى الإيمان الاضطراري)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٢٩) : ((﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُم في البَرِّ والبَحْرِ ﴾ ، ضَرَبَ سُبحانَه لهؤلاء مَثَلًا حتى يَنكشف المُراد انكشافًا تامًّا، ومَعنى تَسييرهم في البَر أنَّهُم يَمْشُون على أقدامهم التي خَلَقَها لهم لينتفعوا بها ، ويَركبون ما خَلَقَه اللَّهُ لركوبهم مِن الدَّوَاب . ومعنى تسييرهم في البحر : أنَّه ألهمهم لعمل السَّفائن التي يَركبون فِيها في لُجَج البَحْر ، ويسَّر ذلك لهم، ودَفَعَ عنهم أسباب الهَلاك ... ، ﴿ حَتَّى إذا كُنتُم في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ . الفُلْك يَقع على الواحد والجَمْع ، ويُذكَّر ويُؤَنَّث، ﴿ وَجَرَيْنَ ﴾ ، أي: السُّفُن بهم، أي: بالراكبين عليها. و﴿ حَتَّى ﴾ لانتهاء الغاية، والغاية مَضمون الجُملة الشَّرْطية بكَمالها ، فالقُيود المُعْتَبَرَة في الشَّرْط ثلاثة : أوَّلها: الكَون في الفُلْك ، والثاني : جَرْيها بهم بالرِّيح الطَّيبة التي لَيست بعاصفة، وثالثها : فرحهم .

=وَلَوْ قال : حتى إذا كُنتم في الفُلْك وجَرَيْنَ بِكُم بريح طَيِّبة وفَرِحْتُم بها ، وسَاقَ الخِطابَ مَعَهم إلى آخِر الآية ، لَذَهَبَتْ تِلك الفائدة التي أنتجها خِطاب الغَيبة ، وليس ذلك بخافٍ عَن نَقَدَة الكلام)) .

والقُيود المُعْتَبَرَة في الجَزَاء ثلاثة : الأول ﴿ جَاءَتْها ﴾ ، أي : جَاءَت الفُلْكَ رِيحٌ عَاصِف ، أوْ جاءت الرِّيحَ الطَّيبة : أي تَلَقَّتْها رِيح عَاصِف ، والعَصُوف شِدَّة هُبُوب الرِّيح. والثاني ﴿ وجاءَهُمُ المَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ، أي مِن جميع الجوانب للفُلْك ، والمُراد : جاء الراكبين فيها ، والموج ما ارتفعَ من الماء فوق البحر ، والثالث ﴿ ظَنُّوا أنَّهُم أُحِيطَ بِهِم ﴾ ، أي: غَلَبَ على ظُنونهم الهَلاك، وأصله مِن إحاطة العَدُو بقَوم أوْ ببلد ، فجعل هذه الإحاطة مَثَلًا في الهَلاك ، وإنْ كان بغَير العدو كما هُنا . وجواب إذا في قَوله : ﴿ إذا كُنتُم في الفُلْكِ ﴾ قَوله : ﴿ جَاءَتْها ﴾ إلى آخِره . ويكون قَوله : ﴿ دَعَوُا اللَّهَ ﴾ بَدَلا مِن ظَنُّوا ، لكَون هذا الدُّعاء الواقع مِنهُم إنما كان عِند ظَن الهَلاك ، وهو الباعث عليه ، فكان بَدَلًا مِنه بدل اشتمال لاشتماله عليه ، ويُمكن أن يكون جُملة دَعَوُا مُسْتَأنَفَة ، كأنَّه قِيل : ماذا صَنعوا ؟ ، فقِيل : دَعَوُا اللَّهَ . وفي قَوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ التفات مِن الخِطاب إلى الغَيبة ، جعل الفائدة فيه صاحب الكَشَّاف المُبَالَغَة ، وقال الرازي : الانتقال مِن مَقَام الخِطاب إلى مَقَام الغَيبة في هذا المَقَام دليل المَقْت والتَّبعيد ، كما أنَّ عَكْس ذلك في قَوله : ﴿ إيَّاكَ نَعْبُد ﴾ دليل الرِّضا والتقريب . وانتصاب ﴿ مُخْلِصِينَ ﴾ عَلى الحَال ، أي : لَم يَشُوبُوا دُعَاءهم بشيء مِن الشَّوائب كما جَرَتْ عادتهم في غَير هذا المَوطِن أنَّهم يُشرِكون أصنامَهم في الدُّعاء ، ولَيس هذا لأجل الإيمان باللَّه وَحْدَه ، بل لأجل أن يُنَجِّيَهم مِمَّا شارفوه مِن الهَلاك ، لِعِلْمهم أنَّه لا يُنجِّيهم سِوى اللَّه سُبحانَه. وفي هذا دليل على أنَّ الخَلْق جُبِلُوا على الرُّجوع إلى اللَّه في الشَّدائد ، وأن المُضْطَر يُجاب دُعاؤه وإنْ كان كافرًا . وفي هذه الآية بيان أنَّ هؤلاء المُشركين كانوا لا يَلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة وما يُشابهها ، فيا عَجَبًا لِمَا حَدَثَ في الإسلام مِن طوائف يَعتقدون في الأموات ! ، فإذا عَرَضَتْ لهم في البَحْر مِثْلُ هذه الحالة دَعَوا الأموات ، ولم يُخلِصوا الدُّعاءَ للَّه كما فعله المشركون ، كما تواترَ ذلك إلَينا تَوَاتُرًا يَحصُل به القَطْع ، فانظر هَداكَ اللَّهُ ما فَعَلَتْ هذه الاعتقادات الشَّيطانية،وأين وصل بها أهلُها، وإلى أين رَمَى بهم الشَّيطان، وكيف اقتادهم وتَسَلَّطَ عليهم ؟ ، حَتَّى انقادوا له انقيادًا ما كان يَطمَع في مِثْله ولا في بَعْضه مِن عُبَّاد الأوثان ، فإنَّا للَّه وإنَّا إلَيه راجعون . واللام في ﴿ لَئِنْ أنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ ﴾ ، هي اللام المُوطِّئة للقَسَم ، أي : قائلين ذلك ، والإشارة بقَوله : ﴿ مِنْ هَذِهِ ﴾ إلى ما وَقَعُوا فيه مِن مُشَارَفَة الهَلاك في البَحْر ، واللام في ﴿ لَنَكُونَنَّ ﴾ جَوَاب القَسَم ، أي : لَنَكُونَنَّ في كل حَال مِمَّن يَشكُر نِعَمَك التي أنعمتَ بِها عَلَينا ، مِنها هذه النِّعْمة التي نَحْنُ بِصَدَد سُؤالك أن تُفَرِّجَها عَنَّا ، وتُنَجِّيَنا مِنهَا . وقِيل : إن هذه الجُملة مَفعول ﴿ دَعَوُا ﴾)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لُقمان : ٣١] .

يُذكِّر اللَّهُ عِبادَه بنِعْمة مِن نِعَمه الكثيرة عَلَيهم، حَيث إنَّ السُّفُن الكبيرة تَسير في البَحْر بقُدرة اللَّه ، وإحسانه ، ورحمته ، وتَسخيره ، ولُطفه ، لتحقيق مصالح الناس ومنافعهم ، وأيضًا سَخَّرَ اللَّهُ البَحْرَ ، وَجَعَلَ الماءَ قادرًا على حَمْل السُّفُن ، وَلَوْلا هذا التَّسخير لَغَرِقَت السُّفُن ، وتعطَّلت حياةُ الناس ، وعَجِزُوا عَن طَلَب الرِّزق ، ﴿ لِيُرِيَكُم مِنْ آياتِهِ ﴾ ، لِيُرِيَكُم دَلائلَ وَحدانيته وقُدرته ، وعجيبَ صُنعه ، وبَديعَ خَلْقه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٧٣):(("مِنْ " للتَّبعيض، أي: لِيُرِيَكُم جَرْيَ السُّفُن، قاله يَحيى ابن سلام. وقال ابن شجرة:"مِن آياته" ما تُشَاهِدُون مِن قُدرة اللَّه تعالى فيه. النَّقاش:ما يَرزقهم اللَّهُ مِنه . وقال الحَسَن : مِفتاح البِحَار السُّفُن ، ومِفتاح الأرض الطُّرُق ، ومِفتاح السَّماء الدُّعاء)) .

إنَّ السُّفُن التي تَسِير في البَحْر هي إحدى مظاهر الرَّحمة الإلهية بالناس ، والإحسان إلَيهم ، وهي تَسِير بفَضْل اللَّه تعالى وكَرَمه ، فقد سخَّرها لقضاء حوائج الناس كما سخَّر البَحْرَ لِحَمْلها . ومِن خلال هذه العملية يُشَاهِد المَرْءُ آياتِ اللَّه الباهرة ، وآثارَ القُدرة الإلهية، كالظواهر الطبيعية ، والمَخلوقات العجيبة . واللَّهُ أخضعَ البَحْرَ لتحقيق مكاسب الإنسان، ومكَّن الإنسانَ مِن رُكُوب البَحْر والاستفادة مِنه. وَلَوْ لَم يكن هناك تَسخير لكانَ البَحْر كالوَحْش يَبتلع مَن يَدخله ويُغرِق اليَابسةَ، فَلَيْسَت القضيةُ عبقرية الإنسان أوْ مواهبه الذاتية ، وإنَّما الفَضْل الإلهيُّ والتَّسخير الرَّبانيُّ.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، إنَّ في تَذليل البَحْر ، وتَسخير هذه السُّفُن وما تَحْمِله مِن الطعام والأرزاق والتِّجَارات، لآياتٍ عظيمة ، وبَراهين واضحة ، وأدلة ساطعة ، لِكُلِّ صَبَّار في الضَّرَّاء، شَكُور في الرَّخَاء. والإيمان نِصفان: صَبْر وشُكْر [٦١] ، وهُما صِفَتا المُؤمن

---

٦١ قال العراقي في تخريج الإحياء(٤/٢٣) : ((حديث " الإيمان نِصْفَان: نِصْفٌ صَبْر، ونِصْفٌ شُكْر". أخرجه أبو منصور الدَّيْلَمي في مُسْنَد الفِرْدَوْس مِن رواية يَزيد الرَّقَّاشي عن أنس ، ويزيد ضعيف . وقال الْمُناوي في فَيض القدير(٣/ ١٨٨و١٨٩): (((الإيمان نِصفان: فَنِصْفٌ في الصَّبْر، ونِصْفٌ في الشُّكْر) أي ماهية مُرَكَّبة مِنهما ، وذلك لأنَّ الناس صِنفان ، مُعْطَى فَعَلَيه الشُّكْر ، وممنوع فَعَلَيه الصَّبْر ، فإذا شَكَرَ هذا فقد أتى مِن الإيمان بنِصْفه ، وإذا صَبَرَ هذا فقد أتى مِن الإيمان بنِصْفه ، أوْ يُقَال : وَجْه التَّصنيف أن الإيمان اسم لمجموع القَول والعَمَل والنِّية ، وهي ترجع إلى شَرْطَيْن ، فِعْل وتَرْك ، فالفِعْل=

الحقيقي الكامل الصادق المُخلِص . ولفظة "صَبَّار " و " شَكُور" مُبَالَغَة في الصَّبْر والشُّكْر . والمَعنى : إنَّ في ذلك لَعَلامات وأدلة لكُل مُؤمن صادق .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٤/ ٧٣) : ((أي : صَبَّار لِقَضائه ، شَكُور على نَعْمَائه . وقال أهلُ المعاني : أرادَ لكُل مؤمن بهذه الصِّفَة ، لأنَّ الصَّبْر والشُّكْر مِن أفضل خِصَال الإيمان. والآية: العَلامة، والعَلامةُ لا تَستبين في صَدْر كُل مُؤمن ، إنَّما تَستبين لِمَن صَبَرَ على البَلاء ، وشَكَرَ على الرَّخَاء . قال الشَّعبي : الصَّبْرُ نِصْفُ الإيمان ، والشُّكْرُ نِصْفُ الإيمان ، واليَقين الإيمانُ كُلُّه)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٢٣): ((يَقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ : أَلَمْ تَرَ يا مُحمَّد أنَّ السُّفُن تَجْري في البَحْر نِعمةً مِن اللَّه على خَلْقه ﴿ لِيُرِيَكُم مِنْ آياتِهِ ﴾ ، يَقول : لِيُرِيَكُم مِن عِبَره وحُجَجه عَلَيكم ، ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، يَقول : إنَّ في جَرْي الفُلْك في البَحْر دَلالة على أنَّ اللَّه الذي أجراها هُوَ الحَق ، وأنَّ ما يَدْعُون مِن دُونه الباطل ، ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ . يَقول : لِكُلِّ مَن صَبَرَ نَفْسَه عَن مَحَارم اللَّه ، وشَكَرَه على نِعَمه ، فلم يَكْفُرْه . حَدَّثَنا بِشْر قال : ثَنا يَزيد قال : ثَنا سَعيد عَن قَتادة ، قال : كان مُطَرِّف يقول: إنَّ مِن أحبِّ عِباد اللَّه إلَيه : الصَّبَّار الشَّكُور . حَدَّثَنا ابن حُمَيد قال : ثنا جرير عن مُغيرة قال : الصَّبْرُ نِصْفُ الإيمان ، والشُّكْر نِصْفُ الإيمان ، واليقين: الإيمانُ كُلُّه . أَلَمْ تَرَ إلى قَوله : ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، ... . حَدَّثَنا مُحمَّد بن بَشَّار قال : ثنا أبو عاصم قال : ثنا سُفيان عن مُغيرة عن الشَّعبي ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ . قال: الصَّبْر: نِصْف الإيمان ،

=العمل بالطاعة ، وهو حقيقة الشُّكْر ، والتَّرْك الصَّبْر عَن المعصية. والدِّينُ كُلُّه في هَذَيْن، فِعْل المأمور ، وتَرْك المحظور ، وأنَّ الإيمان مبني على رُكْنَيْن ، يَقين وصَبْر ، فباليقين يَعلم حقيقةَ الأمر والنَّهْي والثَّواب والعِقَاب ، وبالصَّبْر يُنفِّذ ما أُمِرَ به ، ويَكُفُّ نَفْسَه عمَّا نُهِيَ عنه ، ولا يَحصُل له التَّصديق بذلك إلا باليقين، ولا يمكن الدَّوام على فِعْل المأمور ، وكَف النَّفْس عن المحظور، إلا بالصَّبْر، فصار الصَّبْرُ نِصْفًا ، والشُّكْر نِصْفًا . قال الغزَّالي رحمة اللَّه عليه : فالجهل بحقيقة الصَّبْر والشُّكْر جَهْل بكِلا شَطْرَي الإيمان ، ثُمَّ هو غَفلة عَن وَصْفَيْن مِن أوصاف الرحمن ، ولا سبيل للوُصُول إلى القُرب إلى اللَّه تعالى إلا بالإيمان ، وكيف يُتَصَوَّر سُلوك الإيمان دون مَعرفة ما به الإيمان ، ومَن به الإيمان ، فهذا قاله في مَوضِع . وقال في آخَر: هذا باعتبار النَّظَر إلى الأعمال، والتَّعبير عنها بالإيمان . اهـ . وفيه ــ أي الحديث ــ يَزيد الرَّقَاشي قال الذهبي وغَيره : مَتروك ، ورواه القُضَاعي بهذا اللفظ ، وذَكَرَ بعضُ شُرَّاحه أنَّه حَسَن)) .

واليَقين : الإيمان كُلُّه . إنْ قال قائل : وكيف خَصَّ هذه الدَّلالة بأنَّها دَلالة للصَّبَّار الشَّكُور دُون سَائِر الخَلْق ؟ ، قِيل : لأنَّ الصَّبْر والشُّكْر مِن أفعال ذَوِي الحِجَى والعُقُول ، فأخبرَ أنَّ في ذلك لآيات لكُل ذِي عَقْل ، لأنَّ الآيات جَعَلَهَا اللَّهُ عِبَرًا لِذَوِي العُقُول والتَّمييز)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٢):((﴿ أَلَمْ تَرَ أنَّ الفُلْكَ تَجْرِي في البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ بإحسانه في تَهيئة أسبابه ، وهو استشهاد آخَر على بَاهِر قُدرته ، وكَمَال حُكْمِه، وشُمُول إنعامه ... ﴿ لِيُرِيَكُم مِنْ آياتِهِ ﴾ دَلائله ، ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على المَشَاق ، فيُتعِب نَفْسَه بالتَّفَكُّر في الآفاق والأنفُس ﴿ شَكُورٍ ﴾ يَعرِف النِّعَمَ ، ويتعرَّف مَانِحَها ، أوْ للمُؤمنين، فإن الإيمان نِصْفَان : نِصْفٌ صَبْر ، ونِصْفٌ شُكْر)) .

وعن أبي ظَبْيَان ، قال : كُنَّا نَعْرِضُ المَصَاحِفَ عِندَ عَلْقَمَة ، فقرأ هذه الآية : ﴿ إنَّ في ذَلِكُم لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾ ، فقال : قال عبد اللَّه : ((اليَقِينُ الإيمانُ كُلُّه)) ، وقرأ هذه الآية: ((﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾)) ، قال : فقال عبد اللَّه : ((الصَّبْرُ نِصْفُ الإيمان)) [٦٢] .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والذي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الفُلْكِ والأنعامِ ما تَركَبُون ﴾ [الزُّخْرُف : ١٢] .

خَلَقَ اللَّهُ أصنافَ المَخلوقات وأنواعَها ، وَسَخَّرَ لكم مِن السُّفُن تَركبون فيها في البَحْر إلى حَيث تُريدون ، طلبًا للرِّزْق والمَعَايِش والتِّجارات ، ومِن الدَّوَابِّ كالإبل والخَيل ، تَركبونها في أسفاركم ورحلاتكم في البَر . وغَلَّبَ المُتَعَدِّي بنَفْسه على المُتَعَدِّي بغَيره ، فيُقال : رَكِبْتُ الدَّابَّةَ ، ورَكِبْتُ في السَّفينة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٥٧) : ((قال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ والذي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّهَا ﴾ ، أي : مِمَّا تُنبِت الأرضُ مِن سائر الأصناف مِن نَبات وزُروع وثِمار وأزاهير ، وغَير ذلك ، ومِن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الفُلْكِ ﴾ ، أي : السُّفُن ﴿ والأنعامِ ما تَركَبُون ﴾ أي ذَلَّلَها لكم وسخَّرها ويسَّرها لأكلكم لُحومها وشُربكم ألبانها وزُكوبكم ظُهورها)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٥٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ والذي خَلَقَ الأزواجَ ﴾ ، أي : واللَّهُ الذي خَلَقَ الأزواجَ. قال سعيد بن جُبَير:أي الأصناف كُلَّها. وقال الحَسَن: الشِّتاء والصَّيف ، والليل والنَّهار ، والسَّماوات والأرض ، والشَّمْس والقَمَر ، والجَنَّة والنار . وقيل : أزواج الحَيَوَان

---

٦٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٤) برقم (٣٦٦٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

مِن ذَكَر وأُنثى ، قاله ابن عيسى . وقِيل : أراد أزواج النَّبات ، ... . وقِيل : ما يتقلَّب فيه الإنسان مِن خَير وشَر ، وإيمان وكُفر ، ونَفْع وضَر ، وفَقْر وغِنى ، وصِحَّة وسَقَم . قُلت : وهذا القَول يَعُمُّ الأقوالَ كُلَّها ، ويَجمعها بعُمومه ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الفُلْكِ ﴾ السُّفُن ﴿ والأنعامِ ﴾ الإبِل ﴿ ما تَركَبُون ﴾ في البَر والبَحْر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُم إذا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِين ﴾ [الزُّخْرُف : ١٣] .

لِتَسْتَقِرُّوا عَلى ظُهُور ما تَركَبُون ، سفينةً كان أوْ جَمَلًا ، وتتذكَّرُوا نِعمة اللَّه العظيمة بقلوبكم ، مُعترفين بِها ، حامدين وشاكرين عَلَيها ، إذا رَكِبْتُم . وقد سَخَّرَ اللَّهُ لكم المَرَاكِبَ في البَحْر والبَر رحمةً بكم ، وإحسانًا إلَيكم ، وتفضُّلًا عليكم ، ومِن أجل مصالحكم ومنافعكم ومعايشكم . وتَقولوا بألسنتكم عِند رُكُوبكم : تَنزيهًا للَّه الذي ذَلَّلَ وسَخَّرَ ما رَكِبْناه مِن هذه السُّفُن والدَّوَاب ، وما كُنَّا مُطيقين على رُكُوبه لَوْلا أنَّ اللَّه سخَّره لنا ، وأعاننا عَلَيه . أي : لَوْلا تَسخير اللَّه لنا هذا ما قَدِرْنَا عَلَيه ، ولا اسْتَطَعْنَا رُكُوبَه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٨٠) : ((﴿ لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ﴾ ...، قال الفَرَّاء : أضاف الظُّهُور إلى واحد ، لأن المُراد ظُهُور هذا الجِنْس ، والاستواء الاستعلاء : أي لِتَسْتَعْلُوا على ظُهُور ما تَركَبُون مِن الفُلْك والأنعام ، ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُم إذا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ ﴾ ، أي : هذه النِّعْمة التي أنعمَ بها عَلَيكم مِن تَسخير ذلك المَركِب في البَحْر والبَر. وقال مُقاتل والكلبي : هو أن يقول : الحمدُ للَّه الذي رزقني هذا وحَمَلَني عَلَيه ، ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ أي : ذَلَّلَ لنا هذا المَركِب ، ... . قال قَتادة : قد علَّمكم كيف تقولون إذا ركبتم ، ومعنى : ﴿ وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِين ﴾ ، ما كُنَّا له مُطيقين ،... . وقال الأخفش وأبو عُبَيدة : مُقْرِنِين : ضَابِطِين . وقِيل: مُمَاثِلِين له في القُوَّة ، مِن قَولهم : هو قِرْن فُلان ، إذا كان مِثْلَه في القُوَّة ، ... . والمُراد بالأنعام هُنا الإبِل خاصَّة ، وقِيل : الإبِل والبَقَر ، والأوَّل أَوْلَى)) .

وفي حاشية شيخ زاده على البَيضاوي (٣/ ٢٩١) : ((ولَيس المُراد مِن ذِكْر النِّعْمَة تصوُّرها وإخطارها في البال ، بَل المُراد تذكُّر أنَّها نِعمة حاصلة بتدبير القادر العليم الحكيم ، مُستدعية لطاعته وشُكره ، فإنَّ مَن تَفَكَّرَ في أنَّ ما يَركَبُه الإنسان مِن الفُلْك والأنعام ، أكثر قُوَّةً وأكبر جُثَّةً مِن راكبه ، ومعَ ذلك كان مُسَخَّرًا لراكبه يتمكَّن مِن تَصريفه إلى أيِّ جانب شاء ، وتَفَكَّرَ أيضًا في خَلْق البَحْر والرِّيح ، وفي كَوْنهما مُسَخَّرَيْن للإنسان مَعَ ما فِيهما مِن المَهَابة والأهوال ، استغرقَ في

مَعرفة عَظَمَة اللَّه تعالى وكِبريائه ، وكَمَال قُدرته وحِكمته ، فيَحمِله ذلك الاستغراق على أنَّ يقول مُتَعَجِّبًا مِن عَظَمَة اللَّه : ﴿ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِين ﴾)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإنَّا إلى رَبِّنا لَمُنقَلِبُون ﴾ [الزُّخْرُف : ١٤] .

وتَقُولوا أيضًا:وإنَّا إلى اللَّه بَعد المَوت لَرَاجِعُون.وهذا تَمَام ما يُقال عِند رُكُوب السَّفينة أو الدَّابَّة.

ويَنبغي على العَبد أن يتذكَّر أثناء أسفاره ورحلاته السَّفَرَ العظيمَ والرِّحْلَةَ الأخيرةَ التي لَن يَرجع مِنهَا، حيث إنَّه سَيَذهب إلى المَوت في يَوم مِن الأيَّام ، ولَن يَعُود ، ولَن يَرجِع . وإذا كان الجَمَلُ أو السَّفينة يَنقُل العبدَ مِن مكان إلى مكان، فليتذكَّر العبد حِين يَنتقل مِن الدُّنيا إلى الآخِرة ، فأعظمُ نَقْلَة هي الانقلاب إلى اللَّه تعالى . والرُّكُوب في البَر أو البَحْر يَشتمل على مخاطر ، وقد يَفقِد العبدُ حياته في سَفَره ورِحلته ، فليتذكَّر المَوْتَ ، وضرورة الاستعداد للقاء اللَّه تعالى . وهذا يَستلزم أنَّ يَكون سَفَرَه الدُّنيوي لأمر مَشروع . والسَّفَرُ الدُّنيوي يدلُّ على السَّفَر الأُخروي .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٥٧): ((﴿ وإنَّا إلى رَبِّنا لَمُنقَلِبُون ﴾ ، أي: لَصَائِرُون إلَيه بَعد مَمَاتنا،وإلَيه سَيْرُنا الأكبر.وهذا مِن باب التنبيه بسَيْر الدُّنيا على سَيْر الآخِرة، كما نبَّه بالزَّاد الدُّنيوي على الزَّاد الأُخروي في قَوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقوى ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وباللباس الدُّنيوي على الأُخروي في قَوله تعالى: ﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦])).

وفي صحيح مسلم (٢/ ٩٧٨) أنَّ رسول اللَّه ﷺ كان إذا استوى على بَعِيره خارجًا إلى سَفَر كَبَّرَ ثلاثًا ، ثُمَّ قال : سُبحانَ الذي سَخَّرَ لنا هذا ، وما كُنَّا له مُقْرِنِين ، وإنَّا إلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُون ، اللهُمَّ إنَّا نَسألك في سَفَرنا هذا البِرَّ والتَّقْوَى، ومِن العمل ما تَرضَى ، اللهُمَّ هَوِّنْ عَلَينا سَفَرَنا هذا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَه ، اللهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَر ، والخَلِيفةُ في الأهل ، اللهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِن وَعْثَاءِ السَّفَر ، وكَآبَةِ المَنظَر ، وسُوءِ المُنْقَلَبِ في المَال والأهل)). وإذا رَجَعَ قَالَهُنَّ وزاد فِيهِنَّ : ((آيِبُونَ تائبونَ عابدونَ لِرَبِّنا حامدون)) .

كان النبيُّ ﷺ إذا رَكِبَ واستقرَّ على ظَهْر بَعِيره خارجًا مِن المَدينة إلى سَفَر ، يقول: اللَّهُ أكبر ، ثلاث مَرَّات . سُبحانَ اللَّه الذي ذَلَّلَ وسَخَّرَ لنا هذا البَعِير ، وجَعَلَه مُنقادًا لَنَا ، وما كُنَّا نُطيق رُكوبه ولا استخدامه لَوْلا أنَّ اللَّه سخَّره لنا، وإنَّا إلى رَبِّنا لَرَاجِعُون. اللهُمَّ إنَّا نَسألك في سَفَرنا هذا الطاعةَ والتَّقْوَى (اتِّقاء غضب اللَّه وعذابه بالتزام أوامره واجتناب نَوَاهيه) ، ومِن العمل ما تَرضَى بِه عَنَّا ، اللهُمَّ خَفِّفْ سَفَرَنا وَيَسِّرْه ، وقَرِّبْ مَسَافته ، اللهُمَّ أنتَ مَن تَصْحَبُني في سَفَري ، وتُسهِّله عَلَيَّ ، وأنتَ الخَلِيفة في الأهل مِن بَعْدي ، تَحفظهم وتَرعاهم وتَعتني بهم . اللهُمَّ إنِّي أَلْتَجِئ إلَيك

وأحتمي بِك مِن شِدَّةِ السَّفَر وتَعَبِه ، وتغيُّرِ الوَجْه والنَّفْس بالهَمِّ والحُزن ، وما يَسُوء في المال والأهل عِند الرُّجُوع. وكان النبيُّ ﷺ إذا رَجَعَ قال تِلك العِبارات ، وقال بَعَدهنَّ : (آيِبُون) نَحْن راجعون مِن السَّفَر بالسَّلامة (تائبون) مِن المعصية إلى الطاعة ، (عابدون لِرَبِّنا حامدون) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١١١) : ((معنى مُقْرِنين: مُطِيقِين ، أي : ما كُنَّا نُطِيق قَهْرَه واستعمالَه لَوْلا تَسخير اللَّه تعالى إيَّاه لنا. وفي هذا الحديث استحباب هذا الذِّكْر عِند ابتداء الأسفار كُلِّها. وقد جاءت فِيه أذكار كثيرة جمعتها في كتاب الأذكار. قَوله ﷺ : (اللهُمَّ إنِّي أعُوذ بِك مِن وَعْثَاء السَّفَر، وكَآبِة المَنظَر، وسُوء المُنْقَلَب في المال والأهل) الوَعْثَاء ... ، وهي المَشَقَّة والشِّدة ، والكَآبة ، بفتح الكاف وبالمَد ، وهي تغيُّر النَّفْس مِن حُزن ، ونَحْوه ، والمُنْقَلَب بفتح اللام المَرْجِع)) .

وفي عَون المَعبود (٧/ ١٨٥ و١٨٦) : ((باب ما يَقول الرَّجُل إذا سافر . (اللهُمَّ أنتَ الصَّاحِب في السَّفَر) أي الحَافظ والمُعِين (والخليفة في الأهل) الخليفة مَن يَقوم مَقَام أحد في إصلاح أمره (مِن وَعْثَاء السَّفَر) ... ، أي مَشَقَّته وشِدَّته (وكآبة) هي تغيُّر النَّفْس بالانكسار مِن شِدَّة الهَمِّ والحُزن ، ... . قال الخَطَّابي : أي يَنْقَلِب مِن سَفَره إلى أهله كئيبًا حزينًا غَير مَقضي الحاجة ، أوْ مَنكوبًا ذهب ماله ، أوْ أصابته آفة في سَفَره ، أوْ يَقْدُم على أهله فيجدهم مرضى أوْ يَفقِد بعضَهم ، أوْ ما أشبه ذلك مِن المَكروه (اطْوِ لنا الأرضَ) أَمْر مِن الطَّيِّ ، أي : قَرِّبْها لنا ، وسَهِّل السَّيْرَ فِيها (وَهَوِّنْ) أي يَسِّرْ)) .

وفي نَفْس المرجع والصفحة : (((استوى على بعيره) أي استقرَّ على ظَهْر مَركوبه (سَخَّرَ) أي ذَلَّلَ (هذا) أي المَركوب فانقادَ لأضْعَفِنا (وما كُنَّا له مُقْرِنين) أي مُطِيقين قَبْلَ ذلك ، أو المَعنى : ولَوْلا تسخيرُه ما كُنَّا جميعًا مُقتدرين على رُكُوبه ، مِن أَقْرَنَ له إذا أطاقه وقَوِيَ عَلَيه ، قاله القارئ (لَمُنقَلِبُون) أي راجعون ، واللام للتأكيد (البِر) أي الطاعة (والتَّقْوى) أي عَن المَعصية، أو المُراد مِن البِر الإحسان إلى النَّاس ، أوْ مِنَ اللَّه إلَينا ، ومِن التَّقْوَى ارتكاب الأوامر واجتناب النَّوَاهي (ومِن العَمَل ما تَرْضَى) أي به عَنَّا (قَالَهُنَّ) أي الكلمات المَذكورة ، وَهِيَ اللهُمَّ إنَّا نسألك ، إلخ (آيِبُون) أي : نَحْن راجعون مِن السَّفَر بالسَّلامة إلى الوطن)) .

*

قالَ اللَّهُ تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ والطَّيْرَ وأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ﴾[سَبَأ: ١٠].

أعطى اللَّهُ النبيَّ داودَ ﷺ فضلًا عظيمًا ، وهو النُّبُوَّة ، والزَّبُور ، والعِلْم ، والقُوَّة ، وتَسخير الجِبال والطَّيْر ، وإلانة الحديد ، وتَعليمه صُنع الدُّروع ، وحُسْن الصَّوْت ، وغَير ذلك .

وتَنكير ﴿ فَضْلًا ﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم ، أي : فَضْلًا عظيمًا واسعًا .

وقالَ اللَّهُ: يا جِبَال ، سَبِّحي مَعَ داود ، ورَجِّعي معه بالتَّسبيح، وأيضًا أنتِ يا طُيور، وجَعَلَ اللَّهُ الحديدَ لَيِّنًا في يد داود كالعَجِين ، يتصرَّف فيه بغَير إدخال نار ، ولا ضَرب بمِطْرَقَة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٩٥) : ((يُخبِر تعالى عمَّا أنعمَ به على عَبْده ورسوله دَاود عليه الصَّلاة والسَّلام ، مِمَّا آتاه مِن الفَضْل المُبِين ، وجَمَعَ له بَين النُّبُوَّةَ والمُلْكَ المُتمكِّن ، والجُنود ذَوِي العَدد والعُدد ، وما أعطاه ومَنَحَه مِن الصَّوت العظيم ، الذي كان إذا سبَّح به تُسبِّح معه الجبال الراسيات الصُّم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات ، وتُجاوبه بأنواع اللغات)) اهـ . وعن أبي مُوسى _ رضي اللَّهُ عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال له : ((يا أبا مُوسى ، لقد أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِن مَزاميرِ آلِ داود)) [٦٣] .

---

٦٣ متفق عليه . واللفظ للبخاري(٤/ ١٩٢٥) برقم (٤٧٦١). ومسلم (١/ ٥٤٦) برقم (٧٩٣). وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٨٠) : ((قال العُلَماء : الْمُراد بالمِزْمَار هُنا الصَّوت الحسَن . وأصل الزَّمْر الغِنَاء . وآل داود هو داود نَفْسُه ، وآل فُلان قد يُطلَق على نَفْسه ، وكان داود ﷺ حَسَنَ الصَّوْت جِدًّا ... . قال القاضي: أجمعَ العلماء على استحباب تحسين الصَّوت بالقِراءة ، وتَرتيلها . قال أبو عُبَيد: والأحاديث الواردة في ذلك محمولة على التَّحزين والتَّشويق . قال : واختلفوا في القِراءة بالألحان ، فكرهها مالك والجمهور ، لخروجها عمَّا جاء القرآن له مِن الخُشُوع والتَّفَهُّم ، وأباحها أبو حَنيفة وجماعة مِن السَّلَف للأحاديث ، ولأن ذلك سبب للرِّقة ، وإثارة الخَشْية ، وإقبال النُّفُوس على استماعه . قُلت : قال الشافعيُّ في موضع : أَكْرَه القِراءةَ بالألحان ، وقال في مَوضِع : لا أكرهها . قال أصحابنا : ليس له فيها خِلاف، وإنما هو اختلاف حَالَيْن ، فحيث كَرِهَها أراد إذا مَطَّطَ وأخرجَ الكلام عن مَوضعه بزيادة أو نقص ، أوْ مَد غير ممدود ، وإدغام ما لا يجوز إدغامه ، ونَحْو ذلك ، وحَيث أباحها أراد إذا لم يكن فيها تغيُّر لموضوع الكلام ، واللَّهُ أعلم)) .

أعطى اللَّهُ أبا مُوسى الأشعريَّ _رضي اللَّهُ عنه_صَوْتًا حَسَنًا يُشبِه ما أعطاه اللَّهُ للنبيِّ داود ﷺ مِن حُسْن الصَّوْت . والمِزمار آلة ، وتَمَّ إطلاقها على الصَّوْت الحَسَن بسبب التَّشابه بينهما .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٣٦) : ((قال ابن عَبَّاس : كانت الطَّيْرُ تُسبِّح معه إذا سَبَّحَ ، وكان إذا قرأ لَم تَبْقَ دابَّة إلا استمعت لقِراءته ، وبكت لبُكائه . وقال وَهْب بن مُنبِّه : كان يقول للجِبال : سَبِّحي ، وللطَّيْر : أجيبي ، ثُمَّ يأخذ هو في تِلاوة الزَّبُور بَين ذلك بصَوته الحَسَن ، فلا يَرى الناسُ مَنْظَرًا أحسنَ مِن ذلك ، ولا يَسمَعون شيئًا أطْيَبَ مِنه. قَوله تعالى: ﴿ وألَنَّا لَهُ الحَدِيدَ﴾ ، أي : جَعَلْناه لَيِّنًا . قال قَتادة : سخَّر اللَّهُ له الحديدَ بغَير نار ، فكان يُسوِّيه بيده ، لا يُدخله النارَ ، ولا يَضرِبه بحديدة ، وكان أوَّل مَن صَنَعَ الدُّرُوعَ ، وكانت قَبْل ذلك صَفائح)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٣) : ((وكان الأصل : ولقد آتَيْنا دَاودَ مِنَّا فَضْلًا تأويبَ الجِبال والطَّيْر، فبدَّل بهذا النَّظْم لِمَا فِيه مِن الفَخَامة ، والدَّلالة على عِظَم شأنه ، وكِبرياء سُلطانه، حَيث جَعَلَ الجِبالَ والطُّيورَ كالعُقَلاء المُنقادين لأمره في نَفَاذ مَشيئته فيها ، ﴿ وألَنَّا لَهُ الحَدِيدَ ﴾ جَعَلْناه في يَده كالشَّمْع ، يُصرِّفه كيف يَشاء مِن غَير إحماء وطَرْق ، بإلانته أو بقُوَّته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ أنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ واعْمَلُوا صَالِحًا إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سَبَأ : ١١] [٦٤]. اعْمَلْ مِن الحديد دُرُوعًا كاملةً واسعةً ، تُغطِّي لابسَها ، حَتَّى يَجُرَّها على الأرض ، واجْعَلْ نَسْجَ الدُّروع ذا حَلَقَات مُتناسبة، لا دقيقة ولا غليظة . والمعنى : قَدِّر المساميرَ في حَلَقَات الدِّرْع ، فلا تَجعل المساميرَ دقيقةً فتُفلِت ، ولا غليظة فتَكسِر الحَلَقَاتِ . واعملوا يا آلَ داود عَمَلًا صالحًا خالصًا، إنَّ اللَّه مُطَّلع على أعمالكم وسيُجازيكم بها ، ولا يَخفَى عَلَيه شيء.

---

٦٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٣٦ و٤٣٧) : ((قَوله تعالى: ﴿ أنِ اعْمَلْ ﴾ . قال الزَّجاج: معناه : وقُلنا له : اعْمَلْ . ويكون في معنى: لأن يَعمَل ﴿ سَابِغَاتٍ ﴾ أي: دُرُوعًا سابغات، فَذَكَرَ الصِّفَة لأنها تدلُّ على الموصوف . قال المفسِّرون: كان يأخذ الحديدَ بيده فيصير كأنَّه عَجين يَعمَل به ما يشاء ، فيَعمَل الدِّرْعَ في بَعْضِ يَوْم ، فيَبيعه بمال كثير ، فيأكل ويتصدَّق . والسَّابغات الدُّروع الكوامل التي تُغطِّي لابسَها حتى تَفْضُل عنه فيَجُرَّها على الأرض . ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أي: اجْعَلْه على قَدْر الحاجة. قال ابن قُتَيبة : السَّرْد النَّسْج ، ومِنه يُقَال لصانع الدُّرُوع: سَرَّاد ، ... . وفي معنى الكلام قَولان : أحدهما عَدِّل المِسمار في الحَلْقة ولا تُصغِّره فيقلق ، ولا تُعظِّمه فتنفصم الحَلْقة ، قاله مجاهد . والثاني لا تجعل حِلَقَه واسعة ، فلا تَقِي صاحبَها ، قاله قتادة . قَوله تعالى : ﴿ واعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ خِطَاب لداود وآله)) .

لقد ألانَ اللَّهُ الحديدَ لداود ﷺ ، حَتَّى صار في يده كالعَجِين ، وصارَ أوَّلَ مَن صَنَعَ الدُّرُوعَ حِلَقًا، وكانت قَبْل ذلك صفائح ثقيلة. وفي هذا دليل واضح على قُدرة اللَّه المُطْلَقَة ، وهو سُبحانَه القادر على كُل شيء ، ولا يُعجِزه شيء .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٩٥) : ((قال تعالى : ﴿ أنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ ، وهي الدُّرُوع . قال قَتادة : وهو أوَّل مَن عَمِلَها مِن الخَلْق ، وإنَّما كانت قَبْل ذلك صفائح . وقال ابن أبي حاتم : حَدَّثَنا علي بن الحُسَين حَدَّثَنا ابن سَمَاعة حَدَّثَنا ابن ضَمُرة عن ابن شَوْذَب قال : كان داود عليه السلام يَرفع في كُل يَوم دِرْعًا،فيبيعها بسِتَّة آلاف دِرْهَم ، أَلْفَيْن له ولأهله، وأربعة آلاف دِرْهَم يُطعِم بها بني إسرائيل خُبْزَ الحُوَّاري ، ﴿ وَقَدِّرْ في السَّرْدِ ﴾ ، هذا إرشاد مِن اللَّه تعالى لِنَبِيِّه داود عليه السلام في تعليمه صَنعة الدُّروع . وقال مُجاهد في قَوله تعالى : ﴿ وَقَدِّرْ في السَّرْدِ ﴾ ، لا تَدِقَّ المسمار فيقلق في الحَلْقة ، ولا تُغلِظه فيَقصِمها ، واجعله بقَدْر . وقال الحَكَم بن عُيَينة : لا تُغلِظه فيَقصِم ، ولا تَدِقَّه فيقلق ، وهكذا رُوِيَ عن قَتادة وغَير واحد. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السَّرْد حِلَق الحديد، وقال بعضُهم : يُقال: دِرْع مَسرودة إذا كانت مَسمورة الحِلَق، ... .وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه الصلاة والسلام من طريق إسحاق بن بِشْر وفيه كلام عن أبي إلياس عن وَهْب بن مُنبِّه ما مضمونه أنَّ داود عليه السلام كان يَخرج مُتَنَكِّرًا فيسأل الرُّكبانَ عَنه وعن سِيرته ، فلا يسأل أحدًا إلا أثنى عليه خيرًا في عِبادته وسِيرته وعَدْله عليه السلام . قال وَهْب : حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تعالى مَلَكًا في صُورة رَجُل ، فَلَقِيَه داودُ عليه الصلاة والسلام فسأله كما كان يسأل غَيْرَه ، فقال : هو خَير الناس لنَفْسه ولأُمَّته إلا أنَّ فِيه خَصْلَة لَوْ لَم تكن فيه كان كاملًا ، قال : ما هي ؟ ، قال : يَأكل ويُطعِم عِيَالَه مِن مال المسلمين ، يعني بَيت المَال ، فعِند ذلك نَصَبَ داود عليه السلام إلى رَبِّه عَزَّ وَجَلَّ في الدُّعاء أن يُعلِّمه عَمَلًا بيده يَستغني به ، ويُغني به عِيَالَه ، فألانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ له الحديدَ ، وعلَّمه صَنعةَ الدُّروع ، فَعَمِلَ الدُّرُوع ، وهو أوَّل مَن عَمِلَها ، فقال اللَّهُ تعالى : ﴿ أنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ في السَّرْدِ ﴾ ، يعني: مَسامير الحِلَق ، قال : وكان يَعمَل الدِّرْعَ ، فإذا ارتفع مِن عَمِله دِرْع ، باعها فتصدَّق بثُلُثها ، واشترى بثُلُثها ما يَكفيه وعِياله ، وأمسكَ الثُّلُثَ يتصدَّق به يَوْمًا بيَوم إلى أن يَعمَل غَيْرَها . وقال : إنَّ اللَّه أعطى داود شيئًا لَم يُعْطِه غَيْرَه مِن حُسْن الصَّوت ، إنَّه كان إذا قرأ الزَّبُورَ ، تجتمع الوُحُوشُ إلَيه حَتَّى يُؤخَذ بأعناقها وما تَنفِر ، وما صَنعت الشياطينُ المزاميرَ والبَرَابِط (جَمْع بَرْبَط هو العُود) ، والصُّنُوج (جَمْع صَنْج ، مِن آلات المُوسيقى)، إلا على أصناف صَوته عليه السلام، وكان شديد

الاجتهاد، وكان إذا افتتحَ الزَّبُورَ بالقِراءة كأنَّما يَنفُخ في المَزَامير، وكان قد أُعْطِيَ سَبعين مِزْمَارًا في حَلْقِه. وقَوله تعالى : ﴿ واعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ ، أي : في الذي أعطاكم اللَّهُ تعالى مِن النِّعَم ﴿ إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، أي: مُرَاقِب لكم ، بَصِير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يَخفَى عليَّ مِن ذلك شيء)).

وعن أنس ــ رضي اللَّهُ عنه ــ :عِند قَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وألَنَّا لَهُ الحَدِيدَ (١٠) أنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ قال أنس : إنَّ لُقْمَانَ كانَ عِندَ دَاوُدَ وَهُوَ يَسْرُدُ الدِّرْعَ ، فَجَعَلَ يَفْتِلُهُ هَكَذا بِيَدِه ، فَجَعَلَ لُقْمَانُ يتعجَّب ، ويُريدُ أن يَسألَه ، ويَمْنَعُه حِكْمَتُه أن يَسألَه ، فلمَّا فَرَغَ مِنها صَبَّها على نَفْسِه ، فقال : نِعْمَ دِرْعُ الحَرْبِ هَذِه ، فقالَ لُقمان : الصَّمْتُ مِنَ الحِكمة ، وقليلٌ فاعلُه ، كُنتُ أردتُ أن أسألَكَ فَسَكَتُّ حَتَّى كَفَيْتَني [٦٥].

لُقمان حكيم، ولَيس نبيًّا . وهذا الحديثُ دليل على أنَّه عاصرَ النبيَّ داود ﷺ ، ورآه وهو يَصنع دِرْعَ الحَرب، ومنعته حِكمته مِن السؤال عن فائدة هذا الشَّيء ، فَسَكَتَ . وقد بيَّن داود حقيقةَ هذا الشَّيء ، وأجابَ عن السؤال الذي كان يَدُور في ذِهْن لُقمان الحكيم .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٦٦) : ((وروى الطبري من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المُسيِّب : كان لُقمانُ مِن سُودان مِصْر ، ذُو مشافر (شِفَاه غليظة)، أعطاه اللَّهُ الحِكمةَ ، ومَنَعَه النُّبُوَّةَ . وفي المُسْتَدْرَك بإسناد صحيح عن أنس قال : كان لُقمانُ عِند داود ، وهو يَسْرُد الدِّرْعَ ، فَجَعَلَ لُقمانُ يتعجَّب ، ويُريد أن يَسْأَلَه عن فائدته ، فتَمنعه حِكمته أن يَسأل . وهذا صريح في أنَّه عاصرَ داود عليه السلام)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وأسَلْنا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سَبَأ : ١٢] .

يَذكُر اللَّهُ نِعَمَه العظيمة على سُلَيمان بن داود ــ عليهما الصلاة والسلام ــ ، فقد مَنَّ عَلَيه بالنُّبُوَّة والمُلْك والجاه . سخَّر اللَّهُ لسُلَيمان ﷺ الرِّيحَ تَسِير بأمره ، وسَيْرها مِن الصَّباح إلى الظُّهْر مسيرة شَهْر ، ومِن الظُّهْر إلى الغُرُوب مسيرة شَهْر .

سخَّر اللَّهُ له الرِّيحَ تَقطَع به المَسافات الشاسعة في سَاعات مَعدودات ، تَحمِله معَ جُنده فتنتقل به مِن بلد إلى بلد ، تغدو به مسيرة شَهْر إلى نِصف النَّهار ، وترجع به مَسيرة شَهْر إلى آخِر النهار ، فتقطع به مسيرة شَهْرَيْن في نهار واحد .

---

٦٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٨) برقم (٣٥٨٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وأذابَ له النُّحَاسَ ، حَتَّى كان يَجْري كَجَرْيِ الماء . وقد أجرى اللَّهُ لسُلَيمان النُّحَاسَ ، كما ألانَ لداود الحديدَ، آيةً باهرةً ، ومُعجِزةً واضحةً . وسخَّر اللَّهُ لسُلَيمان الجِنَّ يَعْمَلُون بأمره وإرادته ما شاءَ ، ومَن يَعْدِلْ مِنهُم عمَّا أمره اللَّهُ بِه مِن طاعة سُلَيمان، يُعذِّبه في النار المُستعرة في الآخرة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٩٧) : ((لمَّا ذَكَرَ تعالى ما أنعمَ به على داود عَطَفَ بذِكْر ما أعطى ابنَه سُلَيمان عليهما الصلاة والسلام مِن تَسخير الرِّيح له تَحمِل بِساطَه ، غُدُوُّها شَهْر، ورَوَاحها شَهْر . قال الحَسَن البَصْري : كان يَغدو على بِساطه مِن دِمَشْق، فينزل بإصْطَخْر (مَدينة قديمة تقع في جَنوب إيران) ، يتغدَّى بها ، ويذهب رائحًا مِن إصْطَخْر ، فيبيت بكَابُل ، وبَين دِمَشْق وإصْطَخْر شهر كامل للمُسْرِع ، وبَين إصْطَخْر وكَابُل شهر كامل للمُسْرِع . وقَوله تعالى : ﴿ وأسَلْنا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ﴾ . قال ابن عباس ــرضي اللَّهُ عنهماــومُجاهد وعِكرمة وعَطاء الخُرَاساني وقَتادة والسُّدي ومالك عن زَيد بن أسْلَم وعبد الرحمن بن زَيد بن أسْلَم وغَير واحد : القِطْر النُّحَاس . قال قَتادة : وكانت باليَمَن ، فكُل ما يَصنع الناسُ مِمَّا أخرجَ اللَّهُ تعالى لِسُلَيمان عليه السَّلام . قال السُّدي : وإنَّما أُسِيلَتْ له ثلاثة أيام . وقَوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإذْنِ رَبِّهِ ﴾ ، أي : وسَخَّرْنا له الجِنَّ يَعملون بَين يَدَيه بإذن رَبِّه ، أي: بقَدَره وتَسخيره لهم بمَشيئته ما يَشاء مِن البِنايات وغَير ذلك ، ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أمْرِنا ﴾ ، أي: ومَن يَعْدِلْ ويَخرُج مِنهُم عن الطاعة ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ ، وهو الحَريق)) .

وعن ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما قال : مات سُلَيمانُ بن داود ــ عَلَيهما السَّلام ــ وهو قائم يُصلِّي ، ولَم تَعْلَم الشياطينُ بذلك حتى أَكَلَت الأَرَضَةُ عَصَاه فَخَرَّ ، وكان إذا نَبَتَتْ شجرةٌ سألها لأيِّ داءٍ أنتِ ؟ ، قال : فتُخبِره كما أخبرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وأسَلْنا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ﴾ الآيات كُلُّها ، فلمَّا نَبَتَت الخُرْنُوب سألها لأيِّ شيءٍ نَبَتِّ ؟، فقالت : لِخَرَابِ هذا المَسْجِد ، قال : إنَّ خَرَابَ هذا المَسْجِد لا يَكُونُ إلا عِندَ مَوْتي ، فقامَ يُصلِّي [٦٦].

هذا يدلُّ على المُلْك الواسع الذي مَنَحَه اللَّهُ للنبيِّ سُلَيمان ﷺ ، والقُدراتِ الخارقة ، والإمكانيات الهائلة . وكُل هذا بفَضْل اللَّه وتَسخيره ، فهو المُحسِن إلى سُلَيمان والمُتَفَضِّل عليه .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((سَألْتُ اللَّهَ مَسألةً وَدِدْتُ أنِّي لَم أكُن سَألْتُه ، ذَكَرْتُ رُسُلَ رَبِّي ، فقُلتُ : يا رَب ، سَخَّرْتَ لِسُلَيمانَ الرِّيحَ ، وكَلَّمْتُ مُوسَى ، فقال

٦٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٩) برقم (٣٥٨٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

تباركَ وتعالى : أَلَم أَجِدْكَ يتيمًا فآوَيْتُك ، وضَالًّا فَهَدَيْتُك ، وعائلًا فَأَغْنَيْتُك ؟ ، قال : فقُلتُ : نَعَم ، فَوَدِدْتُ أن لَم أَسْأَلْه)) [٦٧].

عدَّد اللَّهُ نِعَمَه على النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، وهي نِعَمٌ كثيرة ، لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، مِنها : إيواؤُه بَعد يُتْمه ، وهِدايته بعد ضَلاله ، وإغناؤُه بَعد فَقْره. وقد أنعمَ اللَّهُ على جميع الأنبياء بالنِّعَم العظيمة .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ ما يشاءُ مِن مَحَارِيبَ وتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ وقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سَبَأ : ١٣] [٦٨]**. هذه هي الأعمال التي كلَّف اللَّهُ بها الجِنَّ . يَعمل هؤلاء الجِنُّ للنبيِّ سُلَيمان ﷺ ما يُريد مِن القُصُور الشامخة العالية، والتماثيلِ العجيبة مِن النُّحاس والزُّجاج والرُّخَام،وقِصَاع ضخمة تُشبِه الأحواضَ، وقُدُور كبيرة ثابتات لها قوائم، لا تتحرَّك عن أماكنها بسبب ضخامتها. وقُلنا لهم: اعملوا يا آل داود بطاعة اللَّه تعالى، شُكرًا له على ما آتاكم مِن الفَضْل العظيم والمُلْك الواسع والجاه العريض،وقليل مِن العِباد مَن يَعمل بطاعة اللَّه شُكرًا لنِعَمه.وهذا تنبيه على ضرورة الشُّكر وأهميته.والجديرُ بالذِّكر أنَّ التماثيل كانت مُباحة في شريعة سُلَيمان ﷺ ، وحُرِّمَتْ في شريعة مُحمَّد ﷺ لِكَيلا تُعبَد مِن دُون اللَّه تعالى .**

---

٦٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٧٣) برقم (٣٩٤٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٦٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/٤٣٩و٤٤٠):((﴿يَعْمَلُونَ لَهُ ما يشاءُ مِن مَحَارِيبَ ﴾ وفيها ثلاثة أقوال:أحدها أنها المساجد،قاله مجاهد وابن قُتَيبة.والثاني القُصُور، قاله عطية. والثالث المساجد والقُصُور، قاله قَتادة.وأمَّا التماثيل فهي الصُّوَر. قال الحسن: ولم تكن يومئذ محرَّمة.ثُمَّ فِيها قَولان : أحدهما أنها كانت كالطَّواويس والعِقبان والنُّسُور على كُرْسِيِّه ودَرَجَات سريره لكي يَهابَها مَن أراد الدُّنُوَّ مِنه، قاله الضَّحاك . والثاني أنها كانت صُوَر النَّبيين والملائكة لكَي يَراهم الناس مُصَوَّرين فيَعبدوا مِثْلَ عبادتهم ويتشبَّهوا بهم،قاله ابن السائب.وفي ما كانوا يَعملونها مِنه قَولان: أحدهما مِن النُّحَاس، قاله مجاهد.والثاني مِن الرُّخَام والشَّبَّة، قاله قَتادة. قَوله تعالى: ﴿ وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ ﴾ الجِفَان جَمْع جَفْنَة وهي القَصْعَة الكبيرة، والجوابي جمع جَابِيَة وهي الحَوْض الكبير يُجبَى فيه الماء أي يُجمَع ... . قال المفسِّرون: كانوا يَصنعون له القِصَاع كحِيَاض الإبِل يَجتمع على القَصْعَة الواحدة ألف رَجُل يأكلون منها. قَوله تعالى: ﴿ وقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ أي ثوابت. يُقال: رسا يَرسُو إذا ثَبَتَ . وفي عِلَّة ثُبُوتها في مَكانها قَولان: أحدهما أن أثافيها مِنها، قاله ابن عباس. والثاني أنها لا تُنزَل لِعِظَمها،قاله ابن قُتَيبة. قال المفسِّرون:وكانت القُدُور كالجبال لا تحرَّك من أماكنها،يأكل مِن القِدْر ألف رَجُل.قَوله تعالى:﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ المعنى وقُلنا:اعملوا بطاعة اللَّه شُكرًا له على ما آتاكم)).

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٩٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ ما يشاءُ مِن مَحَارِيبَ وتَمَاثِيلَ ﴾ ، أمَّا المَحَاريب فهي البَنَاء الحَسَن ، وهو أشرف شيء في المَسْكَن وصَدْرُه . وقال مُجاهد : المحاريب بُنيان دُون القُصُور، وقال الضَّحاك : هي المساجد، وقال قَتادة : هي القُصُور والمساجد، وقال ابن زيد : هي المساكن. وأمَّا التماثيل، فقال عَطِيَّة العَوفي والضَّحاك والسُّدي : التَّماثيل الصُّوَر. قال مجاهد : وكانت مِن نُحَاس. وقال قَتادة : مِن طِين وزُجَاج . وقَوله تعالى : ﴿ وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ وقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ ، الجَوَاب جَمْع جَابِيَة، وهي الحوض الذي يُجبَى فيه الماء. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : ﴿ كَالجَوَابِ ﴾ أي كالجَوْبَة (الحُفرة) مِن الأرض . وقال العَوفي عنه: كالحِيَاض، وكذا قال مُجاهد والحَسَن وقَتادة والضَّحاك وغَيرهم . والقُدُور الراسيات ، أي: الثابتات في أماكنها ، لا تتحرَّك ولا تتحوَّل عن أماكنها لِعِظَمها، كذا قال مُجاهد والضَّحاك وغَيرهما. وقال عِكرمة : أثافيها مِنها . وقَوله تعالى: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ ، أي: وقُلنا لهم : اعْمَلُوا شُكرًا على ما أنعمَ به عليكم في الدِّين والدُّنيا. وشُكرًا مَصْدَر مِن غَير الفِعْل، أوْ أنَّه مَفعول له، وعلى التَّقديرَيْن فِيه دَلالة على أن الشُّكر يكون بالفِعْل، كما يكون بالقَول والنِّية ، كما قال الشاعر : أفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثلاثةً ... يَدي ولِساني والضَّميرَ المُحَجَّبا. قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي : الصَّلاة شُكر، والصِّيام شُكر ، وكُل خَير تعمله للَّه عَزَّ وَجَلَّ شُكر ، وأفضل الشُّكر الحَمْد ، رواه ابن جرير. وروى هو وابن أبي حاتم عن مُحمَّد بن كَعْب القُرَظي.قال: الشُّكرُ تَقوى اللَّه تعالى ، والعمل الصالح ، وهذا لِمَن هو مُتَلَبِّس بالفِعل. وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشُكر اللَّه تعالى قَوْلًا وعَمَلًا. قال ابن أبي حاتم : حَدَّثَنا أبي حَدَّثَنا عبد اللَّه ابن أبي بَكْر حَدَّثَنا جعفر يعني ابن سُلَيمان عن ثابت البُنَاني قال : كان داود عليه السلام قد جزَّأ على أهله وولده ونسائه الصلاةَ ، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان مِن آل داود قائم يُصلِّي ، فغمرتهم هذه الآية : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ . وفي الصحيحَيْن : عن رسول اللَّه ﷺ أنَّه قال : " إنَّ أحبَّ الصلاة إلى اللَّه تعالى صلاة داود ، كان ينام نِصفَ الليل ، ويَقوم ثُلُثَه ، ويَنام سُدُسَه ، وأحب الصِّيام إلى اللَّه تعالى صِيام داود ، كان يَصوم يَوْمًا، ويُفطِر يَوْمًا ، ولا يَفِرُّ إذا لاقى " . وقد روى أبو عبد اللَّه بن ماجة من حديث سُنَيد بن داود: حدثنا يُوسُف بن مُحمَّد بن المُنْكَدِر عن أبيه عن جابر رضي اللَّهُ عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : " قالت أُمُّ سَلَيمانَ بنِ داودَ عليهم السلام لسُلَيمان : يا بُنَي ، لا تُكثِر النَّوْمَ بالليل ، فإنَّ كَثرة النَّوم بالليل تَترك الرَّجُلَ فقيرًا يوم القيامة " . وروى ابن أبي حاتم عن داود عليه الصلاة والسلام هَهُنا أثرًا

غريبًا مُطَوَّلًا جِدًّا . وقال أيضًا : حَدَّثَنا أبي حَدَّثَنا عِمران بن مُوسى حَدَّثَنا أبو زَيد فَيض بن إسحاق الرقي قال : قال فُضَيل في قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ ، قال داود : يا رَب ، كيف أشكُرك والشُكر نِعمة مِنك ؟ ، قال : " الآنَ شَكَرْتَني حِينَ قُلتَ إنَّ النِّعمة مِنِّي " . وقَوله تعالى : ﴿وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ إخبار عن الواقع)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٨٩) : ((﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ ما يشاءُ مِن مَحَارِيبَ ﴾ ، أي : مساجد والأبنية المُرتفعة ، وكان مِمَّا عملوا له بَيت المَقْدَس ، ابتدأه داود ، ورفعه قَدْرَ قَامَة رَجُل ، فأوحى اللَّهُ إليه إنِّي لَم أقْضِ ذلك على يَدِك ، ولكن ابن لك أُملِّكه بَعْدَك اسمه سُلَيمان ، أقضي تمامَه على يَده ، فلمَّا تَوَفَّاه اللَّهُ استخلفَ سُلَيمان ، فأحب إتمامَ بناء بيت المقدس ، فَجَمَعَ الجِنَّ والشياطينَ ، وقَسَّمَ عليهم الأعمال ، فَخَصَّ كُلَّ طائفة منهم بعمل يَستخلصها له ، فأرسلَ الجِنَّ والشياطينَ في تحصيل الرُّخام والمها الأبيض مِن مَعادنه ، وأمرَ ببناء المدينة بالرُّخام والصُّفَّاح ، وجعلها اثنَي عَشَرَ رَبَضًا (ناحية)، وأنزل كُلَّ رَبَض مِنها سِبْطًا مِن الأسباط، وكانوا اثنَي عَشَر سِبْطًا، فلمَّا فَرَغَ مِن بِناء المدينة ، ابتدأ في بناء المسجد ، فوجَّه الشياطين فِرَقًا فِرَقًا يستخرجون الذهب والفِضَّة والياقوت مِن معادنها، والدُّر الصافي من البحر، وفِرَقًا يَقلَعون الجواهرَ والحجارة من أماكنها، وفِرَقًا يأتونه بالمِسك والعَنبر وسائر الطِّيب من أماكنها ، فأتى من ذلك بشيء لا يُحصيه إلا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، ثم أحضرَ الصِّناعيين ، وأمرهم بنَحْت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحًا ، وإصلاح تلك الجواهر ، وثَقْب اليواقيت واللآلئ ، فبنى المسجد بالرُّخام الأبيض والأصفر والأخضر ، وعَمَدَه بأساطين المَها الصافي ، وسَقَفَه بألواح الجواهر الثمينة ، وفصَّص سُقوفه وحيطانه باللآلئ واليواقيت وسائر الجواهر ، وبسط أرضه بألواح الفَيْرُوزَج (نَوع مِن الأصباغ) ، فلم يكن يومئذ في الأرض بيت أبهى ولا أنوَر من ذلك المسجد ، وكان يُضيء في الظُّلمة كالقمر لَيلة البَدْر ، فلمَّا فَرَغَ منه جَمَعَ إليه أحبار بني إسرائيل،فأعلمهم أنَّه بناه اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وأنَّ كُل شيء فيه خالص للَّه ، واتَّخذ ذلك اليوم الذي فَرَغَ مِنه عِيدًا . ورُوِيَ عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص عن رسول اللَّه ﷺ قال : " لمَّا فَرَغَ سُلَيمانُ مِن بناء بيت المَقدس ، سأل رَبَّه ثلاثًا ، فأعطاه اثنَيْن ، وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة ، سأل حُكْمًا يُصادِف حُكْمَه ، فأعطاه إيَّاه ، وسأله مُلْكًا لا ينبغي لأحد مِن بَعْده ، فأعطاه إيَّاه ، وسأله أن لا يأتيَ هذا البيت أحد يُصلِّي فيه ركعتين إلا خرج مِن ذُنوبه كيَوم وَلَدَتْهُ أُمُّه ، وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك " . قالوا : فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سُلَيمان حَتَّى غَزَاه بُخْتُنَصَّر ، فخرَّب المدينةَ ، وهَدَمَها ، ونَقَضَ المسجد ،

وأخذ ما كان في سُقوفه وحِيطانه من الذهب والفضة والدُّر والياقوت وسائر الجواهر ، فَحَمَلَه إلى دار مَملكته مِن أرض العراق ، وبنى الشياطينُ لسُلَيمان باليمن حُصُونًا كثيرة عجيبة مِن الصَّخر . قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وتَمَاثِيلَ ﴾ ، أي : كانوا يَعمَلون له تماثيل ، أي : صُوَرًا مِن نُحَاس وصُفْر وشَبَّة وزُجاج ورُخام . وقِيل : كانوا يُصوِّرون السِّبَاع والطُّيور . وقِيل : كانوا يتَّخذون صُوَرَ الملائكة والأنبياء والصالحين في المساجد ليَراها الناس ، فيزدادوا عِبادةً ، ولَعَلَّها كانت مُباحة في شريعتهم، كما أن عيسى كان يتَّخذ صُوَرًا مِن الطِّين فيَنفُخ فيها فتكون طَيْرًا بإذن اللَّه . ﴿ وَجِفَانٍ ﴾ أي : قِصَاع ، واحدتها جَفْنَة ﴿ كَالجَوَابِ ﴾ كالحِيَاض التي يُجبَى فيها الماء ، أي : يُجمَع . واحدتها جَابِيَة، يُقال : كان يَقعُد على الجَفْنَة الواحدة ألف رَجُل يأكلون منها ، ﴿ وقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ ثابتات لها قوائم ، لا يُحَرَّكْنَ عن أماكنها لِعِظَمهنَّ ، ولا يُنزَلن ولا يُعطَّلن ، وكان يُصعَد عليها بالسَّلالم ، وكانت باليَمَن. ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ ، أي : وقُلنا : اعملوا آلَ داود شُكرًا ، مَجَازه : اعملوا يا آل داود بطاعة اللَّه شُكرًا له على نِعَمه ، ﴿ وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ أي : العامل بطاعتي شُكرًا لنِعْمتي. قِيل : المُراد مِن آل داود هو داود نَفْسُه . وقِيل : داود وسُلَيمان وأهل بَيته)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٤) : ((﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ ما يشاءُ مِن مَحَارِيبَ ﴾ قُصُور حَصِينة ، ومَسَاكن شريفة ، سُمِّيَتْ بها لأنها يُذَبُّ عَنها ، ويُحَارَب عَلَيها ، ﴿ وتَمَاثِيلَ ﴾ وصُوَرًا هي تماثيل للمَلائكة والأنبياء ، على ما اعتادوا مِن العبادات ليَراها الناس فيَعبدوا نَحْوَ عِبادتهم ، وحُرمة التصاوير شَرْع مُجدَّد . رُوِيَ أنَّهم عملوا له أسَدَيْن في أسفل كُرْسِيِّه ونَسْرَيْن فَوقه ، فإذا أراد أن يَصعد بَسَطَ الأسدان له ذِرَاعَيْهما ، وإذا قَعَدَ أظَلَّه النَّسْران بأجنحتهما ، ﴿ وَجِفَانٍ ﴾ وصِحَاف ﴿ كَالجَوَابِ ﴾ كالحِيَاض الكِبَار ، جَمْع جَابِيَة ، ... ، ﴿ وقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ ثابتات على الأثافي ، لا تُنزَل عنها لِعِظَمها ، ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ حِكاية عمَّا قِيل لهم ، و﴿ شُكْرًا ﴾ نصب على العِلَّة ، أي : اعملوا له واعبدوه شُكرًا ، أوْ المَصْدَر ، لأن العمل له شُكرًا ، أو الوَصْف له ، أو الحال أو المَفعول به ، ﴿ وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ المُتَوَفِّر على أداء الشُّكْر بقلبه ولِسانه وجوارحه أكثر أوقاته ، ومعَ ذلك لا يُوفِّى حَقَّه ، لأنَّ تَوفيقه الشُّكر نِعمة تَستدعي شُكرًا آخَر ، لا إلى نهاية ، ولذلك قِيل : الشَّكُور مَن يَرعى عَجْزَه عن الشُّكر)) .

*

قالَ اللَّهُ تعالى:﴿الرَّحْمَنُ(١)عَلَّمَ القُرآنَ(٢)خَلَقَ الإنسانَ(٣)عَلَّمَهُ البَيَانَ(٤)﴾[الرَّحمن] [٦٩].

اللَّهُ الرَّحمن ذُو الرَّحمة الواسعة الواصلة إلى خَلْقه ، عَلَّمَ القُرآنَ ، ويسَّره للحِفْظ والفَهْم . خَلَقَ الإنسانَ في أحسن صُورة وأجمل شكل ، وزوَّده بالأعضاء والحواس والجوارح ، وجعله سميعًا بصيرًا ناطقًا . والمُراد بالإنسان الجِنس . عَلَّمَه النُّطْقَ والكلام والفصاحة والبلاغة ، بحيث يَستطيع أن يُبيِّن رغباته ، ويُوضِّح حاجاته ، ويَشرح أفكاره ، ويُظهِر ما في ضَميره . والإنسانُ يتميَّز عَن سائر الحيوان بالبيان والمنطق والكلام والتعبير باللغة .

فضَّل اللَّهُ الإنسانَ على الحيوان بالكلام والفَهْم والبيان والبلاغة والفصاحة والتعبير عمَّا في ضَميره ، وإيصال أفكاره للآخرين ، وإفهامهم إيَّاها . وهذا يدلُّ على رحمة اللَّه بالإنسان ، وتفضُّله عَلَيه ، وإحسانه إلَيه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٤٥) : ((يُخبِر تعالى عن فَضْله ورحمته بخَلْقه أنَّه أنزلَ على عِباده القُرآنَ ، ويسَّر حِفْظَه وفَهْمَه على مَن رَحِمَه ، فقال تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ(١)عَلَّمَ القُرآنَ(٢)خَلَقَ الإنسانَ(٣)عَلَّمَهُ البَيَانَ(٤)﴾ . قال الحَسَن : يعني النُّطْق ، وقال الضَّحاك وقَتادة وغَيرهما : يعني الخَير والشَّر ، وقَول الحَسَن هَهُنا أحسن وأقوى ، لأن السِّياق في تعليمه تعالى

---

٦٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٠٥ و١٠٦) : ((قَوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ(١)عَلَّمَ القُرآنَ(٢)﴾ ، قال مُقاتل : لَمَّا نَزَلَ قولُه : ﴿ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفُرقان : ٦٠] . قال كُفَّار مَكَّة: وما الرحمن ؟! ، فأنكَروه ، وقالوا : لا نَعرف الرحمنَ ، فقال تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي أنكَروه هو الذي عَلَّمَ القُرآنَ . وفي قَوله : ﴿ عَلَّمَ القُرآنَ﴾ قَولان : أحدهما علَّمه مُحَمَّدًا ، وعَلَّمَ محمَّد أُمَّتَه ، قاله ابن السائب. والثاني يَسَّرَ القُرآنَ، قاله الزَّجاج . قَوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الإنسانَ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه اسم جِنس،فالمعنى خَلَقَ الناسَ جميعًا، قاله الأكثرون، فعلى هذا في البَيَان سِتَّة أقوال: أحدها النُّطْق والتَّمييز، قاله الحسن. والثاني الحلال والحرام، قاله قَتادة. والثالث ما يَقُول وما يُقَال له ، قاله محمَّد بن كَعْب. والرابع الخير والشر، قاله الضَّحاك. والخامس طُرُق الهُدى، قاله ابن جُرَيج. والسادس الكِتابة والخط، قاله يَمان . والثاني أنَّه آدم ، قاله ابن عباس وقَتادة،فعلى هذا في البَيَان ثلاثة أقوال: أحدها أسماء كُل شيء.والثاني بَيَان كُل شيء. والثالث اللغات . والقول الثالث أنَّه محمَّد ﷺ ، علَّمه بيان ما كان وما يَكُون ، قاله ابن كَيسان)) .

القُرآن ، وهو أداء تِلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النُّطْق على الخَلْق ، وتسهيل خُروج الحُروف مِن مواضعها مِن الحَلْق واللسان والشَّفَتَيْن ، على اختلاف مخارجها وأنواعها)) .

وقد عدَّد اللَّهُ نِعَمَه العظيمة على الإنسان ، لإرشاده إلى ضُرورة شُكر اللَّه بالتزام أوامره ، واجتناب نَوَاهيه ، وتنبيهًا على تقصير الإنسان في الشُّكر والطاعة والعبادة . وتقديم تَعليم القُرآن على خَلْق الإنسان ، لأنَّ القُرآن هو النِّعْمَة العُظمى ، وأصل النِّعَم الدينية ، والنِّعَم الدينية أهم وأعظم مِن النِّعَم الدُّنيوية .

وقال الخازن في تفسيره (٤/ ٢٤٦) : ((إنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عدَّد نِعَمَه على عِباده ، فقدَّم أعظمها نِعمة ، وأعلاها رُتبة ، وهو القُرآن العزيز ، لأنَّه أعظم وَحْي اللَّه إلى أنبيائه ، وأشرفه مَنزلة عِند أوليائه وأصفيائه ، وأكثره ذِكْرًا ، وأحسنه في أبواب الدِّين أثَرًا ، وهو سَنَام الكُتب السَّماوية المُنزَلة على أفضل البَرِيَّة)) .

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا)) [٧٠].

إنَّ مِن الكِلام المَنطوق ، المُشتمل على حُسن البَيَان والفصاحة والبلاغة ، ما يَكون سِحْرًا ، أي يُؤَثِّر في السامع ، ويَستولي على القلب والأحاسيس . وقِيل : هذا مَدْح ، لأنَّ اللَّه امتنَّ على الإنسان بتعليمه البَيَان ، فقال سُبحانَه : ﴿ عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ . وقِيل : هُوَ ذَم ، لأنَّه يَستولي على القلوب بالكلام الجميل المُؤَثِّر حتى يَكسب الإنسانُ الإثمَ .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ١٥٩) : ((قال القاضي: فيه تأويلان أحدهما أنَّه ذَم ، لأنه إمالة القلوب وصَرْفها بمقاطع الكلام إلَيه حتى يَكسِب مِن الإثم به كما يَكسِب بالسِّحْر. وأدخله مالك في المُوَطَّأ في باب ما يُكرَه من الكلام ، وهو مذهبه في تأويل الحديث. والثاني أنَّه مَدْح ، لأنَّ اللَّه تعالى امتنَّ على عباده بتعليمهم البَيَان ، وشبَّهه بالسِّحْر لِمَيْل القُلوب إلَيه ، وأصل السِّحْر الصَّرْف ، فالبَيَان يَصرِف القُلُوبَ ، ويُميلها إلى ما تَدعو إلَيه ، هذا كلام القاضي ، وهذا التأويل الثاني ، هو الصحيح المُختار)) .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٧ و٢٣٨) : ((قال الخَطَّابي : البَيَان اثنان : أحدهما ما تقع به الإبانة عن المُراد بأيِّ وجه كان ، والآخَر ما دخلته الصَّنعة بحيث يَرُوق للسامعين ويَستميل قُلوبَهم ، وهو الذي يُشبَّه بالسِّحْر ، إذا خَلَبَ القلبَ ، وغَلَبَ على النَّفْس ، حتى يُحوِّل الشيءَ

---

٧٠ متفق عليه. البخاري (٥/ ١٩٧٦) برقم (٤٨٥١) ، ومسلم (٢/ ٥٩٤) برقم (٨٦٩) .

عن حقيقته، ويَصرِفه عن جِهته ، فيَلُوح للناظر في مَعرِض غَيْرِه ، وهذا إذا صَرَفَ إلى الحَق يُمدَح، وإذا صَرَفَ إلى الباطل يُذَم . قال : فعلى هذا فالذي يُشبَّه بالسِّحْر مِنه هو المَذموم . وتُعُقِّبَ بأنه لا مانع مِن تَسمية الآخَر سِحْرًا ، لأن السِّحْر يُطلَق على الاستمالة ، ... . وقال ابن بَطَّال : أحسن ما يُقَال في هذا أن هذا الحديث لَيس ذَمًّا للبَيَان كُلِّه ، ولا مَدْحًا ، لقَوله : " مِنَ البَيَان " ، فأتى بلَفظة (مِن) التي للتَّبعيض ، قال : وكيف يُذَمُّ البَيَان وقد امتنَّ اللَّهُ به على عِباده حيث قال : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ(٣)عَلَّمَهُ البَيَانَ(٤)﴾ ، انتهى . والذي يَظهَر أنَّ المُراد بالبَيَان في الآية المعنى الأوَّل الذي نبَّه عليه الخَطَّابي لا خُصُوص ما نَحْن فيه.وقد اتَّفق العلماء على مَدْح الإيجاز والإتيان بالمَعَاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة، وعلى مَدْح الإطناب في مَقَام الخَطَابَة بحَسَب المَقَام. وهذا كُلُّه مِن البَيَان بالمعنى الثاني. نَعَم ، الإفراط في كل شيء مَذموم، وخَير الأمور أوسطها، واللَّهُ أعلم)).

*

١٣_ الشِّعْر والشُّعَراء

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُون ﴾ [الشُّعَراء : ٢٢٤] .

والشُّعراءُ يتَّبعهم السُّفَهَاءُ الضَّالُّون أهلُ الزَّيغ والضَّلال لا أهلُ الرَّشاد والهُدى . وهذا دليل على أن الشُّعراء أنفُسَهم ضَالُّون ، لأنَّهم لَوْ لَم يَكونوا ضَالِّين ، لَمَا كان أتباعُهم ضَالِّين . والآيةُ تُثبِت بوضوح أنَّ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَيس شاعرًا ، وأتباعَه لَيسوا ضَالِّين . وهذا رَد على كُفَّار قُرَيش .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ١٥٠) : ((وروى العَوفي عن ابن عباس قال : كان رَجُلان على عَهد رسول اللَّه ﷺ قد تَهَاجَيَا ، فكان معَ كُل واحد مِنهما غُواة مِن قَومه ، فقال اللَّهُ : ﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُون ﴾ ، وفي رواية أُخرى عن ابن عباس ، قال : هُم شُعَرَاء المُشركين . قال مُقاتل: منهم عبد اللَّه بن الزِّبَعْرِي ، وأبو سُفيان بن حَرْب ، وهُبَيرة بن أبي وَهْب المَخزومي في آخرين ، قالوا : نحن نقول مِثل قَول مُحمَّد ، وقالوا الشِّعْرَ ، فاجتمع إليهم غُواة مِن قَومهم ، يَستمعون أشعارَهم ، ويَرْوُون عَنهُم . وفي الغاوين ثلاثة أقوال : أحدها الشياطين ، قاله مُجاهد وقَتادة ، والثاني السُّفَهاء ، قاله الضَّحاك ، والثالث المُشركون ، قاله ابن زَيد)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧٦٧) : عن عُمر بن الشَّرِيد عن أبيه، قال: رَدِفْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَوْمًا، فقال: ((هَل مَعَكَ مِن شِعْرِ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ شَيْئًا ؟))، قُلتُ : نَعَم ، قال : ((هِيْهِ))، فأنشَدْتُهُ بَيْتًا ، فقال : ((هِيْهِ)) ، ثم أنشَدْتُهُ بَيْتًا ، فقال : ((هِيْهِ)) ، حَتَّى أنشَدْتُهُ مَائَةَ بَيْت .

يَقول الشَّرِيد بن سُوَيد الثَّقَفِي _ رضي اللَّهُ عنه _ إنَّه رَكِبَ خَلْفَ النبيِّ ﷺ في يَوم مِن الأيَّام ، وسأله النبيُّ ﷺ إذا كانَ يَحفظ شيئًا مِن شِعْر أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت ، لِمَا في شِعْره مِن الإقرار بوَحْدانيَّةِ اللَّه تعالى والبَعْثِ ، وكانَ أُمَيَّة ثَقَفِيًّا ، أدركَ بدايات الإسلام ، وبَلَغَه خَبر مَبعَث النبيِّ مُحمَّد ﷺ ، لَكِنَّ اللَّه لَم يُوفِّقه للإسلام . وقد آمَنَ شِعْرُه ، وكَفَرَ قَلْبُه . و(هِيْهِ) كلمة للاستزادة. وقد أنشدَ الشَّرِيدُ النبيَّ ﷺ بَيْتًا مِن أشعار أُمَيَّة ، فأعجبه ﷺ ، وَطَلَبَ مِنه أن يَزيد، حَتَّى أنشده مِئة بَيْت . وفي الحديث دليل على أهمية حِفظ الأشعار الجميلة والحِرص عَلَيها ، وجواز طَلَب إنشاد الشِّعْر الحَسَن المُشتمل على المعاني العظيمة والحِكَم البليغة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ١٢) : ((ومَقصود الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ اسْتَحْسَنَ شِعْرَ أُمَيَّة، واستزادَ مِن إنشاده لِمَا فيه مِن الإقرار بالوَحدانية والبَعْث ، ففِيه جَوَاز إنشاد الشِّعْر ، الذي لا فُحْش فيه ، وسَمَاعه ، سَوَاءٌ شِعْر الجاهلية وغَيرهم ، وأنَّ المَذموم مِن الشِّعْر

الذي لا فُحْش فيه ، إنَّما هو الإكثار مِنه ، وكَونه غالبًا على الإنسان ، فأمَّا يسيره فلا بأس بإنشاده وسَمَاعه وحِفْظه . وقَوله ﷺ : " هَل مَعَكَ مِن شِعْرِ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ شيئًا ؟ " ، فهكذا وقع في مُعظَم النُّسَخ (شَيْئًا) بالنَّصْب ، وفي بعضها (شيء) بالرَّفْع ، وعلى رواية النَّصْب يُقَدَّر فيه مَحذوف ، أي : هَل مَعَكَ مِن شَيء فَتُنْشِدُني شيئًا ؟)) .

وعن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : قال النبيُّ ﷺ : ((أصدقُ كَلِمَةٍ قالها الشاعرُ ، كَلِمَةُ لَبيد : ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللَّهَ باطلٌ)) [٧١] .

المقصودُ بالباطلِ هو الفاني الزَّائل. والمعنى : كُلُّ شَيء يَفنى ويَزول إلا اللَّه . وكُلُّ مَعبود مِن دُون اللَّه باطل . فلا مَعبود بحَق إلا اللَّه وَحْدَه ، لا شريك له .

وهذه أعظمُ كلمة قالها شاعر وأصدقُها، لأنها مُوافقة للنَّقْل والعقل معًا . والمقصودُ بالكلمة في هذا السِّياق بَيت الشِّعر. وتمامُ البَيت : وكُلُّ نعيمٍ لا مَحَالة زائل .

والحديثُ مَنقَبة للصحابيِّ الجليل لَبيد بن أبي ربيعة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ [٧٢] ، وهو الشاعرُ الوحيد الذي أسلمَ مِن أصحاب المُعلَّقات . وقد كان سَيِّدًا شريفًا ذا منزلة اجتماعية رفيعة في الجاهلية والإسلام . و " شَيء " اسم للمَوجود ، ولا يُقال للمَعدوم شَيء .

وقال المُناوي في فَيض القدير (١/ ٥٢٩) : ((ولا رَيْبَ أنَّ هذه الكلمة أصدقُ ما تَكَلَّمَ به ناظم أو ناثر ، مُقدمتها كُلِّية مقطوع بصحتها وشُمولها ، عَقلاً ونَقلاً ، ولَم يَخرج مِن كُلِّيتها شيء قَطْعًا إلا ما مَرَّ استثناؤه ، وهو اللَّه وصفاته وعقابه وثوابه . وفيه جَواز الشِّعر وإنشاده ، ما لَم يَخِل بأمر دينيٍّ ، أو يُزيل الوَقارَ ، أو يَحصل منه إطراء أو إكثار)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ١٣٧): ((قال ابن العربي: أمَّا الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها ، وإن استغرقت الحَدَّ ، وتجاوزت المُعتادَ ، فبذلك يَضرِب المَلَكُ المُوكَّل بالرُّؤيا المَثَلَ ، وقد أنشد كَعْبُ بن زُهَير النبيَّ ﷺ :

---

٧١ متفق عليه. البخاري (٣/ ١٣٩٥) برقم (٣٦٢٨) ، ومسلم (٤/ ١٧٦٨) برقم (٢٢٥٦) .

٧٢ في تحفة الأحوذي (٨/ ١١٥) : ((هو ابن ربيعة الشاعر العامري . قَدِمَ على النبيِّ ﷺ وَفدُ قَومه بنو جعفر بن كِلاب ، وكان شريفًا في الجاهلية والإسلام . نزل الكوفة ، ومات بها سنة إحدى وأربعين، وله من العمر مائة وأربعون سنة. وقِيل : مائة وسبع وخمسون سنة . ذَكَره صاحب المِشكاة. ومِن جُملة فضائله أنه لَمَّا أسلمَ لَم يَقُلْ شِعرًا ، وقال : يَكفيني القُرآن)) .

بانت سُعَادُ فقلبي اليوم مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ
وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذْ رَحَلُوا إلا أَغَنُّ غَضيضُ الطَّرْفِ مَكحولُ
تَجلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ كأنَّه مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلولُ

فجاء في هذه القصيدة مِن الاستعارات والتشبيهات بكل بديع، والنبيُّ ﷺ يَسمَع ، ولا يُنكِر في تَشبيهه رِيقها بالرَّاح (الخَمْر) . وأنشد أبو بَكْر ــ رضي اللَّهُ عنه ــ :

فَقَدْنا الوَحْيَ إذْ وَلَّيْتَ عَنَّا وَوَدَّعَنَا مِنَ اللَّهِ الكَلامُ
سِوى ما قَد تَركتَ لَنَا رَهِينًا تَوَارَثَهُ القَرَاطِيسُ الكِرامُ
فَقَدْ أوْرَثْتَنَا مِيراثَ صِدْقٍ عَلَيْكَ بِهِ التَّحِيَّةُ والسَّلامُ

فإذا كان رسول اللَّه ﷺ يَسمَعه وأبو بَكْر يُنشِده ، فهل للتقليد والاقتداء مَوضع أرفع مِن هذا ؟ . قال أبو عُمر : ولا يُنكِر الحَسَنَ مِن الشِّعْر أحد مِن أهل العِلْم ، ولا مِن أُولي النُّهَى (العُقُول) ، وليس أحد مِن كِبار الصحابة وأهل العِلْم ومَوضع القُدوة إلا وقد قال الشِّعْرَ ، أوْ تَمَثَّلَ به ، أوْ سَمِعَه فَرَضِيَه ما كان حِكمة أوْ مُبَاحًا ، ولم يكن فيه فُحْش ولا خَنَا ، ولا لمُسلم أذى ، فإذا كان كذلك فهو والمَنثور مِن القَول سَواء ، لا يَحِلُّ سَمَاعُه ولا قَوْلُه ، ... . ورُوِيَ عن ابن سِيرين أنَّه أنشدَ شِعْرًا ، فقال له بعضُ جُلَسائه : مِثْلُك يُنشِد الشِّعْرَ يا أبا بَكْر ، فقال : وَيْلَكَ يا لُكَع ! ، وهل الشِّعْر إلا كلام لا يُخَالِف سائرَ الكلام إلا في القَوَافي ، فَحَسَنُه حَسَن ، وقَبِيحه قبيح ! . قال: وقد كانوا يتذاكرون الشِّعْرَ . قال : وسَمِعْتُ ابن عُمر يُنشِد :

يُحِبُّ الخَمْرَ مِن مَالِ النَّدَامى ويَكْرَهُ أن يُفَارقه الغَلُوسُ

وكان عُبَيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عُتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العَشَرَة ، ثُمَّ المَشْيَخَة السَّبعة شاعرا مُجيدًا مُقَدَّمًا فيه ، وللزُّبَير بن بَكَّار القاضي في أشعاره كتاب ، وكانت له زوجة حَسَنَة تُسمَّى عَثْمة ، فَعَتَبَ عَلَيها في بعض الأمر فطلَّقها ، وله فيها أشعار كثيرة مِنها قَوله :

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ في فُؤَادي فباديه مَعَ الخافي يسيرُ
تَغَلْغَلَ حَيْثُ لَم يَبْلُغْ شَرَابٌ ولا حُزْنٌ وَلَم يَبْلُغْ سُرُورُ
أكَادُ إذا ذَكَرْتُ العَهْدَ مِنها أطِيرُ لَوْ أنَّ إنسانًا يَطِيرُ

وقال ابن شِهاب : قُلتُ له : تَقُول الشِّعْرَ في نَسْكِك (عِبادتك) وفَضْلِك !، فقال : إنَّ المَصدور إذا نَفَثَ بَرَأ . وأمَّا الشِّعْر المَذموم الذي لا يَحِلُّ سَمَاعُه ، وصاحبه مَلُوم ، فهو المُتكلم بالباطل حتى يُفَضِّلوا أجبنَ الناس على عَنترة ، وأشَحَّهم على حاتم، وأن يَبْهَتُوا البريء ، ويُفَسِّقوا التَّقِيَّ ،

وأن يُفَرِّطُوا في القَول بما لَم يَفعله المَرء رغبةً في تسلية النَّفْس ، وتحسين القَول ، كما رُوِيَ عَن الفَرَزْدَق أنَّ سُلَيمان بن عبد المَلِك سَمع قَوْلَه :

فَبِتْنَ بجانبيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الخِتَامِ

فقال : وقد وَجَبَ عَلَيك الحَد ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، قد دَرَأَ اللَّهُ عَنِّي الحَدَّ بقَوله : ﴿ وأنَّهُم يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُون ﴾ . رُوِيَ أن النُّعمان بن عَدِيِّ بن نَضْلة كان عاملًا لِعُمَر بن الخَطَّاب ـ رضي اللَّهُ عنه ـ فقال :

مَنْ مُبْلِغُ الحَسناءِ أنَّ حَلِيلَها بِمَيْسَانَ يُسقَى في زُجَاج وحَنْتَمِ
إذا شِئْتُ غَنَّتْني دَهَاقِينُ قَريةٍ ورَقَّاصَةٌ تَجْذُو على كُلِّ مَنْسَمِ
فإنْ كُنتُ نَدْمَاني فبالأكبرِ اسْقِني ولا تَسْقِني بالأصغرِ المُتَثَلِّمِ
لعلَّ أميرَ المُؤمنينَ يَسُوءُهُ تَنَادُمُنَا بالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

فَبَلَغَ ذلك عُمر ، فأرسل إلَيه بالقُدُوم عَلَيه ، وقال : إي واللَّهِ إنِّي لَيَسُوءني ذلك ، فقال يا أمير المؤمنين ، ما فعلتُ شيئًا مِمَّا قُلت، وإنما كانت فَضْلَة مِن القَول، وقد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُون (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون (٢٢٥) وأَنَّهُم يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُون (٢٢٦) ﴾ ، فقال له عُمر: أمَّا عُذرك فقد دَرَأَ عَنكَ الحَدَّ،ولكن لا تَعمَل لي عَمَلًا أبدًا، وقد قُلتَ ما قُلتَ . وذَكَرَ الزُّبَير بن بَكَّار ، قال : حَدَّثَني مُصعَب بن عُثمان أنَّ عُمر بن عبد العزيز لَمَّا وَلِيَ الخِلافةَ لَم يكن له هَم إلا عُمر بن أبي رَبيعة والأحْوَص ، فكتب إلى عامله على المدينة : إنِّي قد عَرَفْتُ عُمر والأحْوَص بالشَّر والخُبث ، فإذا أتاكَ كِتابي هذا فَاشْدُدْ عليهما ، واحْمِلْها إليَّ، فلمَّا أتاه الكِتاب حَمَلَهما إلَيه ، فأقبلَ على عُمر ، فقال : هِيه !

فَلَمْ أرَ كالتَّجميرِ مَنظَرَ ناظرٍ ولا كَلَيَالي الحَجِّ أفْلَتْنَ ذا هَوَى
وكَم مالِئٍ عَيْنَيْهِ مِن شَيء غَيْرِهِ إذا رَاحَ نَحْوَ الجَمرةِ البِيضُ كالدُّمَى

أمَا واللَّهِ لَو اهتممتَ بحَجِّكَ لَم تَنظُر إلى شيء غَيْرِك ، فإذا لَم يُفْلِت الناسُ مِنك في هذه الأيَّام فمتى يُفْلِتُون؟، ثُمَّ أمرَ بنَفْيِه، فقال : يا أميرَ المُؤمنين ، أوَ خَير مِن ذلك ؟، فقال : ما هو ؟ قال : أُعَاهِد اللَّهَ إنِّي لا أعُود إلى مِثْل هذا الشِّعْر ، ولا أذكُر النِّساءَ في شِعر أبدًا ، وأُجدِّد تَوْبَةً ، فقال : أوَ تفعل ؟ ، قال : نعم ، فعاهدَ على تَوبته ، وخَلَّاه ، ثُمَّ دعا بالأحْوَص ، فقال : هِيه !

اللَّهُ بَيني وبَين قَيِّمِها يَفِرُّ مِنِّي بِها وأتَّبعُ

بَل اللَّه بَيْن قَيِّمها وبَينك ، ثُمَّ أمرَ بِنَفْيه ، فكلَّمه فيه رجال من الأنصار فأبى ، وقال: واللَّهِ لا أَرُدُّه

ما كان لي سُلطان ، فإنَّه فاسق مُجَاهِر ، فهذا حُكم الشِّعْر المَذموم ، وحُكم صاحبه ، فلا يَحِلُّ سَمَاعُه ولا إنشاده في مَسجِد ولا غَيره ، كمَنثور الكلام القبيح ونَحْوه . وروى إسماعيل بن عَيَّاش عن عبد اللَّه بن عَون عن مُحمَّد بن سِيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ : " حَسَنُ الشِّعْرِ كَحَسَنِ الكلام، وقَبيحُه كقبيح الكلام"، رواه إسماعيل عن عبد اللَّه الشَّامي،وحديثه عن أهل العِلْم صحيح فيما قال يَحيى بن مَعِين وغَيْرُه.وروى عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال:قال رسول اللَّهﷺ: " الشِّعْرُ بمَنزلة الكلام ، حَسَنُه كَحَسَنِ الكلام ، وقَبيحُه كقبيح الكلام " . روى مسلم عن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : " لأَنْ يمتلئ جَوف أحدكم قَيْحًا حَتَّى يَرِيَه ، خَير مِن أن يمتلئ شِعْرًا "ــ و (يَرِيَه) مِن الوَرْي، وهو أن يَدْوَى (يُصاب بداء باطني) ــ. وفي الصحيح أيضًا، عن أبي سعيد الخُدري قال: بَينا نحن نسير مع رسول اللَّه ﷺ إذا عَرَضَ شاعر يُنشِد، فقال رسول اللَّه ﷺ: "خُذوا الشَّيطانَ ــ أوْ أمْسِكُوا الشَّيطان ــ لأَنْ يَمتلئ جَوف رَجُل قَيْحًا خَير له مِن أن يمتلئ شِعْرًا ". قال علماؤنا : وإنما فعل النبيُّ ﷺ هذا مع هذا الشاعر لِمَا عَلِمَ مِن حاله ، فلعلَّ هذا الشاعر كان مِمَّن قد عرف من حاله أنَّه قد اتَّخذ الشِّعْرَ طريقًا للتَّكَسُّب ، فيُفرِط في المَدح إذا أُعْطِي، وفي الهَجْو والذَّم إذا مُنع، فيؤذي الناسَ في أموالهم وأعراضهم ، ولا خِلاف في أنَّ مَن كان على مِثل هذه الحالة ، فكُل ما يكتسبه بالشِّعْر حرام ، وكُل ما يقوله من ذلك حرام عَلَيه ، ولا يَحِل الإصغاء إليه ، بل يجب الإنكار عَلَيه، فإنْ لم يُمكن ذلك لِمَن خاف مِن لسانه قَطْعًا ، تعيَّن عَلَيه أن يُداريَه بما استطاع ، ويُدافعه بما أمكن، ولا يَحِل له أن يُعطَى شيئًا ابتداءً ، لأن ذلك عَون على المَعصية ، فإن لم يجد من ذلك بُدًّا أعطاه بِنِيَّة وِقاية العِرْض ، فَمَا وَقَى به المَرءُ عِرْضَه كُتب له به صَدَقة . وقُلت: قَوله : " لأَنْ يَمتلئ جَوف أحدكم قَيْحًا حَتَّى يَرِيَه " . القَيح : المِدَّة يُخالطها دَم ، ... . وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله : إنه الذي قد غَلَبَ عليه الشِّعْر ، وامتلأ صَدْرُه مِنه دُون عِلْم سِواه ، ولا شيء مِن الذِّكْر ، مِمَّن يَخوض به في الباطل ، ويَسلُك به مَسالك لا تُحمَد له، كالمُكثِر من اللغَط والهَذَر والغِيبة وقَبيح القَول ، ومَن كان الغالب عليه الشِّعْر لَزِمَتْهُ هذه الأوصاف المَذمومة الدَّنِيَّة لحُكم العادة الأدبية . وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البُخاري في صحيحه لَمَّا بوَّب على هذا الحديث : (باب ما يُكرَه أن يكون الغالب على الإنسان الشِّعْر) . وقد قِيل في تأويله: إنَّ المُراد بذلك الشِّعْر الذي هُجِيَ به النبيُّ ﷺ ، أوْ غَيره ، وهذا ليس بشيء ، لأن القليل مِن هَجْو النبيِّ ﷺ وكثيره سَوَاء في أنه كُفر ومَذموم ، وكذلك هَجْو غَير النبيِّ ﷺ مِن المسلمين ، مُحرَّم قليله وكثيره ، وحينئذ لا يكون لتَخصيص الذَّم بالكثير معنى .

قال الشافعي : الشِّعْر نوع مِن الكلام ، حَسَنُه كَحَسَن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام ، يعني أن الشِّعْر لَيس يُكرَه لذاته ، وإنَّما يُكرَه لمُضَمَّناته، وقد كان عِند العرب عظيم المَوقع ، قال الأول مِنهم : وجُرحُ اللسان كجُرح اليد. وقال النبيُّ ﷺ في الشِّعْر الذي يَرُدُّ به حَسَّان على المُشركين : " إنَّه لأسرعُ فِيهِم مِن رَشْقِ النَّبْل ". أخرجه مُسلم . وروى التِّرمذي وصحَّحه عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ في عُمرة القَضَاء ، وعبد اللَّه بن رَوَاحة يَمشي بين يَدَيه ، ويقول :

خَلُّوا بَني الكُفَّار عَن سبيله اليَوْمَ نَضْرِبْكُم على تَنزيله

ضَرْبًا يُزيل الهَامَ عَن مَقِيله ويُذهِلُ الخليلَ عَن خَلِيله

فقال عُمر : يا ابنَ رَوَاحة ! ، في حَرَم اللَّه وبَين يَدَي رسول اللَّه ﷺ ! ، فقال رسول اللَّه ﷺ : " خَلِّ عَنهُ يا عُمر ، فَلَهُوَ أسرعُ فِيهِم مِن نَضْح النَّبْل ")) اهـ .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون ﴾ [الشُّعَراء : ٢٢٥] .

هذا مَثَل بالشخص الهائم على وَجْهه في الأودية ، يَسير بلا هدف ولا وُجهة .

أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ الشُّعَراء في كُلِّ فَن مِنَ الكذب يتحدَّثون ، وفي كُل لَغْوٍ يَخُوضُون . يَمدَحون بباطل ، ويَذُمُّون بباطل . يَمدَحون الشَّيْءَ بَعد أن ذَمُّوه ، ويُعظِّمون الشخصَ بعد أن احتقروه . يَرفعون الشخصَ الحقير الوضيع ، ويُحطِّمون الشخصَ الكريم العظيم .

إنَّ الشُّعَراء في كُل نَوع مِن الكلام يتكلَّمون حائرين تائهين ، لَيس لهم قَصْد واضح . والهَائِمُ هو الذاهب على وَجهه لا هَدَفَ له . أكثر كلامهم خَيالات وأوهام لا حقيقة له ، ولَيس لها أساس واقعي . وأغلب مواضيعهم في العِشْق المُحرَّم ، وتمزيق الأعراض ، والطعن في الأنساب ، ونَشْر الوُعود الكاذبة ، والأفكار المُنحرفة ، والافتخار بالمعاصي ، ومَدح غَير المُستحقين .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ١٣١): ((قَوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون ﴾ يقول : في كُل لَغْو يَخُوضون ، ولا يتَّبعون سَنَنَ الحَق ، لأنَّ مَن اتَّبَعَ الحقَّ ، وعَلِمَ أنَّه يُكتَب عَلَيه ما يَقوله تَثَبَّتَ ، ولم يكن هائمًا يذهب على وَجْهه لا يُبالي ما قال. نزلت في عبد اللَّه بن الزِّبَعْرِي، ومُسَافِع بن عبد مَنَاف ، وأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٧٣) : ((بيَّن سُبحانَه قبائحَ شُعراء الباطل ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون ﴾ ، ... . أَلَمْ تَرَ أنَّهم في كُل فَن مِن فُنون الكَذِب يخوضون، وفي كُل شِعْب مِن شِعَاب الزُّور يتكلمون، فَتَارَةً يُمزِّقون الأعراضَ بالهِجَاء، وتَارَةً يأتون مِن المُجُون بكل ما يَمُجُّه السَّمْع ، ويَستقبحه العقل ، وتَارَةً يَخُوضون في بَحْر السَّفاهة والوَقَاحة ، ويَذُمُّون

الحَقَّ ، ويَمدحون الباطلَ ، ويُرغِّبون في فِعل المُحرَّمات ، ويَدْعُون الناسَ إلى فِعل المُنكَرات ، كما تَسمعه في أشعارهم مِن مَدْح الخَمْر والزِّنا ، ونَحْو هذه الرَّذائل المَلعونة)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٣٥) : ((﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم في كُلِّ وَادٍ ﴾ مِن أودية الكلام ﴿ يَهِيمُون ﴾ جائرون ، وعن طريق الحق حائدون . والهائم : الذاهب على وَجْهه لا مَقْصِد له . قال ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ في هذه الآية : في كُل لَغْو يَخُوضون . وقال مُجاهد : في كُل فَن يفتنون . وقال قَتادة : يَمدحون بالباطل ويَستمعون ويَهجون بالباطل ، فالوادي مَثَل لِفُنُون الكلام ، كما يُقَال : أنا في واد ، وأنتَ في واد . وقِيل : ﴿ في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون ﴾ ، أي : على كُل حَرْف مِن حُرُوف الهِجَاء يَصُوغون القوافي)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأنَّهُم يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُون ﴾ [الشُّعَراء : ٢٢٦] .

الشُّعراءُ يَكذِبون، فَيَنسِبون لأنفسهم ما لَم يَعمَلوه . وأكثر كلامهم أكاذيب وادِّعاءات وتناقضات وأوهام.وهذا مُخَالِف للنُّبُوَّة،فهي مَنهج كامل ، وطريق مُستقيم ، لا يتَّبعه إلا الصالحون. والأنبياءُ لا يُمكن أن يَكونوا شُعَراء ، إذْ إنَّ طبيعة الشِّعْر تُخَالِف الوَحْيَ السَّماويَّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٦٩) : ((وقال عليُّ بن أبي طَلحة عن ابن عباس : أكثرُ قَولهم يَكذِبون فِيه . وهذا الذي قاله ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنه ــ هو الواقع في نَفْس الأمر ، فإن الشعراء يَتَبَجَّحُون بأقوال وأفعال لَم تَصدُر مِنهُم ولا عَنهُم ، فيتكثرون بما ليس لهم ، ولهذا اختلف العلماءُ رحمهم اللَّهُ : فِيما إذا اعترف الشاعر في شِعره بما يُوجب حَدًّا : هَل يُقَام عليه بهذا الاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون ما لا يَفعلون ؟ ، على قَوْلَيْن)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٧٣) : ((﴿ وأنَّهُم يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُون ﴾ ، أي : يَقولون : فَعَلْنا وفَعَلْنا وهُم كَذَبَة في ذلك ، فقد يَدُلُّون بكلامهم على الكَرَم والخَير ، ولا يَفعلونه ، وقد يَنسُبون إلى أنفسهم مِن أفعال الشَّر ما لا يَقْدِرُون على فِعْله ، كما تَجِده في كثير مِن أشعارهم مِن الدَّعاوى الكاذبة ، والزُّور الخالص المُتضمِّن لِقَذف المُحْصَنَات ، وأنَّهم فَعلوا بِهِنَّ كذا وكذا ، وذلك كَذِب مَحْض ، وافتراء بَحْت)) .

وقال أبو حَيَّان في البحر المُحيط (٧/ ٤٩) : ((أخبرَ تعالى عن الشُّعَراء بالأحوال التي تُخَالِف حَالَ النُّبُوَّة ، إذْ أمْرُهُم كَما ذُكر مِن اتِّباع الغُواة لهم، وسُلوكهم أفانين الكلام مِن مَدْح الشَّيء وذَمِّه ، ونِسبة ما لا يقع مِنهُم إليهم ، وهذا مُخَالِف لحال النُّبُوَّة ، فإنها طريقة واحدة ، لا يتَّبعها إلا الراشدون)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إلا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللَّهَ كثيرًا وانتَصَرُوا مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾ [الشُّعَراء : ٢٢٧] [٧٣] .

استثنى اللَّهُ الشُّعراءَ المؤمنين الصالحين.إلا الذين صدَّقوا بوَحدانية اللَّه وأقَرُّوا بِنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ، وفَعلوا الطاعات مُخلِصين للَّه تعالى ، كعبد اللَّه بن رَوَاحة ، وحَسَّان بن ثابت، وكَعْب بن زُهَير ، وكَعْب بن مالك ــ رضي اللَّهُ عنهم ــ . ولَم يَشغَلهم الشِّعْرُ عَن ذِكْر اللَّه ، ولَم يَجعلوه هَمَّهُم ، وذَكَرُوا اللَّهَ كثيرًا في أشعارهم ، ومَلَؤُوها بالحِكَم والمواعظ والآداب وتعظيم الإسلام ، ومَدْحِ النبيِّ الكريم وآله الأطهار وصحابته الأبرار ، وجميع المؤمنين ، وهَجَوا المُشركين دِفَاعًا عن الإسلام والنبيِّ ﷺ ، مِن بَعد ما ظَلمهم المُشركون الذين بَدَؤوهم في الهِجَاء ، وسَيَعْلَم الذين أشركوا وهَجَوا النبيَّ ﷺ أيَّ مَرجِع يَرجعون إلَيه بَعد المَوت ، وأيَّ مَصِير يَصِيرون إلَيه . إنَّ مَرجعهم ومصيرهم إلى عذاب جَهَنَّم المُؤلِم . وهذا وعيدٌ شديدٌ ، وتهديدٌ أكيد . والآيةُ عامَّة وشاملة لكل ظالم .

وعن أبي الحَسَن مَوْلَى بني نَوْفَل أن عبد اللَّه بن رَوَاحة وحَسَّان بن ثابت أتَيَا رسولَ اللَّه ﷺ حِين نَزَلَتْ: ﴿ طسم ﴾ الشُّعَراء، يَبكيان ، وهو يَقرأ عَلَيهم : ((﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُون ﴾))، حَتَّى بَلَغَ ((﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾)) ، قال : ((أنتُم ، ﴿ وذَكَرُوا اللهَ كثيرًا ﴾))، قال: ((أنتُم، ﴿ وانتَصَرُوا مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا ﴾)) ، قال : ((أنتُم)) [٧٤].

هذا يدل على عَدْل اللَّه وإنصافه ، ورحمته بعباده ، وفَضله عليهم ، وإحسانه إلَيهم .

---

٧٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/١٥١و١٥٢):((قَوله تعالى: ﴿إلا الذينَ آمَنُوا ﴾ قال ابن عباس : لَمَّا نَزَلَ ذَم الشُّعراء جاء كَعْب بن مالك وعبد اللَّه بن رَوَاحة وحَسَّان بن ثابت ، فقالوا: يا رسول اللَّه ، أنزلَ اللَّهُ هذا وهو يَعلَم أنَّا شُعراء، فنزلت هذه الآية. قال المفسِّرون:وهذا الاستثناء لشُعراء المسلمين الذين مَدحوا رسولَ اللَّه ﷺ ، وذَمُّوا مَن هَجَاه ، ﴿ وذَكَرُوا اللَّهَ كثيرًا ﴾ ، أي: لَم يَشغَلهم الشِّعْرُ عن ذِكْر اللَّه ، ولم يَجعلوا الشِّعْرَ هَمَّهُم. وقال ابن زَيد : وذَكَرُوا اللَّهَ في شِعرهم ، وقِيل : الْمُراد بالذِّكْر الشِّعْر في طاعة اللَّه عَزَّ وَجَلَّ . قَوله تعالى : ﴿ وانتَصَرُوا ﴾ ، أي: مِن المشركين ﴿ مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا ﴾ لأنَّ المشركين بَدَؤُوا بالهِجَاء ، ثُمَّ أوعدَ شُعراءَ المشركين ، فقال : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا ﴾ أي أشركوا وهَجَوا رسولَ اللَّه ﷺ والمؤمنين﴿أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون﴾ قال الزَّجاج: ﴿أيَّ ﴾ مَنصوبة بقَوله: ﴿ يَنقَلِبُون﴾ لا بقَوله: ﴿سَيَعْلَمُ ﴾ ، لأنَّ(أيًّا)وسائر أسماء الاستفهام لا يَعمل فيها ما قَبلها،ومعنى الكلام إنهم يَنقلبون إلى نار يُخلَّدون فيها)).

٧٤ رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٥٦) برقم (٦٠٦٤) ، وسكت عنه الذهبي .

لقد خافَ هذان الصحابيان الشاعران حِين نزلت سُورة الشُّعَراء أن يكونا مَقْصُودَيْن بالذَّم ، وخَشِيَا مِن غضب اللَّه وعذابه ، ولكن النبيَّ ﷺ طَمأنهما ، ووضَّح لهما سِياق الآيات الكريمة . وهذا يدلُّ على أهمية فهم الآيات بشكل صحيح ، ووضعها في سِياقها المُناسب .

وروى أبو داود في سُننه (٢/ ٧٢١) عن ابن عباس قال: ((﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُون ﴾ ، فَنَسَخَ مِن ذلك واستثنى ، فقال : ﴿ إلا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللَّهَ كثيرًا ﴾)) .

هذا استثناء مِنَ اللَّه تعالى للشعراء المؤمنين الصالحين ، ويدلُّ على عَدْل اللَّه وفضله وكَرَمه ، واللَّهُ لا يَظلِم أحدًا ، ولا يُضِيع الأعمالَ الصالحة للطائعين ، ولا يَنساهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٦٩) : ((... ، عَن عُروة قال : لمَّا نزلت ﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُون ﴾ إلى قَوله : ﴿ وأنَّهُم يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُون ﴾ قال عبد اللَّه بن رَوَاحة:يا رسول اللَّه قد عَلِمَ اللَّهُ أنِّي مِنهُم، فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿ إلا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية،وهكذا قال ابن عباس وعِكرمة مُجاهد وقَتادة وزيد بن أسلم وغَير واحد : إنَّ هذا استثناء مِمَّا تَقَدَّمَ ، ولا شَك أنه استثناء، ولكن هذه السُّورة مَكِّية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شُعراء الأنصار ؟، وفي ذلك نَظَر ، ولَم يتقدَّم إلا مُرْسَلات لا يُعتمَد عليها ، واللَّهُ أعلم . ولكن هذا الاستثناء يَدخل فيه شعراء الأنصار وغَيرهم، حتى يَدخل فيه مَن كان مُتَلَبِّسًا مِن شُعراء الجاهلية بذَم الإسلام وأهله ، ثُمَّ تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحًا ، وذَكَرَ اللَّهَ كثيرًا في مُقَابَلَة ما تَقَدَّمَ مِن الكلام السَّيئ ، فإنَّ الحَسَنَات يُذهِبْنَ السَّيئات ، وامتدحَ الإسلامَ وأهلَه في مُقَابَلَة ما كان يَذُمُّه ، كما قال عبد اللَّه ابن الزِّبَعْرِي حِين أسلم :

يا رسولَ المَلِيكِ إنَّ لِسَاني ... رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أُجاري الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَيِّ ... ومَن مَالَ مَيْلَه مَثْبُورُ

وكذلك أبو سُفيان بن الحارث بن عبد المُطَّلب كان مِن أشد الناس عداوةً للنبيِّ ﷺ،وهو ابن عَمِّه، وأكثرهم له هَجْوًا ،فلمَّا أسلمَ لَم يكن أحد أحب إليه من رسول اللَّهﷺ،وكان يَمدح رسولَ اللَّهﷺ بَعدما كان يَهجوه ، ويَتَوَلَّاه بَعدما كان قد عَادَاه ، ... . ولهذا قال تعالى : ﴿ إلا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللَّهَ كثيرًا ﴾ . قِيل : مَعناه : ذَكَرُوا اللَّهَ كثيرًا في كلامهم ، وقِيل : في شِعرهم ، كلاهما صحيح مُكفِّر لِمَا سَبَق. وقَوله تعالى : ﴿ وانتَصَرُوا مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا ﴾ ، قال ابن عباس : يَرُدُّون على الكُفَّار الذين كانوا يَهْجُون به المُؤمنين ، وكذا قال مُجاهد وقَتادة وغَير واحد، وهذا كما ثبت في الصَّحيح أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال لِحَسَّان : " اهْجُهم _ أوْ قال : هَاجِهم _

وجِبريل مَعَك " . وقال الإمام أحمد : حَدَّثَنا عبد الرَّزاق حَدَّثَنا مَعْمَر عن الزُّهري عن عبد الرَّحمن ابن كَعْب بن مالك عن أبيه أنَّه قال للنبيِّ ﷺ: إنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ قد أنزلَ في الشُّعراء ما أنزلَ، فقال: " إنَّ المُؤمن يُجاهد بسَيْفه ولِسانه ، والذي نَفْسِي بيده لكأنَّ ما تَرْمُونهم به نَضْحُ النَّبْل " . ... . قال قَتادة بن دِعامة في قَوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾ يعني : مِن الشُّعراء وغَيرهم . ... . عن عائشة رضي اللَّهُ عنها قالت : كَتَبَ أبي في وَصِيَّته سَطْرَيْن : بِسم اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، هذا ما أوصى به أبو بَكْر بن أبي قُحافة عِند خُروجه مِن الدُّنيا، حِين يُؤْمِن الكافرُ، ويَنتهي الفاجرُ، ويَصْدُق الكاذبُ، إنِّي استخلفتُ عليكم عُمر بن الخطاب،فإنْ يَعْدِل فذاكَ ظَنِّي بِه ورجائي فيه، وإنْ يَجُر ويُبَدِّل فلا أعْلَم الغَيْبَ ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٣/ ١٣٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ إلا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللَّهَ كثيرًا ﴾ في كَلامهم ، ﴿ وانتَصَرُوا مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا ﴾ ، وإنَّما يكون الانتصار بالحق ، وبِما حَدَّه اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فإن تجاوزَ ذلك فقد انتصرَ بالباطل . وقال أبو الحَسَن البرَّاد : لمَّا نزلت : ﴿ والشُّعَرَاءُ ﴾ جاء حَسَّان وكَعْب بن مالك وابن رَوَاحة يَبْكُون إلى النبيِّ ﷺ ، فقالوا : يا نبيَّ اللَّه ، أنزلَ اللَّهُ تعالى هذه الآية ، وهو تعالى يَعْلَم أنَّا شُعراء ؟ ، فقال : " اقْرَؤُوا ما بَعْدَها ﴿ إلا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ _ الآية _ أنتم ، ﴿ وانتَصَرُوا مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا ﴾ أنتم " ، أي : بالرَّد على المُشركين. قال النبيُّ ﷺ : " انتصِروا ولا تقولوا إلا حقًّا ولا تَذكروا الآباءَ والأُمَّهات " ، فقال حَسَّان لأبي سُفيان :

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فأجبتُ عَنه ... وعِندَ اللَّهِ في ذاك الجَزَاءُ
وإنَّ أبي ووالدتي وعِرْضي ... لعِرض مُحمَّد مِنكم وِقاءُ
أتشتمه ولستَ له بكُفءٍ ... فَشَركما لخَيركما الفِداءُ
لِساني صارمٌ لا عَيْبَ فيه ... وبَحْري لا تُكدِّره الدِّلاءُ

وقال كَعْب : يا رسول اللَّه ، إنَّ اللَّه قد أنزلَ في الشِّعْر ما قد عَلِمْتَ ، فكيفَ ترى فيه ؟ ، فقال النبيُّ ﷺ : " إنَّ المؤمن يُجاهد بنَفْسه وسَيفه ولِسانه ، والذي نَفْسي بيده لكأنَّ ما تَرمونهم به نَضْحُ النَّبْل " . وقال كَعْب :

جَاءت سَخِينةُ كَي تُغَالِبَ رَبَّهَا ... وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ

فقال النبيُّ ﷺ : " لقد مَدَحَكَ اللَّهُ يا كَعْبُ في قَولك هذا " ، وروى الضَّحاك عن ابن عباس أنَّه قال في قَوله تعالى : ﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُون ﴾ مَنسوخ بقَوله : ﴿ إلا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ ﴾ . قال المهدوي : وفي (الصحيح) عن ابن عباس أنَّه استثناء . ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾ ، في هذا تَهديد لِمَن انتصرَ بظُلْم . قال شُرَيح : سَيَعْلَم الظالمون كَيف يُخلَّصون مِن بَين يَدَي اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، فالظالم يَنتظر العِقَابَ ، والمَظلوم يَنتظر النُّصْرَةَ . ... . ومعنى ﴿ أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾ ، أيَّ مَصِير يَصِيرون ، وأيَّ مَرجِع يَرجعون ، لأنَّ مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العِقاب ، وهو شَر مَرجع ، والفَرق بَين المُنْقَلَب والمَرْجِع أنَّ المُنْقَلَب الانتقال إلى ضِد ما هو فيه ، والمَرْجِع العَود مِن حال هو فيها إلى حال كان عليها ، فصارَ كُل مَرجِع مُنْقَلَبًا ، ولَيس كُل مُنْقَلَب مرجعًا ، واللَّهُ أعلم ، ذَكَرَه الماوردي)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٧٣) : ((﴿ إلا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، أي: دَخلوا في حِزب المُؤمنين ، وعملوا بأعمالهم الصالحة، ﴿ وذَكَرُوا اللَّهَ كثيرًا ﴾ في أشعارهم ، ﴿ وانتَصَرُوا مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا ﴾ ، كَمَن يَهجو مِنهم مَن هَجَاه ، أو ينتصر لِعَالِم أو فاضل، كما كان يقع مِن شُعراء النبيِّ ﷺ ، فإنَّهم كانوا يَهْجُون مَن يَهْجُوه ، ويَحْمُون عنه ، ويَذُبُّون عَن عِرْضه ، ويُكافحون شُعراءَ المُشركين ، ويُنافحونهم . ويَدخل في هذا مَن انتصرَ بشِعْره لأهل السُّنَّة ، وكافحَ أهلَ البِدعة ، وزيَّف ما يَقوله شُعراؤهم مِن مَدْح بِدعتهم وهَجْو السُّنَّة المُطهَّرة ، كما يقع ذلك كثيرًا مِن شُعراء الرَّافضة ونَحْوهم ، فإن الانتصار للحق بالشِّعْر ، وتزييف الباطل به مِن أعظم المُجَاهَدَة، وفاعله مِن المُجاهِدين في سبيل اللَّه ، المُنتصرين لِدِينه ، القائمين بما أمرَ اللَّهُ بالقِيام به . واعْلَمْ أنَّ الشِّعْر في نَفْسه ينقسم إلى أقسام، فقد يَبلُغ ما لا خَير فِيه منه إلى قِسم الحرام ، وقد يَبلُغ ما فيه خَير مِنه إلى قِسم الواجب . وقد وردت أحاديث في ذَمِّه وذَم الاستكثار مِنه ، ووردت أحاديث أُخَر في إباحته وتَجويزه ، والكلام في تَحقيق ذلك يَطُول ، ... . ثُمَّ خَتَمَ سُبحانَه هذه السُّورة بآية جامعة للوَعيد كُلِّه، فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾ فإنَّ في قَوله: ﴿ سَيَعْلَمُ ﴾ تَهويلًا عظيمًا ، وتهديدًا شديدًا، وكذا في إطلاق ﴿ الذينَ ظَلَمُوا ﴾ وإبهام ﴿ أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾ وخَصَّصَ هذه الآية بعضُهم بالشُّعراء ، ولا وَجه لذلك ، فإن الاعتبار بعُموم اللفظ . وقَوله : ﴿ أيَّ مُنقَلَبٍ ﴾ صِفَة لمَصدَر مَحذوف، أي: يَنْقَلِبُون مُنْقَلَبًا أيَّ مُنْقَلَب، وقُدِّمَ لِتَضَمُّنه معنى الاستفهام ، ولا يَعمَل فيه ﴿ سَيَعْلَمُ ﴾ لأنَّ الاستفهام لا يعمل فيه ما قَبله ، بَل هو مُعلَّق عَن العمل فيه)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١٣٦) : ((عن عائشة قالت : كان رسول اللَّه ﷺ يَضَع لِحَسَّان ابن ثابت مِنْبَرًا في المَسجد يقوم عليه قائمًا،يُفَاخِر عن رسول اللَّه ﷺ أوْ يُنَافِح عن رسول اللَّه ﷺ، ويقول رسولُ اللَّه ﷺ:" إنَّ اللَّه يُؤَيِّد حَسَّانَ برُوح القُدُسِ ما يُنَافِح أوْ يُفَاخِر عن رسول اللَّه". ... .

عن عائشة أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : " اهجُوا قُرَيشًا فإنَّه أشدُّ عليها مِن رَشْقِ النَّبْل " ، فأرسلَ إلى ابن رَوَاحة ، فقال : " اهْجُهُم " ، فَهَجَاهُم فَلَمْ يُرْضِ ، فأرسلَ إلى كَعْب بن مالك ، ثُمَّ أرسلَ إلى حَسَّان بن ثابت ، فلمَّا دخل عليه قال حَسَّان : قد آنَ لكم أن تُرسِلوا إلى هذا الأسد الضارب بِذَنَبه ، ثُمَّ أدلعَ (أخرجَ) لِسانَه ، فَجَعَلَ يُحرِّكه ، فقال : والذي بَعَثَكَ بالحَق لأَفْرِيَنَّهُم بلِسَاني فَرْيَ الأَدِيم ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ : " لا تَعْجَلْ ، فإنَّ أبا بَكْرٍ أعلمُ قُرَيشٍ بأنسابها ، وإنَّ لي فِيهِم نَسَبًا حتَّى يُخَلِّصَ لَكَ نَسَبي"،فأتاه حَسَّان ثُمَّ رَجَعَ،فقال:يا رسول اللَّه،قد خَلَّصَ لي نَسَبَكَ، والذي بَعَثَكَ بالحق لأَسُلَّنَّكَ مِنهُم كما تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِين . قالت عائشة : فسمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول لحَسَّان : " إنَّ رُوح القُدُسِ لا يَزال يُؤَيِّدُكَ ما نافحتَ عن اللَّه ورسوله " . وقالت: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : " هَجَاهم حَسَّانُ فَشَفَى واشْتَفَى " ، قال حَسَّان :

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنه وعِندَ اللَّهِ في ذَاكَ الجَزَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا رسولَ اللَّه شِيمتُه الوَفَاءُ
فإنَّ أبي ووالدتي وعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنكُم وِقَاءُ
فَمَن يَهجُو رَسولَ اللَّه مِنكُم ويَمْدَحُهُ ويَنصُرُهُ سَوَاءُ ؟
وجِبريلُ رسولُ اللَّهِ فِينا ورُوحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

... . أُبَي بن كَعْب : أن رسول اللَّه ﷺ قال : " إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَة " . قالت عائشة رضي اللَّهُ تعالى عنها : الشِّعْرُ كلام ، فَمِنهُ حَسَنٌ ، ومِنهُ قبيح ، فخُذ الحَسَنَ ، ودَع القَبيحَ . وقال الشَّعبي: كان أبو بكر رضي اللَّهُ تعالى عنه يقول الشِّعْرَ ، وكان عُمر رضي اللَّهُ تعالى عنه يقول الشِّعْرَ، وكان عليٌّ رضي اللَّهُ تعالى عنه أشعر الثلاثة . ورُوِيَ عن ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما أنَّه كان يُنشِد الشِّعْرَ في المسجد ويَستنشده ، فرُوِيَ أنَّه دعا عُمر بن أبي ربيعة المَخزومي ، فاستنشده القصيدةَ التي قالها ، فقال : أَمِن آلِ نُعمٍ أنتَ غادٍ فَمُبكِرُ غَداةَ غَدٍ أَم رائحٌ فَمُهَجِّرُ

فأنشده ابن أبي رَبيعة القصيدةَ إلى آخِرها ، وهي قريب مِن سَبعين بَيْتًا ، ثُمَّ إنَّ ابن عباس أعادَ القصيدةَ جميعها ، وكان حَفِظَها بمَرَّة واحدة . ﴿ وذَكَرُوا اللَّهَ كثيرًا ﴾ ، أي : لَم يَشغَلهم الشِّعْرُ عَن ذِكْر اللَّه ﴿وانتَصَرُوا مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا﴾ قال مُقاتل : انتَصَرُوا مِن المُشركين ، لأنهم بَدَؤُوا بالهِجَاء، ثُمَّ أوعدَ اللَّهُ شُعراءَ المُشركين،فقال:﴿ وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا ﴾ أشركوا وهَجَوْا رسولَ اللَّه ﷺ ﴿ أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾ ، أيَّ مَرْجِعٍ يَرجِعون بَعد المَوت . قال ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما : إلى جَهَنَّم والسَّعير . واللَّهُ أعلم)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٧): ((﴿ إلا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللَّهَ كثيرًا وانتَصَرُوا مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا ﴾ ، استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يُكثرون ذِكْر اللَّه ، ويكون أكثر أشعارهم في التَّوحيد ، والثَّناء على اللَّه تعالى ، والحَث على طَاعته ، وَلَوْ قالوا هَجْوًا أرادوا به الانتصار مِمَّن هَاجَهم ومُكافحة هُجاة المسلمين ، كعبد اللَّه بن رَوَاحة، وحَسَّان بن ثابت والكَعْبَيْن. ... . ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾ ، تَهديد شديد لِمَا في ﴿سَيَعْلَمُ ﴾ مِن الوعيد البليغ ، وفي ﴿ الذينَ ظَلَمُوا ﴾ مِن الإطلاق والتعميم ، وفي ﴿ أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون ﴾ ، أي بَعد المَوت، مِن الإيهام والتَّهويل ، وقد تلاها أبو بَكْر لعُمر رضي اللَّهُ عنهما حِين عَهِدَ إليه)).

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير : ((الشِّعْر بابٌ من الكلام حَسَنُه حَسَنٌ، وقَبيحُه قَبيحٌ، وإنَّما ذمَّ تعالى الشِّعْرَ لِمَا فِيه مِن المُغالاة والإفراط في المَديح أو الهِجاء ، ومُجاوزة حَدِّ القَصْد فيه ، حتى يُفَضِّلوا أجبنَ الناس على عَنترة ، وأشَحَّهم على حاتم، ويَبهَتوا البريء ، ويُفَسِّقوا التقيَّ، ورُبَّما رَفَعُوا شخصًا إلى الأَوْج ، ثُمَّ إذا غَضِبوا عَلَيه ، أنزلوه إلى الحضيض ، وهذا مُشَاهَد مَلموس في أكثر الشُّعراء ، إلا مَن استثناهم اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، والشاعر قد يَمدَح الشيءَ ويَذُمُّه بحَلاوة لِسانه وقُوَّة بَيانه . ومِن ألطف ما سمعتُ مِن بَعض شُيوخي ما قاله بعضُ الشُّعراء في العَسَل :

تقولُ: هذا مُجاجُ النَّحْلِ تمدحُه ... وإنْ تَعِبْ قُلتَ: ذَا قَيْءُ الزَّنابيرِ
مَدْحًا وذَمًّا وما جاوزتَ وَصْفَهُما ... سِحْرُ البَيَانِ يَرى الظَّلْمَاءَ كالنُّورِ))

*

١٤_ الحَقائق العِلْمِيَّة

١_ دَعوة الإنسان إلى اكتشاف الحَقَائق العِلْمِيَّة

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلِ انظُرُوا ماذا في السَّمَاواتِ والأرضِ وما تُغْني الآياتُ والنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُون ﴾ [يُونُس : ١٠١] .

هذا أمرٌ للكافرين بالتأمُّل والنظر والاعتبار بما في السَّماوات والأرض ، مِنَ المَخلوقاتِ الدَّالَّة على عَظَمَة الخالق ، والمَصنوعاتِ الدَّالَّة على قُدرة الصانع.ومَن نَظَرَ وتَفَكَّرَ في الأشياء الهائلة في السَّماوات والأرض، أيقنَ بوُجود اللَّه ووَحدانيته، وقُدرته المُطْلَقَة، وعِلْمه الشامل، وحِكمته البالغة . ولن تُغْنِيَ الدَّلالاتُ عَمَّن سَبَقَ في عِلْمِ اللَّه أنَّهُم أشقياء كافرون لا يُؤْمِنُون . أي : ما تَنفعهم ، ولا يَستفيدون مِنها .

قُل يا مُحمَّد للكافرين : انظُروا نَظَرَ التَّفَكُّر والتأمُّل والاعتبار ماذا في السماوات والأرض مِن الآيات الباهرة، والعِبَر الواضحة، والأدلة الساطعة، والبراهين الظاهرة، التي تدلُّ على وَحدانية اللَّه ، وقُدرته المُطْلَقَة ، كالشَّمْس ، والقَمَر ، والنُّجُوم ، والجِبَال ، والشَّجَر . وكُل هذا يدلُّ على وُجود خالق عظيم قادر حكيم مُدبِّر. وما تَنفَع الآياتُ والأدلة والبراهين قَوْمًا سَبَقَ لَهُم مِن اللَّهِ الشَّقَاء ؟.

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٦١٦) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : قُل يا مُحمَّد لهؤلاء المُشركين مِن قَومك السائليك الآيات على صِحَّة ما تَدعوهم إلَيه مِن تَوحيد اللَّه ، وخَلْع الأنداد والأوثان : انظُروا أيُّها القَوم ماذا في السَّماوات مِن الآيات الدَّالة على حَقيقة ما أدعوكم إلَيه مِن تَوحيد اللَّه ، مِن شَمْسها وقَمَرها ، واختلاف لَيْلها ونَهَارها ، ونُزُول الغَيث بأرزاق العِباد مِن سِحَابها ، وفي الأرض مِن جِبَالها وتصدُّعها بنباتها ، وأقوات أهلها ، وسائر صُنُوف عجائبها ، فإنَّ في ذلك لكم إنْ عَقَلْتُم وتَدَبَّرْتُم عِظَة ومُعْتَبَرًا ودَلالة على أنَّ ذلك مِن فِعل مَن لا يَجوز أن يَكون له في مُلْكه شريك،ولا له على تدبيره وحِفظه ظهير،يُغنيكم عمَّا سِواه مِن الآيات.يَقول اللَّهُ جَلَّ ثناؤه:﴿وما تُغْني الآياتُ والنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُون ﴾ يَقول جَلَّ ثَناؤه: وما تُغْني الحُجَجُ والعِبَرُ والرُّسُلُ المُنذِرة عِبادَ اللَّهِ عِقابَه عَن قَوم قد سَبَقَ لهم مِن اللَّهِ الشَّقَاء، وقضى لهم في أُمِّ الكتاب أنَّهم من أهل النار لا يُؤْمِنُون بشيء مِن ذلك ، ولا يُصدِّقون به ، وَلَوْ جاءتهم كُل آية حَتَّى يَرَوا العَذاب الأليم ؟)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٧٠) : ((يُرشد تعالى عِبَادَه إلى التَّفَكُّر في آلائه ، وما خَلَقَ اللَّهُ في السَّماوات والأرض مِن الآيات الباهرة لِذَوِي الألباب ، مِمَّا في السَّماوات مِن كَواكب نَيِّرات ثوابت وسَيَّارات والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما ، وإيلاج أحدهما في الآخَر حَتَّى يَطُول هذا ، ويَقصُر هذا ، ثُمَّ يَقصُر هذا ، ويَطُول هذا ، وارتفاع السماء واتِّساعها وحُسنها وزِينتها ، وما أنزلَ اللَّهُ مِنها مِن مَطَر ، فأحيا به الأرضَ بَعد مَوتها ، وأخرجَ فِيها من أفانين الثِّمَار والزُّروع والأزاهير وصُنُوف النِّبات ، وما ذرأ فِيها مِن دَوَاب مُختلفة الأشكال والألوان والمنافع ، وما فِيها مِن جِبال وسُهول وقِفار وعُمران وخَراب ، وما في البحر مِن العجائب والأمواج ، وهو مع هذا مُسخَّر مُذلَّل للسالكين، يَحمل سُفُنَهم، ويَجْري بها برِفْق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رَب سِواه . وقَوله : ﴿ وما تُغْني الآياتُ والنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُون ﴾ ، أي : وأيُّ شيء تُغْني الآياتُ السَّماوية والأرضية والرُّسُل بآياتها وحُجَجها وبراهينها الدَّالة على صِدْقها عَن قَوم لا يؤمنون ؟)) .

وقال الشَّوكاني في تفسيره (٢/ ٦٨٩): ((قَوله: ﴿ قُلِ انظُرُوا ماذا في السَّمَاواتِ والأرضِ ﴾ لمَّا بيَّن سُبحانَه أن الإيمان لا يَحصُل إلا بمَشيئة اللَّه أمرَ بالنَّظَر والاستدلال بالدَّلائل السَّماوية والأرضية ، والمُراد بالنَّظَر : التَّفَكُّر والاعتبار ، أي: قُل يا مُحمَّد للكُفَّار: تَفَكَّرُوا واعْتَبِرُوا بِما في السَّماوات والأرض مِن المَصنوعات الدَّالَّة على الصَّانع ووَحدته، وكَمَال قُدرته، ﴿ ماذا ﴾ مُبْتَدَأ ، وخَبَرُه ﴿ في السَّمَاواتِ والأرضِ ﴾ ، أو المُبتدأ " ما " و " ذا " ، بمعنى الذي، و﴿ في السَّمَاواتِ والأرضِ ﴾ صِلته ، والمَوصول وصِلته خَبَرُ المُبْتَدَأ ، أي : أيُّ شَيء الذي في السَّماوات والأرض ، وعلى التَّقْدِيرَيْن ، فالجُملة في مَحَل نَصْب بالفِعل الذي قَبْلها . ثُمَّ ذَكَرَ سُبحانَه أنَّ التَّفَكُّر والتَّدَبُّر في هذه الدَّلائل لا يَنفَع في حَق مَن استحكمت شَقَاوته ، فقال : ﴿ وما تُغْني الآياتُ والنُّذُرُ ﴾ ، أي: ما تَنفَع ، على أنَّ " ما " نافية ، ويَجوز أن تكون استفهامية ، أي : أيُّ شَيء يَنفَع ؟ . والآيات هي التي عبَّر عنها بقَوله : ﴿ ماذا في السَّمَاواتِ والأرضِ ﴾ ، والنُّذُر جَمْع نَذِير ، وهُم الرُّسُل ، أوْ جَمْع إنذار ، وهو المَصدَر ﴿ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُون ﴾ في عِلْم اللَّه سُبحانَه ، والمعنى : أنَّ مَن كان هكذا لا يُجْدي فيه شَيء ، ولا يَدفَعه عَن الكُفر دَافِع)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وقُل رَبِّ زِدْني عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

واسأل اللَّهَ يا مُحمَّد أن يَزيدك مِن العِلْم النافع والفهم الصحيح . وقد استجابَ اللَّهُ دُعاءه ، وزاده في العِلم ، ووفَّقه للعمل بِه حتى تَوَفَّاه اللَّهُ تعالى . والنبيُّ ﷺ في تَرَقٍّ مُستمر وصُعود دائم ، ولا يُمكن لمخلوق أن يصل إلى رُتبته السَّامية ، ومكانته العظيمة ، ومنزلته الرفيعة .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٦٤) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وَقُل يا مُحمَّد : رَبِّي زِدْني عِلْمًا إلى ما عَلَّمْتَني . أمَرَه بمَسألته في فوائد العِلْم ما لا يَعْلَم)) .

وقال الواحدي في الوجيز (ص ٧٠٦) : ((﴿ وَقُل رَبِّ زِدْني عِلْمًا ﴾ بالقُرآن . وكان كُلَّمَا نَزَلَ عليه شيء مِنَ القُرآن ، ازدادَ بِه عِلْمًا)) .

واللَّهُ لَم يَأمر النَّبِيَّ ﷺ أن يَطلب الزيادة في المال أو الأولاد. إنَّما أمره بطلب الزيادة في العِلم، وهذا يدلُّ على شَرَف العِلْم وفَضْله . وما أمَرَ اللَّهُ رسولَه بطلب الزيادة في شيء إلا في العِلْم . والعِلْمُ هو الطريق المُوصِل إلى اللَّه تعالى . وما اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِيًّا جاهلًا ، وَلَوْ اتَّخذه جاهلًا لَعَلَّمَه.

وقال القرطبي في تفسيره(٤/ ٤٤):((فلو كان شيء أشرف مِن العِلم،لأمرَ اللَّهُ تعالى نَبِيَّه ﷺ أن يَسأل المزيدَ مِنه ، كما أَمَرَ أن يَستزيده مِن العِلم)) .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ١٤١) : ((وَقَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَقُل رَبِّ زِدْني عِلْمًا ﴾ واضح الدَّلالة في فَضْل العِلْم ، لأنَّ اللَّه تعالى لَم يَأمر نَبِيَّه ﷺ بطلب الازدياد مِن شيء إلا مِن العِلْم . والمُراد بالعِلْم العِلْم الشَّرعي الذي يُفيد مَعرفة ما يجب على المُكَلَّف مِن أمر دِينه في عباداته ، ومُعاملاته ، والعِلْم باللَّه وصفاته ، وما يجب له مِن القيام بأمره ، وتَنْزيهه عن النقائص ، ومَدار ذلك على التفسير والحديث والفِقْه)) .

وروى الحاكم في المُستدرك (١/ ٦٩٠) وصحَّحه : عن أنس بن مالك _ رضي اللَّهُ عنه _ أن النبيَّ ﷺ كان يقول: ((اللهُمَّ انْفَعْني بِما عَلَّمْتَني،وَعَلِّمْني ما يَنْفَعُني،وَارْزُقْني عِلْمًا تَنْفَعُني بِه)).

الانتفاعُ بالعِلْم يتجلَّى في العَمل بِه . وقد دعا النبيُّ ﷺ رَبَّه أن يُوفِّقه للعمل بالعِلْم ، وأن يُعلِّمه العِلمَ النافع . وهذا دليل على أن العبد لا يَطلب الازدياد إلا مِن العِلْم النافع. والعِلمُ النافع هو كُل عِلم دينيٍّ أو دُنيويٍّ يَقُود العبدَ إلى السعادة والنجاح في الدُّنيا والآخرة مَعًا . وما عَدَاه ، فهو عِلْم ضار وفاسد وباطل ، ولا فائدة مِنه . وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ١٣٣) : (((اللهُمَّ انفعني بما عَلَّمتني) بالعمل بِمُقتضاه خالصًا لوجهك ، (وَعَلِّمْني ما يَنفعني) لأرتقيَ مِنه إلى عمل زائد على ذلك ... . وبِه ظهر أن العِلم وسيلة للعمل وهُما مُتلازمان)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فانظُرْ إلى آثارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيي الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها إنَّ ذَلِكَ لَمُحْيي المَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الرُّوم : ٥٠] .

فانظُرْ نَظَرَ تدبُّر وتأمُّل واستدلال واعتبار إلى آثار نِعمة اللَّه بالمطر ، كَيف يُحْيي اللَّهُ الأرضَ المَيتة اليابسة الجافَّة بالنَّبَات والأشجار وأنواع الثِّمار . والمقصود برحمة اللَّه في الآية هو المطر ،

وآثار هذه الرحمة هي النَّبَات . إنَّ ذلك القادر على إحياء الأرض بعد مَوتها ، قادر على إحياء الناس بعد مَوتهم ، وإخراجهم من قُبورهم أحياءً . وهذا استدلال بالشَّاهد على الغائب . واللَّهُ عَلى كُل شيء قَدير ، قُدْرته مُطْلَقَة ، ومشيئته نافذة في كُل شيء ، ولا يُعجِزه شيء .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٩٦) : ((فانظُر يا مُحمَّد إلى آثار الغَيث الذي يُنزِّل اللَّهُ مِن السَّحَاب ، كيف يُحْيي بها الأرضَ المَيتة ، فيُنبِتها ويُعشِبها مِن بَعد مَوْتها ودُثُورها ، ﴿ إنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي المَوْتى ﴾ . يَقول جَلَّ ذِكْرُه : إنَّ الذي يُحْيي هذه الأرضَ بَعد مَوْتها بهذا الغَيث لَمُحْيِي المَوتى مِن بَعد مَوْتهم ، وهو على كل شيء معَ قُدرته على إحياء المَوتى قدير ، لا يَعِزُّ عَلَيه شيء أراده ، ولا يَمتنع عَلَيه فِعل شَيء شاءه سُبحانَه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٢٨) : ((﴿ فانظُرْ إلى آثارِ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ الناشئة عَن إنزال المَطَر مِن النَّبَات والثِّمَار والزرائع ، التي بها يَكُون الخِصْب ورَخَاء العَيْش ، أي : انظُرْ نَظَرَ اعتبار واستبصار لتستدلَّ بذلك على تَوحيد اللَّه وتفرُّده بهذا الصُّنع العَجيب . ... . ﴿ كَيْفَ يُحْيي الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها ﴾ ، فَاعِل الإحياء ضَمير يَعُود إلى اللَّه سُبحانَه . وقِيل : ضَمير يَعُود إلى الأثر ، وهذه الجُملة في مَحَل نَصْب بانظُر، أي: انظُرْ إلى كَيفية هذا الإحياء البديع للأرض ... . والإشارة بقَوله: ﴿ إنَّ ذَلِكَ ﴾ إلى اللَّه سُبحانَه، أي: إنَّ اللَّه العظيم الشَّأن، المُخْتَرِع لهذه الأشياء المَذكورة ﴿ لَمُحْيِي المَوْتى ﴾ ، أي : لَقَادِر على إحيائهم في الآخِرة ، وبَعْثهم ، ومُجَازاتهم، كما أحيا الأرضَ المَيتة بالمطر ، ﴿ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، أي : عَظِيم القُدرة ، كَثِيرها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى في خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾ [المُلْك : ٣]. اللَّهُ الذي جَعَلَ سَبْعَ سماوات مُتطابقة (طَبَقَة بعد طَبَقَة) ، بَعضها فوق بَعض مِن غَير مُمَاسَّة ، ما ترى في خَلْق اللَّه البديع المُحْكَم مِن اختلاف ولا فَوضى ولا خَلَل ولا تناقض ولا عَيب ولا نَقْص ، بَل هو خَلْقٌ في غاية الإبداع والإتقان والإحكام. وهذا الخَلْق البديع يدلُّ على عَظَمَة الخالق المُبدِع. واللَّهُ لَم يَقُل: ما ترى في خَلْقِهِنَّ ، ولَم يَقُل : ما ترى فِيهِنَّ. وإنما قالَ : ﴿ ما ترى في خَلْقِ الرحمنِ ﴾ ، وإضافةُ الخَلْق إلى الرَّحمن ، لتعظيم مَخلوقات الله الدَّالَّة عَلى عَظَمَة الخالق وقُدرته المُطْلَقة . و" مِن " في ﴿ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ مزيدة لتأكيد النَّفْي . أي إنَّ الإنسانَ لا يَرى أيَّ تفاوُت مَهما كان صغيرًا أو بسيطًا . إنَّه الخَلْق الكامل المُحْكَم ، الذي يدلُّ على كَمال قُدرة اللَّه تعالى . والتَّفَاوُتُ هو الاضطراب والاختلاف، مَأخوذ مِنَ الفَوْت ، وهو أن يَفوت شيء شيئًا ، فيَقَع الخَلَل .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦١) : ((﴿ ما ترى في خَلْقِ الرحمنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ ، وقرأ حَمزة والكِسائي :" مِن تَفَوُّت" ومعناهما واحد كالتعاهُد والتَّعَهُّد، وهو الاختلاف وعدم التناسب ، مِن الفَوْت ، كأنَّ كُلًّا مِن المُتَفَاوِتَيْن فاتَ عَنه بعض ما في الآخَر، والجُملة صِفَة ثانية لِـ ﴿ سَبْعَ ﴾ وُضِعَ فيها ﴿ خَلْقِ الرحمنِ ﴾ مَوضع الضَّمير للتعظيم ، والإشعار بأنَّه تعالى يَخلُق مِثْلَ ذلك بِقُدرته الباهرة ، رحمةً وتفضُّلًا ، وأنَّ في إبداعها نِعَمًا جليلة لا تُحصَى ، والخِطاب فيها للرَّسول ، أوْ لكُل مُخَاطَب)) .

﴿ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ ترى مِن فُطُور ﴾ . انظُرْ إلى السَّماء أيها الإنسان وكَرِّر النظرَ وتأمَّلْهَا . هل ترى مِن شُقوق أو صُدوع أو عُيوب ؟. هل ترى مِن خَلَل ؟. إذا رَأيتَ خَلَلًا اذْكُرْهُ واكْشِفْهُ للناس .

وهذه الآيةُ تَحمِل معنى التَّحَدِّي ، وكأنَّ اللَّه يَتحدَّى الناسَ أن يَكتشفوا خَلَلًا واحدًا في خَلْق السَّماء _ مَهما كان صغيرًا أو بسيطًا _ . وهذا يدلُّ على كَمالِ قُدرة اللَّه ، وعَظَمَةِ خَلْقه البديع المُحْكَم ، وعَجْزِ الإنسان الضعيف .لقد أخبرَ اللَّهُ بأن لا تفاوُت في خَلْقِه ، ثُمَّ أمرَ الإنسانَ بالنظر في السَّماء وتَكرار النَّظَر والتَّأمُّل الدَّقيق ، ليرى بأُمِّ عَينيه جَمال السَّماء وتناسُبها وتناسُقها ، وذلك كَي يتأكَّد الإنسان عن طريق المُعَايَنَة (الرُّؤية بالعَين المُجرَّدة) ، ويَطمئن قَلْبُه، ويَثِق باللَّه تعالى .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٨٣) : ((... ثُمَّ أَمَرَ بأن يَنظروا في خَلْقه ليَعتبروا به فيَتفكروا في قُدرته ، فقال : ﴿ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ ترى مِن فُطُور ﴾ أي : ارْدُدْ طَرْفَكَ إلى السَّماء. ويُقال : قَلِّب البَصَرَ في السَّماء. ويُقال : اجْهَد بالنَّظر إلى السَّماء . والمعنى مُتقارب . وإنَّما قال: ﴿ فارْجِعِ ﴾ بالفاء ، ولَيس قَبله فِعْل مَذكور ، لأنه قال : ﴿ ما ترى ﴾ ، والمَعنى : انظُر ثُمَّ ارْجِع البَصَرَ هَلْ ترى مِن فُطُور؟، قاله قَتادة . والفُطُور : الشُّقُوق ، عن مُجاهد والضَّحاك . وقال قَتادة : مِن خَلَل . السُّدي : مِن خُرُوق . وابن عَبَّاس : مِن وَهْن . وأصْلُه مِن التَّفَطُّر والانفطار ، وهو الانشقاق . قال الشاعر : بنى لكم بلا عَمَدٍ سماءً ... وزَيَّنها فما فِيها فُطُور)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[المُلْك: ٤].

ثُمَّ رَدِّد النَّظَرَ مَرَّةً بَعْد أُخرى ، وانظُرْ نَظَرَ استدلال وتأمُّل واعتبار في هذه السَّماوات العظيمة، هَل تَرى فِيها مِن عَيب أو تفاوُت أو اضطراب أو خَلَل ، يَرجِع إلَيْكَ بَصَرُكَ ذليلًا بعيدًا، وهو كَلِيل، قد انقطعَ مِن الإعياء ، مِن كَثرة تَكرار النَّظَر ، ولا يَرى عَيْبًا ولا نقصًا ولا تفاوُتًا .

ومَهما كرَّر الإنسانُ النَّظَرَ ، لَم يُشَاهِدْ بَصَرُه أيَّ عَيب ، بَل رَجَعَ ذليلًا لَم يَرَ ما يُريده ويَطلبه ، مع التعب والإعياء .

والمُراد بالتَّثنية : ﴿ كَرَّتَيْنِ ﴾ التَّكرير والتَّكثير، بدليل قَوله تعالى: ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ ، وهذا يدلُّ على كثرة النَّظَر وتكراره، والبَصَرُ لا يُصبح حَسِيرًا مِن مَرَّة ولا مِن مَرَّتَيْن.

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٨٤): ((قَوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ "كَرَّتَيْن" في مَوضِع المَصْدَر ، لأنَّ مَعناه رَجْعَتَيْن ، أي: مَرَّة بعد أُخرى ، وإنَّما أمرَ بالنَّظَر مَرَّتَيْن ، لأنَّ الإنسان إذا نَظَرَ في الشَّيء مَرَّةً لا يَرى عَيْبَه ما لم يَنظُر إليه مَرَّةً أُخرى ، فأخبرَ تعالى أنَّه وإنْ نَظَرَ في السَّماء مَرَّتَيْن لا يَرى فِيها عَيْبًا ، بل يتحيَّر بالنَّظَر إلَيها ، فذلك قَوله تعالى : ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ ، أي : خَاشِعًا صَاغِرًا مُتَبَاعِدًا عَن أن يَرى شيئًا مِن ذلك ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي : قد بَلَغَ الغايةَ في الإعياء)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٣٦٣) : ((﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ ، أي : رَجْعَتَيْن مَرَّة بعد مَرَّة . وانتصابه على المَصْدَر ، والمُراد بالتَّثنية التَّكثير كما في لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ ، أي : رَجعة بَعد رَجعة وإنْ كَثُرَتْ ، ووَجه الأمر بتَكرير النَّظَر على هذه الصِّفة أنه قد لا يَرى ما يَظُنُّه مِن العَيب في النَّظرة الأُولَى ولا في الثانية ، ولهذا قال أوَّلًا : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ ثُمَّ قال ثانيًا : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ ، ثُمَّ قال ثالثًا : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ ، فَيَكُون ذلك أبْلَغ في إقامة الحُجَّة وأقْطَع للمَعْذِرَة ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ ، أي : يَرجِع إلَيْكَ البَصَرُ ذليلًا صاغرًا عَن أن يَرى شيئًا مِن ذلك . وقِيل مَعنى ﴿ خَاسِئًا ﴾ مُبْعَدًا مَطرودًا عَن أن يُبصِر ما التمسه مِن العَيب . ... . ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي : كَلِيل مُنقطع . قال الزَّجاج : أي : وقد أعْيَا مِن قَبْل أن يَرى في السماء خَلَلًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ﴾ [العَلَق : ١] .

هذه الآيةُ هِيَ أوَّلُ ما نَزَلَ مِنَ القُرآن . وهي دَعوةٌ إلهية كريمة إلى القِراءة والكِتابة والتَّعَلُّم والتَّعليم . وهذه القضايا هي جَوهَر الدِّين الإسلاميِّ الحَنِيف . والإسلامُ قائمٌ على القِراءة والعِلْم والمَعرفة ، ولا يَقوم على التَّسليم الأعمى ، أوْ تَقليد الآباء ، أوْ حِفظ النُّصوص وتَرديدها دُون فَهْمها. والآيةُ تُظهِر الأهميةَ الفائقة للعِلْم، فهو الطريق المُؤدِّي إلى معرفة اللَّه ، والإيمانِ بالإسلام، واتِّباعِ مُحمَّد ﷺ بِوَعْي وبصيرة ويقين . وقد خاطبَ اللَّهُ عقولَ الناسِ ، لأنَّ العقلَ مَنَاطُ التَّكليف .

واللَّهُ تعالى يَأمر رَسُولَه مُحَمَّدًا ﷺ أن يَقرأ القُرآنَ (الوَحْيَ الإلهيَّ المُقَدَّس) مُبْتَدِئًا بِاسْمِ اللَّه تعالى الذي خَلَقَ الأشياءَ ، وأتقنَ صِناعةَ المَخلوقات ، ومُستعينًا بِه . والمقصودُ ذِكْرُ التَّسْميةِ في بِداية كُلِّ سُورة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٠٩) : ((أي : اقْرَأ القُرآنَ مُفْتَتِحًا باسمه سُبحانَه وتعالى ، أو مُستعينًا بِه ﴿ الذي خَلَقَ ﴾ أي الذي له الخَلْق ، أو الذي خَلَقَ كُلَّ شيء)) .

وفي زاد المسير (٩/ ١٧٥): ((وقال المُفسِّرون: المعنى: اذْكُر اسْمَه مُسْتَفْتِحًا بِه قِراءتَك ، وإنَّما قال تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ ﴾ ، لأنَّ الكُفَّار كانوا يَعْلَمُون أنَّه الخالق دُونَ أصنامهم)) .

وعن عائشة_رضي اللَّهُ عنها_قالت:((أوَّلُ سُورةٍ نَزلتْ:﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ﴾)) [٧٥].

والمَقصودُ هو سُورة العَلَق التي تَبدأ بهذه الآية .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العَلَق : ٢] .

خَلَقَ اللَّهُ الإنسانَ (أشرف المخلوقات) بهذه الهَيئة البديعة ، مِن عَلَق ، جَمْع عَلَقَة ، وهي الدَّم الجامد ، سُمِّيَت عَلَقَة لأنها تَعلَق بالرَّحِم . واللَّهُ خالقُ كُل شيء ، وتَخصيص الإنسان بالذِّكْر تشريفًا له ، وتَعظيمًا لخَلْقه الباهر ، وصُنعه العجيب . والآيةُ تدلُّ على وُجود اللَّه ، ووَحدانيته ، وقُدرته المُطْلَقَة ، وعِلْمه الشامل ، وحِكمته البالغة . وأوَّلُ الواجبات على الإنسان معرفةُ اللَّه .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١١٠) : ((قَوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ ﴾ يعني ابنَ آدم ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ، أي : مِن دَم ، جَمْع عَلَقَة ، والعَلَقَةُ الدَّم الجامد ، وإذا جرى فهو المَسفوح . وقال : ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ، فَذَكَرَه بلَفْظ الجَمْع ، لأنَّه أراد بالإنسان الجَمْع ، وكُلُّهم خُلقوا مِن عَلَق بَعْد النُّطْفَة . والعَلَقَة : قِطعة مِن دَم رَطْب ، سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها تَعْلَق لرُطُوبتها بما تمرُّ عَلَيه ، فإذا جَفَّتْ لَم تكن عَلَقَة . ... . وخُصَّ الإنسان بالذِّكْر تشريفًا له . وقِيل : أراد أن يُبيِّن قَدْرَ نِعمته عَلَيه بأن خَلَقَه مِن عَلَقَة مَهِينة حَتَّى صار بَشَرًا سَوِيًّا وعاقلًا مُمَيِّزًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ ﴾ [العَلَق : ٣] .

تَكرير " اقْرَأْ " للمُبَالَغَة والتأكيد . اقْرَأْ يا مُحمَّد ورَبُّكَ الكريمُ الذي لا يُساويه كريم ، والحليمُ الذي يتجاوز عن جَهْل عباده ، ولا يُعاجلهم بالعُقوبة معَ ذُنوبهم وجُحودهم للنِّعَم الإلهية .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٦٥) : ((كَرَّرَ الأمرَ بالقِراءة للتَّأكيد والتَّقرير، فقال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ ﴾ أي : افْعَلْ ما أُمِرْتَ به مِن القِراءة. وجُملة ﴿ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ ﴾ مُسْتَأنَفَة لإزاحة ما اعتذرَ به ﷺ مِن قَوله :" ما أنا بقارئ " يُريد أن القِراءة شأن مَن يَكتب ويَقرأ، وهو أُمِّيٌّ ، فقِيل له : اقْرَأْ ، ورَبُّكَ الذي أمَرَكَ بالقِراءة هو الأكرم . قال الكلبي: يعني الحَلِيم عَن جَهْل العِبَاد،

---

٧٥ رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٢٤٠) برقم (٢٨٧٣) . وقال الذهبي : ((على شرط مسلم)) .

فَلَم يُعجِّل بعُقُوبتهم. وقِيل إنَّه أمَرَه بالقِراءة أوَّلًا لِنَفْسه ، ثُمَّ أمَرَه بالقِراءة ثانيًا للتَّبليغ ، فلا يَكون مِن باب التأكيد ، والأوَّل أَوْلَى)) اهـ . وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ ﴾ [العَلَق : ٤] .

اللَّهُ الذي عَلَّمَ الإنسانَ الخَطَّ والكِتابةَ بالقَلَم.والقَلَمُ نِعمة إلهية عظيمة ، فقد كُتِبَتْ وقُيِّدَتْ به العُلوم والمعارف، مِمَّا مكَّن الأجيال المُتعاقبة مِن الاطِّلاع عليها ، والاستفادة مِنها ، والانتفاع بها.

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١١١) : ((قَوله تعالى : ﴿ الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ ﴾ يعني الخَطَّ والكِتابةَ ، أي: عَلَّمَ الإنسانَ الخَطَّ بالقَلَم. وروى سَعيد عن قَتادة قال : القَلَم نِعمة مِن اللَّه تعالى عظيمة ، لَوْلا ذلك لَم يَقُمْ دِين ، وَلَم يَصلُح عَيش ، فدلَّ على كَمَال كَرَمه سُبحانَه بأنَّه عَلَّمَ عِبَادَه ما لَم يَعلَموا ، ونَقَلَهم مِن ظُلمة الجَهْل إلى نُور العِلْم ، ونبَّه على فَضْل عِلْم الكِتابة لِمَا فِيه مِن المنافع العظيمة، التي لا يُحيط بها إلا هُوَ . وما دُوِّنَت العُلُوم، ولا قُيِّدَت الحِكَم ، ولا ضُبِطَت أخبار الأوَّلين ومَقَالاتهم ، ولا كُتُب اللَّه المُنزَلة إلا بالكِتابة ، ولَوْلا هِيَ ما استقامت أُمُور الدِّين والدُّنيا . وسُمِّيَ قَلَمًا ، لأنَّه يُقْلَم ، أي : يُقْطَع ، ومِنه تَقليم الظُّفُر . ... . قال عُلماؤنا : فالأقلام في الأصل ثلاثة : القَلَم الأول: الذي خَلَقَه اللَّهُ بيده ، وأمره أن يَكتب . والقَلَم الثاني : أقلام المَلائكة ، جعلها اللَّهُ بأيديهم يَكتبون بها المَقَادير والكوائن والأعمال . والقَلَم الثالث : أقلام الناس ، جعلها اللَّهُ بأيديهم يَكتبون بها كلامَهم ، ويَصِلون بها مآربهم . وفي الكِتابة فضائل جَمَّة . والكِتابة مِن جُملة البَيَان ، والبَيَان مِمَّا اخْتُصَّ به الآدميُّ . قال عُلماؤنا : كانت العربُ أقلَّ الخَلْق مَعرفة بالكِتاب ، وأقل العرب معرفة به المُصْطَفَى ﷺ ، صُرِفَ عَن عِلْمه ، لِيَكُون ذلك أثبتَ لمُعجِزته ، وأقْوَى في حُجَّته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العَلَق : ٥] .

عَلَّمَ اللَّهُ الإنسانَ ما لَم يَكُن يَعرِف مِن العُلوم والمعارف ، والهُدى ، والدلائل ، والبَيَان ، والكتابة ، والصِّناعة ، وغَير ذلك . وهذا يدلُّ على كَرَم اللَّه تعالى ، وفَضْله على الإنسان ، وإحسانه إلَيه ، فقد علَّمه ما لَم يَعْلَمْ ، ونَقَلَه مِن ظُلمة الجهل إلى نُور العِلم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٦٥) : ((﴿ عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾ هذه الجُملة بَدَل اشتمال مِن التي قَبْلها ، أي : علَّمه بالقَلَم مِن الأُمور الكُلِّية والجُزئية ما لَم يَعْلَمْ به مِنها . قِيل : المُراد بالإنسان هُنا آدم ، كما في قَوله : ﴿ وَعَلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. وقِيل : الإنسان هُنا رسول اللَّه ﷺ، والأَوْلَى حَمْل الإنسان على العُمُوم، والمعنى: أنَّ مَن علَّمه اللَّهُ سُبحانَه مِن هذا الجِنس بواسطة القَلَم ، فقد علَّمه ما لَم يَعْلَمْ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٨١): ((فأوَّل شَيء نَزَلَ مِن القُرآن هذه الآيات الكريمات المُبَارَكَات ــ يعني [العَلَق : ١ــ ٥] ، وهُنَّ أوَّل رحمة رَحِمَ اللَّهُ بها العِبَادَ، وأوَّل نِعمة أنعمَ اللَّهُ بها عَلَيهم ، وفِيها التَّنبيه على ابتداء خَلْق الإنسان مِن عَلَقَة ، وأنَّ مِن كَرَمه تعالى أن عَلَّمَ الإنسانَ ما لَم يَعْلَمْ ، فشرَّفه وكرَّمه بالعِلم ، وهو القَدْر الذي امتازَ به أبو البشرية آدم على الملائكة . والعِلم تَارَةً يَكُون في الأذهان ، وتَارَةً يَكُون في اللسان ، وتَارَةً يَكُون في الكِتابة بالبَنَان ، ذِهني ولَفظي ورَسْمي ، والرسميُّ يَستلزمهما مِن غَير عَكْس ، فلهذا قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ . وفي الأثَر : قَيِّدُوا العِلْمَ بالكِتابة ، وفِيه أيضًا : مَن عَمِلَ بما عَلِمَ ، وَرَّثَه اللَّهُ عِلْمَ ما لَم يَكُنْ يَعْلَم)) .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٨٩٥) أنَّ عائشة ــ رضي اللَّهُ عنها ــ قالت : أوَّلُ ما بُدِئَ بِه رسولُ اللَّه ﷺ الرُّؤيا الصالحة ، فجاءه المَلَكُ ، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) ﴾ .

أوَّلُ ما أُوحِيَ إلى النبيِّ ﷺ في البِداية ، هو الرُّؤيا الصالحة الصادقة التي كان يَرَاها في نَوْمه ، فتتحقَّق على أرض الواقع . والجديرُ بالذِّكر أنَّ رُؤيا النبيِّ ﷺ والأنبياء جميعًا وَحْيٌ إلهيٌّ .

٢ــ الإنسان في الكَوْن

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُم حَرْثٌ لَكُم فَأْتُوا حَرْثَكُم أنَّى شِئْتُم وقَدِّمُوا لأنفُسِكُم واتَّقُوا اللَّهَ واعْلَمُوا أنَّكُم مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ المُؤمنين ﴾ [البقرة : ٢٢٣] .

النِّكَاحُ (الزَّواج) هو أساسُ التكاثر البشري ، والقاعدةُ الأساسية لإعمار الأرض وصناعة الحضارة ، والعنصرُ الأشد تأثيرًا في الحَرَاك الاجتماعي . واللَّهُ قادرٌ على جَعل التكاثر البشري يتم بواسطة انقسام الخلايا دُون الحاجة إلى عملية جِنسية بين الذَّكر والأُنثى ، لكن الحِكمة الإلهية اقتضت وجود هذه العملية الجنسية ، كي تتحقق الأُلْفَة والمَوَدَّة والمُتعة والمسؤولية .

شبَّه اللَّهُ النِّسَاءَ بمواضع الحَرْث، حيث يُلقي الإنسانُ البُذورَ ، ويَنتظر الإنباتَ . فالنُّطَفُ التي تُلقَى في أرحامهنَّ هي البُذور ، والولد هو النَّبات . إنَّ المرأة كالأرض ، والنُّطْفَة كالبَذْر ، والولد كالنَّبات . ومَوضعُ الزَّرْع في المرأة هو قُبُلُها ، وسَقْيُ النَّبات يجب أن يكون مِن حَيث يَنبُت . أمَّا الدُّبُر فَلَيس بِحَرْث ولا مكان زَرْع . ولا حَرَجَ في إتيان المرأة بأيَّة كَيفية ما دام ذلك في الفَرْج . أمَّا إتيان المرأة في دُبُرِها فهو شُذوذ ، وتفضيلٌ للقذارة على الطهارة . وهذا مرضٌ ينبغي علاجه بكل السُّبُل المُمكنة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٢٥٠ و٢٥١): ((قَوله تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُم حَرْثٌ لَكُم ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ اليهود أنكَرَتْ جَواز إتيان المَرأة إلا مِن بَين يَدَيها، وعابت مَن يَأتيها على غَير تلك الصِّفة ، فنزلت هذه الآية ، رُوِيَ عن جابر والحَسَن وقَتادة . والثاني أنَّ حَيًّا مِن قُرَيش كانوا يتزوَّجون النِّساءَ بمَكَّة ، ويتلذذون بهنَّ مُقبِلات ومُدبِرات ، فلمَّا قَدِمُوا المدينةَ تزوَّجوا مِن الأنصار،فذهبوا ليَفعلوا ذلك، فأنكَرْنَه، وانتهى الحديث إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية، رواه مُجاهد عن ابن عباس.والثالث أنَّ عُمر بن الخطاب جاء إلى النبيِّ ﷺ، فقال: هَلَكْتُ، حَوَّلْتُ رَحْلي الليلةَ ، فنزلت هذه الآية، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس . والحَرْث: المُزْدَرَع (المَزرعة) وكَنَّى به هاهُنا عَن الجِمَاع ، فَسَمَّاهُنَّ حَرْثًا، لأنهنَّ مُزْدَرَع الأولاد ، كالأرض للزَّرْع، فإن قِيل:النِّساء جَمْع ، فَلِمَ لَمْ يَقُلْ: حُرُوث، فَعَنه ثلاثة أجوبة، ذَكَرَها ابن القاسم الأنباري النَّحْوي : أحدها أن يَكون الحَرْث مَصْدَرًا في مَوضع الجَمْع، فَلَزِمَه التَّوحيد ، كما تَقول العرب: إخوتك صَوْم وأولادك فِطْر، يُريدون صائمين ومُفطِرين، فيُؤدِّي المَصْدَر بتَوحيده عن اللفظ المجموع. والثاني أن يَكُون أرادَ: حُرُوث لكم، فاكتفى بالواحد مِن الجَمْع، كما قال الشاعر :كُلوا في نِصْف بَطْنِكُم تَعِيشوا . أي: في أنصاف بُطونكم. والثالث أنَّه إنَّما وحَّد الحَرْثَ ، لأنَّ النِّساء شُبِّهْنَ بِه ، وَلَسْنَ مِن جِنسه، والمعنى: نِساؤكم مِثل حُرُوث لكم . قَوله تعالى : ﴿ أنَّى شِئْتُم ﴾ فِيه ثلاثة أقوال: أحدها أنَّه بمعنى كَيف شِئتُم، ثُمَّ فِيه قَولان: أحدهما أنَّ المَعنى: كَيف شِئتم، مُقبِلة أوْ مُدبِرة،وعلى كل حال،إذا كان الإتيان في الفَرْج، وهذا قَول ابن عباس ومُجاهد وعَطِيَّة والسُّدي وابن قُتَيبة في آخرين.والثاني أنَّها نَزَلَتْ في العَزْل، قاله سعيد بن المُسيِّب، فيكون المعنى: إنْ شِئتم فاعْزِلوا، وإنْ شِئتم فلا تَعزِلوا . والقول الثاني أنَّه بمَعنى: إنْ شِئتم ومتى شِئتم، وهو قول ابن الحنفية والضَّحاك، ورُوِيَ عن ابن عباس أيضًا. والثالث أنَّه بمعنى: حَيث شِئتم، وهذا محكيٌّ عن ابن عُمر ومالك بن أنس،وهو فاسد مِن وُجوه: أحدها أنَّ سالم بن عبد اللَّه لمَّا بَلَغَه أنَّ نافعًا تحدَّثَ بذلك عن ابن عُمر، قال: كَذَبَ العَبْد،إنَّما قال عبد اللَّه: يُؤْتُون في فُروجهنَّ مِن أدبارهنَّ. وأمَّا أصحاب مالك فإنَّهم يُنكِرون صِحَّتَه عن مالك. والثاني أنَّ أبا هُرَيرة ، روى عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال:" مَلْعُونٌ مَن أتى النِّسَاءَ في أدْبَارِهِنَّ "، فدلَّ على أنَّ الآية لا يُراد بها هذا . والثالث أنَّ الآية نبَّهت على أنَّه مَحَلُّ الوَلَد بقَوله : ﴿ فَأتُوا حَرْثَكُم ﴾، ومَوضع الزَّرْع هو مكان الوَلَد.قال ابن الأنباري:لمَّا نَصَّ اللَّهُ على ذِكْر الحَرْث،والحَرْث بِه يكون النَّبات، والولد مُشبَّه بالنَّبات ، لَم يَجُزْ أن يقع الوَطْء في مَحَل لا يكون مِنه ولد . والرابع أنَّ تحريم إتيان الحائض كان لِعِلَّة الأذى ، والأذى مُلازِم لهذا المَحَل لا يُفَارقه)) .

وعن جابر بن عبد اللَّه ـ رضي اللَّهُ عنه ـ قال : ((كانت اليهود تقول إذا جامعها مِن ورائها ، جاء الولدُ أحْوَل ، فَنَزلت : ﴿ نِساؤكم حَرْثٌ لكم فَأتوا حَرْثَكم أنَّى شِئْتُم ﴾)) [٧٦].

هذه الآيةُ تُكذِّب اليهودَ ، وتفضح جَهْلَهم ، وتُظهر كلامَهم المُعتمِد على الأهواء الباطلة ، والآراء الشخصية ، بلا دليل نقلي ، ولا حُجَّة عقلية ، ودُون وجود منهجٍ شَرْعي أو عِلْمي . واليهودُ مَشهورون بتحكيم أهوائهم ومصالحهم الشخصية ، وإلباس أفكارهم الوهمية لِباسًا دِينيًّا مَعصومًا . وحتى الطِّبُ لم يَنْجُ من أوهام اليهود وأكاذيبهم ، التي تقوم على التخلف المُتأصِّل في عقولهم وأنفسهم . واليهودُ يُحاولون جاهدين ارتداء ثياب العلماء ، وتغليف آرائهم بالمنهج العِلْمي ، ولكن كلامهم يدل على جَهلهم العميق . والجاهل قد يُلقي كلامًا بدون أساسٍ ليَبدوَ صاحبَ عِلْمٍ ومعرفة ، ولكي يُقَال عنه إنه عَالِم ومُفكِّر ومُثقَّف .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١٠/ ٦) : ((قال العلماء : وقوله تعالى :﴿ فَأتوا حَرْثَكم أنَّى شِئْتُم ﴾ أي مَوْضِع الزَّرْع مِن المَرأة ، وهو قُبُلها الذي يُزرَع فيه المَنِيُّ لابتغاء الولد ، ففيه إباحة وَطْئها في قُبُلها إنْ شاء مِن بَين يَدَيها ، وإنْ شاء مِن وَرائها ، وإنْ شاء مَكبوبة . وأمَّا الدُّبُر فَلَيْسَ هُوَ بحَرْث ، ولا مَوضع زَرْع . ومعنى قوله :﴿ أنَّى شِئْتُم ﴾ أي كيف شِئتم . واتَّفق العُلَماء الذين يُعْتَد بهم على تحريم وَطْء المَرأة في دُبُرها ، حائضًا كانت أوْ طاهرًا ، لأحاديث كثيرة مشهورة ، كحَديث : " مَلعونٌ مَن أتى امرأةً في دُبُرها " . قال أصحابنا : لا يَحِلُّ الوَطْءُ في الدُّبُر في شَيء مِن الآدميين ، ولا غَيرهم مِن الحَيَوَان في حال مِن الأحوال ، واللَّهُ أعلم)) .

والإتيانُ مِن الدُّبُر فِعْل خَبيث مُسْتَقْذَر ضِد الفِطرة والطهارة . وهو يدل على انتكاسة خُلُقية ، وإهانة للمرأة ، واحتقار لها ، وعدم احترام لخُصوصية العلاقة الجِنسية بين الزَّوجين ، وعدم إدراك لأبعادها الروحية والمادية .

وعن ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((لا يَنظُر اللَّهُ إلى رَجل أتى امرأةً في دُبُرِها)) [٧٧].

هذا يدل على تحريم إتيان المَرأة في دُبُرها . وهذا الفِعل الكارثي كبيرةٌ مِن الكبائر . وعدمُ نظر اللَّه للرَّجل الذي يَقوم بهذه المعصية يَحمل في معناه تَغليظ العُقوبة ، والوَعيد الشديد .

---

٧٦ متفق عليه. البخاري (٤/ ١٦٤٥) برقم (٤٢٥٤) ، ومسلم (٢/ ١٠٥٨) برقم (١٤٣٥) .

٧٧ رواه ابن حِبَّان في صحيحه (٩/ ٥١٧) برقم (٤٢٠٣) .

﴿ وقَدِّمُوا لأنفُسِكُم ﴾ . وقَدِّمُوا العِباداتِ والطاعاتِ التي تَنفعكم في الآخِرة .

﴿ واتَّقُوا اللَّهَ واعْلَمُوا أنَّكُم مُلاقُوهُ ﴾ . وخافوا اللَّهَ بامتثال أوامره، واجتناب نَوَاهيه ، وأيْقِنُوا أنكم صائرون إلَيه فيُجازيكم بأعمالكم ، إنْ خَيْرًا فَخَير ، وإنْ شَرًّا فَشَر ، فاستعدوا للقائه سُبحانَه.

﴿ وَبَشِّرِ المُؤمنين ﴾ . وبَشِّر المؤمنين الذين اتَّقَوا اللَّهَ بنعيم الجَنَّة الدائم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٥٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وقَدِّمُوا لأنفُسِكُم ﴾ ، فيه أربعة أقوال : أحدها أنَّ معناه : وقَدِّمُوا لأنفسكم مِن العمل الصالح ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني وقَدِّمُوا التَّسْمِيَةَ عِند الجِمَاع ، رواه عطاء عن ابن عباس . والثالث وقَدِّمُوا لأنفسكم في طَلَب الوَلَد ، قاله مُقاتل . والرابع وقَدِّمُوا طاعةَ اللَّه واتِّباع أمره ، قاله الزَّجاج)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥١٠): ((﴿ وقَدِّمُوا لأنفُسِكُم ﴾ ما يُدَّخَر لكم مِن الثَّوَاب، وقِيل : هو طَلَب الوَلَد ، وقِيل : التَّسْمِيَة عِند الوَطْء ، ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بالاجتناب عَن مَعَاصيه ، ﴿ واعْلَمُوا أنَّكُم مُلاقُوهُ ﴾ فَتَزَوَّدُوا ما لا تَفْتَضِحُون به ، ﴿ وَبَشِّرِ المُؤمنين ﴾ الكاملين في الإيمان بالكَرَامة ، والنَّعيم الدائم . أمرَ الرَّسولَ ﷺ أن يَنصحهم ويُبشِّر مَن صَدَّقه وامتثلَ أمرَه مِنهُم)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُون ﴾ [الطُّور : ٣٥] [٧٨].

أَخُلِقَ هؤلاء المشركون على هذه الأشكال الجميلة البديعة مِن غَير خالقٍ ، أَمْ هُمُ الذين خَلَقوا أنفسَهم ، فلا يَخضعون لأمرِ اللَّه ، لأنَّ الخالقَ لا يُؤْمَر ولا يُنْهَى ؟ .

والحالتان باطلتان نَقْلًا وعَقلًا ، فالمخلوقُ يَحتاج إلى خالقٍ ، والمَصنوعُ لا بُدَّ له مِن صَانع . ولا يُعقَل أن يُوجَد مخلوق بلا خالقٍ ، لأنَّ كُلَّ فِعْلٍ لا يَحدث إلا بفاعلٍ . ومِنَ المُحَال أن يَخلُقوا أنفسَهم، لأنَّ فاقدَ الشيء لا يُعطيه، والمَخلوقُ (المَحكوم عَلَيه بالمَوت) لا يُمكن أن يَكون خالقًا ، لأنَّ المفعولَ بِه لا يُمكن أن يَكون فاعلًا . وهذا هو أسلوبُ القُرآن الباهر والمُوجَز في الرد على المشركين والملاحدة الذين يُنكِرون وُجودَ اللَّه تعالى .

---

٧٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٥٦) : ((قَوْله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ فيه أربعة أقوال. أحدها : أَمْ خُلِقُوا مِن غَير رَبٍّ خالقٍ . والثاني : أَمْ خُلِقُوا مِن غَير آباء ولا أُمَّهات ، فَهُم كالجماد لا يَعْقِلون. والثالث: أَمْ خُلِقُوا مِن غَير شيء كالسَّماوات والأرض، أي إنهم لَيسوا بأشد خَلْقًا مِنَ السَّماوات والأرض ، لأنها خُلِقَتْ مِن غَير شيء ، وَهُم خُلِقُوا مِن آدم، وآدم مِن تراب. والرابع : أَمْ خُلِقُوا لِغَير شيء، فتكون"مِنْ " بمعنى اللام. والمعنى : مَا خُلِقُوا عَبَثًا فلا يُؤْمَرون ولا يُنْهَوْن)) .

وكلُّ شخصٍ _ مهما كانت عقيدته _ يَعرف أنَّه مَخلوق ، والمخلوقُ لا بُدَّ له مِن خَالق . وأيضاً، لا يُمكن أن يَكون المخلوقُ خالقًا ، لأنَّ كلمة " المخلوق " تُشير بِوُضوح إلى وجود خالقٍ صَنَعَ هذا المخلوقَ .

لقد خَلَقَهم اللَّهُ وصَوَّرهم في أحسن تقويم ، ولكنهم رَفضوا تَوحيدَه وإفرادَه بالعبودية عِنادًا وتكبُّرًا . والمشركون يَعترفون بأنَّ اللَّهَ خَالِقُهم ، والاعترافُ سَيِّد الأدلة . وباعترافهم وإقرارهم أقاموا الحُجَّةَ على أنفسهم . فلماذا يَعبدونَ مَعَهُ غَيْرَه ؟. لماذا لا يَعبدونه وَحْدَهُ ما داموا يَعترفون بأنَّ اللَّه وَحْدَهُ هو الذي خَلَقَهم ؟ . ولماذا لا يُؤمنون بِقُدرته على البَعْث والنُّشور ما داموا مُؤمنين بِقُدرته على الخَلْق والإيجاد ؟ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٦٦) : ((قَوْله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أَمْ صِلَة زائدة ، والتقدير أَخُلِقُوا مِن غَير شيء. قال ابن عباس : مِن غَير رَبٍّ خَلَقَهم وقَدَّرهم. وقِيل : مِن غَير أُم ولا أب ، فَهُم كالجماد لا يَعْقِلون ، ولا تَقوم للَّه عَلَيهم حُجَّة . لَيسوا كذلك . أليسَ قد خُلقوا مِن نُطفة وعَلَقة ومُضغة، قاله ابن عطاء. وقال ابن كَيسان: أَمْ خُلقوا عَبَثًا وتُركوا سُدى)).

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٠٣) : ((وقِيل : المعنى : أَمْ خُلِقُوا مِن غَير خالق ، وذلك لا يَجوز ، فلا بُد لهم مِن خالق. وإذا أنكَروا الخالقَ فَهُم الخالقون لأنفسهم ، وذلك في الفساد والبُطلان أشدُّ ، لأنَّ ما لا وُجود له ، كَيْفَ يَخْلُق ؟! . وإذا بَطَلَ الوَجهان قامت الحُجَّةُ عَلَيهم بأنَّ لهم خَالقًا)) .

وبما أنَّ الحُجَّةَ قد قامت عليهم بأنَّ لهم خالقًا ، فَلْيُؤمنوا بِه ، وَلْيَعبدوه وَحْدَه ، وَلْيُوقِنوا أنَّه خالقُهم ورازقُهم ، أحياهم ، ثُمَّ يُميتهم ، ثُمَّ يَبعثهم .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَمْ خَلقوا السَّماواتِ والأرضَ بَل لا يُوقِنُون ﴾ [الطُّور : ٣٦] .

أَمْ هُم خَلَقُوا السَّماواتِ والأرضَ ؟ . وهذا إنكارٌ عَلَيهم ، وتَوبيخٌ لهم بسبب شِركهم ، إذْ إنَّهم يَعْلَمُون أنَّ اللَّه وَحْدَهُ هو الخالق، ثُمَّ يُشْرِكون به . والمعنى : لَم يَخلُقوا السماواتِ والأرضَ ، وهُم لا يَقولون بذلك ، فقامت عَلَيهم الحُجَّةُ . ولا أحدَ يَقْدِر على خَلْق السماوات والأرض إلا اللَّه ، فلماذا لا يَعبدونه وَحْدَهُ لا شَريك له ؟ . إنهم لا يُوقنون بالحق ، وهو تَوْحيدُ اللَّهِ والبَعْثُ . إنهم ضائعون في متاهة الوَهْم ، ولَيسوا على يقين ، لذلك يَشُكُّون في وَعْدِ اللَّهِ ووعيدِه .

وقد خُصَّ " السماوات والأرض " بالذِّكْر لِعِظَمِ خَلْقِها ، ومكانتها الشريفة . لذلك ذُكِرت السماواتُ والأرضُ دُون سائر المخلوقات .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٠٣) : ((ثُمَّ قالَ : ﴿ أَمْ خَلقوا السَّماواتِ والأرضَ ﴾ ، أي : إنْ جَازَ لهم أن يَدَّعُوا خَلْقَ أنفسهم ، فَلْيَدَّعُوا خَلْقَ السَّماوات والأرض ، وذلك لا يُمكنهم ، فقامت الحُجَّةُ ، ثُمَّ قال : ﴿ بَل لا يُوقِنُون ﴾ ، فَذَكَرَ العِلَّةَ التي عاقتهم عن الإيمان ، وهو عدم اليقين الذي هو مَوهبة مِنَ اللَّه ، ولا يَحصل إلا بتوفيقه)) .

٣_ نَشْأة الحَيَاة

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عِمران : ٥٩] [٧٩].

إنَّ شَأنَ عِيسى الغريبَ العجيبَ_ خَلَقَه اللَّهُ مِن غَير أب_، كشأن آدمَ ، خَلَقَه اللَّهُ مِن غَير أب ولا أُم ، ثُمَّ قالَ له : كُن بَشَرًا ، فكانَ . وهذا يدلُّ على أنَّ شأن آدم أعظم عَجَبًا وأكثر غرابةً في الخَلْق والإنشاء مِن شأن عيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ .

لقد شبَّه اللَّهُ حال عِيسى بما هو أغرب مِنه (تَشبيه الغريب بالأغرب والعجيب بالأعجب) ، لإفحام الخَصْم ، وقَطْع الشُّبهة ، والتأثير في النَّفْس . والآيةُ دليل على صِحَّة القِياس والتَّشبيه .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٨٩) : ((يقول جَلَّ وعلا : ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ ﴾ في قُدرة اللَّه حَيث خَلَقَه مِن غَير أب ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ حَيث خَلَقَه مِن غَير أب ولا أُم ، بَل ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فالذي خَلَقَ آدمَ مِن غَير أب ، قادر على أن يَخلُق عِيسى بطريق الأَوْلَى والأَحْرَى،وإنْ جازَ ادِّعاء البُنُوَّة في عِيسى لكَوْنه مَخلوقًا مِن غَير أب فجَواز ذلك في آدم بالطريق الأَوْلَى، ومعلوم بالاتِّفاق أن ذلك باطل، فَدَعْواها في عِيسى أشد بُطلانًا وأظهر فسادًا، ولكنَّ الرَّبَّ جَلَّ جلالُه أراد أن يُظهِر قُدرته لِخَلْقه حِين خَلَقَ آدم لا مِن ذَكَر ولا مِن أُنثى ، وخَلَقَ حَوَّاء مِن ذَكَر بلا أُنثى ، وخَلَقَ عِيسى مِن أُنثى بلا ذَكَر، كما خَلَقَ بَقِيَّةَ البَرِيَّة مِن ذَكَر وأُنثى)) .

---

٧٩ قال ابن حجر في العُجاب في بيان الأسباب (٢/ ٦٧٩ و٦٨٠) : ((قال عبد بن حُمَيد حَدَّثَنا رَوْح بن عُبادة عن عَوف الأعرابي عن الأزرق بن قَيس، قال: جاء أُسْقُفُ نَجْران والعَاقِب إلى رسول اللَّه ، فَعَرَضَ عَلَيهما الإسلام ، فقالا: قد كُنَّا مُسلمين قَبْلَك ، فقال : "كَذَبْتُمَا ، مَنَعَ الإسلامَ مِنكُما ثلاثٌ: قَوْلُكما : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، وسُجودكما للصَّليب ، وأكلكما لَحْمَ الخِنزير " ، قالا : فَمَن أبو عِيسى ؟ ، فَلَم يَرُدَّ عَلَيهما ، فأنزلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ الآية)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ما أشْهَدتهُم خَلْقَ السَّمَاواتِ والأرضِ ولا خَلْقَ أنفُسِهِم وما كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكَهْف : ٥١] [٨٠].

ما أحْضَرَ اللَّهُ الشَّياطين خَلْقَ السَّماوات والأرض ، ولا استشارهم ، ولا استعانَ بهم ، ولا أحضرَ بَعْضَهم خَلْقَ بَعْض، فهُم كُلُّهم عبيد اللَّه تعالى ، لا يَملِكون مِن أمرهم شيئًا، والأمرُ كُلُّه للَّه وَحْدَه لا شريك له. وما كانَ اللَّهُ مُتَّخِذَ الشَّياطين الذي يُضِلُّون الناسَ أنصارًا وأعوانًا في الخَلْق، فكيفَ تُطيعونهم وتتَّخذونهم شُركاء للَّه في العِبادة ؟ . إنَّهُم خَلْق مِثْلُكُم ، والمَخلوق لا يَعبُد مَخلوقًا ، وإنَّما يَعبُد الخالقَ الذي أوجده وأنعمَ عَلَيه .

والآية تُبيِّن أن اللَّه هو الخالق وَحْدَه لا شريك له،وأنَّه وَحْدَه المُستحق للعِبادة.ومَن كان شريكًا للَّه في الخَلْق والإيجاد ، كان شريكًا له في العِبادة . وبما أنَّ اللَّه هو الخالق وَحْدَه ، كان المُستحق للعِبادة وَحْدَه . والآيةُ تدلُّ على قُدرة اللَّه المُطْلَقَة ، وتفرُّده بالخَلْق والإيجاد ، واستغنائه عن الأنصار والأعوان والمُساعدين .

ووضعُ المُظهَر ﴿ المُضِلِّينَ ﴾ مَوضع الضَّمير ، لِذَمِّهم ، والتَّسجيل عليهم بالإضلال ، واستبعاد الاستعانة بهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٢٢) : ((يقول تعالى : هؤلاء الذين اتَّخذتموهم أولياء مِن دُوني عَبِيد أمثالُكُم ، لا يَملِكون شيئًا ، ولا أشهدتهُم خَلْقَ السَّماوات والأرض ، ولا كانوا إذْ ذَاك مَوجودين . يقول تعالى : أنا المُسْتَقِل بخَلْق الأشياء كُلِّها ، ومُدبِّرها ، ومُقدِّرها . وَحْدِي لَيس مَعِي في ذلك شريك ، ولا وزير ، ولا مُشير ، ولا نظير)) .

---

٨٠ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٥٤ و١٥٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ ما أشْهَدتهُم خَلْقَ السَّمَاواتِ والأرضِ ﴾ ... وفي الْمُشار إليهم أربعة أقوال: أحدها إبليس وذُرِّيته، والثاني الملائكة ، والثالث جميع الكُفَّار، والرابع جميع الخَلْق. والمعنى: إنِّي لم أُشاورهم في خلقهنَّ . وفي هذا بيان للغَناء عَن الأعوان ، وإظهار كَمال القُدرة. قَوله تعالى: ﴿ولا خَلْقَ أنفُسِهِم﴾ أي ما أشهدتُ بَعْضَهم خَلْقَ بَعْض ولا استعنتُ ببعضهم على إيجاد بَعْض. قَوله تعالى: ﴿ وما كُنتُ مُتَّخِذَ المضلِّين ﴾ يعني الشياطين ﴿ عَضُدًا ﴾ أي: أنصارًا وأعوانًا.والعَضُد يُسْتَعْمَل كثيرًا في معنى العَوْن، لأنَّه قِوام اليَد.قال الزَّجاج:والاعتضاد التَّقَوِّي وطلب المعونة. يُقال: اعتضدتُ بفُلان، أي: استعنتُ به . وفي ما نفى اتِّخاذهم عَضُدًا ، فيه قَولان : أحدهما أنَّه الوِلايات،والمعنى: ما كُنتُ لأُوَلِّي المضلِّين،قاله مجاهد. والثاني أنَّه خَلْق السَّماوات والأرض، قاله مُقاتل)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٤١٨): ((﴿ ما أشْهَدتهُم خَلْقَ السَّمَاواتِ والأرضِ ﴾ . قال أكثر المُفسِّرين: إنَّ الضَّمير للشُّركاء، والمعنى : أنَّهُم لَوْ كانوا شُركاء لي في خَلْق السَّماوات والأرض، وفي خَلْق أنفسهم ، لكَانُوا مُشَاهِدِين خَلْق ذلك ، مُشاركين لي فيه ، ولَم يُشاهِدوا ذلك، ولا أشهدتهُم إيَّاه أنا ، فَلَيسُوا لي بشُركاء. وهذا استدلال بانتفاء المَلزوم المُساوي على انتفاء اللازم . وقِيل : الضَّمير للمُشركين الذين التمسوا طَرْدَ فُقراء المؤمنين ، والمُراد : أنَّهُم ما كانوا شُركاء لي في تَدبير العَالَم بدليل أنِّي ما أشهدتهُم خَلْقَ السَّماوات والأرض ، ولا خَلْقَ أنفسهم . ما اعتضدتُ بهم ، بَلْ هُم كسائر الخَلْق)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إنَّ ذَلِكَ عَلى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [العَنكبوت : ١٩] .

الاستفهامُ للتَّوبيخ والتَّقريع . أوَلَمْ يَرَ كُفَّارُ مَكَّة الذين يُنكِرون البَعْثَ ، كَيف خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ ابتداءً مِن العَدَم (نُطفة ثُمَّ عَلَقَة ثُمَّ مُضْغَة حتى اكتمال الخَلْق) ، فيستدلون بِبَدْء الخَلْق على إعادته بَعد المَوت ؟ . واللَّهُ يُعيد الخَلْقَ بَعد فَنائهم في الآخِرة عند البَعْث كما بَدَأهم ، إنَّ ذلك سَهْل يَسِير ، أي إنَّ الخَلْق الأوَّل والخَلْق الثاني يَسيران على اللَّه تعالى . فكيفَ يُنكِرون البَعْثَ ؟، إنَّ القادر على إيجاد الخَلْق مِن العَدَم ، قادر على بَعْثهم مِن قُبورهم أحياءً .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢٩٨) : ((وقِيل : المَعنى: أوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبدِئ اللَّهُ الثِّمارَ ، فتَحْيا ، ثُمَّ تَفنَى ، ثُمَّ يُعيدها أبدًا. وكذلك يَبدَأ خَلْقَ الإنسان ، ثُمَّ يُهلِكه بعد أن خَلَقَ مِنه وَلَدًا ، وخَلَقَ مِن الوَلَد وَلَدًا . وكذلك سائر الحيوان . أي: فإذا رأيتُم قُدرته على الإبداء والإيجاد ، فهو القادر على الإعادة ﴿ إنَّ ذَلِكَ عَلى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لأنَّه إذا أرادَ أمْرًا قال له : كُن، فَيَكُون)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا في الأرضِ فانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأةَ الآخِرَةَ إنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العَنكبوت : ٢٠] .

قُلْ لهؤلاء الكافرين المُنكِرين للبَعْث الذين لا يَعترفون بالثواب والعِقاب بعد المَوت: سِيروا في الأرض ، فانظُروا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ على كَثرتهم، واختلاف صُوَرهم وأشكالهم وألوانهم ولُغاتهم وصفاتهم وأجناسهم وأحوالهم ، وكَيف قَدَرَ اللَّهُ على خَلْق الشعوب السابقة والأُمَم الماضية ابتداءً مِن العَدَم ، وانظُروا إلى ديار الأُمم الماضية ومساكنها وآثارها ، كَيف أهلكهم اللَّهُ وأزالهم مِن الوُجود ، وجَعَلَهم أثَرًا إثْر عَيْن، لِتَعْلَمُوا بذلك كَمال قُدرة اللَّه المُطْلَقَة، ثُمَّ اللَّهُ الذي أوجدَ الخَلْقَ مِن العَدَم (النِّشأة الأُولَى) يُعيده عِند البَعْث (النَّشأة الثانية) ، ومَن قَدَرَ على البَدَاءة ، قَدَرَ على

الإعادة،والإعادةُ أهْوَن وأسهل على اللَّه مِن البَدَاءة. إنَّ اللَّهَ قادرٌ على كُل شيء ، ولا يُعجِزه شيء. وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٣٠) : ((إنَّ اللَّه على إنشاء جميع خَلْقه بعد إفنائه كَهَيئته قبل فَنائه ، وعلى غَير ذلك مِمَّا يَشاء فِعْلَه قادر ، لا يُعجِزه شيء أراده)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٨١) : ((﴿ قُلْ سِيرُوا في الأرضِ فانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ﴾ على كَثرتهم ، واختلاف ألوانهم وطبائعهم وألسنتهم ، وانظُروا إلى مساكن القُرُون الماضية والأُمَم الخالية وآثارهم، لِتَعْلَمُوا بذلك كَمَالَ قُدرة اللَّه ،وقِيل إنَّ المعنى:قُل لهم يا مُحمَّد: سِيرُوا . ومَعنى قَوله: ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ﴾ أنَّ اللَّه الذي بَدَأَ النَّشأةَ الأُولَى وخَلَقَها على تلك الكَيفية يُنشئها نَشأةً ثانية عِند البَعْث . والجُملة عَطْف على جُملة ﴿ سِيرُوا في الأرضِ ﴾ داخلة معها في حَيِّز القَول . وجُملة ﴿ إنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تَعليل لِمَا قَبْلَها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ اللَّهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ قَرَارًا والسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّباتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِين ﴾ [غَافِر : ٦٤] .

اللَّهُ جَعَلَ لكم الأرضَ أيُّها الناس فِرَاشًا ومُسْتَقَرًّا لكم في حياتكم وبعد مماتكم ، تَستقرون عليها ، وتَسكُنون فَوقها ، وَتعيشون على ظَهْرها ، وتُدفَنون في بَطْنها . وجَعَلَ لكم السَّماءَ سَقْفًا فَوقكم كالقُبَّة بدون أعمدة ، مِن أجل تحقيق مصالحكم ومنافعكم ، وصوَّركم أحسنَ تصوير، وخلقكم في أجمل الأشكال ، أصحاب قامات مُنتصبة ، وأعضاء مُتناسبة، وزوَّدكم بالحواس والجوارح التي تُعينكم في حياتكم ، وتُساعدكم في مُمارسة المِهَن المُختلفة، ولم يَجعلكم كالبهائم مَنكوسين . والإنسانُ يَأكل بيده ، وغَيْرُه يأكل بفمه . واللَّهُ لَم يَخلُق حَيَوَانًا أجملَ صورةً مِن الإنسان. ورزقكم من المَطَاعِم اللذيذة والمشارب الشَّهِيَّة .

فالذي فَعَلَ هذه الأشياء، وأنعمَ عليكم بهذه النِّعَم العظيمة ، هو اللَّه المُستحق وَحْدَه للأُلُوهية والرُّبوبية ، لا إلهَ غَيْرُه ، ولا رَب سِوَاه . وهو الخالق والرازق والنافع والضَّار ، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا مُساعد . فتعالى وتَقَدَّسَ اللَّهُ رَبُّ جَميع المخلوقات ومالكها ، الذي لا تَصلُح العِبادة إلا له . وكُل ما سِوَاه مَربُوب زائل ، لا يَملِك مِن أمره شيئًا ، والأمرُ كُلُّه للَّه وَحْدَه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١١٠):((قَوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ قَرَارًا ﴾ أي: جَعَلَها لكم مُسْتَقَرًّا بِسَاطًا مِهَادًا ، تعيشون عَلَيها ، وتتصرَّفون فِيها ، وتَمشُون في مناكبها ، وأرساها بالجبال لِئلا تَميد بكم ، ﴿ والسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ أي : سَقْفًا للعَالَم مَحفوظًا ، ﴿ وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم ﴾ ، أي : فَخَلَقَكُم في أحسن الأشكال ، ومَنَحَكم أكملَ الصُّور في أحسن تَقويم،

﴿ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ، أي : مِن المَآكِل والمشارب في الدُّنيا ، فَذَكَرَ أنَّه خالق الدار والسُّكان والأرزاق ، فهو الخالق الرازق . ... . وقال تعالى هَهُنا بعد خَلْق هذه الأشياء : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِين ﴾ ، أي : فَتَعَالَى وتَقَدَّسَ وتَنَزَّهَ رَبُّ العَالَمين كُلِّهم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧١٠) : ((ذَكَرَ لهم سُبحانَه نَوْعًا آخَر مِن نِعَمه التي أنعمَ بها عليهم معَ ما في ذلك مِن الدَّلالة على كَمال قُدرته ، وتفرُّده بالإلهية ، فقال: ﴿ اللَّهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ قَرَارًا ﴾ ، أي : مَوضِع قَرَار ، فِيها تَحْيَوْن ، وفِيها تَمُوتون ، ﴿ والسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ ، أي:سَقْفًا قائمًا ثابتًا، ثُمَّ بيَّن بعضَ نِعَمه المُتعلِّقة بأنفُس العِباد،فقال: ﴿ وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم ﴾ أي: خَلَقَكم في أحسن صُورة . قال الزَّجاج : خَلَقَكم أحسنَ الحَيَوَان كُلِّه . ... . ﴿ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ، أي: المُسْتَلَذَّات ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ المَنعُوت بهذه النُّعُوت الجليلة ﴿ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِين ﴾ ، أي : كَثرة خَيره وبَرَكته)) .

٤ــ الإنسان وخَلْقه

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللَّهِ وكُنتُم أمْوَاتًا فأحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكُم ثُمَّ إلَيْهِ تُرجَعون ﴾ [البقرة : ٢٨] [٨١].

---

٨١ قال الطبري في تفسيره (١/ ٢٢٢) : ((وبَّخهم واحتجَّ عليهم في نكيرهم ما أنكروا من ذلك ، وجُحودهم ما جَحدوا بقلوبهم المريضة . فقال : كيف تكفرون باللَّه فتَجحَدون قُدرته على إحيائكم بَعْد إماتتكم لبعث القيامة ... وقد كنتم نُطَفًا أمواتًا في أصلاب آبائكم ، فأنشأكم خَلْقًا سَوِيًّا ، وجَعَلَكم أحياءً ، ثم أماتكم بعد إنشائكم ؟ . فقد علمتم أنَّ مَن فَعَلَ ذلك بِقُدرته غَير مُعجِزه ــ بالقُدرة التي فَعَلَ ذلك بكم ــ إحياؤكم بعد إماتتكم،وإعادتكم بعد إفنائكم، وحَشركم إليه لِمُجازاتكم بأعمالكم)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٧): ((قَوله تعالى: ﴿كَيْفَ تكفرون باللَّه ﴾ في ﴿كَيْفَ ﴾ قَولان : أحدهما أنه استفهام في معنى التَّعَجُّب ، وهذا التَّعَجُّب للمؤمنين، أي: اعْجَبُوا مِن هؤلاء كَيف يكفرون وقد ثبتت حُجَّة اللَّه عليهم ، قاله ابن قُتَيبة والزَّجاج . والثاني أنه استفهام خارج مَخرج التقرير والتَّوبيخ تقديره : وَيْحَكُم كيف تكفرون باللَّه ؟ . وفي الحياتَيْن والموتتَيْن أقوال أصَحُّها أن الْمَوْتة الأُولَى كَونهم نُطَفًا وعَلَقًا ومُضَغًا ، فأحياهم في الأرحام ، ثُمَّ يُميتهم بعد خُروجهم إلى الدنيا، ثُم يُحييهم للبَعْث يَوم القِيامة. وهذا قول ابن عباس وقَتادة ومُقاتل والفَرَّاء وثعلب والزَّجاج وابن قُتَيبة وابن الأنباري)) .

إن اللَّه تعالى قد وضَّح مسألة الإحياء والإماتة كَي يتفكر الناسُ فيها ، ويستدلوا على القدرة الإلهية في الإحياء والإماتة . فالحياةُ والموت مشهدان ماثلان أمام الناس جميعًا . وينبغي للفرد أن يتفكر فيهما وبما وراءهما ، وبالقوةِ القادرة على منح الحياة وسلبها دون صعوبة أو تناقض .

وجَّه اللَّهُ فكرَ الناس إلى مُشاهَدات حِسِّية مِن صميم حياتهم . فالنُّطفةُ كِيانٌ ميت لا وزن له . وحينما تخرج من أصلاب الرجال إلى أرحام النساء ثم تَحدُث الولادة ، فإن هذه النُّطفة تصير كائنًا حَيًّا ذا لحم ودم وقلب ودماغ وأعضاء متكاملة وأجهزة بالغة التعقيد والدقة منتظمة في عملها ، بلا فَوضى ولا تعارُض ولا تضاد . وهذه العمليةُ الباهرة التي تشتمل على الخروج من الموت إلى الحياة تشير إلى قُدرة الخالق المُطْلَقَة . وبعد انتهاء فترة الحياة المُقدَّرة ، فإن الإنسان ينتقل إلى الموت . والإنسان لا يختار موعد ميلاده ولا لحظة وفاته . وهذا يشير إلى وُجود قُوَّة قاهرة للإنسان . وبالتأكيد فهذه القوة هي قُوَّة اللَّه الذي لا يُعجِزه الإحياء ولا الإماتة .

لقد كانوا أمواتًا (نُطَفًا في أصلاب آبائهم) ، فأحياهم اللَّهُ في الأرحام والدُّنيا ، ثُمَّ يُميتهم عِند نهاية أعمارهم وانقضاء آجالهم، ثُمَّ يُحييهم (يَبعثهم مِن المَوت) ، ويَرُدُّهم في الآخرة لِيُحاسبهم ، ويَجزيَهم بأعمالهم ، إنْ خَيْرًا فَخَير ، وإنْ شَرًّا فَشَر .

والاستفهامُ في الآية يَحمل معنى الإنكار والتعجيب مِن حال الكافرين . فهؤلاء ينبغي التَّعَجُّب مِنهم حِينَ كفروا ، بعد أن قامت الحُجَّة عليهم ، واتَّضحت أمامهم الأدلة والبراهين ، وانقطع عُذرُهم . والآيةُ أيضًا تَحمل معنى التَّوبيخ الشديد لهؤلاء ، لأن الجماد لا يُنازِع خالقَه _ سُبحانَه وتعالى _ في شَيء ، أمَّا هؤلاء الكفار الذين لَدَيهم عقول وقلوب وأرواح ، فَيُنازِعُون اللَّهَ صَانعَهم ومُوجِدَهم مِن العَدم.لقد وَبَّخهم اللَّهُ على كُفرهم مَعَ عِلْمهم بحالهم وعَجْزهم ووجودهم بعد العدم، والمعنى : أخبِروني على أيِّ حال تَكْفُرون باللَّه . والخطابُ للكافرين ، والتَّعجيب للمؤمنين .

وكلُّ إنسان _ بغض النظر عن عقيدته _ مقتنع تمامًا بأنه لَم يكن موجودًا ثم وُجِد ، وأنه سائر إلى الموت. والعجيبُ أنك ترى الملاحدة يُنكِرون وجودَ اللَّه تعالى لكنهم لا يُنكِرون الموتَ . ولو أنهم أعملوا عقولَهم لأدركوا أن الموتَ خاضع لقوة عُليا تتحكم فيه ، وتُحدِّد موعدَه ، وهذه قُوَّة اللَّه خالقِ الحياة والموت . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١١٤): ((أي : كيف تَجحَدون رَبَّكُم ودَلالته عليكم ظاهرة جَلِيَّة ، كُل أحد يَعلمها مِن نَفْسه، فإنه ما مِن أحد مِن المخلوقات إلا ويَعْلَم أنه كان مَعدومًا ثُم وُجِد ، وليس وجوده مِن نَفْسه ، ولا مُستنِدًا إلى شيء من المخلوقات ، لأنه بِمَثابته ، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو اللَّه لا إله إلا هو ، خالق كُل شَيء)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٦٧) : ((﴿ كَيْفَ تكفرون باللَّه ﴾ استخبار فيه إنكار ، وتعجيب لكُفرهم بإنكار الحال التي يقع عَلَيها على الطريق البُرهاني، فإن صُدوره لا يَنفكُّ عَن حال وصِفة ، فإذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يُوجد عَلَيها ، استلزم ذلك إنكار وجوده ، فهو أبلغ وأقوى في إنكار الكُفر مِن (أتكفرون) وأوفق لِمَا بعده من الحال . والخطاب مع الذين كفروا ، لَمَّا وصفهم بالكُفر وسُوء المقال وخُبث الفِعال ، خاطبهم على طريقة الالتفات ، وَوَبَّخهم على كُفرهم مع عِلمهم بحالهم المُقتضية خِلاف ذلك ، والمعنى : أخبِروني على أي حال تكفرون . ﴿ وكنتم أمواتًا ﴾ أي : أجسامًا لا حياة لها ، عناصر وأغذية ، وأخلاطًا ونُطَفًا ، ومُضَغًا مُخَلَّقة وغَير مُخَلَّقة. ﴿ فأحياكم ﴾ بِخَلْق الأرواح ونَفْخها فيكم، وإنما عَطَفه بالفاء لأنه مُتَّصل بما عُطِف عَلَيه غَير مُتراخٍ عنه بخلاف البواقي . ﴿ ثُمَّ يُميتكم ﴾ عندما تُقْضَى آجالكم . ﴿ ثُمَّ يُحييكم ﴾ بالنُّشور يوم يُنفَخ في الصُّور، أو للسؤال في القبور. ﴿ ثُمَّ إلَيه تُرجَعون ﴾ بعد الحشر فَيُجازيكم بأعمالكم . أو تُنشَرون إلَيه مِن قُبوركم للحساب . فما أعجبَ كُفْرَكم مَعَ عِلمكم بحالكم هذه . فإن قيل : إن عَلِموا أنهم كانوا أمواتًا فأحياهم ثُمَّ يُميتهم ، لَم يَعْلَموا أنه يُحييهم ثُمَّ إليه يُرجَعون . قلتُ : تَمَكُّنهم مِن العِلم بهما لِمَا نَصَبَ لهم مِن الدلائل مُنَزَّل مَنْزلة عِلمهم في إزاحة العُذر ، سِيَّما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صِحَّتهما وهو : أنه تعالى لَمَّا قَدَرَ على إحيائهم أوَّلًا ، قَدَرَ على أن يُحيِيَهم ثانيًا. فإن بَدْء الخَلْق لَيس بأهْوَن عَلَيه مِن إعادته . أو الخِطاب مَعَ القبيلَيْن ، فإنه سُبحانَه وتعالى لَمَّا بَيَّنَ دلائل التوحيد والنُّبُوَّة ، ووعدهم على الإيمان ، وأوعدهم على الكفر ، أكَّدَ ذلك بأن عَدَّدَ عليهم النِّعَم العامة والخاصة، واستقبح صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النِّعَم الجليلة، فإن عِظَم النِّعَم يُوجِب عِظَم مَعصية المُنعِم. فإن قِيل: كيف تُعَدُّ الإماتة مِن النِّعَم المُقتضية للشُّكر ؟ ، قلتُ : لَمَّا كانت وَصْلة إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وإنَّ الدارَ الآخِرةَ لَهِيَ الحيَوَان ﴾ [العنكبوت : ٦٤] كانت مِن النِّعَم العظيمة، مع أن المعدود عليهم نِعمة ، هو المعنى المُنْتَزَع مِن القصة بأسرها ، كما أن الواقع حالًا هو العِلم بها لا كُل واحدة مِن الجُمَل ، فإن بعضها ماضٍ وبعضها مُستقبَل ، وكِلاهما لا يَصِحُّ أن يقع حالًا . أو معَ المؤمنين خاصَّة لتقرير المِنَّة عليهم، وتَبعيد الكُفر عنهم على معنى : كيف يُتَصَوَّر منكم الكفر وكنتم أمواتًا جُهَّالًا ، فأحياكم بما أفادكم مِن العِلم والإيمان ، ثُمَّ يُميتكم الموت المعروف ، ثُمَّ يُحييكم الحياة الحقيقية ، ثم إليه تُرجَعون ، فَيُثيبكم بما لا عَيْن رأت، ولا أُذُن سَمِعَت ، ولا خَطَر على قلب بشر . والحياة حقيقة في القُوَّة الحَسَّاسة ، أو ما يقتضيها ، وبها سُمِّيَ الحيَوَان حَيَوَانًا

مَجَازًا في القوة النَّامية ، لأنها مِن طلائعها ومُقدِّماتها ، وفيما يَخُص الإنسان من الفضائل ، كالعقل والعِلم والإيمان مِن حَيث إنها كمالها وغايتها،والموت بإزائها يُقَال على ما يُقَابلها في كُل مرتبة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذْ قالَ رَبُّكَ للمَلائكةِ إنِّي جَاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً قالوا أتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ٣٠] .

اذكُرْ يا مُحمَّد حِينَ قال رَبُّكَ للمَلائكة إنِّي خالقٌ في الأرض خَليفةً ، يَخلُفني في تنفيذ أحكامي فيها ، وهو آدم ﷺ . وإخبارُ اللَّه للملائكة عَن خَلْق آدم ﷺ واستخلافه في الأرض ، تعليم للعِباد المُشَاوَرَة في الأُمُور قبل الإقدام عَلَيها ، واتِّخاذ القرارات . واللَّهُ غنيٌّ عن المَلائكة ، لا يَحتاج مَشُورتهم ولا أخذ رأيهم . وجَعْلُ آدم ﷺ خليفة في الأرض يدلُّ على رحمة اللَّه بعباده ، وإحسانه إليهم ، وتفضُّله عَلَيهم ، فالعِبَادُ لا يَستطيعون تلقِّي الأوامر والنَّوَاهي مِنَ اللَّه بلا واسطة ، لذلك أرسلَ اللَّهُ الرُّسُلَ مِن البَشَر ، لهدايتهم وإرشادهم ، وكُل مَخلوق يَمِيل إلى جِنسه .

قال المَلائكةُ مُتعجِّبين مُتسائلين : أتجعلُ في الأرض مَن يُفْسِدُ فيها بالمعاصي والآثام، ويُريق الدِّماءَ بالقتل والاعتداء كما فَعَلَ بَنُو الجان ، وقد قاسَ الملائكةُ الشَّاهِدَ على الغائب . وبَنُو الجان كانوا سُكَّانَ الأرض قَبل آدم ﷺ ، فأفسَدوا فيها ، وارتكبوا المعاصي ، وسَفَكُوا الدِّماءَ، فأرسلَ اللَّهُ عليهم الملائكةَ ، فطردوهم إلى الجُزُر والجِبَال.والجديرُ بالذِّكر أن التَّعَرُّض بعُنوان الرُّبُوبية: ﴿ وإذْ قالَ رَبُّكَ ﴾ معَ الإضافة إلى النبيِّ ﷺ ، لتشريفه وتعظيمه وتكريمه .

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ ، ونَحْنُ نُبَرِّئُكَ مِن كُل سُوء ، مُتَلَبِّسين بِحَمْدِك ، أي : نَقُول : سُبحانَ اللَّه وبحَمْده ، ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ، ونُنَزِّهُك عمَّا لا يَلِيق بِك .

﴿ قالَ إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون ﴾ ، قال اللَّهُ : إنِّي أعْلَمُ مِن المصالح والمنافع ما لا تَعْلَمُون .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٠٤) : ((يُخبِر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذِكْرهم في المَلأ الأعلى قَبل إيجادهم ، فقال تعالى : ﴿ وإذْ قالَ رَبُّكَ للمَلائكةِ ﴾ ، أي : واذكُرْ يا مُحمَّد إذْ قال رَبُّكَ للمَلائكة ، واقْصُصْ على قَومك ذلك. ... . ﴿ إنِّي جَاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً ﴾ ، أي: قَوْمًا يَخلُف بعضُهم بعضًا قَرْنًا بَعد قَرْن ، وجِيلًا بَعد جِيل . ... . ولَيس المُراد هَهُنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط ، كما يَقوله طائفة مِن المُفسِّرين ، وعَزَاه القُرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل. وفي ذلك نَظَر ، بل الخلاف في ذلك كثير ، حكاه الرازي في تفسيره وغَيْرُه، والظاهر أنَّه لَم يُرِدْ آدمَ عَيْنًا ، إذْ لَوْ كان ذلك لَمَا حَسُنَ قَول المَلائكة : ﴿ أتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ

فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ، فإنَّهُم أرادوا أنَّ مِن هذا الجِنس مَن يَفعَل ذلك ، وكأنهم عَلِمُوا ذلك بعِلْم خاص ، أوْ بما فَهِمُوه مِن الطبيعة البشرية ، فإنَّه أخبرهم أنَّه يَخلُق هذا الصِّنْف مِن صَلْصَال مِن حَمَأ مَسنُون ، أوْ فَهِمُوا مِن الخليفة أنَّه الذي يَفصِل بين الناس ما يقع بينهم مِن المظالم ، ويَردعهم عن المَحارم والمآثم، قاله القرطبي، أوْ أنهم قاسوهم على مَن سَبَق. ... . وقَول المَلائكة هذا لَيس على وجه الاعتراض على اللَّه ، ولا على وجه الحَسَد لبني آدم ، كما قد يَتَوَهَّمه بعضُ المُفسِّرين،وقد وَصَفَهم اللَّهُ تعالى بأنَّهُم لا يَسبِقونه بالقَول ، أي: لا يَسألونه شيئًا لَم يَأذَن لهم فيه، وهَهُنا لِمَا أعلمهم بأنَّه سَيَخْلُق في الأرض خَلْقًا. قال قَتادة : وقد تَقَدَّمَ إليهم أنَّهم يُفْسِدون فيها، فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ الآية . وإنَّما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحِكمة في ذلك ، يقولون : يا رَبَّنا ، ما الحِكمةُ في خَلْق هؤلاء معَ أنَّ مِنهُم مَن يُفْسِد في الأرض ويَسفِك الدِّماءَ ؟ ، فإنْ كان المُراد عِبادتك فنحن نُسبِّح بحَمْدك ونُقَدِّس لَكَ ، أي : نُصلِّي لَكَ، أي: ولا يَصدُر مِنَّا شيء مِن ذلك وهَلَّا وَقَعَ الاقتصار علينا ؟ ، قال اللَّهُ تعالى مُجيبًا لهم عن هذا السؤال : ﴿ إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون ﴾ ، أي: إنِّي أعْلَمُ مِن المَصلحة الرَّاجحة في خَلْق هذا الصِّنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تَعْلَمُون أنتم ، فإنِّي جاعل فيهم الأنبياء، وأُرسِل فيهم الرُّسُل، ويُوجَد مِنهم الصِّديقون والشُّهداء والصالحون والعُبَّاد والزُّهَّاد والأولياء والأبرار والمُقرَّبون والعلماء والعاملون والخاشعون والمُحِبُّون له تباركَ وتعالى المُتَّبِعُون رُسُلَه صلوات اللَّه وسلامه عليهم. وقد ثبت في الصحيح أنَّ المَلائكة إذا صَعَدَتْ إلى الرَّب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم: كيف تركتُم عبادي ؟ فيقولون : أتَيْنَاهُم وهُم يُصَلُّون، وتركناهم وهُم يُصَلُّون، وذلك لأنَّهم يتعاقبون فِينا، ويَجتمعون في صلاة الصُّبْح وفي صلاة العَصْر، فيَمكُث هؤلاء، ويَصعَد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام :" يُرفَع إلَيه عَمَلُ الليل قَبل النهار،وعَمَلُ النهار قَبل الليل"، فقَولهم: أتَيْنَاهُم وهُم يُصَلُّون، وتَركناهم وهُم يُصَلُّون ، مِن تفسير قَوله لهم :﴿ إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون ﴾ . وقيل معنى قوله تعالى جوابًا لهم: ﴿إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون ﴾ إنَّ لي حِكمة مُفصَّلة في خَلْق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تَعْلَمونها.قِيل إنَّه جواب ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ فقال: ﴿إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون ﴾ أي: مِن وُجود إبليس بَينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقِيل:بَل تضمَّن قَولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ طَلَبًا مِنهم أن يَسكنوا الأرضَ بدل بني آدم،فقال اللَّهُ تعالى لهم:﴿إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون ﴾ مِن أنَّ بَقاءكم في السَّماء أصْلَح لكم وأَلْيَق بكم،ذَكَرَها الرازي معَ غَيرها مِن الأجوبة واللَّهُ أعلم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٩ و٦٠) : ((وفي هؤلاء المَلائكة قَولان : أحدهما : أنَّهُم جميع المَلائكة ، قاله السُّدي عن أشياخه . والثاني : أنَّهُم الذين كانوا معَ إبليس حين أُهْبِطَ إلى الأرض ، ذَكَرَه أبو صالح عن ابن عباس . ونَقَلَ أنَّه كان في الأرض قَبْلَ آدم خَلْق، فأفسَدوا،فَبَعَثَ اللَّهُ إبليسَ في جماعة مِن المَلائكة فأهلكوهم.واختلفوا ما المقصود في إخبار اللَّه عَزَّ وَجَلَّ المَلائكة بخَلْق آدم على سِتَّة أقوال : أحدها أنَّ اللَّه تعالى عَلِمَ في نَفْس إبليس كِبْرًا، فأحبَّ أن يُطلِع الملائكةَ عَلَيه ، وأن يُظهِر ما سَبَقَ عَلَيه في عِلْمه ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس، والسُّدي عن أشياخه. والثاني أنَّه أراد أن يَبْلُوَ طاعةَ المَلائكة ، قاله الحسن. والثالث أنَّه لمَّا خَلَقَ النارَ خافت الملائكة ، فقالوا : رَبَّنا ، لِمَن خَلَقْتَ هذه ؟ ، قال : لِمَن عَصَاني ، فخافوا وُجودَ المعصية مِنهم ، وهُم لا يَعْلَمُون بوُجود خَلْق سِوَاهم، فقال لهم: ﴿ إنِّي جَاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، قاله ابن زيد. والرابع أنَّه أراد إظهارَ عَجْزهم عن الإحاطة بعِلْمه، فأخبرهم حتى قالوا : أتجعلُ فِيها مَن يُفْسِد فِيها ؟ ، فأجابهم : إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون . والخامس أنَّه أراد تعظيمَ آدم بذِكْره بالخِلافة قَبل وُجوده ، ليَكونوا مُعظِّمين لَه إنْ أوجده . والسادس أنَّه أرادَ إعلامَهم بأنَّه خَلَقَه ليُسكِنه الأرضَ ، وإنْ كان ابتداء خَلْقه في السماء . والخليفة : هو القائم مَقَام غَيره، يُقال: هذا خَلَف فُلان وخليفته . ... . وفي معنى خِلافة آدم قَولان : أحدهما أنَّه خليفة عَن اللَّه تعالى في إقامة شَرْعه ، ودلائل توحيده ، والحُكم في خَلْقه، وهذا قول ابن مسعود ومُجاهد. والثاني أنَّه خَلَفَ مَن سَلَفَ في الأرض قَبله ، وهذا قول ابن عباس والحسن . قَوله تعالى : ﴿ أتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ ظاهر الألف الاستفهام، دَخَلَ على مَعنى العِلْم ليَقع به تَحقيق . ... . والثاني أنَّهم قالوه لاستعلام وَجْه الحِكمة، لا على وجه الاعتراض ، ذَكَرَه الزَّجاج . والثالث أنَّهُم سألوا عَن حال أنفسهم ، فتقديره : أتجعلُ فِيها مَن يُفْسِد فيها ونَحن نُسبِّح بحَمْدك أَمْ لا؟. وهل عَلِمَت الملائكة أنَّهم يُفْسِدون بتَوقيف من اللَّه تعالى، أَمْ قاسوا على حال مَن قَبلهم؟ فِيه قَولان : أحدهما أنَّه بتَوقيف من اللَّه تعالى ، قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومُجاهد وقَتادة وابن زيد وابن قُتَيبة . وروى السُّدي عن أشياخه أنَّهم قالوا: رَبَّنَا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يَكون له ذُرِّية يُفْسِدون في الأرض ويَتحاسدون ، ويَقتل بعضُهم بعضًا ، فقالوا: ﴿ أتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ . والثاني أنَّهُم قاسوه على أحوال مَن سَلَفَ قَبل آدم ، رُوِيَ نَحْو هذا عن ابن عباس وأبي العالية ومُقاتل . قَوله تعالى : ﴿ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ، ... . وسَفْكُ الدَّم : صَبُّه وإراقته وسَفْحه ، وذلك مُسْتَعْمَل في كل مُضيَّع ، إلا أن السَّفْك يَختص الدم ، والصَّب والسَّفْح والإِراقة

يُقال في الدم وفي غَيره . وفي معنى تسبيحهم أربعة أقوال : أحدها أنه الصلاة، قاله ابن مسعود وابن عباس. والثاني أنَّه قَول: سُبحانَ اللَّه،قاله قَتادة. والثالث أنَّه التَّعظيم والحَمْد، قاله أبو صالح. والرابع أنَّه الخُضُوع والذُّل ، قاله محمد بن القاسم الأنباري . قَوله تعالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ . القُدْس: الطهارة ، وفي معنى تقديسهم ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ معناه: نتطهَّر لك مِن أعمالهم، قاله ابن عباس . والثاني : نُعظِّمك ونُكبِّرك ، قاله مجاهد . والثالث نُصلِّي لك، قاله قَتادة. قَوله تعالى : ﴿ إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون ﴾ ، فيه أربعة أقوال: أحدها أنَّ معناه: أعْلَمُ ما في نَفْس إبليس مِن البَغْي والمعصية، قاله ابن عباس ومُجاهد والسُّدي عن أشياخه. والثاني أعْلَمُ أنَّه سَيَكُون مِن ذلك الخليفة أنبياء وصالحون، قاله قَتادة. والثالث أعْلَمُ أنِّي أملأ جهنَّم مِن الجِنَّة والناس، قاله ابن زيد.والرابع أعْلَمُ عواقبَ الأمور، فانا أبتلي مَن تظنُّون أنَّه مُطيع، فيُؤدِّيه الابتلاء إلى المَعصية كإبليس، ومَن تظنُّون به المعصية فيُطيع، قاله الزَّجاج. الإشارة إلى خلق آدم عليه السلام. روى أبو موسى عن النبيِّ ﷺأنَّه قال:"إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدمَ مِن قَبْضة قَبَضَها مِن جميع الأرض،فجاءَ بَنو آدمَ على قَدْر الأرض ، مِنهُم الأحمر والأبيض والأسود، وبَين ذلك، والسَّهْل والحَزْن، وبَين ذلك، والخبيث والطَّيب". قال التِّرمذي: هذا حديث صحيح. وقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيحَيْن مِن حديث أبي هُرَيرة عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال:"خَلَقَ اللَّهُ تعالى آدمَ، طُولُه سِتُّونَ ذِرَاعًا". وأخرجَ مسلم في أفراده مِن حديث أبي هُرَيرة عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: "خَلَقَ اللَّهُ آدمَ بَعد العَصْر مِن يَوم الجُمُعة في آخِر الخَلْق، في آخِر ساعة مِن ساعات الجُمُعة فِيما بَين العَصْر إلى الليل ". قال ابن عباس: لمَّا نَفَخَ فِيه الرُّوحَ، أتَتْهُ النَّفخةُ مِن قِبَل رأسه، فجعلت لا تَجْري مِنه في شيء إلا صار لَحْمًا ودَمًا)) .

وعن ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما قال : لقد أخرجَ اللَّهُ آدمَ مِنَ الجَنَّة قَبل أن يَدخلها أحدٌ . قالَ اللَّهُ تعالى:﴿ إنِّي جَاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً قالوا أتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ، وقد كان فِيها قَبل أن يُخلَق بألْفَي عام الجِنُّ بَنو الجَان، فأفسَدوا في الأرض ، وسَفكوا الدِّماء ، فلمَّا قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنِّي جَاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَةً قالوا أتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ، يَعْنُونَ الجِنَّ بني الجَان ، فلمَّا أفسَدوا في الأرض ، بَعَثَ عَلَيهم جُنودًا مِنَ المَلائكة ، فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البُحُور، قال : فقالت الملائكة : ﴿ أتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ كما فَعَلَ أولئك الجِنُّ بَنو الجَان ، قال : فقال اللَّهُ : ﴿ إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُون ﴾ [٨٢].

---

٨٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٧) برقم (٣٠٣٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فأزَلَّهُما الشَّيطانُ عَنْهَا فأخْرَجَهُمَا مِمَّا كانا فِيهِ وقُلْنا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُم في الأرضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِين ﴾ [البقرة : ٣٦] .

أغْوَى إبليسُ آدمَ وحَوَّاءَ ، وأوقعهما في الخطيئة ، وذلك بأن وَسْوَسَ إلى آدم ، وقال له : هل أَدُلُّكَ على شُجْرة الخُلْد ؟ ، وحَلَفَ لَهُما باللَّه إنَّه لَهُما لَمِنَ الناصحين ، حتى خدعهما ، فأكَلا مِنَ الشَّجَرَة ، فأخرجهما مِن نعيم الجَنَّة ، وقال اللَّهُ : انزِلُوا مِن الجَنَّة إلى الأرض ، والخِطَاب لآدم وحَوَّاء وإبليس ، الشَّيطانُ عدوٌّ لكم ، فَحَارِبُوه ، واتَّخِذُوه عَدُوًّا ، ولكم في الدُّنيا موضع استقرار وقَرَار وإقامة ، وتَمَتُّع بنعيمها وزِينتها وزُخرُفها إلى وقت انقضاء آجالكم ، أي : إلى وَقت المَوت .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ اللَّه لَم يَقُلْ : فأخرجهما مِن نعيم الجَنَّة ، وإنَّما قال : ﴿ مِمَّا كانا فِيهِ ﴾ ، وهذا الإبهام يدلُّ على عَظَمَة الجَنَّة ونعيمها الذي يَفُوق الخَيَال، والتعبيرُ القُرآنيُّ أشدُّ تأثيرًا في نَفْس السامع،وعقلُه سيُحاول تصوُّر نعيم الجَنَّة العظيم،وسيَذهب إلى كُل الخَيَالات والاحتمالات .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ١٠٨) : ((وأزَلَّهُما مِن الزَّلَّة، وهي الخَطيئة ، أي : اسْتَزَلَّهُما، وأوقعهما فيها. ... . و﴿ عَنْهَا ﴾ مُتعلِّق بقَوله : ﴿ فأزَلَّهُما ﴾ على تضمينه معنى أصدرَ، أي: أصدرَ الشَّيطانُ زَلَّتهما عَنها، أي بسببها، يعني الشَّجَرة. وقِيل: الضَّمير للجَنَّة، وعلى هذا، فالفِعل مُضمَّن معنى أبعدهما ، أي : أبعدهما عن الجَنَّة . وقَوله : ﴿ فأخْرَجَهُمَا ﴾ تأكيد لمَضمون الجُملة الأُولَى ، أي : أزَلَّهما ، إنْ كان معناه زالَ عَن المَكان ، وإنْ لَم يكن معناه كذلك، فهو تأسيس، لأنَّ الإخراج فيه زيادة على مُجرَّد الصَّرْف والإبعاد، ونَحْوهما ، لأن الصَّرْف عن الشَّجَرة، والإبعاد عَنها قد يكون مع البقاء في الجَنَّة، بخلاف الإخراج لهما عمَّا كانا فيه مِن النَّعيم والكرامة، أوْ مِن الجَنَّة، وإنَّما نَسَبَ ذلك إلى الشَّيطان ، لأنَّه الذي تولَّى إغواءَ آدم حتى أكلَ مِن الشَّجَرة . وقد اختلفَ أهلُ العِلم في الكيفية التي فعلها الشَّيطانُ في إزلالهما ، فقيل: إنَّه كان ذلك بمُشَافَهَة مِنه لهما، وإليه ذهب الجمهور . ... . وقِيل : لَم يَصدُر مِنه إلا مُجرَّد الوَسْوَسَة ، وقِيل غَير ذلك . وقَوله : ﴿ اهْبِطُوا ﴾ خِطَاب لآدم وحَوَّاء ، وخُوطِبا بِمَا يُخَاطَب به الجَمْع ، لأنَّ الاثنين أقلُّ الجَمْع عند البعض مِن أئمة العربية، وقيل إنَّه خطاب لهما، ولذُرِّيتهما ، لأنهما لمَّا كانا أصل هذا النَّوع الإنساني جُعلا بمنزلته، ويدل على ذلك قَوله: ﴿ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ، فإنَّ هذه الجُملة الواقعة حالًا مُبَيِّنًا للهَيئة الثابتة للمأمورين بالهُبوط تُفيد ذلك. والعَدُوُّ خِلاف الصَّديق... والمُراد بالمُسْتَقَر مَوضع الاستقرار . ... . والمَتَاع : ما يُسْتَمْتَع به مِن المأكول، والمشروب، والملبوس، ونَحْوها . واختلف المُفسِّرون في قَوله : ﴿ إلى حِين ﴾ فقِيل: إلى المَوت ، وقِيل: إلى قِيام السَّاعة)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٦٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ فأزَلَّهُما الشَّيطانُ عَنْهَا فأخْرَجَهُمَا مِمَّا كانا فِيهِ ﴾ ، أزَلَّهما بمَعنى: اسْتَزَلَّهما. ... . والشَّيطان: إبليس. وأُضِيف الفِعل إلَيه، لأنَّه السَّبَب . وفي هاء ﴿ عَنْهَا ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنَّها تَعُود إلى الجَنَّة. والثاني تَرجع إلى الطاعة . والثالث تَرجع إلى الشَّجَرة . فمعناه : فأزَلَّهما بزَلَّة صَدرت عن الشَّجَرة . وفي كيفية إزلاله لهما ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه احتالَ حتى دخل إلَيهما الجَنَّة، وكان الذي أدخله الحَيَّة ، قاله ابن عباس والسُّدي . والثاني أنَّه وقف على باب الجَنَّة، وناداهما، قاله الحسن. والثالث أنَّه وَسْوَسَ إلَيهما،وأوْقَعَ في نُفُوسهما مِن غَير مُخَاطَبَة ولا مُشَاهَدَة، قاله ابن إسحاق ، وفيه بُعْد. قال الزَّجاج: الأجْوَد أن يكون خاطبهما لقَوله : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ . واختلفَ العُلَماءُ في معصية آدم بالأكل، فقال قَوم إنَّه نُهِيَ عن شَجَرة بعَيْنها، فأكلَ مِن جِنسها. وقال آخَرُون : تأوَّلَ الكَراهةَ في النَّهْي دُون التَّحريم. قَوله تعالى:﴿وقُلْنا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُم في الأرضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِين ﴾ الهُبُوط بضَم الهاء: الانحدار مِن عُلُوٍّ، وبفتح الهاء: المَكان الذي يُهبَط فيه، وإلى مَن انصرفَ هذا الخِطاب؟ فِيه سِتَّة أقوال : أحدها أنَّه انصرفَ إلى آدم وحَوَّاء والحَيَّة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني إلى آدم وحَوَّاء وإبليس والحَيَّة، حَكاه السُّدي عن ابن عباس. والثالث إلى آدم وإبليس، قاله مُجاهد. والرابع إلى آدم وحَوَّاء وإبليس، قاله مُقاتل. والخامس إلى آدم وحَوَّاء وذُرِّيتهما، قاله الفَرَّاء. والسادس إلى آدم وحَوَّاء فَحَسْب، ويكون لفظ الجَمْع واقعًا على التَّثنية، ... ذَكَرَه ابن الأنباري، وهو العِلَّة في قول مُجاهد أيضًا. واختلف العُلَماء هل أُهْبِطُوا جُملةً أوْ مُتفرِّقين؟عَلى قَوْلَيْن. أحدهما أنَّهُم أُهْبِطُوا جُملةً، لكنهم نَزَلُوا في بلاد مُتفرِّقة، قاله كَعْب، ووَهْب. والثاني أنَّهم أُهْبِطُوا متفرقين، فَهَبَطَ إبليسُ قَبل آدم، وَهَبَطَ آدمُ بالهِند، وحَوَّاء بجُدَّة، وإبليس بالأُبُلَّة (بَلَد قُرب البَصْرة) قاله مُقاتل . ... . وفي العَدَاوة المَذكورة هاهُنا ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ ذُرِّية بَعْضهم أعداء لبَعْض ، قاله مُجاهد . والثاني أنَّ إبليس عَدُوٌّ لآدم وحَوَّاء، وهُمَا له عَدُوٌّ، قاله مُقاتل . والثالث أنَّ إبليس عَدُوٌّ للمؤمنين ، وهُم أعداؤه ، قاله الزَّجاج. وفي المُسْتَقَر قَولان : أحدهما أنَّ المُراد به القُبور ، حكاه السُّدي عن ابن عباس . والثاني مَوضِع الاسقرار ، قاله أبو العالية ، وابن زَيد ، والزَّجاج ، وابن قُتَيبة ، وهو أصَح . والمَتَاع : المنفعة . والحِين : الزمان . قال ابن عباس : ﴿ إلى حِين ﴾ ، أي : إلى فَنَاء الأجل بالمَوت)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النِّساء : ١] .

هذه دَعْوةٌ إلهية كريمة للناس كُلِّهم _مؤمنهم وكافرهم _ بأن يَتَّقوا رَبَّهم العظيم، ويَلتزموا بأوامره ، ويَجتنبوا نواهيه . فهو _ سُبحانه _ المُتفرِّد بالخَلْق والإيجاد ، فقد خَلَقَ الناسَ مِن نَفْس واحدة، وهي آدم ﷺ [٨٣]. وَخَلَقَ حَوَّاءَ _ رضي اللَّهُ عنها _ مِن ضِلْع آدم الأيسر. وقد حَصَلت الأُلفة بينهما ليتحقق معنى الأُسرة ، ويَحْصل التناسل . ونشرَ اللَّهُ مِنهما رِجالًا كثيرًا ونِساءً في أنحاء الأرض على اختلاف أديانهم وأجناسهم ولُغاتهم .

وفي الدُّر المنثور (٢/ ٤٢٣): ((وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبَيهقي في الشُّعَب عن ابن عباس قال : خُلقت المَرأةُ مِن الرَّجُل ، فَجُعلت نَهْمتها في الرِّجال ، فاحْبِسُوا نِساءكم . وخُلِقَ الرَّجُلُ مِن الأرض فَجُعل نَهْمته في الأرض)) .

هذه حقيقةٌ واقعية في كُل زمان ومكان . فالمرأةُ شديدة الحِرص على الرِّجال ، إذْ إنَّ رَغْبتها مُتمركزة في الرَّجل ، وشَهْوتها مُركَّزة فيه . وهذا ليس غريبًا ، فالمرأةُ جُزء من الرَّجل الذي هو وَطَنها الأصلي ، ومن الطبيعي أن تَحِنَّ المرأةُ إلى أصْلها ونقطةِ بدايتها . أمَّا الرَّجُلُ فهو مخلوقٌ من الأرض (التُّراب) ، فكُلُّ جُهده مُنْصَبٌّ على إعمار الأرض ، وصناعةِ الحضارة ، وكتابةِ التاريخ .

لقد خُلق الرَّجُلُ لبناء الحضارة الإنسانية ، وخُلقت المَرأةُ للرَّجل . وهذا دَوْرٌ شريف للمرأة ، لا يَطعن فيها ، ولا يَنتقص من مكانتها . فالرَّجُلُ هو الحضارةُ التي تَبْنيها المَرأةُ ، والأرضُ هي الحضارة التي يَبْنيها الرَّجُلُ . وباختصار ، إنَّ الرَّجُلَ وَطَنُ المَرأة ، والأرضَ وطنُ الرَّجُل .

وعن أبي هريرة _ رضي اللَّهُ عنه_ قال : قال رسول اللَّه ﷺ: ((اسْتَوْصُوا بالنِّساء، فإن المرأة خُلقت مِن ضِلْع، وإن أعْوَجَ شيء في الضِّلع أعلاه ، فإن ذَهبتَ تُقيمه كَسَرْتَه ، وإن تَرَكْتَه لَم يَزَلْ أعْوَجَ ، فاسْتَوْصُوا بالنِّساء)) [٨٤].

هذا التَّوجيهُ النَّبويُّ يَدعو إلى احترام النِّساء ، وحِفْظِ مكانتهن ، والإحسان إليهن . فالمرأةُ خُلقت مِن ضِلْع ، وفي هذا إشارةٌ إلى خَلْق حَوَّاء _ رضي اللَّهُ عنها _ مِن ضِلْع آدم ﷺ .

---

٨٣ قال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٦٤) : ((وآدم اسم سِرياني ، وهو عند أهل الكتاب آدام بإشباع فتحة الدال... وقال الثعلبي : التراب بالعِبرانية آدام فَسُمِّيَ آدم به ، وَحُذفت الألف الثانية . وقيل : هو عربي ، جَزم به الجوهري والجواليقي ، وقيل : هو بوزن أفعل مِن الأدَمَة ، وقيل : مِن الأديم لأنه خُلق من أديم الأرض ، وهذا عن ابن عباس)) .

٨٤ متفق عليه. البخاري (٣ / ١٢١٢) برقم (٣١٥٣) ، ومسلم (٢/ ١٠٩٠) برقم (١٤٦٨) .

وفي خَلْق النساء عِوَج مِن أصل الخِلْقة ، فينبغي مُراعاة مشاعرهن ، واحتمال قِلَّة عقولهن، والصبر عليهن ، وعدم تطليقهن . ولا شَكَّ أن كَسْر الضِّلع يَعني الطلاقَ الذي يُمثِّل كَسْرًا لمشاعر المرأة ، وتحطيمًا للأُسرة . وعن سَمُرة بن جُنْدب _ رضي اللَّهُ عنه _أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال عَن المَرأة : ((فَدَارِها تَعِشْ بِها))[٨٥].

وهُنا تتجلَّى أهميةُ الأُلفة وحُسن العِشرة ، وضرورةُ مُلاطَفة المَرأة ، وعدم التَّصادم معها ، لأنَّها _ أوَّلًا وأخيرًا _ كائن ضعيف على كافة المستويات . حتى لو أَظْهرت القُوَّةَ والجَبَرُوت ، فستظل كائنًا ناعمًا وقابلًا للكَسْر في أيَّة لحظة. ومُداراةُ المَرأة تعني مُلاينتها والتعامل معها بلُطف، فالمُداراةُ هي الوسيلة الفَعَّالة للسيطرة على قلب المرأة .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ٣٨٨):(((فَدَارِها تَعِشْ بِها) أي لاطفها ولاينها ، فإنَّك بذلك تَبْلُغ ما تُريده منها مِن الاستمتاع بها، وحُسن العِشرة معها الذي هو أهم المعيشة . وفيه إشعار بكراهة الطلاق بلا سبب شرعيٍّ، والمُداراةُ كما في المصباح وغَيره المُلاطَفَةُ والمُلايَنة)) .

إنَّ الإنسَ مُشْتَرِكون في أصل الخِلْقة ، فكُلُّهم مِن آدم ﷺ ، وآدم مِن تُراب . وهذا الأمرُ يَدعو إلى التعاون بين بني البشر ، ومساعدة بعضهم بعضًا ، لأنهم أبناء رَجل واحد (آدم ﷺ) . فالبشريةُ هي جسد واحد _ مهما كانت عقائد الناس أو أجناسهم _ . وكلُّ تهديدٍ للفرد يُمثِّل تهديدًا للبشرية جَمْعاء . فالبشرُ كُلهم في سفينة واحدة . إمَّا أن يَنْجوا جميعًا ، أو يَغرقوا جميعًا .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٧٠٤) : عن المُنذِر بن جرير عن أبيه قال: كُنَّا عِند رسول اللَّه ﷺ في صَدْر النهار، فجاءه قَوْم حُفاة عُراة مُجْتابي النِّمار أو العَباء، مُتَقَلِّدي السُّيوف ، عَامَّتهم مِن مُضَر ، بل كُلهم مِن مُضَر، فتمعَّرَ وَجْهُ رسول اللَّه ﷺ لِمَا رأى بهم مِن الفَاقة ، فدخلَ ، ثم خرجَ ، فأمرَ بِلالًا ، فأذَّن وأقام ، فَصَلَّى ، ثم خَطَب ، فقال : ((﴿ يا أيها الناسُ اتَّقوا رَبَّكم الذي خَلقكم مِن نَفْس واحدة ﴾)) .

إنَّ هؤلاء القَومُ عليهم آثار الفَقْر والعُرْي والحاجة ، فَهُم حُفاة عُراة ، مُجتابي النِّمار . والنِّمارُ هي ثِياب صُوف فيها تنمير.وهؤلاء مِن شِدَّة فَقْرهم يَلْبَسُون هذه الثياب خارقين أوساطها (مُجتابي النِّمار) . والعَبَاءُ نوعٌ من الأكْسِية ، الواحدة عَباءة . وقد تغيَّر (تمعَّر) وجهُ النبيِّ ﷺ، وظَهَرَ عليه الضِّيق، بسبب هيئتهم الرَّثة، ومَنظرهم البائس . وهذا مؤشرٌ واضح على أن النبيَّ ﷺ (قائد الأُمَّة)

---

٨٥ رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ١٩٢) برقم (٧٣٣٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

يَشعر مع الآخرين ، ويُشاركهم آلامَهم ، ويَسعى جاهدًا للتخفيف عنهم، وإزالة ما بهم من الفَقْر والحُزن. فكان القَرَارُ النبويُّ بجمع الناس ، وحَثِّهم على الصَّدَقة على هؤلاء القوم الفقراء. وقد قرأ النبيُّ ﷺ هذه الآية ، لتذكير الناس بأصلهم المُشْتَرَك ، وأنَّ ما يَجْمعهم أكثر بكثير مِمَّا يُفرِّقهم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٠٢و١٠٣) : ((سَبب قراءة هذه الآية أنَّها أَبْلَغ في الحَث على الصَّدَقة عَلَيهم ، ولِمَا فِيها مِن تأكُّد الحق لِكَوْنهم أُخوة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفًا ﴾ [النِّساء : ٢٨] [٨٦].

الإنسانُ كائنٌ ضَعيف أمام شَهَواته ونَزَواته ومُشكلاته . لا يَصبِر عَن النِّسَاء والشَّهَوات ، ولا يتحمَّل تَعَبَ العِبادات ومَشَاق الطاعات . وضَعْفُ الإنسان ظاهرٌ للعِيان ، فلا يحتاج إلى براهين فلسفية لإثباته ، أوْ وَضْع نظريات لبَرْهنة ضَعْفه . فهو أمام شَهَواته وأهوائه وأمراضه وصعوبات حياته وأزماته النفسية والمادية ، شديدُ الضَّعف كقطعة القُماش البالية ، قليل الهِمَّة ، بالغ العَجْز . وكيف يكون الإنسانُ قويًّا وأصلُه ضعيف (النُّطفة) ؟! .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ١٤٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفًا ﴾ ، نَصْب على الحال ، والمعنى أنَّ هَوَاه يَستميله ، وشَهْوته وغَضَبه يستخفانه ، وهذا أشدُّ الضَّعْف ، فاحتاجَ إلى التَّخفيف . وقال طاوس: ذلك في أمر النِّساء خاصَّة . ورُوِيَ عن ابن عباس أنَّه قَرَأ : ﴿ وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفًا ﴾ ، أي: وخَلَقَ اللَّهُ الإنسانَ ضعيفًا ، أي : لا يَصبِر عَن النِّساء. قال ابن المُسيِّب: لقد أتى عليَّ ثمانون سنة ، وذهبت إحدى عينيَّ وأنا أعشُو بالأُخرى ، وصاحبي أعمى أصَم ، يعني ذَكَرَه ، وإنِّي أخاف مِن فِتنة النِّساء . ونَحْوه عن عُبادة بن الصامت رضي اللَّهُ عنه ، قال عُبادة : ألا تَرَوْني لا أقوم إلا رِفْدًا ، ولا آكُل إلا ما لُوِّق لي . قال يَحيى : يعني لُيِّن وسُخِّن . وقد مات

---

٨٦ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٦٠) : ((وفي الْمُراد بضَعْف الإنسان ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه الضَّعْف في أصل الخِلْقة ، قال الحسن : هو أنَّه خُلق مِن ماء مَهين . والثاني أنَّه قِلَّة الصَّبْر عن النِّساء ، قاله طاووس ومُقاتل . والثالث أنَّه ضَعْف العَزْم عَن قَهْر الهوى ، وهذا قول الزَّجاج وابن كَيسان)) اهـ . وفي إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢٨) : ((وقال فَيَّاض بن نَجيح : إذا قام ذَكَرُ الرَّجل ذَهَبَ ثُلُثَا عَقْلِه . وبعضُهم يقول : ذَهَبَ ثُلُثُ دِينه)) اهـ . وقال ابن الجوزي في ذَم الهوى (ص ٨٩) : ((وعن سُفيان الثَّوري في قَوله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفًا ﴾ ، قال : المرأة تمرُّ بالرَّجل فلا يَملِك نَفْسَه عَن النظر إليها ، ولا يَنتفع بها ، فأيُّ شيء أضعف مِن هذا ؟)) .

صاحبي مُنذ زمان . قال يحيى : يَعني ذَكَرَه . وما يَسُرُّني أنِّي خَلَوْتُ بامرأة لا تَحِلُّ لي ، وأنَّ لي ما تَطلُع عليه الشمس مَخافة أن يأتيَني الشيطان فيُحرِّكه عليَّ ، إنَّه لا سمع له ، ولا بصر !)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٢/ ١٦٩) : ((﴿ وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفًا ﴾ عاجزًا عَن مُخالفة هَوَاه ، غَيْرَ قادر على مُقابلة دَوَاعيه وقُواه ، حَيث لا يَصبِر عَن اتِّباع الشَّهَوَات ، ولا يَستخدم قُواه في مَشَاقِّ الطاعات . وعن الحسن أنَّ المُرادَ ضَعْفُ الخِلْقة ، ولا يُساعده المَقام ، فإنَّ الجُملة اعتراضٌ تذييليٌّ مَسوقٌ لتقرير ما قَبْله مِن التَّخفيف بالرُّخصة في نِكاح الإمَاء ، وليس لضَعْف البُنية مَدخلٌ في ذلك ، وإنَّما الذي يتعلَّق به التخفيفُ في العِبادات الشَّاقَّة . وقِيل : المُراد به ضَعفُه في أمر النِّساء خاصَّة ، حَيث لا يَصبِر عنهنَّ . وعن سعيد بن المُسيِّب : ما أيِسَ الشَّيطانُ من بني آدمَ قَطُّ إلا أتاهم مِن قِبَل النِّساء ، فقد أتى عليَّ ثمانون سنة ، وذهبت إحدى عينيَّ ، وأنا أعشو بالأُخرى ، وإنَّ أخْوَفَ ما أخاف على نَفْسي فِتنة النِّساء)) .

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (٢/ ٤٩٤) : ((عن طاووس : ﴿ وخُلق الإنسانُ ضعيفًا ﴾، قال: في أمر النِّساء ، ليس يكون الإنسان في شيء أضعف مِنه في النِّساء)) .

إنَّ النِّساء فِتنة شديدة . والإنسانُ ضعيف أمام المَرأة ، وذلك بحُكم الشَّهوة والإغراء والفِطرة الغريزية . ومَن نظر في حياة الإنسان يَجدها مَحفوفةً بالأخطار والمتاعب والشَّهَوات والصراع مع الغرائز والأهواء . وهذا الكائنُ الضعيف الذي تم تركيبُ الشَّهوة فيه يَسْبح ضِد التيار ، ويُكافح في بحرٍ مُتلاطم الأمواج . فالفِتَنُ والإغراءات تُحيط به مِن كُل الجوانب. وعليه أن يَصمُد أمامها إذا أراد النجاةَ. ولا يمكن الصمود إلا بوجود إيمانٍ راسخ باللَّه تعالى ، وصَبرٍ على تحمُّل الشدائد، واستعداد لمُقاومة الشَّهَواتِ في سِياقها السَّلبي لا الإيجابي، ولن يَثْبُت إلا مَن ثَبَّته اللَّهُ تعالى .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٨) : عن أبي سعيد الخُدري ــ رضي اللَّهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((فإنَّ أوَّلَ فِتْنَةِ بني إسرائيلَ كانت في النِّساء)) .

إذا صار وُجودُ المرأة مَحصورًا في المُتعة والشَّهوة واللذة ، ذَهَبَ الكِيانُ البشري إلى الضَّياع الأكيد والدَّمار الشامل . وكُل فوضى جِنسية إنما هي بسبب سُلوك المرأة بالدرجة الأُولَى ، فالمرأة هي المصنع الجنسي الأكبر والأخطر. ولا نُقلِّل مِن دَور الرَّجل في الفوضى الجنسية إلا أن دَوره محدود لأنَّه تابع لمَصدر الإغراء. والزِّنا أو الاغتصاب تتحمَّل المرأة مسؤوليتهما بنسبة أكبر ، لأنَّ إغراءها هو الطُّعْم الذي يَبتلعه الرَّجل. والمرأةُ مَصدر الإغراء والإغواء ، ومَوضع الشَّهوة واللذة. والفِتنةُ بالنساء أشد مِن الفِتنة بغيرهنَّ. ولَوْلا النِّساء لَعُبِدَ اللَّهُ حَق عبادته، ولم يَرتكب الناسُ الآثامَ.

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ١٣٨): ((قال بعض الحكماء: النِّساء شَر كُلهن،وأشرُّ ما فيهنَّ عدم الاستغناء عنهنَّ . ومعَ أنها ناقصة العقل والدِّين ، تَحْمِل الرَّجل على تعاطي ما فيه نَقْص العقل والدِّين، كَشغْله عن طلب أمور الدِّين، وحَمْله على التَّهَالُك على طلب الدُّنيا،وذلك أشد الفساد)).

وقال المُناوي في فَيض القدير (٢/ ١٨٠) : (((فإنَّ أوَّل فِتنة بني إسرائيل كانت في النساء) . يُريد قَتل النَّفْس التي أُمِرَ بنو إسرائيل فيها بذبح البقرة ، واسم المقتول عاميل ، قتله ابن أخيه أو عَمُّه ليتزوَّج ابنته أو زوجته . وقال في المطامح : يُحتمل كَوْنه أشارَ إلى قصة هاروت وماروت، لأنهما فُتِنَا بسبب امرأة من بني إسرائيل ، ويُحتمل أنه أشار إلى قضية بَلْعام بن باعوراء ، لأنَّه إنَّما هَلَكَ بمُطَاوَعَة زوجته . وبسببهنَّ هَلك كثير مِن العُلماء)) .

والأُمَّةُ المُحمَّدية الإسلامية أُمَّة ضعيفة مُقارَنةً مع الأمم الغابرة التي كانت أقوى أجسامًا ، وأشد بأسًا . وهذه الأمةُ الضعيفة غير قادرة على تحمُّل الأعباء الشديدة والتَّكاليف الشَّاقَّة ، لذلك خفَّف اللَّهُ عنها الشرائعَ والعبادات ، رحمةً بها ، وتفضُّلًا عليها ، وإحسانًا إلَيها .

وفي حديث الإسراء المشهور أنَّ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ قال للنبيِّ مُوسى ﷺ:((أُمِرْتُ بخَمسينَ صلاةً كُلَّ يَوم، قال: أُمَّتُكَ لا تستطيع خَمسينَ صلاةً كُلَّ يَوم، وإنِّي واللَّهِ قَد جَرَّبْتُ الناسَ قَبْلَك ، وعَالَجْتُ بني إسرائيل أشدَّ المُعَالَجَة ، فَارْجِعْ إلى رَبِّكَ فاسألهُ التَّخفيفَ لأُمَّتِك)) [٨٧].

فَرَضَ اللَّهُ الصَّلاةَ لَيلةَ الإسراء والمِعراج ، وهي العِبادة الوحيدة التي فُرضت في السَّماء السَّابعة دُون واسطة بين اللَّه ونَبِيِّه مُحمَّد ﷺ ، وهذا يدلُّ على أهميتها وفضلها ومكانتها العظيمة ، وقد فُرضت الصَّلاة أوَّلًا خَمسين صلاة ، ثُمَّ خفَّفها اللَّهُ على الأُمَّة حتى بَلَغَتْ خَمْسَ صَلَوَات في اليَوم والليلة .

والحديثُ يُبيِّن أنَّ النبيَّ مُوسى كان ناصحًا أمينًا ، وقد جرَّب الناسَ قَبل النبيِّ مُحمَّد ، وتعاملَ معهم ، وعانى أشد المُعاناة مع بني إسرائيل المعروفين بالعِناد وقَسوة القُلوب ، وأدركَ النبيُّ مُوسى أنَّ الأُمَّة المُحمَّدية ضعيفة لا تَستطيع القِيام بالعِبادات الثقيلة، فَنَصَحَ النبيَّ مُحَمَّدًا أن يَسأل اللَّهَ التَّخفيفَ عَن أُمَّته ، وقد خفَّف الصَّلاةَ المفروضة مِن خمسين صلاة إلى خَمْس صَلَوَات في اليَوم والليلة ، إكرامًا للنبيِّ مُحمَّد ﷺ ، وتَشريفًا لقَدْره ، وتعظيمًا لمكانته ، ورحمةً بالأُمَّة المُحمَّدية الكريمة التي هي خاتمة الأُمَم ، وآخِرها مِن الناحية الزَّمنية ، وأوَّلُها مِن حَيث الفضل والمَنزلة .

---

٨٧ متفق عليه. واللفظ للبخاري (٣/ ١٤١٠) برقم (٣٦٧٤) . ومسلم(١/ ١٤٥) برقم (١٦٢).

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَهُوَ الذي أنشأكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾[الأنعام : ٩٨].

البشريةُ مَصْدرها نَفْسٌ واحدة ، ولها أبٌ واحد هو آدم ﷺ . وهنا تتجلى قُدرة اللَّه المُطْلَقَة ، حيث خَلَقَ الناسَ وأوجدهم وأبدعهم مُختلفين مُتنوِّعين مِن نَفْس واحدة (آدم ﷺ) .

والاستقرارُ في أرحام النِّساء وأصلابِ الرجال . وأكثر المُفسِّرين يقولون: المُسْتَقَر في الرَّحِم ، والمُسْتَوْدَع في الصُّلْب .

وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٥٤٥) : ((فقال الجُمهور : مُسْتَقَر في الرَّحِم ، ومُسْتَوْدَع في ظُهُور الآباء حتى يَقضيَ اللَّهُ بخُروجهم)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : في قَوله تعالى : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَع ﴾ . قال : ((المُسْتَقَر في الرَّحِم ، والمُسْتَوْدَع في الصُّلْب)) [٨٨].

وورد معنى آخَر ، وهو مُسْتَقَر في الرَّحِم ، ومُسْتَوْدَع في الأرض التي يَموت فيها الإنسان .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدمَ مِن ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وأشْهَدَهُم عَلى أنفُسِهِم ألَسْتُ بِرَبِّكُم قالوا بَلى شَهِدْنا أن تقولوا يَوْمَ القِيَامةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِين ﴾[الأعراف: ١٧٢].

أخرجَ اللَّهُ ذُرِّيةَ آدمَ ﷺ بَعْضَهم مِن ظُهُور بَعْض مِثْلَ الذَّر ــ ما عدا الذين ليس لهم أولاد بسبب العُقْم أو عدم الزواج أو المَوت صغيرًا ــ ، وأخذَ عَلَيهم العَهْدَ والميثاقَ بأنَّهُ خالقُهم الذي لا شَريك لَهُ ، فأقَرُّوا بذلك ، والتزموه .

---

٨٨ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٥٢) برقم (٣٨٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٩٢) : ((وللمُفسِّرين في هذا المستقَر والمستودَع تسعة أقوال : أحدها: فمُستقَر في الأرحام ومُستودَع في الأصلاب،رواه العَوفي عن ابن عباس وبه قال سعيد بن جُبَير ومجاهد وعطاء والضَّحاك والنَّخعي وقتادة والسُّدي وابن زيد .والثاني : المستقر في الأرحام والمستودع في القبر ، قاله ابن مسعود . والثالث : المستقر في الأرض والمستودع في الأصلاب ، رواه ابن جُبَيْر عن ابن عباس.والرابع: المستقر والمستودع في الرَّحم، رواه قابوس عن أبيه عن ابن عباس. والخامس : المستقر حيث يأوي، والمستودع حيث يموت،رواه مِقْسَم عن ابن عباس. والسادس: المستقر في الدنيا والمستودع في القبر. والسابع : المستقر في القبر والمستودع في الدنيا ، وهو عكس الذي قبله، رُوِيا عن الحسن. والثامن: المستقر في الدنيا،والمستودع عند اللَّه تعالى، قاله مجاهد. والتاسع: المستقر في الأصلاب والمستودع في الأرحام ، قاله ابن بحر)) .

وفي الآية دَلالات عميقة . فكلمةُ ﴿ رَبُّكَ ﴾ تشتمل على ضمير المُخَاطَب . وتَوجيهُ الخِطابِ إلى النبيِّ ﷺ تعظيمٌ وتكريم له ، ويدل على أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ المُخْلِصُ المُخْلَصُ.وأيضًا ، إنَّ اللَّه لَم يَذْكُرْ " ظَهْر آدم " ، لأنَّ جميعَ الناس هُم أبناؤه ، فلا حاجة لِذِكْرِه .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ١١٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحَمَّد ﷺ : واذْكُرْ يا مُحمَّد رَبَّكَ إذ استخرجَ وَلَدَ آدمَ من أصلاب آبائهم ، فقرَّرهم بِتَوحيده ، وأشهدَ بَعْضَهم على بعض شَهادتَهم بذلك ، وإقرارَهم به)) .

وفي صَفوة التفاسير (٤/ ٥٢) : ((للمُفسِّرين في هذه الآية قَولان : أحدهما أنَّ اللَّه لَمَّا خَلَقَ آدمَ ، أخرجَ ذُرِّيته مِن صُلْبه ، وهُم مِثْل الذَّر ، وأخذ عليهم العَهْد بأنه رَبُّهم ، فأقَرُّوا ، وشَهِدوا بذلك . وقد رُوِيَ هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ مِن طُرق كثيرة، وقال به جماعة من الصحابة . والثاني أنَّ هذا من باب التمثيل والتخييل، والمعنى أنَّه سُبحانه نَصَبَ لهم الأدلة على رُبوبيته ووَحدانيته، وشَهِدَت بها عقولُهم وبصائرُهم التي رَكَّبها فيهم ، وجَعَلَها مُمَيِّزة بين الضَّلالة والهُدى ، فكأنه أشهدَهم على أنفسهم ، وقال لهم : ألستُ بربكم ، فقالوا : بلى . وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيان وأبو السُّعود ، والأول أصح)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٨٤) : ((وفي قَوْلِه: ﴿ وأشْهَدَهُم على أنفُسِهم ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها : أشْهَدَهم على أنفسهم بإقرارهم ، قاله مقاتل. والثاني : دَلَّهم بِخَلْقِه على تَوحيده،قاله الزَّجاج.والثالث أنَّه أشهدَ بَعْضَهم على بعض بإقرارهم بذلك، قاله ابن جرير)) .

لقد أقَرُّوا بأنَّ اللَّهَ رَبُّهم،واعترَفوا بذلك بكامل قواهم العقلية، ودُون ضَغط مِن أحد. ﴿ ألستُ بِرَبِّكُم قالوا بلى ﴾ أنتَ رَبُّنا آمَنَّا وصَدَّقْنا . وَلَوْ قالوا : " نَعَمْ " لَكَفروا ، لأنَّ " نَعَم " تصديق للخَبَر سواءٌ كانَ بالنَّفْي أو الإيجاب ، والإجابةُ بِنَعَمْ في هذا السياق تعني : نَعَمْ أنتَ لَسْتَ رَبَّنا ، وهذا كُفْرٌ واضح . لذلك كانت إجابتُهم بِ " بلى " ، والمعنى : أنتَ رَبُّنا . ﴿ شَهِدْنا ﴾ بذلك . لقد أقَرُّوا بالرُّبوبية . والجديرُ بالذِّكْر أنَّ ﴿ ألستُ بِرَبِّكُم ﴾ سؤال تقرير .

﴿ أن تَقولوا يَوْمَ القِيامةِ إنَّا كُنَّا عَن هذا غافِلِين ﴾ . لئلا تقولوا يوم القِيامة إنَّا كُنَّا عَن هذا العَهْد الذي يتضمَّن الإقرارَ بالرُّبوبية غافلين لَم يتم تنبيهنا [٨٩].

---

٨٩ في الدُّر المنثور(٣/ ٥٩٩)أنَّ ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما قال: ((مَسَحَ اللَّهُ ظَهْرَ آدمَ، وَهُوَ بِبَطْن نَعمان_وادٍ إلى جَنْب عَرَفة_فأخرجَ مِنه كُلَّ نَسَمة هو خالقها إلى يوم القيامة ثُمَّ أخذ عليهم الميثاقَ)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٨٥) : ((قَوْلُه : ﴿ إِنَّا كُنَّا ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنَّه إشارة إلى الميثاق والإقرار . والثاني أنَّه إشارة إلى معرفة أنه الخالق . قال المفسِّرون : وهذه الآية تذكير من اللَّه تعالى بما أُخِذ على جميع المُكَلَّفين مِنَ الميثاق ، واحتجاج عليهم ، لئلا يقول الكفار: إنَّا كُنَّا عن هذا الميثاق غافلين لَم نَذْكُرْه ، ونسيانُهم لا يُسقِط الاحتجاجَ بعد أن أخبرَ اللَّهُ تعالى بذلك على لسان النبيِّ ﷺ الصادق . وإذا ثَبَتَ هذا بِقَول الصادق ، قامَ في النفوس مَقامَ الذِّكْر ، فالاحتجاجُ به قائم)) .

وفي الحديث أنَّ عُمر بن الخطاب _ رضي اللَّهُ عنه_ سُئل عن هذه الآية: ﴿ وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِن بني آدَمَ مِن ظُهورِهِم ذُرِّيَّتَهُم ﴾ ، فقال عُمر بن الخطاب : سَمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول : ((إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدمَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَه بيمينه ، فاستخرجَ مِنهُ ذُرِّيةً ، فقال : خَلقتُ هؤلاءِ للجَنَّة ، وبعمل أهل الجَنَّة يَعمَلون ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَه ، فاستخرجَ مِنهُ ذُرِّيةً ، فقال : خَلَقْتُ هؤلاءِ للنار ، وبعمل أهل النار يَعملون)) . فقال رَجُل : يا رسولَ اللَّه ، فَفِيمَ العمل ؟ ، قال : ((إنَّ اللَّهَ إذا خَلَقَ العبدَ للجَنَّة ، استعمله بعمل أهل الجَنَّة ، حتى يَموتَ على عمل أهل الجَنَّة ، فَيَدخل الجَنَّةَ ، وإذا خَلَقَ العبدَ للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يَموتَ على عمل أهل النار، فَيَدخل النارَ)) [٩٠].

إنَّ اللَّه مَسَحَ ظَهْرَ آدمَ ﷺ ، فأخرجَ ذُرِّيةً مصيرها إلى الجنة ، وأخرجَ ذُرِّيةً مصيرها إلى النار . وقد يتبادر إلى الذِّهن أن لا فائدة مِن العبادة والطاعة ما دامَ المصيرُ الإنساني مَحسومًا. وهذا وَهْمٌ، لأنَّ عِلْمَ اللَّه لا علاقة له بالإجبار . ومعَ أنَّ اللَّه يَعلم أهلَ الجنة وأهلَ النارِ قبل أن يَخلُق الناسَ والجَنَّةَ والنارَ ، إلا أنَّه سُبحانَه لَم يُجبِر أحدًا على الطاعة أو المعصية، والإنسانُ اختارَ طريقَه بِمِلْءِ إرادته . لذلك لا معنى للاحتجاج بالقَدَرِ السابق ، لأنَّ القَدَرَ لا يَضُرُّ ولا يَنفَع ، واللَّهُ وَحْدَهُ هو النافع والضار . ومَن كانَ في عِلْمِ اللَّه مِن أهل الجَنَّة ، فإنَّ اللَّه يُوَفِّقُه لأداء العبادات والطاعات ، ويُثبِّته على هذا الطريق حتى المَوت، فَيَدخل الجَنَّةَ . ومَن كان في عِلْمِ اللَّه مِن أهل النار لأنَّهُ مُستحِقٌّ لها ، يَخْذُله اللَّهُ ، فَيَغرق في المعاصي والآثام حتى يَموت على المعصية ، فَيَدخل النارَ . والعِبْرةُ بالخواتيم ، ومصيرُ الإنسانِ يتحدَّد وَفْقَ العقيدة التي ماتَ عليها . والحياةُ لا تُحدِّد مصيرَ الإنسان ، وإنَّما المَوتُ هو الذي يُحدِّد مصيرَ الإنسان. ومَن عاشَ على شَيء ماتَ عليه ، ومَن ماتَ على شَيء بُعِث عليه .

---

٩٠ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٩٣) برقم (٤٠٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي فَيض القدير(٢/ ٣٣١): ((... ، اللَّه تعالى سَبَقَ في عِلْمِه الأزليِّ ، سَعيدُ العَالَم وشَقِيُّه، ثُمَّ رَتَّبَ على هذا السَّبْقِ الخاتِمةَ عند المَوت بِحَسَبِ صلاح العمل وفساده عندها ، وعلى الخاتمة سعادة الآخرة وشَقاوتها)) .

وعن عليِّ بن أبي طالب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((ما مِنكُم مِن أحدٍ إلا وقد كُتب مَقْعَدُه مِنَ الجَنَّة ، ومَقْعَدُه مِنَ النار)). فقالوا: يا رسولَ اللَّه ، أفلا نَتَّكِل ؟، فقال: ((اعْمَلوا فَكُلٌّ مُيَسَّر)) [٩١].

لا ينبغي تركُ العمل ، والاتِّكالُ على القَدَر السابق . يجب الامتثال للشريعة الإلهية في أوامرها ونواهيها.وكلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِقَ له. فَمَن كان من أهل الجَنَّة يسَّره اللَّهُ لعمل الطاعات فينال السعادةَ، ومَن كان من أهل النار يسَّره اللَّهُ للمعاصي فَيَنال التعاسة .

والإيمانُ لا يُكتسَب بعبقرية الإنسان وقُدراته الذاتية ، بَل هُوَ فَضْلٌ ربانِيٌّ مَحْض، يُعطيه اللَّهُ لِمَن يَشاء ويَحجُبه عمَّن يشاء . ومعَ هذا فالإنسان يتحمَّل مسؤوليةَ اختياره ، لأن اللَّه لَم يُجبِر المؤمنَ على الإيمان ، ولَم يُرغِم الكافرَ على الكُفر. فكلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِقَ له. فإنْ هَدى اللَّهُ العبدَ إلى الإيمان فَبِفَضْلِ اللَّه وله المِنَّة . وإنْ هَداه إلى الكُفر فَبِعَدْله ، وللَّهِ على العبد الحُجَّة .

والأعمال بالخواتيم ، والمؤمنُ لا يَدخل الجَنَّةَ بذكائه وعبادته ، وإنما يَدخلها برحمة اللَّه . وعلى الطائع ألا يَركَن إلى طاعته، ويَعتمد على مستواه الشخصي، لأنَّ القلوب مُتقلِّبة، واحتمالُ انقلابِ الحال واردٌ بقوة . وعلى العاصي ألا يَقْنَط مِن رحمة اللَّه ويَستسلم للكآبة واليأس ، ويَعتبر ذُنوبَه عَقَبةً في طريق التوبة ، لأنَّ رحمة اللَّه أعظم مِن كُلِّ شيء ، واللَّهُ أكبرُ مِنَ الإيمانِ والكُفرِ .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأ مَسْنُون ﴾ [الحِجْر : ٢٦] .

المَقصودُ بالإنسان هو آدم ﷺ . وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٧٨) : ((سُمِّيَ إنسانًا لظُهوره وإدراك البَصَر إيَّاه . وقِيل : مِن النِّسيان ، لأنَّه عَهِدَ إلَيه فَنَسِي)) .

خَلق اللَّهُ آدمَ ﷺ مِن صَلْصال ، وهو الطين اليابس الذي إذا نَقَرْتَه سَمعتَ له صَوْتًا . والحَمَأ هو الطِّين الأسْود. ومعنى " مَسْنون " مُتغيِّر الرائحة. وعلى الإنسان أن يتذكر دائمًا أصْله البسيط ، فهو مخلوقٌ من صَلْصال لا قيمة له . فلا دَاعي للتكبُّر والغُرور . واللَّهُ قادرٌ على خَلْق الإنسان من ذَهَب أو فِضَّة ، لكنه تعالى أراد خَلْقَه من طِين ، كَي يتذكر الإنسانُ نقطةَ بدايته ، ولا يتكبر على

---

٩١ متفق عليه ، واللفظ للبخاري (٤/ ١٨٩٠)برقم(٤٦٦١). ومسلم(٤/ ٢٠٣٩)برقم(٢٦٤٧).

خالقه، بل يَخْضع له، ولا يتكبر على الناس، وإنما يتواضع لهم، ويَمُد لهم يد العَوْن، ولا يتعالى على عناصر الطبيعة ، بل يحافظ عليها، ويستخدمها في سُبل الخَير . وقد خُلِقَ الإنسان لأمرٍ عظيم، وهو حَمْل كَلِمة اللَّه تعالى . وهذه المُهِمَّةُ الجليلة بحاجة إلى جهود خارقة ، فهي لَيْست سهلة بالمَرَّة، إذ إنَّها تستلزم بذل الغالي والنفيس في سبيلها، وتحمُّل الأعباء الثقيلة ، ومُقاساة الشدائد ، والخوض في صراعات لا نهاية لها .

وعن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدمَ مِن تُراب ، ثُمَّ جَعله طِينًا ، ثم تَركه ، حتى إذا كان حَمَأً مَسنونًا خَلَقَه وَصَوَّره ، ثم تَركه ، حتى إذا كان صَلْصَالًا كالفَخَّار ، فَكان إبليسُ يمرُّ به فيقول : لقد خُلِقْتَ لأمر عظيم ، ثم نَفخ اللَّهُ فيه رُوحَه، فكان أوَّلُ شيء جَرى فيه الرُّوحُ بَصَرَه وخَياشيمَه)) [٩٢].

إنَّ المراحل التي مَرَّ بها خَلْقُ آدم ﷺ ، هي : التُّراب ، الطِّين ، الحَمَأ المَسْنون ، الصَّلْصَال . وهذا لا يتعارض مع حقيقة خَلْق آدم مِن تُراب ، أو ما يُشابهها مِن العِبارات .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطْفَةٍ فإذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِين ﴾ [النَّحْل : ٤] [٩٣].

الإنسانُ كائن ضعيف ، خَلَقَه اللَّهُ مِن نُطفة حَقيرة ، وهي المَنِيُّ . وبعد اكتمال خَلْقه في أحسن تَقويم، نَسِيَ أصْلَه الوضيع ، فراحَ يُجادِل بالباطل سعيدًا بقُدراته العقلية ، وفَرِحًا بإمكانياته اللغوية ، وصارَ مُخَاصِمًا للَّهِ في قُدرته ، ظاهر الخُصُومة ، يُكابِر ويُعانِد بكل تبجُّح ووقاحة .

---

٩٢ رواه أبو يعلى في مسنده (١١/ ٤٥٣) برقم(٦٥٨٠) . وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٦٣) : ((وفيه إسماعيل بن رافع ، قال البُخاري : ثِقة مُقارَب الحديث ، وضَعَّفه الجمهور ، وبقية رجاله رجال الصحيح)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٦٤) : ((... رواه التِّرمذي والنَّسائي والبَزَّار ، وصَحَّحه ابن حِبَّان من طريق سعيد المقبري وغَيره عن أبي هريرة مرفوعًا)) .

٩٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٢٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطْفَةٍ ﴾ ، قال المفسِّرون : أَخَذَ أُبَيُّ بن خَلَف عَظْمًا رَميمًا ، فَجَعَلَ يَفُتُّه ، ويقول : يا مُحَمَّد ، كَيْفَ يَبعث اللَّهُ هذا بعدما رُمَّ ؟ ، فنزلت فيه هذه الآية . والخصيم : الْمُخَاصِم ، والْمُبين : الظاهر الخُصُومة . والمعنى : أنَّه مخلوق مِن نُطفة ، وهو مع ذلك يُخَاصِم ، ويُنكِر البَعْثَ ، أفلا يستدل بأوَّله على آخِره ، وأنَّ مَن قَدَرَ على إيجاده أوَّلًا ، يَقْدِر على إعادته ثانيًا ؟!، وفية تنبيه على إنعام اللَّه عَلَيه حِين نَقَلَه مِن حال ضَعْف النُّطفة إلى القُوَّة التي أمكنه مَعَها الخِصَام)) .

والآيةُ تَعجيب مِن حال الإنسان الغارق في الجَهْل والعِناد والاستكبار والغُرور والوَقَاحة. فقد صارَ مُجَادِلًا في الخُصُومة ، مُبِينًا للحُجَّة بعد أن لَم يَكن شيئًا مَذكورًا ، والجاهلُ عدوُّ نَفْسه .

وعن ابن عباس ــرضي اللَّهُ عنهماــ قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول اللَّه ﷺ بعَظْم حائل، فَفَتَّه، فقال: يا مُحمَّد، أيَبْعَثُ اللَّهُ هذا بَعدما أَرِمَ ؟ ، قال : ((نَعَم ، يَبعث اللَّهُ هذا ، يُميتك ، ثُمَّ يُحييك ، ثُمَّ يُدخلك نارَ جهنَّم)) . قال : فَنَزلت الآيات : ﴿ أَوَلَم يَرَ الإنسانُ أَنَّا خَلَقْناه مِن نُطفة فإذا هُوَ خَصِيمٌ مُبين ﴾ ، إلى آخر السُّورة [٩٤].

العاص بن وائل لا يُؤمن بالبَعْث ، فهو غارق في الوثنية إلى شَحمة أُذنيه ، وغَير مُستوعب لقضية وجود حياة بعد الموت . فأحضرَ عَظْمًا حائلًا (مُتَغَيِّرًا) ، قد أتَتْ عليه السَّنَوات ، وأصابه البِلى . وسألَ هذا الكافرُ النبيَّ ﷺ سؤالًا استنكاريًّا يَحْمل معاني السُّخرية والجِدال بالباطل ، وليس سؤالًا بهدف التعلم أو معرفة العقائد الدينية ، فجاءه الردُّ النبويُّ صاعقًا ومُفْحِمًا .

لقد خَلَقَ اللَّهُ الإنسانَ مِن نُطفة ضَعيفة مَهينة ، ومعَ ذلك ، فهو يُعَانِد ، ويُخاصِم ، ويُنكِر البَعْثَ . وينبغي الاستدلال بأوَّل الخَلْق على آخِره ، والقادرُ على إيجاد الإنسان مِن العَدَم ، قادرٌ على إحيائه بَعد مَوْته وبَعْثه . والآيةُ عامَّة ، والعِبرة بعُمُوم اللفظ لا بخُصُوص السَّبَب .

ولا معنى لإنكار البَعْث . فاللَّهُ خَلَقَ الإنسانَ من نُطفة ضعيفة (نُقْطة البداية) . والقادرُ على البَداءة ، قادرٌ على الإعادة . فلا بُد مِن الاستدلال بالبَدْء على الإعادة ، والانطلاق مِن عَالَم الشَّهادة إلى عَالَم الغَيْب . وصَدَقَ الشاعرُ إذْ يَقول :

نَسِيَ الطِّينُ سَاعةً أنَّه طِينٌ ... حَقيرٌ فَصَالَ تِيهًا وعَرْبَد
وكَسَى الخَزُّ جِسْمَه فَتَبَاهَى ... وحَوَى المَالَ كِيسُه فَتَمَرَّد

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢١١) : ((لمَّا كان نَوع الإنسان أشرف أنواع المَخلوقات السُّفلية قدَّمه ، وخصَّه بالذِّكْر ، فقال : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ ﴾ وهو اسم لجِنس هذا النَّوع ﴿ مِن نُطْفَةٍ ﴾ مِن جَمَاد يَخرُج مِن حَيَوَان ، وهو المَنِيُّ ، فنقله أطوارًا إلى أن كَمُلَتْ صُورته ، ونَفَخَ فيه الرُّوحَ ، وأخرجه مِن بَطْن أُمِّه إلى هذه الدار ، فعاشَ فِيها ، ﴿ فإذا هُوَ ﴾ بَعْد خَلْقه على هذه الصِّفَة ﴿ خَصِيمٌ ﴾ أي : كَثير الخُصُومة والمُجَادَلَة ، والمعنى : أنَّه كالمُخَاصِم للَّه سُبحانَه في

٩٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٦) برقم (٣٦٠٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

قُدرته، ومعنى ﴿ مُبِين ﴾ ظاهر الخُصُومة ، واضحها . وقِيل : يُبِين عن نَفْسه ما يُخَاصِم به مِن الباطل ، والمُبِين هو المُفصِح عمَّا في ضميره بمَنطقه ، ومِثْله قَوله تعالى : ﴿ أَوَلَم يَرَ الإنسانُ أَنَّا خَلَقْناه مِن نُطفة فإذا هُوَ خَصِيمٌ مُبين ﴾)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٢/ ٢٤٩) : ((قَوله : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطْفَةٍ فإذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِين ﴾ ، أي : فإذا هو مِنْطِيق (بَلِيغ مُفوَّه) مُجَادِل عَن نَفْسه ، مُكَافِح لِخُصُومه ، مُبِين لحُجَّته ، بَعدما كان نُطفة لا حَس به ، ولا حركة ، أوْ : فإذا هو خَصِيم لِرَبِّه ، مُنكِر على خَالقه ، قائل : مَن يُحْيي العِظَامَ وهي رَمِيم ؟ . وهو وصف للإنسان بالوَقَاحة ، والتَّمادي في كُفران النِّعْمَة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ واللَّهُ خَلَقَكُم ثُمَّ يَتَوَفَّاكُم وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النَّحْل : ٧٠] [٩٥]. واللَّهُ أوجدكم أيُّها الناسُ ، وخَلَقَكم بَعد أن لَم تَكونوا شيئًا ، ثُمَّ يَقبِض أرواحَكم مِن أبدانكم ، عِندما تَنقضي آجالُكم ، وَيَحِين مَوعدُ المَوْت ، ومِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أردأ وأضعف العُمُر وأسوأ مراحله ، وهو الهَرَم والخَرَف ، لِيَعود جاهلًا ، كما كان في حالة الطُّفُولة ، التي تتَّصف بنُقصان القُوَّة والعَقْل، أي: إنَّ مِنكُم مَن يَكبُر، فيذهب عقلُه ، ولا يَعلَم شيئًا مِن الأُمور ، ويَصير جاهلًا بعدما كان عَالِمًا، بسبب الخَرَف. إنَّ اللَّهَ عليمٌ بتَدبير خَلْقه ، قَدِير على ما يُريده ، لا يَجهَل شيئًا ، ولا يُعجِزه شيء . وكما قَدَرَ على نقل الإنسان مِن العِلْم إلى الجَهْل ، قادر على إحيائه بَعد إماتته. والمقصود هو الاحتجاج على مُنكِري البَعْث ، فاللَّهُ الذي رَدَّ الإنسان إلى هذه الحالة ، قادر على بَعْثه بَعد إماتته .

---

٩٥ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٦٧ و٤٦٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ واللَّهُ خَلَقَكُم ﴾ ، أي : أوجدكم ولم تكونوا شيئًا ، ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُم ﴾ عِند انقضاء آجالكم ﴿ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ﴾ وهو أرْدَؤُه وأدْوَنُه ، وهي حالة الهرَم، وفي مِقداره مِن السِّنين ثلاثة أقوال : أحدها خمس وسبعون سنة، قاله عليٌّ عليه السلام. والثاني تِسعون سَنَة، قاله قَتادة. والثالث ثمانون سَنَة، قاله قُطْرُب . قَوله تعالى: ﴿ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ قال الفَرَّاء: لِكَي لا يَعقِل مِن بَعد عَقْله الأوَّل شيئًا، وقال ابن قُتَيبة:أي حَتَّى لا يَعلَم بَعد عِلْمه بالأمور شيئًا لِشِدَّة هَرَمه.وقال الزَّجاج:المعنى أنَّ مِنكُم مَن يَكبُر حتى يَذهب عقلُه خَرَفًا، فيَصير بعد أن كان عَالِمًا جاهلًا، لِيُرِيَكُم مِن قُدرته،كَمَا قَدَرَ على إماتته وإحيائه، أنَّه قادر على نَقْله مِن العِلْم إلى الجَهْل. وروى عطاء عن ابن عباس أنَّه قال: ليس هذا في المسلمين، المسلم لا يَزداد في طُول العُمُر والبقاء إلا كرامةً عند اللَّه وعَقْلًا ومعرفة . وقال عِكرمة: مَن قَرأ القُرآنَ لم يُرَدَّ إلى أرذل العُمُر)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٦١) : ((يُخبِر تعالى عن تصرُّفه في عِباده ، وأنَّه هو الذي أنشأهم مِن العَدَم ، ثُمَّ بَعد ذلك يَتَوَفَّاهُم ، ومِنهُم مَن يَتركه حتى يُدركه الهَرَم ، وهو الضَّعْف في الخِلْقة، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿ اللَّهُ الذي خَلَقَكُم مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ الآية. وقد رُوِيَ عن عليٍّ رضي اللَّهُ عنه : أرذلُ العُمُر خَمْس وسَبعون سَنَة . وفي هذا السِّن يَحصُل له ضَعْف القُوى والخَرَف وسُوء الحِفظ وقِلَّة العِلْم ، ولهذا قال : ﴿ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ ، أي: بَعدما كان عَالِمًا أصبحَ لا يَدري شيئًا مِن الفَنَد والخَرَف ، ولهذا روى البخاري عِند تفسير هذه الآية : حَدَّثَنا مُوسى بن إسماعيل حَدَّثَنا هارون بن مُوسى أبو عبد اللَّه الأعور عن شُعَيب عن أنس ابن مالك أنَّ رسول اللَّه ﷺ كان يَدعو: " أَعُوذُ بِكَ مِن البُخل والكَسَل والهَرَم ، وأرذلِ العُمُر، وعَذاب القَبْر ، وفِتنة الدَّجَّال ، وفِتنة المَحيا والمَمات ". وقال زُهَير بن أبي سُلمة في مُعلَّقته المَشهورة : سَئِمْتُ تكاليفَ الحَياةِ وَمَن يَعِشْ ثمانينَ عَامًا لا أبا لَكَ يَسْأمِ

رَأيْتُ المَنَايا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَن تُصِبْ تُمِتْهُ ومَن تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٥٤) : ((﴿ واللَّهُ خَلَقَكُم ﴾ وَلَم تكونوا شيئًا ، ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُم ﴾ عِند انقضاء آجالكم ، ﴿ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ﴾ ، ... والرُّذالة: أردأ الشَّيء وأوضعه . قال النَّيسابوري : وَاعْلَمْ أنَّ العُقَلاء ضَبطوا مراتبَ عُمُر الإنسان في أربع : أُولاها سِن النشوِّ ، وثانيها سِن الوُقوف ، وهو سِن الشَّباب، وثالثها سِن الانحطاط اليَسير، وهو سِن الكُهُولة، ورابعها سِن الانحطاط الظاهر، وهو سِن الشَّيخوخة . قِيل: وأرذل العُمُر هو عِند أن يَصير الإنسان إلى الخَرَف ، وهو أن يَصير بمنزلة الصبيِّ الذي لا عَقْلَ له . وقِيل : خَمس وسبعون سَنَة . وقِيل: تِسعون سَنَة . ومِثْل هذه الآية قَوله سُبحانَه : ﴿ لقد خَلَقْنا الإنسانَ في أحسن تقويم (٤) ثُمَّ رَدَدْناه أسفلَ سافِلين (٥) ﴾ [سُورة التِّين] . ثُمَّ علَّل سُبحانَه رَدَّ مَن يَرُدُّه إلى أرذل العُمُر بقَوله: ﴿ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ ﴾ كان قد حَصَلَ له ﴿ شَيْئًا ﴾ مِن العِلْم ، لا كثيرًا ولا قليلًا ، أوْ شيئًا مِن المعلومات إذا كان العِلم هُنا بمعنى المَعلوم . وقِيل : المُراد بالعِلْم هُنا العَقْل ، وقِيل : المُراد لِئَلا يَعلَم زِيادةً على عِلْمه الذي قد حَصَلَ له قَبل ذلك)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٠٩) : ((﴿ واللَّهُ خَلَقَكُم ثُمَّ يَتَوَفَّاكُم ﴾ بآجَال مُختلفة ، ﴿ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ ﴾ يُعَاد ﴿ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ﴾ أخَسِّه، يعني الهَرَم الذي يُشابه الطُّفولية في نُقْصان القُوَّة والعَقْل . وقِيل : هو خَمْس وتسعون سَنَة ، وقِيل : خَمْس وسَبعون ، ﴿ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ لِيَصِير إلى حالة شَبيهة بحالة الطُّفولية في النِّسيان وسُوء الفَهْم ، ﴿ إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾

بمَقادير أعماركم ﴿ قَدِيرٌ ﴾ يُميت الشَّابَّ النشيطَ ، ويُبْقِي الهَرِمَ الفاني. وفيه تنبيه على أن تفاوُت آجال الناس لَيس إلا بتَقدير قادر حكيم ، رَكَّبَ أبنيتهم ، وعدَّل أمزجتهم ، على قَدْر مَعلوم ، وَلَوْ كان ذلك مُقْتَضَى الطبائع لَم يَبْلُغ التَّفَاوُت هذا المَبلَغ)) .

إنَّ أرذلَ العُمُر هُوَ الهَرَم والشَّيخوخة ، وهو أكثر سنوات العُمر رَدَاءَةً وضَعْفًا ، حَيث يَعُود الإنسانُ جاهلًا ضعيفًا عاجزًا كما كان في طُفولته ، فتَضعُف قُواه العقلية أوْ تَزول نهائيًّا ، ويَذبُل جِسْمُه ، ويُصبح كالطفل بحاجة إلى مَن يَقوده ويُرشده ويُفَسِّر له الأشياء . وفي هذه المرحلة الرديئة يَفقد الإنسانُ عُنفوانَه، وقُوَّةَ ذاكرته ، وتماسكَه العقلي ، وبُنيته الجِسمية، ويعود_ كَمَا بَدَأ_ لا حَوْل له ولا قُوَّة . وبَعد هذه المَسيرة الطويلة يَعود الإنسانُ إلى حَيث بَدَأ ، وهذا يعني أنَّه كان يتحرَّك ضِمن دائرة مُغلِقة ، ونِهايةُ الرِّحلة تُوصِل إلى بدايتها .

وقال العَيني في عُمدة القاري (١٤/ ١١٩): ((وأرذل العُمُر هو الخَرَف، يعني: يَعود كَهَيئته الأُولَى في أوان الطُّفولية ، ضَعيف البُنية ، سَخيف العَقْل ، قَليل الفَهْم . ويُقال: أرذل العُمُر أرْدَؤُه، وهو حالة الهَرَم والضَّعْف عن أداء الفرائض ، وعَن خِدمة نَفْسه فيما يتنظَّف فِيه ، فيَكون كَلًّا على أهله ، ثقيلًا بَينهم ، يَتَمَنَّوْنَ مَوْتَه ، فإنْ لَم يَكُن له أهل فالمُصيبة أعظم)) .

وعن أنس بن مالك _ رضي اللَّهُ عنه_ أنَّ رسول اللَّه ﷺ كان يَدعُو: ((أعُوذُ بِكَ مِن البُخْلِ ، والكَسَلِ ، وأرْذَلِ العُمُر)) [٩٦].

النبيُّ ﷺ مَعصومٌ مِن الوُقوع في هذه الأُمور السَّيئة ، لكنَّ الاستعاذة مِنها تعليمٌ لأُمَّته كَي تَقتديَ به ، وتنتبه إلى خُطورة هذه الحالات ، وتأثيرها السلبي على الفرد والجماعة .

والبُخْلُ هُوَ مَنْع ما يَجِب بَذْلُه . والكَسَل هو التَّثَاقُل عمَّا لا يَنبغي التَّثَاقُل عنه ، ويَكون لعدم انبعاث النَّفْس للخَير معَ القُدرة والاستطاعة . وأرْذَلُ العُمُر هو مرحلة الخَرَف والهَرَم ، وهو كِبَر السِّن المُؤدِّي إلى ضَعف العَقْلِ والجِسْمِ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٨و ٢٩): ((وأمَّا الكَسَلُ فهو عَدَم انبعاث النَّفْس للخَير وقِلَّة الرَّغبة معَ إمكانه. ... . وأمَّا استعاذته ﷺ مِن الهَرَم،فالمُراد به الاستعاذة مِن الرَّد إلى أرْذَل العُمُر. وسَبَب ذلك ما فيه مِن الخَرَف واختلال العَقْل والحَوَاس والضَّبْط والفَهْم، وتَشويه بعض المَنظَر ، والعَجْز عَن كثير مِن الطاعات ، والتَّسَاهُل في بَعْضها)) .

---

٩٦ متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧٤١) برقم (٤٤٣٠) ، ومسلم (٤/ ٢٠٧٩) برقم (٢٧٠٦) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : ((مَن قَرَأَ القُرآنَ لَم يُرَدَّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ لِكَيلا يَعْلَمَ بَعد عِلْم شيئًا)) [٩٧].

هذا يُشير إلى فَضْل القرآن وبَرَكته ، فهو يَحفظ عَقْلَ المؤمنِ وجِسْمَه ، ويَمنع الخَرَفَ مِن الوُصول إلَيه ، إذْ إنَّ قِراءة القرآن تَنعكس على سُلوك المؤمن وحياته ، فيُصبح شُعلةَ نشاط ، وطاقةً حيوية حَتَّى وَفَاته ، كما تَنعكس على قُواه الذِّهنية والجَسَدية ، فتزداد قُوَّته ، ولا يَصِل إلى حالة الانتكاسة التي تُلازم كِبَارَ السِّن . وهذا يعني أنَّ نَفْع القُرآن مَعنوي ومادي في آنٍ معًا ، وقُرَّاءُ القُرآنِ وحَفَظَتُه أبْقَى الناس عُقُولًا ، لأنَّهُم أهلُ اللَّهِ وخَاصَّتُه ، وصَفوته مِن خَلْقه .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ واللَّهُ أخْرَجَكُم مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصارَ والأفْئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ [النَّحْل : ٧٨] .

يُذكِّر اللَّهُ عِبادَه بنِعمته عليهم ، ويمنُّ عَلَيهم ، فقد أخرجهم مِن أرحام أُمَّهاتهم جُهَّالًا ، لا يَعرِفون شيئًا ، وخَلَقَ لهم السَّمْعَ لإدراك الأصوات ، والأبصارَ لمُشَاهَدَة الأشياء ، والعُقولَ (المُستقرة في القلوب) للتَّمييز بين المنافع والمَضَار .

إنَّ اللَّه خَلَقَ لهم الحَوَاسَّ التي بواسطتها يَسمَعون ويُبصِرون ويَعقِلون ، وبها يَعْلَمُون ، ويُدرِكون ما يَجْهَلُون ، كَي يَعْمَلُوا بالعِلْم النافع ، ويَشكروه على نِعَمه ، ويَعبدوه وَحْدَه بلا شريك ولا نِد.

والجديرُ بالذِّكر أنَّ اللَّه جَعَلَ السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ لهم قبل الخُرُوج مِن بُطُون أُمَّهاتهم ، وإنَّما أعطاهم العِلْم بالأشياء ومعرفتها وإدراكها بعد الخُرُوج .

ومَقصود الآية أنَّ اللَّه أظهرَ نِعَمَه عَلَيهم ، حَيث أخرجهم جُهَّالًا بالأشياء ، غَير مُدرِكين لها ، وخَلَقَ لهم الحواس والآلات التي يتوصَّلون بها إلى العِلْم والمعرفة .

والآيةُ ﴿ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ عامَّة وشاملة لكل الأُمور والأشياء ، لأنَّ ﴿ شَيْئًا ﴾ نَكِرَة واقعة في سِياق النَّفْي ، وهذا يُفيد العُمُومَ والشُّمُولَ .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٦٢٥) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : واللَّه تعالى أعلمكم ما لم تكونوا تَعْلَمُون مِن بَعد ما أخرجكم مِن بُطُون أُمَّهاتكم ، لا تَعقِلون شيئًا ، ولا تَعْلَمُون ، فرزقكم عُقُولًا تَفقَهون بها ، وتُميِّزون بها الخَيْرَ مِن الشَّر ، وبصَّركم بها ما لَم تكونوا تُبصِرون ، وجَعَلَ لكم السَّمْعَ الذي تَسمَعون به الأصوات ، فيَفقَه بعضُكم عَن بَعض ما تتحاورون به بينكم ، والأبصار

---

٩٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٧٦) برقم (٣٩٥٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

التي تُبصِرون بها الأشخاصَ ، فتتعارفون بها ، وتُميِّزون بها بَعْضًا مِن بَعْض ، ﴿ والأفْئِدَةَ ﴾ ، يقول: والقُلُوب التي تَعرِفون بها الأشياءَ فتحفظونها وتُفكِّرون فتَفقَهون بها ﴿ لَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ يقول : فَعَلْنا ذلك بكم ، فاشكروا اللَّهَ على ما أنعمَ به عليكم مِن ذلك ، دُون الآلهة والأنداد ، فجعلتم له شُركاء في الشُّكْر ، ولَم يكن له فيما أنعمَ به عليكم مِن نِعمة شَريك . وقَوله : ﴿ واللَّهُ أخْرَجَكُم مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ كلام مُتَنَاهٍ ، ثُمَّ ابْتُدِئ الخَبَر، فقِيل : وجَعَلَ اللَّهُ لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ . وإنَّما قُلنا ذلك كذلك ، لأنَّ اللَّه تعالى ذِكْرُه جَعَلَ العِبادةَ والسَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ قَبل أن يُخرِجهم مِن بُطُون أُمَّهاتهم ، وإنَّما أعطاهم العِلْمَ والعَقْلَ بَعدما أخرجهم مِن بُطون أُمَّهاتهم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٣٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ واللَّهُ أخْرَجَكُم مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ . ذَكَرَ أنَّ مِن نِعَمه أن أخرجكم مِن بُطون أُمَّهاتكم أطفالًا ، لا عِلْمَ لكم بشَيء. وفيه ثلاثة أقاويل: أحدها لا تَعْلَمُون شيئًا مِمَّا أخذَ عليكم مِن المِيثاق في أصلاب آبائكم. الثاني لا تَعْلَمُون شيئًا مِمَّا قَضى عليكم مِن السَّعادة والشَّقاء. الثالث لا تَعْلَمُون شيئًا مِن مَنافعكم. وتَمَّ الكلام ، ثُمَّ ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصارَ والأفْئِدَةَ ﴾ ، أي التي تَعْلَمُون بها وتُدرِكون ، لأنَّ اللَّه جَعل ذلك لعِباده قبل إخراجهم مِن البُطون ، وإنَّما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم ، أي : وجَعَلَ لكم السَّمْعَ لتَسمعوا به الأمرَ والنَّهْي ، والأبصارَ لتُبصِروا بها آثارَ صُنعه ، والأفئدة لِتَصِلُوا بها إلى مَعرفته. والأفئدة جَمْع الفُؤاد، نَحْو غُراب وأغربة. وقد قِيل في ضِمن قَوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ ﴾ إثبات النُّطْق ، لأنَّ مَن لَم يَسْمَعْ لَم يتكلَّم ، وإذا وُجدت حاسَّة السَّمْع وُجد النُّطْق . ... . ﴿ لَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ ، فِيه تأويلان : أحدهما تَشكُرون نِعَمَه ، الثاني يَعني تُبصِرون آثارَ صَنْعته ، لأن إبصارها يُؤَدِّي إلى الشُّكْر)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٦٤) : ((ذَكَرَ تعالى مِنَّتَه على عِباده في إخراجه إيَّاهم مِن بُطون أُمَّهاتهم لا يَعْلَمُون شيئًا ، ثُمَّ بعد هذا يَرزقهم السَّمْعَ الذي به يُدرِكون الأصوات ، والأبصارَ التي بها يَحُسُّون المرئيات ، والأفئدةَ وهي العُقُول التي مَركزها القلب على الصحيح . وقِيل : الدِّماغ . والعَقْلُ به يُميَّز بين الأشياء ضَارِّها ونافعها ، وهذه القُوى والحَوَاس تَحصُل للإنسان على التَّدريج قليلًا قليلًا ، كُلَّما كَبُرَ زِيدَ في سَمْعه وبَصَره وعَقْله ، حَتَّى يَبلُغ أشُدَّه ، وإنَّما جَعَلَ تعالى هذه في الإنسان ليتمكَّن بها مِن عِبادة رَبِّه تعالى ، فيَستعين بكُل جارحة وعُضْو وقُوَّة على طاعة مَوْلاه . كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنَّه قال : " يقول تعالى :

مَن عادى لي وَلِيًّا ، فقد بَارَزَني بالحَرْب ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدي بشيء أفضل مِن أداء ما افترضتُ عَلَيه ، ولا يَزَال عَبْدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه ، فإذا أحببتُه كُنتُ سَمْعَه الذي يَسمَع به ، وبَصَرَه الذي يُبصِر به ، ويَدَه التي يَبطِش بها ، ورِجْلَه التي يَمْشي بها ، ولَئِن سَألني لأُعْطِيَنَّه ، وَلَئِن دَعَاني لأُجِيبَنَّه ، وَلَئِن استعاذَ بي لأُعِيذَنَّه ، وما تَرَدَّدْتُ في شيء أنا فاعله تَرَدُّدي في قَبْض نَفْس عَبْدي المُؤمن، يَكره المَوْتَ، وأكْرَهُ مَساءته، ولا بُدَّ لَهُ مِنه " . فمعنى الحديث أنَّ العبد إذا أخلصَ الطاعةَ صارت أفعالُه كُلُّها للَّه عَزَّ وَجَلَّ، فلا يَسمَع إلا للَّه، ولا يُبصِر إلا للَّه، أي:ما شَرَعَه اللَّهُ له ، ولا يَبطِش ولا يَمْشي إلا في طاعة اللَّه عَزَّ وَجَلَّ مُستعينًا باللَّه في ذلك كُلِّه، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غَير الصحيح بعد قَوله : " ورِجْله التي يَمْشي بها ": " فَبِي يَسمَع ، وبِي يُبصِر، وبِي يَبطِش،وبِي يَمْشي" ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصارَ والأفْئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُون﴾)) اهـ . وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدمَ وَحَمَلْنَاهُم في البَرِّ والبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

إنَّ التكريم الإلهيَّ للإنسان عامٌّ يَشمل البَرَّ والفاجرَ ، والمُسلمَ والكافر . وهذا من فضل اللَّه على بني آدم ، فقد منحهم الشكلَ الحَسَن ، وأعطاهم العقلَ والقدرةَ على التمييز والتخيُّل ، وزوَّدهم بالأعضاء والحواس ، وسخَّر لهم الكائنات الحية ، وبسط لهم الأرضَ وجعلها صالحةً للحياة كَي يعيشوا فيها بسعادة دون مُنغِّصات.وكُل البشر باعتبارهم بشرًا تحت فضلِ اللَّه ورحمته .

والإنسانُ يَمشي مُنْتَصِبًا على رِجْلَيْه ، ويأكل بيديه، على عكس الحيوانات التي تزحف أو تمشي على أربع ، وتأكل بفمها . وهذا من مظاهر التكريم الباهرة الواضحة للعِيان. ولكنَّ الإنسان مِن فَرْط تعوُّده على رؤية الأشياء ببصره ، لم يعد قادرًا على رؤيتها ببصيرته .

وفي الدُّر المنثور (٥/ ٣١٦): [وأخرج الحاكم في التاريخ والدَّيلمي عن جابر بن عبد اللَّه ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال: قال رسول اللَّه ﷺ في قَوْله : ﴿ ولقد كَرَّمْنا بني آدم ﴾، قال: ((الكرامة الأكل بالأصابع))] .

وقضيةُ الأكل بالأصابع لَيْست قضيةً بسيطة أو عادية ، فهي تكريمٌ للإنسان ، وتمييز له عن الحيوانات التي تأكل بفمها . وهذا يدل على رُقِيِّ الإنسان ، وعُلُوِّ مكانته ، ووجوده في قمة هَرَم الكائنات الحية . وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٥٤) : ((كَرَّمْنا تضعيف كرم ، أي : جعلنا لهم كَرَمًا ، أي شرفًا وفضلًا . وهذا هو كَرَم نَفْي النُّقصان لا كَرَم المال . وهذه الكرامة يدخل فيها خَلْقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة ، وحُسن الصورة ، وحَمْلهم في البَر والبحر)) .

وقد سَخَّر اللَّهُ للإنسان الدواب كي تَحْمله لقضاء حوائجه ، وتحقيق مصالحه . وأيضًا ، تَمَّ تسخير السُّفن للإنسان لتحمله في البحر . وكلُّ هذا يتم بيُسر وسلاسة دون عوائق ولا موانع .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٥٧) : ((... أو حَمَلْناهم فيهما حتى لم تُخسَف بهم الأرض ، ولم يُغرقهم الماء)) .

واللَّهُ تعالى قد رَزق الإنسانَ مِن الطَّيبات (المأكولات الشَّهية ، والمشروبات اللذيذة ، والملبوسات الأنيقة) . وكُلها حلالٌ طَيِّب ، تَجلب المنفعةَ للإنسان ، وتُسهِّل عليه الحياةَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٢) : ((أي من زروع ثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطُّعوم ، والألوان المُشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مِمَّا يصنعونه لأنفسهم ، ويَجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي)) .

وهذه النِّعَمُ الجليلةُ التي يَغرق فيها البشرُ لا تتوفر لكثير من المخلوقات . وهذا يُشير إلى أفضلية البشر على كثير من المخلوقات ، فهُم أفضل من البهائم والوحوش . ولكنَّ البشر لَيْسوا أفضل من كُل المخلوقات . فالأفضليةُ لَيْست مُطْلَقة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٥٧): ((﴿ وفَضَّلناهم على كَثير مِمَّن خَلَقْنا تفضيلًا ﴾ [٩٨]، بالغَلبة ، والاستيلاء ، أو بالشرف والكرامة. والمُستثنَى جِنس الملائكة_ عليهم الصلاة والسلام _ أو الخَوَاص منهم)) .

إن اللَّه كرَّم الإنسانَ كإنسان ، مهما كانَ دِينه وعقيدته ومَذهبه ، واللَّهُ يُشرِق بشمسه على جميع الناس بلا تمييز ، ويُمطِر على الصالحين والطالحين بلا تَفرِقة . وهذا يدل على كَرَم اللَّه ، وتفضُّله على خَلْقه ، وإنعامه عليهم ، ورحمته بهم ، وإحسانه إليهم .

---

٩٨ قال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٣٥٠): ((وقد شُغل كثير من أهل العِلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلق به فائدة، وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء، أو الأنبياء على الملائكة. ومن جُملة ما تمسَّك به مُفضِّلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية،ولا دَلالة لها على المطلوب لِمَا عرفت من إجمال الكثير وعدم تبيينه. والتعصُّب في هذه المسألة هو الذي حَمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع ، حتى يتم له التفضيل على الملائكة . وتمسَّك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء ، ولا دَلالة بها على ذلك ، فإنه لم يقم دليل على أن الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير)) .

واللَّهُ لم يَجعل المُسلمَ يمشي على قدميه، والكافر يزحف على بطنه . ولم يَجعل الطائعَ يأكل بيديه ، والعاصي يأكل بفمه . لقد خلقهم جميعًا (مؤمنهم وكافرهم) في أحسن صورة ، وأجمل هيئة ، وزوَّدهم بنفْس الأجهزة والأعضاء والجوارح والحواس . وذلك لكي يُقيمَ اللَّهُ الحُجَّةَ على عباده ، ويَقطع أعذارهم . ولو لم يكن الأمر كذلك ، لجاءَ الكافرُ يوم القيامة حاملًا كومةَ أعذار، يقول لِرَبِّه الكريم : لو خَلَقْتَ لي عقلًا لكنتُ آمنتُ بك ، ولو جَعلتَ لي أُذنين لأصغيتُ إلى كلامك ، ولو أعطيتني عينين ، لرأيتَ آياتك وآثار صُنعك ، ولو خَلقتَ لي فمًا لدعوتُ إليك ، وهكذا . واللَّهُ قد أقام الحُجَّةَ على الإنسان ، وأغلقَ طريق الأعذار أمامه . والإنسان مَجْزِيٌّ بما يفعل ، إنْ خَيْرًا فَخَير ، وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

ومِن آثار الرحمة الإلهية ، أن جَعَلَ اللَّهُ الإنسانَ حسن الصورة ، مُنتصب القامة ، قادر على استخدام عقله لتحصيل قُوت يَوْمه، ويستطيع نُطق الكلام واستقباله وفهمه ، والتَّصَرُّف وَفْق ذلك. وقد فضَّل اللَّهُ البشرَ على الحيوانات،فالحيوانُ يتناول طعامه بفمه،أمَّا الإنسان فإنه يَرفعه إليه بيده.

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ [الكَهْف : ٣٧] .

قالَ المؤمنُ الفقيرُ لصاحبه الكافر المَغرور واعظًا له ، ومُنكِرًا عَلَيه : أجَحَدْتَ اللَّهَ الذي جَعَلَ أباكَ وأصْلَكَ (آدم) مِن تُرَاب ، ثُمَّ مِن مَنِيٍّ في رَحِم أُمِّكَ ، ثُمَّ جَعَلَكَ إنسانًا ذَكَرًا عاقلًا بالغًا مَبلَغ الرِّجال ، صحيح الأعضاء ، مُعتدل القامة ، في أحسن تَقويم . وقد جَعَلَه كافرًا باللَّه تعالى ، بسبب شَكِّه في البَعْث . والاستفهامُ في الآية للتَّقريع والتَّوبيخ .

والآيةُ تُقدِّم دليلًا على البَعْث ، وتُبيِّن أنَّ القادر على الابتداء قادر على الإعادة. والحقيقةُ التي يَعْلَمُها كُل إنسان ويُوقِن بها ، هي أنَّه كان مَعدومًا ثُمَّ وُجِدَ ، ولَيس وُجوده مِن نَفْسه ، فهو لَم يَخلُق نَفْسَه ، ووُجوده غَير مُستند إلى مَخلوق ، لأنَّه بمَثابته ، والمَخلوق لا يَخلُق مَخلوقًا ، إذْ إنَّ فاقد الشَّيء لا يُعطيه.إذن، إيجادُ الإنسان يجب إسناده إلى خالقه،وهو اللَّه وَحْدَه لا شريك له.

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٢٢٤) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : قال لصاحب الجَنَّتَيْن صاحبُه الذي هو أقل مِنه مالًا وولدًا ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ ، يقول : وهو يُخاطبه ويُكلِّمه : ﴿ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ ، يَعني : خَلَقَ أباكَ آدمَ مِن تُرَاب ، ﴿ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ﴾ ، يقول : ثُمَّ أنشأكَ مِن نُطفة الرَّجُل والمَرأة ، ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ ، يَقول : ثُمَّ عَدَلَكَ بَشَرًا سَوِيًّا رَجُلًا ذَكَرًا لا أُنثى. يقول: أكفرتَ بِمَن فَعَلَ بِكَ هذا أن يُعيدك خَلْقًا جديدًا بعد ما تَصِير رُفَاتًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إن كُنتُم في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فإنَّا خَلَقْنَاكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُم وَنُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُم وَمِنكُم مَن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحَج : ٥] .

الخِطابُ الإلهيُّ لجميع الناس: إن كُنتُم شَاكِّين في قُدرة اللَّه على بَعث الناس مِن قُبورهم ، وإحيائهم بَعد مَوتهم ، فإنَّ اللَّه خَلَقَ أباكم (أصْلَكم) آدَم ﷺ مِن تُراب ، والقادرُ على خَلْق الناس أوَّل مَرَّة ، قادر على إعادتهم ثاني مَرَّة. والقادرُ على البَدَاءة قادرٌ على الإعادة. ومَن أوجدَ الإنسانَ مِن العَدَم ، قادر على إحيائه بَعد مَوته ، وإخراجه مِن قَبْره . والآيةُ احتجاجٌ واضحٌ على الناس بالبَدَاءة الأُولَى. ويجب على كُل إنسان أن يتذكَّر أصْلَه (نُقطة البِداية) كَي يُدرِك مَسَارَه ومَصِيرَه ، ومَن أدركَ بِدايته أدركَ نِهايته ، ومَن عَرَفَ نَفْسَه عَرَفَ رَبَّه . ﴿ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ﴾ ، ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ نَسْلَه مِن المَنِيِّ (المَاء المَهِين) ، وسُمِّيَ نُطْفَة لِقِلَّته ، وهو القليل مِن الماء ، ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ ، وهي الدَّم الجامد المُسْتَقِر في رَحِم المَرأة ، وسُمِّيَتْ عَلَقَةً لرُطوبتها وتَعَلُّقها بما تمرُّ به ، فإذا جَفَّتْ فَلَيست عَلَقَة ، ﴿ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ ﴾ ، ثُمَّ مِن قِطعة لَحْم صغيرة قَدْر ما يُمضَغ ، ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ ، مُصوَّرة الخَلْق وغَير مُصوَّرة . والمُضْغَةُ المُخَلَّقَةُ هي التي تَكون واضحة الخَلْق وظاهرة التَّصوير ، أي إنَّها مُصَوَّرة خَلْقًا تامًّا ، أمَّا غَيْرُ المُخَلَّقة فَلم يَتَّضح تصويرها . وبِعبارة أُخرى ، غَيْرُ المُخَلَّقة السِّقْط قَبل تَمام خَلْقه .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : في قَوله تعالى : ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ ، قال: ((المُخَلَّقَةُ ما كان حَيًّا ، وغَيْرُ المُخَلَّقَةِ ما كانَ مِن سِقْط)) [٩٩] .

والآيةُ تُظهِر مراحلَ خَلْق الإنسان: التُّراب، النُّطفة ، العَلَقَة ، المُضْغَة المُخلَّقة وغَير المُخلَّقة . وهذه المراحل فِيها عِبْرة وعِظَة ، ومَن قَدَرَ عَلَيها ، لَن يَعجَز عن إحياء الناس بَعد مَوتهم ، وإعادتهم بَعد فَنائهم. ومَن قَدَرَ على تَصريف أطوار خَلْق الإنسان وَفْق هذا النظام البَديع المُحكَم، قَدَرَ عَلى بَعث الناس مِن قُبورهم ، وإعادتهم إلى الحياة بَعد مَوتهم .

---

٩٩ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٨) برقم (٣٤٥٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٢/ ٩٥٧) : ((السِّقْط بالكَسْر والفَتْح والضَّم ، والكَسْرُ أكثرُها : الوَلَد الذي يَسقُط مِن بَطن أُمِّه قَبل تَمامه)) .

﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُم ﴾ ، خَلَقَ اللَّهُ الإنسانَ وَفْق هذه الأطوار المُدهِشة والمراحل الباهرة والتَّدريج البديع ، ليُوضِّح للناس قُدْرَته المُطْلَقَة ، وحِكمته البالغة ، ليَستدلوا بابتداء الخَلْق على إعادته .

وقال الزمخشري في الكَشَّاف (٣/ ١٤٢): ((أي : لِنُبَيِّنَ لكم بهذا التَّدريج قُدْرَتَنَا، وأنَّ مَن قَدَرَ على خَلْق البَشَر مِن تُراب أوَّلًا، ثُمَّ مِن نُطْفَة ثانيًا ، ولا تناسُب بين التُّراب والمَاء ، وقَدَرَ على أن يَجعل النُّطفة عَلَقَةً ، وبَينهما تبايُن ظاهر ، ثُمَّ يَجعل العَلَقَةَ مُضْغَةً ، والمُضْغَةَ عِظَامًا ، قادر على إعادة ما بَدَأه ، بَل هذا أدْخَل في القُدرة ، وأهْوَن في القِياس)) .

﴿ وَنُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ ﴾، ويُثَبِّت اللَّهُ الحَمْلَ في أرحام الأُمَّهات الذي يُريد تَثبيته حَتَّى يَكتمل خَلْقُه ، ولا يَكون سِقْطًا . ومَا لَم يُرِد اللَّهُ ثُبُوتَه أسقطته الأرحامُ .

﴿ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ، إلى زَمَن مُحدَّد ، وهو وَقت الوِلادة .

﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلًا ﴾ ، ثُمَّ يُخرِج اللَّهُ مِن الرَّحِم طِفْلًا ضعيفًا في بَدَنه وحواسِّه وأعضائه وجوارحه ، ويَمنحه القُوَّةَ والقُدرةَ تدريجيًّا . والطِّفْلُ أُرِيدَ بِه الجِنس ، لذلك لَم يُجمَع ، ولَم يَقُل: أطفالًا . أوْ قَد يَكون المَعنى : ثُمَّ نُخرِج كُلَّ واحد مِنكُم مِن الرَّحِم طِفْلًا .

﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُم ﴾ ، ثُمَّ نَرعاكم ونَعتني بِكُم ونُربِّيكم حتى تَبلُغوا كَمَالَ عَقْلكم وقُوَّتكم ، وهي الفترة بين الثلاثين والأربعين .

﴿ وَمِنكُم مَن يُتَوَفَّى ﴾ ، ومِنكُم مَن يَموت في فَترة الشَّباب .

﴿ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ﴾ ، ومِنكُم مَن يُعمَّر حتى يَصِل إلى مرحلة الشَّيخوخة ، والخَرَفِ ، وضَعفِ العقل والجِسم .

﴿ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ ، أي : لِيَعُود كالطِّفْل ، ضعيفَ الجِسم ، وقَليل الفَهْم ، وسَخيف العَقْل ، فَيَنسى ما عَلِمَه ، ويُنكِر ما عَرَفَه ، ويَعجَز عمَّا قَدَرَ عَلَيه ، كما قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ومَن نُعَمِّرْه نُنَكِّسْه في الخَلْق ﴾ [يس : ٦٨] .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٧٧) : ((ذَكَرَ تعالى الدليلَ على قُدرته تعالى على المَعَاد بما يُشَاهَد مِن بَدْئه للخَلْق ، فقال : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إن كُنتُم في رَيْبٍ ﴾ أي : في شَك ﴿ مِنَ البَعْثِ ﴾ وهو المَعَاد وقِيام الأرواح والأجساد يَوم القَيامة ، ﴿ فإنَّا خَلَقْنَاكُم مِن تُرَابٍ ﴾ أي : أصْل بَرئه لكم من تراب ، وهو الذي خُلِقَ مِنه آدم عليه السلام ، ﴿ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ﴾ ، أي: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَه مِن سُلالة مِن مَاء مَهِين ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ ﴾ ، وذلك أنَّه إذا استقرَّت النُّطْفَة في رَحِم المَرأة ، مَكَثَتْ أربعين يومًا كذلك يُضَاف إليه ما يَجتمع إليها ، ثُمَّ تنقلب عَلَقَة حمراء

بإذن اللَّه ، فتمكُث كذلك أربعين يومًا ، ثُمَّ تستحيل فتصير مُضْغَةً قِطعة مِن لَحْم لا شكل فيها ، ولا تخطيط ، ثُمَّ يُشرَع في التَّشكيل والتَّخطيط فيُصوَّر منها رأس ويَدَان وصَدْر وبَطْن وفَخِذان ورِجْلان وسائر الأعضاء ، فَتَارَةً تُسقِطها المَرأةُ قبل التَّشكيل والتَّخطيط ، وتَارَةً تُلقيها وقد صارت ذات شَكْل وتَخطيط ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ ، أي : كما تُشاهدونها ، ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُم وَنُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ، أي: وتَارَةً تستقرُّ في الرَّحِم لا تُلقيها المَرأةُ ، ولا تُسقِطها ، كما قال مُجاهد في قَوله تعالى : ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ ، قال : هو السِّقْط مَخلوق وغَير مَخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يومًا وهي مُضْغَة أرسلَ اللَّهُ تعالى مَلَكًا إلَيها فَنَفَخَ فيها الرُّوحَ ، وسوَّاها كما يَشاء اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِن حُسْن وقُبْح ، وذَكَر وأُنثى ، وكَتَبَ رِزْقَها وأجَلَها ، وشقيٌّ أوْ سعيد . ... . وقَوله : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلًا ﴾ ، أي: ضَعِيفًا في بَدَنه وسَمْعه وبَصَره وبَطْشه وعَقْله، ثُمَّ يُعطيه اللَّهُ القُوَّةَ شيئًا فشيئًا ، ويَلطُف به، ويُحنِّن عَلَيه وَالِدَيْه في آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُم ﴾ ، أي : يَتكامل القويُّ ويتزايد ، ويصل إلى عُنفوان الشَّباب وحُسْن المَظهَر ، ﴿ وَمِنكُم مَن يُتَوَفَّى ﴾ ، أي : في حال شَبَابه وقُوَاه ، ﴿ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ﴾ ، وهو الشَّيخوخة والهَرَم وضَعْف القُوَّة والعَقْل والفَهْم ، وتناقُص الأحوال مِن الخَرَف وضَعْف الفِكْر ، ولهذا قال : ﴿ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٦٦) : ((ألزمَ الحُجَّةَ على مُنكِري البَعْث ، فقال: ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إن كُنتُم في رَيْبٍ ﴾ في شَك ﴿ مِنَ البَعْثِ فإنَّا خَلَقْنَاكُم ﴾ يَعني : أباكم آدم الذي هو أصْل النَّسْل ﴿ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ﴾ ، يَعني : ذُرِّيته ، والنُّطْفة هي المَنِيُّ ، وأصلها الماء القليل ، وجَمْعها نِطاف ، ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ ، وهي الدَّم الغليظ المُتجمِّد ، وجَمْعها عَلَق ، وذلك أنَّ النُّطْفَة تَصِير دَمًا غليظًا ثُمَّ تصير لَحْمًا ، ﴿ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ ﴾ وهي لَحْمة قليلة قَدْر ما يُمضَغ ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ . قال ابن عباس وقَتادة : " مُخلَّقة " أي تامَّة الخَلْق ، " وغَير مُخلَّقة " غَير تامَّة ، أي: ناقصة الخَلْق. وقال مُجاهد : مُصوَّرة وغَير مُصوَّرة ، يعني السِّقْط . وقِيل : " المُخلَّقة " الوَلَد الذي تأتي به المَرأة لوَقْته، " وغَير المُخلَّقة " السِّقْط. ... . ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُم ﴾ كَمَال قُدرتنا وحِكمتنا في تَصْريف أطوار خَلْقكم ، وَلِتَستدلوا بقُدرته في ابتداء الخَلْق على قُدرته على الإعادة . وقِيل : لِنُبَيِّنَ لكم ما تأتون وما تَذَرُون ، وما تحتاجون إليه في العبادة ، ﴿ وَنُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ ﴾ ، فلا تَمُجُّه ولا تُسقِطه ، ﴿ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وَقْت خُرُوجها مِن الرَّحِم تامَّة الخَلْق والمُدَّة ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُم ﴾ مِن بُطُون أُمَّهاتكم ﴿ طِفْلًا ﴾ أي: صِغَارًا، ولَم يَقُلْ : أطفالًا ، لأنَّ العرب تَذكُر الجَمْع

باسم الواحد . وقيل : تَشبيهًا بالمَصْدَر ، ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُم ﴾ ، يعني : الكَمَال والقُوَّة ﴿ وَمِنكُم مَن يُتَوَفَّى ﴾ مِن قَبْل بُلُوغ الكِبَر ، ﴿ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ﴾ ، أي: الهَرَم والخَرَف ﴿ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ ، أي : يَبلُغ مِن السِّن ما يتغيَّر عَقْلُه فلا يَعقِل شيئًا)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٢٤): ((﴿ يا أيُّها النَّاسُ إن كُنتُم في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ ﴾ ... وشَكُّهم يُحتمَل أن يكون في وُقوعه أو في إمكانه ، والمعنى : إن كُنتم في شَك مِن الإعادة ، فانظروا في مَبدَأ خَلْقكم ، أي خَلْق أبيكم آدم ، لِيَزُول عَنكُم الرَّيْب ، ويَرتفع الشَّك ، وتُدحَض الشُّبهة الباطلة ، ﴿ فإنَّا خَلَقْنَاكُم مِن تُرَابٍ ﴾ في ضِمْن خَلْق أبيكم آدم ، ﴿ ثُمَّ ﴾ خلقناكم ﴿ مِن نُطْفَةٍ ﴾ أي مِن مَنِيٍّ ، سُمِّيَ نُطْفة لِقِلَّته . ... ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ ، والعَلَقَة : الدَّم الجامد ... والمُراد الدَّم الجامد المُتكوِّن مِن المَنِيِّ ، ﴿ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ ﴾ ، وهي القِطعة مِن اللحم قَدْر ما يَمضُغ المَاضِغ تتكوَّن مِن العَلَقَة ﴿ مُخَلَّقَةٍ ﴾ بالجَرِّ صِفَة لِمُضْغَة، أي مُستبينة الخَلْق ظاهرة التَّصوير ، ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ ، أي: لَم يَسْتَبِنْ خَلْقُها ، ولا ظَهَرَ تصويرُها. قال ابن الأعرابي: مُخلَّقة يُريد قد بَدَأَ خَلْقَه ، وغَير مُخلَّقة لم تُصَوَّرْ . قال الأكثر : ما أُكْمِلَ خَلْقُه بنَفْخ الرُّوح فيه فهو المُخلَّقة ، وهو الذي وُلد لِتَمَام، وما سَقَطَ كان غَير مُخلَّقة ، أي : غَير حَي بإكمال خِلْقته بالرُّوح . قال الفَرَّاء : مُخلَّقة : تام الخَلْق ، وغَير مُخلَّقة: السِّقْط. ... . واللام في ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُم ﴾ مُتعلِّق بخَلْقنا ، أي : خَلَقْناكم على هذا النَّمَط البديع لِنُبَيِّنَ لكم كَمَالَ قُدرتنا بتَصريفنا أطوار خَلْقكم ، ﴿ وَنُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ ﴾ . ... . ومعنى الآية : ونُثبِّت في الأرحام ما نشاء ، فلا يكون سِقْطًا ﴿ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ، وهو وَقْت الوِلادة . وقال : ﴿ ما نشاءُ ﴾ ، وَلَم يَقُلْ : مَن نَشَاء ، لأنَّه يَرجِع إلى الحَمْل ، وهو جَمَاد قَبل أن يُنفَخ فيه الرُّوح. ... . ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلًا ﴾ ، أي: نُخرِجكم مِن بُطُون أُمَّهاتكم طِفْلًا ، أي : أطفالًا ، وإنَّما أفرده إرادةً للجِنس الشامل للواحد والمُتعدِّد . ... . والطِّفْلُ يُطلَق على الصَّغير مِن وقت انفصاله إلى البُلُوغ ، ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُم ﴾ قِيل : هِو عِلَّة لِنُخرِجكم ، مَعطوف على عِلَّة أُخرى مُناسِبة له ، كأنَّه قِيل : نُخرِجكم لِتَكْبُرُوا شيئًا فشيئًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا إلى الأشُدِّ . ... . والأشُدُّ هو كَمَال العَقْل ، وكَمَال القُوَّة والتَّمييز. قِيل: وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، ﴿ وَمِنكُم مَن يُتَوَفَّى ﴾ يَعني قَبل بُلُوغ الأشُد . ... . ﴿ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ﴾ ، أي : أخَسِّه وأدْوَنِه ، وهو الهَرَم والخَرَف حتى لا يَعقِل ، ولهذا قال سُبحانَه : ﴿ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ ، أي : شيئًا مِن الأشياء، أوْ شيئًا مِن العِلْم. والمعنى: أنَّه يَصِير مِن بَعد أن كان ذا عِلْم بالأشياء وفَهْم لها، لا عِلْم له ولا فَهْم)) .

وعن ابن مَسعُود ـ رضي اللَّهُ عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ أحَدَكُم يُجمَع في بَطْن أُمِّه أربعين يَوْمًا ، ثُمَّ يَكون عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَكون مُضْغَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَبعَث اللَّهُ مَلَكًا فيُؤمَر بأربع كَلِمات ، ويُقَال له : اكْتُبْ عَمَلَه ، ورِزْقَه ، وأجَلَه ، وشَقِيٌّ أَمْ سَعِيد ، ثُمَّ يُنفَخ فيه الرُّوح)) [١٠٠].

بيَّن النبيُّ ﷺ أن تَكوين الجَنين في بَطْن أُمِّه يمرُّ بأربع مراحل : المرحلة الأُولَى ـ يَكون الجَنين لِمُدَّة أربعين يَوْمًا حَيَوَانًا مَنَوِيًّا يَجتمع بِبُوَيْضَة الأُنثى ، فيُلقِّحها، وتَحمِل المَرأة بإذن اللَّه .

المرحلة الثانية ـ يَصِير لِمُدَّة أربعين يَوْمًا عَلَقَةً (قِطعة دَم جامدة تَعلَق بالرَّحِم) .

المرحلة الثالثة ـ يَصِير لِمُدَّة أربعين يَوْمًا مُضْغَةً (قِطعة لحم صغيرة بقَدْر ما يُمضَغ) .

المرحلة الرابعة ـ يَبدأ تَشكيله وتصويره ، ويكون قد أكملَ أربعة أشهُر، فيُرسِل اللَّهُ إلَيه المَلَكَ المُوكَّل بالرَّحِم،ويَأمره بكتابة أربع كَلِمات،فيَكتب عَمَلَه طِيلة حياته صالحًا أوْ فاسدًا، ورِزْقَه قليلًا أوْ كثيرًا ، ومُدَّةَ حَياته ، وشقيٌّ في الآخِرة أوْ سعيد فيها ، وَفْق عِلْم اللَّه السابق، وحِكمته البالغة ، ثُمَّ يَنفُخ المَلَكُ فِيه الرُّوحَ بأمر اللَّه تعالى.ونَفْخُ الرُّوح إنَّما يَكون بعد مِئة وعشرين يَوْمًا (أربعة أشهُر).

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الحِكمة في جَعْل عِدَّة الوفاة أربعة أشهُر وعَشْرًا ، لاحتمال اشتمال الرَّحِم على حَمْل ، فإذا تَمَّ الانتظار هذه المُدَّة ظَهَرَ الحَمْلُ إنْ كان موجودًا ، والعَشْر يُنفَخ فيها الرُّوح . والانتظارُ طِيلة فَترة العِدَّة يَمنع اختلاطَ الأنساب .

إنَّ الجَمْعَ في بَطْن الأُم يَعني ضَم الأجزاء المَخلوقة بَعضها إلى بعض ، أوْ هو مُتعلِّق ببقاء البُوَيْضة في الرَّحِم بعد تلقيحها .

وفي فتح الباري (١١/ ٤٧٩): ((قال القرطبي في المُفهَم : المراد أن المَنِيَّ يَقع في الرَّحِم حين انزعاجه بالقُوَّة الشَّهْوانية الدافعة مَبثوثًا مُتفرِّقًا ، فَيَجْمَعه اللَّهُ في مَحَل الوِلادة مِن الرَّحِم)) .

وفي الحديث إشارةٌ إلى المُدَّة الزمنية لكل مرحلة . فمَرحلةُ الجَمْع أربعون يَوْمًا ، ومرحلةُ العَلَقَة أربعون يَوْمًا، ومرحلة المُضْغَة أربعون يَوْمًا . والمَجموع هو مِئة وعشرون يَوْمًا (أربعة أشهر)، ثُمَّ يَبعَث اللَّهُ مَلَكًا للقيام بمُهِمَّة مُحدَّدة ، وهي كِتابة عَمَله (هل هو عمل صالح أَمْ فاسد ؟) ، ورِزْقه (هل رِزْقه واسع أَمْ ضَيِّق ؟) ، وأجَله (متى يَموت ؟) ، وشقيٌّ في الآخِرة أَمْ سعيد ، حَسَب ما اقتضته حِكمة اللَّه تعالى، وتعلَّقت به مشيئته ، وسَبَقَتْ بِه كَلِمته ، وما عَلِمَه سُبحانَه مِمَّا سَيَكون مِن هذا العبد المُكلَّف من أسباب السَّعادة أو الشَّقاء .

---

١٠٠ متفق عليه . البخاري (٣/ ١١٧٤) برقم (٣٠٣٦) ، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦) برقم (٢٦٤٣).

واللَّهُ لا يَحتاج إلى المَلَك لتحديد هذه الأُمور ، فهو سُبحانَه أعْلم بالخَلْق مِن أنفسهم ، ويَعْلَم عَنهُم كُلَّ شيء ، وهذا ليس غريبًا . فهو خالقهم ، والخالقُ يَعْلَم عن المخلوق ما لا يَعْلَمه عن نَفْسه . والسَّعادةُ والشَّقاءُ مُحدَّدان وَفْقَ الحِكمة الإلهية ، والعِلْمِ الإلهيِّ السابق . واللَّهُ يَعْلَم _ قَبْل عَملية الخَلْق _ ما هي حياة الإنسان ، وما هو مَساره ومَصيره (الجَنَّة أو النار) .

والجَديرُ بالذِّكر أنَّ اللَّهَ خالقٌ قَبْلَ أن يَخْلُق ، وذلك لأن صِفات اللَّه قَدِيمة قِدَم الذات ، لا يَطْرأ عليها التَّغَيُّر، ولا تُصَاب بالضَّعْف، ولا تُوصَف بالحُدُوث (وُجود الشيء بَعد إذْ لَم يَكُنْ).

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٩٠ و١٩١) : ((قَوله ﷺ في هذا الحديث _ رواية أُخرى _ : " ثم يُرسَل المَلَكُ " ظاهره أنَّ إرساله يكون بعد مائة وعشرين يَوْمًا ، وفي الرِّواية التي بَعد هذه : يَدخل المَلَكُ على النُّطفة بعد ما تستقرُّ في الرَّحِم بأربعين أوْ خمسة وأربعين ليلة ، فيقول : يا رَب ، أشقيٌّ أَمْ سعيد ؟ . وفي الرِّواية الثالثة : إذا مَرَّ بالنُّطفة اثنتان وأربعون ليلة بَعَثَ اللَّهُ إلَيها مَلَكًا فصوَّرها ، وخَلَقَ سَمْعَها وبَصَرَها وجِلْدَها . وفي رواية حُذَيفة ابن أُسَيد إنَّ النُّطفة تقع في الرَّحِم أربعين ليلة ، ثُمَّ يَتَسَوَّر عَلَيها المَلَكُ . وفي رواية: إنَّ مَلَكًا مُوَكَّلًا بالرَّحِم إذا أراد اللَّهُ أن يَخلُق شيئًا بإذن اللَّه لِبِضْع وأربعين ليلة ، وذَكَرَ الحديثَ . وفي رواية أنس: إنَّ الله قد وَكَّل بالرَّحِم مَلَكًا فيقول : أَيْ رَبِّ نُطفةٌ ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ . قال العُلَماء: طريق الجَمْع بين هذه الروايات أنَّ للمَلَك مُلازَمَة ومُراعاة لحال النُّطفة ، وأنَّه يَقول : يا رَب ، هذه عَلَقَةٌ هذه مُضْغَةٌ في أوقاتها . فكُل وَقْت يقول فيه ما صارت إليه بأمر اللَّه تعالى ، وهو أعْلَم سُبحانَه ، ولكلام المَلَك وتصرُّفه أوقات أحدها حِين يَخلُقها اللَّهُ تعالى نُطفةً ثُمَّ يَنقلها عَلَقَةً ، وهو أوَّل عِلْم المَلَك بأنَّه وَلَدٌ ، لأنَّه لَيس كُل نُطفة تصير وَلَدًا ، وذلك عَقِب الأربعين الأُولَى ، وحِينئذ يَكتُب رِزْقَه وأجَلَه وعَمَلَه وشَقاوته أوْ سعادته ، ثُمَّ للمَلَك فيه تصرُّف آخَر في وقت آخَر ، وهو تصويره وخَلْق سَمْعه وبَصَره وجِلْده ولَحْمه وعَظْمه ، وكَوْنه ذَكَرًا أَمْ أُنثى ، وذلك إنَّما يكون في الأربعين الثالثة ، وهي مُدَّة المُضْغَة ، وقَبل انقضاء هذه الأربعين ، وقَبل نَفْخ الرُّوح فيه ، لأنَّ نَفْخ الرُّوح لا يَكون إلا بَعد تَمَام صُورته . وأمَّا قَوله في إحدى الروايات : فإذا مَرَّ بالنُّطفة اثنتان وأربعون ليلة بَعث اللَّهُ إلَيها مَلَكًا فصوَّرها،وخَلَقَ سَمْعَها وبَصَرَها وجِلْدَها ولَحْمَها وعِظَامَها،ثُمَّ قال: يا رَب أذَكَرٌ أَمْ أُنثى، فَيَقْضي رَبُّكَ ما شاء ، ويَكتُب المَلَكُ ، ثُمَّ يَقول : يا رَب أجَلُه ، فيَقول رَبُّكَ ما شاء ويَكتُب المَلَكُ ، وذَكَرَ رِزْقَه . فقال القاضي وغَيْرُه : ليس هو على ظاهره ، ولا يَصِح حَمْلُه على ظاهره ، بَل المُراد بتصويرها وخَلْق سَمْعها ، إلى آخِره ، أنَّه يَكتب ذلك ثُمَّ يَفعله في وَقْت آخَر،

لأن التصوير عَقِب الأربعين الأُولَى غَير موجود في العادة ، وإنَّما يقع في الأربعين الثالثة ، وهي مُدَّة المُضْغَة ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِين (١٢) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنا العِظَامَ لَحْمًا ﴾ ، ثُمَّ يَكون للمَلَك فيه تصوير آخَر ، وهو وَقْت نَفْخ الرُّوح عَقِب الأربعين الثالثة ، حِين يَكمُل له أربعة أشهُر . واتَّفق العلماء على أنَّ نَفْخ الرُّوح لا يَكون إلا بعد أربعة أشهر. ووقع في رواية للبُخاري : إنَّ خَلْق أحدكم يُجمَع في بَطْن أُمِّه أربعين ، ثُمَّ يَكون عَلَقَةً مِثْلَه ، ثُمَّ يَكون مُضْغَةً مِثْلَه ، ثُمَّ يُبعَث إليه المَلَكُ ، فيُؤذَن بأربع كَلِمات ، فَيَكتُب رِزْقَه وأجَلَه وشقيٌّ أوْ سعيد ، ثُمَّ يُنفَخ فِيه . ... . المُراد بجميع ما ذُكِرَ مِن الرِّزق والأجل والشَّقاوة والسَّعادة والعمل والذُّكورة والأُنوثة أنَّه يُظهِر ذلك للمَلَك ، ويَأمره بإنفاذه ، وكتابته ، وإلا فَقَضَاءُ اللَّه تعالى سَابِق على ذلك ، وعِلْمه وإرادته لكُل ذلك مَوجود في الأزَل ، واللَّهُ أعْلَم)) .

وعن ابن مَسعود ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : ((إذا وَقَعَت النُّطْفَةُ في الرَّحِمِ بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا ، فقال : يا رَب، مُخَلَّقَةٌ أوْ غَيْرُ مُخَلَّقَة ؟ ، فإن قال : غَيْرُ مُخَلَّقَة ، مَجَّتْهَا الأرحامُ دَمًا ، وإن قال : مُخَلَّقَة، قال:يا رَب، فَمَا صِفَةُ هذه النُّطفةِ أذَكَرٌ أَمْ أُنثى ما رِزْقُها ما أجَلُها أشَقِيٌّ أوْ سَعِيد ؟)) [١٠١].

هذا الحديث المَوقوف له حُكم المَرفوع، لأن هذه الأمور الغَيْبِيَّة لا مجال لمعرفتها بدون الوَحْي الإلهيِّ ، فنَجزِم أنَّ الصحابيَّ قد سَمِعَه مِن النبيِّ ﷺ .

ومِن الواضح أنَّ المَلَكَ يُنفِّذ الأوامرَ الإلهية دُون زِيادة أوْ نُقصان ، فاللَّهُ وَحْدَه هُوَ المُتَصَرِّف في الكَوْن ، وكُلُّ جُزء فيه خاضعٌ للمشيئة الإلهية .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِين ﴾ [المؤمنون : ١٢] .

خَلَقَ اللَّهُ الإنسانَ مِن صَفْوة اسْتُلَّت مِن الطِّين . والمعنى أنَّ آدم ﷺ اسْتُلَّ مِن الطِّين .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٢) : ((أسللناه مِنه ، فالسُّلالةُ هي المُسْتَلَّة مِن كُل تُربة ، ولذلك كان آدم خُلق مِن تُربة أُخِذَتْ مِن أديم الأرض)) .

وقد ذَهب البعضُ إلى أنَّ المُراد هو ابن آدم . والعرب تُسمِّي وَلَدَ الرَّجل ونُطفته : سَليله وسُلالة ، لأنهما مَسْلولان مِنه .

---

١٠١ رواه الطبري في تفسيره (٩/ ١٠٩). وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤١٩) : ((وإسناده صحيح، وهو مَوقوف لَفْظًا ، مَرفوع حُكْمًا)) .

وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٢) : ((قال مُجاهد : مِن سُلالة ، أي مِن مَنِيِّ آدم ، وقال ابن جرير : إنما سُمِّيَ آدم طِينًا ، لأنَّه مَخلوق مِنه . وقال قتادة : اسْتُلَّ آدم مِن الطِّين ، وهذا أظهر في المعنى ، وأقرب إلى السِّياق)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٦٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنَّه آدم عليه السلام ، وإنَّما قِيل : " مِن سُلالة " لأنه اسْتُلَّ مِن كُل الأرض ، هذا مذهب سلمان الفارسي وابن عباس في رواية وقَتادة . والثاني أنَّه ابن آدم ، والسُّلالة : النُّطفة اسْتُلَّتْ مِن الطِّين ، والطِّين : آدم عليه السلام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس)) .

وعن أبي موسى الأشعريِّ ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((إنَّ اللَّهَ تعالى خَلَقَ آدمَ مِن قَبْضَةٍ قَبَضَها مِن جَميع الأرض ، فجاءَ بَنُو آدمَ على قَدْر الأرض ، فجاءَ مِنهُم الأحمرُ والأبيضُ والأسْوَدُ ، وبَيْنَ ذلك ، والسَّهْلُ والحَزْنُ والخَبيثُ والطَّيب)) [١٠٢].

خَلَقَ اللَّهُ آدمَ مِن تُراب الأرض . وهذا العُنصرُ الأرضيُّ هو نُقطة بداية الخَليقة ، وقد تَوَزَّعَ بَنُو آدم على أنحاء الأرض ، وظَهرت بينهم الاختلافات في اللون والأخلاق ، وحَدَثَ التَّمَايُزُ بَينهم . وهذا الاختلافُ لا يَدْعُو إلى الفُرقة والتَّناحر ، بَل يَدْعو إلى التَّعاون والتكامل .

وقال ابن الجَوزي في دَفْع شُبَه التَّشبيه (ص ١٦٣) : ((ولَيْسَتْ على ما يُتَصَوَّر مِن قَبضات المَخلوقين ، فإنَّ الحَقَّ مُنَزَّه عن ذلك . وإنَّما أُضِيفت القَبضة إليه ، لأنَّ أفعال المَملوك تُنسَب إلى المالك)) .

بيَّن النبيُّ ﷺ كَيفية خَلْق آدمَ ﷺ وذُرِّيته ، وكان ابتداء خَلْق الإنسان مِن قَبضة اللَّه المُنَزَّه عن الجوارح والأعضاء ، والقَبضةُ ما يُضَمُّ عَلَيه بالكَف . وهذه القَبضةُ قَبَضَها اللَّهُ مِن جميع أجزاء الأرض ، مِن طَيِّبها وخَبيثها ومُختلف ألوانها ، فجاءَ بَنُو آدمَ على قَدْر الأرض ، أي : مِن الأشكال والطِّباع ، فَمِن أبيضها جاء الأبيضُ ، ومِن أسهلها جاء السَّهْلُ ، فجاءَ مِنهُم الأحمرُ (كالتُّرْك) والأبيضُ(كالعَرَب) ، والأسْوَد (كالحَبَش)، فالكُل جاءَ بحَسَب تُربته ، وهذه هي أُصول الألوان ، والباقي مُركَّب مِنها، وغَير هذه الألوان أجزاء مِنها ومُركَّب مِنها. وهذا بالنِّسبة للألوان ، أمَّا الطِّباع، فمِنها اللَيِّن الرَّفيق ، والغليظ القاسي ، وخَبيث الطَّبْع والصِّفات ، وَطَيِّب السَّريرة والصِّفات .

---

١٠٢ رواه التِّرمذي في سُننه (٥/ ٢٠٤) برقم (٢٩٥٥) ، وقال : ((حسن صحيح)) اهـ ، وابنُ حِبَّان في صحيحه (١٤/ ٢٩) برقم (٦١٦٠) .

وفي تُحفة الأحوذي (٨/ ٢٣٣ و٢٣٤) : ((قَوله: (إنَّ اللَّه خَلَقَ آدمَ مِن قَبضة) بالضَّم مِلْء الكَف ، ورُبَّما جاء بفَتح القاف ، ومِن ابتدائية مُتعلِّقة بخَلَق أو بيانية حال من آدم (قَبَضَها) أي أمرَ المَلَكَ بقَبْضها (من جميع الأرض) يعني وَجهها (فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض) أي مَبلَغها مِن الألوان والطِّباع (فجاء منهم الأحمرُ والأبيضُ والأسْوَدُ) بحَسَب تُرابهم، وهذه الثلاثة هي أُصول الألوان، وما عَداها مُركَّب مِنها، وهو المُراد بقوله (وبَين ذلك) أي بَين الأحمر والأبيض والأسود باعتبار أجزاء أرضه (والسَّهْل) أي ومِنهُم السَّهْل أي الليِّن (والحَزْن) بفَتح الحاء وسُكون الزاي أي الغَليظ (والخبيث) أي خَبيث الخِصَال (والطَّيب) على طَبْع أرضهم ، وكُل ذلك بتَقدير اللَّه تعالى لَوْنًا وطَبْعًا وخَلْقًا . قال الطيبي: لمَّا كانت الأوصاف الأربعة ظاهرة في الإنسان والأرض، أُجْرِيَت على حقيقتها ، وأُوِّلَت الأربعة الأخيرة ، لأنَّها مِن الأخلاق الباطنة ، فإنَّ المعنى بالسَّهْل الرِّفْق واللين، وبالحَزْن الخُرْق والعُنْف ، وبالطَّيب الذي يعني به الأرض العَذبة المُؤمن الذي هو نَفْع كُلُّه، وبالخَبيث الذي يُراد به الأرض السَّبَخَة الكافر الذي هو ضُر كُلُّه)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠١٦): عن أنس بن مالك ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : ((لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدمَ في الجَنَّة ، تركه ما شاء اللَّهُ أن يَتركه ، فَجَعَلَ إبليسُ يُطِيفُ به يَنظر ما هُوَ ، فَلمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أنَّه خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالَكُ)) .

يُوضِّح النبيُّ ﷺ قضيةَ خَلْق الإنسان.عِندما خَلَقَ اللَّهُ آدمَ ﷺ في الجَنَّة تَركه ما شاءَ اللَّهُ أن يَتركُه ، وسَيْطَرَ الفُضُولُ وحُبُّ المعرفة على إبليس ، فصارَ يَدُور حَوْلَه ليَعرف حقيقةَ هذا الشَّيء ، ويَكتشف ماهيته ، فلمَّا رآه أجْوَفَ ، أي : صاحبَ جَوْف ، وهو البَطْن ، أوْ خاليًا مِن الداخل ، أدركَ أنَّه مَخلوق ضَعيف ، لا يَملِك نَفْسَه في مَنعها مِن الشَّهَوات ، وفي دَفْع الوَسواس والغضب ، وأنَّه قليل الصَّبْر ، ومُفتقر إلى الغذاء ، وهذا يَجعل إبليسَ يَطمَع فِيه . والمَقصود جِنْس بني آدم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٦٤) : ((قَوله ﷺ : (يُطِيفُ به) قال أهلُ اللغة : طَافَ بالشَّيء يَطُوف طَوْفًا وطَوَافًا ، وأطافَ يُطِيفُ إذا استدارَ حَوَالَيْه . قَوله ﷺ : (فلمَّا رَآهُ أجْوَفَ) عَلِمَ أنَّه خُلِقَ خَلْقًا لا يَتمالك . الأجْوَف صاحب الجَوْف ، وقِيل : هو الذي داخله خالٍ . ومعنى (لا يتمالك) لا يَملِك نَفْسَه ويَحبِسها عَن الشَّهَوَات . وقِيل: لا يَملِك دَفْعَ الوَسْوَاس عنه ، وقيل : لا يَملِك نَفْسَه عند الغضب ، والمُراد جِنس بني آدم)) .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ تصوير اللَّه لآدم في الجَنَّة ، لا يَتعارض معَ حقيقة خَلْق آدم ﷺ مِن تُراب الأرض . فالتَّصويرُ يَخْتلف عَن الخَلْق .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٢٩٧): (((لمَّا صَوَّرَ اللَّهُ تعالى آدمَ) أي : طِينةً (في الجَنَّة تَركه ما شاء اللَّهُ) ما هذه بمعنى المُدَّة (أن يَتركه) فيها (فَجَعَلَ إبليسُ يُطِيفُ به) أي: يَستدير حَوْلَه (يَنظُر إلَيه) مِن جَميع جِهَاته (فلمَّا رَآهُ أجْوَفَ) أي صَاحِب جَوْف، والأجْوَف هو الذي داخله خالٍ (عَرَفَ أنَّه خَلْق) أي مَخلوق (لا يتمالك) أي لا يَملِك دَفْعَ الوَسْوَسَة عنه ، أوْ لا يتقوَّى بعضُه ببعض ، ولا يكون له قُوَّة وثَبات ، بَل يَكون مُتَزَلْزِل الأمر ، مُتغيِّر الحال ، مُضْطَرِب القال ، مُعَرَّضًا للآفات . والتَّمَالُك التَّمَاسُك . أوْ لا يتماسك عن ما يَسُدُّ جَوْفَه ، ويَجعل فيه أنواع الشَّهَوات الدَّاعية إلى العُقُوبات ، فكان الأمر كما ظَنَّه . قال التوربشتي : هذا الحديث مُشكِل جِدًّا ، فقد ثبت بالكِتاب والسُّنَّة أنَّ آدم مِن أجزاء الأرض ، وأُدخِل الجَنَّة وهو بَشَر . وقال البَيضاوي : الأخبار مُتظاهرة على أنَّ اللَّه تعالى خَلَقَ آدمَ مِن تُراب قَبَضَه مِن وَجْه الأرض ، وخَمَّرَه حتى صارَ طِينًا ، ثُمَّ تَركه حتى صَار صَلْصَالًا . ... . لكن لا يُنافي تصويرَه في الجَنَّة لجَوَاز أن تَكون طِينته لمَّا خُمِّرَتْ في الأرض وتُرِكَتْ فيها ، مَضَتْ عليها الأطوار،واستعدَّت لقَبول الصُّورة الإنسانية، حُمِلت إلى الجَنَّة ، فَصُوِّرَتْ ، ونُفِخَ فيها الرُّوح)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٣] .

ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ ذُرِّيَةَ آدمَ ﷺ وَبَنِيه مَنِيًّا في مُسْتَقَر حَصِين ومَكَان مَنِيع ، وهو الرَّحِم المُعَدُّ لاستقبال النُّطفة، واستقرارها فيه إلى بُلوغ أجَلها المُعيَّن. وعبَّر عَنها بالقَرَار الذي هُوَ مَصْدَر مُبَالَغَةً.

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٤١١) : ((﴿ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً ﴾ يَعني الذي هُوَ الإنسان ، جَعَلْناه نُطْفَةً ﴿ في قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ حَرِيز ، وهو الرَّحِم ، مُكِّنَ ، أي : قد هُيِّئَ لاستقرارها فيه إلى بُلُوغ أمدها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أنشَأنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أحْسَنُ الخَالِقِين ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ النُّطْفَةَ (الماء الدافق الخارج مِن ظَهْر الرَّجُل وعِظَامِ صَدْر المَرأة) دَمًا جامدًا ، أي إنَّ اللَّه جَعَلَ النُّطفةَ البَيضاءَ عَلَقَةً حَمراء [١٠٣].

---

١٠٣ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلِق (٥) خُلق مِن ماء دَافِق (٦) يَخرج مِن بَيْن الصُّلْب والترائب (٧) ﴾[الطارق].والمعنى أنَّه يَخرج مِن صُلْب الرَّجُل وصَدْرِ المرأة . وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ في قَوْله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يَخرج مِن بَيْن الصُّلْب والترائب ﴾ ، قال : ((الصُّلْب هو الصُّلْب ،

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٣) : ((يقول : ثُمَّ صَيَّرْنا النُّطْفَةَ التي جَعَلْناها في قَرَار مَكِين عَلَقَةً ، وهي القِطعة مِن الدَّم)) .

وروى أحمد في مُسنده (١/ ٤٦٥) بسند ضعيف أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((... ، فأمَّا نُطفة الرَّجُل فنُطفة غليظة ، مِنها العَظْمُ والعَصَب، وأمَّا نُطفة المَرأة فنُطفة رقيقة ، مِنها اللحمُ والدَّم)) .

فَجَعَلَ اللَّهُ العَلَقَةَ (الدَّمَ الجامدَ) مُضْغَةً ، وهي قِطعة لَحْم صغيرة قَدْر ما يُمضَغ ، لا شكل فيها ولا تخطيط .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٨٣) : ((أي : قِطعة لَحْم غَير مُخلَّقة)) .

فَجَعَلَ اللَّهُ المُضْغَةَ عِظَامًا . قِطعةُ اللحم صَارَتْ عِظَامًا صُلبةً ، كَي تَقْدِر على حَمْل الجِسْم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٨٣) : ((أي : جَعلها اللَّهُ سُبحانَه مُتصلِّبة لِتَكون عَمُودًا للبَدَن على أشكال مَخصوصة)) .

فَكَسَى اللَّهُ العِظَامَ لَحْمًا . هذه العِظَامُ العاريةُ ألبسها اللَّهُ لَحْمًا بشكل متوازن ، لا زيادة فيه ، ولا نُقصان . وقال الشَّوكاني في فَتح القدير (٣/ ٦٨٣) : ((أي : أنبتَ اللَّهُ سُبحانَه على كُل عَظْم لَحْمًا على المِقدار الذي يَليق به ويُناسبه)) .

ثُمَّ _ بَعد كُل هذه الأطوار _ أنشأه اللَّهُ خَلْقًا آخَر في أحسن تقويم ، فَنَفَخَ فيه الرُّوحَ ، فصار إنسانًا بعد ما كان صُورةً . وصارَ كائنًا حَيًّا مُفَكِّرًا بعد ما كان جَمَادًا . وكُلُّ جُزء مِن الإنسان يَحْمِل عَجائب باهرة وآياتٍ ظاهرة. وهذا يدلُّ على عَظَمَة اللَّه الخالق، وقُدرته المُطْلَقَة ، وحِكمته البالغة.

وقد وَردت أقوال مختلفة في " الخَلْق الآخَر " ، فقِيل : الذَّكر أو الأُنثى . وقِيل : عملية نَفْخ الرُّوح . وقيل : ظُهُور الشَّعْر والأسنان .

والترائبُ أربعة أضلاع مِن كُلِّ جانب مِن أسفل الأضلاع)) [رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٦٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي] . وفي فَيض القدير للمُناوي (٢/ ١٩٥) : ((قال _ التفتازاني _ في شرح النوابغ : وحِكمة كَوْن الأم أشفق على الولد من الأب أن خُروج ماء المرأة مِن قُدَّامها ، مِن بَين ثدييها قريبًا من القلب ، ومَوْضع المحبة القلب ، والأب خُروج مائه مِن وراء الظَّهْر . قال الإمام المرغيناني : وإنما نُسِبَ الولد إلى الأب معَ أنَّه خُلق مِن مائهما، لأن ماء الأم يُخلَق مِنه الحُسْن والجَمَال والسِّمَن والهُزال ، وهذه الأشياء لا تَدوم ، بَل تَزول ، وماءُ الرَّجُل مِنه العَظْم والعَصَب والعُروق ونحوها ، وهي لا تَزول في عُمره ، فلذلك نُسِبَ إليه دُونها)) .

وقال الرازي في التفسير الكبير (٢٣/ ٨٥) : ((أي : جَعَلْناه خَلْقًا مُبَايِنًا للخَلْق الأول حيث صار إنسانًا وكان جَمَادًا، وناطقًا وكان أبكَم، وسميعًا وكان أصَم، وبصيرًا وكان أكْمَه، وأودع كُل عَضْو مِن أعضائه عجائب فِطْرة ، وغرائب حِكمة ، لا يُحيط بها وَصْف الواصفين)) .

وأخرجَ الطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٣) عن ابن عباس ـ رضي اللَّهُ عنهما ـ أنه قال : ((خَرج مِن بَطْن أُمِّه بَعدما خُلِق ، فكان مِن بَدْء خَلْقه الآخَر أن استهلَّ ، ثُمَّ كان مِن خَلْقه أن دُلَّ على ثَدْي أُمِّه ، ثُمَّ كان مِن خَلْقه أن عَلِمَ كيف يَبْسُط رِجْلَيْه ، إلى أن قَعَد ، إلى أن حَبَا ، إلى أن قام على رِجْلَيْه ، إلى أن مَشَى ، إلى أن فَطِنَ فَعَلِمَ كيف يَشرَب ويَأكل مِن الطعام ، إلى أن بَلَغَ الحُلُمَ ، إلى أن بَلَغَ أن يتقلَّب في البلاد)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٦٢ و٤٦٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أنشَأنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ ، وهذه الحالة السابعة . قال عليٌّ عليه السلام : لا تكون مَوؤودة حتى تَمُرَّ على التَّارَات السَّبْع . وفي مَحَلِّ هذا الإنشاء قَولان : أحدهما أنَّه بَطْن الأُمِّ ، ثُمَّ في صِفة الإنشاء قَولان : أحدهما أنَّه نَفْخ الرُّوح فيه ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال أبو العالية والشَّعبي ومُجاهد وعِكرمة والضَّحاك في آخرين ، والثاني أنَّه جَعَلَه ذَكَرًا أوْ أُنثى ، قاله الحسن . والقول الثاني أنَّه بَعد خُروجه مِن بَطْن أُمِّه ، ثُمَّ في صِفة هذا الإنشاء أربعة أقوال : أحدها أنَّ ابتداء ذلك الإنشاء أنه استهلَّ ، ثُمَّ دُلَّ على الثَّدْي ، وعَلِمَ كيف يَبسُط رِجْلَيْه الى أن قَعَدَ إلى أن قام على رِجْلَيْه إلى أن مشى إلى أن فُطِمَ إلى أن بَلَغَ الحُلُمَ إلى أن تَقَلَّبَ في البلاد ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثاني أنَّه استواء الشَّباب ، قاله ابن عُمر ومُجاهد ، والثالث أنَّه خُروج الأسنان والشَّعْر ، قاله الضَّحاك ، فقِيل له : أَلَيْسَ يُولَد وعلى رأسه الشَّعْر ؟ ، فقال : وأينَ العَانَة والإبْط ؟ . والرابع أنَّه إعطاء العَقْل والفَهْم ، حكاه الثعلبي)) .

﴿ فتبارَكَ اللَّهُ أحسنُ الخالِقِين ﴾ . تعالى اللَّهُ ، وتَنَزَّهَ عَن كُل نَقْصٍ أوْ عَيْب أوْ ضَعْف . فهو أحسنُ الصَّانعين ، وأعظم المُقَدِّرين . والخَلْقُ في اللغة التَّقدير . واللَّهُ مُستحق للتَّعظيم والمَدْح والثَّناء . قد فصَّل خَلْقَ الإنسانَ تفصيلًا ، وأحاطه بالرِّعاية والعِناية تَفَضُّلًا مِنه سُبحانَه . وفي كُل طَوْر ، تتجلَّى القُدرة الإلهية الباهرة . وهذه المعلوماتُ الدقيقة حَوْل أطوار خَلْق الإنسان ، لا يَعْلَمُها إلا الخالق العظيم الذي هو أعْلم بالإنسان مِن نَفْسه . ولا يَخْفَى أنَّ الإنسان كانَ يَجهَل هذه المَعلومات عَن نَفْسه ، ولا يَعرِفها . وهذا دليلٌ على أنَّ الإنسان جاهل بِنَفْسه ، لا يَعرِف حقيقته ، ولا يُدرِك ماهيته .

والعربُ يُسَمُّون كُلَّ صانعٍ خَالِقًا . وَرَجُلٌ خالقٌ ، أي : صانع . لذلك وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَه بأنه أحسن الخالقين ، أي : أحسن الصانعين .

وأخرجَ الطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٣) عن مُجاهد قال : ((يَصْنَعُون وَيَصْنَع اللَّهُ ، واللَّهُ خَيْرُ الصَّانعين)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٦٣ و٤٦٤): ((فإنْ قِيل : كَيف الجَمْع بَين قَوله: ﴿ أحسنُ الخالِقين ﴾ ، وقَوله : ﴿ هَل مِن خالقٍ غَيْرُ اللَّه ﴾ [فاطر : ٣] ؟ . فالجواب : أنَّ الخَلْق يكون بمعنى الإيجاد ، ولا مُوجِد سِوى اللَّه ، ويكون بمَعنى التَّقدير ، كقَول زُهَير ــ يَمدح آخَر ــ : ولأنتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ ... وبَعْضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي . [المعنى : أنتَ تُنفِّذ ما خَلَقْتَ ، أي قَدَّرْتَ، بخِلاف غَيرك ، فإنَّه لا يَستطيع ما يُريد] . فهذا المُراد هاهنا ، أنَّ بني آدم قد يُصَوِّرون ويُقَدِّرون ويَصنعون الشيءَ ، فاللَّهُ خَير المُصَوِّرين والمُقَدِّرين . وقال الأخفش : الخالقون هاهُنا هُم الصانعون ، فاللَّهُ خَير الخالقين)) .

وعن عائشة ــ رضي اللَّهُ عنها ــ قالت : كان رسول اللَّه ﷺ يَقول في سُجُود القُرآن بالليل : ((سَجَدَ وَجْهي للذي خَلَقَه، وَشَقَّ سَمْعَه وبَصَرَه بِحَوْلِه وقُوَّتِه، فتبارَكَ اللَّهُ أحسنُ الخالقين)) [١٠٤].

هذا اعترافٌ نبويٌّ جليل بعَظَمَة الخالق ، وفَضْلِه اللامَحدود، وتنويهٌ بأهمية الأعضاء والحواس كالسَّمْع والبَصَر .

والمَعنى : خَضَعَ وَجْهي وذَلَّ وانقادَ للَّه الذي خَلَقَه ، وصوَّره ، وشَقَّ سَمْعَه وبَصَرَه ، بقُوَّته وقُدرته وحِكمته ، فتعالى اللَّهُ وتَقَدَّسَ وتَنَزَّهَ عَن كُل ما لا يَلِيق به ، أحسنُ المُصوِّرين والمُقدِّرين .

مَنَّ اللَّهُ على الإنسان بِنِعمة الخَلْق والإيجاد ، وزوَّده بالأعضاء المُتَفَوِّقة، والجوارح المُبهِرة، والحَوَاسِّ المُذهِلة ، كَي يَقوم بِحَمْل كلمة اللَّه تعالى ، ويُطبِّق شَرْعَه على أكمل وَجْه ، بِلا عوائق أوْ مُنغِّصات . وعلى الإنسان أن يَقوم بشُكْر خالقه على نِعَمه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى . وهذا الشُّكْر إنَّما يَكون بالجوارح كُلِّها ، وليس باللسان فقط .

وبعِبارة أخرى ، إنَّ شُكر الجوارح هو توظيفها في طاعة اللَّه ، ومَنعها مِن ارتكاب المَعَاصي . ومَهما فَعَلَ الإنسانُ مِن طاعات ، فلن يُؤَدِّيَ حَقَّ اللَّه . ومَعَ هذا ، فلا بُدَّ مِن الطاعة قَوْلًا وفِعْلًا ، والابتعاد عن المعصية قَوْلًا وفِعْلًا . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٢٢) : ((﴿ ثُمَّ خَلَقْنا

---

١٠٤ رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٤٢) برقم (٨٠٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ ، أي : ثُمَّ صَيَّرْنا النُّطْفَةَ ، وهي الماء الدَّافق الذي يَخرُج مِن صُلْب الرَّجُل وهو ظَهْره ، وترائب المَرأة وهي عِظَام صَدْرها ما بَين التَّرْقُوَة إلى السُّرَّة ، فصارت عَلَقَةً حمراء على شكل العَلَقَة مُستطيلة ، قال عِكرمة : وهي دَم ، ﴿ فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ ، وَهِيَ قِطعة كالبُضْعَة من اللحم لا شكل فيها، ولا تخطيط ، ﴿ فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ يَعني شَكَّلْنَاها ذات رأس ويَدَيْن ورِجْلَيْن بعِظامها وعَصَبها وعُرُوقها ... ﴿ فَكَسَوْنا العِظَامَ لَحْمًا ﴾ ، أي : وَجَعَلْنا على ذلك ما يَستُره ويَشُدُّه ويُقوِّيه ﴿ ثُمَّ أنشَأنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ أي: ثُمَّ نَفَخْنا فيه الرُّوحَ ، فَتَحَرَّكَ ، وصَارَ خَلْقًا آخَر ، ذا سَمْع وبَصَر وإدراك وحَركة واضطراب ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أحْسَنُ الخَالِقِين ﴾ . ... . يَعني حِين ذَكَرَ قُدرته ولُطْفَه في خَلْق هذه النُّطْفَة مِن حال إلى حال ، وشَكْل إلى شَكْل ، حَتَّى تَصَوَّرَتْ إلى ما صَارَت إلَيه مِن الإنسان السَّوِيِّ الكامل الخَلْق)) .

وفي هذا السِّياق لا بُد مِن ذِكْر أحد المُرتدين عن الإسلام (عبد اللَّه بن أبي سَرْح) لِنَعْرف خُطورةَ عدم فهم آيات اللَّه بالشَّكل الصحيح . قال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣١):[كان يَكتب لرسول اللَّه ﷺ . فلمَّا نزلت: ﴿ ولقد خَلقنا الإنسانَ مِن سُلالة مِن طِين ﴾ ، فلمَّا بَلَغَ قَوْلَه: ﴿ ثُم أنشأناه خَلْقًا آخَر ﴾ ، قال عبد اللَّه : فتبارَكَ اللَّهُ أحسنُ الخالقين ، تَعَجُّبًا مِن تَفْصيل خَلْق الإنسان ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((اكتبها فكذلك نزلت)) ، فَشَكَّ عبد اللَّه ، وقال : لَئِن كان مُحمَّد صادقًا ، لقد أُوحِيَ إلَيَّ كما أُوحِيَ إليه ، وَلَئِن كان كاذبًا ، لقد قُلتُ كما قال] .

هذا الانحراف الفكري مَرجعه إلى عدم فهم آيات اللَّه تعالى . وبالتأكيد ، إنَّ عبد اللَّه بن أبي سَرْح لَم يكن ذا قلب ثابت ، فَهو مَهزوز ، ومُخَلْخَل العقيدة ، ولا يَمْلك عِلْمًا شرعيًّا بالصُّورة الكافية والصحيحة. وقد اختاره النبيُّ ﷺ وَفق مَبدأ الحُكم على الظاهر، والنبيُّ ﷺ لا يَعْلَم الغَيْبَ، وغَير مُطَّلع على قُلوب الناس . وبشكل عام ، إنَّ الوَحْيَ قد يُؤَيِّد رَأيَ أحد الصَّحابة ويَعتمده إذا أصابَ مُرادَ اللَّه تعالى . وهذا يدلُّ على أهمية رأي الصحابة ومَشُورتهم التي أدَّت إلى إعمال عُقولهم وفِكرهم في خِدمة الدَّعوة ، وأن لا يكونوا في مَوقف المُتفرِّج عَن بُعْد ، وإنَّما يُشاركون في صِناعة الأحداث ، وإبداء أحكامهم في المَسائل المختلفة ، والقضايا المُتنوِّعة .

والإسلامُ لَيس نظامًا قمعيًّا يُجبر مُعتنقيه على الاتِّباع الأعمى ، بل يحثهم على التفكُّر والتَّفكير والنَّقْد البَنَّاء ، ودَعْم الحَق ، ودَحْض الباطل . وقد قال عُمر بن الخَطَّاب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ : ((وافقتُ رَبِّي في ثلاث ، فقُلتُ : يا رسول اللَّه ، لَو اتَّخَذْنا مِن مَقَام إبراهيمَ مُصَلًّى ، فأُنزلت : ﴿ واتخِذوا مِن مَقام إبراهيم مُصلى ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وآية الحِجاب ، قُلتُ : يا رسول اللَّه ، لَوْ

أَمَرْتَ نِساءكَ أن يَحتجبنَ ، فإنَّه يُكلِّمهن البَرُّ والفاجر ، فنزلت آيةُ الحِجَاب . واجتمعَ نِساءُ النبيِّ ﷺ في الغَيرة عَلَيه ، فقلتُ لهنَّ : عَسى رَبُّه إن طَلَّقَكُنَّ أن يُبدِله أزواجًا خَيرًا مِنكُنَّ ، فأُنزلت هذه الآية)) [١٠٥].

كان عُمر بن الخَطَّاب _ رضي اللَّهُ عنه _ مُلْهَمًا ذا بصيرة مُتوقِّدة، وقد وَافَقَ الوَحْيَ، ونَزَلَ الوَحْيُ مُؤَيِّدًا له،فَلَمْ يَدْخُل الشَّكُّ في قَلْبه،وذلك بسبب إيمانه الراسخ، وعِلْمه الواسع . ولَم يَقُل: وافقني رَبِّي في ثلاث ، لأنَّ الآيات نَزَلَتْ مُوافِقة لرأيه واجتهاده . وهذا يدلُّ على ذكائه وأدبه . وهذا الحديث مِن أجَلِّ مَناقب عُمر بن الخَطَّاب _ رضي اللَّه عنه _ وفضائله .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ إنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُون ﴾ [المؤمنون : ١٥] .

ثُمَّ إنَّكُم أيُّها الناسُ بَعد تَمَام الخَلْق والحياة لَصَائرون إلى المَوت لا مَحَالة ، وذلك عِند انقضاء آجالكم . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٢٢) : ((وقَوله : ﴿ ثُمَّ إنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُون ﴾ ، يَعني بَعْد هذه النَّشأة الأُولَى مِن العَدَم ، تَصِيرون إلى المَوت)) .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ أحدًا لَم يُنكِر المَوْتَ ، ولكن بسبب الغَفلة عَن المَوت ، وعدم التفكُّر به والاستعدادِ له ، والإعراض عَن العمل لِمَا بَعده ، كانَ المَوت في مَظَنَّة الإنكار والجُحُود .

وقال الصَّابوني في صَفوة التفاسير (٩/ ٥٥) أنَّ مِن وُجوه البيان والبديع : ((إنزال غَير المُنكَر مَنزلة المُنكَر : ﴿ ثُمَّ إنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُون ﴾ ، الناس لا يُنكِرون المَوْتَ ، ولكنَّ غَفلتهم عَنه ، وعدم استعدادهم له بالعمل الصالح ، يُعَدَّان مِن علامات الإنكار ، ولذلك نزلوا مَنزلة المُنكِرين ، وأُلْقِيَ الخَبَر مُؤَكَّدًا بمُؤَكِّدَيْن " إنَّ واللام ")) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ إنَّكُم يَوْمَ القِيَامةِ تُبعَثون ﴾ [المؤمنون : ١٦] .

ثُمَّ إنَّكُم أيُّها النَّاسُ يَوْمَ القِيامة تُبعَثون مِن قُبوركم للحِسَاب والجَزَاء . أي : تُخرَجون مِن قُبوركم للحِسَاب والثَّوَاب والعِقَاب ، والمصير إمَّا الخُلود في الجَنَّة ، أو الخُلود في النار .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٢٢) : ((﴿ ثُمَّ إنَّكُم يَوْمَ القِيَامةِ تُبعَثون ﴾ ، يعني : النَّشأة الآخِرة ، ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأةَ الآخِرَةَ ﴾ [العَنكبوت : ٢٠] ، يَعني يَوم المَعَاد ، وقِيام الأرواح إلى الأجساد ، فيُحَاسَب الخلائق ، ويُوَفَّى كُل عامل عَمَلَه ، إنْ خَيْرًا فَخَير ، وإنْ شَرًّا فَشَر)) .

---

١٠٥ رواه البخاري (١/ ١٥٧)برقم (٣٩٣) واللفظ له . ومسلم (٤/ ١٨٦٥) برقم (٢٣٩٩) بلفظ " وافقتُ رَبِّي في ثلاث : في مَقام إبراهيم ، وفي الحِجاب ، وفي أُسَارى بدر " .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٥): ((﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُون ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : ثُمَّ إنكم أيُّها الناسُ مِن بَعْد إنشائكم خَلْقًا آخرَ ، وتَصييرناكم إنسانًا سَوِيًّا مَيِّتُون ، وعائدون تُرَابًا كما كُنتم ، ثُمَّ إنكم بَعد مَوتكم وعَودكم رُفَاتًا باليًا مَبعوثون مِن التُّراب خَلْقًا جديدًا كَما بَدأناكم أوَّل مَرَّة . وإنَّما قِيل : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُون ﴾ ، لأنَّه خَبَر عن حال لهم يَحدُث لَم يَكُن . وكذلك تقول العرب لِمن لَم يَمُتْ : هو مائت ومَيِّت عَن قليل ، ولا يقولون لِمَن قد مات: مائت، وكذلك هو طَمِعَ فِيما عِندك إذا وُصف بالطمع ، فإذا أخبر عنه أنَّه سيَفعل ولم يَفعل ، قِيل : هو طامع فِيما عِندك غدًا ، وكذلك ذلك في كُلِّ ما كان نظيرًا لِما ذكرناه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرجَعون ﴾ [الرُّوم : ١١] .

يَخلُق اللَّهُ الناسَ أوَّلًا (ابتداءً) ثُمَّ يُعيدهم بَعد المَوت أحياءً كما كانوا . ولَم يَقُلْ : يُعيدهم ، وإنَّما قال : ﴿ يُعِيدُهُ ﴾ ، رَدَّه إلى الخَلْق . اللَّهُ يُنشِئ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيده بَعد المَوت بالبَعْث مِن القُبور، ثُمَّ إلَيه مصيرهم ومَرجعهم يَوم القِيامة للحِسَاب والجَزَاء ، فيُجازي كُلَّ عامل بعمله ، يُجازي المُحسِن بإحسانه ، والمُسِيء بإساءته . والقادرُ على البَدَاءة قادرٌ على الإعادة . ومَن أوجدَ الإنسانَ مِن العَدَم ، قادرٌ على إحيائه بَعد مَوته .

واللَّهُ لَم يَقُلْ: يُرجَعون ، وإنَّما قال: ﴿تُرجَعون﴾ ، والالتفات في الخِطَاب للتَّخويف والتَّرهيب.

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧١) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : اللَّهُ تعالى يَبْدَأ إنشاءَ جَميع الخَلْق مُنْفَرِدًا بإنشائه ، مِن غَير شَريك ، ولا ظَهِير ، فيُحدِثه مِن غَير شَيء ، بَل بقُدرته عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ يُعيده خَلْقًا جديدًا بعد إفنائه وإعدامه كما بَدَأه خَلْقًا سَوِيًّا ولَم يَكُ شيئًا ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرجَعون ﴾ ، يقول : ثُمَّ إلَيه مِن بَعد إعادتهم خَلْقًا جديدًا ، يُرَدُّون ، فيُحشَرون ، لفَصْل القَضاء بَينهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَيُحْيِي الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها وكذلكَ تُخرَجون ﴾ [الرُّوم : ١٩] .

يُخرِج اللَّهُ المؤمنَ مِن الكافر، والكافرَ مِن المؤمن ، والنَّبَاتَ مِن الحَب ، والحَبَّ مِن النَّبات، والحَيَوَان مِن النُّطفة ، والنُّطفة مِن الحَيَوَان ، ويُحْيِي الأرضَ بالنَّبَات بَعد جَفافها ويَبَسها ، وكما يُخرِج اللَّهُ النَّبَاتَ مِن الأرض ، كذلك يُخرِجكم مِن قُبوركم للبَعث يَوم القِيامة . وهذا يدلُّ على قُدرة اللَّه المُطْلَقَة، فكما يُحْيِي الأرضَ بَعد مَوتها بإخراج نَبَاتها وزَرْعها ، كذلك يُحْيِي الناسَ بَعد مَوْتهم ، فيُخرِجهم أحياءً مِن قُبورهم للحِسَاب والجَزَاء . أي : كَمَا أحْيَا الأرضَ بالنَّبَات يُحْييكم بالبَعْث . وفي هذا دليل على صِحَّة القِيَاس .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ٢٧٠) : ((والمعنى أنَّ الإبداء والإعادة يَتساويان في قُدرة مَن هو قادر على إخراج المَيِّت مِن الحَي ، وعَكْسه)) .

إنَّ قُدرةَ اللَّهِ الباهرةَ تتجلَّى في إخراج النقيض مِنَ النقيض ، والضِّد مِنَ الضِّد . فَيُخْرِج الشيءَ الحَيَّ مِنَ الشَّيء المَيِّت ، والعكس. فَيُخرِج الإنسانَ (الحَي) مِنَ النُّطفة (المَيِّتة) ، والنُّطفةَ مِنَ الإنسان . والمعنى أنَّ اللَّه وَحْدَهُ هُو يُحيي ويُميت ، ولا أحد يَملِك هذا الأمر سِواه _ سُبحانه وتعالى _. وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٣٠٢) : ((﴿ وَمَن يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ﴾ أي : النَّبات مِن الأرض ، والإنسان مِن النُّطفة ، والسُّنبلة مِن الحَبَّة ، والطَّير مِن البَيضة ، والمؤمن من الكافر)) اهـ . والعَكس صحيح .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٦٧) : ((وقَوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ﴾ هو ما نحن فيه مِن قُدرته على خَلْق الأشياء المُتقابِلة . ... . فإنَّه يَذكُر فِيها خَلْقه الأشياء وأضدادها ، لِيَدُلَّ خَلْقَه على كمال قُدرته ، فَمِن ذلك إخراج النَّبات مِن الحَب ، والحَب مِن النَّبات، والبَيض مِن الدَّجاج ، والدَّجاج مِن البَيض ، والإنسان مِن النُّطفة ، والنُّطفة مِن الإنسان ، والمؤمن مِن الكافر ، والكافر مِن المؤمن)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَمِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ إذا أنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُون ﴾[الرُّوم: ٢٠].

ومِن علامات اللَّه الدَّالَّة على وُجوده ووَحدانيته وقُدرته ، أنَّه خَلَقَ أباكم آدم (أصل البشرية) مِن تراب . وإنما أضافَ الخَلْق إلى الناس : ﴿ خَلَقَكُم ﴾ لأن آدم ﷺ أبو البشر وأصْلُهم . والفَرْع كالأصل ، والابن تابع لأبيه . ثُمَّ أنتم تنتقلون عَبر مراحل وأطوار:مِن نُطفة إلى عَلَقة إلى مُضغة إلى عَظْم مُغطى باللحم. وصِرْتُم بَشَرًا من لحم ودم، عُقَلاء ناطقين تنبسطون في الأرض،وتتصرَّفون فيما هو قِوام معايشكم . وهذا يعني أنَّ اللَّه لَم يَخلُقهم عَبَثًا، وإنما لِحِكمة إلهية جليلة تتَّضح في امتحانهم واختبارهم . والقادرُ على الخَلْق والإيجاد هو وَحْدَهُ الإله المُستحق للعبادة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٦٨) : ((يقول تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ ﴾ الدَّالَّة على عَظَمَته وكمال قُدرته أنَّه خلق أباكم آدم مِن تراب ﴿ ثُمَّ إذا أنتم بَشَرٌ تنتشرون ﴾ فأصلكم مِن تراب ، ثُمَّ مِن مَاء مَهين ، ثُمَّ تَصَوَّر ، فكان عَلَقة ، ثُمَّ مُضغة ، ثُمَّ صار عِظَامًا شكله على شكل الإنسان ، ثُمَّ كَسَا اللَّهُ تلك العِظام لَحْمًا ، ثُمَّ نَفَخَ فيه الرُّوح ، فإذا هو سميع بصير ، ثُمَّ خَرَجَ مِن بَطْن أُمِّه ، صَغيرًا ، ضعيف القُوى والحركة ، ثم كُلما طال عُمره تكاملت قُواه وحركاته ، حتى آلَ به الحال إلى أن صار يبني المَدَائن والحُصُون ، ويُسافر في أقطار الأقاليم ، ويَركب مَتن البُحور، ويدور

أقطار الأرض ، ويتكسَّب ، ويَجمع الأموال ، وله فِكرة وغَوْر ودَهاء ومَكْر ورَأي وعِلْم ، واتِّساع في أُمور الدُّنيا والآخِرة ، كُلٌّ بِحَسَبه ، فَسُبحانَ مَن أقدرهم وسَيَّرهم وسَخَّرهم ، وصَرَفَهم في فُنون المعايش والمكاسب ، وفاوتَ بينهم في العلوم والفِكر، والحُسن والقُبح ، والغِنى والفقر ، والسَّعادة والشَّقاوة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أنفُسِكُم أزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ [الرُّوم : ٢١] [١٠٦].

مِن علامات عَظَمة الخالق وكَمَال قُدرته ، ودَلائلِ حِكْمته الباهرة ، أن خَلَقَ نِسَاءً آدميات مِن نَفْس صِنف الرِّجال، وذلك ليَحصُل السَّكَن والأُلفة بدون نُفُور ، فتستمر الحياةُ دون تناقض .

وانبثاق الرِّجال والنِّساء مِن صِنف واحد مِن شأنه التَّوفيق بَينهما بسُهولة، والتأليف بَين الأحاسيس المشتركة لأنهما مِن جِنس واحد (الإنس) . وَلَوْ كانوا من جِنْسَيْن مُخْتَلِفَيْن لَحَصَلَ النُّفُور ، وانعدمَ التجاذب ، وبالتالي لَم تعد هناك إمكانية لتكوين الأُسْرة وإعمار الأرض واستمرار الحياة . لقد خَلَقَ اللَّهُ مِن جِنْسِكم البشريِّ نِساءً لتميلوا إلَيهنَّ وتألفوهنَّ. وكُل جِنس يَميل إلى جِنسه. والجِنسان المُختلفان مُتنافران ، لا تَحصُل السَّكِينة والأُلفة بينهما . وجَعَلَ بين الأزواج والزَّوجات محبةً وشَفَقةً ورحمةً . والزَّوجان يُحِبَّان بعضهما البعض مِن غَير رَحِم بينهما ، ويَحرِص كُلُّ طَرَف على الآخَر بدون وجود مصلحة مادية أوْ مَنفعة مُؤقَّتة . وقِيل: المَوَدَّة كِنَاية عَن الجِمَاع، والرَّحمة عَن الوَلَد . وقِيل : المَوَدَّة للشَّابَّة ، والرَّحمة للعَجُوز .

إنَّ في هذا الفِعل الإلهيِّ لَعِبَرًا ودَلالات وعِظات،لِقَوم يتفكرون في عَظَمَة اللَّه وقُدرته وحِكمته، فيعلمون أن اللَّه هو الإله الحق القادر على كُل شيء، والحكيم في أقواله وأفعاله ، وأنه جَعل قِوام الدنيا بالتزاوج والتكاثر ، وأنه قادر على بعث الناس مِن قُبورهم بَعد مَوتهم .

وخُصَّ القَوم الذي يتفكرون بالذِّكر ، لأنهم القادرون على التفكر والتفكير والاستدلال والاستنتاج واتخاذ القرارات الصحيحة ، والانتفاع بها في دِينهم ودُنياهم. أمَّا الغافلون عن التفكر فَلَن يَفهموا آياتِ اللَّه ، ولَن يَهْتَمُّوا بمظاهر قُدرته . وهُم يَعيشون للأكل والشُّرب كالأنعام .

---

١٠٦ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٩٥): ((قَوْله تعالى: ﴿ أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا ﴾ فيه قَولان : أحدهما أنه يعني بذلك آدم ، خَلَقَ حَوَّاءَ مِن ضِلْعه ، وهو معنى قَول قَتادة. والثاني أنَّ المعنى جَعَلَ لكم آدَمِيَّاتٍ مِثْلَكم ، وَلَمْ يجعلهنَّ مِن غَير جِنسكم ، قاله الكلبي)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٦٨) : ((وَلَوْ أنَّه تعالى جَعَلَ بني آدم كُلَّهم ذُكورًا ، وجَعَلَ إناثهم مِن جِنس آخَر ، إمَّا مِن جان أوْ حَيَوَان ، لَمَا حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بَل كانت تَحصُل نُفرة لو كانت الأزواج مِن غَير الجِنس ، ثُمَّ مِن تَمام رحمته ببني آدم ، أن جعل أزواجهم مِن جِنسهم ، وجعل بينهم وبينهنَّ مَوَدَّة وهي المحبة ، ورحمة وهي الرأفة ، فإن الرَّجل يُمسك المرأة إنما لمحبته لها ، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للأُلفة بينهما ، وغَير ذلك)) .

والرُّسُل _ عليهم الصلاة والسلام _ قُدوةُ البشرية، قد كَوَّنوا عائلاتٍ، ولهم أزواج وذُرِّية . ووجودُ زوجات وأبناء في حياة الأنبياء لا يَقْدَح في زُهدهم ، أو اشتغالهم بالدَّعوة ، بل هو جزءٌ من الدَّعوة ، وذلك بإنشاء أُسَر صالحة تكون قُدوةً للأتباع كي يُكَوِّنوا مُجتمعَ الحق والفضيلة .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ اللَّهُ الذي خَلَقَكُم مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشَاءُ وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ ﴾ [الرُّوم : ٥٤] .

يُظهِر اللَّهُ قُوَّتَه ، ويُبرِز سَيْطرته على الإنسان مِن بدايته حتى نهايته ، فاللَّهُ خَلَقَه مِن نُطفة ضَعيفة ، أوْ في حالة ضَعْف (الطُّفولة والصِّغَر) ، ثم جَعَلَ مِن بعد مرحلة الضَّعْف قُوَّةً ، وهي فترة الشَّباب التي تمتاز بالقُوَّة والشِّدة والبَطْش . وبعد انقضاء مرحلة الشباب ، تأتي مرحلة الضَّعْف والوَهْن (الكِبَر والشَّيخوخة) ، والشَّيْبةُ هي مُنتهى الضَّعْف ، ونِهاية مَرحلة الهَرَم .

اللَّهُ الذي خَلَقَكم أيُّها الناسُ مِن أصل ضَعيف وماء مَهِين (النُّطفة) ، ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعد ضَعْف الطُّفولة قُوَّةَ الشباب ، ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعد قُوَّة الشباب ضَعْفَ الهَرَم وشَيْب الشَّيخوخة ، يَخلُق اللَّهُ ما يشاء مِن ضَعْف وقُوَّة وشَبَاب وشَيْب ، وهو العليمُ بتدبير خَلْقه ، القدير على ما يشاء . إنَّ اللَّه سُبحانَه العليم بأحوال الإنسان ، القدير على تغييرها ، ونَقْله مِن حال إلى حال ، وهذا التَّرديد في الأحوال دليلٌ على عَظَمَة اللَّه الخالق العليم القدير ، المُتَّصِف بالعِلْم الشامل ، والقُدرة المُطْلَقَة .

إنَّ نَقْل الإنسان عَبْر هذه المراحل والأطوار، وتردُّده في هذه الأوضاع والهَيئات ، دليلٌ واضح على وُجود اللَّه ، ووَحدانيته ، وقُدرته المُطْلَقَة ، وعِلْمه الشامل ، وحِكمته البالغة . وقد قدَّم اللَّهُ دليلًا على قُدرته الباهرة مِن نَفْس الإنسان (خَلْق الإنسان وَفْق أطوار مُختلفة) ، مِن أجل الاتِّعاظ والاعتبار . وعلى الإنسان أن يتذكَّر دائمًا أصْلَه الضعيف ، وأنَّ الضَّعْف أساس أمره وجَوهر حاله ، كَي يتواضع للَّهِ تعالى ، ويَخضع لأوامره ونَوَاهيه ، ولا يتكبَّر عَلَيه ، ولا يُعَانِد ، ولا يُكَابِر، ولا يَقع في مِصيدة الغُرُور ، وفَخ القُوَّة الوهمية .

وعلى الإنسان أيضًا أن يَبحث في نَفْسه عن الدَّلائل المُشيرة إلى كَمَال قُدرة اللَّه تعالى ، فاللَّهُ قد أودعَ في الإنسان أدلةً وبراهين تدلُّ على قُدرة اللَّه وعِلْمه وحِكمته . والإنسانُ هُوَ الكَوْن الصَّغير ، ولا يُمكن إدراك أسرار الكَوْن الكبير إلا بإدراك أسرار الكَون الصغير . ومَن عَرَفَ نَفْسَه، فقد عَرَفَ رَبَّه . وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٩٨) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المُكذِّبين بالبَعْث مِن مُشركي قُرَيش ، مُحْتَجًّا عليهم بأنَّه القادر على ذلك ، وعلى ما يشاء : ﴿ اللَّهُ الذي خَلَقَكُم ﴾ أيُّها الناسُ ﴿ مِن ضَعْفٍ ﴾ ، يَقول : مِن نُطفة ومَاء مَهِين ، فأنشأكم بَشَرًا سَوِيًّا ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ ، يقول : ثُمَّ جَعَلَ لكم قُوَّةً على التَّصَرُّف مِن بَعْد خَلْقه إيَّاكم مِن ضَعْف ، ومِن بَعْد ضَعْفكم بالصِّغَر والطُّفولة ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ ، يَقول : ثُمَّ أحدثَ لكم الضَّعْفَ بالهَرَم والكِبَر عمَّا كُنتم عليه أقوياء في شَبابكم ، وشَيبة . ... . وقَوله : ﴿ يَخْلُقُ ما يَشَاءُ ﴾ يَقول تعالى ذِكْرُه : يَخلُق ما يَشاء مِن ضَعْف وقُوَّة وشَباب وشَيْب ، ﴿ وَهُوَ العَلِيمُ ﴾ بتَدبير خَلْقه ، ﴿ القَدِيرُ ﴾ على ما يَشاء ، لا يَمتنع عليه شيء أراده، فكما فعل هذه الأشياء فكذلك يُميت خَلْقَه ويُحييهم إذا شاء. يقول : واعْلَمُوا أنَّ الذي فَعَلَ هذه الأفعالَ بقُدرته يُحْيي الموتى إذا شاء)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٨٠) : ((يُنَبِّه تعالى على تَنَقُّل الإنسان في أطوار الخَلْق حَالًا بعد حال ، فأصْله مِن تُراب ، ثُمَّ مِن نُطفة ، ثُمَّ مِن عَلَقَة ، ثُمَّ مِن مُضْغَة ، ثُمَّ يَصِير عِظَامًا ، ثُمَّ تُكْسَى العِظام لَحْمًا ، ويُنفَخ فِيه الرُّوح ، ثُمَّ يَخرُج مِن بَطْن أُمِّه ضعيفًا نحيفًا واهن القُوى ، ثُمَّ يَشِبُّ قليلًا قليلًا حتى يكون صغيرًا ، ثُمَّ حَدَثًا ، ثُمَّ مُرَاهِقًا شَابًّا ، وهو القُوَّة بَعْد الضَّعْف ، ثُمَّ يَشرَع في النَّقْص ، فيَكْتَهِل، ثُمَّ يَشِيخ ، ثُمَّ يَهْرَم وهو الضَّعْف بَعد القُوَّة ، فتَضعُف الهِمَّة والحَرَكة والبَطْش وتَشِيب اللِّمَّة _ شَعْر الرأس إذا كان فوق الوَفْرة _ ، وتتغيَّر الصِّفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشَاءُ ﴾ ، أي : يَفعَل ما يَشاء ، ويتصرَّف في عَبِيده بما يُريد ، ﴿ وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ ﴾)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ مِن طِين ﴾[السَّجْدة: ٧] .

اللَّهُ الذي أحسنَ كُلَّ شَيء خَلَقَه ، وأتقنَ صُنْعَه ، وأحْكَمَه بلا نَقْص فِيه ولا خَلَل ولا عَيْب ، وذلك وَفق الحِكمة والمَصلحة. وخَلَقَ أبا البشر وأصْلَهم (آدم ﷺ) مِن طِين ، وصوَّره على شَكل جميل ، وصُورة بَديعة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٣٤ و٣٣٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ فيه خَمسة أقوال: أحدها جَعَلَه حَسَنًا، والثاني أحكمَ كُلَّ شيء، رُوِيَا عَن ابن عباس ،

وبالأوَّل قال قَتادة ، وبالثاني قال مُجاهد. والثالث أحْسَنَه لَم يتعلَّمه مِن أحد، كما يُقَال: فُلان يُحسِن كذا إذا عَلِمَه، قاله السُّدي ومُقاتل. والرابع أنَّ المعنى ألْهَمَ خَلْقَه كُلَّ ما يَحتاجون إلَيه، كأنَّه أعْلَمَهم كُلَّ ذلك وأحسنهم، قاله الفَرَّاء . والخامس أحسنَ إلى كل شيء خَلَقَه، حكاه الماوردي)).

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٠١) : ((﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ . ... . أي : أحسنَ خَلْقَ كُل شيء . قال ابن عباس : أتْقَنَه وأحْكَمَه. قال قَتادة: حسَّنه،وقال مُقاتل : عَلِمَ كَيف يَخلُق كُلَّ شيء، مِن قَولك: فُلان يُحسِن كذا، إذا كان يَعلَمه. وقِيل : خَلَقَ كُلَّ حَيَوَان على صُورته، لَم يَخلُق البَعْضَ على صُورة البعض ، فكُل حَيَوَان كامل في خَلْقه حَسَن ، وكُل عُضْو مِن أعضائه مُقدَّر بما يَصلُح به مَعَاشُه ، ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ مِن طِين ﴾ يعني آدم)) .

وقال أبو حَيَّان في البحر المُحيط (٧/ ١٩٩) : ((وهذا أبلغ في الامتنان، ومعناه أنَّه وَضَعَ كُلَّ شيء في مَوضعه ، ولهذا قال ابن عباس : لَيست القِرَدَة بحَسَنَة، ولكنَّها مُتْقَنَة مُحْكَمَة)) .

وفي صَفوة التفاسير (١٢/ ٣٧) : ((قال بعضُ العُلَماء : لَوْ تَصَوَّرْتَ مَثَلًا أنَّ للفِيل مِثْل رَأس الجَمَل ، وأنَّ للأرنب مِثل رأس الأسد ، وأنَّ للإنسان مِثْل رَأسِ الحِمَار ، لوجدتَ في ذلك نقصًا كبيرًا ، وعدم تناسب وانسجام ، ولكنك إذا عَلِمْتَ أنَّه طَوَّلَ عُنُقَ الجَمَل، وشَقَّ شَفَته لِيَسهُل تناوله الكَلَأ عَلَيه أثناء السَّير ، وأنَّ الفيل لَوْلا خُرطومه الطويل لَمَا استطاعَ أن يَبرُك بجِسمه الكبير لتناول طعامه وشرابه ، لَوْ عَلِمْتَ كُلَّ هذا لَتَيَقَّنْتَ أنَّه صُنع اللَّه الذي أتقنَ كُلَّ شيء ، وَلَقُلْتَ : تباركَ اللَّهُ أحسنُ الخالقين)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِن مَاءٍ مَهِين ﴾ [السَّجْدة : ٨] .

ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ ذُرِّيةَ آدم ﷺ مِن ماء ضَعِيف حَقِير ، لا قِيمة له عِند الناس ، وهو المَنِيُّ .

وسُمِّيَت ذُرِّية آدم نَسْلًا ، لأنها تنسلُّ مِنه ، أي : تَنفصل .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٠٤): ((﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِن مَاءٍ مَهِين ﴾ ، أي: يَتناسلون كذلك مِن نُطفة مِن بَين صُلْب الرَّجُل وترائب المَرأة_ يعني:ظَهْر الرَّجُل وصَدْر المرأة_)).

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٠١):((﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ يَعني ذُرِّيته ﴿ مِن سُلالَةٍ ﴾ نُطفة. سُمِّيَتْ سُلالة ، لأنَّها تُسَلُّ مِن الإنسان ﴿ مِن مَاءٍ مَهِين ﴾ ، أي : ضَعيف ، وهو نُطفة الرَّجُل)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبْصَارَ والأفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُون ﴾ [السَّجْدة:٩] . ثُمَّ سَوَّى اللَّهُ آدمَ ﷺ بعد أن خَلَقَه مِن طِين خَلْقًا سَوِيًّا مُعْتَدِلًا مُستقيمًا، أي : قوَّم أعضاءه ، وعدَّل خَلْقَه .

ونَفَخَ اللَّهُ في آدم مِن رُوحه، فصارَ حَيًّا حسَّاسًا ناطقًا، يَمتاز بكَمَال الصُّورة ، وحُسن التَّقويم، بعد أن كان جَمَادًا . وإضافةُ الرُّوح إلى اللَّه لتشريف الإنسان وتكريمه ، وهذا لا يعني أنَّ الرُّوح جُزء مِن اللَّه ، فاللَّهُ مُنَزَّهٌ عن الأعضاء والحواس والجوارح والأجزاء والتَّبعيض .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٦) : ((﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ قَوَّمَه بتَصوير أعضائه على ما يَنبغي ، ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ ﴾ ، إضافة إلى نَفْسه تشريفًا له ، وإشعارًا بأنَّه خَلْق عجيب، وأنَّ له شأنًا له مُنَاسَبَة ما إلى الحَضْرة الرُّبوبية ، ولأجله قِيل : مَن عَرَفَ نَفْسَه ، فقد عَرَفَ رَبَّه)) .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبْصَارَ والأفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُون ﴾ . وأنعمَ اللَّهُ عَلَيكم بالحَوَاس : السَّمْع لتَسمعوا بها الأصوات ، والبَصَر لتُبْصِرُوا به الأشخاص ، والعَقْل لِتَعْرِفُوا طريقَ الهُدى ، وتُدرِكوا الصَّوَابَ ، وتُميِّزوا بين الحَق والباطل ، وتُفَرِّقوا بَين الخَير والشَّر . وأنتم تَشكُرون شُكرًا قليلًا ، و﴿ مَا ﴾ لتَأكيد القِلَّة .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٣٥) : ((﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبْصَارَ والأفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُون ﴾ ، يَقُول : وأنعمَ عَلَيكم أيُّها الناس رَبُّكُم بأن أعطاكم السَّمْعَ تَسمَعون به الأصوات ، والأبصار تُبصِرون بها الأشخاصَ ، والأفئدة تَعقِلون بها الخَيْرَ مِن السُّوء ، لتَشكروه على ما وَهَبَ لكم مِن ذلك . وقَوله : ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُون ﴾ ، يقول : وأنتم تَشكُرون قليلًا مِن الشُّكر رَبَّكُم على ما أنعمَ عَلَيكم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٥٦) : ((خَاطَبَ جميعَ النَّوع ، فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبْصَارَ والأفْئِدَةَ ﴾ ، أي : خَلَقَ لكم هذه الأشياء تكميلًا لنِعمته عَلَيكم، وتَتميمًا لتَسويته لخَلْقكم حتى تَجتمع لكم النِّعَم ، فتَسمَعون كُلَّ مَسموع ، وتُبصِرون كُلَّ مُبصَر ، وتَتعقَّلون كُلَّ مُتَعَقَّل ، وتَفهمون كُلَّ ما يُفهَم . وأفردَ السَّمْعَ لكَوْنه مَصْدَرًا يَشمَل القليلَ والكثيرَ ، وخَصَّ السَّمْعَ بذِكْر المَصدَر دُون البَصَر والفُؤاد ، فذكرهما بالاسم ، ولهذا جُمِعَا ، لأنَّ السَّمْع قُوَّة واحدة ، ولها مَحَل واحد ، وهو الأُذُن ، ولا اختيار لها فيه ، فإنَّ الصَّوت يَصِل إلَيها ، ولا تَقْدِر على رَدِّه ، ولا على تَخصيص السَّمْع ببَعض المَسموعات دُون بَعض ، بخِلاف الأبصار فَمَحَلُّها العَين، وله فيه اختيار ، فإنَّها تتحرَّك إلى جانب المَرئي دُون غَيره ، وتُطبِق أجفانَها إذا لَم تُرِد الرُّؤيةَ لشَيء ، وكذلك الفُؤاد له نوع اختيار في إدراكه ، فيتعقَّل هذا دُون هذا ، ويَفهَم هذا دُون هذا ... ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُون ﴾ ، على أنَّه صِفَة مَصدَر مَحذوف ، أي : شُكْرًا قليلًا . أوْ صِفَة زمان مَحذوف ، أي: زمانًا قليلًا . وفي هذا بيان لكُفرهم لِنِعَم اللَّه ، وتَركهم لشُكرها إلا فِيما نَدَرَ مِن الأحوال)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ واللَّهُ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُم أَزْوَاجًا وما تَحْمِلُ مِن أُنثَى ولا تَضَعُ إلا بِعِلْمِهِ وما يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ ولا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلا في كِتَابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فَاطِر : ١١] .

واللَّهُ خَلَقَ أباكم وأصْلَكم أيُّها الناس مِن تُراب ، وهو آدم ﷺ ، وقد جَعَلَ اللَّهُ خَلْقَ آدم مِن تُراب خَلْقًا لهم ، لأنَّهُ أبوهم وأصْلُهم ، والابن تابع لأبيه ، والفَرْع تابع للأصل. ﴿ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ﴾ ، ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ ذُرِّيةَ آدم مِن مَاء ضَعِيف حَقِير ، وهو المَنِيُّ ، ثُمَّ خَلَقَكم ذُكُورًا وإناثًا ، وجَعَلَ الذُّكُورَ يَسكُنون إلى الإناث اللواتي مِن جِنْسِهم ، وزوَّج بَعْضَكم مِن بَعْض ، مِن أجل التَّكاثر وبقاء النَّوْع وإعمار الأرض ، فالزَّوْجُ ذَكَرُ الأُنثى حَتَّى يَتم البَّقَاء في الدُّنيا إلى وَقت فَنَائها . وهذا يدلُّ على فضل اللَّه عَلَيهم ، ورحمته بهم ، وإحسانه إلَيهم .

ولا يَكُون حَمْل ولا وِلادة إلا بعِلْم اللَّه ، ويَعْلَم هَل هُوَ ذَكَر أوْ أُنثى ، لا يَخفَى عَلَيه شيء مِن ذلك . وما يَطُول عُمر أحدٍ مِن الناس فيُصبح شَيْخًا هَرِمًا ، ولا يُنقَص مِن عُمر أحد فيموت وهو صغير السِّن ، إلا وهو مَكتوب في اللوح المَحفوظ ، بلا زيادة ولا نُقصان ، إنَّ كتابة الآجال والأعمال على اللَّه سَهْل هَيِّن ، لأنَّ إرادته نافذة في كُل شيء ، ولا يُعجِزه شيء ، وعِلْمه مُحيط بكُل شيء ، ولا يَغِيب عنه شيء .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٢٣) : ((قَوله تباركَ وتعالى: ﴿ واللَّهُ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ﴾ ، أي: ابتدأ خَلْقَ أبيكم مِن تُراب ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَه مِن سُلالة مِن مَاء مَهِين ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُم أَزْوَاجًا ﴾ ، أي: ذَكَرًا وأُنثى ، لُطْفًا مِنه ورحمة أن جَعَلَ لكم أزواجًا مِن جِنسكم لتَسكُنوا إليها . وقَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وما تَحْمِلُ مِن أُنثَى ولا تَضَعُ إلا بِعِلْمِهِ ﴾ ، أي: هو عَالِم بذلك لا يَخفَى عليه مِن ذلك شَيء . ... . وقَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وما يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ ولا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلا في كِتَابٍ ﴾ ، أي : ما يُعْطِي بَعْضَ النُّطَف مِن العُمر الطويل يَعْلَمه ، وهو عِنده في الكِتاب الأوَّل ، ﴿ ولا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ ، الضَّمير عائد على الجِنس ، لا على العَين ، لأنَّ الطويل العُمر في الكِتاب، وفي عِلْم اللَّه تعالى ، لا يُنقَص مِن عُمره، وإنَّما عاد الضمير على الجِنس. قال ابن جرير: وهذا كقَولهم : عِندي ثَوْب ونِصْفُه ، أي : هو ونِصف ثَوب آخَر . ورُوِيَ مِن طريق العَوفي عن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ في قَوله تعالى : ﴿ وما يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ ولا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلا في كِتَابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يَقول : لَيْسَ أحد قَضَيْتُ له بطُول العُمر والحياة إلا وهو بالغ ما قَدَّرْتُ له مِن العُمر ، وقد قَضَيْتُ ذلك له، فإنَّما يَنْتهي إلى الكِتاب الذي قَدَّرْتُ، لا يُزَاد عليه،

وليس أحد قَدَّرْتُ له أنَّه قَصير العُمر والحياة ببالغ العُمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كَتَبْتُ له، فذلك قَوله تعالى : ﴿ ولا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلا في كِتَابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : كُل ذلك في كِتاب عِنده . وهكذا قال الضَّحاك بن مُزَاحِم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : ﴿ ولا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلا في كِتَابٍ ﴾ ، قال : ما لَفَظَت الأرحامُ مِن الأولاد مِن غَير تَمَام . وقال عبد الرحمن في تَفسيرها : ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخَر يموت حِين يُولَد ، فهذا هذا . وقال قَتادة: والذي يُنقَص مِن عُمره فالذي يَموت قَبل سِتِّين سَنَة . وقال مجاهد : ﴿ وما يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ ولا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلا في كِتَابٍ ﴾ ، أي : في بَطْن أُمِّه يَكتب له ذلك ، لَمْ يَخلُق الخَلْقَ على عُمر واحد ، بل لهذا عُمر ، ولهذا عُمر هو أنقص مِن عُمره ، فكُل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بَلَغَ . وقال بعضُهم : بل مَعناه ﴿ وما يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ ﴾ ، أي: ما يكتب من الأجل ﴿ ولا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ ، وهو ذهابه قليلًا قليلًا ، الجَميع معلوم عند اللَّه تعالى ، سَنَة بعد سَنَة ، وشَهْرًا بعد شهر ، وجُمُعة بعد جُمُعة ، ويَوْمًا بعد يَوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند اللَّه تعالى في كتابه ، نقله ابن جرير عن أبي مالك ، وإليه ذهب السُّدي وعطاء الخُرَاساني ، واختار ابن جرير الأول ، وهو كما قال . وقال النَّسَائي عند تفسير هذه الآية الكريمة: حدَّثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سُلَيمان قال : سمعت ابن وَهْب يقول : حَدَّثني يُونُس عن ابن شِهاب عن أنس بن مالك _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : " مَن سَرَّهَ أن يُبسَط له في رِزقه ، ويُنسَأ له في أثَره ، فَلْيَصِلْ رَحِمَه " . وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يُونُس بن يزيد الأيلي به . وقال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا علي بن الحُسَين حَدَّثنا الوليد ابن الوليد بن عبد الملك بن عُبَيد اللَّه أبو سَرْح ، حَدَّثنا عُثمان بن عطاء عن مَسلمة بن عبد اللَّه عن عَمِّه أبي مشجعة بن رِبْعِي عن أبي الدَّرداء _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : ذَكَرْنا عند رسول اللَّه ﷺ فقال : " إنَّ اللَّه تعالى لا يُؤخِّر نَفْسًا إذا جاءَ أجَلُها ، وإنَّما زِيادة العُمُر بالذُّرِّيَة الصالحة يُرزَقها العَبْدُ ، فَيَدْعُون له مِن بَعده ، فيَلحَقه دُعاؤهم في قَبره ، فذلك زِيادة العُمُر " . وقَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إنَّ ذَلِكَ عَلى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، أي : سَهْل عَلَيه ، يَسِير لَدَيه ، عَلِمَه بذلك وبتَفصيله في جميع مخلوقاته ، فإنَّ عِلْمه شامل للجميع ، لا يَخفَى عَلَيه شيء مِنها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وأنزلَ لَكُم مِنَ الأنعامِ ثَمَانِيَةَ أزْوَاجٍ يَخْلُقُكُم في بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ في ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم لَهُ المُلْكُ لا إلَهَ إلا هُوَ فأنَّى تُصرَفون ﴾ [الزُّمَر : ٦] .

خَلَقَكم اللَّهُ أيُّها الناسُ مِن نَفْس واحدة (آدم ﷺ) ، وهذا دليل على وُجود اللَّه ووَحدانيته ، وأُلوهيته ، ورُبوبيته ، وقُدرته المُطْلَقَة ، وعِلْمه الشامل ، وحِكمته البالغة .

ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ مِن آدم زَوْجَهُ حَوَّاء ، خَلَقَها مِن ضِلْع مِن أضلاعه ، ليَحصُل بينهما التجانس والمَوَدَّة والأُلفة والتناسل .

وخَلَقَ اللَّهُ لكم مِن الأنعام (الإبِل والبَقَر والغَنَم الضَّأن والمَعْز) ثمانيةَ أزواج، مِن كُل نَوع ذَكَرًا وأُنثى،مِن الإبِل اثنَيْن،ومِن البَقَر اثنين،ومِن الضَّأن اثنين، ومِن المَعْز اثنين، كُل واحد زَوْج، وسُمِّيَتْ أزواجًا ، لأنَّ الذَّكَر زَوْج الأُنثى ، والأُنثى زَوْج الذَّكَر . والمقصودُ بالإنزال نزولُ أمر اللَّه وقضائه .

يَخلُقكم اللَّهُ في بُطون أُمَّهاتكم على مراحل: نُطْفَة، ثُمَّ عَلَقَة، ثُمَّ مُضْغَة، ثُمَّ عَظْمًا ، ثُمَّ لَحْمًا ، ثُمَّ يُنبِت الشَّعْرَ ، إلى غَير ذلك مِن المراحل المُختلفة ، والأطوار المُتغيِّرة ، والأحوال المُتقلِّبة ، إلى إخراج الأطفال . وهذا دليلٌ واضح على قُدرة اللَّه المُطْلَقَة ، وصِيغةُ المُضارِع ﴿ يَخْلُقُكُم ﴾ تدلُّ على التَّدَرُّج والتَّجَدُّد .

﴿ في ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ في ظُلْمَة البَطْن ، وظُلمة الرَّحِم ، وظُلمة المَشيمة ، ذلكم الخالق الصانع المُبدِع الذي هذه أفعاله ، هو اللَّه رَبُّكُم المُستحق للعِبادة وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد ، له المُلْك الكامل ، والتَّصَرُّف التام في الخَلْق والإفناء ، والإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماتة ، لا مَعبود بحَق إلا اللَّه ، ولا إله غَيْرُه ، ولا رَب سِوَاه ، فكيفَ تُصرَفون عن عِبادته إلى عِبادة غَيره بعد هذا البيان الواضح ؟ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٠): ((وقَوله جَلَّتْ عَظَمَتُه : ﴿ خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أي: خَلَقَكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم مِن نَفْس واحدة ، وهو آدم عليه الصلاة والسلام ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهي حَوَّاء عَلَيها السلام. ... . وقَوله تعالى: ﴿ وأنزلَ لَكُم مِنَ الأنعامِ ثَمَانِيَةَ أزْوَاجٍ ﴾ ، أي: خَلَقَ لكم مِن ظُهُور الأنعام ثمانيةَ أزواج ، وهي المَذكورة في سُورة الأنعام، ثمانية أزواج: مِن الضَّأن اثنين، ومِن المَعْز اثنين ، ومِن الإبل اثنين، ومِن البَقَر اثنين . وقَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَخْلُقُكُم في بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم ﴾ ، أي : قَدَّركم في بُطُون أُمَّهاتكم ﴿ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ يَكُون أحَدُكم أوَّلًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكون عَلَقَةً ، ثُمَّ يَكون مُضْغَةً ، ثُمَّ يُخلَق فيَكون لَحْمًا وعَظْمًا وعَصَبًا وعُرُوقًا ، ويُنفَخ فيه الرُّوح ، فيَصير خَلْقًا آخَر ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أحْسَنُ الخَالِقِين ﴾ . وقَوله جَلَّ وعلا : ﴿ في ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ ، يَعني : في ظُلْمَة الرَّحِم ، وظُلْمَة المَشِيمة التي هي كالغِشَاوة والوِقَاية على الوَلَد ، وظُلْمَة البَطَن ، كذا قال ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ ومُجاهد

وعِكرمة وأبو مالك والضَّحاك وقَتادة والسُّدي وابن زيد . وقَوله جَلَّ جَلالُه : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم ﴾، أي: هذا الذي خَلَقَ السَّماوات والأرض، وما بَينهما، وخَلَقَكم وخَلَقَ آباءكم، هو الرَّب ، له المُلْك والتَّصَرُّف في جميع ذلك ﴿ لا إلهَ إلا هُوَ ﴾ ، أي: الذي لا تَنبغي العِبادة إلا له وَحْدَه لا شريك له ﴿ فأنَّى تُصرَفون ﴾ ، أي : فكيف تَعبدون معه غَيْرَه ؟ أين يُذهَب بعُقولكم ؟)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٨): ((﴿ خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ استدلال آخَر بما أوجده في العالم السُّفلي ، مَبدوء به مِن خَلْق الإنسان ، لأنه أقرب وأكثر دَلالة وأعجب ، وفيه على ما ذَكَرَه ثلاث دَلالات : خَلْق آدم أوَّلًا مِن غَير أب وأُم ، ثُمَّ خَلْق حَوَّاء مِن قُصَيراه (آخِر الأضلاع) ، ثُمَّ تَشعيب الخَلْق الفائت للحَصْر مِنهما. ... . وقِيل: أخرجَ مِن ظَهْره ذُرِّيته كالذَّر ثُمَّ خَلَقَ مِنها حَوَّاء ، ﴿ وأنزلَ لَكُم ﴾ ، وقَضَى ، أوْ قَسَمَ لكم ، فإنَّ قَضَاياه وقَسْمه تُوصَف بالنُّزول مِن السَّماء ، حَيث كُتبت في اللوح المحفوظ ، أوْ أحدثَ لكم بأسباب نازلة كأشعة الكواكب والأمطار ، ﴿ مِنَ الأنعامِ ثَمَانِيَةَ أزْوَاجٍ ﴾ ، ذَكَر وأُنثى، مِن الإبِل والبَقَر والضَّأن والمَعْز ، ﴿ يَخْلُقُكُم في بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم ﴾ بيان لكَيفية خَلْق ما ذَكَرَ مِن الأناسيِّ والأنعام إظهارًا لِمَا فيها مِن عجائب القُدرة ، غَيْر أنَّه غلَّب أُولي العَقْل ، أوْ خصَّهم بالخِطاب ، لأنَّهم المَقصودون ، ﴿ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ حَيَوَانًا سَوِيًّا مِن بَعْد عِظَام مَكْسُوَّة لَحْمًا ، مِن بَعْد عِظَام عَارِيَة ، مِن بَعْد مُضَغ ، مِن بَعْد عَلَق ، مِن بَعْد نُطَف ﴿ في ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ ظُلْمَة البَطْن والرَّحِم والمَشِيمة ، أوْ الصُّلْب والرَّحِم والبَطْن ، ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ الذي هذه أفعاله ﴿ اللَّهُ رَبُّكُم ﴾ هُوَ المُستحق لعبادتكم والمالك ، ﴿ لَهُ المُلْكُ لا إلهَ إلا هُوَ ﴾ ، إذْ لا يُشاركه في الخَلْق غَيْرُه ، ﴿ فأنَّى تُصرَفون ﴾ يُعدَل بكم عن عبادته إلى الإشراك)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٦٣٩) : ((﴿ خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وهي نَفْس آدم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ جاء بثُمَّ للدَّلالة على ترتيب خَلْق حَوَّاء على خَلْق آدم وتراخيه عنه ، لأنها خُلقت مِنه . والعَطْف : إمَّا على مُقدَّر هو صِفة لِنَفْس . قال الفَرَّاء والزَّجاج: التَّقدير خَلَقَكم مِن نَفْس خَلَقَها واحدةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنها زَوْجَها . ويَجوز أن يكون العَطْف على معنى واحدة : أي مِن نَفْس انفردت ، ثُمَّ جَعَلَ ... إلخ. والتَّعبير بالجَعْل دُون الخَلْق معَ العَطْف بثُمَّ ، للدَّلالة على أنَّ خَلْق حَوَّاء مِن ضِلْع آدم ، أدخل في كَوْنه آية باهرة دَالَّة على كمال القُدرة ، لأنَّ خَلْق آدم هو على عادة اللَّه المُستمرة في خَلْقه ، وخَلْقها على الصِّفة المَذكورة لَم تَجْرِ به عادة لكَوْنه لَم يَخلُق سُبحانَه أُنثى مِن ضِلْع رَجُل غَيْرَها . ... . ثُمَّ بيَّن سُبحانَه نَوْعًا آخَر مِن قُدرته الباهرة ، فقال :

﴿ وأنزلَ لَكُم مِنَ الأنعامِ ثَمَانِيَةَ أزْوَاجٍ ﴾ ، وهو مَعطوف على"خَلَقَكم "، وعبَّر بالإنزال لِمَا يُروَى أنَّه خَلَقَها في الجَنَّة ، ثُمَّ أنزلها ، فيَكُون الإنزال حقيقةً ، ويُحْتَمَل أن يَكون مَجَازًا ، لأنَّها لَم تَعِشْ إلا بالنَّبات ، والنَّبات إنَّما يعيش بالماء ، والماء مُنزَل مِن السَّماء ، كانت الأنعام كأنها مُنزَلة ، لأنَّ سَبَب سَبَبها مُنزَل . ... . وقِيل : إنَّ أنزل بمعنى أنشأ وجَعَلَ ، أوْ بمعنى: أعْطَى . وقِيل : جَعَلَ الخَلْقَ إنزالًا ، لأنَّ الخَلْق إنَّما يكون بأمر يَنزِل مِن السَّماء . ... . ثُمَّ بيَّن سُبحانَه نَوْعًا آخَر مِن قُدرته البديعة ، فقال : ﴿ يَخْلُقُكُم في بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ ، والجُملة استئنافية لبَيان ما تضمَّنته من الأطوار المُختلفة في خَلْقهم ، وخَلْقًا مَصدَر مُؤَكِّد للفِعل المَذكور ، و ﴿ مِن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ صِفَة له ، أي: خَلْقًا كائنًا مِن بَعْد خَلْق . قال قَتادة والسُّدي : نُطْفَة ثُمَّ عَلَقَة ثُمَّ مُضْغَة ثُمَّ عَظْمًا ثُمَّ لَحْمًا . وقال ابن زَيد : خَلَقَكم خَلْقًا في بُطُون أُمَّهاتكم مِن بَعْد خَلْقكم في ظَهْر آدم. وقَوله : ﴿ في ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ مُتعلِّق بقَوله : ﴿ يَخْلُقُكُم ﴾ . وهذه الظُّلُمَات الثَّلاث هي : ظُلْمَة البَطْن ، وظُلْمَة الرَّحِم ، وظُلْمَة المَشِيمة ، قاله مُجاهد وعِكرمة وقَتادة والضَّحاك . وقال سعيد ابن جُبَير : ظُلْمَة المَشِيمة ، وظُلْمَة الرَّحِم ، وظُلْمَة الليل . وقال أبو عُبَيدة : ظُلْمَة صُلْب الرَّجُل ، وظُلْمَة بَطْن المَرأة ، وظُلْمَة الرَّحِم . والإشارة بقَوله : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ ﴾ إلَيه سُبحانَه باعتبار أفعاله السابقة ، والاسم الشَّريف خَبَرُه ، ﴿ رَبُّكُم ﴾ خَبَر آخَر ، ﴿ لَهُ المُلْكُ ﴾ الحقيقيُّ في الدُّنيا والآخِرة ، لا شَرِكة لغَيره فِيه ، وهو خَبَر ثالث . وقَوله : ﴿ لا إلهَ إلا هُوَ ﴾ خَبَر رابع ، ﴿ فأنَّى تُصرَفون ﴾ ، أي : فَكَيف تَنصرفون عَن عِبادته وتَنقلبون عَنها إلى عِبادة غَيره ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأرضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون﴾ [غَافِر : ٥٧] . الآيةُ احتجاج على مُنكِري البَعْث ، وإقامة للحُجَّة عَلَيهم ، وقَطْع لأعذارهم .

إنَّ خَلْق اللَّه للسَّماوات والأرض ابتداءً، وابتداعهما مِن غَير مِثَال سابق، وإيجادهما مِن العَدَم، أعظم وأكبر مِن خَلْقِ الناس(الابتداء) وبَعْثِهم مِن قُبورهم(الإعادة) . ومَن قَدَرَ على خَلْق السَّماوات والأرض معَ عِظَمهما وكَثرة أجزائهما ، قادرٌ على إعادة الخَلْق، وخَلْقُ الأشياء سَهْل هَيِّن على اللَّه . ومَن قَدَرَ على الأمر العظيم قادرٌ على الأمر البسيط. واللَّهُ يُبيِّن للناسِ قُدرته المُطْلَقَةَ ، ويُقَدِّم دَليلًا واضحًا على البَعْث ، ويُنبِّه على إعادة الناس يَوم القِيامة للحِسَاب والجَزَاء . والإلهُ القادر على خَلْق السَّماوات والأرض (الأجرام العظيمة الهائلة) قادرٌ على إعادة أجسام الناس البسيطة بَعد المَوت والفَنَاءِ . ولكنَّ الكُفَّار لا يَعْلَمُون ذلك ، ولا يَستدلون به على التَّوحيد ، لأنَّهُم غارقون في الجَهْل والتَّقليد والعِناد والاستكبار والغَفْلَة والأهواء الذاتية والمصالح الشخصية .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٩٨): ((﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأرضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ فَمَن قَدَرَ على خَلْقها معَ عِظَمها أوَّلًا مِن غَير أصل ، قَدَرَ على خَلْق الإنسان ثانيًا مِن أصل)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٠٨) : ((يَقول تعالى مُنَبِّهًا على أنَّه يُعيد الخلائقَ يَوم القِيامة ، وأنَّ ذلك سَهْل عَلَيه ، يَسير لَدَيه ، بأنَّه خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ ، وخَلْقهما أكبر مِن خَلْق الناس بَدْأةً وإعادةً ، فَمَن قَدَرَ على ذلك ، فهو قادر على ما دُونه بطريق الأَوْلَى والأحْرَى ، كما قال تعالى : ﴿ أوَلَم يَرَوْا أنَّ اللَّهَ الذي خَلَقَ السماواتِ والأرضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلى أن يُحْيِيَ الموتى بَلى إنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾[الأحقاف : ٣٣] . وقال هَهُنا : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأرضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون﴾ ، فلهذا لا يتدبَّرون هذه الحُجَّة ، ولا يتأمَّلونها ، كما كان كثير من العرب يَعترفون بأن اللَّه تعالى خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، ويُنكِرون المَعَادَ استبعادًا وكُفْرًا وعِنَادًا ، وقد اعترفوا بما هو أَوْلَى مِمَّا أنكَرُوا)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٠٩) : ((بيَّن سُبحانَه عظيمَ قُدرته ، فقال : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأرضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ ، أي : أعظمُ في النُّفُوس وأجَلُّ في الصُّدور لِعِظَم أجرامهما ، واستقرارهما مِن غَير عَمَد ، وجَرَيَان الأفلاك بالكواكب مِن غَير سَبَب ، فكَيف يُنكِرون البَعْثَ وإحياءَ ما هو دُونهما مِن كُل وَجْه ، كما في قَوله : ﴿ أوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السَّمَاواتِ والأرضَ بِقَادِرٍ عَلى أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس : ٨١]. قال أبو العالية : المعنى: لخَلْق السَّماوات والأرض أعظم مِن خَلْق الدَّجال حِين عظَّمته اليهود . وقال يحيى بن سلام : هو احتجاج على مُنكِري البعث، أي : هُما أكبر مِن إعادة خَلْق الناس ، ﴿ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون﴾ بعظيم قُدرة اللَّه، وأنَّه لا يُعجِزه شيء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُم طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُم ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُم تَعْقِلُون ﴾ [غَافِر : ٦٧] .

يُبيِّن اللَّهُ للناس قُدرته المُطْلَقَةَ ، حيث أوجدهم مِن العَدَم ، وخَلَقَهم وَفْق أطوار مُنظَّمة ومراحل دقيقة . خَلَقَ اللَّهُ آدمَ أباكم وأصْلَكم أيُّها الناسُ مِن تُرَاب. وجَعَلَ اللَّهُ خَلْقَ أبيهم خَلْقًا لهم ، لأنَّ الابن تابع لأبيه ، والفَرْع تابع للأصل . ثُمَّ خَلَقَ ذُرِّيةَ آدم مِن نُطْفة (مَنِيٍّ) ، ثُمَّ مِن دَم غَليظ ، ثُمَّ يُخرِجكم مِن بُطُون أُمَّهاتكم أطفالًا ، ثُمَّ يُبقيكم حَتَّى تَبلُغوا كَمَالَ قُوَّتكم وعَقْلكم ، من الثلاثين إلى الأربعين ، ثُمَّ لتُصبحوا في سِن الهَرَم والشَّيخوخة .

وقال الرازي في التفسير الكبير (٢٧/ ٨٥): ((رتَّب تعالى عُمُرَ الإنسان على ثلاث مراتب: الطُّفولة ، وبُلُوغ الأشُد ، والشَّيخوخة، وهذا ترتيب مُطابق للعَقْل، فإنَّ الإنسان في أوَّل عُمره يَكون في النَّماء والنُّشوء وهو المُسمَّى بالطُّفولة، إلى أن يَبلُغ إلى كَمَال النُّشُوء مِن غَير أن يَحصُل له ضَعْف،وهذا بُلُوغ الأشُد،ثُمَّ يَبدأ بالتَّراجع، ويَبدأ فيه الضَّعْف والنَّقْص، وهذه مَرتبة الشَّيخوخة)) .

ومِنكُم مَن يُتَوَفَّى قَبل أن يَخرُج إلى العَالَم ، وهو السِّقْط ، وَلِتَبْلُغُوا وَقْتًا مُحَدَّدًا مَعلومًا ، لا تُجاوزونه ، وهو أجل الحياة إلى المَوت ، أوْ يَوم القِيامة ، وكَي تَعقِلوا حُجَجَ اللَّه عَلَيكم ، وقُدْرَته المُطْلَقَةَ ، وتُؤْمنوا أنَّه الإله المُستحق للعِبادة ، وَحْدَه لا شريك له .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ تَدريج خَلْق الإنسان، ونَقْله عَبر هذه الأطوار،دليلٌ واضح على وُجود اللَّه، ووَحدانيته ، وقُدرته اللامحدودة ، وعِلْمه الشامل ، وإرادته النافذة في كُل شيء .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١١٢) : ((وقد بيَّن تباركَ وتعالى أنَّه لا يَستحق العِبادةَ أحدٌ سِوَاه في قَوله جَلَّتْ عَظَمَتُه : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُم طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُم ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ ، أي : هُوَ الذي يُقَلِّبكم في هذه الأطوار كُلِّها وَحْدَه، لا شريك له ، وعن أمره وتَدبيره وتَقْديره يَكون ذلك ، ﴿ وَمِنكُم مَن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ ﴾ ، أي : مِن قَبل أن يُوجَد ويَخرُج إلى هذا العَالَم ، بَل تُسقِطه أُمُّه سِقْطًا ، ومِنهُم مَن يُتَوَفَّى صَغيرًا وشابًّا وكَهْلًا قَبل الشَّيخوخة ، كقَوله تعالى : ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُم وَنُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ﴾ . وقال عَزَّ وَجَلَّ هَهُنا : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُم تَعْقِلُون ﴾ . قال ابن جُرَيج : تتذكَّرون البَعْثَ)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٤/ ٧١٣): ((... دليل من الأدلة على التَّوحيد، فقال: ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ﴾ ، أي: خَلَقَ أباكم الأوَّلَ، وهو آدم، وخَلْقه مِن تُراب يَستلزم خَلْق ذُرِّيته مِنه ﴿ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ قد تقدَّم تَفسير هذا في غَير مَوضع ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُم طِفْلًا ﴾ أي: أطفالًا، وأفرده لكَوْنه اسم جِنْس أوْ على مَعنى يُخرِج كُلَّ واحد مِنكُم طِفْلًا ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُم ﴾ وهي الحالة التي تجتمع فيها القُوَّة والعَقْل . ... . واللام التَّعليلية في ﴿ لِتَبْلُغُوا ﴾ مَعطوفة على عِلَّة أُخرى، ليُخرِجكم مُنَاسِبَة لها، والتَّقدير : لِتَكْبُرُوا شيئًا فشيئًا ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا غايةَ الكَمَال . وقَوله: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ مَعطوف على ﴿لِتَبْلُغُوا ﴾ . ... . والشَّيْخ مَن جَاوَزَ الأربعين سَنَة ، ﴿ وَمِنكُم مَن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ ﴾ ، أي : مِن قَبْل الشَّيخوخة ، ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أجَلًا مُسَمًّى ﴾ ، أي : وَقْت المَوت أوْ يَوم القِيامة ، واللام هي لام العَاقِبَة ، ﴿ وَلَعَلَّكُم تَعْقِلُون ﴾ ، أي: لِكَي تَعقِلوا تَوحيدَ رَبِّكم ، وقُدرته البالغة في خَلْقكم على هذه الأطوار المُختلفة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿هُوَ الذي يُحْيي وَيُمِيتُ فإذا قَضَى أمْرًا فإنَّما يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[غَافِر: ٦٨].

إنَّ اللَّه وَحْدَه هو القادر على الإحياء والإماتة . يُحْيي الأمواتَ ، ويُميت الأحياءَ ، فإذا أرادَ فِعْلَ أمر مِن الأُمور، فإنَّ الأمر يُوجَد فَوْرًا بلا تأخير، ولا تعب ، ولا مُعاناة. وما شاءَ كان لا مَحَالة، ولا يَقف أمام إرادة اللَّه شيء .

وهذا تَمثيل لكمال قُدرة اللَّه،وتأثيرها في الأشياء عِند تعلُّق إرادته بها،ولَيس هُناك أمر ولا مأمور.

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٧٦) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه مُحمَّد ﷺ : قُل لهم يا مُحمَّد : ﴿هُوَ الذي يُحْيي وَيُمِيتُ ﴾ . يَقول : قُل لهم : ومِن صِفَته جَلَّ ثناؤه أنَّه هو الذي يُحْيي مَن يَشاء بَعد مَمَاته ، ويُمِيت مَن يَشاء مِن الأحياء بَعد حَيَاته ، و﴿ فإذا قَضَى أمْرًا ﴾ . يَقول : فإذا قَضَى كَوْن أمر مِن الأُمور التي يُريد تكوينها ﴿ فإنَّما يَقُولُ لَهُ كُن ﴾ ، يعني: للذي يُريد تكوينَه كُن، فيَكون ما أراد تكوينَه مَوجودًا بغَير مُعاناة ، ولا كُلفة مُؤنة .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أتْقَاكُم إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحُجُرات : ١٣] [١٠٧].

الخِطَابُ الإلهيُّ لجميع البَشَر . يا أيُّها الناسُ ، إنَّ اللَّه المُتَّصف بالقُدرة المُطْلَقَة خَلَقَكم مِن آدم وحوَّاء ، وكُلُّكم أبناء أب واحد وأُمٍّ واحدة ، فلا تفاخُر بينكم بالآباء ، ولا تفاضُل بينكم في النَّسَب ، أصْلُكم واحد ، والكُل سَوَاء ، وأنتم مُتساوون في النَّسَب، كُلُّكُم لآدم ، وآدم مِن تُراب. وهذا زَجْر عَن التَّفَاخُر بالآباء والأجداد والحَسَب والنَّسَب .

---

١٠٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٧٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثَى ﴾ ، في سبب نُزولها ثلاثة أقوال : أحدها نزلت في ثابت بن قَيس ، وقَوله في الرَّجُل الذي لم يُفسِح له:أنتَ ابنُ فُلانة،وقد ذَكَرْناه عن ابن عباس في قَوله: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْم ﴾[الحُجُرات: ١١]. والثاني أنَّه لَمَّا كان يَوم الفَتْح أمرَ رسولُ اللَّه ﷺ بِلالًا ، فَصَعِدَ على ظَهْر الكَعْبة فأذَّن، وأرادَ أن يُذِلَّ المشركين بذلك، فلمَّا أذَّن قال عَتَّاب بن أَسِيد: الحمدُ للَّه الذي قَبَضَ أَسِيدًا قَبْلَ اليَوم، وقال الحارث ابن هشام: أمَا وَجَدَ محمَّد غَيْرَ هذا الغُراب الأسود مُؤَذِّنًا، وقال سُهَيل بن عَمْرو:إن يَكْرَه اللَّهُ شيئًا يُغَيِّرْه . وقال أبو سُفيان : أمَّا أنا فلا أقول شيئًا، فإنِّي إن قُلتُ شيئًا لَتَشْهَدَنَّ عليَّ السماءُ، وَلَتُخْبِرَنَّ عَنِّي الأرضُ، فنزلت هذه الآية ، قاله مُقاتل. والثالث أنَّ عَبْدًا أسْوَد مَرِضَ فعاده رسولُ اللَّه ﷺ ، ثُمَّ قُبض فَتَوَلَّى غَسْلَه وتكفينَه ودَفنَه ، فأثَّر ذلك عِند الصَّحابة ، فنزلت هذه الآية ، قاله يَزيد بن شَجَرة)) .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٩٧) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : يا أيُّها النَّاس إنَّا أنْشَأنا خَلْقَكم مِن ماءٍ ذَكَر مِن الرِّجال ، وماءٍ أُنثى مِن النِّساء)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٩٥) : ((قَوله : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثَى ﴾ ، هُما آدم وحَوَّاء ، والمَقصود أنَّهم مُتساوون ، لاتِّصالهم بنَسَب واحد ، وكَوْنه يَجْمَعهم أَب واحد ، وأُم واحدة ، وأنَّه لا مَوضع للتَّفاخر بينهم بالأنساب . وقِيل المعنى : أنَّ كُل واحد مِنكم مِن أَب وأُم ، فالكُل سَوَاء)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٠١٩) : ((أي : كُلُّكُم بَنُو أَب واحد ، وأُم واحدة ، فلا تَفَاضُل بَينكم في النَّسَب)) .

﴿ وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ . الحِكمةُ مِن وُجود الشُّعوب والقَبائل هي التَّعَارُف والتَّآلُف والتعاوُن ، وليس التناحر والعصبيات الجاهلية والتفاخر بالأحساب والأنساب ، والاستعلاء بالباطل ، والتَّكَبُّر على الناس ، فجميعُ الناس سَوَاء مِن حَيث نِسبتهم إلى الطِّين ، لكنَّهم يتفاوتون في التَّقوى ، وهذا هو مِعيارُ التفاضُل بينهم ، وما سِواه لا يُعْتَدُّ به . ويظل التعاونُ هو الشِّعار المَرفوع بين بني البشر بغض النظر عن اختلاف أديانهم وأجناسهم وأعراقهم .

لا يَقُولَنَّ امرؤٌ أصْلِي فما أصْلُهُ مِسْكٌ وأصْلُ النَّاسِ طِين

جَعَلَ اللَّهُ الناسَ شُعوبًا مُختلفة،وقبائل مُتعدِّدة، ليتحقَّق التعارُف والتعاوُن، لا التناحُر والتنازُع ، ومِن أجل أن يَعرِف الإنسانُ نَسَبَه ، فلا يُنسَب إلى غَير آبائه ، ومِن أجل أن يَعرِف بعضُكم بَعْضًا في قُرْب النَّسَب وبُعْده، يُقَال: فُلان بن فُلان، مِن قَبيلة كَذا . والمعنى : جَعَلَكم اللَّهُ شُعُوبًا وقبائل مِن أجل التعارُف لا التفاخُر، لأنَّ الشَّرَف والفَخْر في التَّقْوى لا النَّسَب .

وفي حاشية شيخ زاده على البَيضاوي (٣/ ٣٧٥) : ((والمَعنى: إنَّ الحِكمة التي مِن أجلها جَعَلَكم على شُعُوب وقَبَائل هي أن يَعرِف بَعْضُكم نَسَبَ بَعْض ، ولا يَنسُبه إلى غَير آبائه ، لا أن تتفاخر بالآباء والأجداد ، والنَّسَبُ وإن كان يُعْتَبَر عُرْفًا وشَرْعًا ، حَتَّى لا تُزوَّج الشريفة بالنبطيِّ (الشَّخْص الذي يَستخرج الماءَ مِن قَعْر البِئر إذا حُفرت) ، إلا أنَّه لا عِبْرة به عِند ظُهُور ما هو أعظم قَدْرًا مِنه وأعز ، وهو الإيمان والتَّقْوى ، كما لا تَظهَر الكواكب عِند طُلوع الشَّمس)) .

والشُّعُوبُ (رُؤوس القبائل) جَمْع شَعْب ، وهو الحَي العظيم ، مِثل : مُضَر وربيعة ، والقبائل دُون الشُّعُوب كبَكْر مِن ربيعة ، وتميم مِن مُضَر . وسُمِّيَت الشُّعُوب لأنَّ القبائل تشعَّبت مِنها .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٨٧) : عن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : ﴿ وجعلناكم شُعوبًا وقبائل ﴾ . قال : ((الشُّعُوبُ القَبائلُ العِظَام ، والقَبائلُ البُطُونُ)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٩) : ((الشَّعْب : الجَمْع العظيم المُنتسِبون إلى أصل واحد ، وهو يَجْمَع القَبائلَ . والقَبيلة تَجْمَع العمائر ، والعِمَارة تَجْمَع البُطُون ، والبَطْن تَجْمَع الأفخاذ ، والفَخِذ يَجْمَع الفصائل . فَخُزَيْمة شَعْب ، وكِنانة قَبيلة ، وقُرَيْش عِمَارة ، وقُصَي بَطْن، وهاشم فَخِذ ، وعَبَّاس فَصِيلة . وقِيل : الشُّعُوب بُطُون العَجَم ، والقبائل بُطُون العرب)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٩٥) : ((قال الجَوْهري : الشَّعْب ما تَشَعَّبَ مِن قبائل العَرَب والعَجَم . والجَمْع الشُّعُوب . وقال مُجاهد : الشُّعوب البعيد مِن النَّسَب ، والقبائل دُون ذلك . وقال قَتادة : الشُّعُوب النَّسَب الأقرب . وقِيل : إنَّ الشُّعُوب عَرَب اليَمَن مِن قَحْطَان ، والقَبائل مِن رَبيعة ومُضَر وسائر عَدْنان . وقِيل : الشُّعُوب بُطُون العَجَم ، والقَبَائل بُطُون العَرَب . وحكى أبو عُبَيد أنَّ الشَّعْب أكثر مِن القُبيلة ، ثُمَّ القَبيلة ، ثُمَّ العِمَارة ، ثُمَّ البَطْن ، ثُمَّ الفَخِذ ، ثُمَّ الفَصِيلة ، ثُمَّ العَشيرة ، ومِمَّا يُؤَيِّد ما قاله الجمهور مِن أنَّ الشَّعْب أكثر مِن القَبيلة قَول الشاعر:

قَبائلُ مِن شُعوب لَيس فِيهم كريم قد يُعَدُّ ولا نَجِيب)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/٢٩٢): ((خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ بَين الذَّكَر والأُنثى أنسابًا وأصهارًا، وقبائل وشُعوبًا ، وخَلَقَ لهم مِنها التَّعارف، وجَعَلَ بها التواصل للحِكمة التي قدَّرها وهو أعلم بها ، فصار كُل أحد يَحُوز نَسَبَه، فإذا نَفَاه رَجُل عنه استوجبَ الحَدَّ بقَذْفه ، مِثل أن يَنْفِيَه عَن رَهْطه وحَسَبه ، بقَوله للعربي : يا عَجَمي ، وللعَجَمي : يا عربي ، ونَحْو ذلك مِمَّا يقع به النَّفْي حقيقةً)).

﴿ إنَّ أكْرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أتْقَاكُم ﴾ . إنَّ أكرم الناس وأشرفهم عِند اللَّه أتقاهم له، الذين يُطيعونه ولا يَعصُونه . والتَّفَاضُلُ بَيْن الناس إنَّما هو بالتَّقْوى لا الأنساب . ومَن أرادَ الشَّرَفَ والمَجْدَ والعِزَّ في الدُّنيا والآخِرة ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ تعالى ، بامتثال أوامره ، واجتناب نَوَاهيه .

وعن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ :قِيل: يا رسول اللَّهُ، مَن أكرمُ الناسِ؟،قال: ((أتقَاهُم)) [١٠٨].

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٩٧):((يَقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ أكرمكم أيُّها النَّاس عِند رَبِّكم أشَدُّكم اتِّقَاءً له بأداء فرائضه ، واجتناب مَعَاصيه ، لا أعْظَمُكُم بَيْتًا ، ولا أكْثَرُكُم عَشيرةً)) .

---

١٠٨ متفق عليه . البخاري (٣/ ١٢٢٤) برقم (٣١٧٥)، ومسلم (٤/ ١٨٤٦) برقم (٢٣٧٨) .

إنَّ المنهج الإسلاميَّ واضح في تأسيس مِعيار التَّفاضُل بين الناس وَفْقَ درجة التَّقْوى ، لذلك ألغى العَصَبِيَّةَ القَبَلِيَّة ، وذَمَّ العقليةَ الجاهلية في التفاخر بالأحساب والأنساب ، وصَرَفَ الجُهُودَ البشرية نحو تحقيق معنى التَّقْوى ، الذي هو أشرف معنى ، والمِقياس الحقيقي بَين الناس ، أمَّا المقاييسُ الظاهرية المُعْتَمِدَة على حَجْم الثَّروة ، وقُوَّة العَشيرة ، فلا وزن لها عِند التَّمحيص .

وهذا أدَّى إلى إخراج العرب من الجاهلية القائمة على التفاخر برابطة الدَّم ، المُعتمِدة على الرِّياء والمظاهر الخادعة ، إلى قيمة التقوى التي هي سِر بَين العَبد وربِّه، لأنَّ التقوى مَحَلُّها القلب، ولا أحد يعرف ما في القلوب سِوى خالقها ، وهكذا نرى أن الإخلاص للَّهِ قد حَلَّ مكان الرِّياء والتَّفَاخُرِ الدُّنيوي بالآباء الغابرين .

وعن ابن عُمر ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((أمَّا بَعْدُ أيُّها الناس ، فإنَّ اللَّه قد أذهبَ عَنكُم عُبِّيَّةَ الجاهلية ــ يَعْني كِبْرَها ــ . يا أيُّها الناسُ ، إنَّما الناسُ رَجُلان : بَرٌّ تقيٌّ كريمٌ على رَبِّه ، وفاجرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ على رَبِّه)) ، ثُمَّ تلا ﴿ يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذَكَر وأنثى وجعلناكم شُعوبًا وقبائل لِتَعارَفوا ﴾ ، حتى قَرأ الآيةَ [١٠٩].

أزالَ اللَّهُ عَنكُم كِبْرَ الجاهلية، والفَخْرَ بالآباء . والمُفَاضَلَةُ بين الناس قائمة على أساس التَّقْوَى لا النَّسَب . والحديثُ يَنْهَى عَن الكِبْر والتَّفَاخُر ، ويَدعو إلى التزام أوامر اللَّه ، واجتناب نَوَاهيه .

عَلَيْكَ بِتقوى اللَّهِ في كُلِّ حَالةٍ ولا تَترك التَّقوى اتِّكَالًا على النَّسَبِ
فقد رَفع الإسلامُ سَلمانَ فارس وقد وَضَعَ الكُفْرُ الشَّريفَ أبا لَهَبِ

وفي تُحفة الأحوذي عَن رِواية التِّرمذيِّ (١٠/ ٣١٦ و٣١٧) : (((إنَّ اللَّه أذهبَ) أي أزالَ وَرَفَعَ (عُبِّيَّةَ الجاهلية) ... ، أي نَخْوتها وكِبْرها . قال الخَطَّابي : العُبِّيَّة الكِبْر والنَّخْوة. ... . (وفَخْرَها) أي افتخار أهل الجاهلية في زمانهم (إنَّما هُوَ) أي المُفتخِر المُتكبِّر بالآباء (مُؤمِنٌ تَقِيٌّ وفَاجِرٌ شَقِيٌّ) . قال الخَطَّابي : مَعناه أنَّ الناس رَجُلان مؤمن تقيٌّ ، فهو الخَيِّر الفاضل ، وإن لم يكن حَسِيبًا في قَوْمه ، وفاجر شقيٌّ فهو الدَّنيء ، وإن كان في أهله شريفًا رفيعًا . انتهى . وقِيل: مَعناه إنَّ المُفتخِر المُتكبِّر إمَّا مؤمن تقيٌّ ، فإذن لا يَنبغي له أن يتكبَّر على أحد ، أوْ فاجر شقيٌّ فهو ذليل عِند اللَّه ، والذليل لا يَستحق التَّكَبُّر ، فالتَّكَبُّر مَنْفِيٌّ بكل حال (الناس كُلُّهم بنو

---

١٠٩ رواه ابن حِبَّان في صحيحه(٩/ ١٣٧).وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٥٢٧): ((ورجاله ثقات)).

آدم وآدمُ خُلِقَ مِن تُراب) أي : فلا يَلِيق بمَن أصله التُّراب النَّخْوة والتَّجَبُّر ، أوْ إذا كان الأصل واحدًا ، فالكُل إخوة ، فلا وجه للتَّكَبُّر ، لأنَّ بَقِيَّة الأُمور عارضة ، لا أصل لها حقيقةً ، نِعْمَ العاقبة للمُتَّقين ، وهي مُبْهَمَة ، فالخَوْفُ أَوْلَى للسَّالِك مِن الاشتغال بهذه المَسَالِك)) .

وصَدَقَ عليُّ بن أبي طالب ــ رضي اللَّهُ عنه ــ إذْ يَقول :

النَّاسُ مِن جَهة التَّمثيل أكفاءُ ... أبوهم آدمُ والأُمُّ حَوَّاءُ
نَفْسٌ كَنَفْسٍ وأرواحٌ مُشَاكَلَةٌ ... وأعْظُمٌ خُلِقَتْ فِيهم وأعضاءُ
فإن يَكُنْ لهم مِن أصْلِهم حَسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فالطِّينُ والمَاءُ
ما الفَضْلُ إلا لأهلِ العِلْمِ إنَّهُم ... على الهُدى لِمَن استهدى أدِلَّاءُ
وقَدْرُ كُل امرئٍ ما كان يُحسِنه ... وللرِّجَالِ على الأفعالِ سِيماءُ
وضِدُّ كُل امرئ ما كان يَجهَله ... والجاهلون لأهلِ العِلْمِ أعداءُ

والتَّقْوى لا تَنْفي رابطةَ الدَّم . فالعائلةُ لها احترامها في المنظور الإسلاميِّ ، والنَّسَب له اعتبارُه شَرْعًا وعُرْفًا ، ولكن ليس على حِساب الشَّريعة . فالعربُ قبائل ، وهذا دليلٌ على التماسك الأسري ، والوَحدةِ الاجتماعية . لكن الإسلام نقل مفهوم القبيلة مِن العُنصرية والكِبْر إلى مفهوم القُوة المجتمعية الحاملة لرسالة التَّوحيد . فالقبيلةُ ليست دَولةً داخل الدَّولة الإسلامية ، لأن ذلك سَيُؤَدِّي إلى النِّزاع والتضارب في السُّلطات فيتمزَّق المجتمع . وليست القبيلة مصدرًا للتشريع ، لأنَّ القُرآن والسُّنَّة هُما مَصدرا التَّشريع . وهكذا وَضَعَ الإسلامُ حُدُودًا للقبيلة لئلا تتجاوزها فتقع في المحظور ، وتنهار التراكيب المجتمعية ، وتسقط إنسانيةُ الأفراد ، وتتمزَّق قُوَّةُ الجماعة .

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال مُتَحَدِّثًا عن اللَّهِ تعالى : ((خَلَقَ الخَلْقَ ، فاختارَ مِن الخَلْقِ بني آدم ، واختارَ مِن بني آدمَ العَرَبَ ، واختارَ مِن العَرَبِ مُضَرَ ، واختارَ مِن مُضَرَ قُرَيْشًا ، واختارَ مِن قُرَيْشٍ بني هاشم ، واختارني مِن بني هاشم ، فأنا مِن خِيار إلى خِيار ، فَمَن أحَبَّ العَرَبَ فَبِحُبِّي أَحَبَّهم ، ومَن أبْغَضَ العَرَبَ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُم)) [١١٠] .

هذا هو الاصطفاءُ الحقيقيُّ ، والصَّفوة الاجتماعية التي اختارها اللَّهُ تعالى، ولَم يَخترعها البَشَرُ بدافع نَقَاء العِرْق أوْ طَهَارة النَّسَب . فهذا اختيارٌ إلهيٌّ لا علاقة للبشر به .

---

١١٠ رواه الطبراني (١٢/ ٤٥٥) برقم (١٣٦٥٠)، وحسَّنه ابن حجر في الأمالي المطْلقة (١/ ٦٨).

والنبيُّ ﷺ صَفْوة الصَّفْوة ، والذي تَنَقَّلَ عَبْر الأنساب الشَّريفة الطاهرة المُختارة . ولا تَخفَى مكانة العَرَب في هذا السِّياق، وارتباطهم الوثيق بالنبيِّ ﷺ الذي خرج منهم . ومَن أحبَّ العَرَبَ فذلك بسبب النبيِّ ﷺ ، واعترافًا بفَضْله وشَرَفه وتقديمًا له على الجميع ، ومَن أبغضَ العَرَبَ فَبُغْضُه مَرجعه إلى بُغْض النبيِّ العربيِّ ﷺ. وهذا يَدفعنا إلى محبَّة العرب وتقديمهم ، والاعتراف بمكانتهم التي وَضَعَهم اللَّهُ فِيها إكرامًا للنبيِّ ﷺ ، وتشريفًا لهم على سائر الأُمَم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ . إنَّ اللَّهَ عليمٌ بأحواكم ، مُطَّلِعٌ على أعمالكم الظاهرة والباطنة ، خَبيرٌ بسِرِّكم وعلانيتكم ، لا يَغيب عنه أمر ، ولا تَخفَى عليه خافية . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٩٧) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : إنَّ اللَّه أيُّها الناسُ ذُو عِلْم بأتقاكم عِند اللَّه ، وأكرمِكم عِنده ، ذُو خِبرة بكم وبمصالحكم وغَير ذلك مِن أُموركم ، لا تَخفَى عليه خافية)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٧٧) عن الآية كاملةً : ((يَقول تعالى مُخْبِرًا للناس أنَّه خَلَقَهم مِن نَفْس واحدة ، وجَعَلَ مِنها زَوْجَها ، وهُمَا آدم وحَوَّاء ، وجَعَلَهم شُعُوبًا ، وهي أعَمُّ مِن القبائل ، وبعد القبائل مراتب أُخَر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغَير ذلك . وقِيل : المُراد بالشُّعوب بُطُون العَجَم ، وبالقبائل بُطُون العَرَب ، كما أن الأسباط بُطُون بني إسرائيل ، ... . فجميع الناس في الشَّرَف بالنِّسبة الطينية إلى آدم وحَوَّاء عليهما السلام سَوَاء ، وإنَّما يتفاضلون بالأُمور الدينية ، وهي طاعة اللَّه تعالى ، ومُتابعة رسوله ﷺ ، ولهذا قال تعالى بعد النَّهْي عَن الغِيبة واحتقار بعض الناس بَعْضًا ، مُنَبِّهًا على تَساويهم في البشرية : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ أي: لِيَحْصُل التعارف بَيْنهم ، كُلٌّ يرجع إلى قَبيلته . وقال مُجاهد في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ ، كَما يُقَال : فُلان بن فُلان ، مِن كذا وكذا ، أي قبيلة كذا وكذا . وقال سُفيان الثَّوري:كانت حِمْيَر ينتسبون إلى مَخاليفها ، وكانت عَرَب الحِجَاز يَنتسِبون إلى قبائلها . وقد قال أبو عيسى التِّرمذي : حَدَّثنا أحمد بن مُحمَّد حَدَّثنا عبد اللَّه ابن المُبَارَك عن عبد المَلِك بن عيسى الثَّقَفي عن يزيد مَوْلَى المُنبعث عن أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه عن النبيِّ ﷺ قال : " تَعَلَّمُوا مِن أنسابكم ما تَصِلُون به أرحامَكم ، فإنَّ صِلَة الرَّحِم مَحَبَّة في الأهل ، مَثْرَاة في المال ، مَنْسَأة في الأثَر " . ثُمَّ قال : غريب لا نَعرِفه إلا مِن هذا الوجه . وقَوله تعالى : ﴿ إنَّ أكْرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أتْقَاكُم ﴾ ، أي : إنَّما تتفاضلون عِند اللَّه تعالى بالتَّقْوى لا بالأحساب . وقد وَرَدَت الأحاديث بذلك عن رسول اللَّه ﷺ، قال البُخاري : حَدَّثنا محمد بن سَلَّام حَدَّثنا عَبْدة عن عُبَيد اللَّه عن سعيد بن أبي سعيد رضي اللَّهُ عنه عن أبي هريرة قال : سُئل رسول اللَّه ﷺ : أيُّ

الناسِ أكرم ؟ ، قال : " أكرمهم عند الله أتقاهم " ، قالوا : لَيس عَن هذا نَسألك . قال : " فأكرمُ الناسِ يُوسُفُ نبيُّ اللَّه ، ابنُ نبيِّ اللَّه ، ابنُ نبيِّ اللَّه ، ابنُ خليل اللَّه " ، قالوا : لَيس عن هذا نسألك، قال : " فَعَن مَعَادِنِ العرب تسألوني ؟ " ، قالوا : نعم ، قال : " فَخِيَاركم في الجاهلية خِيَاركم في الإسلام إذا فَقِهُوا " . ... . (حديث آخَر) قال مُسلم رحمه اللَّهُ حَدَّثنا عمرو الناقد حدَّثنا كَثِير ابن هِشَام ، حدَّثنا جَعفر بن بُرقان ، عن يزيد بن الأصَم ، عن أبي هريرة رضي اللَّهُ عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : " إنَّ اللَّه لا ينظُر إلى صُوَركم وأموالكم ، ولكن ينظُر إلى قُلوبكم وأعمالكم". ... . وقَوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، أي: عَلِيم بِكُم، خَبير بأُموركم، فيَهْدي مَن يَشاء، ويُضِل مَن يَشاء، ويَرحم مَن يَشاء، ويُعذِّب مَن يَشاء ، ويُفَضِّل مَن يَشاء على مَن يَشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كُلِّه . وقد استدلَّ بهذه الآية الكريمة مَن ذهب مِن العُلَماء إلى أنَّ الكَفَاءة في النِّكاح لا تُشْتَرَط، ولا يُشْتَرَط سِوى الدِّين لقَوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم ﴾ ، وذهب الآخرون إلى أدلة مَذكورة في كُتب الفِقْه ، وقد ذَكَرْنا طَرَفًا مِن ذلك في(كتاب الأحكام)، وللَّهِ الحَمْدُ والمِنَّة ، وقد روى الطبراني عن عبد الرحمن أنَّه سَمع رَجُلًا مِن بني هاشم يقول : أنا أَوْلَى الناس برسول اللَّه ﷺ ، فقال غَيْرُه : أنا أَوْلَى بِه مِنكَ ، وَلي مِنه نِسبة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنثَى ﴾ [النَّجْم : ٤٥] .

خَلَقَ اللَّهُ الصِّنْفَيْن الذَّكَرَ والأُنثى مِن أولاد آدم ، ومِن جَميع الحَيَوَانات .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٥٣٥) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : وأنَّه ابتدعَ إنشاءَ الزَّوْجَيْن الذَّكَر والأُنثى ، وجَعَلَهما زَوْجَيْن ، لأنَّ الذَّكَر زَوْج الأُنثى ، والأُنثى له زَوْج ، فهُما زَوْجَان ، يَكُون كُل واحد مِنهما زَوْجًا للآخَر)) .

وقال الخازن في تفسيره (٤/ ٢٢٤) : ((والغَرَض أنَّه تعالى هو القادر على إيجاد الضِّدَّيْن في مَحَل واحد : الضَّحِك والبُكَاء (انظُر الآية ٤٣) ، والإحياء والإماتة (انظُر الآية ٤٤) ، والذَّكَر والأُنثى ، وهذا شيء لا يَصِل إلَيه فَهْم العُقَلاء ولا يَعْلَمُونه ، وإنَّما هو بقُدرة اللَّه تعالى وخَلْقه لا بفِعل الطبيعة ، وفِيه تنبيه على كَمَال قُدرته ، لأنَّ النُّطفة شيء واحد خَلَقَ اللَّهُ مِنها أعضاء مُختلفة ، وطِبَاعًا مُتباينة ، وخَلَقَ مِنها الذَّكَرَ والأُنثى ، وهذا مِن عَجيب صَنعته ، وكَمَال قُدرته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مِن نُطْفَةٍ إذا تُمنَى ﴾ [النَّجْم : ٤٦] .

خَلَقَ اللَّهُ الذَّكَرَ والأُنثى مِن نُطفة ، تَدْفُق مِن صُلْب الرَّجُل ، وتُصَبُّ في رَحِم المَرأة ، أوْ يُخلَق ويُقَدَّر مِنها الوَلَد .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥/ ١٦٥) : ((﴿ وأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنثَى (٤٥) مِن نُطْفَةٍ إذا تُمنَى (٤٦) ﴾ ، المُراد بالزَّوْجَيْن الذَّكَر والأُنثى مِن كُل حَيَوَان ، ولا يَدخُل في ذلك آدم وحَوَّاء ، فإنَّهما لَم يُخلَقا مِن النُّطفة ، والنُّطفة الماء القليل . ومعنى ﴿ إذا تُمنَى ﴾ إذْ تُصَبُّ في الرَّحِم ، وتَدْفُق فيه ، كذا قال الكَلْبي والضَّحاك وعطاء بن أبي رباح وغَيرهم. يُقَال: مَنَى الرَّجُلُ وأمنى ، أي : صَبَّ المَنِيَّ. وقال أبو عُبَيدة ﴿ إذا تُمنَى ﴾ إذا تُقَدَّر ، يُقَال : مَنَيْت الشَّيْءَ ، إذا قَدَّرْته ، ومَنَى له ، أي : قَدَّرَ له . ومِنه قَول الشاعر : حَتَّى تُلاقِيَ ما يَمْنِي لَكَ المَاني (القَادر) . والمَعنى : أنَّه يُقَدِّر مِنها الوَلَدَ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ [المَعَارِج : ١٩] .

يُبيِّن اللَّهُ طبيعةَ الإنسان ، حَيث جُبِلَ على الحِرْص الشديد على جَمْع حُطَام الدُّنيا الفاني ، والاستحواذ عَلى مَتَاعها الزائل ، والتَّمَسُّك بِه بكل الوسائل المشروعة وغَير المشروعة .

إنَّ الإنسان خُلِقَ حَرِيصًا بَخِيلًا ، ضَيِّق القَلْب ، شَدِيد الحِرْص ، قليل الصَّبْر ، لا يَصبِر على البَلاء ، ولا يَشكُر على النَّعْماء . والهَلَعُ هُوَ الجَزَع مَعَ شِدَّة الحِرْص والضَّجَر . وبعبارة أُخرى ، إنَّ الهَلَعَ أشدُّ الحِرْص وأسوأ الجَزَع .

والإنسانُ مَجبول على هذا الخُلُق الدَّنيء ، فهو حريص لا يَصبِر ولا يَشكُر . إذا أصابه شَرٌّ جَزِعَ واضطربَ وفَقَدَ اتِّزانَه ، وإذا أصابه خَيْرٌ بَخِلَ به ، وتَمَسَّكَ به بأظافره وأسنانه . لذلك لا بُدَّ للعبد أن يُصارع رَغباتِه الجامحة، ويُكافح أهواءه المُتضارِبة إذا أراد النَّجَاةَ والوُصُول إلى بَر الأمان.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٦٣) : ((وفي الهَلُوع سبعة أقوال : أحدها أنَّه المَوصوف بما يَلِي هذه الآية ، رواه عَطِيَّة عن ابن عباس، وبه قال أبو عُبَيدة والزَّجاج . والثاني أنَّه الحَريص على ما لا يَحِلُّ له، رواه أبو صالح عن ابن عباس.والثالث البَخِيل،قاله الحَسَن والضَّحاك. والرابع الشَّحِيح، قاله ابن جُبَير . والخامس الشَّرِه ، قاله مُجاهد . والسادس الضَّجُور، قاله عِكرمة وقَتادة ومُقاتل والفَرَّاء . والسابع الشَّديد الجَزَع ، قاله ابن قُتَيبة)) .

وعن أبي هُرَيرةـ رضي اللَّهُ عنهـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((شَرُّ ما في الرَّجُلِ شُحٌّ هَالِع ، وجُبْنٌ خَالِع)) [١١١].

---

١١١ رواه ابن حِبَّان في صحيحه (٨/ ٤٢) برقم (٣٢٥٠)، وأبو داود (٢/ ١٥)برقم (٢٥١١)، وقال العراقي في تخريج الإحياء (٣/ ١٩٥) : ((أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جَيِّد)) .

هذا الشُّحُّ الهَالِع (المُحْزِن) يَحْمِل الرَّجُل على التَّمَسُّك بالمَال بكل الوسائل والأساليب ، والجَزَعُ الشَّديد عِند فقدانه وخسارته ، أمَّا الجُبْنُ الخَالِع فهو الشَّديد ، كأنَّه يَخلَع قَلْبَه مِن شِدَّة خَوْفه ، نَتيجة غِيَابِ الثِّقَة بالنَّفْس ، وكَثرةِ الوساوس والهواجس المُثَبِّطَة .

وفي عَون المَعبود (٧/ ١٣٤) : (((شُح هَالِع) قال الخَطَّابي: أصل الهَلَع الجَزَع ، والهالع هاهُنا ذُو الهَلَع،ويُقَال إنَّ الشُّح أشد مِن البُخْل الذي يَمنعه مِن إخراج الحق الواجب عليه، فإذا اسْتُخْرِجَ منه هَلِعَ وجَزِعَ. انتهى. وقال في المَجمَع:الهَلَع أشد الجَزَع والضَّجَر (وجُبْن خَالِع) أي شديد، كأنَّه يَخلَع فؤادَه مِن شِدَّة خَوْفه، والمُراد به ما يَعرِض مِن نوازع الأفكار وضَعْف القلب عِند الخَوف، كذا في المَجمَع. وقَوله : (شَر ما في رَجُل) مُبتدأ ، وخَبَره قَوله: (شُح هَالِع))) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ١٦٠) : (((شَرُّ ما في رَجُل) أي مساوئ أخلاقه (شُح هَالِع) أي جَازِع يعني شُحًّا يَحمِل على الحِرص على المال والجَزَع على ذهابه. وقِيل هو أن لا يَشبَع ،كُلَّما وَجَدَ شيئًا بَلَعَه ولا قَرَار له ، ولا يتبيَّن في جَوفه، ويَحرِص على تهيئة شيء آخَر. قال التوربشتي : والشُّح بُخْل معَ حِرْص، فهو أبلغ في المَنع مِن البُخْل،فالبُخْل يُستعمَل في الضِّنَّة بالمَال، والشُّح في كُل ما يَمنع النَّفْسَ عن الاسترسال فِيه مِن بَذل مال أو معروف أو طاعة. قال : والهَلَعُ أفحشُ الجَزَع، ومعناه أنَّه يَجزَع في شَحَّة أشد الجَزَع على استخراج الحق مِنه . قالوا : ولا يَجتمع الشُّح مع معرفة اللَّه أبدًا، فإن المانع من الإنفاق والجُود خَوْف الفقر، وهو جهل باللَّه وعدم وُثُوق بوَعْده وضَمانه ، ومَن تحقَّق أنَّه الرزاق لم يَثِقْ بغَيره . ومِن ثَمَّة قال بعضُ الصُّوفية : الأغنياء يَثِقُون بالأرزاق ، والفُقَراء يَثِقُون بالخَلَّاق (وجُبْن خَالِع) أي شديد كأنَّه يَخلَع فؤادَه مِن شِدَّة خَوْفه، والمُراد به ما يَعرِض مِن أنواع الأفكار وضَعْف القلب عِند الخَوف، مِن الخَلْع وهو نَزْع الشَّيء عن الشَّيء بقُوَّة ، يعني حِين يَمنعه مِن مُحاربة الكُفَّار ، والدُّخول في عمل الأبرار ، فكأنَّ الجُبْن يَخلَع القُوَّةَ والنَّجدةَ مِن القلب، أوْ يَخلَع المُتَّصف بِه عَن كَونه مِن الفُحُول، أوْ يَخلَع الشَّجاعةَ ويذهب بها، لأنَّه إذا كان وَثَّابًا هَجَّامًا في الغَمَرَات، كان أعظمَ الناس منزلة عِند اللَّه. قال الطيبي : والفَرق بَين وَصف الشُّح بالهَلَع، والجُبْن بالخَلْع، أنَّ الهَلَع في الحقيقة لصاحب الشُّح، فأسندَ إليه مَجَازًا، فهُما حقيقتان لكنَّ الإسناد مَجَازي ، ولا كذلك الخَلْع،إذْ لَيس مُخْتَصًّا بصاحب الجُبْن حتى يسند إليه مجازًا، بل هو وَصْف للجُبْن،لكن على المَجَاز حيث أُطلِق وأُرِيد به الشِّدة . وإنَّما قال:" شَرُّ ما في الرَّجُل" ولَم يَقُل: في الإنسان، لأن الشُّح والجُبْن مِمَّا تُحمَد عليه المَرأة ، ويُذَم به الرَّجُل ، أوْ لأنَّ الخَصْلَتَيْن يَقعان مَوقع الذَّم مِن الرِّجال فَوق ما يَقَعَان مِن النِّسَاء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ [المَعَارِج : ٢٠] .

إذا نَـزَلَ بالإنسـان مَكـرُوه مِثـل : الفَقْـر ، المَـرَض ، ونَحْـو ذلـك ، فإنَّـه يَجـزَع ، ويَضـطرب ، وينهار ، ويَخاف ، ويُصاب باليأس والقُنُوط ، ولا يَصبِر ، ولا يَحتسِب ، ويَفقِد السَّيطرةَ على نِظام حياته ، ولا يَستطيع التَّحَلِّي بالهُدُوء والسَّكِينة والصَّبْر ، وإعادة تَنظيم حَيَاته ، وتصحيح مَسَاره .

والجَزُوعُ شَدِيد الجَزَع ، وهو ضَعْف النَّفْس عن احتمال ما يَنزِل بها مِن مَكرُوه .

وقـال الطبـري فـي تفسـيره (١٢/ ٢٣٤) : ((وقَولـه : ﴿ إذا مَسَّـهُ الشَّـرُّ جَزُوعًـا ﴾ ، يَقـول : إذا قَلَّ مالُه ، وناله الفَقْرُ والعَدَمُ ، فَهُوَ جَزُوع مِن ذلك ، لا صَبْرَ لَه عَلَيه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المَعَارِج : ٢١] .

وإذا كَثُـرَ مَـالُ الإنسـان ، وصـارَ يتقلَّـب فـي الغِنـى ورَغَـد العَيْش ، فإنَّهُ يتسلَّح بالبُخْـل والمَنْـع والإمساك ، فلا يُنفِق في سبيل اللَّه ، ولا يُؤَدِّي حقَّ اللَّه في ماله ، ولا يُحاول مُساعدةَ الآخرين .

والإنسانُ إذا أصابه الفَقْرُ جَزِعَ ، ولَـم يَصبِر ، وإذا أصـابه الغِنى فَرِحَ ، ولَـم يُنفِق . وهـذا يدلُّ على جَهْله ، وعدم تمتُّعه ببُعد النَّظَر . إنَّه يَغرَق في اللحظة الآنِيَّة ، ولا يُفكِّر في عواقب الأُمُور .

وهذه الأوصاف الثلاثة للإنسان هي حقائق واقعية ، وطبائع جُبِلَ عَلَيها ، وهكذا خُلِقَ .

وفي تفسير البَغَوي (١/ ٢٢٣) : ((قال ابنُ كَيْسان : خَلَقَ اللَّهُ الإنسانَ يُحِبُّ ما يَسُرُّه ، ويَهرُب مِمَّا يَكْرَه ، ثُمَّ تعبَّده بإنفاق ما يُحِب ، والصَّبْر على ما يَكْرَه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٠٩) : ((قال الواحدي والمُفسِّرون : يقولون: تَفسير الهَلَع ما بَعْدَه ، يعني قَوله : ﴿ إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) ﴾ ، أي: إذا أصابه الفَقْر والحَاجَة أو المَرَض ، أوْ نَحْو ذلك ، فهو جَزُوع ، أي كثير الجَزَع ، وإذا أصابه الخَير مِن الغِنى والخِصْب والسَّعَة، ونَحْو ذلك، فهو كثير المَنْع والإمساك.وقال أبو عُبَيدة: الهَلُوع هو الذي إذا مسَّه الخَير لَم يَشكُر، وإذا مسَّه الشَّرُّ لَم يَصبِر. قال ثعلب: قد فسَّر اللَّهُ الهَلُوعَ ، هو الذي إذا أصابه الشَّرُّ أظهرَ شِدَّةَ الجَزَع ، وإذا أصابه الخَير بَخِلَ به ومَنَعَه الناسَ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٤٢) : ((يَقول تعالى مُخْبِرًا عن الإنسان، وما هو مَجبُول عَلَيـه مِـن الأخـلاق الدَّنيئـة : ﴿ إنَّ الإنسـانَ خُلِقَ هَلُوعًـا ﴾ ، ثُـمَّ فسَّـره بقَولـه : ﴿ إذا مَسَّـهُ الشَّـرُّ جَزُوعًا ﴾ ، أي : إذا مسَّه الضُّر فَزِعَ وجَزِعَ وانخلعَ قَلْبُه مِن شِدَّة الرُّعْب ، وأَيِسَ أن يَحصُل له بَعْد ذلك خَير ، ﴿ وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ ، أي : إذا حَصَلَتْ له نِعمة مِن اللَّه ، بَخِلَ بها على غَيره ، ومَنَعَ حَقَّ اللَّه تعالى فيها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ واللَّهُ أنبتَكُم مِنَ الأرضِ نَبَاتًا ﴾ [نُوح : ١٧] .

خَلَقَكم اللَّهُ وأنشأكم مِن تُراب الأرض كما يُخرِج النَّبَاتَ.وهذا دليل على وَحدانية اللَّه وَعَظَمَته. والمُراد هو خَلْق آدم ﷺ مِن تُراب الأرض،والناس وَلَدُه، والوَلَدُ تابع لأبيه. وقد شبَّه اللَّهُ أطوارَ خَلْق الناس بمراحل تَكوين النَّبَات الذي تُخرِجه الأرض، وكأنَّ النُّطفة هي البِذرة،ورَحِم المَرأة هو الأرض.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤١٨) : ((﴿ واللَّهُ أنبتَكُم مِنَ الأرضِ نَبَاتًا ﴾ ، يعني: آدم ، خَلَقَه اللَّهُ مِن أديم الأرض ، والمعنى : أنشأكم مِنها إنشاءً ، فاسْتُعِير الإنبات للإنشاء ، لكَوْنه أدلَّ على الحُدُوث والتَّكوين)) .

وفي صَفوة التَّفاسير (١٩ / ٤٤) : ((قال المُفسِّرون : لمَّا كان إخراجُهم وإنشاؤهم إنَّما يتمُّ بتناولهم عناصر الغذاء الحَيَوانية والنَّباتية المُستمدة مِن الأرض ، كانوا مِن هَذه الجِهَة مُشابهين للنَّباتات التي تَنمو بامتصاص غِذائها مِن الأرض ، فلذا سَمَّى خَلْقَهم وإنشاءَهم إنباتًا ، أوْ يَكون ذلك إشارة إلى خَلْق آدم ، حَيث خُلِقَ مِن تُراب الأرض ، ثُمَّ جاءت مِنه ذُرِّيته ، فَصَحَّ نِسبتهم إلى أنَّهُم أُنْبِتُوا مِن الأرض)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُم فِيهَا وَيُخْرِجُكُم إخْرَاجًا ﴾ [نُوح : ١٨] .

ثُمَّ يُرجِعكم اللَّهُ إلى الأرض عِند مَوتكم ، وتُدفَنون فِيها ، ويُخرِجكم مِن الأرض إخراجًا بالبَعْث يَوم القِيامة للحِسَاب والجَزَاء . أي إنَّ اللَّه يُخرِجكم مِن الأرض يَوم البَعْث أحياءً ، ويُعيدكم يَوم القِيامة كما بَدَأكم أوَّلَ مَرَّة . وأكَّده بالمَصْدَر ﴿ إخْرَاجًا ﴾ ، لبيان أن ذلك واقع بلا شَك ، وكائن لا مَحَالة ، وأنَّ الإعادة مُحقَّقة كالإبداء .

وهذه الآية كقَوله تعالى:﴿مِنْهَا خَلَقْناكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُم وَمِنْهَا نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى﴾[طه: ٥٥].

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٩/ ٣٩) : ((ثُمَّ يُعيدكم فِيها بالدَّفْن عِند مَوْتكم ، ويُخرِجكم مِنها عِند البَعْث والحَشْر إخراجًا مُحَقَّقًا لا رَيْبَ فِيه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القِيامة : ٣٦]. الاستفهامُ للتَّوبيخ والتَّقريع.أيَظُنُّ الإنسانُ أن يُترَك مُهْمَلًا،سائرًا وَفْق هَوَاه،بلا بَعْث ولا حِسَاب ولا جَزَاء ، وبِلا أوامر شرعية ، فَلا يُؤْمَر ولا يُنهَى ، يَعيش حياته بالطُّول والعَرْض وَفْقَ مِزاجه، ويَعيش مُهْمَلًا بلا فائدة ؟ . هذا مُحَال ، لأن الإنسان مخلوق ، والمخلوقُ خاضعٌ لأوامر خالقه. وقد خُلق الإنسانُ لعبادة اللَّه تعالى ، فإن أطاعَ اللَّهَ فقد وَجد حُريته في عُبوديته ، وفازَ في الدَّارَيْن . وإن رَفض أوامرَ اللَّه تعالى، فهو عَبْدٌ للأهواءِ والإفرازاتِ الدُّنيوية المادية ، وقد قضى على مصيره ، وأضاعَ دُنياه وآخرته .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٨٠) : ((قال السُّدي : يعني لا يُبعَث . وقال مُجاهد والشَّافعي وعبد الرحمن بن زيد بن أسْلَم : يعني لا يُؤْمَر ولا يُنهَى . والظاهر أنَّ الآية تَعُمُّ الحَالَيْن ، أي : لَيس يُترَك في هذه الدُّنيا مُهْمَلًا، لا يُؤْمَر ولا يُنهَى، ولا يُترَك في قَبره سُدى لا يُبعَث ، بَل هو مَأمور مَنْهِيٌّ في الدُّنيا ، مَحْشُور إلى اللَّه في الدَّار الآخِرة . والمَقصود هُنا إثبات المَعَاد ، والرَّد على مَن أنكره مِن أهل الزَّيْغ والجَهْل والعِنَاد)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٤) : ((﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ، مُهْمَلًا لا يُكلَّف ، ولا يُجَازَى ، وهو يتضمَّن تَكرير إنكاره للحَشْر ، والدَّلالة عَلَيه مِن حَيث إنَّ الحِكمة تَقتضي الأمرَ بالمَحَاسِن ، والنَّهْي عَن القَبَائح . والتَّكليف لا يتحقَّق إلا بالمُجَازَاة،وهي قد لا تكون في الدُّنيا ، فتَكون في الآخِرة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمنَى ﴾ [القِيامة : ٣٧] .

الاستفهامُ للتَّقرير . ألَم يَكُ هذا الإنسانُ قَطْرَةً مِن مَنِيٍّ يُصَبُّ في الرَّحِم ؟ . والآيةُ تُبيِّن أن الإنسانَ كائنٌ بسيط ذُو أصل وَضِيع . ويجب على الإنسان أن يتذكَّر أصْلَه وحالَه ،كي يتواضع أمام عَظَمَة اللَّه تعالى ، ويَخضع لأوامره ونَوَاهيه .

وسُمِّيَ المَنِيُّ مَنِيًّا لأنَّه يُمنَى ، أي : يُرَاق . والنُّطْفَةُ : الماء القليل .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٨٠) : ((... ، ولهذا قال تعالى مُسْتَدِلًّا على الإعادة بالبَدَاءة ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمنَى ﴾ ، أي : أمَا كان الإنسانُ نُطْفَةً ضَعيفةً مِن مَاء مَهِين يُمنَى : يُرَاق مِن الأصلاب في الأرحام)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ [القِيامة : ٣٨] .

ثُمَّ كانَ الإنسانُ بَعد النُّطْفَة عَلَقَةً ، أي: قِطعة دَم جامد ، فَقَدَّرَ ، فَسَوَّاه بجعل الرُّوح فِيه ، وجَعَلَه ناطقًا سميعًا بصيرًا ، ذا حواس وأعضاء وجوارح ، في أحسن صُورة ، وأكمل تَقويم .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٩/ ٦٩) : ((﴿ ثُمَّ كانَ عَلَقَةً ﴾ ، أي : بقُدرة اللَّه تعالى لقَوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ [المؤمنون : ١٤] . ﴿ فَخَلَقَ ﴾ ، أي: فَقَدَّرَ بأن جَعَلَها مُضْغَةً مُخلَّقة ، ﴿ فَسَوَّى ﴾ فعدَّل وكمَّل نَشْأتَه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنثَى ﴾ [القِيامة : ٣٩] .

فَجَعَلَ اللَّهُ بقُدرته مِن هذا الإنسان بعد تَسويته وتَعديله الصِّنْفَيْن:الرَّجُل والمَرأة. وبعِبارة أُخرى، خَلَقَ اللَّهُ مِن مَنِيِّ الإنسان أولادًا : ذُكُورًا وإناثًا . وهذا استدلال بالإبداء على الإعادة .

ويجب على الإنسان أن يتذكَّر أصْلَه الحقير وحاله الضعيفة، ويخضع لخالقه العظيم، ويلتزم بطاعته ، ويبتعد عن معصيته ، ولا يتكبَّر عَلَيه ، ولا يتمرَّد على أوامره ونَوَاهيه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٨٠):((﴿ ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ، أي: فَصَارَ عَلَقَةً، ثُمَّ مُضْغَةً ، ثُمَّ شُكِّلَ ، ونُفِخَ فيه الرُّوح ، فصارَ خَلْقًا سَوِيًّا سليمَ الأعضاء ، ذَكَرًا أو أُنثى بإذن اللَّه وتقديره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنثَى ﴾)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلى أن يُحْيِيَ المَوْتَى ﴾ [القِيامة : ٤٠] .

أَلَيْسَ ذلك الإلهُ الخالق العظيم الذي أوجدَ الإنسانَ السَّوِيَّ المُعتدِل المُكتمِل مِن نُطفة حقيرة لا قيمة لها، بقادر على بَعْث الناس مِن قُبورهم ، وإعادتهم بَعد مَمَاتهم للحِسَاب والجَزَاء ؟ ، بَلَى ، إنَّ اللَّه على كُل شيء قدير ، وهو قادر على إعادة أجسام الأموات بالبَعْث كما كانت عَلَيه في الدُّنيا ، والإعادة أسهل مِن الابتداء ، لأنَّ مَادَّة الإعادة مَوجودة ، أمَّا الابتداء فكانَ مِن العَدَم .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٥٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلى أن يُحْيِيَ المَوْتَى ﴾ ، يقول تعالى ذِكْرُه : أَلَيْسَ الذي فَعَلَ ذلك فَخَلَقَ هذا الإنسانَ مِن نُطفة ثُمَّ عَلَقَة ، حَتَّى صيَّره إنسانًا له أولاد ذُكُور وإناث، بقادر على أن يُحْيِيَ المَوتى مِن مَمَاتهم، فيُوجدهم كما كانوا مِن قَبل مَمَاتهم . يقول : مَعلوم أن الذي قَدَرَ على خَلْق الإنسان مِن نُطفة مِن مَنِيٍّ يُمنَى حتَّى صيَّره بَشَرًا سَوِيًّا لا يُعجِزه إحياء مَيت مِن بَعد مَمَاته)) .

وعن أبي هريرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا قرأ : ((﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلى أن يُحْيِيَ المَوْتَى ﴾)) ، قال : ((بَلَى)) ، وإذا قرأ : ((﴿ أَلَيْسَ اللهُ بأحْكَمِ الحَاكِمِين ﴾)) ، قال : ((بلى)) [١١٢] .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ١٥٦) : (((كان إذا قرأ) قَوْلَه تعالى : (﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلى أن يُحْيِيَ المَوْتَى ﴾ ، قال: بلى، وإذا قرأ ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بأحْكَمِ الحَاكِمِين ﴾ قال: بلى) لأنَّه قَول بمَنزلة السُّؤال،فيَحتاج إلى الجواب، ومِن حَق الخِطاب أن لا يَترك المُخَاطَبُ جَوَابَه فيكون السَّامع كهَيئة الغافل ، أوْ كَمَن لا يَسمَع إلا دُعَاءً ونِدَاءً مِن الناعق به ، ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُم لا يَعْقِلُون ﴾ ، فهَذه هِبَة سَنِيَّة ، ومِن ثَمَّ نُدبوا لِمَن مَرَّ بآية رحمة أن يَسأل اللَّهَ الرَّحمة ، أوْ عذاب أن يتعوَّذ مِن النار ، أوْ بذِكْر الجَنَّة بأن يَرغَب إلى اللَّه فيها، أو النار أن يَستعيذ به مِنها)).

---

١١٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٤) برقم (٣٨٨٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

قالَ اللَّهُ تعالى:﴿إنَّا خَلَقْنا الإنسانَ مِن نُطْفَةٍ أمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان:٢].

إنَّ اللَّه خَلَقَ بقُدرته ابنَ آدم مِن أخلاط ، أي : مِن مَاء الرَّجُل ومَاء المَرأة إذا اختلطا وامتزجا واجتمعا في رَحِم المَرأة، ثُمَّ يَنتقل مِن طَوْر إلى طَوْر : نُطفة ، عَلَقَة ، مُضغة ، عِظام ، تَغطية العِظَام باللحم ، إنشاؤه خَلْقًا آخَر ، إنبات الشَّعْر له . خَلَقَه اللَّهُ كذلك لِيَبْتَلِيَه بالخَير والشَّر، ويَمتحنه ويَختبره بالتَّكاليف الشَّرعية والأوامر والنَّواهي ، هَل يُؤْمَن أَمْ يَكفُر ؟ ، هَل يَشكُر أَمْ يَجحَد ؟، فجعله اللَّهُ مِن أجل ذلك عاقلًا سميعًا بصيرًا ، كَي يَسمع الهُدى والمواعظ والآيات ، ويُبصِر دلائلَ وُجود اللَّه ووَحدانيته وأُلوهيته وقُدرته وعَظَمَته .

وقال الفخر الرازي في تفسيره (٣٠/ ٢٣٧) : ((أعطاه تعالى ما يَصِحُّ معه الابتلاء ، وهو السَّمْع والبَصَر ، وهُما كِنايتان عَن الفَهْم والتَّمييز ، كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيم عليه السَّلام : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ﴾ [مَريم : ٤٢] . وقد يُراد بهما الحاسَّتان المَعروفتان، وخصَّهما بالذِّكْر لأنَّهما أعظم الحَوَاسِّ وأشرفها)) .

وبالسَّمْع والبَصَر يتمكَّن الإنسانُ مِن الطاعة والمعصية ، وَوَفْق اختياره الحُر يَكون الجَزَاء . وقد أنعمَ اللَّهُ على الإنسان بالسَّمْع والبَصَر تفضُّلًا عَلَيه ، وإحسانًا إلَيه ، ورحمةً به ، وإقامةً للحُجَّة عَلَيه ، وقَطْعًا لأعذاره .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٩١): ((﴿إنَّا خَلَقْنا الإنسانَ ﴾ يَعني وَلَدَ آدم ﴿ مِن نُطْفَةٍ ﴾ يَعني مَنِيَّ الرَّجُل ومَنِيَّ المَرأة ، ﴿ أمْشَاجٍ ﴾ أخلاط . ... . قال ابن عباس والحَسَن ومُجاهد والربيع : يَعني ماءَ الرَّجُل وماءَ المَرأة يختلطان في الرَّحِم، فيكون مِنهما الوَلَد، فماء الرَّجُل أبيض غَليظ، وماء المَرأة أصفر رقيق، فأيُّهما علا صاحبَه كان الشَّبَه له، وما كان مِن عَصَب وعَظْم فهو مِن نُطفة الرَّجُل، وما كان مِن لَحْم ودَم وشَعْر فَمِن ماء المَرأة . وقال الضَّحاك : أراد بالأمشاج اختلاف ألوان النُّطفة، فنُطفة الرَّجُل بيضاء وحمراء وصفراء، ونُطفة المَرأة خضراء وحمراء وصفراء، وهي رواية الوالبي عن ابن عباس،وكذلك قال الكَلبي،قال:الأمشاج البَياض في الحُمرة والصُّفرة، وقال يمان:كُلُّ لَوْنَيْن اختلطا فهو أمشاج، وقال ابن مسعود:هي العُرُوق التي تكون في النُّطفة. وقال الحسن:نُطفة مُشِجَتْ بدَم وهو دَم الحَيضة،فإذا حَبِلَت ارتفع الحَيض. وقال قَتادة:هي أطوار الخَلْق: نُطفة، ثُمَّ عَلَقَة، ثُمَّ مُضغة، ثُمَّ عَظْمًا، ثُمَّ يَكسُوه لَحْمًا، ثُمَّ يُنشِئه خَلْقًا آخَر . ﴿ نَبْتَلِيهِ ﴾ نَختبره بالأمر والنَّهْي ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ . قال بعضُ أهل العربية : فيه تقديم وتأخير ، مَجَازه : فجعلناه سميعًا بصيرًا لِنَبْتَلِيَه ، لأنَّ الابتلاء لا يقع إلا بعد تَمَام الخِلْقة)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٩/ ٧٠) : ((هذا بَيان لخَلْق بَنِيه (بَني آدم) . ﴿ أمْشَاجٍ ﴾ أخلاط . ... . وَصَفَ النُّطفةَ بهِ لِمَا أنَّ المُرادَ بها مَجموع المَاءَيْن (ماء الرَّجُل وماء المَرأة) ، ولكُل مِنهُما أوصافٌ مُختلفة مِن اللون والرِّقَّة والغِلَظ ، وخَوَاصٌّ مُتباينة ، فإنَّ ماءَ الرَّجُلِ أبيض غليظ فيه قُوَّة العَقْد ، وماءَ المَرأةِ أصفر رقيقٌ فيهِ قُوَّة الانعقاد ، يُخْلَق مِنهُما الوَلَد ، فمَا كان مِن عَصَب وعَظْم وقُوَّة ، فَمِن مَاءِ الرَّجُل ، وما كان مِن لَحْم ودَم وشَعْر فَمِن ماءِ المَرأة. قالَ القرطبيُّ: وقد رُوِيَ هذا مرفوعًا . ... . وقيلَ : أمشاجٌ ألوانٌ وأطوارٌ ، فإنَّ النُّطفةَ تصيرُ عَلَقَةً ثُمَّ مُضغةً إلى تَمَام الخِلْقة. وقَوْلُه تعالى:﴿نَبْتَلِيهِ﴾ حَالٌ مِن فاعل خَلَقْنا،أي مُريدينَ ابتلاءَه بالتَّكليف فِيما سَيَأتي، ناقلينَ له مِن حَالٍ إلى حالٍ على طريقة الاستعارةِ ، كما رُوِيَ عن ابنِ عباسٍ ــ رَضِيَ اللَّهُ عَنهما ــ نُصَرِّفه في بَطْن أُمِّه نُطفةً ثُمَّ عَلَقَةً إلى آخِره ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ لِيَتَمَكَّنَ مِن استماع الآيات التَّنزيلية، ومُشاهدةِ الآيات التَّكوينية ، فهو كالمُسبَّب عن الابتلاء ، فلذلكَ عُطِفَ على الخَلْقِ المُقَيَّد به بالفاء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكم مِن ماءٍ مَهِينٍ ﴾ [المُرسَلات : ٢٠] .

أَلَمْ يَخلُقكم اللَّهُ أيُّها الناس مِن نُطفة ضعيفة حقيرة (المَنِيِّ) . والمَنِيُّ هو المَاء الحقير الذي يتخلَّق مِنه الإنسان . وهذا يدلُّ على وُجود اللَّه ووَحدانيته وعَظَمَته وقُدرته المُطْلَقَة ، فقد أنشأ كائنًا سميعًا بصيرًا ذا عَقْل وجوارح ، مِن مَاء وَضِيع ، لا قيمة له ، ولا يُعبَأ بِه .

واستدلَّ بهذه الآية القائلون إنَّ خَلْق الجَنِين إنَّما هو مِن مَاء الرَّجُل وَحْدَه .

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (١٩/ ٩٢) : ((﴿ أَلَمْ نَخْلُقكم مِن ماءٍ مَهِينٍ ﴾ ، تَذكير للمُكذِّبين ، وتَعجيب مِن غَفْلتهم وذُهولهم عَن أبسط الأُمور المُشَاهَدَة ، وهي أنَّ مَن خَلَقَهم مِن النُّطفة الحقيرة الضعيفة ، كان قادرًا على إعادة خَلْقهم للبَعْث والحِسَاب . والمعنى: أَلَمْ نَخلُقكم يا مَعْشَرَ الكُفَّار مِن ماء ضعيف حقير هو مَنِيُّ الرَّجُل ؟)) .

إنَّ الناظر في أصل خِلْقته (المَاء المَهِين) يُدرِك أنَّه كائنٌ حقيرٌ وضيعٌ أمام عَظَمَة اللَّه وقُدرته. فلا مجال لتمرُّد العبد على خالقه ، واستكباره عَن عِبادته ، ولا مَعنى لِتَحَدِّي المخلوق الذليل للخالق العظيم ، فالتَّحَدِّي إنَّما يَكون بين أنداد ، واللَّهُ تعالى لا نِد له ولا ضِد . والإنسانُ الكائن العاجز لَيس بمَقدوره أن يتحدَّى اللَّهَ تعالى بالمَعاصي ، ولا يُمكنه الهرب مِن سَيِّده ، فالإنسانُ عَبْدٌ ذليل بإرادته ورَغْم أنفه ، ومَن يعتقد أنَّ بإمكانه تَحَدِّي خالقه فَلْيَحْمِ نَفْسَه مِن المَوت . وبما أنَّه عاجز أمام المَوت الذي هو مَخلوق،فكيف سيتحدَّى اللَّهَ العظيمَ الذي خَلَقَ المَوْتَ ولا يَموت ؟!.

والقادرُ على خَلْق الإنسان مِن المَنِيِّ (سَائِل حقير) ، ونَقْله عَبْر أطوار مُتعدِّدة ليَصير كائنًا عاقلًا كامل الخِلْقة ، قادرٌ على بَعْثه بَعْد المَوت ، وإعادة الرُّوح إليه . واللَّهُ قادرٌ على خَلْق الإنسان دَفْعة واحدة ، لكنَّ هذا الأمر يُسبِّب مَشَقَّةً كُبرى للأُمِّ ، ويُمثِّل خطرًا على حياتها، ويُسبِّب مُشكلاتٍ كثيرة للإنسان ومُستواه العَقلي والجسدي والفكري والعاطفي ، وتَحَرُّكه عَبْر الزَّمان والمَكان . واللَّهُ أرحم بالعِباد مِن أُمَّهاتهم ، لذلك خَلَقَهم بشكل تدريجي ليتمَّ النُّمو وَفْق مراحل واضحة المعالم ذات طبيعة خاصَّة ، ويتقدَّم الإنسانُ عَبْر هذه الفترات التي تَمتاز كُلُّ واحدةٍ مِنها بصِفات مُعيَّنة . وَمَن أدركَ أطوارَ خَلْقه الباهرة ، ومراحل تَكوينه الإعجازية ، لا يُمكنه إلا أن يُؤْمِن بوُجود اللَّه ووَحدانيته وقُدرته ، ويَشكُره عَلى نِعمة الحَياة والوُجود . لذلك قِيل : مَنْ عَرَفَ نَفْسَه فقد عَرَفَ رَبَّه .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٨٨و٤٨٩): ((مَن قَدَرَ على خَلْق الشَّخْص مِن مَاء مَهِين ، ثُمَّ نَقْله إلى العَلَقَة ، ثُمَّ إلى المُضغة ، ثُمَّ يَنفُخ الرُّوحَ فيه، قادر على نَفْخ الرُّوح بعد أن يَصير تُرَابًا، ويَجمع أجزاءه بعد أن يُفَرِّقها . ولقد كان قادرًا على أن يَخلُقه دَفْعَةً واحدة ، ولكن اقتضت الحِكمة بنَقْله في الأطوار رِفْقًا بالأُمِّ لأنها لم تكن مُعتادة ، فكانت المَشَقَّة تَعظُم عليها ، فهيَّأه في بَطْنها بالتدريج إلى أن تَكَامَل ، ومَن تأمَّلَ أصلَ خَلْقه مِن نُطفة وتنقُّله في تلك الأطوار إلى أن صار إنسانًا جميلَ الصُّورة مُفَضَّلًا بالعَقْل والفَهْم والنُّطْق ، كان حَقًّا عَلَيه أن يَشكُر مَن أنشأه وهَيَّأه)) .

وعن بُسْر بن جَحَّاش القُرَشِيِّ ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : بَزَقَ رسولُ اللَّه ﷺ على كَفِّه ، فقال : ((يقول اللَّهُ : يا ابنَ آدم ، أنَّى تُعجِزُني، وقد خَلَقْتُكَ مِن مِثْل هذه ، حتى إذا سَوَّيْتُكَ ، وعَدَلْتُكَ ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَتَيْن ، وللأرض مِنكَ وَئِيد ، فَجَمَعْتَ ، ومَنَعْتَ ، حتى إذا بَلَغَت التَّراقيَ ، قُلْتَ : أتصدَّق . وأنَّى أوَانُ الصَّدَقة ؟!)) [١١٣].

يُوضِّح النبيُّ ﷺ المَعنى المُراد بأسلوب تَعليمي عَمَلي ، وذلك بتقديم مِثَال مُشَاهَد بالعَين المُجرَّدة ، مِن أجل تقريب المَعنى إلى الأذهان ، وتَوصيل الفِكرة إلى عُقول الناس ، على اختلاف مُستوياتهم الفكرية والاجتماعية .

بَصَقَ النبيُّ ﷺ بَعْضَ رِيقه في كَفِّ يَدِه ، لِيُبَيِّنَ أنَّ اللَّه خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطفة (مَنِيٍّ) تُشبِه هذا الرِّيقَ (اللعاب) في الحَجْم والضَّعْف والكَمِّية ، فكيفَ يُعجِز اللَّهَ مِن كان مَخلوقًا مِن هذا

---

١١٣ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٤٥) برقم (٣٨٥٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الأصل الحقير الوضيع ؟ . حتَّى إذا سوَّى اللَّهُ خَلْقَ هذا الإنسان في أجمل صُورة، وأحسن تقويم ، وجَعَلَه سَوِيًّا سليمَ الأعضاء ، وجَعَلَه مُعْتَدِلَ القَامَة ، بكل تناسق وتناسب ، وبدون خَلَل ، ولا اضطراب ، مَشَى بَين رِداء وإزار بشِدَّة وَطْء على الأرض ، مَغرورًا مُتَكَبِّرًا مُتَعَجْرِفًا ، والوَئِيدُ صَوت شِدَّة الوَطْء على الأرض يُسمَع كالدَّوِيِّ مِن بُعْد . فَجَمَعَ الأموالَ ، ومَنَعَ إنفاقَها وإعطاءها لأيِّ شخص، حتَّى إذا بَلَغَت الرُّوحُ التَّرَاقِيَ (عِظَام الحَلْق) تَذَكَّرَ الصَّدَقَةَ والإنفاقَ في سبيل اللَّه ، ولَيس هذا أوانَ الصَّدَقَة ، وكان يجب أن يتصدَّق قبل ذلك في حياته وصِحَّته وعافيته .

والحديثُ يُحذِّر مِن التَّكَبُّر والغُرور والتفاخر ، ويحثُّ على التَّصَدُّق والإنفاق في سبيل اللَّه أثناء الحياة قبل مَجيء المَوت . وينبغي المُبَادَرَة بالأعمال الصالحة ، وعدم التَّسويف والتأخير ، لأنَّ الإنسان لا يَعلَم مَتى يَمُوت . والمَوْتُ آتٍ لا مَحَالة ، وكُل آتٍ قريبٌ .

إنَّ الإنسانَ كائنٌ جاهل وضعيف ، وقد خَلَقَه اللَّهُ مِن نُطفة حقيرة تُشبِه لُعَابَ البَزْقَة الصَّغيرة في الحَجْم والضَّعْف . والمُشكلةُ أنَّ الإنسانَ يَنسَى أصْلَه ، بسبب جَهْله وغُروره وتكبُّره _ ، ويعتقد أنَّه صارَ قويًّا بما يَمتلكه مِن أدوات ومُقوِّمات وإمكانيات وأموال وسُلطة وجاه ، حتى إذا بَلَغَتْ رُوحُه التَّرَاقيَ ، واقتربَ أجَلُه ، وحَضَرَ مَوْتُه، تَذَكَّرَ الصَّدَقَةَ وأعمالَ الخَير ، وليس هذا وَقْت الصَّدَقة . كان ينبغي أن يتصدَّق قبل ذلك، في حياته ، وأثناء صِحَّته وعافيته . والحديثُ يَدعو إلى التَّصَدُّق والإنفاق في سبيل اللَّه قَبَل المَوت .

ينبغي أن يُبادر العبدُ إلى عَمل الخَير قَبل وُصول الرُّوح إلى التَّرَاقي (عِظَام الحَلْق) ، يعني: قَبْل بُلوغ النَّفْس أعالي الصَّدْر . وعندئذ تنتهي حياةُ العبد ، ويَدخل في عَالَم المَوتى دون فُرصة للعَودة أو التَّعويض . والخَيرُ الحقيقيُّ هو أن تَملِك ثُمَّ تتخلى طَواعيةً في ذِروة صِحَّتك وعُنفوانك، أمَّا الاحتضار فهو تَرْكٌ قَسْري للحَياة الدُّنيا بكُل مَتاعها وزُخرُفها . وفي هذه الحالة كُلُّ الناس يُصبحون كِرَامًا أسخياء . وينبغي أن تكون الدُّنيا في اليد ، وليس في القلب . وهكذا يصبح العبدُ مَالِكًا للمال _ على وجه التحقيق _ ، فلا يَملِكه المالُ ، ولا تلعب به الدُّنيا ، ولا يَغتر بحُطامها .

وحالةُ الاحتضار الرهيبة لم يُوضِّحها القرآنُ للتَّخويف والاعتبار فَحَسْب ، بل أيضًا لِتَكُون حافزًا على عَمل الخَير ، والإسراع إلى العبادات والطاعات ، ما دام العبدُ على قَيْد الحياة ، وأمامه مُهلة زمنية ، وفُسحة مِن الوقت ، ولم يصل إلى حالة الاحتضار. وعملُ العبدُ للخَير عِند الاحتضار (حِين يَفقد العبدُ فُرصته في الحياة) ليس كعمله للخَير أثناء حياته ، وفي أَوْج مُصارعته لشَهَواته ورَغَباته . وعملُ الخَير الحقيقي مكانه في الحياة الدُّنيا أثناء حياة العبد وصِحَّته وعافيته ، ونَزَواته

الشَّهَوانية الاستهلاكية . فهذه هي مُجَاهَدَة النَّفْس ، والتغلُّب عليها في سبيل رضا اللَّه تعالى . أمَّا حِين يَفقد العبدُ الأملَ في الحياة ، ويَعجَز عن التَّمَتُّع بها ، فلا معنى للإنفاق وعَمَل الطاعات .

وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٧٤) : ((قال بعضُ السَّلَف عَن بَعض أهل التَّرَف : يَعْصُون اللَّهَ في أموالهم مَرَّتَيْن ، يَبخَلون بها وهي في أيديهم _ يعني في الحياة _، ويُسرِفون فيها إذا خَرَجَتْ عَن أيديهم _ يَعني عِند المَوت _)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَجَعَلْناهُ في قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ [المُرسَلات : ٢١] .

فَجَعَلَ اللَّهُ هذا المَاءَ المَهِينَ (المَنِيَّ) في مكان حَصِين حَرِيز ، وهو رَحِم المَرأة .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٨٤) : ((يَقول : فَجَعَلْنا المَاءَ المَهِينَ في رَحِم استقرَّ فِيها فَتَمَكَّنَ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩١) : ((يَعني : جَمَعْناه في الرَّحِم ، وهو قَرَار المَاء مِن الرَّجُل والمَرأة ، والرَّحِم مُعَدٌّ لذلك ، حافظ لِمَا أُودِع فِيه مِن المَاء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [المُرسَلات : ٢٢] .

إلى وَقْت مُحدَّد مُعيَّن ، مَعلوم عِند اللَّه تعالى ، لخُرُوجه مِن الرَّحِم ، أي : إلى وَقْت الوِلادة . وهذا القَدَر المَعلوم هو مُدَّة الحَمْل .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٤) : ((إلى مِقدار مَعلوم مِن الوَقْت ، قَدَّرَه اللَّهُ تعالى للوِلادة)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٠٣) : ((أي : إلى مِقدار مَعلوم ، وهو مُدَّة الحَمْل . وقِيل : إلى أن يُصَوَّر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَقَدَرْنا فَنِعْمَ القَادِرُون ﴾ [المُرسَلات : ٢٣] .

فَقَدَرْنا على خَلْقه مِن النُّطفة ، وتَصويره في أجمل صُورة ، وإخراجه مِن رَحِم المَرأة ، فَنِعْمَ القادرون نَحْن .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٩/ ١٤١) : ((ورُوِيَ عَن عِكرمة : ﴿ فَقَدَرْنا ﴾ مُخفَّفة مِن القُدرة ، وهو اختيار أبي عُبَيد وأبي حاتم والكِسائي لقَوله : ﴿ فَنِعْمَ القَادِرُون ﴾ . ومَن شَدَّدَ فهو مِن التَّقدير ، أي : فَقَدَّرْنا الشَّقِيَّ والسعيدَ ، فَنِعْمَ المُقَدِّرُون . رواه ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ . وقِيل : المَعنى قَدَّرْنا قصيرًا أو طويلًا . وَنَحْوه عن ابن عباس : قدَّرنا ملكنا . المهدوي : وهذا التَّفسير أشبه بقراءة التخفيف . قُلتُ : هو صحيح ، فإن عِكرمة هو الذي قرأ : ﴿ فَقَدَرْنا ﴾

مُخَفَّفًا . قال: مَعناه فَمَلَكْنا فَنِعْم المالكون ، فأفادت الكَلِمتان مَعنيين مُتغايرَيْن ، أي قَدَّرْنا وَقْتَ الوِلادة وأحوالَ النُّطفة في التَّنقيل من حالة إلى حالة ، حتى صارت بشرًا سويًّا، أو الشَّقِي والسعيد، أو الطويل والقصير ، كُلُّه على قِراءة التَّشديد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَاكُم أَزْوَاجًا ﴾ [النَّبأ : ٨] .

وجَعَلَكم اللَّـهُ أيُّها الناسُ أصنافًا : ذُكُورًا وإناثًا ، كَي يَحصُل التَّزَاوُج والتَّنَاسُل والتَّكاثُر ، وتستمر الحياة على ظَهْر الأرض ، ويتحقَّق معنى الإعمار والتَّقَدُّم والمُنجَزات الحضارية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٤) : ((قال تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَاكُم أَزْوَاجًا ﴾ ، يعني : ذَكَرًا وأُنثى ، يتمتَّع كُل مِنهما بالآخَر ، ويَحصُل التَّنَاسُل بذلك)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٥١) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَاكُم أَزْوَاجًا ﴾ ، أي أصنافًا : ذَكَرًا وأُنثى . وقِيل : ألوانًا . وقِيل : يَدخل في هذا كُلُّ زَوْج مِن قَبيح وحَسَن ، وطويل وقصير ، لتختلف الأحوال فيَقع الاعتبار ، فيَشكُر الفاضلُ ، ويَصبِر المَفضولُ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أَكْفَرَهُ ﴾ [عَبَسَ : ١٧] [١١٤].

لُعِنَ الكافرُ ، وطُرِدَ مِن رحمة اللَّه ، ما أشدَّ كُفْرَه ! . وهذا تعجُّب مِن شِدَّة كُفره وإفراطه في الضَّلال ، معَ فضل اللَّه عَلَيه ، وإحسانه إلَيه . وقد يَكون استفهام تَوبيخ بمعنى : أيُّ شيء حَمَلَه على الكُفر ؟ .

إنَّ هذا الإنسان (الكافر) رافضٌ لأوامر اللَّه ، جاحدٌ لِنِعَمه . ومعَ أن الإنسان كائنٌ ضعيف من أصل حقير (نُطفة)، إلا أنه يتمرَّد على خالقه ، ويَتكبَّر على عِبادته بكُل جَهْل وغُرور ووقاحة.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥٣): ((دُعَاء عليه بأشنع الدَّعَوات ، وتَعَجُّب مِن إفراطه في الكُفران ، وهو مَعَ قِصَرِه يدلُّ على سَخط عظيم ، وذَم بليغ)) .

---

١١٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٣٠و٣١) : ((قَوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ﴾ ، أي : لُعِنَ. والْمُراد بالإنسان هاهُنا الكافر ، وفِيمَن عَنى بهذا القَول ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه أشار إلى كُل كافر ، قاله مجاهد . والثاني أنَّه أُمَيَّة بن خَلَف ، قاله الضَّحاك . والثالث عُتبة بن أبي لَهَب ، قاله مُقاتل . وفي قَوله تعالى : ﴿ ما أَكْفَرَهُ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها ما أشدَّ كُفْرَه ، قاله ابن جُرَيج . والثاني أيُّ شيء أكفَرَه ؟ ، قاله السُّدي . فعلى هذا يكون استفهام تَوبيخ . الثالث أنَّه على وجه التَّعَجُّب ، وهذا التَّعَجُّب يُؤمَر به الآدَمِيُّون ، والمعنى : اعْجَبُوا أنتُم مِن كُفره ، قاله الزَّجاج)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٠٦) : ((يَقول تعالى ذَامًّا لِمَن أنكرَ البَعْثَ والنُّشُورَ مِن بني آدم : ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ ﴾ . قال الضَّحاك عن ابن عباس : ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ﴾ : لُعِنَ الإنسان ، وكذا قال أبو مالك . وهذا لجِنس الإنسان المُكذِّب لكَثرة تَكذيبه بلا مُسْتَنَد ، بَل بمُجرَّد الاستبعاد وعَدَم العِلْم. قال ابن جُرَيج : ﴿ ما أكْفَرَهُ ﴾ أي : ما أشدَّ كُفْرَه . وقال ابن جرير: ويُحْتَمَل أن يكون المُراد : أيُّ شَيء جَعَلَه كافرًا ؟ ، أي : ما حَمَلَه على التَّكذيب بالمَعَاد ؟ . وقد حَكَاه البَغَوي عن مُقاتل والكَلبي . وقال قَتادة ﴿ ما أكْفَرَهُ ﴾ : ما ألْعَنَه)) .

وفي الدُّر المَنثور (٨/ ٤١٩) : ((أخرج ابن المُنذر عن عِكْرِمة في قَوله : ﴿ قُتل الإنسانُ ما أكْفره ﴾ . قال : نَزَلَتْ في عُتبة بن أبي لَهَب حِين قال : كَفَرْتُ بِرَبِّ النَّجْمِ إذا هوى)) .

وقد دعا عليه النبيُّ ﷺ عُقوبةً له على كُفره الشَّنيع. فقال ﷺ : ((اللهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ))، فَخَرَجَ في قافلة يُريد الشَّام ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا ، فقال : إنِّي أخافُ دَعْوَةَ مُحمَّد ، قالوا له : كَلَّا ، فَحَطُّوا مَتَاعَهم حَوْلَه ، وقَعَدُوا يَحرُسونه ، فجاءَ الأسَدُ فانتزعه ، فَذَهَبَ به [١١٥].

وقال الشاعرُ :

يَتَمَنَّى المَرْءُ في الصَّيْفِ الشِّتَاءَ ... حَتَّى إذا جَاءَ الشِّتَاءُ أنكَرَه

فَهُوَ لا يَرْضَى بِحَالٍ وَاحِدٍ ... قُتِلَ الإنسَانُ ما أكْفَرَه

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [عَبَسَ : ١٨] .

مِن أيِّ شَيء خَلَقَ اللَّهُ هذا الكافرَ حتى يتكبَّر على خالقه ؟ . والاستفهامُ للتَّقرير .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٣٧) : ((بَيَّنَ مِن أمْرِه ما كان يَنبغي معه أن يَعلَم أنَّ اللَّهَ خالقُه ، فقال : ﴿ مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ، لَفْظُه استفهام ، ومَعناه التَّقرير)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥٣) : ((﴿ مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ، بَيَان لِمَا أنعمَ عَلَيه ، خُصُوصًا مِن مَبدأ حُدوثه . والاستفهام للتَّحقير)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عَبَسَ : ١٩] .

مِن مَاء حَقير (المَنِيِّ) ابتدأ اللَّهُ خَلْقَ الإنسان . وهذا تَحقير له ، وتَذكير بأصله الوضيع ، كَي يتواضع ويَخضع للَّه، ولا يتكبَّر على خالقه وسَيِّده ومَوْلاه. والذي ابتدأه مِن نُطفة قادرٌ على إعادته.

---

١١٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨٨) برقم (٣٩٨٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقدَّره اللَّهُ في بَطْن أُمِّه أطوارًا ، مِن حال إلى حال : نُطفة ثُمَّ عَلَقَة ثُمَّ مُضغة ، إلى أنَّ تَمَّ خَلْقُه واكتملَ ، وخَرَجَ مِن بَطْن أُمِّه ، وهيَّأه لِمَا يَصلُح له . أوْ : قدَّر اللَّهُ بحِكمته البالغة أجلَه ورِزْقَه وعَمَلَه وشقيٌّ أوْ سعيد . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٣١) : ((قَوله تعالى : ﴿ مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ، ثُمَّ فسَّره فقالَ تعالى: ﴿ مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ ، وفي مَعنى ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها قدَّر أعضاءه، رأسَه وعَيْنَيْه ويَدَيه ورِجْلَيْه، قاله ابن السائب. والثاني قدَّره أطوارًا ، نُطفة ثُمَّ عَلَقَة، إلى آخِر خَلْقه ، قاله مُقاتل . والثالث فقدَّره على الاستواء ، قاله الزَّجاج)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٤١) : ((﴿ مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ ، أي: مِن مَاء مَهِين ، وهذا تَحقير له . قال الحَسَن : كيف يتكبَّر مَن خَرَجَ مِن مَخرَج البَوْل مَرَّتَيْن ، ومعنى ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ أي : فَسَوَّاه وهيَّأه لمصالح نَفْسه ، وخَلَقَ له اليَدَيْن والرِّجْلَيْن والعَيْنَيْن ، وسائر الآلات والحَوَاس . وقِيل : قدَّره أطوارًا مِن حال إلى حال ، نُطفة ثُمَّ عَلَقَة ، إلى أن تَمَّ خَلْقُه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطَّارِق : ٥] .

هذا أمرٌ إلهيٌّ عظيم بالنَّظَر والتَّأمُّل والتَّفَكُّر في خَلْق الإنسان، للتَّنبيه على ضَعْف خَلْقه وبساطته ، وكَي يَعرِف أنَّ الذي ابتدأه مِن نُطفة قادر على إعادته ، ومَن أوجدَ الإنسانَ مِن العَدَم قادر على بَعْث الأموات مِن قُبورهم . ومَن قَدَرَ على البَدَاءة قادرٌ على الإعادة بطريق الأَوْلَى .

فَلْيَنْظُر ابنُ آدم في أصل خَلْقه وأوَّل نَشأته نَظَرَ تفكُّر واعتبار واستدلال ، مِن أيِّ شَيء خَلَقَه اللَّهُ تعالى ؟. ومَن نَظَرَ في أوَّل أمره وبداية حاله ، أدركَ أنَّ مَن أنشأه قادر على إعادته ومُحاسبته ، فيجب على الإنسان أن يَعمل ليَوم الجَزَاء، وذلك بأداء العِبادات وفِعل الطاعات في الحَيَاة الدُّنيا.

والآيةُ تُرشِد مُنكِري البَعْث إلى ضَرورة التَّفَكُّر في أصل خَلْق الإنسان ، فهو يدلُّ على أنَّ البَعْث جائز ومُمكن . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥٣٤) : ((وقَوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ . يَقول تعالى ذِكْرُه: فَلْيَنْظُر الإنسانُ المُكذِّب بالبَعْث بَعْد المَمَات ، المُنكِر قُدرةَ اللَّه على إحيائه بَعْد مَمَاته ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ، يَقول : مِن أيِّ شيء خَلَقَه رَبُّه ؟)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٩٣) : ((﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ، الفَاء للدَّلالة على أنَّ كَوْن على كُل نَفْس حافظ ، يُوجب على الإنسان أن يتفكَّر في مُبتدأ خَلْقه ، لِيَعْلَمَ قُدرةَ اللَّه على ما هو دُون ذلك مِن البَعْث . قال مُقاتل : يعني : المُكذِّب بالبَعْث ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ، مِن أيِّ شَيء خَلَقَه اللَّهُ . والمعنى : فَلْيَنْظُرْ نَظَرَ التَّفَكُّر والاستدلال حَتَّى يَعرِف أنَّ الذي ابتدأه مِن نُطفة قادر على إعادته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطَّارِق : ٦] .

خُلِقَ الإنسانُ مِن المَنِيِّ الذي يتدفَّق مِن الرَّجُل والمَرأة في رَحِمها ، فيتكوَّن مِنهما الوَلَد بإذن اللَّه تعالى. والإنسانُ مَخلوق مِن ماء الرَّجل وماء المَرأة معًا، ولكن جَعَلَهما ماءً واحدًا لاختلاطهما.

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٩٤): ((﴿ خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ مَدفُوق ، أي: مَصبُوب في الرَّحِم، وهو المَنِيُّ. فاعل بمعنى مَفعول كقَوله : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَة ﴾ [الحَاقَّة : ٢١] أي: مَرْضِيَّة. والدَّفْق:الصَّبُّ. وأرادَ ماءَ الرَّجُل وماءَ المَرأة، لأن الولد مَخلوق مِنهما، وجَعَلَه واحدًا لامتزاجهما)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ ﴾ [الطَّارِق : ٧] .

يَخرُج هذا المَاءُ مِن ظَهْرِ الرَّجُلِ وصَدْرِ المَرأة . والوَلَدُ لا يَكون إلا مِن المَاءَيْن معًا .

والصُّلْب كِناية عَن الرَّجُل ، والتَّرَائب كِناية عَن المَرأة ، وهذا مِن الكِنايات البليغة اللطيفة .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٩٤) : ((﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ ﴾ ، يَعني صُلْب الرَّجُل وتَرَائب المَرأة . و " التَّرَائب " : جَمْع التَّرِيبة ، وهي عِظَام الصَّدْر والنَّحْر . قال ابن عباس : هي مَوضِع القِلادة مِن الصَّدْر . وروى الوالبي عنه : بَيْن ثَدْيَي المَرأة. وقال قَتادة : النَّحْر. وقال ابن زَيد : الصَّدْر)) .

وعن ابن عباس رضي اللَّهُ عَنهما في قَوْله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ يَخرج مِن بَيْن الصُّلْب والترائب﴾،قال: ((الصُّلْب هُوَ الصُّلْب،والتَّرائبُ أربعة أضلاع مِن كُلِّ جانب مِن أسفل الأضلاع))[سَبَق تخريجه].

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ في أحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التِّين : ٤] .

لَقد خَلَقَ اللَّهُ الإنسانَ (اسم جِنس) في أحسن شَكل ، وأجمل صُورة ، وأعْدَل خَلْق [١١٦]، فهو مُنْتَصِب القَامَة ، بعَكْس الحيوان الذي خُلِقَ مُنْكَبًّا على وَجْهه . والإنسانُ يَمشي على رِجْلَيْه ، ويَأكل بيَدَيه، أمَّا غَيْرُه مِن الحيوانات ، فيمشي على أربع ، ويأكل بفمه . وَجَعَلَ اللَّهُ له عَقْلًا قادرًا على الفَهم والتحليل ، وسَمْعًا وبصرًا وقلبًا ، وهذا أهَّله لاستيعاب الأشياء ، والتفريق بينها ، ومعرفة فوائدها وأضرارها ، في الأُمور الدينية والدُّنيوية . وزوَّده اللَّهُ بالأعضاء المُتكاملة ، والحَوَاس المُتناسقة ، والجوارح المُتناسبة ، بلا خَلَل ولا اضطراب . وهذه المَنظومةُ الشاملة في غاية الإتقان والإبداع والجَمَال ، لا قُبح فيها، ولا تعارُض بين أجزائها ، ولا فَوضى في طبيعتها وماهيتها .

---

١١٦ قال الحافظ في الفتح (٨/ ٧١٣) : ((وأخرجَ ابن المنذر عن ابن عباس بإسناد حسن ــ في قَوْله تعالى : ﴿ أحسن تقويم ﴾ ــ قال : أعْدَل خَلْق)) .

والإنسانُ عَالَمٌ مُتكامل قد انطوى فِيه كُلُّ المخلوقات . وَكُلُّ عُضو فِيه مليء بالعجائب التي لا تُحصَى ، والأسرارِ التي لا يُمكن شَرْحُها . وكما قِيل :

دَوَاؤُكَ فِيكَ ومَا تَشْعُرُ وَدَاؤُكَ مِنكَ ومَا تُبصِرُ

وتَحْسَبُ أنَّكَ جُرْمٌ صَغِيرٌ وفِيكَ انطوى العَالَمُ الأكبرُ

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١٠٥): ((قَوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ ﴾ هذا جواب القَسَم، وأراد بالإنسان: الكافر. قِيل: هو الوليد بن المُغيرة. وقِيل: كَلَدَة بن أَسيد. فعلى هذا نزلت في مُنكِرِي البَعْث. وقِيل: المُراد بالإنسان آدم وذُرِّيته. ﴿ في أحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وهو اعتداله واستواء شبابه، كذا قال عامَّة المُفسَّرين.وهو أحسن ما يكون، لأنَّه خَلَقَ كُلَّ شيء مُنْكَبًّا على وجهه، وخَلَقَه هو مُسْتَوِيًا، وله لسان ذَلِق، ويَد وأصابع يَقبِض بها. وقال أبو بكر بن طاهر: مَيَّزَنا بالعَقْل، مُؤَدِّيًا للأمر، مَهْديًّا بالتَّمييز، مَديد القَامة،يتناول مأكوله بيده.ابن العربي:[لَيس للَّهِ تعالى خَلْق أحسَن مِن الإنسان، فإنَّ اللَّه خَلَقَه حَيًّا عَالِمًا، قادرًا مُرِيدًا مُتَكَلِّمًا، سميعًا بصيرًا، مُدَبِّرًا حكيمًا. وهَذه صِفات الرَّب سُبحانَه، وعَنها عبَّر بعضُ العُلَماء، ووقع البَيَان بقَوله : " إنَّ اللَّه خَلَقَ آدمَ على صُورته " يَعني على صِفاته التي قَدَّمْنا ذِكْرَها.وفي رواية "على صُورة الرَّحمن".ومِن أين تكون للرَّحمن صُورة مُتشخِّصة ، فَلَمْ يَبْقَ إلا أن تكون معاني]. وقد أخبرنا المُبارك بن عبد الجبار الأزدي قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن أبي علي القاضي المُحسِّن عن أبيه قال: كان عِيسى بن مُوسى الهاشمي يُحب زوجته حُبًّا شديدًا فقال لها يَوْمًا: أنتِ طَالِق ثلاثًا إنْ لَم تكوني أحسن مِن القمر ، فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طَلَّقْتَني!. وبات بلَيلة عظيمة، فلمَّا أصبحَ غَدَا إلى دار المنصور، فأخبره الخَبَر، وأظهر للمَنصور جَزَعًا عظيمًا، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم. فقال جميعُ مَن حَضَر: قَد طُلِّقَتْ، إلا رَجُلًا واحدًا من أصحاب أبي حَنيفة، فإنَّه كان ساكتًا. فقال له المنصور: ما لَكَ لا تتكلَّم؟،فقال له الرَّجُل:بِسْم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿والتِّينِ والزَّيتون (١) وَطُورِ سِينين (٢) وهذا البَلَدِ الأمين(٣) لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ في أحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤)﴾. يا أمير المؤمنين ، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه. فقال المنصور لعِيسى بن مُوسى: الأمر كما قال الرَّجُل، فَأقْبِلْ على زَوجتك. وأرسلَ أبو جعفر المنصور إلى زَوجة الرَّجُل: أن أطيعي زَوْجَكِ ولا تَعصيه، فما طَلَّقَكِ . فهذا يَدُلُّكَ على أنَّ الإنسان أحسن خَلْق اللَّه باطنًا وظاهرًا، جَمَال هَيئة، وبديع تركيب: الرَّأس بِما فيه، والصَّدر بِما جَمَعَه، والبَطْن بِما حَوَاه ، والفَرْج وما طَوَاه، واليَدَان وما بطشتاه، والرِّجلان وما احتملتاه. ولذلك قالت الفلاسفة : إنَّه العَالَم الأصغر ، إذْ كُلُّ ما في المَخلوقات جُمع فِيه)) .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شاءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

إنَّ عِلْم اللَّه صِفة للَّه تعالى . وصِفات اللَّه قديمة قِدَم ذاته العَلِيَّة . واللَّهُ هو المُنفرِد بالعِلْم الذاتي الكامل الشامل التام ، وهذا يدلُّ على وَحدانيته وأُلوهيته. وعِلْمُ اللَّه شاملٌ للأشياء إجمالًا وتفصيلًا . ولا أحد يَطَّلع على شَيء مِن عِلْم ذات اللَّه وصِفاته إلا إذا أطلعه اللَّهُ على ذلك .

والناسُ لا يَعْلَمُون شيئًا مِن مَعلومات اللَّه ، إلا إذا أطلعهم على ذلك ، وأعلمَهم به. ويكون ذلك بإخبار الأنبياء .

و﴿ عِلْمِهِ ﴾ يعني : مَعلوماته ، لأن عِلْم اللَّه صِفَة ذاته ، لا يَتبعَّض ولا يَتجزَّأ ولا يَتقسَّم . ومعنى الآية : لا معلوم لأحدٍ إلا ما شاء اللَّهُ أن يَعلَمه .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٦):((وأمَّا قَوله: ﴿ ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِن عِلْمِهِ إلا بما شاء ﴾ فإنه يعني تعالى ذِكْرُه أنَّه العَالِم الذي لا يَخفَى عَلَيه شيء، مُحيط بذلك كُلِّه. مُحْصٍ له دون سائر مَن دُونه ، وأنه لا يَعلَم أحد سِواه شيئًا إلا بما شاء هُوَ أن يَعلَمه فأراد فَعَلِمَه ، وإنما يعني بذلك : أن العبادة لا تنبني لِمَن كان بالأشياء جاهلًا، فكيف يُعبَد مَن لا يَعقِل شيئًا البَتَّة مِن وَثَن وصَنَم ؟!. يَقول: فأخْلِصُوا العِبادةَ لِمَن هو مُحيط بالأشياء كُلِّها، يَعلَمها ، لا يَخفَى عَلَيه صَغيرها وكبيرها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أوَلَمْ يَنظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ والأرضِ وما خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وأنْ عَسَى أن يَكُونَ قَدِ اقتربَ أجَلُهُم فَبِأيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُون ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

حَثَّهم اللَّهُ على التَّفَكُّر في أمرِ مُحمَّد ﷺ لِيَعلَموا أنه لَيس مَجنونًا ، ثُمَّ حَثَّهم في هذه الآية على النظر المُؤدِّي إلى العِلْم.إنَّ اللَّه يَدعو الكافرين الذين يُكذِّبون مُحَمَّدًا ﷺ ولا يُؤمنون بالقُرآن، إلى النظر والتفكر في مُلْكِ اللَّه ، وسُلطانِه العظيم في السماوات والأرض . والاستفهام للإنكار والتَّوبيخ . إذْ إنَّهم لَم يَتفكروا في آياتِ اللَّه الباهرة التي تدل على قُدرته اللامحدودة ، وسُلطانه العظيم. لقد أعرَضوا عن التفكر في الآيات الباهرة التي تُشير إلى كمال قُدرة اللَّه ، وتفرُّده بالأُلوهية والرُّبوبية .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٩٦) : ((والمعنى : إنَّ هؤلاء لَم يتفكروا حتى يَنتفعوا بالتفكر ، ولا نَظروا في مخلوقات اللَّه حتى يَهتدوا بذلك إلى الإيمان به ، بل هُم سادرون في ضلالتهم ، خائضون في غِوايتهم ، لا يُعمِلون فِكرًا ، ولا يُمعِنون نَظَرًا)) .

واللَّهُ يَدعوهم إلى التفكر في مَخلوقاته ليَستدلوا على وَحدانيته وقُدرته، وأخذ العِبرة والموعظة. فالمصنوعُ يَدل على الصانع ، والمخلوق يَدل على الخالق . والآيةُ تُشير بوضوح إلى أهمية النظر والتأمل والتفكر في مُلْكِ اللَّه الواسع ، وضرورة الاعتبار بمخلوقاته [١١٧].

وعَلَيهم أن يَكونوا شديدي الحَذَر ، فقد يَكون مَوْتُهم قد اقتربَ ، وإذا ماتوا على الكُفر ، فمصيرُهم الخلود في نار جهنم ، ولا فُرصة للتَّعويض . إذن ، عَلَيهم المُبَادَرة إلى النظر والتفكر والإيمان قبل مَوْتهم الذي قد يَكون قريبًا . وإذا ماتوا على الكفر ، فلا فائدة من التفكر والإيمان ، لأنَّ العمل قد انقطعَ، والآخِرة دارُ الجزاء،وليس دار العمل. فيجب عليهم المُسارَعة إلى اعتناق الإسلام قبل مُفاجأة المَوت ونُزولِ العذاب .

وإذا لَم يُصدِّقوا بالقُرآن العظيم المُعجِز المُشتمل على الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، والمواعظ المؤثِّرة ، والحِكَم البليغة ، وأحوال الدُّنيا والآخِرة ، فبأيِّ كتابٍ سَيُؤمنون ؟ ، وبأيِّ كلامٍ سَيَتأثَّرون ؟ . لا يوجد كتاب سماويٌّ بعد القُرآن ، ولا يُوجد نبيٌّ بعد مُحمَّد ﷺ .

---

١١٧ قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٩٠) : ((وقد اختلف العلماء في أول الواجبات، هل هو النظر والاستدلال أو الإيمان الذي هو التصديق الحاصل في القلب الذي ليس من شرط صحته المعرفة ؟ ، فذهب القاضي وغَيره إلى أن أول الواجبات النظر والاستدلال ، لأنَّ اللَّه تبارك وتعالى لا يُعلَم ضَرورةً، وإنما يُعلَم بالنظر والاستدلال بالأدلة التي نصَبها لمعرفته ، وإلى هذا ذهب البخاري رحمه اللَّهُ ، حيث بَوَّبَ في كتابه(باب العِلم قبل القَول والعمل)لِقَول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ:﴿فاعْلَمْ أنَّهُ لا إلهَ إلا اللَّه ﴾[محمد:١٩]. قال القاضي : مَن لَم يكن عالِمًا باللَّه فهو جاهل ، والجاهل به كافر. قال ابن رُشد في مقدماته: وليس هذا بالبَيِّن، لأنَّ الإيمان يَصِحُّ باليقين الذي قد يحصل لِمَن هداه اللَّهُ بالتقليد ، وبأولِ وَهلة من الاعتبار بما أرشد اللَّهُ إلى الاعتبار بِه في غَير ما آية.قال: وقد استدل الباجي على مَن قال إنَّ النظر والاستدلال أول الواجبات، بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلِّد مؤمنين. قال: فَلَوْ كان ما ذهبوا إليه صحيحًا لَمَا صَحَّ أن يُسمَّى مؤمنًا إلا مَن عِنده عِلم بالنظر والاستدلال. قال : وأيضًا فَلَوْ كان الإيمان لا يَصِحُّ إلا بعد النظر والاستدلال ، لَجَازَ للكفار إذا غَلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم: لا يَحِلُّ لكم قَتْلُنا ، لأنَّ مِن دِينكم أن الإيمان لا يَصِحُّ إلا بعد النظر والاستدلال ، فأخِّرونا حتى ننظر ونستدل . قال : وهذا يُؤدِّي إلى تركهم على كُفرهم ، وألا يُقْتَلوا حتى يَنظروا ويَستدلوا . قلتُ : هذا هو الصحيح في الباب)) .

والمعنى : إذا لَم يُؤثِّر فِيهم كلامُ اللَّه الخالق العظيم، فَلَن يَتأثروا بكلام المخلوقين العاجزين . وفي الاستفهام تَوبيخٌ لهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٧٨) : ((﴿ أوَلَمْ يَنظُروا ﴾ نظر استدلال . ﴿ في مَلَكُوتِ السَّماواتِ والأرضِ وما خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ ما يَقع عَلَيه اسم الشَّيء مِنَ الأجناس التي لا يمكن حَصْرُها، لِيَدُلَّهم على كمال قُدرة صانعها ، ووَحدانيةِ مُبدِعها ، وعِظَمِ شأن مالكها ومُتولِّي أمرها، لِيَظهر صِحَّة ما يَدعوهم إلَيه ... ﴿ فَبِأيِّ حَديثٍ بَعْدَهُ ﴾ أي بعد القُرآن ﴿ يُؤمِنُون ﴾ إذا لَم يُؤمنوا بِه ، وهو النهاية في البَيان . كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحُجَّة ، والإرشادِ إلى النظر . وقِيل : هو مُتعلِّق بِقَوله : ﴿ عَسَى أن يَكُونَ ﴾ كأنه قِيل : لَعَلَّ أجَلَهم قد اقتربَ ، فما بالُهم لا يُبادِرون الإيمانَ بالقُرآن ، وماذا ينتظرون بعد وُضوحه ، فإن لَم يؤمنوا به فبأيِّ حديثٍ أحق منه يُريدون أن يُؤْمنوا به ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَكَأيِّن مِنْ آيةٍ في السَّمَاواتِ والأرضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُم عَنْهَا مُعْرِضُون ﴾ [يُوسُف : ١٠٥] .

كَم مِن الحُجَج والبراهين والآيات والعلامات الدَّالة على وجود اللَّه ووَحدانيته وأُلوهيته ، في السماوات والأرض ، كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والأشجار ، وغَير ذلك مِن العجائب والمصنوعات والآيات . يُشاهدونها في كُل وقت وحِين ، ليلًا ونهارًا ، ويَمُرُّون بها ، ولا يُفكِّرون في عَظَمَتها، ولا يَتَأمَّلون في إعجازها، ولا يَعتبرون بإبداعها ونظامها المُحْكَم ، ولا يَهتدون إلى الحق ، ولا يؤمنون . والآية تذمُّ الذين يُعرِضون عن آيات اللَّه ، ولا يتفكرون فيها ، ولا يتدبَّرونها ، ولا يتأمَّلون في المخلوقات الباهرة التي تدلُّ على وجود الخالق وَوَحدانيته وعَظَمَته وقُدرته وإبداعه . والمخلوقُ يدل على الخالق ، وإتقانُ الصُّنع يدل على عَظَمَة الصانع .

وإذا رَفض الكفارُ نُبُوَّةَ مُحَمَّد ﷺ، وجَحدوا رسالته، فهذا الأمر ليس غريبًا ولا عجيبًا، لأنهم أعرَضوا عن آيات اللَّه الباهرة الماثلة أمام أعينهم.فكيف سَيُصدِّقون بِنُبُوَّة مُحمَّد ﷺ ويؤمنون به ؟.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٨٣) : ((والمعنى : كَم مِن آية تَدُلُّهم على توحيد اللَّه كائنة في السماوات ، مِن كَوْنها منصوبة بغير عَمَد ، مُزيَّنة بالكواكب النيِّرة السَّيارة والثوابت. وفي الأرض مِن جِبالها وقِفارها وبِحارها ونباتها وحيواناتها ، تَدُلُّهم على توحيد اللَّه سُبحانَه ، وأنه الخالق لذلك، الرَّزاق له، المُحيي والمُميت ، ولكن أكثر الناس يَمُرُّون على هذه الآيات غَير مُتأمِّلين لها، ولا مُفكِّرين فيها ، ولا مُلتفتين إلى ما تدل عليه مِن وجود خالقها ، وأنه المنفرد

بالأُلُوهية ، معَ كَوْنهم مُشاهدين لها . ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيها وَهُم عَنْهَا مُعْرِضُون ﴾ . وإن نظروا إليها بأعيانهم ، فقد أعرَضوا عمَّا هو الثمرة للنظر بالحَدَقة ، وهي التفكر والاعتبار والاستدلال)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَيَسألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبِّي وما أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

يَسألك يا مُحمَّد الكُفَّارُ عن الرُّوح ، ما هي ؟ ، وما حقيقتها ؟ ، فقُل لهم إنَّها مِن الأشياء التي استأثرَ اللَّهُ بعِلْمها، وهي سِر لا يَعْلَمه إلا اللَّهُ تعالى،وما أُوتيتم مِن العِلْم أيُّها الناس إلا شيئًا قليلًا . وعِلْم الناس قليل ومحدود ، أمَّا عِلْمُ اللَّه فهو مُطْلَق وشامل لكُل شيء . وبعبارة أُخرى ، مَهما كان عِلْم الناس كثيرًا ، فهو بالإضافة إلى عِلْم اللَّهِ قليلٌ ، لا يُذكَر .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٨١ و٨٢): ((قَوله تعالى: ﴿ وَيَسألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ في سبب نُزولها قَولان : أحدهما أنَّ رسول اللَّه ﷺ مَرَّ بناس مِن اليَهود ، فقالوا : سَلُوه عَن الرُّوح ، فقال بعضُهم : لا تَسألوه فيَستقبلكم بما تَكْرَهُون ، فأتاه نَفَر مِنهُم، فقالوا: يا أبا القاسم ، ما تقول في الرُّوح ، فسكت ، ونزلت هذه الآية ، قاله ابن مسعود . والثاني أنَّ اليَهود قالت لِقُرَيش : سَلُوا مُحَمَّدًا عَن ثلاث ، فإنْ أخبركم عن اثنتَيْن ، وأمسكَ عَن الثالثة ، فهو نبيٌّ . سَلُوه عَن فِتْيَة فُقِدُوا، وسَلُوه عن ذِي القَرْنَيْن ، وسَلُوه عَن الرُّوح ، فَسَألوه عَنها ، ففسَّر لهم أمرَ الفِتْيَة في الكَهْف ، وفسَّر لهم قِصَّة ذِي القَرْنَيْن، وأمسكَ عَن قِصَّة الرُّوح،فنزلت هذه الآية، رواه عطاء عن ابن عباس. وفي المُراد بالرُّوح هاهنا سِتَّة أقوال : أحدها أنَّه الرُّوح الذي يَحْيَا به البَدَن ، روى هذا المعنى العَوفي عن ابن عباس . وقد اختلف الناس في مَاهِيَّة الرُّوح ، ثُمَّ اختلفوا هل الرُّوح النَّفْس أَمْ هُما شيئان ، فلا يُحتاج إلى ذِكْر اختلافهم ، لأنَّه لا بُرهان على شيء مِن ذلك ، وإنَّما هو شيء أخذوه عن الطب والفلاسفة،فأمَّا السَّلَف فإنَّهُم أمْسَكُوا عَن ذلك لقَوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِن أمْرِ رَبِّي ﴾ فلمَّا رَأَوْا أن القَوم سألوا عن الرُّوح فلم يُجابوا ، والوَحْي يَنزِل ، والرَّسُول حَي ، عَلِمُوا أن السُّكوت عمَّا لَم يُحَطْ بحقيقة عِلْمِه أَوْلَى. والثاني أنَّ المُراد بهذا الرُّوح مَلَك مِن المَلائكة على خِلْقَة هائلة، رُوِيَ عن عليٍّ عليه السلام وابن عباس ومُقاتل . والثالث أنَّ الرُّوح خَلْق مِن خَلْق اللَّه عَزَّ وَجَلَّ صوَّرهم على صُوَر بني آدم ، رواه مُجاهد عن ابن عباس . والرابع أنَّه جِبريل عليه السلام ، قاله الحَسَن وقَتادة . والخامس أنَّه القُرآن ، رُوِيَ عن الحَسَن أيضًا . والسادس أنَّه عِيسى بن مَرْيَم ، حكاه الماوردي. قال أبو سُلَيمان الدمشقي: قَد ذَكَرَ اللَّهُ تعالى الرُّوحَ في مواضع مِن القُرآن ، فغالب ظَنِّي أن النَّاقلين نَقَلُوا تفسيرَه مِن مَوضِعه إلى مَوْضِع لا يَلِيق به ، وظَنُّوه مِثْلَه، وإنما هو

الرُّوح الذي يَحْيَى به ابنُ آدم. وقَوله : ﴿ مِن أمْرِ رَبِّي ﴾ ، أي: مِن عَمَلِه الذي مَنَعَ أن يَعرِفه أحد. قَوله تعالى: ﴿وما أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلا قَلِيلًا ﴾ في المُخَاطَبِين بهذا قَولان:أحدهما أنَّهُم اليهود، قاله الأكثرون.والثاني أنَّهُم جميع الخَلْق،عِلْمهم قليل بالإضافة إلى عِلْم اللَّه عَزَّ وَجَلَّ،ذَكَرَه الماوردي))

وعن ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما قال:قالت قُرَيش لليهود:أعطُونا شيئًا نسأل عنه هذا الرَّجل (يَقصِدون النبيَّ ﷺ) ، فقالوا : سَلُوه عن الرُّوح، فَنَزلت: ﴿ ويَسألونكَ عن الرُّوحِ قُل الرُّوحُ مِن أمرِ ربي وما أُوتيتُم مِن العِلْمِ إلا قليلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. قالوا : نَحْنُ لَم نُؤتَ مِن العِلْم إلا قَليلًا، وقد أُوتينا التَّوراة،فِيها حُكم اللَّه ، وَمَن أُوتِيَ التَّوراةَ فقد أُوتِيَ خَيْرًا كثيرًا، قال:فَنَزلت : ﴿ قُل لَوْ كانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [١١٨].

إنَّ اليهود كانوا يتلاعبون بِمُشركي العرب . وهؤلاء المشركون كانوا مُصابين بعُقدة النَّقْص ، لأنَّهم جُهَّال مُنقطعون عن السماء ، ويَعبدون الأصنام . لذلك كانوا ينظرون إلى اليهود نظرة احترام وتعظيم ، فاليهودُ أهل كتاب لَدَيهم التَّوراة ، وهي بالأصل كتاب سماويٌّ ، ولكن طَرأ عليه التحريف والتغيير. ولَدَيهم العلماء والكتب الدينية . وقد حاولت قُرَيش أن تتحدَّى النبيَّ ﷺ وتُفحمه وتُحْرِجه، فتوجَّهت إلى اليهود كَي تطلب منهم شيئًا تسأل النبيَّ ﷺ عنه ، لعلَّه يَعجِز عن الإجابة ويتمُّ إفحامه _ وَفْق تفكير المشركين _ . وقَول اليهود : " سَلُوه عن الرُّوح " ، يدل على عِلْمهم وتبحُّرهم في دراسة الكتب الدينية. إذْ إن الرُّوح لا يَعْلَمُها إلا اللَّه.وقد كان النبيُّ ﷺ صادقًا وأمينًا، فلم يُفْتِ بِغَير عِلْم ، ولَم يَخترع جوابًا من أفكاره الشخصية ، ليَظهر بمَظهَر العالِم الذي يَعرف كُلَّ شيء ، ولا يُعجِزه شَيء . ونزلت آية الرُّوح التي تُشير إلى ضعف الناس وقِلَّة عِلْمهم وعَجزهم عن معرفة الكثير من الأشياء . وهذا الأمرُ لَم يَرُق لليهود الذين يعتبرون أنفسهم أعظم العلماء ، وأكبر المفكِّرين، وأصابهم الغُرور والتَّكَبُّر بسبب نُزول التَّوراة عليهم . وبيَّن اللَّهُ لهم أن كلمات اللَّه ومواعظه ليس لها نهاية. ولا يُمكن لمخلوق أن يُحيط بها ، كائنًا مَن كان . وهذه القصةُ تدل على غُرور اليهود وعِنادهم واستكبارهم،وتكبُّرهم على الناس،فَهُم يَفتخرون بِنُزول التَّوراة عليهم،مَعَ أنهم لا يَعملون بما فيها،ولا يسيرون على خُطى مُوسى ﷺ.وقد حَرَّفَ اليهودُ التَّوراةَ وتلاعبوا بنصوصها .

وعن عبد اللَّه_ رضي اللَّهُ عنه_ قال: بَيْنَا أنا معَ النبيِّ ﷺ في حَرْثٍ وَهُوَ مُتَّكِئٌ على عَسِيب، إذْ مَرَّ اليهودُ ، فقال بَعْضُهم لبَعْض : سَلُوه عَن الرُّوح ؟ ، فقال : ما رَابَكُم إلَيه ؟ ، وقال بعضُهم :

---

١١٨ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٧٩) برقم (٣٩٦١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لا يَسْتَقْبِلُكُم بشَيء تَكْرَهُونه ، فقالوا : سَلُوه ، فَسَألوه عن الرُّوح ، فأمسكَ النبيُّ ﷺ ، فَلَم يَرُدَّ عَلَيهِم شيئًا ، فَعَلِمْتُ أنَّه يُوحَى إلَيه ، فَقُمْتُ مَقَامي ، فلمَّا نَزَلَ الوَحْيُ ، قال: ((﴿ وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أمْرِ رَبِّي وما أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلا قَلِيلًا ﴾)) [١١٩].

كان عبد اللَّه بن مسعود ــ رضي اللَّهُ عنه ــ معَ النبيِّ ﷺ في أرض مزروعة ، والنبيُّ ﷺ مُعْتَمِد على جريدة النَّخْل. إذْ مَرَّ نَفَرٌ مِن اليهود ، وحاولوا إفحامَ النبيِّ ﷺ وإحراجه بسؤاله عن الرُّوح ، وبالتالي يُعجِزونه عن الجواب ــ وَفْق تفكيرهم القاصر ــ ، ويُثيرون الشُّكوكَ والشُّبهات حَوْلَه . وقد سكت النبيُّ ﷺ ، ولم يَرُدَّ عليهم ، وأوْحَى اللَّهُ إلَيه هذه الآية : ﴿ وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أمْرِ رَبِّي وما أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلا قَلِيلًا ﴾ ، التي أفحمت اليهودَ ، فلم يَستطيعوا الكلامَ . ومعنى الآية : إنَّ الرُّوح سِر إلهيٌّ ، استأثرَ اللَّهُ بِعِلْمه ، ولا أحد يَعْلَمه سِوَاه . وإنَّ العِلْم الذي لَدَى الناس شيء قليل وضئيل وبسيط ، لأنَّ عِلْم الإنسان محدود ، وعَقله قاصر . وأسرارُ الوجود أكبر وأوسع مِن قُدرات العقل البشري المحدود .

والحديثُ مِن دَلائل النُّبُوَّة ومُعجِزات النبيِّ ﷺ، حيثَ أخبرَ فيه عَن أمرٍ غَيْبِيٍّ ، وهو ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتُب ، ولم يُجالس العُلماءَ ، ولم يطَّلع على الطِّب وأسرارِ الجِسْم البشريِّ وتَركيبه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٣٧ و١٣٨) : ((قَوله : (سَلُوه عَن الرُّوح ، فقالوا : ما رَابَكُم إلَيه ؟ ، لا يَستقبلكم بشَيء تَكرهونه) ، هكذا في جميع النُّسَخ : ما رَابَكُم إليه ؟ ، أي : ما دعاكم إلى سؤاله أوْ ما شَكُّكُم فيه حتى احتجتم إلى سؤاله أو ما دعاكم إلى سُؤال تَخْشَوْنَ سُوء عُقباه ؟ . ... . قال المازري: الكلام في الرُّوح والنَّفْس مِمَّا يَغمُض ويَدِق، ومع هذا فأكثر الناس فيه الكلام ، وألَّفوا فيه التآليف . قال أبو الحسن الأشعري : هو النَّفَس الداخل والخارج. وقال ابن الباقلاني : هو مُتردِّد بين هذا الذي قاله الأشعري وبين الحياة . وقِيل: هو جِسم لطيف مُشارك للأجسام الظاهرة والأعضاء الظاهرة . وقال بعضُهم : لا يَعْلَم الرُّوحَ إلااللَّهُ تعالى لقَوله تعالى : ﴿ قُل الرُّوحُ مِن أمرِ ربي ﴾ ، وقال الجمهور : هي مَعلومة . واختلفوا فيها على هذه الأقوال . وقِيل : هي الدَّم . وقِيل غَير ذلك . ولَيس في الآية دليل على أنَّها لا تُعلَم ، ولا أن النبيَّ ﷺ لَم يَكُن يَعْلَمها ، وإنَّما أجاب بِما في الآية الكريمة ، لأنَّه كان عِندهم أنَّه إنْ أجابَ بتفسير الرُّوح فلَيْسَ بنبيٍّ . وفي الرُّوح لُغَتان التَّذكير والتَّأنيث ، واللَّهُ أعلم)) .

---

١١٩ متفق عليه.البخاري (٤/ ١٧٤٩) برقم (٤٤٤٤)،ومسلم (٤/ ٢١٥٢) برقم (٢٧٩٤) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ والأرضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أفَلا يُؤْمِنُون ﴾ [الأنبياء : ٣٠] [١٢٠].

الاستفهامُ للتَّوبيخ . أَوَلَمْ يَعْلَمْ هؤلاء الكافرون أنَّ السَّماواتِ والأرضَ كانتا شيئًا واحدًا ، مُلْتَصِقَتَيْن ، لَيس فِيهما ثَقْب، فَفَصَلَ اللَّهُ بينهما بالهواء ، وجعل السَّماءَ سَبْعًا ، والأرضَ سَبْعًا . أوْ : فَتَقَ السَّماءَ فصارت تُمطِر بَعد أن كانت لا تُمطِر ، وفَتَقَ الأرضَ فصارت تُنبِت بَعد أن كانت لا تُنبِت ، ففتحهما اللَّهُ سُبحانَه بالمَطَر والنَّبات،وجَعَلَ اللَّهُ الماءَ أصلَ الأحياء وسَبَبَ الحياة ، أي إنَّ اللَّه خَلَقَ مِن الماء كُلَّ شَيء حَي ، ولا يُمكن أن يَعيش الإنسانُ والحَيَوَانُ والنَّبَاتُ بدُون الماء ، أفلا يُصدِّقون بقُدرة اللَّه معَ ظُهور الآيات الباهرة والدلائل السَّاطعة ؟ . ومِن المُحَال أن تُوجَد هذه الآيات بنَفْسها . ولا بُد لها مِن خالق قادر حكيم مُدبِّر . والحادثُ يدلُّ على المُحْدِث ، ولا يَجوز أن يَكون الخالقُ القديمُ مُحْدَثًا ، لأنَّ القادر على الخَلْق لا يَكُون مَخلوقًا ، وفاقد الشَّيء لا يُعطيه.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣٨) : ((يَقول تعالى مُنَبِّهًا على قُدرته التَّامَّة ، وسُلطانه العظيم في خَلْقه الأشياء ، وقَهْره لجَميع المَخلوقات ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذينَ كَفَرُوا ﴾ أي الجاحدون لإلهيته ، العابدون معه غَيْرَه . أَلَمْ يَعْلَمُوا أنَّ اللَّه هو المُستقِل بالخَلْق، المُستبِد بالتدبير

---

١٢٠ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٤٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذينَ كَفَرُوا ﴾ ، أي: أَوَلَمْ يَعْلَمُوا. ... . ﴿ أَنَّ السَّمَاوَاتِ والأرضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ . قال أبو عُبَيدة: السَّماوات جَمْع، والأرض واحدة، فخرجت صِفة لفظ الجمع على لفظ صِفة الواحد، والعرب تَفعل هذا إذا أشركوا بين جمع وبين واحد. والرَّتْق مَصدَر يُوصَف به الواحد والاثنان والجمع والمذكَّر والمؤنَّث سَوَاء.ومعنى الرَّتْق الذي ليس فيه ثَقْب. قال الزَّجاج: المعنى: كانتا ذَوَاتَي رَتْق فجعلهما ذَوَات فَتْق ، وإنما لم يَقُلْ: رَتْقَيْن،لأنَّ الرَّتْق مَصدَر. وللمُفسِّرين في المراد به ثلاثة أقوال:أحدها أنَّ السَّماوات كانت رَتْقًا لا تُمطِر، وكانت الأرض رَتْقًا لا تُنبِت، فَفَتَقَ هذه بالمطر، وهذه بالنَّبات، رواه عبد اللَّه بن دينار عن ابن عباس، وبه قال عَطاء وعِكرمة ومُجاهد في رواية والضَّحاك في آخرين . والثاني أنَّ السَّماوات والأرض كانتا مُلْتَصِقَتَيْن فَفَتَقَهُمَا اللَّهُ تعالى. رواه العَوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن وسَعيد بن جُبَير وقَتادة . والثالث أنَّه فَتَقَ مِن الأرض سِتَّ أرْضِين فصارت سَبْعًا، ومِن السَّماء سِتَّ سماوات فصارت سَبْعًا، رواه السُّدي عن أشياخه وابن أبي نَجِيح عن مُجاهد . قَوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ . ... . وفي هذا الماء قَولان: أحدهما أنَّه الماء المعروف، والمعنى جَعَلْنا الماءَ سَبَبًا لحياة كُل حَي،قاله الأكثرون.والثاني أنَّه النُّطفة، قاله أبو العالية)) .

فكَيف يَلِيق أن يُعْبَد معه غَيْرُه ، أوْ يُشرَك به ما سِواه؟. أَلَمْ يَرَوْا أنَّ السَّماوات والأرض كانتا رَتْقًا ، أي : كان الجميع مُتَّصِلًا بعضه ببعض ، مُتلاصق مُتراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ، فَفَتَقَ هذه مِن هذه، فَجَعَلَ السَّماواتِ سَبْعًا ، والأرضَ سَبْعًا ، وفَصَلَ بَين السَّماء الدُّنيا والأرض بالهَواء، فأمطرت السَّماءُ، وأنبتت الأرضُ ، ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أفَلا يُؤْمِنُون ﴾ ، أي: وهُم يُشاهدون المَخلوقات تحدث شيئًا فشيئًا عِيَانًا ، وذلك كُلُّه دليل على وُجود الصانع الفاعل المُختار القادر على ما يشاء .

فَفِي كُلِّ شَيء له آيةٌ تدلُّ عَلى أنَّه واحد

قال سُفيان الثَّوري عن أبيه عن عِكرمة قال : سُئل ابن عباس : الليل كان قَبْل أو النَّهار ؟، فقال : أرأيتُم السَّماوات والأرض حِين كانتا رَتْقًا ، هل كان بَينهما إلا ظُلمة ؟ ، ذلك لِتَعْلَمُوا أنَّ الليل قَبْل النَّهار. وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثَنا أبي حَدَّثَنا إبراهيم بن حمزة حَدَّثَنا حاتم عن حمزة بن أبي مُحمَّد عن عبد اللَّه بن دينار عن ابن عُمر أنَّ رَجُلًا أتاه يَسأله عن السَّماوات والأرض كانتا رَتْقًا ففتقناهما، قال : اذهب إلى ذلك الشَّيخ فاسأله ، ثُمَّ تعالَ فأخبرني بما قال لك ، قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس : نَعَم ، كانت السَّماواتُ رَتْقًا لا تُمطِر ، وكانت الأرضُ رَتْقًا لا تُنبِت ، فلمَّا خَلَقَ للأرض أهْلًا فَتَقَ هذه بالمطر ، وفَتَقَ هذه بالنَّبات ، فرجع الرَّجل إلى ابن عُمر فأخبره ، فقال ابن عُمر : الآن قد عَلِمْتُ أنَّ ابن عباس قد أُوتِيَ في القُرآن عِلْمًا ، صَدَقَ ، هكذا كانت . قال ابن عُمر : قد كُنتُ أقول : ما يُعجبني جَراءة ابن عباس على تفسير القرآن ، فالآن عَلِمْتُ أنَّه قد أُوتِيَ في القُرآن عِلْمًا ، وقال عَطِيَّة العَوفي : كانت هذه رَتْقًا لا تُمطِر فأمطرت ، وكانت هذه رَتْقًا لا تُنبِت فأنبتت . وقال إسماعيل بن أبي خالد : سألتُ أبا صالح الحنفي عَن قَوله : ﴿ أنَّ السَّمَاوَاتِ والأرضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ، قال : كانت السَّماءُ واحدةً ، فَفَتَقَ مِنها سَبْعَ سَماوات ، وكانت الأرضُ واحدةً ، فَفَتَقَ مِنها سَبْعَ أرْضِين ، وهكذا قال مجاهد وزاد : وَلَم تكن السماء والأرض مُتَمَاسَّتَيْن . وقال سعيد بن جُبَير : بل كانت السماء والأرض مُلتزقتَيْن ، فلمَّا رَفَعَ السماءَ ، وأبرزَ مِنها الأرضَ ، كان ذلك فَتْقَهما الذي ذَكَرَ اللَّهُ في كتابه . وقال الحَسَن وقَتَادة : كانتا جَميعًا ، فَفَصَلَ بَينهما بهذا الهَواء . وقَوله : ﴿ وَجَعَلْنا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ، أي : أصل كُل الأحياء مِنه . قال ابن أبي حاتم : حَدَّثَنا أبي حَدَّثَنا أبو الجماهر حَدَّثَنا سعيد بن بشير حَدَّثَنا قَتادة عن أبي مَيمونة عن أبي هُرَيرة أنَّه قال : يا نَبِيَّ اللَّه ، إذا رأيتُكَ قَرَّتْ عَيني ، وطابت نَفْسي ، فأخْبِرْنا عَن كُل شيء ، قال : " كُلُّ شَيء خُلِقَ مِن مَاء " . وقال الإمام أحمد : حَدَّثَنا

يزيد حَدَّثَنا هَمَّام عَن قَتادة عن أبي مَيمونة عن أبي هُرَيرة ، قال : قُلتُ : يا رسول اللَّه ، إنِّي إذا رأيتُكَ طابت نَفْسي ، وقَرَّتْ عَيني ، فأنبئني عَن كُل شيء ، قال: "كُلُّ شيء خُلِقَ مِن ماء "، قال: قُلتُ : أنبئني عَن أمر إذا عَمِلْتُ به دَخَلْتُ الجَنَّةَ ، قال : " أَفْشِ السَّلامَ ، وأَطْعِم الطَّعَامَ ، وَصِلِ الأرحام ، وقُمْ بالليل والناس نِيَام، ثُمَّ ادْخُل الجَنَّةَ بسلام". ورواه أيضًا عن عبد الصَّمد وعَفَّان وبَهْز عن هَمَّام ، تَفَرَّدَ به أحمد، وهذا إسناد على شرط الصحيحين إلا أنَّ أبا مَيمونة مِن رجال السُّنَن، واسمه سُلَيم ، والتِّرمذي يُصحِّح له، وقد رواه سَعيد بن أبي عَروبة عَن قَتادة مُرْسَلًا، واللَّهُ أعلم)).

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٨٠) : ((﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذينَ كَفَرُوا ﴾ الهَمزة للإنكار ، والواو للعَطْف على المُقدَّر، والرُّؤية هي القَلْبِيَّة ، أي : ألَم يتفكَّروا ، أوَلَم يَعْلَمُوا ﴿ أنَّ السَّمَاوَاتِ والأرضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ ، قال الأخفش : إنَّما قال : ﴿ كَانَتَا ﴾ ، لأنَّهما صِنفان ، أي : جَمَاعتا السَّماوات والأرْضِين . ... . وقال الزَّجاج : إنَّما قال : ﴿ كَانَتَا ﴾ لأنَّه يُعبِّر عَن السَّماوات بلَفْظ الواحد ، لأنَّ السَّماوات كانت سماءً واحدة ، وكذلك الأرْضُون . والرَّتْقُ السَّد ضِد الفَتْق . ... . يَعني أنَّهما كانتا شيئًا واحدًا مُلتزقتَيْن ، فَفَصَلَ اللَّهُ بَينهما ، وقال : ﴿ رَتْقًا ﴾ ، وَلَم يَقُلْ : رَتْقَيْن ، لأنَّه مَصدَر ، والتَّقدير : كانتا ذَوَاتَي رَتْق ، ومعنى ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ فَفَصَلْناهُما، أي: فَصَلْنا بَعْضَهما مِن بَعْض، فَرَفَعْنا السَّمَاءَ ، وأبْقَيْنا الأرضَ مَكَانَها ﴿ وَجَعَلْنا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ، أي : أحْيَيْنا بالماء الذي نُنزِّله مِن السَّماء كُلَّ شيء ، فيَشمَل الحَيَوَانَ والنَّبَاتَ . والمعنى أنَّ الماء سَبَب حَياة كُل شيء ، وقِيل : المُراد بالماء هُنا النُّطفة ، وبه قال أكثر المُفسِّرين ، وهذا احتجاج على المُشركين بقُدرة اللَّه سُبحانَه ، وبديع صُنعه . ... . والهَمزة في ﴿ أفَلا يُؤْمِنُون ﴾ للإنكار عَلَيهم ، حيث لَم يُؤْمِنُوا معَ وُجود ما يَقتضيه مِن الآيات الرَّبانية)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فَاطِر : ٢٧]. أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللَّه بقُدرته المُطْلَقَة أنزلَ مِن الغُيوم المطرَ ؟. والرُّؤيةُ المَقصودة بالآية هي القَلْبِيَّة. فأخرجَ اللَّهُ بهذا المطر (الماء) الثَّمَرَات ذات الأصناف المُختلفة، والأشكال المُتنوِّعة، والألوان المُتعدِّدة، بَعضها أبيض ، وبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر ، وبعضها أسود . وهذه الثَّمَراتُ مُختلفٌ أجناسها مِن الرُّمَّان والتُّفَّاح والتِّين والعِنب ، وغَيرها مِمَّا لا يُمكن حَصْره ولا تحديده . الماءُ واحدٌ ، والثَّمَرَات مُختلفة . وخَلَقَ اللَّهُ الجِبَالَ التي تَحتوي على طرائق مُختلفة الألوان ، فَمِن الجِبال جُدَد (طرائق) بِيض مُختلفة البَيَاض ، وحُمْر مُختلفة الحُمرة، وجِبَال سُود غرابيب (شديدة السَّواد) .

والآيةُ تُبيِّن قُدرةَ اللَّه الباهرة ، الذي أوجدَ المَخلوقات المُتقَنة ، والمَخلوق المُتقَن يدلُّ على الخالق المُبدِع القادر الحكيم . فالفواكهُ والثِّمارُ مُختلفة الألوان ، والجِبَالُ الصُّلبة مُختلفة الألوان، وهذه الألوان المُختلفة تُشير إلى كَمَال قُدرة اللَّه ، الذي يُغيِّر ولا يتغيَّر .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ اللَّه لَم يَقُلْ : فأخرجَ ، وإنَّما قال : ﴿ فَأَخْرَجْنا ﴾ . والالتفاتُ للاعتناء بالفِعل الذي يُشير إلى قُدرة اللَّه المُطْلَقَة ، وحِكمته البالغة ، وعِلْمه الشامل ، وصُنعه البديع .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٢٩) : ((يَقول تعالى مُنَبِّهًا على كَمَال قُدرته في خَلْقه الأشياء المُتَنَوِّعة المُختلفة مِن الشَّيء الواحد ، وهو الماء الذي يُنزِله مِن السَّماء يُخرِج بِه ثَمَرات مُختلفًا ألوانُها مِن أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غَير ذلك ، مِن ألوان الثِّمار ، كما هو المُشَاهَد مِن تَنَوُّع ألوانها وطُعُومها وروائحها. ... . وقَوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ ، أي : وخَلَقَ الجِبَالَ كذلك مُختلفة الألوان ، كما هو المُشَاهَد أيضًا ، مِن بِيض وحُمْر ، وفي بَعْضها طرائق ، وهي الجُدَد ، جَمْع جُدَّة ، مُختلفة الألوان أيضًا . قال ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : الجُدَد الطرائق . وكذا قال أبو مالك والحَسَن وقَتادة والسُّدي ، ومِنها غَرَابيب سُود . قال عِكرمة: الغَرَابيب الجِبَال الطِّوال السُّود ، وكذا قال أبو مالك وعَطَاء الخُرَاساني وقَتادة. وقال ابن جرير : والعرب إذا وَصفوا الأسود بكثرة السَّواد قالوا : أسْوَد غِرْبيب، ولهذا قال بعضُ المُفسِّرين في هذه الآية : هذا مِن المُقدَّم والمُؤخَّر في قَوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ ، أي: سُود غَرَابيب ، وفيما قاله نَظَر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ والدَّوَابِ والأنعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كذلك ﴾ [فَاطِر : ٢٨] .

جَعَلَ اللَّهُ مِن الناس والدَّوَاب والأنعام خَلْقًا مُخْتَلِفًا ألوانُه ، كاختلاف الثَّمَرات والجِبال في اختلاف الألوان (الحُمرة والبَيَاض والسَّواد والصُّفرة ، وغَير ذلك) . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٢٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ والدَّوَابِ والأنعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كذلك ﴾ ، أي : كذلك الحيوانات مِن الأناسيِّ والدَّوَاب ، وهو كل ما دَبَّ على القوائم ، والأنعام ، مِن باب عَطْف الخاص على العام ، كذلك هي مُختلفة أيضًا ، فالناس مِنهُم بَربَر وحُبُوش وطماطم في غاية السَّوَاد، وصقالبة ورُوم في غاية البَيَاض ، والعَرَب بَين ذلك ، والهُنود دُون ذلك)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤٩٤) : ((﴿ وَمِنَ النَّاسِ والدَّوَابِ والأنعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ . قَوله : ﴿ مُخْتَلِفٌ ﴾ صِفَة لمَوصوف مَحذوف ، أي : ومِنهُم صِنف أوْ نَوع أوْ بَعض ، مُختلفٌ ألوانُه بالحُمرة والسَّوَاد والبَيَاض والخُضرة والصُّفرة . قال الفَرَّاء : أي خَلْقٌ مُختلفٌ ألوانه

كاختلاف الثَّمَرات والجِبال ، وإنَّما ذَكَرَ سُبحانَه اختلافَ الألوان في هذه الأشياء ، لأن هذا الاختلاف مِن أعظم الأدلة على قُدرة اللَّه ، وبَديع صُنعه . ومعنى ﴿ كذلك ﴾ ، أي : مُخْتَلِفًا مِثْل ذلك الاختلاف ، وهو صِفة لمَصدَر مَحذوف . والتَّقدير : مُختلف ألوانُه اختلافًا كائنًا كذلك ، أي: كاختلاف الجِبال والثِّمار)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيُرِيكُم آياتِهِ فأيَّ آياتِ اللَّهِ تُنكِرُون ﴾ [غَافِر : ٨١] .

ويُريكم اللَّهُ حُجَجَه في الآفاق وفي أنفسكم ، ويُظهِر لكم دلائلَه التي تُشير إلى وَحدانيته ، وقُدرته المُطْلَقَة ، وعِلْمه الشامل ، وحِكمته البالغة ، ورحمته الواسعة ، فأيَّ آية مِن تِلك الآيات الباهرة والدلائل العظيمة تُنكِرون مَعَ وُضوحها وكَثرتها ؟ . وهذا استفهام تَوبيخ .

لقد وبخَّهم اللَّهُ بسبب إنكارهم لوَحدانيته معَ ظُهور آياته الباهرة الكثيرة ، التي لا يُمكن لعاقل أن يُنكِرها ويَجحَدها إلا إذا كان مُكَابِرًا مُعَانِدًا ، والكُفرُ عِنَاد . ومَن كان قادرًا على هذه الآيات الباهرة فهو قادرٌ على البَعْث والنُّشُور ، فلا مَعنى للإنكار ، ولا فائدة مِن الجُحُود .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٨١): ((﴿ وَيُرِيكُم آياتِهِ ﴾ ، يَقول: ويُريكم حُجَجَه ﴿ فأيَّ آياتِ اللَّهِ تُنكِرُون ﴾ ، يَقول : فأيَّ حُجَج اللَّه التي يُريكم أيُّها الناس في السماء والأرض تُنكِرون صِحَّتَها ، فتُكذِّبون مِن أجل فَسَادها بتَوحيد اللَّه ، وتَدْعُون مِن دُونه إلَهًا)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧١٦) : ((﴿ وَيُرِيكُم آياتِهِ ﴾ ، أي : دَلالاته الدَّالة على كَمَال قُدرته ووَحدانيته ، ﴿ فأيَّ آياتِ اللَّهِ تُنكِرُون ﴾ ، فإنَّها كُلُّها مِن الظُّهُور وعَدَم الخَفَاء ، بحَيث لا يُنكِرها مُنكِر ، ولا يَجحَدها جاحد ، وفيه تَقريع لهم ، وتَوبيخ عظيم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أفَلَمْ يَسِيرُوا في الأرضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الذينَ مِن قَبْلِهِم كانوا أكْثَرَ مِنْهُم وأشَدَّ قُوَّةً وآثَارًا في الأرضِ فَمَا أغْنَى عَنْهُم ما كانوا يَكْسِبُون ﴾ [غَافِر : ٨٢] .

الاستفهامُ إنكاري . أفَلَمْ يَسِرْ هؤلاء المُشركون في الأرض ويتجوَّلوا فِيها ، لِيَعْرِفُوا عاقبةَ الكافرين المُكذِّبين الذين تكبَّروا على اللَّه تعالى ، وتمرَّدوا على أوامره ونَوَاهيه ، ويُشاهدوا آثارَ الأُمم السالفة قَبْلهم ، ماذا حَلَّ بِهم مِن العذاب ، وماذا أصابهم مِن العِقاب ، بسبب كُفرهم وتكذيبهم وعِنادهم ؟ . كانوا أكثرَ عَدَدًا مِن قُرَيش (أهل مَكَّة) ، وأقوى مِنهُم ، وتَركوا المصانعَ الكبيرةَ والقُصُورَ الشامخة ، وهي آثارُهم الدَّالَّة عَلَيهم ، فَلَم يَنفعهم ما كانوا يَكسبونه مِن الأبنية والأموال شيئًا ، ولا حَمَاهم مِن العذاب ، ولا أنقذهم مِن العِقَاب . وهذا احتجاج على قُرَيش بما أنزلَ اللَّهُ بالكافرين في الأُمَم السابقة مِن العذاب ، الذين كانوا أكثرَ مِنهُم ، وأشدَّ قُوَّةً .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٨١) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : أفَلَمْ يَسِرْ يا مُحمَّد هؤلاء المُجَادِلُون في آيات اللَّه مِن مُشركي قَومك في البلاد ، فإنَّهم أهل سَفَر إلى الشَّأم واليَمَن ، رِحلتهم في الشِّتاء والصَّيف، فيَنظروا فِيما وَطِئُوا مِن البلاد إلى وقائعنا بمَن أوْقَعْنا بِه مِن الأُمَم قَبْلهم ، ويَرَوْا ما أحْلَلْنا بِهم مِن بَأسنا بتكذيبهم رُسُلَنا ، وجُحودهم آياتنا ، كيف كان عُقبَى تكذيبهم ، ﴿ كانوا أكْثَرَ مِنْهُم ﴾ ، يَقول : كان أولئك الذين مِن قَبْل هؤلاء المُكذِّبيك مِن قُرَيش أكثر عددًا مِن هؤلاء ، وأشد بَطْشًا ، وأقوى قُوَّةً ، وأبقى في الأرض آثارًا ، لأنهم كانوا يَنحِتون مِن الجِبال بُيُوتًا ، ويتَّخذون مصانع . وكان مُجاهد يقول في ذلك ما : حدَّثني الحارث قال : ثنا الحسن قال : ثنا وَرقاء عن ابن أبي نَجِيح عن مُجاهد : ﴿ وآثَارًا في الأرضِ ﴾ المَشْي بأرجلهم ، ﴿ فَمَا أغْنَى عَنْهُم ما كانوا يَكْسِبُون ﴾ ، يَقول : فلمَّا جاءهم بأسُنا وسَطْوَتُنا لَم يُغْنِ عَنهُم ما كانوا يَعمَلون مِن البُيُوت في الجِبال ، ولَم يَدفَع عنهم ذلك شيئًا ، ولكنهم بادوا جميعًا فَهَلَكوا . وقد قِيل : إنَّ معنى قَوله : ﴿ فَمَا أغْنَى عَنْهُم ﴾ ، فأي شيء أغنى عَنهُم ، وعلى هذا التأويل يجب أن يكون (ما) الأُولَى في مَوضِع نَصْب ، والثانية في مَوضِع رَفْع ، يقول : فلهؤلاء المُجادليك مِن قَومك يا مُحمَّد في أُولئك مُعْتَبَر إن اعْتَبَرُوا ، ومُتَّعَظ إن اتَّعَظُوا ، وإنَّ بأسنا إذا حَلَّ بالقَوم المُجرمين لَم يَدفَعه دافع ، ولَم يَمنعه مانع، وهو بهم إن لَم يُنيبوا إلى تصديقك واقع)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧١٦) : ((أرشدهم سُبحانَه إلى الاعتبار والتَّفَكُّر في آيات اللَّه ، فقال : ﴿ أفَلَمْ يَسِيرُوا في الأرضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الذينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ مِن الأُمَم التي عَصَت اللَّهَ ، وكذَّبت رُسُلَها ، فإنَّ الآثار المَوجودة في ديارهم تدلُّ على ما نَزَلَ بِهم مِن العُقوبة ، وما صاروا إليه مِن سُوء العاقبة ، ثُمَّ بيَّن سُبحانَه أنَّ تلك الأُمَم كانوا فَوق هؤلاء في الكَثْرة والقُوَّة ، فقال : ﴿ كانوا أكْثَرَ مِنْهُم وأشَدَّ قُوَّةً ﴾ ، أي : أكثر مِنهُم عَدَدًا ، وأقوى مِنهُم أجسادًا ، وأوسع مِنهم أموالًا ، وأظهر مِنهم ﴿ آثَارًا في الأرضِ ﴾ بالعمائر والمصانع والحَرْث ، ﴿ فَمَا أغْنَى عَنْهُم ما كانوا يَكْسِبُون ﴾ ، يَجوز أن تكون (ما) الأُولَى استفهامية ، أي : أي شيء أغنى عَنهُم ، أوْ نافية ، أي : لَم يُغْنِ عَنهُم . و (ما) الثانية يَجوز أن تَكون مَوصولة ، وأن تكون مَصدرية)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُم رُسُلُهُم بالبَيِّناتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِنَ العِلْمِ وَحَاقَ بِهِم ما كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ [غَافِر : ٨٣] .

فلمَّا جاءت الأُمَمَ المُكذِّبةَ الرُّسُلُ بالآيات الواضحة والأدلة الساطعة والبراهين الجَلِيَّة والمُعجِزات الظاهرة ، فَرِحَ الكافرون بعقيدتهم الباطلة مِن أنَّهم لا يُبعَثون ولا يُحاسَبون ولا يُعذَّبون،

واعْتَبَرُوا أنفسَهم أعلمَ مِن الرُّسُل ، واغْتَرُّوا بِعِلْمهم الدُّنيويِّ الماديِّ المُنقطع عَن وَحْي السَّماء ، وغَرِقُوا في السَّعادة الوهمية ، وأحاطَ بهم العذابُ الشديد جَزَاءَ كُفرهم وتَكذيبهم بآيات اللَّه ، واستهزائهم برُسُلهم الذين جاؤوا بالحَق مِن عِند اللَّه تعالى .

وفَرَحُهم بعِلْمِهم _ وَفْق ما يَدَّعونه ويَزعُمونه_ هو في الحقيقة جَهْل، ويدلُّ على غُرورهم القاتل،وعِنادهم المُدمِّر، واستكبارهم المُهلِك.والجاهلُ عَدُوُّ نَفْسِه،يَمْشي إلى هلاكه فَرِحًا مُختالًا.

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١١٤) : ((يُخبِر تعالى عن الأُمَم المُكذِّبة بالرُّسُل في قديم الدَّهْر ، وماذا حَلَّ بِهِم مِن العذاب الشديد ، مَعَ شِدَّة قُواهم ، وما أثَروه في الأرض ، وجَمَعُوه مِن الأموال ، فما أغنى عنهم ذلك شيئًا ، ولا رَدَّ عَنهُم ذَرَّةً مِن بأس اللَّه ، وذلك لأنَّهم لمَّا جاءتهم الرُّسُل بالبَيِّنات ، والحُجَج القاطعات ، والبراهين الدامغات ، لَم يَلتفتوا إلَيهم ، ولا أقبَلُوا عليهم ، واسْتَغْنَوْا بِما عِندهم مِن العِلْم في زَعْمهم عمَّا جاءتهم به الرُّسُل . قال مُجاهد : قالوا : نَحْنُ أعلم مِنهُم ، لَن نُبعَث ، ولَن نُعذَّب . وقال السُّدي : فَرِحُوا بِما عِندهم مِن العِلْم بجَهَالتهم ، فأتاهم مِن بأس اللَّه تعالى ما لا قِبَلَ لهم به ، ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي : أحاطَ بهم ﴿ ما كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ ، أي : يُكذِّبون ويَستبعدون وُقُوعَه)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٠٣) : ((﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُم رُسُلُهُم بالبَيِّناتِ ﴾ بالمُعجِزات ، أو الآيات الواضحات . ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِنَ العِلْمِ ﴾ ، واسْتَحْقَرُوا عِلْمَ الرُّسُل ، والمُراد بالعِلْم عقائدهم الزائغة ، وشُبَههم الداحضة . ... . وهو قَولهم : لا نُبعَث ، ولا نُعذَّب ، وما أظنُّ الساعةَ قائمة ، ونَحْوها . وسمَّاها عِلْمًا على زَعْمهم ، تَهَكُّمًا بهم ، أوْ عِلْم الطبائع والتنجيم والصنائع ، ونَحْو ذلك ، أوْ عِلْم الأنبياء ، وفرحهم به ضَحِكهم منه واستهزاؤهم به ويُؤَيِّده : ﴿ وَحَاقَ بِهِم ما كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ . وقِيل : الفَرَح أيضًا للرُّسُل ، فإنَّهُم لمَّا رَأَوْا تمادي جَهْل الكُفَّار وسُوء عاقبتهم ، فَرِحُوا بما أُوتُوا مِن العِلْم ، وشكروا اللَّهَ عَلَيه ، وحاقَ بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧١٦) : ((﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُم رُسُلُهُم بالبَيِّناتِ ﴾ ، أي: بالحُجَج الواضحات ، والمُعجِزات الظاهرات ، ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِنَ العِلْمِ ﴾ ، أي : أظْهَرُوا الفَرَحَ بما عِندهم مِمَّا يَدَّعُون أنَّه مِن العِلْم مِن الشُّبَه الداحضة ، والدعاوي الزائغة ، وسَمَّاه عِلْمًا تَهَكُّمًا بهم ، أوْ على ما يَعتقدونه . وقال مُجاهد : قالوا : نَحْن أعلم مِنهم، لن نُعذَّب، ولن نُبعَث. وقِيل : المُراد مِن عِلْم أحوال الدُّنيا لا الدِّين ،كما في قَوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيا ﴾

[الرُّوم : ٧] . وقِيل : الذين فَرِحُوا بِما عِندهم مِن العِلْم هُم : الرُّسُل ، وذلك أنَّه لمَّا كذَّبهم قَوْمُهم ، أعلمهم اللَّهُ بأنه مُهلِك الكافرين ، ومُنجِّي المُؤمنين ، فَفَرِحُوا بذلك ، ﴿ وَحَاقَ بِهِم ما كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ ، أي : أحاطَ بهم جَزاء استهزائهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأسَنا قالوا آمَنَّا باللَّهِ وَحْدَهُ وكَفَرْنا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِين﴾ [غَافِر: ٨٤].

فلمَّا شَاهَدُوا شِدَّةَ العذاب، وعَايَنُوا أهوالَه الرهيبة ، قالوا : آمَنَّا باللَّه وَحْدَه ، لا شَريك له ، وكَفَرْنا بالأصنام والأوثان التي أشركناها في العِبادة مَعَ اللَّه. وهذا إقرارٌ مِنهُم بأنَّ العُبودية للَّه وَحْدَه.

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٨٢) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : فلمَّا رَأتْ هذه الأُمَمُ المُكذِّبةُ رُسُلَها بَأسَنا ، يعني: عِقاب اللَّه الذي وَعدتهم به رُسُلُهم قَد حَلَّ بهم . كما حدَّثنا مُحمَّد قال : ثنا أحمد قال : ثنا أسباط عن السُّدي : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأسَنا ﴾ ، قال: النَّقِمَات التي نزلت بهم . وقَوله : ﴿ قالوا آمَنَّا باللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ ، يَقول: قالوا : أقْرَرْنا بتَوحيد اللَّه، وصَدَّقْنا أنَّه لا إله إلا اللَّه ﴿ وكَفَرْنا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِين ﴾ ، يَقول : وجَحَدْنا الآلهةَ التي كُنَّا قَبْل وَقْتنا هذا نُشرِكها في عِبادتنا اللَّه ، ونَعبدها معه ، ونتَّخذها آلهةً ، فَبَرِئْنا مِنها)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١١٤) : ((﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأسَنا ﴾ ، أي: عَايَنُوا وُقُوعَ العَذاب بهم ، ﴿ قالوا آمَنَّا باللَّهِ وَحْدَهُ وكَفَرْنا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِين ﴾ ، أي : وَحَّدُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وكَفَرُوا بالطاغوت ، ولكن حَيث لا تُقَال العَثَرَات ، ولا تَنفَع المَعذِرة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُم إيمَانُهُم لَمَّا رَأَوْا بَأسَنا سُنَّةَ اللَّهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ [غَافِر : ٨٥] .

فَلَم يَكُن يَنفعهم إيمانُهم ، ولا يُفيدهم تَصديقهم ، حِينَ شَاهَدُوا العذابَ ، وعَايَنُوا أهوالَه ، لأنَّه إيمان اضطراري لا إيمان اختياري ، والنافع هو الإيمان الاختياري ، والاعتبار إنَّما هو بالإيمان بالغَيْب . وقد سَنَّ اللَّهُ سُنَّةً ثابتةً في الأُمَم ، وماضيةً في العِباد ، أنَّ الإيمان لا يَنفَع ولا يُقْبَل عِند رُؤية العَذاب . وسُنَّةُ اللَّه دائمة ، لا تتبدَّل ، ولا تتغيَّر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١١٤) : ((هذا حُكم اللَّه في جميع مَن تاب عِند مُعَايَنَة العَذاب أنَّه لا يُقْبَل)) .

والكافرون باللَّه ، المُنكِرون لتَوحيده، خاسرون في كُل وَقْت وحِين، قَبل نُزول العذاب وبَعْده . والمعنى أنَّهُم هَلَكُوا ، وتَبَيَّنَ لهم خُسرانُهم عِند نُزول العَذاب ومُعاينته ، وأيْقَنُوا بذهاب الدُّنيا والآخِرة معًا ، بدُون وُجود أيَّة فُرصة للتَّعويض .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٨٣) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : فَلَمْ يَكُ يَنفعهم تَصديقُهم في الدُّنيا بتَوحيد اللَّه عِند مُعَايَنَة عِقابه قد نَزَلَ ، وعذابه قد حَلَّ ، لأنهم صَدَّقوا حِين لا يَنفَع التَّصديقُ مُصَدِّقًا ، إذْ كان قد مضى حُكْمُ اللَّه في السَّابق مِن عِلْمه أنَّ مَن تابَ بَعد نُزول العذاب مِن اللَّه على تكذيبه ، لَم تَنفعه تَوبته . وبنَحْو الذي قُلنا في ذلك قال أهل التأويل . ذِكْر مَن قال ذلك : حَدَّثَنا بِشْر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عَن قَتادة قَوله : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُم إيمَانُهُم لَمَّا رَأَوْا بَأسَنا ﴾ : لمَّا رَأَوْا عذابَ اللَّه في الدُّنيا لَم يَنفعهم الإيمانُ عِند ذلك . وقَوله : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ ﴾ ، يَقول: تَرَكَ اللَّهُ تباركَ وتعالى إقالتهم ، وقَبولَ التَّوبة مِنهم، ومُراجعتهم الإيمان باللَّه ، وتَصديق رُسُلهم ، بَعد مُعاينتهم بَأسَه قد نزل بهم ، سُنَّته التي قد مَضَتْ في خَلْقه ، فلذلك لَم يُقِلْهم ، ولم يَقْبَل تَوبتهم في تلك الحال . كما حدَّثنا بِشْر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قَتادة ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبَادِهِ ﴾ ، يَقول : كذلك كانت سُنَّة اللَّه في الذين خَلَوْا مِن قَبْل إذا عَايَنُوا عذابَ اللَّه ، لَم يَنفعهم إيمانُهم عِند ذلك . وقَوله : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ ، يَقول : وهَلَكَ عِند مَجيء بأس اللَّه ، فَغُبِنت صَفقته ، ووُضع في بَيْعه الآخرة بالدُّنيا ، والمغفرة بالعذاب، والإيمان بالكفر ، الكافرون برَبِّهم ، الجاحدون تَوحيد خالقهم ، المُتَّخذون مِن دُونه آلهةً يَعبدونهم مِن دُون بارئهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وفي الأرضِ آياتٌ للمُوقِنين ﴾ [الذَّاريات : ٢٠] .

وفي الأرض أدلة باهرة ، وبراهين جَلِيَّة ، ودلائل واضحة ، على وجود اللَّه ، ووَحدانيته ، وقُدرته ، وإبداعه ، للمُصدِّقين باللَّه ، المُوقِنين بعَظَمَته وقُدرته ، العارفين بديعَ صُنْعه وخَلْقه .

وتَمَّ تخصيص المُوقِنين بالذِّكر، لأنهم وَحْدَهم المُنتفعون بالآيات وفَهْمها ، والمُستفيدون مِنها.

وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٢٩٧):((وقَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وفي الأرضِ آياتٌ للمُوقِنين ﴾ أي فِيها مِن الآيات الدَّالة على عَظَمَة خالقها وقُدرته الباهرة،مِمَّا قد ذَرَأ فيها مِن صُنوف النبات والحيوانات والمِهاد والجِبال والقِفار والأنهار والبِحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، وما جُبِلُوا عليه مِن الإرادات والقُوى،وما بينهم مِن التَّفَاوُت في العقول والفُهوم والحركات والسَّعادة والشَّقاوة، وما في تركيبهم مِن الحِكَم في وَضْع كُل عُضْو مِن أعضائهم في المَحَل الذي هو مُحتاج إلَيه فيه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وفي أنفُسِكُم أفَلا تُبْصِرُون ﴾ [الذَّاريات : ٢١] .

وفي أنفُسكم آياتٌ باهرة وأدلةٌ واضحة وعِبَر ساطعة مِن مَبدأ خَلْقكم إلى مُنتهاه . فابنُ آدم يَحتوي على عجائب إلهية عظيمة ، تُشير إلى وُجود اللَّه ووَحدانيته وكَمَال قُدرته، فقد نقله اللَّهُ مِن

حال إلى حال : نُطفة ، ثُمَّ عَلَقَة ، ثُمَّ مُضغة ، ثُمَّ يَصِير عِظَامًا، ثُمَّ تُكْسَى العِظام لَحْمًا ، ويُنفَخ فِيه الرُّوح . وأيضًا ، اختلافُ الصُّوَر والألوان والصِّفات والطبائع والأمزجة، ووُجود العقل، والحواس والأعضاء والجوارح، وتَسهيل خُروج البَول والغائط ، يَأكل ويَشرب مِن مَدخَل واحد، ويَخرُج مِن سَبِيلَيْن ، إلى غَير ذلك . وفي ذلك مُعْتَبَر لِمَن اعتبرَ. ومَن عَرَفَ نَفْسَه عَرَفَ رَبَّه . أفلا تَنظُرون نَظَرَ اعتبار ، وتُبصِرون بعَين البصيرة قُدرةَ اللَّه في خَلْقكم وإنشائكم لِتَعرفوا قُدرته على البَعْث ؟ .

ينبغي الاستدلال بهذه العجائب على الصانع القادر الحكيم ، ومعرفة أنَّه لا يُوجد شيء في جِسْم الإنسان (العَالَم الصَّغير)، إلا وله نظير في العَالَم الكبير . والمَصنوعُ يدلُّ على الصانع .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٧) : ((قال قَتادة : مَن تَفَكَّرَ في خَلْق نَفْسه ، عَرَفَ أنَّه إنَّما خُلِقَ ولُيِّنَتْ مَفاصلُه للعِبادة)) .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٥٩) : ((قَوله : ﴿ وفي أنفُسِكُم أفَلا تُبْصِرُون ﴾ . اختلفَ أهلُ التأويل في تأويل ذلك فقال بعضُهم : معنى ذلك : وفي سَبيل الخَلاء والبَوْل في أنفسكم عِبْرة لكم ، ودليل لكم على رَبِّكُم ، أفلا تُبصِرون إلى ذلك مِنكُم . ... وقال آخرون : بل معنى ذلك: وفي تَسوية اللَّه تباركَ وتعالى مفاصلَ أبدانكم وجوارحكم دَلالة لكم على أن خُلقتم لعبادته . ذِكْر مَن قال ذلك : حدَّثني يُونُس قال : أخبرنا ابن وَهْب قال : قال ابن زَيد في قَوله : ﴿ وفي أنفُسِكُم أفَلا تُبْصِرُون ﴾ ، ... . قال : وفِينا آيات كثيرة ، هذا السَّمْع والبَصَر واللسان والقلب ، لا يَدري أحد ما هو أسود أو أحمر، وهذا الكلام الذي يتلجلج به، وهذا القلب أيُّ شيء هو، إنَّما هو مُضغة في جَوْفه ، يَجعل اللَّهُ فيه العقلَ ، أفيدري أحد ما ذاك العقل وما صِفته وكيف هو ؟ . والصَّواب مِن القَول في ذلك أن يُقَال : معنى ذلك : وفي أنفسكم أيضًا أيها الناس آيات وعِبَر تَدُلُّكُم على وَحدانية صانعكم ، وأنَّه لا إله لكم سِواه ، إذْ كان لا شيء يَقْدِر على أن يَخلُق مِثْلَ خَلْقه إيَّاكم ، ﴿ أفَلا تُبْصِرُون ﴾ ، يَقُول : أفلا تنظُرون في ذلك ، فتتفكروا فيه ، فتَعْلَموا حقيقةَ وَحدانية خالقكم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٣٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ وفي أنفُسِكُم أفَلا تُبْصِرُون ﴾ . قِيل : التَّقدير وفي الأرض وفي أنفسكم آيات للمُوقنين . وقال قَتادة : المعنى مَن سار في الأرض رأى آياتٍ وعِبَرًا ، ومَن تَفَكَّرَ في نَفْسه عَلِمَ أنَّه خُلق ليَعبد اللَّهَ . ابن الزُّبَير ومُجاهد: المراد سَبيل الخَلاء والبَوْل . وقال السائب بن شَريك : يأكل ويشرب من مكان واحد ، ويَخرُج مِن مَكَانَيْن ، وَلَوْ شَرِبَ لَبَنًا مَحْضًا لَخَرَجَ مِنه الماء ، ومِنه الغائط ، فتِلك الآية في النَّفْس . وقال ابن زَيد :

المعنى أنَّه خلقكم مِن تُراب، وجَعَلَ لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ ﴿ ثُمَّ إذا أنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُون ﴾. السُّدي : ﴿ وفي أنفُسِكُم ﴾ ، أي: في حَيَاتكم ومَوْتكم ، وفِيما يَدخُل ويَخرُج مِن طعامكم . الحسن : وفي الهَرَم بعد الشَّباب ، والضَّعف بعد القُوَّة ، والشَّيب بعد السَّواد. وقِيل : المعنى وفي خَلْق أنفسكم مِن نُطفة وعَلَقَة ومُضغة ولَحْم وعَظْم ، إلى نَفْخ الرُّوح ، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر ، إلى غَير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة. وحَسْبُكَ بالقلوب وما رَكَزَ فيها مِن العُقول ، وما خُصَّتْ به مِن أنواع المعاني والفُنُون ، وبالألسُن والنُّطْق ومَخارج الحُرُوف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأتِّيها لِمَا خُلقت ، وما سَوَّى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف ، والتَّثَنِّي ، وأنَّه إذا جَسَا شيء منها جاء العَجْز ، وإذا استرخى أناخَ الذُّل ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِين ﴾ . ﴿ أفَلا تُبْصِرُون ﴾ ، يعني : بَصَر القَلْب ليَعرفوا كمالَ قُدرته ، وقِيل إنَّه نُجْح العاجز، وحِرمان الحازم . قُلتُ : كُل ما ذُكر مُراد في الاعتبار)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٢٠) : ((﴿ وفي أنفُسِكُم أفَلا تُبْصِرُون ﴾ ، أي : وفي أنفسكم آيات تدلُّ على تَوحيد اللَّه ، وصِدْق ما جاءت به الرُّسُل ، فإنَّه خَلَقَهم نُطفةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضغة ثُمَّ عَظْمًا ، إلى أن يُنفَخ فيه الرُّوح ، ثُمَّ تختلف بعد ذلك صُوَرُهم وألوانُهم وطبائعُهم وألسنتهم ، ثُمَّ نَفْس خَلْقهم على هذه الصِّفة العجيبة الشأن مِن لَحْم ودم وعَظْم وأعضاء وحَوَاس ومَجاري ومَنافس ، ومعنى ﴿ أفَلا تُبْصِرُون ﴾ ، أفلا تنظُرون بعَين البَصيرة فتستدلون بذلك على الخالق الرَّازق المُتفرِّد بالأُلوهية ، وأنَّه لا شريك له ، ولا ضِد ، ولا نِد ، وأنَّ وَعْده الحَق ، وقَوله الحَق ، وأنَّ ما جاءت إلَيكم به رُسُلُه هو الحق الذي لا شَكَّ فيه ، ولا شُبهة تَعتريه . وقِيل : المُراد بالأنفُس الأرواح ، أي : وفي نُفُوسكم التي بها حياتكم آيات)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٣٧) : ((﴿ وفي أنفُسِكُم ﴾ ، أي : وفي أنفسكم آيات، إذْ ما في العَالَم شيء إلا وفي الإنسان له نظير، يدلُّ مِثْلَ دَلالته مع ما انفردَ به مِن الهَيئات النافعة، والمناظر البَهِيَّة ، والتركيبات العَجيبة ، والتَّمَكُّن مِن الأفعال الغريبة ، واستنباط الصنائع المختلفة ، واستجماع الكَمَالات المُتنوِّعة ، ﴿ أفَلا تُبْصِرُون ﴾ تنظُرون نَظَرَ مَن يَعْتَبِر)) .

وفي تفسير الثعالبي (٤/ ٢٠٨): ((قال ابن العربي في رحلته: اعْلَمْ أنَّ معرفة العَبْد نَفْسَه مِن أَوْلَى ما عَلَيه وآكَدِه،إذْ لا يَعرف رَبَّه إلا مَن عَرَفَ نَفْسَه، قال تعالى: ﴿وفي أنفُسِكُم أفَلا تُبْصِرُون﴾ وغَير ما آية في ذلك، ثُمَّ قال: ولا يُنكِر عاقل وُجودَ الرُّوح مِن نَفْسه، وإنْ كان لَم يُدرِك حقيقته ، كذلك لا يَقْدِر أن يُنكِر وُجودَ الباري سُبحانَه ، الذي دلَّت أفعالُه عَلَيه ، وإنْ لَم يُدرِك حقيقته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وفي السَّمَاءِ رِزْقُكُم وما تُوعَدُون ﴾ [الذَّاريات : ٢٢] .

وفي السَّماءِ سَبَبُ رِزقكم وقُوتكم ومَعَاشكم ، وهو المطر ، الذي يُحْيي اللَّهُ به البِلادَ ، ويَرزق العِبادَ ، والمَطَرُ هو سَبَب الرِّزق ، والنَّبَات مِن الأرض ، والقُوت مِن الطعام والثِّمار ، وما تُوعَدُون مِن الثَّوَاب والعِقَاب ، فالأعمالُ وجَزَاؤها مَكتوبة مُقدَّرة في السَّمَاء .

والآيةُ تُبيِّن فَضْلَ اللَّه على عِباده ، ورحمته بهم ، وإحسانه إلَيهم ، وتُذكِّرهم بالوَعْد والوَعِيد .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٣٩): ((قَوله تعالى: ﴿ وفي السَّمَاءِ رِزْقُكُم وما تُوعَدُون ﴾ قال سعيد بن جُبَير والضَّحاك : الرِّزْق هُنا ما يَنزِل مِن السَّماء مِن مَطَر وثَلْج ، يَنبُت به الزَّرْع ، ويَحْيَا به الخَلْق. قال سعيد بن جُبَير : كُل عَين قائمة فإنَّها مِن الثلج. وعن الحسن أنَّه كان إذا رأى السَّحَابَ قال لأصحابه : فيه واللَّهِ رَزْقُكم ، ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم . وقال أهل المعاني : ﴿ وفي السَّمَاءِ رِزْقُكُم ﴾ ، مَعناه : وفي المطر رِزْقُكم ، سَمَّى المطرَ سَمَاءً لأنَّه مِن السَّمَاء يَنزِل . قال الشاعرُ : إذا سَقَطَ السَّماءُ بأرضِ قَوْمٍ رَعَيْناه وإنْ كانوا غِضَابَا

وقال ابنُ كَيسان : يَعني وعلى رَبِّ السماء رِزْقُكم ، نَظيره : ﴿ وما مِن دَابَّةٍ في الأرضِ إلا عَلى اللَّهِ رِزْقُها ﴾ [هُود : ٦] . وقال سُفيان الثَّوري : ﴿ وفي السَّمَاءِ رِزْقُكُم ﴾ ، أي: عِند اللَّه في السَّماء رِزْقُكم . وقِيل : المعنى وفي السماء تقدير رِزقكم ، وما فيه لكم مَكتوب في أُمِّ الكِتاب . وعن سُفيان قال : قرأ واصل الأحدب ﴿ وفي السَّمَاءِ رِزْقُكُم ﴾ ، فقال : ألا أرى رِزقي في السَّماء وأنا أطلُبه في الأرض ! ، فدخل خَرِبة فمكث ثلاثًا لا يُصيب شيئًا ، فإذا هو في الثالثة بدَوْخَلَّةٍ رُطَب (سَفِيفَة تُنسَج مِن خُوص يُوضَع فيها التَّمْر) ، وكان له أخ أحسن نِيَّة مِنه ، فدخل معه فصارتا دَوْخَلَّتَيْن ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرَّق اللَّهُ بالمَوت بَينهما . ... . ﴿ وما تُوعَدُون ﴾ ، قال مجاهد: يعني مِن خَير وشَر . وقال غَيْرُه : مِن خَير خَاصَّة . وقِيل : الشَّر خَاصَّة . وقِيل : الجَنَّة ، عن سُفيان بن عُيَينة . الضَّحاك : ﴿ وما تُوعَدُون ﴾ مِن الجَنَّة والنار . وقال ابن سِيرين : ﴿ وما تُوعَدُون ﴾ مِن أمر الساعة ، وقاله الربيع)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَر ﴾ [القَمَر : ٤٩] .

إنَّ اللَّه خَلَقَ كُلَّ شيء مُقَدَّرًا مَكتوبًا في اللوح المَحفوظ مِن الأزَل . وكُلُّ شيء مِن الأشياء خَلَقَه اللَّهُ بقَدَر قدَّره وَفْق حِكمته البالغة ، وقَضَاء قَضَاه سَبَقَ في عِلْمه ، مَقدور ومَكتوب في اللوح المَحفوظ قَبل وُقوعه . وقدَّر اللَّهُ لكل شيء مِن خَلْقه قَدَرَه المُنَاسِب له ، والمُلائِم لوَضْعه وحاله . وحُكْمُ القَضَاء والقَدَر شاملٌ لكل المَوجودات والأفعال والصِّفات والأحوال ، خَيْرِها وشَرِّها .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٤١) : ((أي : قَدَّرَ قَدَرًا ، وهدى الخلائقَ إليه ، ولهذا يَستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السُّنَّة على إثبات قَدَر اللَّه السابق لخَلْقه ، وهو عِلْمه الأشياء قَبْل كَوْنها ، وكتابته لها قَبْل بَرْئها . وردُّوا بهذه الآية وبما شاكلها مِن الآيات ، وما وَرَدَ في مَعناها مِن الأحاديث الثابتات ، على الفِرقة القَدَرِيَّة _ نُفَاة القَدَر_ الذين نَبَغُوا في أواخر عَصْر الصَّحابة)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٢٩) : ((الذي عليه أهل السُّنَّة أنَّ اللَّه سُبحانَه وتعالى قدَّر الأشياءَ ، أي : عَلِمَ مَقاديرَها وأحوالَها وأزمانَها قَبل إيجادها ، ثُمَّ أوجدَ مِنها ما سَبَقَ في عِلْمه أنَّه يُوجده عَلى نَحْو ما سَبَقَ في عِلْمه ، فلا يَحدُث حَدَث في العَالَم العُلوي والسُّفلي إلا وهو صادر عَن عِلْمه تعالى وقُدرته وإرادته دُون خَلْقه ، وأنَّ الخَلْق لَيس لهم فيها إلا نَوع اكتساب، ومُحاولة ونِسبة وإضافة ، وأنَّ ذلك كُلَّه إنَّما حصل لهم بتيسير اللَّه تعالى وبقُدرته وتَوفيقه وإلهامه ، سُبحانه لا إله إلا هو ، ولا خالق غَيْرُه ، كما نَصَّ عليه القُرآن والسُّنَّة، لا كما قالت القَدَرِيَّةُ وغَيْرُهم مِن أنَّ الأعمال إلَينا، والآجَال بيد غَيْرنا)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٦) : عن أبي هُرَيرة _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : جاء مُشركو قُرَيش يُخَاصِمُونَ رسولَ اللَّه ﷺ في القَدَر ، فنزلت : ﴿ يومَ يُسحَبون في النار على وجوههم ذُوقوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إنَّا كلَّ شيء خلقناه بِقَدَر (٤٩) ﴾ [القَمَر] .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢٠٥) : ((المُراد بالقَدَر هُنا القَدَر المَعروف،وهو ما قدَّره اللَّهُ وقَضَاه، وسَبَقَ بِه عِلْمُه وإرادته. ... . وفي هذه الآية الكريمة والحديث تصريح بإثبات القَدَر، وأنَّه عام في كل شيء، فكُل ذلك مُقدَّر في الأزَل، مَعلوم للَّه، مُراد له)) .

٦_ الرِّيح والرِّياح

لَفْظُ " الرِّياح " إذا جاء في القُرآن فإنَّه يأتي في مَوضِع الرَّحمة، وإذا جاء لفظُ"الرِّيح" فإنَّه يَأتي في مَوضِع العَذَاب، وذلك لأنَّ رِيح العذاب شديدة مُلتئمة الأجزاء كأنَّها جِسم واحد، ورِيح الرَّحمة لَيِّنة مُتقطعة.والجديرُ بالذِّكر أنَّ ارتباط" الرِّيح" بالعذاب لَيس على إطلاقه ، ولكنَّه الأغلَب الأعَم .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مَثَلُ الذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم أعْمَالُهُم كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ ﴾ [إبراهيم : ١٨] .

إنَّ الكُفَّار أنكَرُوا وَحدانيةَ اللَّه ، وعَبَدُوا مَعه غَيْرَه ، وكذَّبوا بآياته ، وجَحدوا نُبوَّةَ مُحمَّد ﷺ ، وهُم يقومون بأعمال في الدنيا ، ظاهرها الخير والصلاح ، كالصَّدَقة ، وصِلة الرَّحِم ، ومُساعدة الضعيف ، وإكرام الضَّيف .

وهُم لا يَطْلُبون بهذه الأعمال وَجْهَ اللَّه ، وإنما يَفعلونها طلبًا للسُّمعة والمديح والثَّنَاء الحَسَن وخُلود الذِّكْر. وقد أبطلَ اللَّهُ أعمالهم لأنها مَبنية على عقيدة الشِّرك لا التَّوحيد ، وما بُنِيَ على باطل فهو باطل . وهناك شَرْطان لِقَبول الأعمال : الإخلاص للَّهِ تعالى ، واتِّباع سُنَّة النبيِّ ﷺ .

أعمالُ الكُفَّار التي قاموا بها في حياتهم الدُّنيا ، مِثْل رماد عَصَفَت به الريح ، في يوم شديد هُبوب الريح ، فجعلته هَبَاءً مَنثورًا .

لا يَستطيع الكفارُ نَيْلَ الثواب والأجر على أعمال الخير التي عملوها في الدنيا ، لأن الكُفر مُحْبِط للعمل ومُفسِد له ، كما لا يستطيع الإنسانُ الحصولَ على شيء من الرماد الذي ذَرَّته الريح وأبعدته وذَهَبَتْ بِه . أي : لا يجد الكفارُ ثوابَ أعمالهم في الآخرة. لا أجر لهم ولا ثواب ، وهُم مَعَ ضلالهم يَحسَبون أنهم صالحون ومُحسِنون . ذلك هو الخُسران الكبير والهلاك العظيم .

إنَّ كُل أعمال البِر والخير التي تقرَّبَ بها الكافر إلى اللَّه تعالى ، فاسدة وضائعة ، ولا يُستفاد منها ، ولا يُنْتَفَع بِها ، لأنها قائمة على الشِّرك وعبادة غَير اللَّه تعالى ، كالرماد الذي ذرَّته الريحُ ، وصارَ هباءً منثورًا ، بلا فائدة ولا نفع .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٩٤) : ((هذا مَثَل ضَرَبَه اللَّهُ تعالى لأعمال الكفار الذين عَبَدوا معه غَيْرَه ، وكذَّبوا رُسُلَه ، وبَنَوْا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت ، وعدموها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الذينَ كَفروا بِرَبِّهِم أعمالُهُم ﴾ . أي : مَثَل أعمالهم يوم القيامة إذا طَلبوا ثوابَها من اللَّه تعالى ، لأنهم كانوا يَحسَبون أنهم كانوا على شَيء ، فلم يَجدوا شيئًا،ولا أَلْفَوْا حاصلًا إلا كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدَّت به الريح العاصفة ﴿ في يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي:ذِي رِيح شديدة عاصفة قوية، فلم يَقْدِروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا،إلا كما يَقْدِرون على جَمْع هذا الرَّماد في هذا اليوم... . وقَوله في هذه الآية: ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعيد ﴾ أي: سَعْيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأرْسَلْنا الرِّياحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحِجْر : ٢٢] .

وأرسلَ اللَّهُ الرِّياحَ تُلقِح السَّحَابَ فيمتلئ ماءً ، وقِيل : ﴿ لَواقِح ﴾ : حَوَامِل ، لأنَّها تَحمِل الماءَ والتُّرابَ والسَّحَابَ ، أي إنَّ اللَّه أرسلَ الرِّياحَ حوامل بالسَّحَاب ، لأنَّها تَحمِل السَّحَابَ في جَوْفها كأنَّها لاقِحَة بها .

مِن تَجَلِّيات الرَّحمة الإلهية إرسالُ الرياح تُلقِح السَّحَابَ والشَّجَرَ، فَيَعُمُّ الخيرُ، وتزدهر الحياة. فعن طريق تلقيح السَّحَاب تتكون الأمطارُ . وتلقيحُ الشجر يجعله يتكاثر ، ويزداد وُجوده

لتحقيق المنافع المتعددة ، وتجميل البيئة ، وإكسابها منظرًا مُريحًا لعين الناظر . وهذه المناظر الطبيعية ذات الألوان الباهرة المنتشرة حَوْلنا من دلائل وَحدانية اللَّه وعَظَمته وقُدرته وبديع صُنعه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٢٣):((أي تُلقِح السَّحَابَ فَتُدِرُّ ماءً، وتُلقِح الشَّجَرَ فتفتَّح عن أوراقها وأكمامها ، وذِكْرها بصيغة الجَمْع ليكون منها الإنتاج بخلاف الرِّيح العَقِيم، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٧٥) : ((﴿ وأرْسَلْنا الرِّياحَ لَوَاقِحَ ﴾ ، أي: حَوَامِل، لأنَّها تَحمِل الماءَ إلى السَّحَاب، وهو جمع لاقِحَة. يُقال: ناقة لاقِحَة إذا حَمَلَت الولد. قال ابن مسعود: يُرسِل اللَّهُ الرِّيحَ فتحمل الماءَ فيمر به السَّحَاب، فَتَدُرُّ كما تَدُرُّ اللِّقْحَةُ (النَّاقَة الحَلُوب) ثُمَّ تُمطِر. وقال أبو عُبَيدة: أراد باللواقح المَلاقِح واحدتها مُلْقِحة، لأنَّها تُلقِح الأشجارَ. قال عُبَيد بن عُمَير: يَبعث اللَّهُ الرِّيحَ المُبشِّرةَ فَتَقُمُّ الأرضَ قَمًّا (يعني تَكنُسها) ثُمَّ يَبعث اللَّهُ المُثيرةَ فتُثير السَّحَابَ ، ثُمَّ يَبعث اللَّهُ المُؤلِّفةَ فتُؤلِّف السَّحَابَ بَعْضَه إلى بعض ، فتَجعله رُكَامًا ، ثُمَّ يَبعث اللواقحَ فتُلقِح الشَّجَرَ . وقال أبو بكر بن عَيَّاش : لا تَقطُر قَطرة مِن السَّحَاب إلا بعد أن تَعمل الرِّياح الأربع فيه، فالصَّبَا تُهيِّجه ، والشَّمال تُجمِّعه ، والجَنوب تَذُرُّه ، والدَّبُور تُفرِّقه . ... . وأمَّا الرِّيح العَقِيم : فإنَّها تأتي بالعذاب ولا تُلقِح)) .

وعن عبد اللَّه بن مسعود : ﴿ وأرْسَلْنا الرِّياحَ لَوَاقِحَ ﴾ ، قال : ((يُرسِل اللَّهُ الرِّيحَ فتَحمِل الماءَ فَيَمُرُّ سَحَاب ، فَيَدُرُّ كما تَدُرُّ اللِّقْحَةُ ، ثُمَّ يُمطِر)) [١٢١].

وروى التِّرمذي في سُننه (٤/ ٥٢١) وصحَّحه: عن أُبَيِّ بن كَعْب قال: قال رسول اللَّه ﷺ : ((لا تَسُبُّوا الرِّيحَ ، فإذا رَأيْتُم ما تَكْرَهُون ، فقولوا : اللهُمَّ إنَّا نَسألُكَ مِن خَير هذه الرِّيح ، وخَير ما فِيها ، وخَير ما أُمِرَتْ به ، ونَعوذ بِكَ مِن شَر هذه الرِّيح ، وشَرِّ ما فِيها ، وشَرِّ ما أُمِرَتْ به)) .

الرِّيحُ مِن جُنود اللَّه تعالى، فلا يَجوز لَعْنُها ولا شَتْمُها، بسبب ضَرَر أصابكم مِنها، فهي مَأمورة، ولا ذَنْب لها ، وهي تُؤَدِّي مُهِمَّتها التي أمرها اللَّهُ بأدائها بلا زِيادة ولا نُقصان.فإذا رَأيْتُم ما تَكرَهون بسبب الرِّيح، فاطلبوا مِن اللَّه واسألوه مِن خَير هذه الرِّيح، وخَير ما فِيها، وخَير ما أُرْسِلَتْ به كإتيانها بالمطر وغَيره، وتعوَّذوا باللَّه مِن شَر هذه الرِّيح، وشَرِّ ما فيها،وشَرِّ ما أُرْسِلَتْ به كتدمير النبات والشَّجَر،وإهلاك الماشية،وهَدم الأبنية.وهذا يدلُّ على أهمية اللجوء إلى اللَّه عند المصائب

---

١٢١ رواه الطبراني(٩/ ٢٢٣).وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٣١):((وفيه يَحيى الحِمَّاني وهو ضعيف)).

والكوارث . وفي تُحفة الأحوذي (٦/ ٤٣٥) : ((قَوله (لا تَسُبُّوا الرِّيحَ) فإنَّ المَأمور مَعذور . وفي حديث ابن عباس الذي أشار إليه التِّرمذي : لا تَلعَنوا الرِّيحَ ، فإنَّها مأمورة ، وإنَّه مَن لَعَنَ شيئًا لَيس له بأهل رَجَعَت اللعنةُ عَلَيه (فإذا رأيتُم ما تَكرَهون) أي رِيحًا تَكرَهونها لشِدَّة حرارتها أو بُرودتها أو تَأذَّيْتُم لشِدَّة هُبُوبها (فقولوا) أي راجعين إلى خالقها وآمِرها (اللهُمَّ إنَّا نَسألُك مِن خَير هذه الرِّيح) أي خَير ذاتها (وخَير ما فيها) أي مِن مَنافعها كُلِّها (وخَير ما أُمِرَتْ به) أي بخُصُوصها في وَقْتها ، وهو بصيغة المَفعول)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٦/ ٣٩٩) : (((لا تَسُبُّوا الرِّيحَ) أي لا تَشتُموها (فإنَّها مِن رَوْح اللَّه) أي رَحمة لعباده (تأتي بالرَّحمة) أي بالغَيث والرَّاحة والنَّسيم (والعذاب) بإتلاف النَّبات والشَّجَر وهلاك المَاشية وهَدْم البِناء، فلا تَسُبُّوها لأنها مَأمورة فلا ذَنْبَ لها(ولكن سَلُوا اللَّهَ مِن خَيرها) الذي تأتي به (وتعوَّذوا باللَّه مِن شَرِّها) المُقدَّر في هُبُوبها، أي: اطلُبوا المَعَاذ والمَلاذ مِنه إليه . قال الشافعيُّ ــ رحمه اللَّهُ ــ : لا ينبغي شَتْم الرِّيح ، فإنَّها خَلْق مُطيع للَّه ، وجُند مِن جُنوده ، يَجعلها رحمةً إذا شاء ، ونِقْمة إذا شاء ، ثم أخرج بإسناده حديثًا مُنقطعًا : أنَّ رَجُلًا شكا إلى رسول اللَّه ﷺ الفَقْرَ ، فقال له : " لَعَلَّكَ تَسُبُّ الرِّيحَ " . وقال مُطَرِّف : لَوْ حُبِسَت الرِّيح عَن الناس لأنتنَ ما بَين السماء والأرض)) .

وعن ابن عباس قال:كان النبيُّ ﷺ إذا هاجت رِيح استقبلها بوَجْهه،وجَثَا على رُكْبَتَيْه،وَمَدَّ بِيَدَيه، وقال : ((اللهُمَّ إنِّي أسألُكَ خَيْرَ هذه الرِّيح ، وخَيْرَ ما أُرْسِلَتْ به، وأعوذ بِكَ مِن شَرِّها ، وشَرِّ ما أُرْسِلَتْ به ، اللهُمَّ اجْعَلْها رحمةً ، ولا تَجْعَلْها عذابًا، اللهُمَّ اجْعَلْها رِيَاحًا، ولا تَجْعَلْها رِيحًا)) [١٢٢].

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ١٦٥) : (((كان إذا هاجت رِيح) وفي رواية الرِّيح مُعَرَّفًا (استقبلها بوجهه وجثا على ركبتيه) أي قعد عليهما وعطف ساقَيه إلى تحته ، وهو قُعُود

---

١٢٢ رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٢١٣) . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٥/ ١٦٥) : ((وكذا البَيهقي في سُننه (عن ابن عباس) رَمَزَ المصنِّف لحُسنه ، وليس كما ادَّعى، فقد قال الحافظ الهيثمي : فيه حُسَين بن قَيس الملقَّب بخنش ، وهو مَتروك ، وبقية رجاله رجال الصحيح . اهـ . ورواه ابن عَدِيٍّ في الكامل من هذا الوجه ، وأعَلَّه بحُسَين المذكور ، ونقل تَضعيفه عن أحمد والنَّسائي ، ومِن ضَعْفه هذا أنَّ الإمامَيْن لا يُحسِّنان حديثَه ، ثم رأيتُ الحافظَ في الفتح عَزَاه لأبي يَعْلَى وَحْدَه عن أنس رَفَعَه ، وقال : إسناده صحيح . اهـ . فكان ينبغي للمؤلف عدم إهماله)) .

المُسْتَوْفِز الخائف المُحتاج إلى النُّهوض سريعًا، وهو قُعود الصغير بين يَدَي الكبير،وفيه نَوع أدب، كأنَّه لمَّا هبَّت الرِّيحُ ، وأراد أن يُخاطب رَبَّه بالدُّعاء ، قَعَدَ قُعُودَ المُتواضع لرَبِّه الخائف من عذابه (ومَدَّ يَدَيه) للدُّعاء (وقال اللهُمَّ إنِّي أسألُكَ مِن خَير هذه الرِّيح وخَير ما أُرْسِلَت به وأعوذ بِكَ مِن شَرِّها وشَرِّ ما أُرْسِلَتْ به اللهُمَّ اجعلها رحمةً ولا تجعلها عذابًا اللهم اجعلها رياحًا ولا تَجعلها ريحًا) لأنَّ الرِّيح من الهواء ، والهواء أحد العناصر الأربعة التي بها قِوَام الحَيَوَان والنَّبَات ، حتى لَوْ فُرض عدم الهواء دقيقة لم يعش حيوان ، ولم يَنبت نبات ، والريح اضطراب الهواء وتموُّجه في الجو ، فيُصادف الأجسام فيُحلِّلها ، فيُوصل إلى دواخلها من لطائفها ما يقوم لحاجته إليه ، فإذا كانت الريح واحدة جاءت مِن جِهة واحدة ، وصَدمت جِسْمَ الحَيَوَان والنَّبَات من جانب واحد ، فتُؤَثِّر فيه أثَرًا أكثر مِن حاجته ، فتضرُّه ويتضرَّر الجانب المُقابل لعَكْس مَهَبِّها بفَوت حَظِّه مِن الهواء ، فيكون داعيًا إلى فساده ، بخِلاف ما لو كانت رياحًا تَعُمُّ جوانبَ الجِسم ، فيأخذ كُل جانب حَظَّه فيحدث الاعتدال . وقال الزَّمخشري : العرب تَقول : لا تَلْقَحُ السَّحَابُ إلا مِن رِياح ، فالمعنى : اجْعَلْها لَقَاحًا مِن السَّحَاب ، ولا تَجْعَلْها عذابًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ حُنفاءَ للَّهِ غَيْرَ مُشركينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ باللَّهِ فكأنما خَرَّ مِنَ السماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أوْ تَهْوي بِهِ الرِّيحُ في مكانٍ سَحِيق ﴾ [الحج : ٣١] .

اجتنبوا عبادةَ الأوثان أيها الناس ، مائلين إلى الحق ، مُستقيمين على التَّوحيد ، ثابتين على الطاعة ، مُسلمين للَّهِ ، مُخلِصين له الدِّين ، عابدين له ، وَحْدَه لا شريك له .

وبعد هذا التَّوجيه الإلهيِّ السَّامي ، ضَرَبَ اللَّهُ مثلًا بليغًا للمُشرِك في كُفره وضلاله وضياعه وهلاكه ، وبُعْده عن الحق والهدى : ومَن يُشرِك باللَّه فكأنما سقط من السماء ، فتُقطِّعه الطيورُ في الهواء بمخالبها وتُمزِّقه ، وتنهشه بلا رحمة . أو تَقذفه الريح وتَرْمي بِه في مكان بعيد ، فلا أمل في نجاته ، ولا يُرجَى خلاصه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٢٩) : ((وفي المراد بهذا المثَل قَولان: أحدهما أنه شَبَّهَ المُشرك باللَّه في بُعْده عن الهدى وهلاكه بالذي يَخِرُّ من السماء، قاله قَتادة . والثاني أنه شبَّه حال المشرك في أنه لا يَملِك لنَفْسه نفعًا ولا دفع ضَر يوم القيامة، بحال الهاوي من السماء ، حكاه الثعلبي)) .

والخَطْفُ هو تناول الشيء بسرعة . لقد سقط هذا المشركُ من مَنْزلة الإيمان الرفيعة ، إلى مكانة الكفر الوضيعة. وانتكست فِطرته المبنية على التَّوحيد،فاختارَ الشِّرك، ووصلَ إلى الحضيض.

وهـذا يعنـي أن المُشـرك وصـل إلـى مرحلـة العجـز التـام والضـياع الشـامل والهـلاك الأكيـد ، فلا يَقْدِر على جلب النَّفْع له ، ولا دفع الضَّر عنه ، ولا إنقاذ نَفْسه من العذاب ، ولا حماية حياته من الهـلاك . ومَـن أشـركَ باللَّـهِ فقـد أهلـكَ نَفْسَـه بنَفْسـه ، وظَلَمَهـا أشـدَّ الظُّلْـم ، لأنـه قادهـا إلـى الخلود في عذاب النار .

واللَّهُ لَم يقل : ومَن يُشرِك به ، بل قال : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ باللَّهِ ﴾ . وإظهار لفظ الجَلالة لبيان عَظَمَة اللَّه ، وشناعة الشِّرك بِه، وقُبح هذا الذَّنْب العظيم. فاللَّهُ وَحْدَه هو الإله ، لا شريك له.

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٨٣): ((﴿ حُنفاءَ للَّهِ ﴾ مُخلِصين له ﴿ غَيْرَ مُشركينَ بِهِ ﴾. قال قَتادة : كانوا في الشِّرْك يَحُجُّون ، ويُحرِّمون البنات والأمهات والأخوات ، وكانوا يُسَمَّوْنَ حُنفاء ، فَنَزلت : ﴿ حُنفاءَ للَّهِ غَيْرَ مُشركينَ بِهِ ﴾ أي : حُجَّاجًا للَّهِ، مُسلمين مُوحِّدين . يعني : مَن أشركَ لا يكون حنيفًا . ﴿ وَمَن يُشْرِكْ باللَّهِ فكأنما خَرَّ ﴾ أي : سقط ﴿ مِنَ السماءِ ﴾ إلى الأرض ، ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ أي : تستلبه الطَّيْرُ وتذهب به . والخطف والاختطاف : تناوُل الشيء بسُرعة . ﴿ أوْ تَهْوي بِهِ الرِّيحُ ﴾ أي : تَميل وتذهب به ﴿ في مكانٍ سَحِيق ﴾ أي : بَعيد . معناه: بُعْد مَن أشركَ من الحق كَبُعْد مَن سقط من السماء ، فذهبت به الطَّيْر ، أو هَوَتْ به الرِّيح ، فلا يَصِل إلَيه بحال.وقِيل: شبَّه حال المُشرك الهاوي من السماء في أنه لا يَملِك لنَفْسه حِيلةً حتى يقع ،بحيث تُسقِطه الرِّيح، فهو هالك لا مَحَالة، إمَّا باستلاب الطَّيْر لَحْمَه، وإمَّا بسُقُوطه إلى المَكان السَّحيق . وقال الحَسَن:شبَّه أعمالَ الكُفَّار بهذه الحال في أنها تَذهب وتَبطُل،فلا يَقْدِرون على شيء منها)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أرسلَ الرِّياحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الفُرقان : ٤٨] .

أرسلَ اللَّهُ الرِّياحَ مُبَشِّرَةً بنُزول المطر الذي فيه حَياة العِباد والبِلاد .

ومعنى ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ ، أي: قُدَّام المَطَر ، لأنَّه رِياح ثُمَّ سَحَاب ثُمَّ مَطَر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٧) : ((وهذا أيضًا مِن قُدرته التَّامَّة ، وسُلطانه العظيم ، وهو أنَّه تعالى يُرسِل الرِّياحَ مُبشِّراتٍ، أي: بمَجيء السَّحَاب بَعْدها ، والرِّياح أنواع في صِفات كثيرة مِن التَّسخير، فمِنها ما يُثير السَّحَاب، ومِنها ما يَحمِله، ومِنها ما يَسُوقه، ومِنها ما يكون بَين يَدَي السَّحَاب مُبَشِّرًا،ومِنها ما يكون قَبل ذلك يَقُمُّ الأرضَ (يَكنُسها) ومِنها ما يُلقِح السَّحَابَ ليُمطِر)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ أن يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِن رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الفُلْكُ بأمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ [الرُّوم : ٤٦]. وَمِن آيات اللَّه الدَّالَّة على وَحدانيته العظيمة وقُدرته المُطْلَقة وعِلْمه الشامل وحِكمته البالغة ، أن يُرسِل الرياحَ تَسُوق الغُيُومَ ، وتُبشِّر

بالمطر والرحمة والبَرَكَة والإنبات والرِّزق . والرِّياحُ تتقدَّم نُزولَ المطر . وَلِيُنْزِل عليكم مِن رَحمته الغَيْثَ الذي يُحيي العِبَادَ والبِلادَ، فينتشر الرَّخَاء ، ويَعَم الخِصْب ، ويَحصُل الناس على المنافع الكثيرة ، ويَزدهر الاقتصاد ، ويَتحسَّن المستوى المعيشي للفرد والجماعة . وَلِتَسِير السُّفن في البحر عِند هُبوب الرياح بإرادة اللَّه تعالى .

إنَّ قَوله تعالى : ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بأمْرِهِ ﴾ يُشير إلى القُدرة الإلهية والإذن الإلهيِّ ، وأنهما في الآية قائمان مَقام أن يأمرَ البحرَ والناسَ بذلك . وَلِتَطْلُبُوا الرِّزقَ بالتِّجارة في البحر، وتَحصُلوا على معايشكم التي قَسَمَها اللَّهُ لكم ، وَلِتَشْكُروا اللَّهَ خالقَكم ورازقَكم على نِعَمه الكثيرة ، الظاهرة والباطنة ، التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، فتَعْبُدوه وَحْدَه لا شريك له، وتُطيعوه سِرًّا وعَلانيةً .

ذَكَرَ اللَّهُ نِعَمَه على الناس في إرسال الرِّياح مُبشِّرات بِنُزول المطر ، الذي هو رحمة إلهية للعباد والبلاد والشَّجر والدَّواب ، وتسيير السُّفن في البحر بالرياح التي سَخَّرها اللَّهُ لذلك ، وحصول الناس على المنافع المتعددة والفوائد الكثيرة بالتجارة في البحر، وقضاء الحوائج ، وتحصيل الأرزاق ، والتماس المعايش .

واللَّهُ لَمْ يَقُلْ : وَمِنْ آياتِهِ أن يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّرَاتٍ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ، معَ أنَّها كافية ، وإنَّما قال : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ أن يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِن رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بأمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ . وقد ذَكَرَ اللَّهُ هذه التفاصيل ، كَي يُذكِّر العِبادَ بنِعَمه الكثيرة ، وفضله عليهم ، وإحسانه إلَيهم . والحِكمة في الإطناب والإسهاب في الآية ، هي تَعْدَاد النِّعَم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٤٠):((قَوله تعالى: ﴿ وَمِن آياتِهِ أن يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ أي : وَمِن أعلام كَمال قُدرته إرسال الرِّياح مُبشِّرات ، أي بالمطر ، لأنها تَتقدَّمه . ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِن رَحْمَتِهِ ﴾ يَعني الغَيْث والخِصْب ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ ﴾ أي:في البَحْر عِند هُبوبها.وإنما زاد ﴿ بأمْرِهِ ﴾ لأنَّ الرِّياح قد تَهُبُّ، ولا تكون مُوَاتِية، فلا بُدَّ مِن إرساء السُّفن والاحتيال بِحَبْسها، وربَّما عَصفت فأغرقتها بأمره ﴿ وَلِتَبتغوا مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني الرِّزق بالتِّجارة ﴿ ولعلكم تَشْكُرُون ﴾ هذه النِّعَم بالتَّوحيد والطاعة)) .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ الرِّياح جَمْع رِيح ، سُمِّيَت به لأنها تُريح النُّفُوسَ غالبًا . والرِّياح مِن أعظم جُنود اللَّه تعالى . وفي تَفسير البَغَوي (١ / ١٧٧) : ((قِيل : الرِّياح ثمانية : أربعة للرَّحمة ، وأربعة للعذاب ، فأمَّا التي للرَّحمة المُبشِّرات والناشرات والذاريات والمُرسَلات، وأمَّا التي للعذاب فالعَقِيم والصَّرْصَر في البَر ، والعاصف والقاصف في البَحْر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أرْسَلْنا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُون ﴾ [الرُّوم: ٥١].

وَلَئِن أرسلَ اللَّهُ على الزَّرْع والنَّبات رِيحًا ضَارَّةً مُفسِدة ، فَرَأى الكافرون الزَّرْعَ والنَّباتَ مُصْفَرًّا بعد الخُضرة ، مِن أثر تِلك الرِّيح ، لَظَلُّوا بعد اصفرار الزَّرْع ، يَكفُرون باللَّه ، ويَجحَدون نِعَمَه الكثيرة، ويُنكِرون فَضْلَه عَلَيهم . إنَّهُم يَفرَحون عِند الخِصْب ، ويَستبشرون بالغَيْث ، ويَكفُرون إذا انقطعَ عَنهُم الغَيْثُ ، وأصابت زَرْعَهم مُصيبةٌ، ويَجْحَدُون سَالِفَ نِعَم اللَّه تعالى، يعني ما تَقَدَّمَ إلَيهم مِن النِّعَم . وهذا يدلُّ على ضَعْف قلوبهم ، وقِلَّة صَبْرهم ، وسُرعة تقلُّبهم ، وعدم تفكُّرهم . وأهلُ الإيمان عَلى عَكْس هذا، فهُم صادقون صابرون أصحاب قلوب قَوِيَّة، وإيمان راسخ ، ويقين ثابت.

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٩٧) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : وَلَئِن أرْسَلْنا رِيحًا مُفْسِدَةً ما أنبته الغَيْثُ الذي أنزلناه مِن السَّماء ، فرأى هؤلاء الذين أصابهم اللَّهُ بذلك الغَيث الذي حَيِيَتْ به أرضوهم ، وأعشبت ونَبَتَتْ به زُروعهم ، ما أنبتته أرضوهم بذلك الغَيث مِن الزَّرْع مُصْفَرًّا، قد فَسَدَ بتلك الرِّيح التي أرسلناها ، فصارَ مِن بَعد خُضرته مُصْفَرًّا ، لَظَلُّوا مِن بَعد استبشارهم وفرحتهم به يَكفُرون برَبِّهم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٤٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أرْسَلْنا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ يعني الرِّيح ، والرِّيح يَجوز تَذكيره . قال مُحمَّد بن يَزيد : لا يُمتنع تَذكير كُل مُؤنَّث غَير حَقيقي ، نَحْو أعجبني الدار وشَبَهه . وقِيل : فَرَأَوا السَّحَابَ . وقال ابن عباس : الزَّرْع ، وهو الأثَر ، والمعنى : فَرَأَوا الأثَرَ مُصْفَرًّا ، واصفرار الزَّرْع بَعد اخضراره يدلُّ على يَبَسه ، وكذا السَّحَاب يدلُّ على أنه لا يُمطِر ، والرِّيح على أنَّها لا تُلقِح ، ﴿ لَظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُون ﴾ ، أي : لَيَظَلُّنَّ . وحَسُنَ وُقوع الماضي في مَوضِع المُستقبل لِمَا في الكلام مِن مَعنى المُجَازَاة ، والمُجَازَاة لا تَكُون إلا بالمُستقبل ، قاله الخليل وغَيْرُه)) اهـ . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٠) : ((﴿ وَلَئِنْ أرْسَلْنا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ فَرَأَوا الأثَرَ أو الزَّرْعَ ، فإنَّه مَدلول عَلَيه بِمَا تَقَدَّمَ ، وقِيل : السَّحَاب ، لأنَّه إذا كان ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ لَم يُمطِر . واللام مُوطِّئة (مُؤكِّدة) للقَسَم ، دَخلت على حَرْف الشَّرْط . وقَوله : ﴿ لَظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُون ﴾ جَوَاب سَدَّ مَسَدَّ الجَزَاء ، ولذلك فُسِّرَ بالاستقبال . وهذه الآية ناعية على الكُفَّار بقِلَّة تَثَبُّتهم، وعدم تَدَبُّرهم ، وسُرعة تَزَلْزُلهم، لعَدَم تَفَكُّرهم ، وسُوء رَأيهم ، فإنَّ النَّظَر السَّوِيَّ يَقتضي أن يتوكَّلوا على اللَّه، ويَلتجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبسَ القَطْر (المطر) عَنهُم ، ولا يَيأسوا مِن رحمته، وأن يُبادروا إلى الشُّكْر والاستدامة بالطاعة إذا أصابهم برحمته ، ولَم يُفْرِطُوا في الاستبشار، وأن يَصبروا على بَلائه إذا ضَرَبَ زَرْعَهم بالاصفرار ولا يَكفُروا نِعَمَه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم إذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فَأرْسَلْنا عَلَيْهِم رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وكانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٩] .

يا أيُّها الذين صدَّقتم بوَحدانية اللَّه، وأقررتُم بِنُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ، اذكُروا فَضْلَ اللَّه وإنعامَه عَلَيكم، وإحسانه إلَيكم ، ورحمته بكم ، في وَقت مجيء جُنود الأحزاب ، وتجمُّعهم مِن أجل قِتالكم .

وكان هذا عام الخَنْدَق (٥ هـ) ، حيث اجتمعت الأحزابُ لقتال النبيِّ ﷺ ، وهُم قُرَيْش ، وغَطَفَان ، ويَهُود قُرَيظة والنَّضِير ، حَاصَرُوا المُسلمين أيَّام الخَنْدَق . لكنَّ اللَّه تعالى لا يتخلَّى عن رسوله ﷺ وصحابته ــ رضي اللَّهُ عنهم ــ فأرسلَ على الأحزاب رِيحًا شديدةً ، وهي الصَّبا ، في لَيلة شديدة البَرْد والظُّلمة ، أَلْقَتْ قُدُورَهم ، وأطفأت النِّيرانَ ، وقَلَعَت الأوتادَ ، ونَزَعَتْ خِيَامَهم ، وماجت الخَيْلُ بَعْضُها في بَعْض . والرِّيحُ مِن جُند اللَّه تعالى، وهي مَأمورة ، وخاضعة لأمر خالقها. وأرسلَ اللهُ مَلائكةً لَم تُشاهدوها ، لزَلزلة الأعداء ، وقَذفِ الرُّعب في قلوبهم ، ولَم تُقَاتِلْ يَوْمَئِذ ، وكان اللهُ بما تَعْمَلُون مِن حَفْر الخَنْدَق بصيرًا .

وعن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((نُصِرْتُ بالصَّبَا ، وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور)) [١٢٣] .

الصَّبَا هي الرِّيحُ الشَّرقية ، وقد نَصَرَ اللَّهُ بها النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَوم الخندق ، إذْ أرسلها على الأحزاب في لَيلة باردة مُظلمة ، فَقَلَبَتْ حالَهم رأسًا على عَقِب ، وكان ذلك سبب رُجوعهم وانهزامهم . والدَّبُورُ هي الرِّيح الغربية ، وبها كان هَلاك قَوم عاد ، كما وَرَدَ في القُرآن الكريم .

وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى قِصَّة الأحزاب الذين هَزَمَهم اللَّهُ بالرِّيح ، وإمدادِ المُؤمنين بالمَلائكة الذين زَلزلوا الأعداءَ ، وقَذفوا في قُلوبهم الرُّعْبَ ، لكنهم لَم يُقاتِلوا .

وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٩٣) : ((وهُم المَلائكة يُقَوُّون المُؤمنين بما يُلْقُون في قُلوبهم من الخواطر والتثبيت ، ويُضعِفون الكافرين بالتَّجبين لهم ، مِن حيث لا يَرَوْنَهُم ، ومِن غَير قِتال ، لأنَّ المَلائكة لَم تُقَاتِلْ إلا يَوم بَدْر)) .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤١٤) أنَّ حُذَيفة بن اليَمَان ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : لقد رَأيْتُنَا معَ رسول اللَّه ﷺ لَيْلَةَ الأحزاب ، وأخَذَتْنا رِيحٌ شديدةٌ وَقُر (يَعني البَرْد) ، ... .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٢٠) في تفسير الآية : ((يَقول تعالى مُخْبِرًا عَن نِعمته وفَضْله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صَرْفه أعداءهم ، وهَزْمه إيَّاهم عام تَألَّبُوا عليهم وتَحَزَّبُوا ،

---

١٢٣ متفق عليه . البخاري (١/ ٣٥٠) برقم (٩٨٨) ، ومسلم (٢/ ٦١٧) برقم (٩٠٠) .

وذلك عام الخَنْدَق ، وذلك في شَوَّال سَنَة خَمْس مِن الهِجرة على الصحيح المَشهور. وقال مُوسى ابن عُقْبَة وغَيْرُه : كان في سنة أربع. وكان سبب قُدوم الأحزاب أنَّ نَفَرًا من أشراف يَهُود بني النَّضير الذين كانوا قد أجلاهم رسولُ اللَّه ﷺ مِن المَدينة إلى خَيْبَر ، مِنهم سَلَّام بن أبي الحُقَيق، وسَلام بن مِشْكَم ، وكِنانة بن الرَّبيع، خَرجوا إلى مَكَّة ، فاجتمعوا بأشراف قُرَيش ، وألَّبُوهم على حرب النبيِّ ﷺ ، ووعدوهم مِن أنفسهم النَّصْرَ والإعانة ، فأجابوهم إلى ذلك ، ثُمَّ خَرجوا إلى غَطَفَان ، فَدَعَوْهُم فاستجابوا لهم أيضًا ، وخَرَجَتْ قُرَيش في أحابيشها ومَن تابعها ، وقائدها أبو سُفيان صَخْر بن حَرْب ، وعلى غَطَفَان عُيَينة بن حِصْن بن بَدْر ، والجميع قَريب مِن عَشَرَة آلاف، فلمَّا سَمع رسولُ اللَّه ﷺ بمَسيرهم ، أمرَ المُسلمين بحَفْر الخَنْدَق حَول المَدينة مِمَّا يَلِي الشَّرْق، وذلك بإشارة سَلْمان الفارسي ــ رضي اللَّهُ عنه ــ فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ، ونقل معهم رسولُ اللَّه ﷺ التُّرابَ وحَفَر،وكان في حَفْره ذلك آيات بَيِّنات ودلائل واضحات. وجاءَ المُشركون، فنزلوا شَرقي المدينة قريبًا مِن أُحُد،ونزلت طائفة مِنهم أعالي أرض المدينة... وخرج رسول اللَّه ﷺ ومَن مَعَه مِن المُسلمين ، وهُم نَحْو ثلاثة آلاف ، وقِيل : سَبعمائة، فأسندوا ظُهورَهم إلى سَلْع ، ووُجوههم إلى نَحْو العدو، والخَنْدَق حَفِير لَيس فيه ماء بَينهم وبَينهم، يَحجُب الخَيَّالةَ والرَّجَّالةَ أن تَصِل إليهم ، وجَعَلَ النِّساء والذَّراري في آطام المدينة ، وكانت بنو قُرَيظة ، وهُم طائفة من اليهود لهم حِصْن شَرقي المدينة،ولهم عَهْد مِن النبيِّ ﷺ وذِمَّة،وهُم قريب مِن ثمانمائة مُقاتل،فذهب إليهم حُيَي بن أخْطَب النَّضَري،فَلَم يَزَلْ بهم حتى نَقضوا العَهْدَ،ومَالؤوا الأحزاب على رسول اللَّه ﷺ ، فَعَظُمَ الخَطْبُ ، واشتدَّ الأمْرُ ، وضاق الحال ، ... ، ومَكثوا مُحَاصِرِين للنبيِّ ﷺ وأصحابه قريبًا مِن شَهْر ، إلا أنَّهم لا يَصِلُون إليهم ، ولَم يقع بَينهم قتال ، إلا أن عمرو بن عبد وُد العامري، وكان مِن الفُرسان الشُّجعان المَشهورين في الجاهلية ، ركب ومعه فوارس، فاقتحموا الخندق، وخَلَصُوا إلى ناحية المسلمين ، فَنَدَبَ رسولُ اللَّه ﷺ خَيْلَ المُسلمين إلَيه ، فيُقال : إنَّه لَم يَبرُز أحد ، فأمرَ عَلِيًّا ــ رضي اللَّهُ عنه ــ فَخَرَجَ إلَيه ، فتجاولا ساعة ، ثُمَّ قَتَلَه عليٌّ ــرضي اللَّهُ عنه ــ فكان علامة النَّصْر . ثُمَّ أرسلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ على الأحزاب رِيحًا شديدة الهُبُوب قوية ، حَتَّى لَم يَبْقَ لهم خَيمة ، ولا شيء ، ولا تُوقَد لهم نار ، ولا يَقِرُّ لهم قَرَار ، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم إذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فَأرْسَلْنا عَلَيْهِم رِيحًا ﴾ ، قال مُجاهد : وهي الصَّبَا . ... . وقَوله : ﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ، هُم المَلائكة ، زَلْزلتهم وأَلْقَتْ في قُلوبهم الرُّعْبَ والخَوف ، فكان رئيس كُل قبيلة يقول : يا بَنِي فُلان إلَيَّ، فيجتمعون إلَيه، فيقول:

النَّجَاء ، النَّجاء ، لِمَا ألقى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في قُلوبهم مِن الرُّعب)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٦٢) : ((وقَوله : ﴿ وكانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ ، يَقول تعالى ذِكْرُه : وكان اللَّهُ بأعمالكم يَوْمَئِذ ، وذلك صَبْرهم على ما كانوا فيه مِن الجَهْد والشِّدة وثباتهم لِعَدُوِّهم وغَير ذلك مِن أعمالهم ، بصيرًا ، لا يَخفَى عليه مِن ذلك شيء ، يُحصيه عَلَيهم لِيَجْزِيَهم عَلَيه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إن يَشَأ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشُّورى : ٣٣] .

لَوْ شاءَ اللَّهُ لأوقفَ الرِّيحَ وجعلها ساكنةً ، فتظل السُّفن ثابتة على سطح البحر، لا تتحرَّك ، ولا تتقدَّم ولا تَجري . وبذلك تتعطَّل حَركة المِلاحة ، وتنهار مصالح الناس وتجارتهم . إنَّ في تحريك السُّفن في البَحْر،وتَسخيرها بأمر اللَّه وقُدرته لَعِبَرًا وأدلة وحُجَجًا وبراهين على وَحدانية اللَّه وقُدرته المُطْلَقَة، لكُل مؤمن مُخلص ، صابر على الشِّدة والبلاء ، شاكر على النِّعَم والرخاء .

وقال الصاوي في حاشيته (٤/ ٣٩) : ((أي : كثير الصَّبر على البلايا ، عظيم الشُّكر على العطايا)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٣١): ((قال قُطْرُب : نِعْم العَبْد الصَّبار الشَّكور ، الذي إذا أُعْطِيَ شَكَر ، وإذا ابْتُلِيَ صَبَر . قال عَون بن عبد اللَّه : فَكَم مِن مُنْعَم عليه غَير شاكر ، وكَم مِن مُبْتَلَى غَير صابر)) .

والمُؤمنُ وَحْدَه هو المُنتفع بآيات اللَّه وعلاماته وأدلته ، لأنَّه القادر على التفكر في آلاء اللَّه ، والنظر في آياته . لذلك خُصَّ المؤمن بالذِّكر ، إذْ إنَّ صِفة المؤمن الصَّبْر في الشِّدة ، والشُّكر في الرَّخاء . والإيمان نِصفان : نِصف صَبْر ونِصف شُكر . والصَّبارُ الشَّكُور لا يَكون إلا مُؤمنًا .

وقال أبو حَيَّان في البَحْر المُحيط (٧/ ٥٢) : ((وإنما ذَكر السُّفن الجارية في البحر ، لِمَا فيها مِن عظيم دلائل القُدرة، مِن جهة أن الماء جسم لطيف شَفَّاف ، يَغُوص فيه الثقيل ، والسُّفن تَحمِل الأجسامَ الثقيلة الكثيفة ، ومعَ ذلك جَعَلَ اللَّهُ تعالى في الماء قُوَّةً يَحمِلها بها ويَمنعها من الغَوص، ثُمَّ جَعَلَ الرِّياحَ سَبَبًا لِسَيْرها، فإذا أراد أن ترسو، أسكنَ الريح ، فلا تَبْرَح عَن مكانها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وفي عَادٍ إذْ أرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ ﴾ [الذاريات : ٤١] .

جَعَلَ اللَّهُ في إهلاك قَوم عَاد آيةً لِمَن نَظَرَ ، وعِبْرَةً لِمَن اعتبرَ ، حيث أرسل عَلَيهم الرِّيحَ المُهلِكةَ المُدمِّرةَ ، التي لا تُلقِح الشَّجَرَ ، ولا تُنشِئ السَّحَابَ ، ولا تَحمِل المَطَرَ ، فهي رِيحُ العذاب والإهلاك ، وتُسمَّى الدَّبُور. وفي الحديث :((نُصِرْتُ بالصَّبَا ، وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور)) .

وسُمِّيَت الرِّيح العَقِيم بهذا الاسم تشبيهًا بعُقْم المَرأة التي لا تَحمِل ولا تَلِد،فهذه الرِّيحُ لا خَير فيها ، ولا بَرَكة ، ولا فائدة مِنها ، ولا نَفْع لها ، وهي لا تُلقِح الشَّجَرَ ولا السَّحَابَ ، ولا تَحْمِل المَطَرَ ، لذلك شُبِّهَت هذه الرِّيح بالمَرأة العَقِيم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٤٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وفي عَادٍ ﴾ ، أي: وتَرَكْنَا في عَاد آيةً لِمَن تَأمَّلَ ﴿ إذْ أرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ ﴾ ، وهي التي لا تُلقِح سَحَابًا ولا شَجَرًا ولا رحمة فِيها ، ولا بَرَكة ، ولا مَنفعة ، ومِنه امرأة عَقِيم لا تَحمِل ولا تَلِد)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤٠) : ((سَمَّاها عَقِيمًا لأنَّها أهلكتهم ، وقَطَعَتْ دابرَهم، أوْ لأنَّها لَم تتضمَّن مَنفعة ، وهي الدَّبُور أو الجَنُوب أو النَّكباء)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وفي عَادٍ إذْ أرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ ﴾ ، قال : ((التي لا تُلقِح شيئًا)) [١٢٤].

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : ((ما أرسلَ اللَّهُ على عَادٍ مِن الرِّيح ، إلا قَدْرَ خَاتَمِي هذا)) [١٢٥].

وعن ابن عُمر قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : ((مَا فَتَحَ اللَّهُ على عادٍ مِن الرِّيح التي أُهْلِكُوا فِيها إلا مِثْلَ مَوضِع الخَاتَم ، فَمَرَّتْ بأهل البادية ، فَحَمَلَتْ مَوَاشِيَهُم وأموالَهم ، فَحَمَلَتْهُم بَين السَّماء والأرض ، فلمَّا رَأى ذلك أهلُ الحَاضِرَةِ مِن الرِّيح وما فِيها ، قالوا : هذا عَارِضٌ مُمطِرنا ، فَأَلْقَتْ أهلَ البادية ومَوَاشِيَهُم على أهل الحَاضِرَة)) [١٢٦].

هذا يدلُّ على خُطورة هذه الرِّيح المُدمِّرة ، وقُوَّتها الرهيبة ، وشِدَّتها العنيفة ، فهي رِيح العذاب والإفساد والإهلاك والتَّدمير العام والإفناء الشامل . والرِّيحُ مِن جُنود اللَّه تعالى ، وهي مَأمورة وخاضعة لأمر اللَّه تعالى ، تُنفِّذ مُهمتها بلا زيادة ولا نُقصان .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ما تَذَرُ مِن شَيْءٍ أتَتْ عَلَيْهِ إلا جَعَلَتْهُ كالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : ٤٢] .

هذه الرِّيحُ العَقِيم ما تَترك شيئًا مَرَّتْ عَلَيه مِن أنفسهم وأنعامهم وأموالهم، إلا أهْلَكَتْهُ وجَعَلَتْهُ كالشَّيء الهالك البالي . والرَّميمُ هو ما يَبِسَ مِن نَبات الأرض ودِيسَ .

---

١٢٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٧) برقم (٣٧٤٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١٢٥ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٤) برقم (٣٦٩٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١٢٦ رواه الطبراني(١٢/ ٤٢١)،وقال الهيثمي في المجمع(٧/ ٢٤٥): ((فيه مسلم الملائي وهو ضعيف)).

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٢٨): ((وَصَفَ سُبحانَه هذه الرِّيحَ ، فقال: ﴿ ما تَذَرُ مِن شَيْءٍ أتَتْ عَلَيْهِ إلا جَعَلَتْهُ كالرَّمِيمِ ﴾ ، أي : ما تَذَر مِن شَيء مَرَّتْ عَلَيه مِن أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلا جَعَلَتْهُ كالشَّيء الهالك البالي . قال الشاعر :

تَرَكْتَنِي حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِن بَصَري وإذْ بَقِيتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ البالي

وقال قَتادة : إنَّه الذي دِيسَ مِن يابس النَّبات ، وقال السُّدي وأبو العالية : إنَّه التُّراب المَدقوق ، وقال قُطْرُب: إنَّه الرَّماد. وأصل الكلمة مِن رَمَّ العَظْمُ، إذا بَلِيَ فهو رَمِيم، والرِّمَّةُ: العِظَام البالية)) .

وفي صَفوة التفاسير (١٧/ ١١) : ((قال المُفسِّرون : كانت الرِّيحُ التي أرسلها اللَّهُ عَلَيهم رِيحًا صَرْصَرًا عَاتِيَة، استمرَّت عليهم ثمانية أيام مُتتابعة، فكانت تَهدِم البُنيان ، وتنتزع الرِّجالَ فترفعهم إلى السماء ، حتى يُرى الواحد مِنهم كالطَّيْر ، ثُمَّ تَرْمي به إلى الأرض جُثَّةً هامدة ﴿ كأنَّهُم أعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحَاقَّة : ٧])) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذَابي وَنُذُرِ ﴾ [القَمَر : ١٨] .

كَذَّبَتْ عادٌ رَسُولَهم هُودًا ﷺ ، فكيفَ كانَ إنذاري إيَّاهم وعذابي لهم ؟ . والاستفهامُ للتَّعظيم والتَّهويل . وقال الطبري في تفسيره(١١/ ٥٥٦): ((يَقول تعالى ذِكْرُه : كَذَّبَتْ أيضًا عادٌ نَبِيَّهُم هُودًا ﷺ فِيما أتاهم به عَن اللَّه كالذي كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوح ، وكالذي كَذَّبْتُم مَعْشَر قُرَيش نَبِيَّكُم مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وسَلَّمَ ، وعلى جميع رُسُله، ﴿ فَكَيْفَ كانَ عَذَابي وَنُذُرِ ﴾ ، يَقول : فانظُروا مَعْشَر كَفَرَة قُرَيش باللَّه، كَيف كان عذابي إيَّاهم ، وعِقابي لهم على كُفرهم باللَّه، وتَكذيبهم رَسُوله هُودًا ، وإنذاري بفِعْلي بهم ما فَعَلْتُ مَن سَلَكَ طرائقَهم ، وكانوا على مِثْل ما كانوا عَلَيه مِن التَّمادي في الغَيِّ والضَّلالة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّا أرْسَلْنا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِر ﴾ [القَمَر : ١٩].

يُوضِّح اللَّهُ ما حَلَّ بقَوم عاد مِن العذاب الرهيب ، فقد أرسلَ عليهم رِيحًا باردةً شديدة الصَّوت في يَوم شَر وشُؤم لهم ، مُتتابع ودائم ، حَيث استمرَّ العذابُ عليهم في هذا اليَوم المَشؤوم إلى الهَلاك والفَنَاء ، وَشَمِلَ كبيرَهم وصغيرَهم ، فَلَم يَبْقَ مِنهم أحَد إلا هَلَكَ وقُضِيَ عَلَيه . أو : استمرَّ العذابُ بهم إلى نار جهنَّم . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٣٨) : ((يَقول تعالى مُخْبِرًا عَن عاد قَوم هُود أنَّهم كذَّبوا رَسُولَهم أيضًا كما صَنَعَ قَوْمُ نُوح،وأنَّه تعالى أرسلَ عَلَيهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ وهي الباردة الشَّديدة البَرْد ، ﴿ في يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أي : عَلَيهم ، قاله الضَّحاك وقَتادة والسُّدي ﴿ مُسْتَمِر ﴾ عَلَيهم نَحْسُه ودَمارُه ، لأنَّه يَوم اتَّصَلَ فيه عذابُهم الدُّنيوي بالأُخروي)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٤٣٠): ((﴿ إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ شديدة الهُبُوب، ﴿ في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِر ﴾ شديد دائم الشُّؤم . استمرَّ عليهم بنَحْو سَنَة ، فَلَم يَبْقَ مِنهُم أحدًا إلا أهلكه . قِيل : كان ذلك يوم الأربعاء في آخِر الشَّهْر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كأَنَّهُم أعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِر ﴾ [القَمَر : ٢٠] .

تَقتلع الرِّيحُ الناسَ،ثُمَّ تَرْمي بهم على رُؤوسهم،فتندقُّ أعناقُهم،وتنفصل رؤوسُهم عَن أجسادهم، وتَتركهم أجسادًا بلا رُؤوس ، كأنَّهُم أُصُول نَخْل قد انقلعت من مغارسها ، وسَقَطَتْ على الأرض .

وفي الآية تَشبيهان : شبَّههم اللَّهُ حِين كبَّتهم الرِّيحُ على وُجوههم ، وسَقطوا مِن شِدَّة العذاب ، بالنَّخْل الساقطة على الأرض ، التي لا رُؤوس لها . وشبَّههم بالنَّخْل لطُولهم وضخامة أجسامهم .

وتَشبيههم بأعجاز النَّخْل في مُنتهى البَلاغة والفَصَاحة والبَيَان ، وذلك أنَّ المُنْقَلِع هو الذي يَنقَلِع مِن قَعْره . وقِيل : شُبِّهُوا بالأعجاز ، لأنَّ الرِّيح طيَّرت رؤوسَهم ، وطَرَحَتْ أجسادَهم .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٤٣٠) : ((﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ ، تَقلعهم ثُمَّ تَرمي بهم على رُؤوسهم، فتدقُّ رِقَابَهم . ورُوِيَ أنَّها كانت تَنزِع الناسَ مِن قُبورهم ، ﴿ كأَنَّهُم أعْجَازُ نَخْلٍ ﴾، قال ابن عباس : أُصُولها ، وقال الضَّحاك : أوراك نَخْل . ﴿ مُنقَعِر ﴾ مُنقطع مِن مَكانه ، ساقط على الأرض. وواحد الأعجاز عَجُز ، مِثل عَضُد وأعضاد ، وإنما قال : ﴿ أعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ ، وهي أُصُولها التي قُطعت فُروعها، لأنَّ الرِّيح كانت تُبين رُؤوسَهم مِن أجسادهم ، فتبقى أجسادُهم بلا رؤوس)).

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ١٩٦) : ((﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ تَقلعهم عَن أماكنهم ، وكانوا يَصْطَفُّون آخِذًا بَعْضُهم بأيدي بَعْض ، ويَتداخلون في الشِّعاب ، ويَحفِرون الحُفَر ، فيندسُّون فيها ، فتنزعهم ، وتَكُبُّهم ، وتَدُقُّ رِقَابَهم ﴿ كأَنَّهُم ﴾ حال ﴿ أعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِر ﴾ أُصُول نَخْل مُنقَلِع عَن مَغارسه . وشُبِّهُوا بأعجاز النَّخْل، لأنَّ الرِّيح كانت تَقطع رُؤوسَهم فتبقى أجسادًا بلا رؤوس ، فيتساقطون على الأرض أمواتًا ، وهُم جُثَث طِوَال كأنَّهم أعجاز نَخْل، وهي أُصُولها بلا فُروع، وذِكْر صِفة نَخْل على اللفظ، وَلَوْ حَمَلَها على المعنى لأنَّثَ كما قال :﴿ كأَنَّهُم أعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحَاقَّة : ٦] .

وأمَّا عاد (قَوم النبيِّ هُود ﷺ) ، فأهلكهم اللَّهُ بريح باردة قَوِيَّة الصَّوت شديدة الهُبُوب ، مُتجاوزة الحَد والمِقدار في البُرودة والهُبُوب .وقد كانت رِيحًا قَوِيَّةً وشديدةً على عاد ، فلم يَقْدِرُوا عَلى ضَبْطها معَ أنَّهُم أقوياء أشِدَّاء . وقد عَتَتْ هذه الرِّيحُ العنيفةُ على خُزَّانها (جَمْع خَازِن) وهُم الملائكة المُوكَّلون بالرِّيح، فَلَم تُطِعْهُم، ولَم يكن لهم عليها سبيل، وجاوزت الحَدَّ بأمر اللَّه تعالى .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٧٨) : ((﴿ وأمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ ، أي : شديدة الصَّوت أو البَرْد ... . ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ شَديدة العَصْف ، كأنَّها عَتَتْ عَلى خُزَّانها فلم يَستطيعوا ضَبْطها ، أوْ على عاد ، فلم يَقْدِرُوا على رَدِّها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ سَخَّرَها عَلَيْهِم سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كأنَّهُم أعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحَاقَّة : ٧] .

الآيةُ تَوضيح لكيفية إهلاك قَوم عاد بالرِّيح .

سلَّط اللَّهُ _ بقُدرته المُطْلَقَة القاهرة _ هذه الرِّيحَ على عَاد سَبْعَ ليالٍ وثمانية أيام مُتتابعة بدون انقطاع ، فترى القَوْمَ في تِلك الليالي والأيَّام مَوْتَى ، كأنَّهُم أُصُول نَخْل ساقطة أوْ بَالِيَة ، أوْ خالية لا جَوْفَ فيها ، مِثْل أبدانهم التي خَلَتْ مِن أرواحهم .

وقال المُفسِّرون : كانت الرِّيح تَقطع رُؤوسَهم كما تَقطع رُؤوسَ النَّخْل ، وتَدخل مِن أفواههم ، وتَخرُج مِن أدبارهم حتى تَصرعهم ، فيُصبحوا كالنَّخْلة الخاوية الجَوف .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٤٦ و٣٤٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ سَخَّرَها عَلَيْهِم ﴾ أرسلها وسلَّطها . والتَّسخير : استعمال الشيء بالاقتدار . وفي قَوله تعالى : ﴿ حُسُومًا ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها : تِبَاعًا ، قاله ابن عباس. قال الفَرَّاء: الحُسُوم : التِّباع ، يُقَال في الشيء إذا تتابعَ ، فَلَم ينقطع أوَّلُه عَن آخِره : حُسُوم . وإنَّما أُخِذَ_ واللَّه أعلم _ مِن حَسْم الدَّاء: إذا كُوِيَ صاحبُه ، لأنَّه يُحمَى ثُمَّ يُكوَى ، ثُمَّ يُتَابَع الكَي عَلَيه . والثاني : كاملة ، قاله الضَّحاك . فيكون المعنى : أنَّها حَسَمَت الليالي والأيامَ فاستوفتها على الكَمَال ، لأنَّها ظَهَرَتْ معَ طُلوع الشَّمس ، وذهبت معَ غُروبها . قال مُقاتل : هاجت الرِّيحُ غُدْوَةً ، وسَكَنَتْ بالعَشِيِّ في اليوم الثامن ، وقُبضت أرواحُهم في ذلك اليَوم، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ طَيْرًا أسود فالتقطهم حتى ألقاهم في البَحْر . والثالث: أنَّها حَسَمَتْهُم، فَلَم تُبْقِ مِنهم أحدًا، أي: أذهبتهم وأفنتهم، هذا قول ابن زَيد. قَوله تعالى : ﴿ فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا ﴾ أي: في تِلك الليالي والأيَّام ﴿ صَرْعَى ﴾ ، وهو جَمْع صَرِيع ، لأنَّهُم صُرعوا بمَوتهم ﴿ كأنَّهُم أعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ ، أي: أُصُول نَخْل ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ ، أي: بَالِيَة)) .

وعن عبد اللَّه بن مسعود _ رضي اللَّهُ عنه _ : في قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ سَخَّرَها عَلَيْهِم سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أيَّامٍ حُسُومًا ﴾ ، قال : ((مُتتابِعات)) [١٢٧].

---

١٢٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٢) برقم (٣٨٤٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إذا أقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأنزَلْنا بِهِ الماءَ فَأخْرَجْنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كذلكَ نُخْرِجُ المَوْتى لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾ [الأعراف : ٥٧] .

اللَّهُ مَالِكُ الكَوْنِ ومُدَبِّرُه.ومِن نِعَمه الجليلة أنَّه يُرسِل الرِّياحَ تُبشِّر بالمَطَر رَحمةً بالبِلاد والعِباد. والمَطَرُ نِعمة إلهية عظيمة، لِمَا فيه مِن الفوائد الكثيرة. وهذه النِّعمة تدلُّ على وُجود اللَّه المُنعِم ، ووَحدانيته ، وقُدرته ، وأنَّه الإله المُستحق للعِبادة ، وَحْدَه لا شريك له . حَتَّى إذا حَمَلَت الرِّياحُ سَحَابًا مُثْقَلًا بالماء، سَاقَ اللَّهُ السَّحَابَ إلى أرض مَيِّتة مُجدِبة لا نباتَ فيها ، من أجل إحيائها . ولا شَكَّ أن الأرض المَيِّتة الخالية مِن النَّبات بحاجة إلى المطر . فأنزلَ اللَّهُ في ذلك البلد المَيِّت الماءَ ، فأخرجَ بالماء مِن كُل أنواع الثَّمَرَات . مِثْل هذا الإخراج ، يُخرِج اللَّهُ المَوْتى مِن قُبورهم ، لعلَّكم تَعتبرون وتتَّعظون وتؤمنون بوَحدانية اللَّه ، وقُدرته على البَعْث .

وهذا المَعنى مُتكرِّر في القُرآن،حَيث يَضرِب اللَّهُ المَثَلَ لبَعْث الناس مِن قُبورهم يَوم القِيامة بإحياء الأرض بَعد مَوْتها . وهذا مِن قِياس الغائب على الشَّاهِد . والقادرُ على إخراج الثَّمَرات مِن الأرض ، قادرٌ على إخراج المَوْتى مِن قُبورهم . ومَن أحيا الأرضَ المَيِّتة بالمطر ، قادرٌ على إحياء المَوْتى . وفي زاد المسير (٣/ ٢١٦) : ((وقال مُجاهد : نُحْيي المَوْتى بالمطر كَما أحْيَيْنا البَلَدَ المَيِّت به . قال ابن عباس : يُرسِل اللَّهُ تعالى بَين النَّفْخَتَيْن مَطَرًا كَمَنِيِّ الرِّجال ، فيَنبت الناسُ به في قُبورهم ، كما نَبتوا في بُطون أُمَّهاتهم)) .

إنَّ انتشار الرِّياح خُطوةٌ أساسية في إنزال المطر ، لأنَّها هي التي تُحرِّك السَّحَابَ وتَسُوقه ، ووُجودُ الرِّياح لَم يَجِئْ صُدفةً ، فلها وظيفة تُؤَدِّيها على أكمل وجه، لأنَّ اللَّه هَدَاها إلى هذا العمل، ومَنَحَها القُدرةَ على تنفيذه . وحَرِيٌّ بنا أن نتذكر كَوْن الرِّياح مِن جُند اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، ويتحدَّد عَمَلُها وَفق الأمر الإلهيِّ ، بلا زيادة ولا نُقصان . أمَّا حَصْرُ تفسير الظواهر الطبيعية بالأسباب المادية دُون مَعرفة صانع تلك الأسباب ، فذلك ضَياعٌ في مَتاهة الظواهر الشَّكلية . والعاقلُ مَن استدلَّ بالمَصنوع على الصانع ، ولم يَحصُر تفكيرَه في جَمَال المَصنوع وعَظَمته ، ويجب على العبد أن يَنظُر إلى ما وراء الأشياء والظواهر الطبيعية ، ولا يَغرق فيها . فالأثرُ يدلُّ على المُؤثِّر ، والفِعل يدلُّ على الفاعل ، والمَخلوق يدلُّ على الخالق .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٩٧): ((﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا ﴾ ، أي: مُنتشرة بَين يَدَي السَّحَاب الحامل للمطر . ... . وقَوله : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ ، أي: بَيْن المطر . ... . وقَوله : ﴿ حَتَّى إذا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ ، أي: حَمَلَت الرِّياحُ سَحَابًا ثِقَالًا ، أي : مِن كثرة ما فيها مِن الماء تكون ثقيلةً قريبةً مِن الأرض مُدْلَهِمَّة (مُظْلِمَة) كما قال زَيد بن عَمرو بن نُفَيل رحمه اللَّهُ: وأسلمتُ وَجْهي لِمَن أسْلَمَتْ له المُزْنُ تَحمِل عَذبًا زُلالا ... وأسلمتُ وَجْهي لِمَن أسْلَمَتْ له الأرضُ تَحمِل صَخْرًا ثِقَالا . وقَوله : ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ ، أي : إلى أرض مَيِّتة مُجدِبة لا نبات فيها. ... . ﴿ فَأنزَلْنا بِهِ الماءَ فَأخْرَجْنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كذلكَ نُخْرِجُ المَوْتى ﴾ ، أي: كما أحْيَيْنا هذه الأرضَ بَعد مَوْتها ، كذلك نُحْيي الأجسادَ بَعد صَيرورتها رَمِيمًا يَوم القِيامة ، يُنزل اللَّهُ سُبحانَه وتعالى ماءً مِن السَّماء ، فتُمطِر الأرض أربعين يَوْمًا ، فتَنبُت مِنه الأجساد في قُبورها ، كما يَنبُت الحَبُّ في الأرض . وهذا المعنى كثير في القُرآن ، يَضرِب اللَّهُ مَثَلًا ليَوم القِيامة بإحياء الأرض بَعد مَوْتها ، ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٨): ((... ، فإنَّ الصَّبا تُثير السَّحَابَ ، والشَّمالُ تَجمعه، والجَنُوب تُدِرُّه ، والدَّبُور تُفرِّقه، ﴿ حَتَّى إذا أَقَلَّتْ ﴾ ، أي: حَمَلَتْ، واشتقاقه مِن القِلَّة، فإنَّ المُقِلَّ للشَّيء يَستقله ﴿ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ بالمَاء جَمعه ، لأنَّ السَّحَاب جَمْع بمعنى السَّحائب ﴿ سُقْنَاهُ ﴾ ، أي: السَّحَاب ، وإفراد الضَّمير باعتبار اللفظ ﴿ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ لأجله، أوْ لإحيائه، أوْ لِسَقْيه . ... . ﴿ فَأنزَلْنا بِهِ الماءَ ﴾ ، بالبَلَد أو بالسَّحَاب أو بالسَّوْق أو بالرِّيح ، وكذلك ﴿ فَأخْرَجْنا بِهِ ﴾ . ويُحتمل فيه عَود الضَّمير إلى ﴿ الماءَ ﴾ ، وإذا كان لِ ﴿ لِبَلَدٍ ﴾ ، فالباء للإلصاق في الأوَّل ، وللظَّرْفية في الثاني ، وإذا كان لغَيره فهي للسَّببية فيهما . ﴿ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ، مِن كُل أنواعها ، ﴿ كذلكَ نُخْرِجُ المَوْتى ﴾ ، الإشارة فيه إلى إخراج الثَّمَرات ، أوْ إلى إحياء البلد المَيِّت ، أي : كما نُحْييه بإحداث القُوَّة النامية فيه ، وتَطريتها بأنواع النَّبات والثَّمَرات ، نُخرِج المَوْتى مِن الأجداث ، ونُحييها بِرَدِّ النُّفوس إلى مواد أبدانها ، بَعد جَمْعها وتَطريتها بالقُوى والحَوَاس ﴿ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾ ، فَتَعْلَمُون أنَّ مَن قَدَرَ على ذلك ، قَدَرَ على هذا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿هُوَ الذي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرَّعْد: ١٢].

يُبيِّن اللَّهُ للناس آثارَ قُدرته في هذا الكَون ، فهو سُبحانَه يُرِيهم البَرْقَ خَوْفًا للمُسافرين مِن الصَّواعق ، وطَمَعًا للمُقيمين في المطر ، الذي فيه حياة البِلاد والعِباد ، ويَخلُق السُّحُبَ الكثيفةَ المُحمَّلةَ بالماء الكثير. وبسبب كثرة مائها تكون ثقيلة قريبة من الأرض .

وتقديمُ الخَوف على الطَّمَع ، إنَّما هو تقديم الأهم على الأقل أهمية ، لأنَّ الإنسان يَخاف على نَفْسِه وحياته، أمَّا الطَّمَع فهو مُتعلِّق بتحقيق فوائد معنوية ومكاسب مادية.والحياةُ هي الأصل.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٣) : ((قَوله تعالى : ﴿هُوَ الذي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، فِيه أربعة أقوال : أحدها خَوْفًا للمُسافر ، وطَمَعًا للمُقيم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قال قَتادة : فالمُسافر خاف أذاه ومشقته ، والمُقيم يَرجو مَنفعته . والثاني خَوْفًا مِن الصَّواعق ، وطَمَعًا في الغَيث ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الحسن . والثالث خَوْفًا للبلد الذي يَخاف ضَرَرَ المطر ، وطَمَعًا لِمَن يَرجو الانتفاع به ، ذَكَرَه الزَّجاج . والرابع خَوْفًا مِن العِقاب ، وطَمَعًا في الثَّوَاب، ذَكَرَه الماوردي. وكان ابن الزُّبَير إذا سَمع صَوْتَ الرَّعْد يقول: إنَّ هذا وَعِيد شديد لأهل الأرض. قَوله تعالى: ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي : ويَخلُق السَّحَابَ الثِّقَالَ بالماء. قال الفَرَّاء : السَّحَاب وإن كان لَفْظُه واحدًا فإنَّه جَمْع، واحدته سَحَابة، جَعل نَعْته على الجَمْع)) .

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنشِئ السَّحَابَ ، فيَنطِق أحسنَ النُّطْقِ ، ويَضحَك أحسنَ الضَّحِكِ)) [١٢٨].

نُطْق السَّحَاب : الرَّعْد ، وضَحِكُه : البَرْق . وهاتان الآيتان تُشيران إلى قُدرة اللَّه تعالى ، وتَدفعان العبدَ إلى ذِكْر اللَّه وتَسبيحه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٦٤) : ((والمُراد _ واللَّهُ أعْلَم _ أنَّ نُطقها الرَّعْد ، وضَحِكها البَرْق . وقال مُوسى بن عُبَيدة عن سعد بن إبراهيم قال : يَبْعَثُ اللَّهُ الغَيْثَ ، فلا أحسن مِنه مَضْحَكًا ، ولا آنَس مِنه مَنْطِقًا ، فَضَحِكه البَرْق ، ومَنطقه الرَّعْد)) اهـ . وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٣/ ١٦٥) : ((جَعَلَ انجِلاءَه عن البَرْق ضَحِكًا، اسْتِعارةً ومَجازًا، كما يَفْتَرُّ الضَّاحِكُ عَن الثَّغْر . وكقَولهم : ضَحِكَت الأرضُ ، إذا أخْرَجَتْ نَبَاتَها وزَهْرَتَها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والمَلائكةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يشاءُ وَهُم يُجَادِلُونَ في اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ ﴾ [الرَّعْد : ١٣] .

إنَّ الرعدَ يُعظِّم اللَّهَ ويُمجِّده ويُنَزِّهه عمَّا لا يليق بِه ، والرعدُ صَوْتٌ عظيمٌ هائلٌ خاضعٌ للَّه . وإذا كانَ الرعدُ القويُّ يُسبِّح اللَّهَ العظيمَ،فَمِن باب أَوْلَى أن يُسبِّح اللَّهَ الإنسانُ (الكائن الضعيف).

وقِيل : إنَّ الرَّعْد مَلَك مُوَكَّل بالسَّحَاب ، حيث يَسُوقه قائلًا : سُبحانَ اللَّه وبحَمْده .

---

١٢٨ رواه أحمد في مسنده(٥/ ٤٣٥).وقال الهيثمي في المجمع(٢/ ٤٥٩):((رجاله رجال الصحيح)) .

ونحن لا نَفهم صَوت الرعد ، ولا نُدرِك كيفيةَ تسبيحه . ولكنَّ تسبيح الرعد حق ثابت في القُرآن . وقد قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإن مِن شَيء إلا يُسبِّح بحمده ولكن لا تَفْقَهُون تَسبيحَهُم ﴾ [الإسراء : ٤٤] . وهذا يعني أن كُل شيء يُسبِّح اللَّهَ حقيقةً بِحَسَب وَضْعه ووَفْقَ حاله ، ولكن الناس لا تَعرف كيفية تسبيح الأشياء . والآيةُ تدل على وُجود اللَّه ووَحدانيته ، وقُدرته المُطْلَقَة ، وحِكمته البالغة . وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٠٣) : ((أكثر المُفسِّرين على أن الرَّعد اسم مَلَك يَسُوق السَّحَاب، والصَّوت المَسموع مِنه تَسبيحه . قال ابن عباس : مَن سَمع صَوْتَ الرَّعْد ، فقال : سُبحانَ الذي يُسبِّح الرعدُ بحَمْده ، والمَلائكةُ مِن خِيفته ، وهو على كُل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة ، فعليَّ دِيَته)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/٣١٣و٣١٤): ((قَوله تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعدُ بحمدِهِ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنه اسم المَلَك الذي يَزْجُر السَّحَاب، وصَوته تسبيحه. قاله مقاتل . والثاني أنه الصوت المسموع. وإنما خُصَّ الرعد بالتسبيح، لأنه من أعظم الأصوات . قال ابن الأنباري: وإخباره عن الصوت بالتسبيح مَجاز ، كما يقول القائل : قد غَمَّني كلامُك)) .

وعن ابن عُمر_ رضي اللَّهُ عنهما_ قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا سمع الرَّعْدَ والصواعق ، قال: ((اللهُمَّ لا تَقْتُلْنا بغَضبك ، ولا تُهْلِكْنا بعذابك ، وعَافِنا قَبْلَ ذلك)) [١٢٩].

وروى البخاري في الأدب المُفرَد (١/ ٢٥٢) : عن عبد اللَّه بن الزُّبَير ، أنه كان إذا سمع الرعد ، تَرك الحديثَ ، وقال : ((سُبحانَ الذي يُسبِّح الرعدُ بحَمْده ، والمَلائكةُ مِن خِيفته)) ، ثُمَّ يقول : ((إن هذا لَوَعِيدٌ شديد لأهل الأرض)) .

﴿ والملائكةُ مِن خِيفتهِ ﴾ . وتُسبِّح الملائكةُ مِن خِيفة اللَّه وخَشْيته وعَظَمَته وهَيْبته وإجلاله .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٠٣): ((وقِيل: أراد بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد . جَعل اللَّهُ تعالى له أعوانًا ، فهم خائفون خاضعون طائعون)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ والملائكةُ مِن خِيفتهِ ﴾ في هاء الكِناية قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى اللَّه _ عَزَّ وَجَلَّ _ ، وهو الأظهر . قال ابن عباس : يخافون اللَّهَ، وليس كَخَوف ابن آدم، لا يَعرف أحدُهم مَن على يمينه ومَن على يساره ، ولا يَشغَله عن عبادة اللَّه شيء . والثاني أنها ترجع إلى الرعد ، ذَكَرَه الماوردي)) .

---

١٢٩ رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٣١٨) برقم (٧٧٧٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

﴿ ويُرْسِلُ الصواعقَ فَيُصِيبُ بِها مَن يشاءُ ﴾ . ويُرسِل اللَّهُ الصواعقَ المُدمِّرة المُحْرِقة على مَن يشاء مِن خَلْقه ، فَيُهْلِكه ويقضي عليه . والصواعقُ نار حارقة تخرج من السَّحَاب . والآيةُ تدل على كمال قُدرة اللَّه وشِدَّة عذابه . والصواعقُ آيةٌ إلهية باهرة تدل على الصانع العظيم الذي أتقنَ صُنْعَه وأحكمه . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ ويُرْسِلُ الصواعقَ فَيُصِيبُ بِها مَن يشاءُ ﴾ . اختلفوا فِيمَن نزلت على ثلاثة أقوال : أحدها أنها نزلت في أَرْبَد بن قَيس وعامر بن الطُّفَيْل، أتيا إلى رسول اللَّه ﷺ يريدان الفَتْك به ، فقال : " اللهمَّ اكفنيهما بما شِئت". فأمَّا أربد فأرسل اللَّهُ عليه صاعقة في يوم صائف صاحٍ فأحرقته ، وأمَّا عامر فأصابته غُدَّة فَهَلَك . فأنزل اللَّهُ تعالى هذه الآية . هذا قول الأكثرين ، مِنهم ابن جُرَيج . وأَرْبَد هو أخو لَبيد بن ربيعة (الشاعر) لأُمِّه ...)) .

﴿ وهُم يُجادِلُونَ في اللَّهِ ﴾ . بعد كُل الآيات الإلهية الباهرة ، لا يَزال كُفار مكة يَرفضون وَحدانية اللَّه،ويَشُكُّون في عَظَمته وقُدرته،ويُنكِرون البعثَ،ويُكذِّبون النبيَّ ﷺ،ويتَّخذون شُركاء للَّه، ويستعجلون العذابَ، ويقترحون نزول الآيات سُخريةً واستهزاءً.والجِدال هو التشدُّد في الخصومة.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٥) : ((قَوله تعالى : ﴿ وهُم يُجادِلُونَ في اللَّهِ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما يُكذِّبون بِعَظَمَة اللَّه ، قاله ابن عباس . والثاني : يُخاصمون في اللَّه ، حيث قال قائلهم : أَهُوَ مِن ذَهَب أَم مِن فِضَّة)) .

﴿ وَهُوَ شَديدُ المِحَال ﴾ . إنَّ اللَّهَ شديدُ القُوَّة والبَطْش ، وقادرٌ على الانتقام والعقوبة وسَحْق أعدائه . ولا يستطيع الكافرُ والظالِمُ الهربَ مِن عذاب اللَّه وعقوبته . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَهُوَ شَديدُ المِحَال ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها شديد الأخذ، قاله عليٌّ عليه السلام. والثاني شديد المكر شديد العداوة ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس . والثالث شديد العقوبة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال مجاهد في رواية عنه : شديد الانتقام . وقال أبو عُبَيدة : شديد العقوبة والمكر والنَّكال.وقال ابن قُتَيبة: شديد المكر واليَد، وأصل المِحَال الحِيلة . والرابع شديد القُوَّة، قاله مجاهد . والخامس شديد الحِقد، قاله الحسن البَصْري فيما سمعناه عنه مُسْنَدًا مِن طُرق،وقد رواه عنه جماعة مِن المُفسِّرين، مِنهم ابن الأنباري والنَّقاش . ولا يجوز هذا في صفات اللَّه تعالى. قال النَّقاش: هذا قول مُنكَر عند أهل الخبر والنظر في اللغة. لا يجوز أن تكون هذه صفة مِن صفات اللَّه عَزَّ وَجَلَّ . والذي أختاره في هذا ما قاله عليٌّ عليه السلام : شديد الأخذ ، يعني أنه إذا أخذَ الكافرَ والظالمَ لَم يُفْلِتْه مِن عُقوباته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَن يشاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأبصارِ ﴾ [النُّور : ٤٣] .

يُبيِّن اللَّهُ دلائلَ وَحدانيته وقُدرته في الكَوْن ، فهو سُبحانَه يَسُوق بأمره وقُدرته السَّحَابَ إلى حَيث يُريد ، ثُمَّ يَجمع قِطَعَ السَّحَاب المُتفرِّقة ، ويضمُّ بعضَها إلى بَعض ، ويَجعلها قطعةً واحدة ، ثُمَّ يَجعل السَّحَابَ كثيفًا مُتراكمًا بعضه فوق بعض ، فترى المطرَ يَخرُج مِن بَين السَّحَاب الكثيف المُتراكم ، ويُنزِّل مِن السَّحَاب _ وكُل ما عَلاك فهو سماء _ البَردَ مِن جِبَال ، وهذا يعني وُجود جِبال في السَّماء مَخلوقة مِن بَرَد ، كما أنَّ في الأرض جِبالًا مَخلوقة مِن الحَجَر . فيُصيب بذلك البَرَد مَن يَشاء مِن عِباده ، فيُهلِك زَرْعَه ومالَه وماشيته ، ويَدفعه ويُبعِده عَمَّن يَشاء فلا يَضُرُّه .

وقال الصاوي في حاشيته على الجلالَيْن (٣/١٣٤): ((كما يُنزِّل المطرَ مِن السَّماء وهو نَفْعٌ للعِباد، كذلك يُنزِّل مِنها البَرَدَ، وهو ضَرَر للعِباد، فسُبحانَ مَن جَعل السَّماءَ مَنشأ للخَير والشَّر)).

يَقرُب ضَوْءُ بَرْق السَّحَاب يَخطَف أبصارَ الناظرين مِن شِدَّة ضَوئه وبَريقه . وفي إطلاق الأبصار تَهويل عظيم، وبيان لِشِدَّة تأثير الضَّوء فيها، يَكاد يَذهب بها وَلَوْ عِند الإغماض. وهذا دليلٌ واضح على قُدرة اللَّه المُطْلَقَة ، لأنَّ هذه العملية تَوليد للضِّد مِن الضِّد . واللَّهُ وَحْدَه القادر على ذلك.

والآيةُ تُوضِّح قُدرةَ اللَّه في كَوْنه ، وهذه الحقائق ماثلة للعِيان ، لكنَّ الكثيرين يُرجعونها إلى تصرُّف الطبيعة ، وحُكم العادة ، وفِعْلِ المناخ الجوي ، ويَنْسَوْنَ أوْ يَتَناسَوْنَ القُدرةَ الإلهية المُسيطرة على كل شيء . وكُلُّ مَصنوع يحتاج إلى صانع ، فلا يُوجد شيء عَبَثًا ، والظواهرُ الكَونية لا تتشكَّل بمَحْض الصُّدفة . ومَن تَفَكَّرَ في المَوجودات المُحيطة بنا والنظام الدقيق الذي تَسير وَفْقَه ، أيقنَ بوجود خالق واحد أحَد يُسيطر على كُل شيء، ويَمنع العناصرَ من الاضطراب والخَلَل.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٩٧) : ((يُذكِّر تعالى أنَّه يَسُوق السَّحَابَ بقُدرته أوَّل ما يُنشِئها وهي ضعيفة وهو الإزجاء ، ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي : يَجمعه بعد تَفرُّقه ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ أي: مُتَرَاكِمًا ، أي يَركَب بعضُه بعضًا ، ﴿ فَتَرَى الوَدْقَ ﴾ أي : المطر ، ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أي: مِن خَلَله . وكذا قَرَأها ابن عباس والضَّحاك . قال عُبَيد بن عُمَير الليثي : يَبعَث اللَّهُ المُثيرةَ فَتَقُمُّ الأرضَ قَمًّا (تَكنُسها) ، ثُمَّ يَبعَث اللَّهُ الناشئةَ فتُنشِئ السَّحَابَ ، ثُمَّ يَبعَث اللَّهُ المُؤلِّفةَ فتُؤلِّف بَيْنَه ، ثُمَّ يَبعَث اللَّهُ اللواقح فتُلقِح السَّحَابَ ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما اللَّهُ . وقَوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ . قال بعضُ النُّحاة : " مِن " الأُولَى لابتداء

الغاية ، والثانية للتَّبعيض ، والثالثة لبَيان الجِنس ، وهذا إنَّما يجيء على قَول مَن ذَهَبَ مِن المُفسِّرين إلى أنَّ قَوله : ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ ، مَعناه أنَّ في السَّماء جِبالَ بَرَد ، يُنزِّل اللَّهُ مِنها البَرَدَ . وأمَّا مَن جَعَلَ الجِبالَ هَهُنا كِناية عَن السَّحَاب ، فإنَّ " مِن " الثانية عِند هذا لابتداء الغاية أيضًا ، لكنها بَدَل مِن الأُولَى ، والله أعلم . وقَوله تعالى : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَن يشاءُ ﴾ ، يُحْتَمَل أن يكون المُراد بقَوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ ، أي : بما يُنزِّل مِن السَّماء مِن نَوْعَي المطر والبَرَد، فيكون قَوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يشاءُ ﴾ رحمةً لهم ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَن مَن يشاءُ ﴾ أي: يُؤَخِّر عَنهم الغَيْثَ ، ويُحْتَمَل أن يكون المُراد بقَوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ ، أي : بالبَرَد نِقمةً على مَن يَشاء لِمَا فِيه مِن نَثْر ثِمارهم، وإتلاف زُروعهم وأشجارهم، ويَصرِفه عَمَّن يَشاء رحمةً بهم. وقَوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأبصارِ ﴾ ، أي: يَكاد ضَوء بَرْقه مِن شِدَّته يَخطَف الأبصارَ إذا اتَّبعته وتَراءته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ في السَّمَاءِ كَيْفَ يشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلَالِهِ فإذا أصابَ بِهِ مَن يشاءُ مِن عِبَادِهِ إذا هُم يَسْتَبْشِرُون﴾[الرُّوم: ٤٨]. اللَّهُ الذي يَبعَث بقُدرته الرِّياحَ ، فتُحرِّك السَّحَابَ ، فيَنشره اللَّهُ في الآفاق كما يُريد ، خفيفًا أوْ كثيفًا ، ويَجعله قِطَعًا مُتفرِّقة ، فترى المطرَ يَخرُج مِن بَين السَّحَاب ، فإذا أنزلَ اللَّهُ المطرَ على مَن يَشاء مِن خَلْقه ، أي : أنزلَ المطرَ على أرضهم وبلادهم ، إذا هُم يَفرَحون بنُزول المطر عليهم لمجيء الخِصْب ، فهُم مُحتاجون إلى المطر ، لأنَّه سبب حياتهم وبقائهم .

وهذه الآية تُوضِّح الحِكمةَ مِن هُبُوب الرِّياح ، حيث تُثير الغُيومَ ، مِن أجل إخراج المطر مِنها .

وعن ابن عباس في قَوله : ﴿ يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ في السَّمَاءِ كَيْفَ يشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ﴾ ، يقول : قِطَعًا بَعْضُها فَوق بَعْض ، ﴿ فَتَرَى الوَدْقَ ﴾ يَعني المَطَر ﴿ يَخْرُجُ مِن خِلَالِهِ ﴾ مِن بَيْنِه [١٣٠].

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٧٨) : ((يُبيِّن تعالى كيف يَخلُق السَّحَابَ الذي ينزل منه الماء ، فقال تعالى : ﴿اللَّهُ الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ إمَّا مِن البَحْر، كما ذَكَرَه غَير واحد ، أوْ مِمَّا يَشاء اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، ﴿ فَيَبْسُطُهُ في السَّمَاءِ كَيْفَ يشاءُ ﴾ ، أي : يَمُدُّه فيُكثِّره ويُنمِّيه ،

---

١٣٠ رواه أبو يعلى في مُسنده (٥/ ٧٢) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٤) : ((فيه محمد ابن السائب الكلبي ، وهو ضعيف)) .

ويَجعل مِن القليل كثيرًا ، يُنشِئ سَحَابةً تُرى في رأي العَيْن مِثل التُّرْس ، ثُمَّ يَبسُطها حتى تملأ أرجاءَ الأُفُق ، وتَارَةً يَأتي السَّحَابُ مِن نَحْو البَحْر ثِقَالًا مملوءة ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إذا أقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأنزَلْنا بِهِ الماءَ فَأخْرَجْنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كذلكَ نُخْرِجُ المَوْتى لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾ ، وكذلك قال هَهُنا : ﴿اللَّهُ الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ في السَّمَاءِ كَيْفَ يشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ﴾ ، قال مُجاهد وأبو عمرو بن العلاء ومطر الوَرَّاق وقَتادة: يَعني قِطَعًا . وقال غَيْرُه : مُتَرَاكِمًا ، كما قاله الضَّحاك . وقال غَيْرُه : أسْوَد مِن كثرة الماء تَراه مُدْلَهِمًّا ثقيلًا قريبًا مِن الأرض. وَقَوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلَالِهِ ﴾ ، أي: فترى المَطَرَ وهو القَطْر يَخرُج مِن بَين ذلك السَّحَاب ﴿ فإذا أصابَ بِهِ مَن يشاءُ مِن عِبَادِهِ إذا هُم يَسْتَبْشِرُون﴾ ، أي: لحاجتهم إليه يَفرحون بنُزوله عَلَيهم ، ووُصوله إلَيهم)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ واللَّهُ الذي أرسلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها كذلكَ النُّشُورُ ﴾ [فَاطِر : ٩] .

يُبيِّن اللَّهُ أثَرًا مِن آثار قُدرته المُطْلَقَة ، ويُوضِّح مَظْهَرًا مِن مظاهر بديع صُنعه ، من أجل التفكُّر والاتِّعاظ والاعتبار .

واللَّهُ بقُدرته هو الذي أرسلَ الرِّياحَ، فتُحرِّك سَحَابًا وتُهيِّجه . والتَّعبيرُ بالمُضارع ﴿ فَتُثِيرُ ﴾ عن الماضي ، لاستحضار هذه الصُّورة الكَونية البديعة التي تدلُّ على كمال قُدرة اللَّه وتَمَامِ حِكمته .

فَسَاقَ اللَّهُ السَّحَابَ المُحمَّل بالمطر إلى بلد قاحل مُجدِب ، فأحيا اللَّهُ بالمطر الأرضَ المَيتة الجافَّة التي لا زرع فيها ولا نبات. كما أحيا اللَّهُ الأرضَ المَيتة بالمطر، يُحْيي الأمواتَ مِن قُبورهم.

والالتفاتُ مِن الغَيبة إلى التَّكَلُّم في ﴿ أرسلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ ﴾ ، للإشعار بالعَظَمَة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٢٣) : ((كثيرًا ما يَستدل تعالى على المَعَاد بإحيائه الأرض بَعد مَوتها . يُنبِّه عِبَادَه أن يَعتبروا بهذا على ذلك ، فإنَّ الأرض تَكون مَيتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسلَ إلَيها السَّحَابَ ، تَحمِل الماءَ ، وأنزله عليها : ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وأنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ، كذلك الأجساد إذا أرادَ اللَّهُ تعالى بَعْثَها ونُشُورَها ، أنزلَ مِن تَحت العَرْش مَطَرًا يَعُمُّ الأرضَ جميعًا ، ونَبتت الأجسادُ في قُبورها ، كما تَنبت الحَبَّةُ في الأرض)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٢) : ((﴿ واللَّهُ الذي أرسلَ الرِّياحَ ﴾ . وقرأ ابن كثير وحمزة والكِسائي : الرِّيح ، ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ على حِكاية الحال الماضية استحضارًا لتلك الصُّورة البديعة الدَّالة على كمال الحِكمة ، ولأنَّ المُراد بَيان أحداثها بهذه الخاصية ، ولذلك أسنده إليها .

ويجوز أن يكون اختلاف الأفعال للدَّلالة على استمرار الأمر ، ﴿ فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ . ... . ﴿ فَأَحْيَيْنا بِهِ الأرضَ ﴾ بالمطر النازل مِنه ، وذِكْر السَّحَاب كذِكْره ، أو بالسَّحَاب ، فإنَّه سبب السبب ، أو الصائر مَطَرًا ﴿ بَعْدَ مَوْتِها ﴾ بَعد يَبَسها ، والعُدُول فِيهما مِن الغَيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص لِمَا فيهما مِن مَزيد الصُّنع ﴿ كذلكَ النُّشُورُ ﴾ ، أي : مِثْل إحياء المَوَات نُشُور الأموات في صِحَّة المَقدورية ، إذْ ليس بينهما إلا احتمال اختلاف المادة في المَقِيس عليه ، وذلك لا مَدخل له فيها . وقِيل : في كيفية الإحياء ، فإنَّه تعالى يُرسِل ماءً مِن تَحت العَرْش تَنبُت مِنه أجسادُ الخَلْق)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤٨٣) : ((أخبر سُبحانَه عن نَوع مِن أنواع بَديع صُنعه، وعَظيم قُدرته ، ليتفكروا في ذلك وَلِيَعتبروا به ، فقال : ﴿ واللَّهُ الذي أرسلَ الرِّياحَ ﴾ . ... . ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ، جاء بالمُضارع بعد الماضي استحضارًا للصُّورة ، لأنَّ ذلك أدْخَل في اعتبار المُعْتَبِرين ، ومَعنى كَوْنها : تُثير السَّحَابَ ، أنَّها تُزعجه مِن حَيث هُوَ ، ﴿ فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ . قال أبو عُبَيدة : سَبيله ، فَتَسُوقه ، لأنَّه قال : ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ . قِيل : النُّكتة في التَّعبير بالمَاضِيَيْن بعد المُضارع : الدَّلالة على التَّحَقُّق . ... . ﴿ فَأَحْيَيْنا بِهِ الأرضَ ﴾ ، أي : أحْيَيْنا بالمطر الأرض بإنبات ما يَنبُت فيها ، وإنْ لَم يتقدَّم ذِكْر المطر ، فالسَّحَاب يدلُّ عليه ، أوْ أحْيَيْنا بالسَّحَاب لأنَّه سبب المطر ﴿ بَعْدَ مَوْتِها ﴾ ، أي: بَعد يَبَسها، استعارَ الإحياء للنَّبات ، والمَوت لليَبَس ﴿ كذلكَ النُّشُورُ ﴾ ، أي: كَذلك يُحْيي اللَّهُ العِبَادَ بَعد مَوْتهم ، كما أحيا الأرضَ بَعد مَوتها. والنُّشُور : البَعْث ، مِن نَشَرَ الإنسانَ نُشُورًا ، والكاف في مَحَل رَفْع على الخَبرية ، أي: مِثل إحياء مَوَات الأرض إحياء الأموات، فكيف تُنكِرونه وقد شاهدتم غَير مَرَّة ما هو مِثْله وشَبيه به ؟)) .

وعن أبي رَزِين العُقَيلي ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أنَّه قال: يا رسول اللَّه ، كَيف يُحْيي اللَّهُ المَوْتى ؟ ، وما آية ذلك في خَلْقه ؟، قال:((أمَا مَرَرْتَ بوادي أهلك مَحْلًا ؟))، قال : بلى، قال: ((ثُمَّ مَرَرْتَ به يهتزُّ خَضِرًا ؟))، قال : بلى، قال: ((فكذلك يُحْيي اللَّهُ المَوْتى ، وذلك آيَتُه في خَلْقه))

المعنى : أمَا مَرَرْتَ بوادي أهلك جَدْبًا لا نبات فيه ؟ ، والمَحْلُ في الأصل انقطاع المطر ، ثُمَّ يُصبح الوادي أخضر بعد نُمُوِّ النَّبَات. كَمَا أخرجَ اللَّهُ النَّباتَ مِن الأرض المَيتة ، يُخرِج المَوتى مِن قُبورهم .

---

١٣١ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٠٥) برقم (٨٦٨٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن عبد اللَّه بن مسعود ـ رضي اللَّهُ عنه ـ أنَّه قال : فَيُرسِل اللَّهُ ماءً مِن تَحت العَرْش كَمَنِيِّ الرِّجال ، فَتَنبُت لُحمانُهم وجُثمانُهم مِن ذلك الماء ، كما تَنبُت الأرضُ مِن الثَّرَى ، ثُمَّ قَرأ عبد اللَّه ﴿ واللَّهُ الذي أرسلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها كذلكَ النُّشُورُ ﴾ [١٣٢] .

بيَّن اللَّهُ للناس ظاهرةً يُشاهدونها بعُيونهم ، وهي إحياء الأرض بعد مَوتها ، فالأرضُ تَكون جافَّة جَرداء لا زرع فيها ولا نبات ، فيُرسِل اللَّهُ السَّحَابَ المُحمَّل بالمطر ، ويُنزِل المطرَ عليها ، فينمو النباتُ ، وتُصبح الأرضُ المَيتة خضراء ، كذلك يُحْيي اللَّهُ الأمواتَ مِن قُبورهم يَوم القِيامة ، للحِسَابَ والجَزَاء . وهذا المَثَال الواضح الذي يَقوم على قِياس الغائب على الشَّاهِد ، يَدفع الناسَ إلى التفكُّر والاعتبار والاتِّعاظ .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وإن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولوا سَحَابٌ مَركُوم ﴾ [الطُّور: ٤٤].

لَوْ أسقطَ اللَّهُ على المُشركين قِطَعًا مِنَ السَّماء عُقوبةً لهم وعَذابًا عليهم ، لَمَا تَرَاجَعوا عن كُفرهم وضَلالهم ، وإنما سَيَقولون عِنادًا ومُكابَرةً : إنَّهُ سَحَابٌ تَرَاكَمَ بَعْضُه فوق بعض ، مُمْطِرنا لِيَسْقِيَنا ، ولَيس عُقوبةً ولا عَذابًا . ولَن يُؤْمنوا ، ولَن يَرتدعوا، ولَن يَتركوا الكُفرَ ، ويَعتنقوا الإسلامَ.

وهذا يُشير إلى شِدَّة طُغيان المُشركين وعِنادهم ، وقَسوةِ قلوبهم ، واستكبارهم الشديد . ومِن شِدَّة عُتُوِّهم ، يُكذِّبون أعينَهم ، ويُغالِطون أنفسَهم فِيما يُشاهدونه ويَحُسُّونه .

وقال القرطبي في تفسيره(١٧/ ٦٨) : ((وهذا فِعْلُ المُعانِد ، أو فِعْل مَن استولى عليه التقليد ، وكان مِن المُشركين القِسْمان . والكِسْفُ جَمع كِسْفَة ، وهي القِطْعة مِن الشيء)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٩٤) : ((يقول : لَوْ عَذَّبْناهم بسُقوط بَعْض مِن السَّماء عليهم ، لَم يَنتهوا عَن كُفرهم ، ﴿ يَقُولوا ﴾ ـ لمُعاندتهم ـ : هذا ﴿ سَحَابٌ مَركُوم ﴾ بَعْضه على بَعْض يَسقينا)) .

٨ـ الغَيْث

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أنَّ اللَّهَ أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَتُصْبحُ الأرضُ مُخْضَرَّةً إنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِير ﴾ [الحَج : ٦٣] .

---

١٣٢ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٤١) برقم (٨٥١٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الاستفهامُ للتَّقرير . أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللَّه أنزلَ بقُدرته مِن السَّحَاب مطرًا ، فتُصبح الأرضُ خضراءَ جميلةً بما يَنبُت فيها مِن النَّبَات ، بعدما كانت جافَّة يابسة مُجدِبة ؟ . هذا دليل واضح على كمال قُدرة اللَّه . ومَن قَدَرَ على هذا ، قَدَرَ على إعادة الحياة بعد الموت ، وبعث الأموات من قبورهم . والفِعل المُضارع ﴿ فَتُصْبحُ ﴾ لاستحضار صُورة الاخضرار البديعة، وبيان بقائها واستمرارها لِمُدَّة مِن الزمن . إنَّ اللَّه لطيف بأرزاق عِباده، وإخراجِ النبات من الأرض بالمطر ، خبير بما في قلوبهم مِن اليأس والقُنُوط عِند تأخير المطر .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٦٧) : ((ذَكَرَ سُبحانَه دليلًا بَيِّنًا على كَمال قُدرته ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَتُصْبحُ الأرضُ مُخْضَرَّةً ﴾ ، الاستفهام للتقرير ، والفاء للعَطْف على ﴿ أنزلَ ﴾ ، وارتفعَ الفِعْلُ بعد الفاء ، لكَون استفهام التقرير بمَنزلة الخَبَر ، كما قاله الخليل وسِيبَوَيْه . قال الخليل : المعنى : أنزلَ مِن السَّماء ماءً فكان كذا وكذا . ... . قال الفَرَّاء : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ خَبَر ، كما تقول في الكلام : إنَّ اللَّه يُنزِّل مِن السَّماء ماءً ، فتُصبح الأرضُ مُخْضَرَّةً ، أي: ذات خُضرة . ... . وهو عِبارة عن استعجالها أثر نُزول الماء بالنَّبات ، واستمرارها كذلك عادةً . وصِيغة الاستقبال لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدُّد الإنزال واستمراره، وهذا المعنى لا يَحصُل إلا بالمُستقبل ، والرَّفْع هُنا مُتَعَيَّن ، لأنَّه لَوْ نَصَبَ لانعكس المعنى المقصود مِن الآية ، فينقلب إلى نَفْي الاخضرار ، والمَقصود إثباته . قال ابن عَطِيَّة: هذا لا يكون، يعني الاخضرار في صباح ليلة المطر إلا بمَكَّة وتِهَامة . والظاهر أنَّ المُراد بالاخضرار اخضرار الأرض في نَفْسها، لا باعتبار النَّبات فِيها، كما في قَوله: ﴿ فإذا أنزَلْنا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ والمُراد بقَوله: ﴿ إنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ أنَّه يَصِل عِلْمُه إلى كُل دقيق وجليل. وقِيل: لطيف بأرزاق عِباده. وقِيل : لَطِيف باستخراج النَّبات . ومعنى ﴿ خَبِير ﴾ أنَّه ذُو خِبرة بتَدبير عِباده ، وما يَصلُح لهم . وقِيل : خَبير بما يَنطوون عَلَيه مِن القُنُوط عِند تأخير المطر . وقِيل : خبير بحاجتهم وفَاقَتهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ في الأرضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولي الألبابِ ﴾ [الزُّمَر : ٢١] .

أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللَّه بقُدرته أنزلَ مِن السَّحَاب مطرًا ، فأدخلَه مَسَالِكَ ، وأجراه عُيُونًا في الأرض ، وهي المواضع التي يَنبُع مِنها الماءُ . وهذا دليل على أنَّ ماء العُيُون إنَّما هو مِن المطر ، تَحبِسه الأرضُ ، ثُمَّ يَنبُع منها شيئًا فشيئًا ، وليس في الأرض ماء إلا نزل مِن السماء .

ثُمَّ يُخرِج اللَّهُ بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض الزُّرُوعَ ذات الأشكال المُختلفة، والألوان المُتعدِّدة، والأصناف المُتنوِّعة . ثُمَّ يَجِفُّ الزَّرْعُ ويَيْبَس فتراه بعد خُضرته الرائعة مُصْفَرًّا كئيبًا ، ثُمَّ يَجعله فُتَاتًا وهشيمًا مُتَكَسِّرًا ، إنَّ في هذه العملية الباهرة لَعِظَة وعِبرة ، ودَلالة على وُجود اللَّه ووَحدانيته وقُدرته المُطْلَقَة ، وعِلْمه الشامل ، وحِكمته البالغة ، لأصحاب العُقول السليمة النَيِّرة ، فهم وَحْدَهم المُنتفعون مِن الذِّكْرَى ، والمُستفيدون مِن المَوعظة .

ومَن قَدَرَ على إخراج الزَّرْع ذي الألوان المُختلفة مِن الأرض بماء السماء ، قَدَرَ على إخراج الأموات من قبورهم ، وبَعثهم في يوم القيامة للحِساب والجَزاء .

وهذه العمليةُ التي تَحدُث في الطبيعة على مراحل (إنزال الماء من السماء . إدخاله في الأرض. إخراج الزرع ذي الألوان المُختلفة بالماء . جفاف الزَّرْع واصفراره . جَعْله هشيمًا مُتكسِّرًا) لا بُد لها مِن خالق عليم وصانع حكيم ، دبَّرها وسَوَّاها ، وأوجدَ مراحلها وَفْقَ هذا الترتيب الدقيق .

والآيةُ تُوضِّح أنَّ الحياة الدُّنيا مهما طالت وامتدَّت ، فلا بُد مِن انتهائها وزوالها ، فلا ينبغي الاغترار بها . وكذلك الإنسان ، مهما طالَ عُمره ، لا بُد أن يَفقد نضارةَ شبابه ، وتنهار صِحَّته ، وتَضعُف أعضاؤه ، ويُصبح مُحَطَّمًا كالزَّرْع الذي انتقل مِن الاخضرار إلى الاصفرار . ونهايةُ الإنسان الحتمية هي المَوت، ثُمَّ يَبعثه اللَّهُ يَوم القِيامة للحِساب والجَزاء .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٥) عن الآية : ((يُخبِر تعالى أنَّ أصل الماء مِن السَّماء ، كما قال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وأنزَلْنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفُرقان : ٤٨] . فإذا أنزلَ الماءَ مِن السماء ، كَمَنَ في الأرض ، ثُمَّ يَصرِفه تعالى في أجزاء الأرض كما يَشاء ، ويُنبِعه عُيُونًا ما بَين صِغَار وكِبار بحَسَب الحاجة إليها ، ولهذا قال تباركَ وتعالى : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ في الأرضِ ﴾ . قال ابن أبي حاتم : حَدَّثَنا علي بن الحُسَين حَدَّثَنا عمرو بن عليٍّ حَدَّثَنا أبو قُتَيبة عُتبة بن اليَقظان عن عِكرمة عن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ في قَوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أنَّ اللَّهَ أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ في الأرضِ ﴾ ، قال : لَيس في الأرض ماء إلا نَزَلَ مِن السماء ، ولكن عُروق في الأرض تُغيِّره ، فذلك قَوله تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ في الأرضِ ﴾ ، فَمَن سَرَّه أن يَعود المِلْح عَذبًا فليُصعِده ، وكذا قال سعيد بن جُبَير وعامر الشَّعبي إنَّ كُل ماء في الأرض فأصله من السماء. وقال سعيد بن جُبَير : أصله من الثلج ، يعني أن الثلج يتراكم على الجبال فيسكن في قَرارها ، فتنبع العُيون من أسافلها . وقَوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ ، أي : ثُمَّ يُخرِج بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض ، زَرْعًا مُختلفًا ألوانُه، أي: أشكاله وطُعومه وروائحه ومنافعه ،

﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ ، أي : بَعد نضارته وشبابه يَكتهل فتراه مُصْفَرًّا قد خالطه اليَبَس ، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ ، أي: ثُمَّ يَعود يابسًا يتحطَّم ، ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولي الألبابِ ﴾ ، أي : الذين يتذكَّرون بهذا، فيَعتبرون إلى أن الدُّنيا هكذا ، تكون خَضِرةً نَضِرة حَسناء ، ثُمَّ تعود عجوزًا شَوهاء، والشاب يعود شيخًا هَرِمًا كبيرًا ضعيفًا ، وبعد ذلك كُله المَوت ، فالسَّعيد مَن كان حاله بَعْده إلى خَير . وكثيرًا ما يَضرِب اللَّهُ تعالى مَثَلَ الحياة الدُّنيا بما يُنزِل اللَّهُ مِن السماء مِن ماء، ويُنبِت به زرعًا وثمارًا ، ثُمَّ يكون بعد ذلك حُطَامًا ، كما قال تعالى : ﴿ واضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاختلطَ بِهِ نَبَاتُ الأرضِ فأصبحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّياحُ وكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ [الكَهْف : ٤٥])) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٦٥١) : ((لمَّا ذَكَرَ سُبحانَه الآخرةَ ووَصَفَها بوَصْف يُوجِب الرَّغبة فيها والشَّوق إليها ، أتبعه بذِكْر الدُّنيا ، ووَصَفَها بوَصْف يُوجِب الرَّغبة عنها والنَّفْرَة منها ، فَذَكَرَ تمثيلًا لها في سُرعة زوالها ، وقريب اضمحلالها ، معَ ما في ذلك مِن ذِكْر نَوع مِن أنواع قُدرته الباهرة وصُنعه البديع ، فقال : ﴿ ألَمْ تَرَ أنَّ اللَّهَ أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً ﴾ ، أي : مِن السَّحَاب مَطَرًا ، ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ في الأرضِ ﴾ ، أي: فأدخله وأسكنه فِيها . والينابيع جَمْع يَنبوع، مِن نَبَعَ الماء يَنبُع ، واليَنبوع عَين الماء ، والأمكنة التي يَنبُع منها الماء . والمعنى: أدخلَ الماءَ النازل من السماء في الأرض ، وجَعَلَه فيها عُيونًا جارية أوْ جَعَلَه في ينابيع ، أي : في أمكنة يَنبُع منها الماء . ... . ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا ألْوَانُهُ ﴾ ، أي : يُخرِج بذلك الماء من الأرض زرعًا مُختلفًا ألوانُه مِن أصفر وأخضر وأبيض وأحمر ، أوْ مِن بُرٍّ وشعير وغَيرهما ، إذا كان المُراد بالألوان الأصناف ، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ يُقَال : هاجَ النَّبْت يَهِيج هَيْجًا إذا تَمَّ جفافُه . ... . ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ ، أي : تَرَاه بعد خُضرته ونَضَارته وحُسن رَونقه مُصْفَرًّا قد ذهبت خُضرته ونَضَارته ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ ، أي : مُتَفَتِّتًا مُنكَسِرًا ، مِن تحطُّم العُود إذا تَفَتَّتَ مِن اليَبَس ، ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولي الألبابِ ﴾ ، أي: فِيما تَقَدَّمَ ذِكْرُه تذكير لأهل العقول الصحيحة ، فإنَّهم الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها ، فيتفكرون ويَعتبرون ، ويَعْلَمُون بأن الحياة الدُّنيا حالها كحال هذا الزَّرع في سُرعة التَّصَرُّم (التَّقَطُّع) ، وقُرب التَّقَضِّي ، وذَهاب بَهجتها ، وزَوال رَونقها ونَضَارتها ، فإذا أنتج لهم التفكرُ والاعتبارُ العِلْمَ بذلك لَم يَحصُل مِنهم الاغترار بها ، والمَيل إلَيها ، وإيثارها على دار النعيم الدائم والحياة المستمرة واللذة الخالصة ، ولم يَبْقَ معهم شَك في أن اللَّه قادر على البَعْث والحَشْر ، لأنَّ مَن قَدَرَ على هذا ، قَدَرَ على ذلك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِن بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾ [الشُّورى : ٢٨] .

يُعدِّد اللَّهُ نِعَمَه على الناس كَي يُوحِّدوه ويَشكروه . واللَّهُ سُبحانَه يُنزِّل المطرَ مِن السَّحَاب ، فيُغيثهم مِن القَحْط والجَدْب، مِن بَعد ما يَئِسُوا مِن نزوله ومجيئه، وهذا أدْعَى لهم إلى شُكر مُنزِّله. واللَّهُ يُنزِّل عليهم المطرَ في وقت حاجتهم وفقرهم، تفضُّلًا عليهم ، وإحسانًا إلَيهم ، وإنقاذًا لهم.

ويَنشُر اللَّهُ في خَلْقِه رَحْمَتَه (مَطَرَه) ، في كُل زمان ومكان ، ويَبْسُط عليهم خَيْراته وبَرَكاته ، وهو الوليُّ يتولَّى عبادَه بفضله وإحسانه ويَنصُرهم ، المُستحق للحَمْد على ذلك ، والمَحمودُ بكل لسان على نِعَمه وعطائه .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٩٥): ((قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغَيْثَ ﴾ المطرَ ﴿ مِن بَعْدِ ما قَنَطُوا ﴾ ، يعني : مِن بَعْد ما يَئِسَ الناسُ مِنه ، وذلك أدعى لهم إلى الشُّكر . قال مُقاتل: حَبَسَ اللَّهُ المطرَ عن أهل مكة سَبْع سنين، حَتَّى قَنَطُوا ، ثُمَّ أنزلَ اللَّهُ المطرَ ، فذكَّرهم اللَّهُ نِعْمَتَه ، ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ يَبسُط مَطَرَه ، كما قال : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ . ﴿ وَهُوَ الوَلِيُّ ﴾ لأهل طاعته ، ﴿ الحَمِيدُ﴾ عِند خَلْقه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٦٢) : ((﴿وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغَيْثَ ﴾ ، أي: المطر ، الذي هو أنفع أنواع الرِّزق ، وأعَمُّها فائدة ، وأكثرها مصلحة ، ﴿ مِن بَعْدِ ما قَنَطُوا ﴾ ، أي : مِن بَعد ما أَيِسُوا عن ذلك ، فيَعرِفون بهذا الإنزال للمطر بعد القُنُوط مِقدارَ رحمته لهم ، ويَشكُرون له ما يَجب الشُّكْر عَلَيه ﴿ وَهُوَ الوَلِيُّ ﴾ للصَّالحين مِن عِباده بالإحسان إلَيهم ، وجَلْب المنافع لهم ، ودَفْع الشُّرور عَنهُم ﴿ الحَمِيدُ﴾ المُستحق للحَمْد مِنهُم على إنعامه خُصُوصًا وعُمُومًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والذي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأنشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كذلكَ تُخرَجون ﴾ [الزُّخْرُف : ١١] .

واللَّهُ نزَّل بقُدرته وحِكمته مِن السَّحَاب مطرًا بمِقدار مُعيَّن ، بِحَسَب حاجتكم إلَيه ، بحَيث يَنفعكم ولا يَضُرُّكم ، وبِحَسَب الكِفاية لشُربكم وشُرب أنعامكم ، وسَقْي زُروعكم وثماركم . وهذا المِقدار المُعيَّن خاضع لمشيئة اللَّه التي تُحقِّق مصالحَ العِباد ، وتَجلِب لهم النفعَ والفائدةَ .

فأحيا اللهُ بهذا المطر أرضًا مَيتة مُجدِبة ، لا زَرع فيها ولا نبات ، كذلك يُخرِجكم اللَّهُ مِن قُبوركم أحياءً ، كما يُخرِج النباتَ مِن الأرض المَيتة . ومَن قَدَرَ على هذا ، قَدَرَ على ذلك . وإحياءُ الأرض بعد مَوتها ، يُشير إلى إحياء الأجساد بَعد مَوتها ، في يَوم القِيامة ، للحِساب والجَزاء .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٦٩) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : ﴿ والذي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً بِقَدَرٍ ﴾ ، يعني : ما نزَّل جَلَّ ثناؤه مِن الأمطار مِن السَّماء بقَدَر . يقول: بمِقدار حاجتكم إلَيه، فَلَم يَجعله كالطُّوفان ، فيكون عذابًا كالذي أُنزِل على قوم نُوح ، ولا جعله قليلًا، لا ينبت به النبات والزَّرْع مِن قِلَّته ، ولكنَّه جَعَلَه غَيْثًا مُغِيثًا ، وَحَيًا للأرض المَيتة مُحْيِيًا ، ﴿ فَأنشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ ، يَقول جَلَّ ثناؤه : فأحْيَيْنا به بلدةً مِن بلادكم مَيْتًا ، يَعني مُجدِبة ، لا نبات بها ولا زرع ، قد دَرَسَتْ مِن الجُدُوب ، وتَعَفَّنَتْ مِن القُحُوط ، ﴿ كذلكَ تُخرَجون ﴾ . يَقول تعالى ذِكْرُه : كما أخْرَجْنا بهذا الماء الذي نزَّلناه من السماء مِن هذه البلدة المَيتة بعد جُدُوبها وقُحُوطها النباتَ والزَّرْعَ ، كذلك أيُّها الناس تُخرَجون مِن بَعد فَنائكم ومَصيركم في الأرض رُفَاتًا بالماء الذي أنزله إليها لإحيائكم مِن بعد مَماتكم مِنها أحياءً ، كهيئتكم التي كُنتم بها قَبْل مَماتكم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٨٠) : ((﴿ والذي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً بِقَدَرٍ ﴾ ،أي بقدر الحَاجَة ، وحَسبما تقتضيه المصلحة ، ولم يُنزِّل عليكم مِنه فوق حاجتكم حتى يُهلِك زرائعكم ، ويَهدم منازلكم ، ويُهلِككم بالغَرَق ، ولا دُونها حتى تحتاجوا إلى الزيادة ، وعلى حَسَب ما تَقتضيه مشيئته في أرزاق عباده بالتَّوسيع تَارَةً ، والتَّقتير أُخرى ، ﴿ فَأنشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ ، أي: أحْيَيْنا بذلك الماء بَلدةً مُقفِرة مِن النبات . ... . ﴿ كذلكَ تُخرَجون ﴾ مِن قُبوركم ، أي: مِثْل ذلك الإحياء للأرض بإخراج نباتها بَعد أن كانت لا نبات بها ، تُبعَثون مِن قُبوركم أحياءً)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ٤١) : ((﴿ والذي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً بِقَدَرٍ ﴾ بمِقدار تَقتضيه مَشيئته المَبنية على الحِكَم والمصالح ، ﴿ فَأنشَرْنا بِهِ ﴾ ، أي : أحْيَيْنا بذلك الماءَ ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ خاليًا عَن النَّمَاء والنَّبات بالكُلِّية. وقُرئ مَيِّتًا بالتشديد ، وتَذكيره لأنَّ البلدة في معنى البلد والمكان . والالتفات إلى نُون العَظَمَة ، لإظهار كمال العِناية بأمر الإحياء ، والإشعار بعِظَم خَطَره ، ﴿ كذلكَ ﴾ ، أي: مِثْل ذلك الإحياء الذي هو في الحقيقة إخراجُ النَّبات مِن الأرض ﴿ تُخرَجون ﴾ أي: تُبعَثون مِن قُبوركم أحياءً . وفي التَّعبير عن إخراج النَّبات بالإنشار الذي هو إحياء المَوتى ، وعن إحيائهم بالإخراج ، تَفخيم لشأن الإنبات ، وتَهوين لأمر البَعْث ، لتَقويم سُنَن الاستدلال ، وتَوضيح مِنهاج القِيَاس)) .

٩ــ حَرَكة الأرض

إنَّ الأرض تتحرَّك ، ولكنَّ الناس لا يَشعرون بحركتها لأنَّها تَدُور ببُطء ، وبصُورة مُنتظمة ، وبسبب وُجود الجاذبية الأرضية، كما أن حجم الأرض كبير جِدًّا مُقارنةً مع أجسام الناس .

وللأرض حَرَكَتان : حَرَكَة يَومية حَول نَفْسها ، يَنتُج عنها تعاقُب الليل والنهار . وحَرَكَة سنوية حَول الشَّمْس ، يَنتُج عنها حُدوث الفُصول الأربعة .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّما مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السَّمَاءِ فاختلطَ بِهِ نَبَاتُ الأرضِ مِمَّا يَأكُلُ النَّاسُ والأنعامُ حَتَّى إذا أَخَذَتِ الأرضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أهْلُها أنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْها أتَاهَا أمْرُنا لَيْلًا أوْ نَهَارًا فَجَعَلْناها حَصِيدًا كأن لَم تَغْنَ بالأمْسِ كذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ [يُونُس : ٢٤] [١٣٣] .

هذا مَثَلٌ إلهيٌّ عظيم للحياة الدُّنيا الفانية ، وزوالها السريع ، وقِصَر مُدَّة الاستمتاع بها . والدُّنيا ساحرة ، تَخدع الناسَ بجَمالها الظاهري ، وزِينتها الخادعة ، وبريقها الوهمي ، وتَدفعهم إلى ارتكاب الذُّنُوب والآثام والجرائم عِشْقًا لها ، وتمسُّكًا بها ، وحِرصًا على التَّمَتُّع بحُطامها الفاني .

إنَّما صِفَة الحياة الدُّنيا في فَنائها وزَوالها ، وسُرعة انقضائها ، وذهاب بَهجتها ولذتها ونعيمها ، وإدبارها بعد إقبالها ، واغترار الناس بها ، كمطر أنزله اللَّهُ مِن السماء ، فَنَبَتَ بسببه نباتُ الأرض ، واختلطَ بعضُه ببعض ، مِمَّا يأكل الناسُ مِن البُقُول والحُبُوب والثِّمار ، والأنعامُ مِن المَراعي والكَلأ والتِّبن والشَّعير، حتى إذا أخذت الأرضُ حُسْنَها الزائل وزِينتها الفانية مِن النبات ، وتزيَّنت بالحُبُوب والثِّمار والأزهار مُختلفة الأشكال والألوان ، كما تتزيَّن العَرُوس بالحُلِيِّ والثِّياب ، وأيقنَ أصحابُ الأرض أنهم قادرون على حصادها والاستفادة مِنها، ومُتمكِّنون من تحصيل ثِمارها ، والانتفاع بها ، جاءها عذابُ اللَّهِ الشديدُ، وقضاؤه بهلاك ما عليها مِن النبات، إمَّا لَيْلًا وإمَّا نهارًا، فجعلَ اللَّهُ زَرْعَها كالمقطوع المَحصود بالمناجل، وصارت الأرض خالية مِن كُل شيء ، كأن لَم يَكُن زَرْعُها مَوجودًا فيها بالأمس أخضر جميلًا ، وكأنها ما كانت حَسناء وعامرة قَبل ذلك . وكُل الأشياء بعد زَوالها وفَنائها كأنَّها لَم تَكُن .

كما بيَّن اللَّهُ هذا التفصيلَ الباهر والمَثَلَ الرائع لسُرعة زوال مُتعة الحياة الدُّنيا ، واغترار الناس بها ، كذلك يُبيِّن اللَّهُ الآياتِ والحُجَج والأدلة والأمثال لقوم يتفكرون فيها ، فيَعتبرون بها .

---

١٣٣ في زاد المسير (٤/ ٢٢) : ((قال بعضُ المفسِّرين : تأويل الآية أن الحياة في الدنيا سبب لاجتماع المال ، وما يَرُوق مِن زَهرة الدُّنيا ويُعجِب ، حتى إذا استتمَّ ذلك عند صاحبه ، وظنَّ أنه مُتَمَّع بذلك سُلب عَنه بموته ، أوْ بحادثة تُهلكه ، كما أن الماء سبب لالتفاف النبات وكَثرته ، فإذا تزيَّنت به الأرض ، وظنَّ الناسُ أنهم مُستمتعون بذلك، أهلكه اللَّهُ ، فعادَ ما كان فيها كأن لم يَكُن)) .

وتخصيصهم بالذِّكْر لأنهم وَحْدَهم المُنتفعون بالآيات ، والمُستفيدون مِن الأمثال . ومِن عادة الدُّنيا أنها تَهرُب مِمَّن طَلَبَها ، وتَطلُب مَن هَرَبَ مِنها . وقد وضَّح اللَّهُ للناس حال الدُّنيا وعاقبة أمرها ونهايتها المحتومة وفَنائها الأكيد، فهُم يَرَوْنَ كَيف يأتي الرَّبيعُ الجميلُ، ثُمَّ يَنقضي ويَذهب بسُرعة ، ويتلاشى حُسْنُه ، وتختفي بَهجته ، كأنَّ شيئًا لَم يكن، كذلك حال زِينة الدُّنيا ، فهي خادعة وزائلة . والدُّنيا إنْ لَم تَتركك ، فأنتَ ستتركها بالمصائب أو بالمَوت .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٤٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : إنَّما مَثَلُ ما تُباهون في الدُّنيا وتُفاخرون به مِن زينتها وأموالها، معَ ما قد وُكِّلَ بذلك مِن التَّكدير والتَّنغيص وزواله بالفَناء والمَوت، كَمَثَل ماء أنزلناه مِن السَّماء . يَقول : كمطر أرسلناه مِن السَّماء إلى الأرض ، ﴿ فاختلطَ بِهِ نَبَاتُ الأرضِ ﴾ . يقول : فَنَبَتَ بذلك المطر أنواع مِن النَّبات مُختلِط بعضها ببعض ، كما حدَّثنا القاسم قال حدَّثنا الحُسَين قال حدَّثني حَجَّاج عن ابن جُرَيج عن عطاء الخُرَاساني عن ابن عباس ، قَوله : ﴿ إنَّما مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السَّمَاءِ فاختلطَ بِهِ نَبَاتُ الأرضِ ﴾ . قال : اختلطَ فَنَبَتَ بالماء كُلُّ لَون ، ﴿ مِمَّا يَأكُلُ النَّاسُ ﴾ كالحِنطة والشَّعير وسائر حُبُوب الأرض والبُقُول والثِّمار ، وما يأكله الأنعام والبهائم مِن الحَشيش والمراعي . وقَوله : ﴿ حَتَّى إذا أَخَذَتِ الأرضُ زُخْرُفَهَا ﴾ ، يعني: ظَهَرَ حُسْنُها وبهاؤها ﴿ وازَّيَّنَتْ ﴾ يقول : وتَزَيَّنَت ، ﴿ وَظَنَّ أهْلُها ﴾ ، يعني : أهل الأرض ﴿ أنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْها ﴾ ، يعني : على ما أنبتت . وخرج الخَبَر عن الأرض ، والمعنى للنَّبات ، إذْ كان مفهومًا بالخِطاب ما عُنِيَ به. وقَوله : ﴿ أتَاهَا أمْرُنا لَيْلًا أوْ نَهَارًا ﴾ ، يَقول : جاء الأرضَ أمْرُنا، يعني : قضاؤنا بهلاك ما عليها مِن النَّبات ، إمَّا لَيْلًا ، وإمَّا نهارًا ، ﴿ فَجَعَلْناها ﴾ ، يَقول : فَجَعَلْنا ما عليها ﴿ حَصِيدًا ﴾ ، يعني : مَقطوعة مَقلوعة مِن أُصُولها . وإنَّما هي مَحصودة ، صُرفت إلى حصيد . ﴿ كأن لَم تَغْنَ بالأمْسِ ﴾ ، يقول : كأن لم تكن تلك الزُّروع والنَّبات على ظَهْر الأرض نابتة قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس . ... . يقول : فكذلك يأتي الفَنَاء على ما تتباهون به مِن دُنياكم وزُخرُفها ، فيُفنيها ويُهلكها كما أهلك أمرُنا وقضاؤنا نباتَ هذه الأرض بعد حُسنها وبَهجتها ، حتى صارت ﴿ كأن لَم تَغْنَ بالأمْسِ ﴾ ، كأن لم تكن قبل ذلك نباتًا على ظَهْرها . يقول اللَّهُ جَلَّ ثناؤه : ﴿ كذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ ، يقول : كَمَا بَيَّنَّا لكم أيها الناس مَثَلَ الدُّنيا ، وعرَّفناكم حُكمها وأمْرَها ، كذلك نُبيِّن حُجَجَنا وأدلتنا لِمَن تَفَكَّرَ واعتبرَ ونظرَ . وخَصَّ به أهل الفِكر لأنهم أهل التمييز بين الأمور ، والفَحْص عن حقائق ما يَعرِض مِن الشُّبَه في الصُّدور)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَاواتِ والأرضِ وما بَيْنَهُما وَرَبُّ المَشَارِقِ ﴾ [الصَّافَّات : ٥].

اللَّهُ خالق السماوات والأرض ، ومالكهما ، ومُدبِّر أمرهما ، وما بينهما مِن المَخلوقات . وبالتأكيد ، إنَّ وجود هذه المخلوقات وَفْق هذا الشَّكل البديع المُنظَّم ، مِن أوضح الأدلة على وُجود اللَّه ووَحدانيته وقُدرته،والنظامُ الواحد المُتقَن يدلُّ على وُجود الصانع الواحد الحكيم العليم، والواحدُ يدلُّ على الواحد . واللَّهُ خالقُ كُل شيء ومالكُه ، وهذا يعني أنَّه وَحْدَه المُستحق للعِبادة .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٦٨): ((وقَوله : ﴿ رَبُّ السَّمَاواتِ والأرضِ وما بَيْنَهُما ﴾ يقول : هُوَ واحد خالق السَّماوات السَّبْع وما بَينهما مِن الخَلْق ، ومَالِك ذلك كُلِّه ، والقَيِّم على جميع ذلك . يَقول : فالعِبادة لا تَصلُح إلا لِمَن هذه صِفته ، فلا تَعبُدوا غَيْرَه ، ولا تُشرِكوا معه في عِبادتكم إيَّاه مَن لا يَضُرُّ ، ولا يَنفع ، ولا يَخلُق شيئًا ، ولا يُغْنيه)) .

واللَّهُ رَبُّ مشارق (مطالع) الشمس ومغاربها في الشِّتاء والصَّيف، لها كُل يَوم مشرق ومغرب. والمشارقُ ثلاثمائة وسِتُّون مَشْرِقًا،والمغارب مِثْلُها،على عدد أيَّام السَّنة.واكتفى بِذِكْر المشارق، لأنَّ المَشَارِق تدلُّ على المغارب، والشُّروق قبل الغُروب. والشروق أدلُّ على القُدرة وأبْلَغ في النِّعْمة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥): ((﴿ وَرَبُّ المَشَارِقِ ﴾ ، أي : هو المَالِك المُتَصَرِّف في الخَلْق بتَسخيره ، بما فيه من كواكب ثوابت وسَيَّارات ، تَبدو مِن المَشرق، وتَغرُب مِن المَغرب)).

وقال البَغَوي في تفسيره(١/ ٣٤):((﴿ رَبُّ السَّمَاواتِ والأرضِ وما بَيْنَهُما وَرَبُّ المَشَارِقِ ﴾ أي: مَطَالِع الشَّمْس. قِيل: أرادَ به المشارق والمغارب، كما قال في مَوضِع آخَر: ﴿ فلا أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ ﴾ [المَعَارِج: ٤٠].فإن قِيل:قَد قال في مَوضِع:﴿ بِرَبِّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ ﴾، وقال في مَوضِع: ﴿ رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرَّحمن: ١٧] . وقال في مَوضِع : ﴿ رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ﴾ [المُزَّمل: ٩].فكيف وَجْهُ التَّوفيق بين هذه الآيات ؟. قِيل : أمَّا قَوله : ﴿ رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ﴾ ، أرادَ بِه الجِهَة ، فالمَشرق جِهة ، والمَغرب جِهة . وقَوله: ﴿ رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ ﴾ ، أراد: مَشرِق الشِّتاء ومَشرِق الصَّيف. وأرادَ بالمَغْرِبَيْن: مَغرِب الشِّتاء ومَغرِب الصَّيف. وقَوله: ﴿ بِرَبِّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ ﴾ ، أرادَ أنَّ اللَّه تعالى خَلَقَ للشَّمس ثلاثمائة وسِتِّين كُوَّة في المَشرِق، وثلاثمائة وسِتِّين كُوَّة في المغرب، على عدد أيام السَّنة، تَطلُع الشَّمْسُ كُلَّ يَوم مِن كُوَّة مِنها، وتَغرُب في كُوَّة مِنها، لا ترجع إلى الكُوَّة التي تَطلُع مِنها إلى ذلك اليوم مِن العام المُقبِل، فهي المشارق والمغارب، وقِيل: كُل مَوضِع شَرَقَتْ عليه الشمس فهو مَشرِق، وكُل مَوضِع غَرَبَتْ عليه الشَّمس فهو مَغرِب ، كأنه أراد رَبَّ جميع ما أشرقت عليه الشمس وغَرَبَتْ)) .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرضَ ﴾ [الرَّعْد : ٣] .

إنَّ اللَّه بِقُدرته قد بَسَطَ الأرضَ طُولًا وعَرْضًا ووسَّعها ، وجَعَلَها مَمدودةً ومُتَّسعةً وفسيحةً ، ليستقر عليها الإنسان والحَيَوَان ، ويَتحرَّكا بِسُهولة ويُسر . ولو كانت الأرضُ جبالًا وأوديةً وأماكن وَعِرة ، لصارت الحياةُ عليها مُستحيلة . والجديرُ بالذِّكر أنَّ بَسْط الأرض لا يُنافي كُرويتها لِتَبَاعُد أطرافها ، وبُعد مداها ، وسَعَة أقطارها .

وفي التسهيل في علوم التنزيل (٢/ ١٣٠) : ((ولا يتنافى لفظُ البَسْط والمَدِّ معَ التَّكوير ، لأن كُل قطعة مِن الأرض مَمدودة على حِدَتها ، وإنَّما التَّكوير لِجُملة الأرض)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والأرضَ مَدَدْناها ﴾ [الحِجْر : ١٩] .

بَسَطَ اللَّهُ الأرضَ ، ووسَّعها ، وفَرَشَها ، رحمةً بعباده ، وتَفَضُّلًا عَلَيهم ، وإحسانًا إلَيهم . وهذه نِعمة إلهية عظيمة ، تدلُّ على قُدرة اللَّه المُطْلَقَة ، وحِكمته البالغة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٩٠) : ((﴿ والأرضَ مَدَدْناها ﴾ ، أي : بَسَطْناها على وَجه الماء)) .

وقال الفخر الرازي في تفسيره (١٩/ ١٧٠) : ((إنَّ الأرض كُرَة في غاية العَظَمَة ، والكُرَة العظيمة تَكون كُل قِطعة صغيرة مِنها إذا نُظر إلَيها كالسَّطْح المُستوي ، فلا إشكال في بَسْطها معَ أنها كُرَة ، والدليل قَوله تعالى: ﴿ والجِبَالَ أوْتَادًا ﴾ [النَّبَأ : ٧]. سَمَّاها أوتادًا ، معَ أنَّه قد يَحصُل عَلَيها سُطوح عظيمة مُستوية ، فكذا هُنا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ مَهْدًا وسَلَكَ لَكُم فِيها سُبُلًا وأنزلَ مِنَ السماءِ ماءً فأخْرَجْنا بِهِ أزواجًا مِن نباتٍ شَتَّى ﴾ [طه : ٥٣] .

يُبيِّن اللَّهُ نِعَمَه الجليلة كي يَعبُده الناس ، وَحْدَه لا شريك له ، ويَشكروه على آلائه ونِعَمه .

إنَّ اللَّه مَهَّدَ للناسِ الأرضَ وبَسَطَها ، وجَعَلَها كالفِرَاش كي يَستقروا عليها، ويُمارسوا أنشطتهم الحياتية بِسُهولة ويُسر ، رحمةً بِهم ، وتفضُّلًا عليهم ، وإحسانًا إلَيهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢١٠) : ((أي : قَرَارًا ، تستقرون عليها ، وتقومون، وتنامون عَلَيها ، وتُسافرون على ظَهْرها)) .

﴿ وسَلَكَ لكم فِيها سُبُلًا ﴾ . جَعَلَ اللَّهُ لكم في الأرض طُرُقًا سهلةً ، تَمْشُون فيها ، كَي تَستفيدوا مِن مَنافعها ومَرافقها ، وتقضوا حوائجكم ومصالحكم . لقد أدخلَ اللَّهُ في الأرضِ سُبُلًا سالكةً بلا عوائق ولا عَقَبات ، وهذا يدل على كثرتها وانتشارها في جِهات الأرض .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٧٧) : ((السَّلْك : إدخال الشَّيء في الشَّيء. والمعنى : أدخلَ في الأرض لأجلكم طُرُقًا تَسلكونها. قال ابن عباس : سَهَّلَ لكم فيها طُرُقًا تَسلكونها)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥): ((وجعل لكم فيها سُبُلًا بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها مِن أرض إلى أرض لتَبلغوا منافعها)) .

﴿ وأنزلَ مِنَ السماءِ ماءً ﴾ . وأنزلَ اللَّهُ لكم مِن السَّحاب مَطَرًا عَذبًا .

﴿ فأخْرَجْنا بِهِ أزواجًا مِن نباتٍ شَتَّى ﴾ . أنعمَ اللَّهُ على خَلْقه، وذكَّرهم بِنَعمه الجليلة ، فقد أخرجَ بالمطر الذي أنزله مِنَ السَّحَاب أنواعَ النباتات المُختلفة في الشَّكْل والمَنظر والطَّعْم والرائحة.والالتفات مِن الغَيبة إلى المُتكلِّم تنبيهًا على عَظَمَة اللَّه، وقُدرته المُطْلَقَة، وحِكمته البالغة.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥):((﴿ فأخْرَجْنا بِهِ ﴾ عَدَلَ به عَن لفظ الغَيبة إلى صِيغة التكلُّم على الحِكاية لكلام اللَّه تعالى ، تنبيهًا على ظُهور ما فيه مِن الدَّلالة على كَمَال القُدرة والحِكمة، وإيذانًا بأنه مُطاع تَنقاد الأشياء المُختلفة لمشيئته ... ﴿ أزواجًا ﴾ أصنافًا . سُمِّيَت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ﴿ مِن نباتٍ ﴾ بيان أو صِفة لِ ﴿ أزواجًا ﴾ وكذلك ﴿ شَتَّى ﴾ . ويُحتمَل أن يكون صِفة لِ ﴿ نباتٍ ﴾ ، فإنه مِن حيث إنَّه مصدر في الأصل، يَستوي فيه الواحد والجَمْع، وهو جَمْعُ شَتِيتٍ كمريض ومرضى ، أي مُتفرِّقات في الصُّوَر والأغراض والمنافع ، يَصْلُح بعضها للناس ، وبعضها للبهائم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنا بِهِ الأرضَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

أهلكَ اللَّهُ الكافرين بسبب ذُنوبهم وجرائمهم ، وعذَّبهم ، وكانت عُقوبة كُل فِئة بما يُناسبها .

ومِنهُم مَن خَسَفَ اللَّهُ به وبأملاكه وثَرَواته الأرضَ ، حتى غابَ فيها ، واختفى في جَوْفها ، كقَارُون وأصحابه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٤٧) : ((﴿ وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنا بِهِ الأرضَ ﴾ ، وهو قَارُون ، الذي طَغَى ، وبَغَى ، وعَتَا ، وعَصَى الرَّبَّ الأعلى ، ومَشَى في الأرض مَرَحًا ، وفَرِحَ ، ومَرِحَ ، وتاه بنَفْسه ، واعتقد أنَّه أفضل مِن غَيْره ، واختالَ في مِشْيته، فَخَسَفَ اللَّهُ به وبداره الأرضَ ، فهو يَتجلجل فيها إلى يوم القيامة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ [سَبَأ : ٢] .

أحاطَ اللَّهُ بكُل شيء عِلْمًا ، ولا تَخفَى عَلَيه خافية ، وهو سُبحانَه يَعْلَم ما يَدخُل في جَوْف الأرض مِن المطر والكُنوز والأموات ، وما يَخرُج مِن الأرض مِن الزَّرْع والنبات والأموات إذا بُعثوا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٩٣) : ((﴿ يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ ، أي : يَعْلَم عَدَدَ القَطْر النازل في أجزاء الأرض ، والحَبَّ المَبذور والكامنَ فِيها ، ويَعْلَم ما يَخرُج مِن ذلك ، عَدَدَه وكيفيته وصِفاته)) اهـ . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٠) : ((﴿ يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأرضِ ﴾ ، كالغَيث يَنفُذ في مَوضِع ، ويَنبُع في آخَر ، وكالكُنوز والدفائن والأموات ، ﴿ وما يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ كالحَيَوان والنَّبات والفِلِزَّات وماء العُيون)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿ إن نَشَأ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرضَ أوْ نُسْقِطْ عَلَيهم كِسَفًا مِنَ السماء﴾[سَبَأ: ٩].

يُهدِّدهم اللَّهُ ويُخوِّفهم كَي يَرتدعوا ويَنْزجروا عن كُفرهم ، ويلتزموا بعبادة اللَّه وَحْدَه .

إن يَشَأ اللَّهُ يَخسِف بهم الأرضَ كما خَسَفَ بمَن قَبلهم ، أو يُسقِط عليهم قِطَعًا من السماء ، لتكذيبهم بآيات اللَّه وكُفرهم بالنبيِّ ﷺ وبما جاءَ بِه ، بعد ظُهور الأدلة والحُجَج والبراهين . وهذا يدلُّ على أن الأرض والسماء خاضعتان لأمر اللَّه ، ومَقهورتان تحت حُكمه وإرادته ومشيئته. وإذا شاءَ اللَّهُ عَذَّبَ بأرضه ، وإذا شاءَ عَذَّبَ بسَمائه . والأرضُ والسماءُ كِلْتاهُما مِن جُنود اللَّه تعالى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٩٤) : ((أي : لَو شِئنا لفعلنا بهم ذلك بِظُلمهم وقُدرتنا عليهم ، ولكن نُؤخِّر ذلك لِحِلْمنا وعَفْونا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرضُ عَنْهُم سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ ﴾[ق : ٤٤] .

يَوْمَ تَصَدَّع الأرضُ وتنشقُّ عنهم ، فيَخرجون مِن قُبورهم مُسرِعين إلى مَوقِف الحِساب ، مُبادِرين إلى أمر اللَّه ، وخاضعين له ، ذلك بَعْث سَهْل هَيِّن على اللَّه تعالى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٩٤): ((وقَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرضُ عَنْهُم سِرَاعًا ﴾ وذلك أنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ يُنزل مطرًا مِن السَّماء يَنبت به أجساد الخلائق كُلها في قُبورها ، كما يَنبُت الحَبُّ في الثَّرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد ، أمرَ اللَّهُ تعالى إسرافيلَ ، فيَنفُخ في الصُّور ، وقد أُودعت الأرواح في ثُقْب في الصُّور ، فإذا نَفَخَ إسرافيلُ فيه ، خَرَجَت الأرواحُ تتوهَّج بين السماء والأرض ، فيَقول اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وعِزَّتي وجَلالي لَتَرْجِعَنَّ كُل رُوح إلى الجسد الذي كانت تَعمُره . فتَرجع كُل رُوح إلى جسدها ، فَتَدِبُّ فيه كما يَدِبُّ السُّمُّ في اللديغ ، وتنشقُّ الأرض عنهم ، فيَقومون إلى مَوقِف الحِساب سِرَاعًا ، مُبادِرين إلى أمر اللَّه عَزَّ وَجَلَّ)) .

وروى التِّرمذيُّ في سُننه (٥/ ٣٠٨) وصحَّحه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((... ، وأنا أوَّلُ مَن تَنْشَقُّ عَنهُ الأرضُ ولا فَخْر)) .

أكرمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بأن جَعَلَه أعظمَ الأنبياء والمُرسَلين ، وبسبب سَبْقه بالنُّبُوَّة،مَنَحَه اللَّهُ السَّبْقَ المُتمثِّل في خُروجه مِن قَبْره عِند قِيام السَّاعة للبَعْث قَبل جميع الناس ، فهو أوَّل مَن تُعَاد فيه الرُّوح يوم القِيامة ، وأوَّل مَن ينشقُّ عنه قبرُه ، فيَخرج مِنه ، ولا أحد يَسبقه في هذه الفضيلة ، ولا أحد يتقدَّم عليه بَعْثًا،وهذا مِن خصائصه الشريفة التي تدلُّ على عِناية اللَّه به،فقد عجَّل اللَّهُ إحياءه ، وإخراجَه مِن قَبره مُبَالَغَةً في إكرامه ، والتفضُّل والإنعام عَلَيه ، والإحسان إلَيه .

وقَوله : " ولا فَخْر " حال مُؤكِّدة ، أي : لا أقُوله فَخْرًا ولا غُرورًا ولا تكبُّرًا ، ولكن أقُوله اعترافًا بفضل اللَّه عليَّ ، وتحديثًا بنِعمته .

وعن ابن عُمر ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((أنا أوَّلُ مَن تَنْشَقُّ الأرضُ عَنهُ ، ثُمَّ أبو بَكْر ، ثُمَّ عُمَر ، ثُمَّ آتِي أهلَ البَقيع ، فيُحشَرون مَعِي ، ثُمَّ أنتظرُ أهلَ مَكَّة)) . وتَلا عبد اللَّه بن عُمر : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرضُ عَنْهُم سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ ﴾ [١٣٤].

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ٤١) : (((أنا أوَّلُ مَن تنشقُّ عنه) للبَعْث فلا يتقدَّم أحد عليه بَعْثًا فهو مِن خصائصه (ثُمَّ أبو بَكْر) الصِّديق لكَمال صَداقته له (ثُمَّ عُمَر) الفاروق لفَرْقه بين الحَق والباطل (ثُمَّ آتي أهلَ البَقِيع) لكرامتهم على رَبِّهم ، وشرفهم لديه باستغفار نَبِيِّه لهم ، وقُربهم منه . قال القاضي : آتي فِعْل المُتكلِّم ، والبَقِيع مَقبرة المدينة (فيُحشَرون مَعِي) أي أجتمع أنا وإيَّاهم . ... . (ثُمَّ أنتظرُ أهلَ مَكَّة) أي المسلمين منهم حتى يأتون إليَّ ، وزاد في رواية : " حَتَّى أُحْشَرَ بَين الحَرَمَيْن ". قال السمهودي : وفيه بُشرى عظيمة لكُل مَن مات بالمدينة، وإشعار بذَم الخُروج مِنها مُطْلَقًا ، وهو عام في كُل زمان ، كما نقله المُحِب الطبري وارتضاه)) .

وفي تُحفة الأحوذيِّ (١٠/ ١٢٤): ((...، (فيُحشَرون) بصيغة المَجهول مِن الحَشْر بمعنى الجَمْع (مَعِي) أي يُجمَعون مَعِي لكَرامتهم على رَبِّهم . قال الحكيم : هذا معنى بعيد لا أعْلَمُه يُوافق إلا في حال واحد ، فإنَّ حَشْر المُصطفى ﷺ غَير حَشْر الشَّيْخَيْن ، لأنَّ حَشْرَه حَشْرُ سَادَة الرُّسُل ، بل هو إمامهم ومَقَامهم في العُرضَة في مَقَام الصِّديقين ، وفي صَفِّهم ، فالظاهر أنَّ المُراد

---

١٣٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٥) برقم (٣٧٣٢) وصحَّحه ، وقال الذهبي عن أحد رُواة الحديث: ((عبد اللَّه بن نافع ضعيف)) .

الانضمام في اقتراب بَعضهم مِن بَعض في مَحَلِّ القُربَة (ثُمَّ أنتظرُ أهلَ مَكَّة) أي : المُؤمنين مِنهُم، (حَتَّى أُحْشَرَ بَين الحَرَمَيْن) ، أي: حَتَّى يَكون لِي ولَهُم اجتماع بَين الحَرَمَيْن، كذا في التَّيسير)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزَّلزلة : ١] .

إذا حُرِّكَت الأرضُ مِن أسفلها (أصلها) تحريكًا عنيفًا ، واهْتَزَّتْ اهتزازًا شديدًا ، يُخِيف النُّفُوسَ ، ويَبعث الهَلَعَ في القُلوب. وبعبارة أُخرى، إذا زُلْزِلَت الأرضُ زِلْزَالَها الشديد،الذي لا شَيء فَوقه ، ولَيْسَ بَعده زِلزَال. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٩/ ٢٠١ و٢٠٢): ((قَوله تعالى : ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا ﴾ ، أي : حُرِّكَت حَركةً شديدةً ، وذلك عِند قِيام السَّاعة ، وقال مُقاتل: تتزلزل مِن شِدَّة صَوت إسرافيل، حَتَّى يَنكسر كُلُّ ما عَلَيها مِن شِدَّة الزَّلْزَلَة ، ولا تَسْكُن حَتَّى تُلْقِي ما على ظَهْرها مِن جبل أو بناء أو شجر ، ثُم تتحرَّك وتضطرب ، فتُخْرِج ما في جَوْفها . وفي وَقْت هذه الزَّلْزَلَة قَولان : أحدهما تكون في الدُّنيا ، وهي مِن أشراط السَّاعة ، قاله الأكثرون. والثاني أنَّها زَلْزَلَة يَوم القِيامة ، قاله خارجة بن زيد في آخرين)) .

وإضافةُ الزِّلْزَال إلى الأرض: ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ للتَّخويف والتَّهويل. والمعنى: الزِّلزال الذي يَلِيق بالأرض عَلى عِظَم حَجْمها، وسَعَة مساحتها، وذلك عِند قِيام السَّاعة ، حَيث تُحرَّك الأرضُ تحريكًا شديدًا مُتتابعًا، ويَنهار نظام الحياة عليها،ولا تهدأ حتى تُلقي ما على سَطْحها مِن جَبل وبناء وشجر.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٦٧٩) : ((قَوله : ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا ﴾ ، أي: إذا حُرِّكَتْ حَركةً شديدةً ، وجواب الشَّرْط : تَحْدُث ، والمُراد تَحَرُّكها عِند قِيام السَّاعة ، فإنَّها تَضطرب حتى يتكسَّر كُل شيء عليها . قال مجاهد : وهي النَّفْخَة الأولى لقَوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) ﴾ ، وذِكْرُ المَصْدَر للتأكيد ، ثُمَّ أضافه إلى الأرض ، فهو مَصْدَر مُضاف إلى فاعله، والمعنى: زِلْزَالها المَخصوص الذي يَستحقه ويَقتضيه جُرْمها وعِظَمها)).

[وعن عبد اللَّه بن عَمْرو قال : نَزلت ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا ﴾ ، وأبو بَكْر الصِّديق ــ رَضِيَ اللَّهُ عنه ــ قاعدٌ ، فبكى أبو بَكْر ، فقال له رسولُ اللَّه ﷺ : " مَا يُبْكِيكَ يا أبا بَكْر ؟ " . فقال: أبْكَتْني هَذه السُّورة،فقال رسول اللَّه ﷺ:" لَوْ أنَّكُم لا تُخْطِئون، ولا تُذنِبون، لَخَلَقَ اللَّهُ تعالى أُمَّةً مِن بَعْدكم يُخطِئون ويُذنِبون ، فَيَغفِر لهم "] [١٣٥].

---

١٣٥ قال الهيثمي في مَجمَع الزوائد (٧/ ٢٩٧): ((رواه الطبراني ، وفيه حُيَي بن عبد اللَّه الْمَعَافري ، وثَّقه ابن مَعِين وغَيْرُه ، وبقية رجاله رجال الصحيح)) .

يدلُّ الحديثُ على شِدَّة تأثُّر أبي بَكْر الصِّديق ـ رضي اللَّهُ عنه ـ بالقُرآن الكريم ، وتدبُّره لآياته ، وفَهْمه العميق للأحداث العظيمة الواردة فيه ، فقد بكى بعدما فَهِمَ سُورةَ الزَّلزلة مُتَأثِّرًا بما وَرَدَ فيها مِن آيات عظيمة،وأحداث شديدة،وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أن الناس لَوْ لَم يُخطِئوا، ولَم يُذنِبوا ، لَخِيفَ عَلَيهم العُجْب والغُرور،وعندئذٍ، يَأتي اللَّهُ بأُمَّة يُخطِئون ويُذنِبون، فيَغفِر لهم، ويَتوب عليهم، لأنَّ اللَّه يُحِبُّ مِن عَبده مَقام العُبودية القائم على الذُّل للَّهِ معَ تعظيمه وحُبِّه . والحديثُ لا يَدعو الناسَ إلى ارتكاب الذُّنُوب والمَعَاصي، وإنما يُبيِّن عَفْوَ اللَّه ورحمته بعباده ، وتجاوزه عن المُذنِبين التائبين. وهذه دَعوة لكُل المُذنِبين أن يَعودوا إلى اللَّهِ تائبين نادمين ، وعَدم اليأسِ والقُنوطِ .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأَخْرَجَتِ الأرضُ أثقَالَهَا ﴾ [الزَّلزلة : ٢] .

وأَلْقَت الأرضُ ما في جَوْفها مِن الأمواتِ على ظَهْرها أحياءً .

والجديرُ بالذِّكْر أن اللَّه لَم يَقُلْ: وأخرجتْ أثقالَها، وإنَّما قال : ﴿ وأَخْرَجَتِ الأرضُ أثقَالَهَا ﴾ ، وإظهار الأرض في مَوضع الإضمار لزيادة التَّقرير والتَّوكيد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٠٢) : ((قَوله تعالى: ﴿ وأَخْرَجَتِ الأرضُ أثقَالَهَا ﴾ فِيه قَولان : أحدهما ما فِيها مِن المَوْتى ، قاله ابن عباس . والثاني كُنوزها ، قاله عَطِيَّة ، وجَمَعَ الفَرَّاء بَيْن القَوْلَيْن ، فقال : لَفَظَتْ ما فِيها مِن ذَهَب أوْ فِضَّة أوْ مَيْت)) .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٧٠١): عن أبي هُرَيرة قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : ((تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كَبِدِها ، أمثالَ الأُسطُوانِ مِن الذَّهَبِ والفِضَّة ، فَيَجِيءُ القاتلُ فيَقول : في هذا قَتَلْتُ ، ويجيء القاطعُ فيَقول : في هذا قَطَعْتُ رَحِمي ، ويجيء السَّارِقُ فيَقول : في هذا قُطِعَتْ يَدِي ، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فلا يَأخذون مِنهُ شيئًا)) .

تُخْرِجُ الأرضُ الكُنوزَ المَدفونةَ فيها ، فيأتي القاتلُ فيَقول : بسبب هذا قَتَلْتُ الأنفُسَ، ويأتي قَاطِعُ الرَّحِم فيَقول : بسبب هذا قَطَعْتُ رَحِمي ، ويأتي السارقُ فيَقول : بسبب هذا قُطِعَتْ يَدِي ، ثُمَّ يَتركون ما أَلْقَتْهُ الأرضُ مِن الكُنوز والجواهر والمعادن ، لأنَّه لا يَنفع حينئذ .

وهذا يدل على أن حُب المال الشَّديد قَد يكون سببًا في اقتراف الذُّنوب ، وارتكاب الجرائم، كقَتل النَّفْس وقَطْع الرَّحِم . وسَوْفَ يأتي يومٌ يُصبح فيه المال بلا قيمة ولا أهمية . ومِن علامات السَّاعة الصُّغرى التي لَم تقع بَعْد ، إخراج الأرض كُنوزَها المَدفونة وجواهرها المَخبوءة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٩٨) : ((قال ابن السِّكِّيت : الفِلْذ القِطْعة مِن كَبِد البَعير ، وقال غَيْرُه : هي القِطعة مِن اللحم . ومعنى الحديث التَّشبيه ، أي : تُخرِج ما في

جَوْفها مِن القِطَع المَدفونة فيها ، والأُسطُوان بضم الهمزة والطاء ، وهو جَمْع أُسطوانة ، وهي السَّارية والعمود ، وشبَّهه بالأُسطُوان لِعِظَمه وكَثرته)) .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٦/ ٣٧٥) : ((قَوله (تَقِيء الأرض) مُضارع مِن القَيْء ، أي : تُلقي الأرضُ (أفلاذَ كَبِدها) قال القاري : بفتح الهمزة جَمْع الفِلْذة وهي القِطْعة المَقطوعة طُولًا ، وسُمِّيَ ما في الأرض كَبِدًا تشبيهًا بالكَبِد التي في بَطْن البَعير ، لأنَّها أحب ما هو مُحبَّأ فيها، كما أن الكَبِد أطْيَب ما في بَطْن الجَزُور، وأحَبُّه إلى العرب. وإنَّما قُلنا : في بَطْن البعير، لأن ابن الأعرابي قال : الفِلْذة لا تكون إلا للبَعير ، فالمعنى: تُظهِر كُنوزَها ، وتُخرِجها مِن بُطونها إلى ظُهورها ، انتهى . (أمثال الأُسطُوان) بضَم الهمزة والطاء . وقَوله (مِن الذَّهَب والفِضَّة) لبيان مُجمَل الحال . قال القاضي رحمه اللَّهُ: معناه أن الأرض تُلْقِي مِن بَطْنها ما فيه مِن الكُنوز ، وقِيل: ما وَسِخَ فِيها مِن العُروق المعدنية ، ويدل عليه قَوله : (أمثال الأُسطُوانة) ، وشبَّهها بأفلاذ الكَبِد هَيئةً وشكلًا ، فإنَّها قِطَع الكَبِد المَقطوعة طُولًا (قُطِعَتْ يَدِي) بصِيغة المجهول (ويجيء القاتل) أي: قاتل النَّفْس (في هذا) أي في طَلَب هذا الغَرَض لأجل تحصيل هذا المَقصود (قَتَلْتُ) أي مَن قَتَلْتُ مِن الأنفُس (ويجيء القَاطِع) أي : قَاطِع الرَّحِم (ثُمَّ يَدَعُونه) بفَتْح الدال ، أي : يَتركون ما قَاءَتْهُ الأرضُ مِن الكَنز أوْ المَعْدِن)) .

١١_ الليل والنَّهَار

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ بأنَّ اللَّهَ يُولِجُ الليلَ في النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ في الليلِ وأنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحَج : ٦١] .

إنَّ اللَّه قادرٌ على كُل شيء ، ولا يُعجِزه شيء . ومِن آيات قُدرته الباهرة إدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل ، أي : يُدخِل كُلًّا مِنهما في الآخَر . واللهُ يُنقِص مِن الليل فيَزيد في النهار ، فَيَطُول النهارُ في زمن الصَّيف . ويُنقِص مِن النهار فيَزيد في الليل ، فَيَطُول الليلُ في زمن الشِّتاء . ومَن قَدَرَ على هذا ، قَدَرَ على كُل شيء. واللَّهُ خالقُ الليل والنهار ، يُسيطر عَلَيهما ، ويتحكَّم بهما ، ويُصرِّفهما كما يشاء ، وأنَّ اللَّه سميع لأقوال عِباده ، بصير بأفعالهم ، لا يَغِيب عنه شيء ، ولا تَخفَى عَلَيه خافية .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٨٣) : ((فَمِن قُدرته أنَّ اللَّه يُولج الليلَ في النَّهار . يقول : يُدخِل ما يَنقُص مِن ساعات الليل في ساعات النهار ، فما نَقَصَ مِن هذا ، زاد في هذا ، ﴿ وَيُولِجُ النَّهَارَ في الليلِ ﴾ ، ويُدخِل ما انتقصَ مِن ساعات النهار في ساعات الليل ، فما نَقَصَ مِن طُول

هذا ، زاد في طُول هذا ، وبالقُدرة التي يَفعل ذلك يَنصُر مُحَمَّدًا ﷺ وأصحابَه على الذين بَغَوْا عَلَيهم ، فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، ﴿ وأنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ، يقول : وَفَعَلَ ذلك أيضًا بأنَّه ذُو سَمْع لِمَا يَقولون مِن قَوْل ، لا يَخفَى عَلَيه مِنه شيء ، بصير بما يَعملون ، لا يَغِيب عَنه مِنه شيء ، كُل ذلك مِنه بمَرأى ومَسْمَع ، وهو الحافظ لكُل ذلك حتى يُجَازِيَ جميعَهم على ما قالوا وعملوا مِن قَول وعمل جزاءه)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٨٦) : (((سُبحانَ اللَّه أينَ الليل إذا جاء النهار) قالوا: كَتَبَ هِرَقْلُ إلى النبيِّ ﷺ تَدْعُوني إلى جَنَّة عَرْضُها السَّماوات والأرض ، فأينَ النار ؟، فَذَكَرَه. قال تعالى : ﴿ يُولِجُ الليلَ في النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ في الليلِ ﴾ . وقال في الكَشَّاف : معنى إيلاج أحدهما في الآخَر ، تَحصيل ظُلمة هذا في مكان ضِياء هذا بغَيبوبة الشمس ، وضِياء ذلك في مكان ظُلمة هذا بطُلوعها ، كما يُضيء السَّرْب (الطريق) بالسِّراج ، ويُظلِم بفَقْده)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ الليلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أرادَ أن يَذَّكَّرَ أوْ أرادَ شُكُورًا ﴾ [الفُرقان : ٦٢] . جَعَلَ اللَّهُ الليلَ والنهارَ مُتَعَاقِبَيْن ، يَخلُف أحدُهما الآخَرَ ، ويأتي بَعْدَه . يأتي الليلُ بظَلامه ، ثُمَّ يأتي النهارُ بضِيائه. ومَن فاته عملُه في أحدهما ، قَضَاه في الآخَر . لِمَن أرادَ أن يتذكَّر نِعَمَ اللَّه ، ويتفكَّر في صُنعه البديع ، ويَعتبر ويتَّعظ بتعاقُب الليل والنهار ، ويَعْلَم أن لا بُد مِن صانع حكيم قادر على كُل شيء ، أوْ أرادَ شُكرَ اللَّه على آلائه وفَضْله وإحسانه وإنعامه .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٩٢) : ((﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ الليلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ ، اختلَفوا فِيها . قال ابن عباس والحَسَن وقَتَادة : يَعني خَلَفًا وعِوَضًا ، يَقوم أحدُهما مَقَامَ صاحبه ، فَمَن فاته عملُه في أحدهما قضاه في الآخَر.قال شقيق:جاء رَجل إلى عُمر بن الخطاب، قال: فاتتني الصَّلاةُ الليلةَ ، فقال : أدْرِكْ ما فاتكَ مِن لَيلتك في نَهارك ، فإنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الليلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَن أرادَ أن يَذَّكر . قال مُجاهد : يعني جَعَلَ كُلَّ واحد مِنهما مُخَالِفًا لصاحبه ، فجعل هذا أسْوَد ، وهذا أبيض . وقال ابن زيد وغَيْرُه : يعني يَخلُف أحدُهما صاحبَه ، إذا ذهب أحدُهما جاء الآخَر ، فهُما يتعاقبان في الضِّياء والظُّلمة والزِّيادة والنُّقصان . ﴿ لِمَنْ أرادَ أن يَذَّكَّرَ ﴾ ، أي : يتذكَّر ويتَّعظ ﴿ أوْ أرادَ شُكُورًا ﴾ ، قال مُجاهد : أي شُكر نِعمة رَبِّه عَلَيه فِيهما)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٢٣) : ((﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ الليلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ . قال أبو عُبَيدة : الخِلْفَةُ كُلُّ شَيء بعد شَيء : الليل خِلْفَة للنَّهار ، والنَّهار خِلْفَة لليل ، لأنَّ أحدهما يَخلُف الآخَرَ ، ويأتي بَعده . ... . قال الفَرَّاء في تفسير الآية : يَقول : يَذهب هذا ، ويَجيء هذا .

وقال مُجاهد : خِلْفَة مِن الخِلاف ، هذا أبيض ، وهذا أسْوَد ، وقِيل: يتعاقبان في الضِّياء والظَّلام ، والزِّيادة والنُّقصان . وقِيل : هو مِن باب حَذف المُضاف ، أي: جعل الليل والنهار ذَوِي خِلْفَة ، أي : اختلاف ﴿ لِمَنْ أرادَ أن يَذَّكَّرَ ﴾ . ... . ومعنى الآية : أنَّ المُتَذَكِّر المُعْتَبِر إذا نظر في اختلاف الليل والنهار ، عَلِمَ أنَّه لا بُد في انتقالهما مِن حال إلى حال مِن ناقل ﴿ أوْ أرادَ شُكُورًا ﴾ أي : أرادَ أن يَشكُر اللَّهَ على ما أَوْدَعَه في الليل والنهار مِن النِّعَم العظيمة والألطاف الكثيرة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قُلْ أرأيْتُم إن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الليلَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ القِيامةِ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يأتيكُم بِضِياءٍ أفلا تَسْمَعُون ﴾ [القَصَص : ٧١] .

قُل يا مُحمَّد لهؤلاء المُشركين الذين يعبدون الأصنام : أخبروني إن جَعل اللَّهُ عليكم الليلَ دائمًا بلا انقطاع، ولا نهار معه إلى يوم القيامة، مِن هو الإلهُ الذي يَقْدِر أن يأتيَكم بِنُور النهار تستضيئون بِه في حياتكم وتُبْصِرون بِه وتطلبون بِه المعيشة غَير اللَّه ؟ . أفلا تَسمعون سَماع فَهْم وقَبول فتخضعون للحق، وتتَّعظون، وتستدلون بذلك على وَحدانية اللَّه وقُدرته المُطْلَقَة وحِكمته العظيمة؟. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٠٢) : ((﴿ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يأتيكُم بِضِياءٍ ﴾ . كان حقه " هل إله " فذكر بِـ ﴿ مَنْ ﴾ على زعمهم أن غَيره آلهة)) .

والآيةُ تُقيم الحُجَّة على المشركين، وتُلْزِمهم بِها بالدليل والبُرهان ، وليس بالشتائم والجعجعة.

واللَّهُ يمتنُّ على عباده بنعمة النهار، ولو كان الليلُ دائمًا بلا انقطاع إلى يوم القيامة ، لانهارت عقول الناس، وتعطَّلت مصالحهم ، وفسدت حياتهم ، وأصابهم الملَل والسَّآمة والكآبة . واللَّهُ يُوضِّح للناسِ أنه سَخَّرَ النهار لِمَا فيه مصلحتهم ومنفعتهم ، حيث الحركة والنشاط والكَسْب وطلب المَعاش . ولا بُدَّ أن يَشكروا هذه النِّعمة الإلهية الجليلة .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦٣) : ((قَوله : ﴿ قُلْ أرأيْتُم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الليلَ سَرْمَدًا ﴾. السَّرْمد الدائم المستمر،مِن السَّرْد، وهو المُتَابَعَة... . بَيَّنَ لهم سُبحانَه أنه مَهَّد لهم أسباب المعيشة ليقوموا بِشُكر النِّعمة ، فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه لَيلاً دائمًا إلى يوم القيامة لَم يتمكنوا من الحركة فيه ، وطلب ما لا بُد لهم منه مِمَّا يقوم به العيش من المطاعم والمشارب والملابس، ثُمَّ امتنَّ عليهم فقال: ﴿ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يأتيكُم بِضِياءٍ ﴾ أي : هل لكم إِلَه مِن الآلهة التي تَعبدونها يَقْدِر على أن يرفع هذه الظُّلْمة الدائمة عنكم ﴿ بِضِياءٍ ﴾ ؟، أي: بِنُور تطلبون فيه المعيشة ، وتُبصِرون فيه ما تحتاجون إليه ، وتصلُح به ثماركم وتنمو عنده زرائعكم وتعيش فيه دوابكم . ﴿ أفلا تَسْمَعُون ﴾ هذا الكلام سَماع فهم وقَبول وتدبُّر وتفكر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ قُلْ أرأيْتُم إن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النهارَ سَرْمَدًا إلى يَوْمِ القِيامةِ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يأتيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أفلا تُبْصِرُون ﴾[القَصَص : ٧٢] .

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين : أخبروني إن جَعل اللَّهُ عليكم النهار دائمًا بلا انقطاع، ولا لَيْل معه إلى يوم القيامة ، مَن هو الإله الذي يَقْدِر أن يَأتيَكم بِلَيْلٍ تستريحون فيه من الحركة والتعب غَيْر اللَّه ؟ ، أفلا تُبصِرون ما أنتم عليه من الكفر والضلال فترجعون عن الشِّرك ؟ . وإذا اعترفتم بأن اللَّه وَحْدَه هو القادر على جعل الليل والنهار يتعاقبان ، فَلِمَ تَعبدون غَيْره ولا تَشكرونه ؟ .

واللَّهُ يمتنُّ عليهم بنعمة الليل كما امتنَّ عليهم بنعمة النهار ، كَي يُوحِّدوه ويَشكروه .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٩٧) : ((﴿ أفلا تُبْصِرُون ﴾ . يقول : أفلا تَرَوْنَ بأبصاركم اختلاف الليل والنهار عليكم رحمة من اللَّه لكم ، وحُجَّة منه عليكم ، فتعلموا بذلك أن العبادة لا تَصلُح إلا لِمَن أنعمَ عليكم بذلك دون غَيره، وَلِمَن له القُدرة التي خالفَ بها بين ذلك)) .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ اللَّه قالَ : ﴿ بِضِياءٍ أفلا تَسْمَعُون ﴾ ، ولَم يقل: بنهار تتحرَّكون فيه،كما قال: ﴿ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أفلا تُبْصِرُون ﴾ . وذلك لأن الضياء (ضَوء الشمس) فوائده كثيرة ومُتعدِّدة ، وليس مُجرَّد الكسب وطلب المعاش . أمَّا الظلام _ برغم فائدته _ فهو لا يصل إلى أهمية الضياء وكثرة فوائده ومنافعه . وأيضًا ، رَبَطَ اللَّهُ الضياءَ بحاسة السمع ، لأن السمع يُدْرِك ما لا يُدرِكه البصر مِن ذِكر منافعه وفوائده . في حِينَ أن اللَّه ربط الليل بحاسة البصر ، لأن البصر يُدْرِك ما لا يُدْرِكه السمع مِن ذلك .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦٣) : ((﴿ أفلا تُبْصِرُون ﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار مُتَّعظ حتى تَنْزجروا عمَّا أنتم فيه من عبادة غَير اللَّه،وإذا أقَرُّوا بأنه لا يَقْدِر على ذلك إلا اللَّه عَزَّ وجلَّ فقد لزمتهم الحُجَّة ، وبَطَل ما يتمسكون به من الشُّبَه الساقطة)) .

١٢_ الجِبَال

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وألْقَى في الأرضِ رَوَاسِيَ أن تَمِيدَ بِكُم ﴾ [النَّحْل : ١٥] .

مِن نِعَم اللَّه على الناس ، أن وَضَعَ في الأرض جبالًا ثوابت راسيات ، لئلا تَضطرب الأرضُ بأهلها ، وتتحرَّك وتَمِيل بهم . وهذه النِّعمةُ الجليلة تدلُّ على وُجود اللَّه ووَحدانيته وكمال قُدرته .

والجِبَالُ هي الرَّواسي الثابتة التي تُحافظ على توازن الأرض ، وتمنع اضطرابها وتحرُّكها ، مِمَّا يَجعل العَيْشَ عليها سَهلًا يسيرًا ، وهذا يُؤَدِّي إلى تَسهيل حياة الإنسان ، وقِيَامِ الكائنات بأدوارها ومُهماتها على أكمل وجه ، في بَيئة صالحة للحياة ، ومُناسبة للعَيش .

واللَّهُ قادرٌ على حِفظ توازن الأرض بدُون الجِبال ، فهو الغنيُّ عَن كُل شيء . لكنَّه تعالى أراد تعليم الخَلْق أنَّ الكَوْن مبنيٌّ على الأسباب والمُسبِّبات ، وأنَّ عَلَيهم أن يأخذوا بالأسباب ، وهذا لا يتنافى مع الإيمان بقُدرة الخالق تعالى . وكُل المَخلوقات ذات التأثير في الكَوْن إنَّما تأثيرها غَير مُستقل بذاته ، وغَير قائم بذاته ، لأنَّه خاضع لإرادة اللَّه ومشيئته .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٠) : ((﴿ وألْقَى في الأرضِ رَوَاسِيَ ﴾ ، جبالًا رواسي ، ﴿ أن تَمِيدَ بِكُم ﴾ كَرَاهة أن تَميل بكم وتَضطرب ، وذلك لأنَّ الأرض قَبْل أن تُخلَق فِيها الجِبال كانت كُرَةً خفيفة بسيطة الطَّبْع ، وكان مِن حَقِّها أن تتحرَّك بالاستدارة كالأفلاك ، أو أن تتحرَّك بأدنى سبب للتَّحريك، فلمَّا خُلقت الجِبال على وجهها تفاوتت جوانبها، وتوجَّهت الجِبال بثِقْلها نَحْو المركز، فصارت كالأوتاد التي تمنعها عَن الحَرَكة . وقِيل: لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الأرضَ جَعلت تَمُور ، فقالت المَلائكة : ما هي بمقر أحد على ظَهْرها ، فأصبحت وقد أُرْسِيَت بالجِبال)) .

وفي فتح الباري (٨/ ٣٨٥) : ((روى الطبري مِن حديث عليٍّ بإسناد حسن مَوقوفًا ، قال : " لمَّا خَلَقَ اللَّهُ الأرضَ قَمَصَتْ ، قال : فأرسى اللَّهُ فيها الجِبَالَ " . وهو عند أحمد والتِّرمذي مِن حديث أنس مرفوع)) .

عِندما خَلَقَ اللَّهُ الأرضَ ، نَفَرَتْ واضطربت وتحرَّكت ، فَوَضَعَ اللَّهُ فيها الجِبالَ الثوابت الراسيات ، لمنع اضطراب الأرض ، فَسَكَنَتْ وثَبَتَتْ واستقرَّت بأهلها .

وعن أنس بن مالك عن النبيِّ ﷺ قال : ((لمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الأرضَ ، جَعَلَتْ تَمِيد ، فَخَلَقَ الجِبالَ ، فألقاها عليها فاستقرَّت ، فتعجَّبت المَلائكةُ مِن خَلْق الجِبال ، فقالت : يا رَب ، هل مِن خَلْقِكَ شيء أشدُّ مِن الجِبال ؟، قال: نَعَم، الحديد . قالت : يا رَب ، هل مِن خَلْقِكَ شَيء أشدُّ مِن الحديد ؟، قال: نَعَم ، النار . قالت : يا رَب ، هل مِن خَلْقِكَ شيء أشدُّ من النار؟. قال : نَعَم، الماء. قالت: يا رَب، فهل مِن خَلْقِكَ شيء أشدُّ مِن الماء ؟ قال: نَعَم، الرِّيح. قالت: يا رَب، فهل مِن خَلْقِكَ شيء أشدُّ مِن الرِّيح؟، قال:نَعَم، ابنُ آدمَ يتصدَّق بيمينه يُخفيها مِن شِماله)) [١٣٦].

وفي تحفة الأحوذيِّ (٩/ ٢١٦ و٢١٧) : ((قَوله : (لمَّا خَلَقَ اللَّهُ الأرضَ) أي أرض الكَعْبة ودُحِيَت وبُسِطَت مِن جوانبها ، وبَقِيَت كلَوحة على وجه الماء ، (جَعَلَتْ تَمِيد) بالدال المُهمَلة ، أي : شَرَعَتْ تَمِيل وتتحرَّك وتَضطرب شديدةً ولا تستقر، حتى قالت الملائكةُ: لا يَنتفع

---

١٣٦ رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٢٤) . وحسَّنه الحافظ في الفتح (٢/ ١٤٧) .

الإنسُ بها ، (فَخَلَقَ الجِبالَ) قِيل: أوَّلها أبو قُبَيس ، (فقال : بها عليها) أي أمرَ وأشارَ بكَوْنها واستقرارها عليها ، (فاستقرَّت) أي الجبال عليها ، أو فثبتت الأرضُ في مَكَانها ، أو ما مادت ولا مالت عن حالها ومَحَلِّها . قال الطيبي : قد مَرَّ مِرَارًا أنَّ القَول يُعبَّر به عن كُل فِعل، وقَرينة اختصاصه اقتضاء المَقَام ، فالتقدير : ألقى بالجبال على الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وألْقَى في الأرضِ رَوَاسِيَ أن تَمِيدَ بِكُم ﴾ ، فالباء زائدة على المفعول . ... . وإيثار القَول على الإلقاء والإرسال لبَيَان العَظَمَة والكِبرياء ، وأنَّ مِثْل هذا الأمر العظيم يتأتَّى مِن عظيم قُدرته بمُجرَّد القَول . وقِيل : ضَمَّنَ القَوْلَ معنى الأمر ، أي: أمرَ الجبال قائلًا : ارْسِي عليها . وقِيل: أي ضَرَبَ بالجِبال على الأرض حتى استقرَّت . (هَل مِن خَلْقِك) أي : مَخلوقاتك ، (قال : نعم ، الحَدِيد) ، فإنَّه يُكسَر به الحَجَر ، ويُقْلَع به الجبال، (النار) فإنَّها تُلين الحديدَ وتُذيبه ، (قال: نَعَم ، الماء) لأنه يُطفِئ النارَ . (قال : نَعَم ، الرِّيح) مِن أجل أنها تُفرِّق الماء وتَنْشَقُّه . وقال الطيبي : فإنَّ الرِّيح تَسُوق السَّحَابَ الحاملَ للماء . (نَعَم ، ابن آدمَ تصدَّق بصَدَقَة ... إلخ) أي : التَّصَدُّق مِن بني آدم أشد مِن الرِّيح ، ومِن كُل ما ذُكِرَ ، وذلك لأنَّ فيه مُخَالَفَة النَّفْس وقَهْر الطبيعة والشَّيطان،ولا يَحصُل ذلك مِن شيء مِمَّا ذُكِرَ،أو لأنَّ صَدَقَته تُطفِئ غَضَبَ الرَّب،وغَضَبُ اللَّه تعالى لا يُقَابله شيء في الصُّعوبة والشِّدة ، وإذا فُرِضَ نُزول عذاب اللَّه بالرِّيح على أحد ، وتَصَدَّقَ في السِّر على أحد تَدفع العذابَ المَذكور، فكان أشدَّ مِن الرِّيح، قاله في اللُّمَعَات . وقال الطيبي: فإنَّ مِن جِبِلَّة ابن آدم القَبْض والبُخْل الذي هو مِن طبيعة الأرض . ومِن جِبِلَّته الاستعلاء وطَلَب انتشار الصِّيت ، وهُمَا مِن طَبيعتَي النار والريح ، فإذا راغمَ بالإعطاء جِبِلَّتَه الأرضية ، وبالإخفاء جِبِلَّتَه النارية والرِّيحية ، كان أشدَّ مِن الكُل)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الجِبَالِ أكْنَانًا ﴾ [النَّحْل : ٨١] .

بِما أنَّ الدِّيار تكون ذات حرارة عالية ، جَعَلَ اللَّهُ لهم مِن الجِبال مواضع يَسكُنون فِيها مِثل البُيُوت المَنحوتة فيها ، والكُهوف والمَغارات والحُصُون والمَعَاقِل . والأكنان جَمْع كِن ، وهو ما يَحْمي الإنسان من البرد والمطر والحَر . وقد جعلها اللَّهُ مُهَيَّأةً للناس ، يَأوون إِلَيها، ويَحتمون بِها، ويَعتزلون عَن الخَلْق فِيها، بعيدًا عن حركة الناس وضجيج القُرى والمُدُن .

وفي الحديث المُتَّفق عَلَيه [البخاري (٤/١) ومسلم (١٣٩/١)] أنَّ النبيَّ ﷺ : ((كانَ يَخلُو بغار حِرَاء ، فَيَتَحَنَّث فِيه _ وهو التَّعَبُّد _)) . وفي صحيح البخاري (٣/ ١٤١٧) عن عائشة _ رضي اللَّهُ عنها _ قالت : ((لَحِقَ رسولُ اللَّه ﷺ وأبو بَكْر بغار في جبل ثَوْر)) .

وذُكِرَت الجبال ولَم يُذكَر السَّهْل ، لأن منطقتهم جبلية ، فَذَكَرَ اللَّهُ نِعمته التي تختص بهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/ ٤٧٨):((قَوله تعالى: ﴿ وجَعَلَ لكم مِنَ الجبالِ أكنانًا ﴾ أي: ما يُكِنُّكم مِن الحَر والبَرْد ، وهي الغِيران (جَمْع غار) والأسراب . وواحد الأكنان كِن . وكُل شيء وَقَى شَيْئًا وسَتَرَه ، فهو كِن)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ ﴾ [الكَهْف : ٤٧] .

في يَوم القِيامة الرهيب، يُزيل اللَّهُ الجِبالَ مِن أماكنها ، ويُسيِّرها كما يُسيِّر السَّحَابَ ، ويَجعلها هَبَاءً مَنثورًا . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٥١) : ((قال ابن عباس : تُسيَّر الجِبال عن وجه الأرض، كما يُسيَّر السَّحَاب في الدُّنيا، ثُمَّ تُكسَر فتَكون في الأرض كما خَرَجَتْ مِنها)).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٠١) : ((﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ ﴾ ، واذكُر يَوْمَ نَقلَعها ونُسيِّرها في الجَو ، أو نَذهب بها ، فنَجعلها هَبَاءً مُنْبَثًّا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ويَسألُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا ربِّي نَسْفًا ﴾[طه : ١٠٥] .

ويسألك قَوْمُكَ يا مُحمَّد عن حَال الجِبال يَوم القِيامة، هَل تَظَلُّ على ما هِيَ عَلَيه أَم تَختفي ؟. فقُل لهم : يَقْلَعُها رَبِّي مِن أصلها ، ويُزيلها مِن أماكنها ، ويُفتِّتها كالرَّمْل ، ويُطيِّرها بالرِّياح ، ويَجعلها هَبَاءً منثورًا . وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٥٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ويَسألك يا مُحمَّد قَوْمُك عَن الجِبال ، فقُل لهم : يُذرِّيها رَبِّي تَذرِيَةً ، ويُطيِّرها بقَلْعها واسئصالها مِن أُصُولها ، ودَك بعضها على بعض ، وتَصييره إيَّاها هَبَاءً مُنْبَثًّا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ [طه : ١٠٦] .

فَيَترك اللَّهُ الجِبَالَ أرضًا مَلساء مُستوية ، لا نبات فيها ، ولا بناء ، ولا هِضَاب ، ولا تِلال . والقاعُ المُستوي مِن الأرض (الأرض المُنبسطة) .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٥٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه: فَيَدَع أماكنَها مِن الأرض إذا نَسَفَهَا نَسْفًا قَاعًا ، يعني : أرضًا مَلساء صَفْصَفًا: يعني مُستويًا ، لا نبات فيه ، ولا نَشْز (مكان مُرتفع) ، ولا ارتفاع)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لا تَرَى فِيها عِوَجًا ولا أمْتًا ﴾ [طه : ١٠٧] .

لا ترى فِيها انخفاضًا ولا ارتفاعًا . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٢٣) : ((أي : لا ترى في الأرض يَومئذ واديًا ، ولا رابية ، ولا مكانًا مُنخفِضًا ، ولا مُرتفِعًا ، كذا قال ابن عَبَّاس وعِكرمة ومُجاهد والحَسَن البصري والضَّحاك وقَتادة ، وغَير واحد مِن السَّلَف)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٢٢ و٣٢٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ ويَسألُونَكَ عَنِ الجِبَالِ ﴾ ، سبب نُزولها أنَّ رِجَالًا مِن ثَقيف أتَوْا رسولَ اللَّه ﷺ ، فقالوا : يا مُحمَّد ، كَيف تكون الجِبالُ يَوم القِيامة ؟ ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . قَوله تعالى : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا ربِّي نَسْفًا ﴾ . قال المُفسِّرون : النَّسْف التَّذرِيَة ، والمعنى يُصيِّرها رِمَالًا تَسِيل سَيْلًا ، ثُمَّ يُصيِّرها كالصُّوف المَنفوش ، تُطيِّرها الرياحُ ، فتستأصلها ، فَيَذَرُها ، أي : يَدَع أماكنها من الأرض إذا نَسَفَهَا قاعًا . قال ابن قُتَيبة : القَاع مِن الأرض المُستوي الذي يَعلُوه الماء ، والصَّفْصَف المُستوي أيضًا، يُريد أنَّه لا نَبْتَ فِيها . قَوله تعالى : ﴿ لا تَرَى فِيها عِوَجًا ولا أمْتًا ﴾ ، في ذلك ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ المُراد بالعِوَج الأودية ، وبالأمْت الرَّوابي ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وكذلك قال مُجاهد : العِوَج الانخفاض ، والأمْت الارتفاع ، وهذا مذهب الحَسَن . وقال ابنُ قُتَيبة : الأمْت النَّبْك (ما ارتفعَ مِن الأرض) . والثاني أن العِوَج المَيل ، والأمْت الأثَر ، ... ، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث أن العِوَج الصَّدْع ، والأمْت الأكَمَة (التَّل))) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

جَعَلَ اللَّهُ الجِبالَ تُسبِّح مَعَ النبيِّ داود ﷺ إذا سَبَّحَ ، وذلك لِجَمَال صَوته بقراءة كتابه الزَّبُور . وتَسخيرُ الجِبال يعني أن اللَّه جَعَلَها تُطيع النبيَّ داود ﷺ إذا أمَرَها بالتَّسبيح. وتَسبيحُ الجِبال (الجَمَاد) وهي لا تَعقِل ، يَعني أنَّها تُقَدِّس اللَّهَ وتُنَزِّهه مَعَ النبيِّ داود ﷺ عن العُيُوب والنقائص . وهذه مُعجزة إلهية باهرة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٩٨) : ((﴿ وَسَخَّرْنا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ ، التَّسبيح إمَّا حقيقة أوْ مَجَاز . وقد قال بالأوَّل جماعة ، وهو الظاهر ، وذلك أنَّ داود كان إذا سَبَّحَ سَبَّحَت الجِبَالُ معه . وقِيل : إنَّها كانت تُصلِّي معه إذا صَلَّى ، وهو معنى التَّسبيح . وقال بالمَجَاز جماعة آخَرون ، وحَمَلُوا التَّسبيحَ على تَسبيح مَن رآها تَعَجُّبًا مِن عظيم خَلْقها ، وقُدرة خالقها . وقِيل : كانت الجبال تَسِير مع داود ، فكان مَن رآها سائرةً معه سَبَّحَ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِين ﴾ [الشُّعَراء : ١٤٩] .

وتتَّخذون مِن الجِبال بُيُوتًا أشِرين بَطِرين مُتجبِّرين حاذقين بنَحْتها ، مُعْجَبِين بصَنيعكم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٥٧) : ((قَوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِين ﴾ ، قال ابن عباس وغَير واحد : يعني حَاذِقِين . وفي رواية عنه : شَرِهين أشِرين ، وهو اختيار مُجاهد وجَماعة ، ولا مُنافاة بَينهما ، فإنَّهم كانوا يتَّخذون تلك البُيوت المَنحوتة في الجِبال أشَرًا وبَطَرًا

وَعَبَثًا مِن غَير حاجة إلى سُكناها ، وكانوا حاذقين مُتقِنين لنَحْتها ونَقْشها ، كما هو المُشَاهَد مِن حالهم لِمَن رأى منازلَهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الذي أتقنَ كُلَّ شَيْءٍ إنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُون ﴾ [النَّمْل : ٨٨] .

وتَرى الجِبَالَ وَقْتَ النَّفْخَة الأُولَى تَظنُّها ساكنةً ثابتةً في مَكَانها لِعِظَمِها ، وهي تَسِير سَيْرًا سريعًا كالسَّحَاب ، وهذه السُّرعة تَعجَز عَيْنُ الناظر عَن مُلاحظتها . وفي هذا إشارةٌ إلى حَرَكة الأرض ، فهذا الجُرْم العظيم الهائل يَدُور حَول نَفْسِه ، ويَدُور حَول الشَّمس . والأجرامُ الكبيرة إذا تحرَّكت حَرَكَةً سريعةً وَفْقَ نَسَق واحد ، لا يُمكن مُلاحظة حركتها ، وظنَّ الناظرُ أنها واقفة ، معَ أنَّها تتحرَّك بسُرعة .

إنَّ اللَّه يَفعل ذلك بقُدرته العظيمة وحِكمته البالغة ، وهو سُبحانَه أتقنَ كُلَّ ما خَلَقَ ، وأحكمه ، ووَضَعَ فيه الحِكَمَ والأسرارَ والعجائبَ . إنَّه مُطَّلِعٌ على الظواهر والضَّمائر ، وعليمٌ بما يَفعل عِبَادُه مِن خَير وشَر ، وسيُجازيهم عَلَيه أتمَّ الجَزَاء .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٨٣): ((قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ قائمة واقفة ، ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ ، أي : تَسِير سَيْرَ السَّحَاب حتى تقع على الأرض فتستوي بها ، وذلك أنَّ كُل شيء عظيم ، وكُل جَمْع كثير يَقصُر عنه البَصَر لكَثرته ، وبُعد ما بَين أطرافه ، فهو في حُسبان الناظر واقف ، وهو سائر ، كذلك سَيْر الجِبال ، لا يُرى يوم القِيامة لِعَظَمتها ، كما أنَّ سَيْر السَّحَاب لا يُرى لِعِظَمه وهو سائر ، ﴿ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ نصب على المَصْدَر ، ﴿ الذي أتقنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، أي: أحكمَ ﴿ إنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُون ﴾)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٩٥و١٩٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الجِبَالَ ﴾ . قال ابن قُتَيبة : هذا يكون إذا نُفخ في الصُّور ، تُجمَع الجِبال وتسير ، فهي لكَثرتها ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ ، أي : واقفة ، ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ ، أي : تَسِير سَيْرَ السَّحَاب ، وكذلك كُل جَيش عظيم يَحسَبه الناظرُ مِن بعيد واقفًا وهو يَسير لكَثرته ، قال الجَعْدي يَصِف جَيْشًا :

بأرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أنَّهُم وُقُوفٌ لِحَاجٍ والرِّكابُ تُهَمْلِجُ

قَوله تعالى : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ ، قال الزَّجاج: هو مَنصوب على المَصْدَر، لأنَّ قَوْلَه : ﴿ وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ دليل على الصَّنْعَة ، فكأنَّه قال : صَنَعَ اللَّهُ ذلك صُنْعًا . ... . فأمَّا الإتقان فهو في اللغة : إحكام الشَّيء)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطُّور : ١٠] .

تُنسَف الجِبَالُ نَسْفًا عن وجه الأرض ، وتَزول عن أماكنها ، فتَصير هَبَاءً مَنثورًا .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٨٥) : ((يَقول : وتَسِير الجِبال عَن أماكنها مِن الأرض سَيْرًا ، فَتَصِير هَبَاءً مُنْبَثًّا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا ﴾ [الواقعة : ٥] .

وفُتِّتَت الجِبالُ تَفتيتًا ، فصارت كالدَّقيق المَبسوس (المَبلول) بعدما كانت عاليةً وشامخةً .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٧): ((﴿ وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا ﴾ . قال عطاء ومُقاتل ومُجاهد: فُتَّتْ فَتًّا، فصارت كالدَّقيق المَبسوس ، وهو المَبلول . قال سعيد بن المُسيِّب والسُّدي : كُسِرَتْ كَسْرًا . وقال الكلبي : سُيِّرَتْ على وجه الأرض تَسييرًا. قال الحسن: قُلِعَتْ مِن أصلها فَذَهَبَت ، نَظيرها : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾[طه : ١٠٥] . قال ابن كَيسان : جُعِلَتْ كَثِيبًا مَهِيلًا بَعْد أن كانت شامخةً طويلةً)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٨/ ١٣١ و١٣٢): ((قَوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما فُتِّتَتْ فَتًّا ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مُجاهد . قال ابن قُتَيبة : فُتِّتَتْ حَتَّى صارت كالدَّقيق والسَّويق المَبسوس. والثاني لُتَّتْ ، قاله قَتادة . وقال الزَّجاج : خُلِطَتْ ولُتَّتْ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فكانتْ هَبَاءً مُنبَثًّا ﴾ [الواقعة : ٦] .

فكانت الجِبالُ غُبارًا مُتَفَرِّقًا مُنتشرًا في الهواء ، كالذي يُرى في شُعاع الشمس إذا دَخَلَ النافذةَ ، وهو الهَبَاء . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٦١) : ((قَوله تعالى: ﴿ فكانتْ هَبَاءً مُنبَثًّا ﴾ . قال أبو إسحاق عن الحارث عن عليٍّ رضي اللَّهُ عنه: ﴿ هَبَاءً مُنبَثًّا ﴾ كَرَهَج الغُبار يَسطَع، ثُمَّ يَذهَب ، فلا يَبْقَى مِنه شيء . وقال العَوفي عن ابن عباس في قَوله : ﴿ فكانتْ هَبَاءً مُنبَثًّا ﴾ ، الهَبَاء الذي يَطِير مِن النار إذا اضطرمت، يَطير مِنه الشَّرَر ، فإذا وَقَعَ لم يكن شيئًا . وقال عِكرمة : المُنْبَثُّ الذي قد ذَرَّتْهُ الرِّيح وبَثَّتْهُ. وقال قَتادة: ﴿ هَبَاءً مُنبَثًّا ﴾ كَيَبِيس الشَّجَر الذي تَذروه الرِّياح ، وهذه الآية كأخواتها الدَّالَّة على زَوال الجِبال عَن أماكنها يَوم القِيامة ، وذَهَابها ، وتَسْييرها ، ونَسْفها ، وصَيرورتها كالعِهْن المَنفوش (الصُّوف المَصبوغ المُتفرِّق))) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرضُ والجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحَاقَّة : ١٤] .

ورُفِعَت الأرضُ والجِبالُ مِن أماكنها بالقُدرة الإلهية ، وكُسِرَتَا كَسْرَةً وَاحدةً ، أوْ ضُرِبَتَا ضَرْبَةً واحدةً بعضهما ببعض ، فصارتا كَثِيبًا مَهِيلًا ، وهَبَاءً مَنثورًا .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨٠) : ((﴿ وَحُمِلَتِ الأرضُ والجِبَالُ ﴾ ، رُفِعَتْ مِن أماكنها بمُجرَّد القُدرة الكاملة ، أوْ بتوسُّط زَلزلة ، أو رِيح عاصفة ، ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ ، فضُرِبَت الجُملتان بعضُها ببعض ضَرْبَةً واحدةً ، فيَصِير الكُل هَبَاءً ، أوْ فَبُسِطَتَا بَسْطَةً واحدةً ، فصارتا أرضًا لا عِوَج فيها ولا أمْتًا،لأنَّ الدَّك سبب التَّسوية،ولذلك قِيل:ناقة دَكَّاء للتي لا سَنَام لها، وأرض دَكَّاء للمُتَّسِعَة المُستوية)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٤٩):((أي: حُمِلَت الأرضُ والجِبالُ وما فيها فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدةً،أي:كُسِرَتا ودُقَّتَا دَقَّةً واحدةً،لا يُثَنَّى عليها،حتى تَستويَ بما عليها من شيء فتصير كالأديم المَمدود ... قال الفَرَّاء : وإنَّما قال : ﴿ فَدُكَّتَا ﴾ ، ولَم يَقُل: فَدُكِكْنَ، لأنه جَعَلَ الجِبَالَ كالشَّيء الواحد)) .

وعن أُبَيِّ بن كَعْب رضي اللَّهُ عنه : في قَوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَحُمِلَتِ الأرضُ والجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ . قال : يَصِيران غَبَرَةً على وُجوه الكُفَّار لا على وُجوه المؤمنين . وذلك قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيها غَبَرَةٌ(٤٠)تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ(٤١)﴾ [١٣٧].

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ ﴾ [المَعَارِج : ٩] .

وتَكُون الجِبالُ في يَوم القِيامة مُتناثرةً مُتطايرةً ، كالصُّوفِ المَصبوغ المَنفُوش ، إذا طيَّرته الريحُ. والعِهْنُ هو الصُّوف المَصبوغ ألوانًا ، والجِبال مُختلفة الألوان ، فإذا فُتِّتَتْ ونُثِرَتْ وطُيِّرَتْ في الهواء ، صارت شبيهةً بالصُّوف المُلوَّن (العِهْن المَنفُوش) إذا طيَّرته الريح .

والآيتان : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كالمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ (٩) ﴾ ، تُوضِّحان حَالَ السَّماء والأرض في يَوم القِيامة المُخِيف .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٤٧) : ((﴿ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ ﴾ ، أي : كالصُّوف المَصْبُوغ، ولا يُقَال للصُّوف عِهْن إلا أن يَكُون مَصبوغًا. وقال الحَسَن: ﴿ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ ﴾ وهو الصُّوف الأحمر ، وهو أضَعف الصُّوف ... . والعِهْن الصُّوف الأحمر ، واحده عِهْنَة . وقِيل : العِهْن الصُّوف ذُو الألوان، فشَبَّهَ الجِبالَ به في تَلَوُّنها ألوانًا.والمعنى: أنها تَلِين بعد الشِّدة، وتتفرَّق بعد الاجتماع . وقِيل : أوَّل ما تتغيَّر الجِبال تَصِير رَمْلًا مَهِيلًا، ثُمَّ عِهْنًا مَنفوشًا، ثُمَّ هَبَاءً مُنْبَثًّا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٦٠) : ((﴿ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ ﴾ ، أي : كالصُّوف ، فَشَبَّهَهَا في ضَعْفها ولِينها بالصُّوف ، وقِيل : شَبَّهَهَا به في خِفَّتها وسَيْرها، لأنَّه قَد نُقِلَ

---

١٣٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٣) برقم (٣٨٤٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

أنها تَسِير على صُوَرها ، وهي كالهَبَاء . قال الزَّجاج : العِهْن الصُّوف ، واحدته عِهْنَة ، ويُقال : عِهْنَة وعِهْن ، مِثل : صُوفة وصُوف . وقال ابن قُتَيبة : العِهْن الصُّوف المَصْبُوغ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرضُ والجِبَالُ وكانتِ الجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾[المُزَّمل: ١٤] .

في يَوم القِيامة الرَّهيب، تَهْتَزُّ الأرضُ والجِبالُ اهتزازًا شديدًا،وتَصِير الجِبالُ رَمْلًا سَائلًا مُتناثرًا.

قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٩٣) : ((﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرضُ ﴾ ، أي : تَزَلْزَل وتَحَرَّك أغلظَ حركة . قَوله تعالى : ﴿ وكانتِ الجِبَالُ ﴾ ، قال مُقاتل : المعنى: وصارت بعد الشِّدة والقُوَّة ﴿ كَثِيبًا ﴾ . قال الفَرَّاء : الكَثِيب الرَّمْل ، والمَهِيل الذي تحرَّك أسفله ، فينهال عليكم مِن أعلاه ... وقال الزَّجاج: الكَثِيب جَمْعه كُثبان ، وهي القِطَع العِظَام مِن الرَّمْل ، والمَهِيل السَّائل)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٦٢) : ((﴿ وكانتِ الجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ ، أي : تَصِير ككُثبان الرَّمْل بعدما كانت حِجَارَةً صَمَّاء ، ثُمَّ إنَّها تُنسَف نَسْفًا، فلا يَبقَى مِنها شيء إلا ذَهَب ، حتى تَصِير الأرضُ قَاعًا صَفْصَفًا ، لا ترى فِيهَا عِوَجًا ، أي : وَادِيًا ، ولا أمتًا ، أي: رابية . ومعناه : لا شيء ينخفض ، ولا شيء يرتفع)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ في قَوله تعالى : ﴿ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ ، قال : ((المَهِيل : الذي إذا أخذتَ مِنه شيئًا تَبِعَكَ آخِرُه ، والكَثِيب : مِنَ الرَّمْل)) [١٣٨].

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذا الجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ [المُرْسَلات : ١٠] .

وإذا الجِبالُ قُلِعَتْ مِن أماكنها ، وتطايرت ، وتناثرت ، فكانت هَبَاءً مُنْبَثًّا .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٣٨) : ((أي : ذُهِبَ بها كُلِّها بسُرعة . يُقال : نَسَفْتُ الشيءَ ، وأنسفته : إذا أخذته كُلَّه بسُرعة. وكان ابن عباس والكَلبي يقول : سُوِّيَت بالأرض)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَجَعَلْنا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ [المُرسَلات : ٢٧] .

وجَعَلَ اللَّهُ في الأرض جِبَالًا ثابتات عاليات ، لحفظِ توازن الأرض ، ومَنْعِها مِن الاضطراب . وكُلُّ عالٍ شامخٌ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٥) : ((﴿ وَجَعَلْنا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ ، جِبَالًا ثوابت طِوَالًا . والتَّنكير للتَّفخيم ، أو الإشعار بأنَّ فيها ما لَم يُعرَف ، ولَم يُرَ)) .

---

١٣٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٩) برقم (٣٨٦٧) وصحَّحه ، وقال الذهبي عن أحد الرُّواة : ((شَبيب بن شَيبة ضَعَّفوه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والجِبَالَ أوْتَادًا ﴾ [النَّبَأ : ٧] .

جَعَلَ اللَّهُ الجِبالَ للأرض أوتادًا، لِتَثْبُتَ وتَسكُن ، ولا تتحرَّك ، ولا تَضطرب ، ولا تَمِيل بأهلها. وهذا يدلُّ على وَحدانية اللَّه ، وبديع صُنعه ، وكمال قُدرته .

وتشبيه الجِبال بالأوتاد لأنها تُثبِّت الأرضَ، وتَمنعها مِن الاضطراب، كما تُثبِّت الأوتادُ الخَيْمَةَ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٤) : ((﴿ والجِبَالَ أوْتَادًا ﴾ ، أي : جَعَلَهَا لها أوتادًا ، أرساها بها ، وثبَّتها ، وقرَّرها ، حَتَّى سَكَنَتْ ، ولم تَضطرب بمَن عَلَيها)) .

وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ٧٨٧) : ((﴿ والجِبَالَ أوْتَادًا ﴾ ، تُثبَّت بها الأرض ، كما تُثبَّت الخِيَام بالأوتاد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فكانتْ سَرَابًا ﴾ [النَّبَأ : ٢٠] .

ونُسِفَت الجِبالُ مِن أُصولها، وقُلِعَت مِن أماكنها ، فكانت لا شَيء ، مِثل السَّراب ، يظنُّه الناظرُ ماءً، وليس بماء . أي إنَّها تَصِير هَبَاءً مُنْبَثًّا، فيَراها الناظرُ كالسَّراب ، بعدما كانت مُتماسكةً وشامخةً ، تمتاز بالشِّدة والصَّلابة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٤) : ((أي : يُخيَّل إلى الناظر أنها شَيء ، ولَيست بشَيء ، وبَعْد هذا تَذهب بالكُلِّية ، فلا عَيْن ، ولا أثر)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٠٢) : ((وقَوله : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فكانتْ سَرَابًا ﴾ . يقول : ونُسِفَت الجِبالُ ، فَاجْتُثَّتْ مِن أُصولها ، فَصُيِّرَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا لعَين النَّاظر ، كالسَّراب الذي يظنُّ مَن يَراه مِن بُعْد مَاءً ، وهو في الحقيقة هَبَاء)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤١): ((﴿ وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ ﴾ ، أي : في الهَوَاء كالهَبَاء، ﴿ فكانتْ سَرَابًا ﴾ مِثْل سَرَاب ، إذْ تُرى على صُورة الجِبال ، ولَم تَبْقَ على حقيقتها لِتَفَتُّت أجزائها وانبثاثها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والجِبَالَ أرْسَاها ﴾ [النَّازِعَات : ٣٢] .

أثبتَ اللَّهُ الجِبالَ في الأرض ، وجَعَلَ الجِبالَ كالأوتاد ، كَي تَسكُن الأرضُ ، ولا تَمِيل بأهلها .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٠٢) : ((وقَوله تعالى : ﴿ والجِبَالَ أرْسَاها ﴾ ، أي : قرَّرها ، وأثبتها ، وأكَّدها في أماكنها ، وهو الحكيم العليم ، الرؤوف بخَلْقه ، الرحيم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإلى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ [الغَاشِيَة : ١٩] .

جَعَلَ اللَّهُ في الأرض الجِبالَ قائمةً ثابتة ، لا تَضطرب معَ طُولها ، لِكَيلا تَمِيل الأرضُ بأهلها .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٤٩) : ((﴿ وإلى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ ، أي : جُعِلَتْ مَنصوبةً ، فإنَّها ثابتة رَاسِيَة، لئلا تَميد الأرضُ بأهلها، وجَعَلَ فيها ما جَعَلَ مِن المنافع والمعادن)) .

وقال القرطبي في تفسيره(٢٠/ ٣٤): ((قَوله تعالى : ﴿ وإلى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي : كَيف نُصِبَتْ على الأرض بحَيث لا تَزُول ، وذلك أنَّ الأرض لمَّا دُحِيَتْ مَادَتْ فأرساها بالجِبال)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ المَنفُوشِ ﴾ [القارعة : ٥] .

هذا هو الوَصْف الثاني مِن صِفات يَوم القِيامة الرَّهيب . وتَصِيرُ الجِبَالُ كالصُّوف المُلوَّن المَنثور المُتطاير في الجَو ، وهذا يدلُّ على تمزُّق الجبال ، وتفرُّق أجزائها ، وخِفَّة سَيرها .

وقد شَبَّهَ اللَّهُ الجِبَالَ بالعِهْن ، وهو الصُّوف المَصبوغ ألوانًا ، لأنَّ الجِبال ألوان مُختلفة ، وبالمَنفوش مِنه لتفرُّق أجزاء الجِبال .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٠٢) : ((يعني : قَد صَارت كأنَّها الصُّوف المَنفُوش الذي قَد شَرَعَ في الذهاب والتَّمَزُّق . قال مُجاهد وعِكرمة وسعيد بن جُبَير والحَسَن وقَتادة وعَطاء الخُرَاساني والضَّحاك والسُّدي : " العِهْن " الصُّوف)) .

وقال الصاوي في حاشيته (٤/ ٣٤٧) : ((وإنَّما جَمَعَ بَين حال الناس وحال الجِبال ، تنبيهًا على أنَّ تِلك القارعة (القِيامة) أثَّرت في الجِبال العظيمة الصُّلْبَة، حتى تَصِير كالصُّوف المَندُوف ، مَعَ كَوْنها غَير مُكلَّفة ، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتَّكليف والحساب ؟!)) .

١٣_ البَحْر

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والفُلْكِ التي تَجْري في البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

سخَّر اللَّهُ السُّفُنَ تَجْري على سطح الماء ، ولا تَغرَق ، ولا تَرسُب ، لتحقيق مصالح الناس ومنافعهم ، حيث إنَّهم يَركبونها ، وينتقلون بها ، ويَحْمِلُون عليها البضائعَ ، ويَنتفعون بالتِّجارات ، ويَستفيدون مِن الأرباح .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٨٨): ((قَوله تعالى : ﴿ والفُلْكِ التي تَجْري في البَحْرِ ﴾ ، الفُلْك : السُّفُن ، وإفراده وجَمْعه بلفظ واحد ، ويُذكَّر ويُؤَنَّث . ... . ووَجْه الآية في الفُلْك : تَسخير اللَّه إيَّاها حتى تجري على وجه الماء ، ووُقوفها فَوقه مَعَ ثِقْلها ، وأوَّل مَن عَمِلَها نُوح عليه السلام ، كما أخبرَ تعالى . وقال له جِبريل : اصنعها على جُؤجُؤ الطائر_ يعني صَدره_ فَعَمِلَها نُوح عليه السلام وِراثةً في العَالَمِين بما أراه جِبريل.فالسَّفينة طائر مَقلوب،والماء في أسفلها نظير الهواء

في أعلاها،قاله ابن العربي.هذه الآية وما كان مِثلها دليل على جَواز رُكُوب البَحْر مُطْلَقًا لتِجارة كان أو عبادة كالحَج والجهاد . ومِن السُّنَّة حديث أبي هريرة قال : [جاء رَجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه ، إنَّا نَركَب البَحْر ، ونَحمِل مَعَنَا القليلَ مِن الماء] الحديث. ... . قَوله تعالى : ﴿ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ ، أي: بالذي يَنفعهم مِن التِّجارات وسائر المَآرب التي تَصلُح بها أحوالهم، وبركوب البحر تُكتسَب الأرباح ، ويَنتفع مَن يُحمَل إلَيه المَتَاع أيضًا. وقد قال بعضُ مَن طَعَنَ في الدِّين : إن اللَّه تعالى يقول في كتابكم : ﴿ ما فَرَّطْنا في الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، فأينَ ذِكْر التَّوابل المُصلِحة للطعام مِن المِلْح والفُلْفُل وغَير ذلك؟، فقِيل له: في قَوله : ﴿ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُم صَيْدُ البَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُم وللسَّيَّارَةِ ﴾ [المائدة : ٩٦] .

هذا حُكْمٌ إلهيٌّ بتحليل صَيد البَحر على الإطلاق ، وفي كُل الحالات (سواءٌ في الإحرام أو غَيره). وأيضًا تحليل طعامه ، وهو كُل ما قَذفه البحر ، منفعةً للمُقيم والمسافر ، يأكلون منه أو يُتاجرون به . وصَيدُ البَحر ما اصْطِيد ، وطعامُه ما قَذَفَ به . وبعِبارة أُخرى ، إنَّ صَيد البحر هو ما لا يعيش إلا في الماء كالسَّمك ، والمُراد ما أُخِذ مِنه طَرِيًّا . وطعامُه ما يَقذفه مَيْتًا أو ما يُتَزَوَّد منه يابسًا . لقد أَحَلَّ اللَّهُ لكم أيها الناس صَيْدَ البحر ، سواءٌ كُنتم مُحْرِمين أَم غَير مُحْرِمين ، وما يُطعَم مِن صَيد البحر كالسَّمك وغَيره، مَنفعةً وقُوتًا لكم، وزادًا للمُسافرين (السَّيَّارة) والبعيدين عن البحر، يتزوَّدونه في أسفارهم ورحلاتهم .

وقد استدل جُمهور العلماء على حِل مَيْتة البحر وجَواز أكلها بهذه الآية الكريمة . ومِن الأحاديث في هذا السِّياق حديث جابر في الحُوت الذي يُقال له العنبر ، وقَذفه البحر ، فأكلوا مِنه بعد بحث قضية جواز أكله أو عدمه . ففي صحيح مسلم (٣/ ١٥٣٥)أن النبيَّ ﷺ قال عنه: ((هُوَ رِزقٌ أخرجه اللَّهُ لكم ، فهل معكم مِن لحمه شيء فَتُطْعِمُونا ؟)) . قال جابر : فَأَرْسَلْنا إلى رسول اللَّه ﷺ مِنه ، فأكله .

هذا دليلٌ على إباحة طعام البحر ، أي ما رَمى به . فالنبيُّ ﷺ اعتبره رزقًا أخرجه اللَّهُ تعالى من البحر كي يأكل الناس، وأيضًا فقد أرادَ النبيُّ ﷺ تناولَ هذا الطعام (لَحْم الحُوت) ، ومعرفةَ مَذاقه وطَعْمه ، لأنه غير مَعهود في البيئة العربية الصحراوية ، ويُعتبَر غريبًا عن الناس .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٨٦) : ((وأمَّا طلب النبيِّ ﷺ مِن لَحْمه وأكله ذلك ، فإنما أراد به المُبالغة فى تطييب نفوسهم في حِلِّه ، وأن لا شك في إباحته ، وأنه

يَرتضيه لنَفْسه ، أو أنه قصد التبرُّك به لكونه طُعْمة مِن اللَّه تعالى خارقة للعادة ، أكرمهم اللَّهُ بِها . وفي هذا دليل على أنه لا بأس بسؤال الإنسان من مال صاحبه ومتاعه إدلالًا عَلَيه ، وليس هو مِن السؤال المَنهيِّ عنه،إنَّما ذلك في حق الأجانب للتَّمَوُّل ونَحْو ذلك.وأمَّا هذه فللمُؤانَسَة والمُلاطَفة والإدلال. وفيه جواز الاجتهاد في الأحكام في زمن النبيِّ ﷺ ، كما يجوز بعده . وفيه أنه يُستحَب للمُفتي أن يتعاطى بعض المباحات التي يَشُك فيها المُستفتي ، إذا لَم يكن فيه مشقة على المُفتي، وكان فيه طُمأنينة للمُستفتي . وفيه إباحة مَيْتَات البحر كُلِّها ، سواءٌ في ذلك ما مات بنَفْسه ، أو باصطياد . وقد أجمعَ المسلمون على إباحة السَّمَك)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٢٧و٤٢٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُم صَيْدُ البَحْرِ ﴾ . قال أحمد : يُؤكَل كل ما في البحر إلا الضِّفدع والتمساح ، لأن التمساح يأكل الناس، يعني أنه يفرس . وقال أبو حنيفة والثَّوري : لا يُباح منه إلا السَّمك . وقال ابن أبي ليلى ومالك: يُباح كل ما فيه مِن ضفدع وغَيره . فأمَّا طعامه ففيه ثلاثة أقوال : أحدها ما نبذه البحر مَيْتًا ، قاله أبو بكر وعمر وابن عمر وأبو أيوب وقَتادة . والثاني أنه مليحه ، قاله سعيد بن المُسيِّب وسعيد ابن جُبَير والسُّدي . وعن ابن عباس ومجاهد وعِكرمة كالقَولين ، واختلفت الرواية عن النَّخعي، فَرُوِيَ عنه كالقَولين ، ورُوِيَ عنه أنه جمع بينهما ، فقال: طعامه المليح وما لَفَظَه . والثالث أنه ما نَبَتَ بمائه مِن زروع البَر، وإنما قِيل لهذا : طعام البحر ، لأنه يَنْبُت بمائه . حكاه الزَّجاج. وفي المَتَاع قَولان : أحدهما أنَّه المَنفعة ، قاله ابن عباس والحسن وقَتادة . والثاني أنَّه الحِل ، قاله النَّخَعي. قال مُقاتل : ﴿ مَتَاعًا لَكُم ﴾ ، يعني : المُقيمين ، ﴿ وللسَّيَّارةِ ﴾ يعني : المُسافرين)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ ما في البَرِّ والبَحْرِ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

أحاطَ عِلْمُ اللَّه بجميع الكائنات والمَوجودات في البَر والبحر . يَعلَم ما في البَر مِن النَّبات والشَّجَر والحَيَوَانات والجَمَادات ، ويَعلَم ما في البَحْر مِن الأسماك والدَّواب ، ورِزق ما فيها ، وعِلْمُ اللَّهِ شاملٌ لكل شَيء إجمالًا وتفصيلًا ، واللَّهُ سُبحانَه يَعلم الكُلِّيات والجُزئيات ، ولا يَخفى عليه شَيء في البَر ولا في البَحر ولا في السَّماء ، كائنًا مَا كان . وتَمَّ تخصيص البَر والبحر ، لأنهما أعظم مخلوقات اللَّه القريبة مِن حياة الإنسان ، وفيهما تتجلى آثار قُدرة اللَّه المُطْلَقَة ، والناسُ يُشاهدون ــ بأعينهم ــ البَرَّ والبَحْرَ ، وما فيهما مِن عجائب صُنع اللَّه تعالى .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٥٠) : ((قال مُجاهد : البَر : المَفاوز والقِفار . والبَحْر : القُرى والأمصار ، لا يَحدُث فيهما شيء إلا يَعْلَمه . وقيل : هو البَر والبحر المعروف)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا في ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ ﴾ [الأنعام : ٩٧] .

يُبيِّن اللَّهُ قُدرته المُطْلَقَة ، وسُلطانَه العظيم ، ومُلكه الواسع ، ويمتنُّ عليهم ، ويُذكِّرهم بِنِعمته الجليلة ، حيث خَلَقَ لهم النُّجومَ للاهتداء بها في الليل خلال أسفارهم ورحلاتهم، فالمسافرون في الصحاري وراكبو البِحَار ، كُلهم يَهتدون بالنُّجوم في الليل للوُصول إلى مقاصدهم وبُغيتهم المَنشودة. وبذلك، يَنجون مِن الهلاك والمَوت ، وينالون السلامة والأمن والأمان . لذلك امتنَّ اللَّهُ عليهم بخَلْق النُّجوم . وخَلْقُ النُّجوم لهِداية الناس في البَر والبحر لَيْلًا ، آيةٌ إلهيةٌ باهرة ، وعلامةٌ واضحة على وُجود اللَّه ووَحدانيته وقُدرته وحِكمته . وهذه فائدة واحدة مِن خَلْق النُّجوم ، وليس كُل الفوائد . وهذه الآيةُ الإلهيةُ العظيمة حُجَّة على الكافرين ، وعِبرة للمُؤمنين .

والاهتداءُ في الآية هو معرفة الطريق والمَقصِد ، وليس مَعرفة الغَيب والمُستقبل ، كما يَزعم المُنجِّمون الذين يَبنون أكاذيبهم على النُّجوم والأبراج والأفلاك . وكَذَبَ المُنجِّمون وَلَوْ صَدَقُوا.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٣٣) : ((﴿وَهُوَ الذي جَعَلَ لكمُ النجومَ ﴾ خَلَقَها لكم ، ﴿ لِتَهتدوا بِها في ظُلماتِ البَرِّ والبَحْرِ ﴾ في ظُلمات الليل في البَر والبحر،وإضافتها إليهما للمُلابَسة أو في مُشْتَبِهَات الطُّرُق . وسَمَّاها ظُلمات على الاستعارة ، وهو إفراد لبعض منافعها بالذِّكر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ في البَحْرِ بأمْرِهِ ﴾ [إبراهيم : ٣٢] .

ذَلَّلَ اللَّهُ لَكُمُ السُّفُنَ لتجريَ على سطح الماء بإذن اللَّه ومشيئته ، كما تُريدون ، وَوَفْق ما تَطلُبون ، فصارت السُّفُنُ خاضعةً لإرادتكم ومصالحكم ومنافعكم .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٤٥٧) : ((﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ ﴾ وهي السُّفُن ﴿ لِتَجْرِيَ في البَحْرِ بأمْرِهِ ﴾ لكم ، تَركبونها ، وتَحمِلون فِيها أمتعتكم مِن بَلَد إلى بَلَد)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الذي يُزْجِي لَكُمُ الفُلْكَ في البَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إنَّهُ كانَ بِكُم رَحِيمًا ﴾ [الإسراء : ٦٦] . رَبُّكُم أيُّها الناس هو الذي بقُدرته يُسيِّر لَكُمُ السُّفُنَ في البَحْر بالرِّيح بِرِفْق وسُهولة ، لتُحصِّلوا مَعَايشكم ، وتَطلُبوا مِن رِزقه في تِجاراتكم ، وتُحقِّقوا مصالحكم ، فضلًا مِنه ، وتكرُّمًا عَلَيكم ، إنَّ اللَّه رحيمٌ بِعباده ، حيث هيَّأ لهم المنافعَ الدُّنيوية وما يحتاجون إلَيه ، وسهَّل عَلَيهم أسبابَ الوُصول إلَيها . واللَّهُ يُذكِّرهم بنِعمه عَلَيهم ، وإحسانه إلَيهم ، ورحمته بهم ، كما يُذكِّرهم بآثار وَحدانيته وقُدرته ، كَي يَعبدوه وَحْدَه ، لا شريك له .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٦٦) : ((رَبُّكُم أيُّها القَوم هو الذي يُسيِّر لكم السُّفُنَ في البَحْر فيَحمِلكم فيها ، ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ لتُوصلوا بالرُّكُوب فيها إلى أماكن تِجاراتكم ومَطَالبكم ومَعَايشكم ، وتلتمسون مِن رِزقه ، ﴿ إنَّهُ كانَ بِكُم رَحِيمًا ﴾ . يقول : إنَّ اللَّه كان بكم رحيمًا حِين أجرى لكم الفُلْكَ في البَحْر ، تسهيلًا مِنه بذلك عَلَيكم التَّصَرُّف في طَلَب فَضْله في البلاد النائية ، التي لَولا تَسهيله ذلك لكم ، لَصَعُبَ عَلَيكم الوُصول إليها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في البَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إلا إيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُم إلى البَرِّ أعْرَضْتُم وكانَ الإنسانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] .

إذا مَسَّ المُشركين الضُّرُّ في البحر، مِثل : الخَوف مِن الغَرَق ، أو العواصف ، أو تلاطُم الأمواج ، زَالتْ مِن قُلوبهم آلهتهم التي كانوا يَعبدونها مِن دُون اللَّه تعالى ، واختفتْ مِن أذهانهم الشِّركيات ، ولَم يَجِدُوا غَيْرَ اللَّه مُغيثًا يُغيثهم ويُنقِذهم . وفي هذه الحالة ، يَعود الإنسانُ إلى فِطرة التَّوحيد ، ولا يَستغيث إلا باللَّه وَحْدَه ، بلا شريك ولا نِد . ولا فائدة من عبادة الأصنام والأوثان التي لا تَقْدِر على جلب النَّفْع أو دَفْعِ الضَّرر . لقد نَسِيَ المُشركون شِركهم ، وراحوا يتوجَّهون إلى اللَّه وَحْدَه بقُلوب مُخلِصة ، كَي يُخرِجهم مِن هذا المأزق الوجودي الحَرِج . فلمَّا أنقذهم اللَّهُ مِن الغَرَق ، ونَجَّاهم إلى اليابسة ، أعرَضوا عن الإيمان والإخلاص ، وأهْمَلُوا هذا المَوقفَ تمامًا ، وعادوا إلى شِركهم . وهذا يدل على أن الإنسانَ بطبيعته جاحدٌ للنِّعَم الإلهية ، ومُنكِر لها .

والمعنى العام : إنَّ المُشركين في الشَّدائد والمصائب يتوجَّهون إلى اللَّه وَحْدَه ، ويَدعُونه بإخلاص ، ويَنْسَوْنَ أصنامَهم وأوثانَهم . وفي الرَّخاء يُعرِضون عن الإيمان باللَّه ، ويُشرِكون به .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧١) : ((يُخبِر تباركَ وتعالى أنَّ الناس إذا مَسَّهم ضُر دَعَوْهُ مُنيبين إليه ، مُخلِصين له الدِّينَ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في البَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إلا إيَّاهُ ﴾ ، أي : ذَهَبَ عَن قُلوبكم كُل ما تَعبدون غَيْر اللَّه تعالى . كما اتَّفَقَ لِعِكْرِمة ابن أبي جَهْل ، لَمَّا ذَهَبَ فَارًّا مِن رسول اللَّه ﷺ حِين فَتَحَ مَكَّة ، فذهب هاربًا ، فَرَكِبَ في البَحْر يَدخُل الحَبَشَة ، فجاءتهم رِيح عاصف ، فقال القَوم بعضُهم لبعض : إنَّه لا يُغني عَنكُم إلا أن تَدْعُوا اللَّهَ وَحْدَه ، فقال عِكرمة في نَفْسه : واللَّهِ إن كان لا يَنفَع في البَحْر غَيْرُه ، فإنَّه لا يَنفَع في البَر غَيْرُه ، اللهُمَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْد لإن أخرجتني مِنه ، لأذهبنَّ فلأضعنَّ يَدي في يَدِ مُحمَّد ، فلأجِدَنَّه رؤوفًا رحيمًا ، فَخَرَجُوا مِن البَحْر ، فرجع إلى رسول اللَّه ﷺ ، أسْلَمَ ، وحَسُنَ إسلامُه ، رضي اللَّهُ عنه وأرضاه. وقَوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُم إلى البَرِّ أعْرَضْتُم ﴾ ، أي : نَسِيتُم ما عَرفتم مِن تَوحيده،

وأعرضتم عَن دُعائه وَحْدَه لا شريك له ﴿ وكانَ الإنسانُ كَفُورًا ﴾ ، أي : سَجِيَّته هذا ، يَنسَى النِّعَمَ ويَجحَدها إلا مَن عَصَمَ اللَّهُ)) .

وقِصَّة عِكرمة بن أبي جَهْل تدلُّ على أنَّ الفِطرة الإنسانية مُتوجِّهة إلى توحيد اللَّه تعالى . لكن المُشكلة كامنة في الأهواء الذاتية ، وحُظُوظِ النَّفْس ، والمَصالحِ الشخصية ، والضغوطات الاجتماعية. ولا يخفَى أنَّ الشدائد والمصائب والكوارث تَدفع الإنسانَ إلى الالتجاء إلى القُوَّة العُليا ، قوةِ اللَّه تعالى . فهو القادر _ وَحْدَه_ على جَلْب النَّفْع ، ودَفْعِ الضَّرَر .

والبَحْرُ له وَضْعٌ خاص . فهو كِيانٌ مُخيف ، ويَزداد الخَوفُ إذا هاجت الأمواج ، وكان الوقتُ ليلًا ، فَعِندئذ يَلجَأ الإنسانُ إلى خالقه بكُل إخلاص مِن أجل إنقاذه [١٣٩].

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٥٣) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في البَحْرِ ﴾ الضُّر لَفْظ يَعُمُّ خَوْفَ الغَرق ، والإمساك عن الجَرْي ، وأهوال حالاته اضطرابه وتموُّجه ، ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إلا إيَّاهُ ﴾ ، ضَلَّ معناه تَلِفَ وقد وَهِيَ ، عِبارة تحقير لِمَن يَدَّعي إلَهًا مِن دُون اللَّه . والمعنى في هذه الآية : أنَّ الكُفَّار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فَضْلًا ، وكُل واحد مِنهم بالفِطرة يَعْلَم عِلْمًا لا يَقْدِر على مُدافعته أنَّ الأصنام لا فِعْل لها في الشدائد العِظَام ، فَوَقَفَهُم اللَّهُ مِن ذلك على حالة البَحْر حيث تَنقطع الحِيَل ، ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُم إلى البَرِّ أعْرَضْتُم ﴾ أي : عن الإخلاص ، ﴿ وكانَ الإنسانُ كَفُورًا ﴾ ، الإنسان هُنا الكافر . وقِيل : وطَبع الإنسان كَفُورًا للنِّعَم إلا مَن عَصَمَه اللَّهُ ، فالإنسان لفظ الجِنس)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل لَوْ كانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكَهْف : ١٠٩] .

الآيةُ تُبيِّن سَعَةَ عِلْم اللَّه . وعِلْمُ اللهِ صِفَة للَّه ، ليس لها بداية ولا نهاية . وصِفاتُ اللَّه قديمة قِدَم ذاته ، سُبحانَه وتعالى . لَوْ كان ماءُ البَحْر حِبْرًا ومِدَادًا للقَلَم ، وكُتِبَ به كلمات اللَّه وعِلْمه وحِكَمه ومواعظه وعجائبه ، لَنَفِدَ ماءُ البحر معَ كثرته وانتهى ، لأن كُل جِسم مُتناهٍ ، وكلماتُ اللَّه

---

١٣٩ من اللطائف أنَّ عُمر بن الخطاب _ رضي اللَّهُ عنه _ كَتَبَ إلى عمرو بن العاص يَطْلُب مِنه أن يَصِف له البحر، فكتبَ إليه: ((إنِّي رأيتُ خَلْقًا كبيرًا يَركبه خَلْق صغير، إنْ ركد حرق القلوب، وإنْ تحرَّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقينُ قِلَّة، والشكُّ كَثرة، وَهُم فيه كَدُود على عُود، إنْ مال غَرِق، وإن نجا بَرِق)) [تاريخ الإسلام(١/ ٤٢٣). وانظر أيضًا تاريخ الطبري (٢/ ٦٠٠)، وتاريخ ابن خلدون (٢/ ٥٧٥)] .

لا تَنفَد ولا تنتهي كَعِلْمه ، وكلماتُ اللَّه لا نهاية لها . فالكلامُ صِفة للَّه كالعِلْم. وصِفاتُ اللَّه قديمة ومُطْلَقَة وغَير مَحدودة . لا بداية لها ولا نهاية . وَلَوْ جِئنا بِقُدرتنا الفائقة بِمِثْل ماء البحر في كثرته حِبْرًا ومِدَادًا لَنَفِدَ أيضًا وانتهى ، لأن مجموع المُتناهين مُتناهٍ ، وبِحار الدُّنيا محدودة . وكلامُ اللَّه لا يتناهى ، وليس له حدود .

وفي الآيةُ: ﴿ لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ أُضيفت الكلمات إلى اسم الرَّب المُضاف إلى ضَمير النبيِّ ﷺ ، وهذا يدل على تعظيم اللَّه وكلماتِه ، وتشريف النبيِّ ﷺ ورفع شأنه .

وإظهارُ البحر والكلمات في موضع الإضمار : ﴿ لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ للتأكيد وزيادة التقرير ، وتثبيت المعنى في الأذهان .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٤٦) : ((يقول تعالى : قُل يا مُحمَّد : لَوْ كان ماءُ البحر مِدادًا للقَلَم ، الذي يُكتَب به كلمات اللَّه وحِكَمه وآياته الدَّالة عليه ، لَنَفِدَ البحرُ قبل أن يَفرُغ كتابة ذلك . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أي : بِمِثْل البحر ، آخَر ثُمَّ آخَر ، وَهَلُمَّ جَرًّا ، بُحور تَمُدُّه ويُكتَب بِها لَمَا نَفِدَت كلماتُ اللَّه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أنما في الأرضِ مِن شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ مِن بَعده سبعةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَت كلماتُ اللَّه إن اللَّه عزيزٌ حكيم ﴾ [لُقمان : ٢٧] . وقال الربيع بن أنس : إن مَثَل عِلْم العباد كُلِّهم في عِلْم اللَّه كقَطرة من ماء البُحور كُلِّها.وقد أنزلَ اللَّهُ ذلك: ﴿ قُل لَوْ كانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ . يقول: لو كانت تلك البُحُور مِدَادًا لكلمات اللَّه ، والشَّجَر كُله أقلام لانكسرت الأقلام ، وفَنِيَ ماء البحر، وبَقِيَت كلمات اللَّه قائمة لا يُفنيها شيء ، لأن أحدًا لا يستطيع أن يَقْدُر قَدْرَه ، ولا يُثني عليه كما يَنبغي ، حتى يكون هو الذي يُثني على نَفْسه ، إن رَبَّنا كما يقول ، وفوق ما نقول ، إن مَثَل نعيم الدنيا أوَّلها وآخِرها في نعيم الآخرة كَحَبَّة مِن خَرْدَل في خِلال الأرض كُلِّها)) .

وعن ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما قال: قالت قُرَيش لليهود : أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرَّجل (يقصدون النبيَّ ﷺ)، فقالوا: سَلُوه عن الرُّوح، فَنَزلت: ﴿ ويَسألونكَ عن الرُّوحِ قُل الرُّوحُ مِن أمرِ ربي وما أُوتيتُم مِن العِلْمِ إلا قليلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥]. قالوا : نَحْنُ لَم نُؤتَ مِن العِلْم إلا قَليلًا، وقد أُوتينا التَّوراة فِيها حُكم اللَّه، وَمَن أُوتِيَ التَّوراةَ فقد أُوتِيَ خَيْرًا كثيرًا، قال:فَنَزلت: ﴿ قُل لَوْ كانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [١٤٠].

---

١٤٠ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٧٩) برقم (٣٩٦١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ اليهود كانوا يتلاعبون بِمُشركي العرب . وهؤلاء المشركون كانوا مُصابين بعُقدة النَّقْص ، لأنهم جُهَّال مُنقطعون عن السماء ، ويَعبدون الأصنامَ . لذلك كانوا ينظرون إلى اليهود نظرة احترام وتعظيم ، فاليهودُ أهل كتاب لَدَيهم التَّوراة ، وهي بالأصل كتاب سماويٌّ ، ولكن طَرأ عليه التحريف والتغيير . ولَدَيهم العُلماء والكُتب الدِّينية .

وقد حاولت قُرَيش أن تتحدَّى النبيَّ ﷺ وتُفحمه وتُحْرِجه ، فتوجَّهت إلى اليهود كَي تطلب منهم شيئًا تسأل النبيَّ ﷺ عنه ، لعلَّه يَعجَز عن الإجابة ويتمُّ إفحامه _ وَفْق تفكير المشركين _ .

وقَول اليهود : " سَلُوه عن الرُّوح " ، يدل على عِلمهم وتبحُّرهم في دراسة الكتب الدينية . إذْ إنَّ الرُّوح لا يَعلَمها إلا اللَّه . وقد كان النبيُّ ﷺ صادقًا وأمينًا ، فلم يُفْتِ بِغَير عِلم ، ولَم يَخترع جوابًا من أفكاره الشخصية ، ليظهر بمظهر العالِم الذي يَعرف كل شيء ، ولا يُعجِزه أي شَيء .

ونزلت آية الرُّوح التي تُشير إلى ضَعْف الناس وقِلَّة عِلْمهم وعَجزهم عن معرفة الكثير من الأشياء . وهذا الأمرُ لَم يَرُق لليهود الذين يَعتبرون أنفسهم أعظم العلماء ، وأكبر المُفكِّرين ، وأصابهم الغُرور والتَّكَبُّر بسبب نُزول التَّوراة عليهم. وبيَّن اللَّهُ لهم أن كلمات اللَّه ومواعظه ليس لها نهاية . ولا يُمكن لمخلوق أن يُحيط بها ، كائنًا مَن كان . وهذه القصةُ تدل على غُرور اليهود وعِنادهم واستكبارهم،وتكبُّرهم على الناس،فَهُم يَفتخرون بِنُزول التَّوراة عليهم،مَعَ أنهم لا يَعمَلون بما فيها ، ولا يسيرون على خُطى النبيِّ مُوسى ﷺ . وقد حَرَّفَ اليهودُ التَّوراةَ وتلاعبوا بنُصُوصها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٠١و٢٠٢): ((ومعنى الآية : لَوْ كان ماءُ البحر مِدادًا يُكتَب به . قال مُجاهد : والمعنى : لَوْ كان البَحْر مِدادًا للقَلَم ، والقلم يَكتب . قال ابن الأنباري : سُمِّيَ المِدَاد مِدَادًا لإمداده الكاتب ، وأصله مِن الزيادة ومجيء الشيء بعد الشيء . قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ ... . وإنما لَم تَنفَد كلمات اللَّه ، لأن كلامه صِفة مِن صِفات ذاته ، ولا يتطرَّق على صِفاته النَّفاد . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أي : بِمِثْل البحر ﴿ مَدَدًا ﴾ أي: زيادة . والمَدَدُ كُل شيء زادَ في شيء . فإن قِيل: لِمَ قال في أوَّل الآية: ﴿ مِدَادًا ﴾ وفي آخرها: ﴿ مَدَدًا ﴾ وكلاهما بمعنى واحد، واشتقاقهما غَير مُختلف ؟ . فقد أجاب عنه ابن الأنباري فقال : لَمَّا كان الثاني آخِر آية،وأواخر الآيات هاهُنا أتت على الفِعل، والفِعل كَقَوله:﴿ نُزُلًا ﴾ ،﴿ هُزُوًا ﴾، ﴿ حِوَلًا ﴾ كان قَوله : ﴿ مَدَدًا ﴾ أشبه بهؤلاء الألفاظ مِن المِدَاد . واتِّفاق المَقاطع عِند أواخر الآيِ ، وانقضاء الأبيات ، وتَمام السَّجْع والنثر ، أخف على الألسُن ، وأحلى موقعًا في الأسماع ، فاختلفت اللفظتان لهذه العِلَّة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ [الفُرقان : ٥٣] .

هذه الآية تشير إلى آثار القدرة الإلهية الباهرة . فاللَّهُ جعل ماءَ البحر العَذب والماء المالح مُتلاصِقَيْن ، بَينهما تماس ، دُون أن يُؤثِّر كُلُّ طَرَف في الآخَر . فالعُذوبةُ لا تُغيِّر المُلوحةَ ، والملوحةُ لا تُفسِد الماءَ العَذب.فقد جَعَلَ اللَّهُ تعالى بينهما حاجزًا يَمنع كُل جزء من إفساد الآخَر.

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٣٩٨) : ((وإنَّما عنى بذلك أنه مِن نِعمته على خَلْقه وعظيم سُلطانه ، يَخلِط ماءَ البحر العذب بماء البحر المِلح الأُجَاج ، ثُمَّ يَمنع الملح من تغيير العذب عن عذوبته وإفساده إيَّاه ، بقضائه وقُدرته)) .

واللَّهُ يُنبِّه الناسَ على نِعَمه كَي يُوحِّدوه ويُطيعوه ويَشكروه . لقد خَلَطَ اللَّهُ البَحْرَيْن وأجراهما، وأفاضَ أحدهما في الآخر،فَهُما يلتقيان. ﴿ هذا عَذْبٌ فُراتٌ ﴾ حُلو شديد العُذوبة ، ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ فِيه مُلوحة ومَرارة . ﴿ وجَعَلَ بينهما بَرْزخًا ﴾ حاجزًا بِقُدرة اللَّه وفضله ورحمته، لئلا يَختلط العَذب بالمِلح ، ولا المِلح بالعَذب . ﴿ وحِجْرًا مَحجورًا ﴾ سِتْرًا مستورًا ومَمنوعًا بِه اختلاطهما، يَمنع أحدهما مِن الاختلاط بالآخَر ، فلا يُفسِد المِلْحُ العَذبَ .

وفي زاد المسير (٦/ ٩٦) : ((قال أبو سُلَيمان الدمشقي : ورأيتُ عند عَبَدان مِن سَواد البَصْرةِ الماءَ العذب ينحدر في دِجلة نَحْو البحر، ويأتي المد من البحر فيلتقيان ، فلا يختلط أحد الماءين بالآخَر ، يُرى ماء البحر إلى الخُضرة الشديدة، وماء دِجلة إلى الحُمرة الخفيفة ، فيأتي المُستقي فيَغرِف من ماء دِجلة عَذبًا لا يُخالطه شيء ، وإلى جانبه ماء البحر في مكان واحد)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي خلق المَاءَيْن : الحُلو والمِلح ، فالحُلو كالأنهار والعُيون والآبار، وهذا هو البَحْر الحُلو العَذب الفُرات الزُّلال ، قاله ابن جُرَيج ، واختاره ابن جرير . وهذا المعنى لا شك فيه ، فإنَّه ليس في الوُجود بحر ساكن وهو عَذب فُرات ، واللَّهُ سُبحانَه وتعالى إنما أخبر بالواقع لِيُنَبِّه العباد على نِعمه عليهم لِيَشكروه . فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس ، فَرَّقَه اللَّهُ تعالى بين خَلْقه لاحتياجهم إليه أنهارًا وعُيونًا في كل أرض،بِحَسَب حاجتهم وكِفايتهم لأنفسهم وأرضيهم . وقَوله تعالى : ﴿ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي مالح مُر زُعاق ، لا يُستساغ ، وذلك كالبِحار المعروفة في المشارق والمغارب... . فكُل هذه البِحَار الساكنة خَلَقَها اللَّهُ سُبحانَه وتعالى مالحةً ، لئلا يحصل بسببها نَتْن الهواء ، فيَفْسُد الوجود بذلك، ولئلا تَجْوَى (تُنتِن) الأرض بما

يموت فيها مِن الحَيَوَان. ولَمَّا كان ماؤها مالِحًا ، كان هواؤها صحيحًا ، ومِيتتها طَيِّبة ، ولهذا قال رسول اللَّه ﷺ ، وقد سُئل عَن ماء البحر: أنتوضَّأ به ؟ ، فقال : " هو الطَّهُور ماؤه ، الحِلُّ مَيْتته " . رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السُّنن بإسناد جَيِّد . وقَوله تعالى : ﴿ وجَعَلَ بينهما بَرْزخًا وحِجْرًا ﴾ أي: بين العَذب والمالح . ﴿ بَرْزخًا ﴾ أي : حاجزًا ، وهو اليَبَس من الأرض . ﴿ وحِجْرًا مَحجورًا ﴾ أي : مانعًا مِن أن يصل أحدهما إلى الآخَر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ [النَّمْل : ٦١] .

جَعَلَ اللَّهُ بين المياه العَذبة والمياه المالحة فاصلًا ومانعًا مِن الاختلاط ، لكَيلا يُفْسِد أحدُهما الآخَرَ . وهذا يدلُّ على كمال القُدرة الإلهية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٩٢) : ((﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ ، أي: جَعَلَ بَين المِياه العَذبة والمالحة حَاجِزًا، أي: مانعًا يَمنعها مِن الاختلاط ، لئلا يَفسُد هذا بهذا ، وهذا بهذا ، فإنَّ الحِكمة الإلهية تقتضي بقاء كُل منهما على صِفته المَقصودة مِنه ، فإنَّ البَحْر الحُلْو هُو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس ، والمقصود مِنها أن تكون عَذبة زُلالًا ، يُسقَى الحَيَوَان والنَّبات والثِّمار مِنها ، والبِحَار المالحة هي المُحيطة بالأرجاء والأقطار مِن كُل جانب ، والمقصود مِنها أن يكون ماؤها مِلْحًا أُجَاجًا لئلا يَفْسُد الهواء بريحها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أمَّن يَهْدِيكُم في ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ ﴾ [النَّمْل : ٦٣] .

إنَّ اللَّه يُرشدكم في الليالي المُظلِمة إلى مَقَاصدكم ، إذا سافرتم في البَرِّ أو البَحْر ، بما جَعَلَ مِن الدلائل السَّماوية كالنُّجُوم والعلامات الأرضية . وبعبارة أُخرى ، إنَّ اللَّه يُرشدكم بالنُّجُوم في ظُلُمات البَر والبَحْر لَيْلًا ، وبعلامات الأرض نهارًا .

وقال القرطبي في تفسيره(١٣/ ٢٠٢): ((قَوله تعالى: ﴿ أمَّن يَهْدِيكُم ﴾ أي: يُرشدكم الطريقَ ﴿ في ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ ﴾ ، إذا سافرتم إلى البلاد التي تتوجَّهون إليها بالليل والنهار. وقِيل : وجَعَلَ مَفَاوِزَ البَر التي لا أعلام لها ولُجَجَ البِحَار كأنَّها ظُلمات، لأنَّه ليس لها عَلَم يُهْتَدَى به)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ والبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الذي عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرْجِعُون ﴾ [الرُّوم : ٤١] .

ظَهَرَت المصائب والكوارث والنَّكَبَات في بَر الأرض وبَحْرها ، بسبب مَعَاصي الناس وذُنُوبهم، ليُصيبهم بعُقوبة بَعْض أعمالهم في الدُّنيا قبل العِقاب العظيم في الآخِرة ، لعلَّهم يَتوبون ويُقْلِعون عن آثامهم وذُنوبهم ، ويَعُودون إلى اللَّه نادمين .

والآيةُ دليل واضح على أن ذُنُوب الناس سبب لظُهور الفَسَاد في العَالَم .

لقد ظهرت الأمراضُ والكوارث البيئية والاختلالات في الطبيعة ، وانتشرت النَّكَبَاتُ في البَر والبحر . فالتَّصَحُّرُ في ازدياد ، وكثيرٌ مِن دُول العَالَم تُعاني مِن شُح الأمطار . وهُناك مُشكلات عالمية تُشكِّل تهديدًا للبشرية ، كالاحتباس الحراري ، وارتفاع حرارة الأرض والبحر ، واقتراب الماء من المُدن الساحلية، واتساع ثَقْب الأُوزون ، وكثرة الأعاصير، ... إلخ . وذلك بسبب ذُنُوب الناس ، حيث مُحِقَت البَرَكَة ، وَعَمَّ شُؤم المَعصية وآثارها الكارثية على الرُّوح والمَادَّة . وأدَّت آثامُ الناس ومَعَاصيهم إلى تدمير الطبيعة بكُل عناصرها ، ونَشر الخَلَل والفَوضى في العَالَم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٠٥ و٣٠٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ في البَرِّ والبَحْرِ ﴾ ، في هذا الفَسَاد أربعة أقوال : أحدها نُقْصان البَرَكَة ، قاله ابن عباس . والثاني ارتكاب المعاصي ، قاله أبو العالية . والثالث الشِّرْك ، قاله قَتادة والسُّدي . والرابع قَحْط المَطَر ، قاله عَطِيَّة . فأمَّا البَرُّ ، فقال ابن عباس : البَرُّ البَرِّية التي لَيس عِندها نَهر . وفي البَحْر قَولان : أحدهما أنَّه ما كان مِن المدائن والقُرى على شَط نَهر ، قاله ابن عباس . وقال عِكرمة : لا أقول بَحْركم هذا ، ولكن كُل قرية عامرة . وقال قَتادة : المُراد بالبَر أهل البَوَادي ، وبالبَحْر أهل القُرى . وقال الزَّجاج : المُراد بالبَحْر مُدُن البَحْر على الأنهار ، وكُل ذي ماء فهو بَحْر . والثاني أنَّ البَحْر المَاء المَعروف . قال مُجاهد : ظُهُور الفساد في البَر قَتْل ابن آدم أخاه ، وفي البَحْر مَلِك جائر يَأخذ كُلَّ سفينة غَصْبًا . وقِيل لَعَطِيَّة : أيُّ فساد في البَحْر ؟ ، فقال : إذا قَلَّ المطر قَلَّ الغَوص. قَوله تعالى : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أيْدِي النَّاسِ ﴾ أي بِمَا عَمِلُوا مِن المَعَاصي ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الذي عَمِلُوا﴾ أي: جَزَاء بعض أعمالهم ، فالقَحْط جَزَاء ، ونُقْصَان البَرَكَة جَزَاء،ووُقوع المَعصية مِنهم جَزَاء مُعجَّل لمَعاصيهم أيضًا.قَوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُم يَرْجِعُون﴾ في المُشار إليهم قَولان: أحدهما أنَّهم الذين أُذِيقُوا الجَزَاء، ثُمَّ في مَعنى رُجُوعهم قَولان:أحدهما يَرجِعون عَن المَعَاصي، قاله أبو العالية.والثاني يَرجِعون إلى الحَق، قاله إبراهيم . والثاني أنَّهم الذين يأتون بَعْدَهم ، فالمعنى : لَعَلَّه يَرجِع مَن بَعْدَهم ، قاله الحَسَن)) .

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((يا مَعْشَرَ المُهاجرين، خَمْسٌ إنِ ابتليتُم بِهِنَّ ، ونَزَلَ فِيكُم، أعوذُ باللَّه أن تُدركوهُنَّ ، لَم تَظهَر الفاحشةُ في قَوم قَطُّ حتى يَعمَلوا بها إلا ظَهَرَ فِيهِم الطاعونُ والأوجاعُ التي لَم تَكُن مَضَتْ في أسلافهم ، وَلَم يَنقُصوا المِكيالَ والمِيزانَ إلا أُخِذُوا بالسِّنينَ وشِدَّةِ المُؤْنَةِ وجَوْرِ السُّلطان عَلَيهم ، وَلَم يَمنَعُوا الزكاةَ إلا مُنِعُوا القَطْرَ مِن السَّماء ، وَلَوْلا البَهائمُ

لَم يُمطَروا ، وَلَم يَنقُضوا عَهْدَ اللَّهِ وعَهْدَ رسوله إلا سُلِّطَ عَلَيهم عَدُوُّهم مِن غَيرهم ، وأَخَذُوا بَعْضَ ما كان في أيديهم ، وما لَم يَحكُم أئِمَّتُهُم بكِتاب اللَّه إلا ألقى اللَّهُ بَأسَهم بَينَهم)) [١٤١].

يُبيِّن الحديثُ أنَّ ظُهور الأمراض والمصائب والكوارث في الأُمَم والشُّعوب هو عُقوبة مِن اللَّه، يُصيب بها الناسَ إذا كَثُرَ فيهم الفَسَاد والذُّنُوب والآثام والمَعَاصي .

وهذه القضايا الخمس التي وضَّحها الحديثُ لها تأثيرات سلبية ، فرديًّا وجماعيًّا . وهي قضايا عامَّة وشاملة لجميع المُسلمين في كُل زمان ومكان ، ولَيست خاصَّة بالمُهاجرين ، وتخصيص النِّداء بهم ، لأنَّهم أصحاب مكانة جليلة ومنزلة رفيعة ، ولهم وَزن كبير في المجتمع الإسلاميِّ ، كما أنَّهم مُؤهَّلون لتقلُّد المناصب الحسَّاسة ، وأن يَكون لهم وَلاية وسيطرة على المُسلمين .

١ــ إذا ظَهَرَ فيهم الزِّنا ، وجاهَروا به ، فإنَّ اللَّه يُعاقبهم بانتشار الطاعون ، وهو مَرَض يُسبِّب المَوْتَ ، وانتشارِ الأمراض والأوجاع التي لَم تَكُن مَوجودة في الأُمم السابقة . وهذه عُقوبة واضحة وعلامة ظاهرة لانتشار جريمة الزِّنا في المجتمع . ونحن نُتابع كُلَّ يوم ظُهورَ أمراض جديدة يَسمَع بها العَالَمُ لأوَّل مَرَّة . وما هذا إلا بسبب انتشار الفواحش في الأُمم والشعوب انتشار النار في الهشيم ، بحيث أصبحت الفاحشةُ في كثير مِن الأحيان رُقِيًّا وتَقَدُّمًا وتَمَرُّدًا على التقاليد البالية . وهذا هو الانهيار بعَيْنه .

٢ــ نَقْصُ المِكيال والمِيزان هو سَرقة ما يُكَال ويُوزَن عِند البَيع والشِّراء . وهذا الإثمُ الكبير له عُقوبة إلهية عظيمة ، حيث يُصيبهم اللَّهُ بالقَحْط والجَفاف ، وعدم نزول المطر ، والغَلاء وقِلَّة المواد التموينية ، وظُلم الوُلاة والحُكَّام لهم . ونقصُ المِكيال والمِيزان مِن الكوارث الحقيقية في المُجتمع ، ويُؤَدِّي إلى غياب الثِّقَة بين الأفراد ، وانتشار الجشع والاستغلال ، فيصير المجتمعُ كَومةً من الأضداد والصِّراعات والأحقاد . والنتيجةُ المترتبة على إنقاص المِكيال والميزان هي الشِّدة وضَنَك العَيش وقَسوة الحياة ، وظُلم الحاكم للرَّعِيَّة .

٣ــ إذا مَنعوا زكاةَ أموالهم ، ولَم يُؤَدُّوا حَقَّ اللَّه فيها ، مَنَعَ اللَّهُ عَنهُم المَطَرَ ، ولَوْلا البهائم ما نَزَلَ عليهم المطر من السَّماء ، أي إنَّ البهائم تستحق المطر ، ومانعو الزكاة لا يَستحقونه ، وهذا دليل على شِدَّة غضب اللَّه عليهم ، لأنَّ رِزقهم تابع لرِزق البهائم ، وهذا يعني أنها أفضل حالًا مِنهم . ومنع الزكاة جريمة بحق الفرد والجماعة . وكما هو معلومٌ فإن الزكاة من أركان الإسلام

---

١٤١ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٨٢) برقم (٨٦٢٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الخمسة . ومنعها هو هدمٌ لبناء الإسلام ، يترتب عليه منع المطر من السماء . وهذه العُقوبة الإلهية مِن شأنها أن تُؤَدِّيَ إلى القَحْط والجَفَاف والجُوع والعَطَش وانهيار مُقَوِّمات الحياة .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٢٩٧) : ((أي : لَم يَنزِل إلَيهم المطر عُقوبة بشُؤم مَنعهم للزكاة عَن مُستحقيها ، فانتفاعهم بالمطر إنَّما هو واقع تَبَعًا للبهائم ، فالبهائم حينئذ خَير مِنهم ، وهذا وَعيد شديد على ترك إخراج الزكاة ، أَعْظِمْ به مِن وَعيد)) .

٤ــ إذا أخَلُّوا بالعُهُود والمواثيق التي أخذها اللَّهُ ورسولُه ﷺ عليهم ، وأُلْزِمُوا بالوفاء بها ، سَلَّطَ اللَّهُ عَدُوَّهم مِن غَيرهم ، واستولى على أموالهم ومُمتلكاتهم وبلادهم . وقضيةُ " نَقْض العَهْدِ الإلهيِّ والعَهْدِ النبويِّ " مِن القضايا المُدمِّرة التي تُؤَدِّي إلى انتكاسة كُبرى في النَّفْس البشرية، وتكون العُقوبة هي تَسَلُّط الأعداء وتكالبهم عليهم ، وسَيطرتهم على مُمتلكاتهم .

٥ــ إذا امتنعَ الأئمة عن الحُكم بما أنزلَ اللَّهُ في كتابه كُلِّيًّا أو جُزئيًّا ، أو اختاروا بَعْضَ الأحكام لتحقيق مصالحهم ومنافعهم ، وعَطَّلُوا بَقِيَّةَ الأحكام ، فكانوا كَمَن يُؤْمنون ببعض الكتاب ويَتركون بَعْضَه ، جَعَلَ اللَّهُ بعضَهم أعداءً لبعض ، وصارَ صِراعهم على حُطَام الدُّنيا الفاني ، فَنُزِعَ الحق والخير والهُدى مِن قلوبهم ، فاستحقوا عُقوبة اللَّه تعالى . وقضيةُ عَدَم الحُكْم بالقُرآن (الدُّستور الإلهيِّ الكامل المَعصوم) تُلقي الضَّوْءَ على أهمية تحكيم الشَّرع الإلهيِّ كاملًا ، غَير مَنقوص ولا مَجزوء، وضرورة نقل القِيَم القُرآنية السَّامِيَة إلى واقع مَلموس في حياة الفرد والجماعة. وعدمُ الحُكم بكتاب اللَّه يُؤَدِّي حَتْمًا إلى شُيوع الجرائم، والانحلال ، والعداوة الشديدة بين أفراد المجتمع لغياب العدالة الاجتماعية، وتفشِّي الظُّلم على جميع المستويات. وعندئذ يتأسس مجتمع الكراهية والحقد والانتقام ، ويصبح العدلُ شعارًا بَرَّاقًا لا وُجود له في الواقع . ولا يمكن الاستهانة بتأثير الذُّنُوب في تدمير الفرد والجماعة والبيئة ، إذْ إنَّ لها تأثيرًا كارثيًّا على كُل سياقات الحياة المُعاشة ، وهذا التأثير شاملٌ لكل النواحي المعنوية والمادية . فالآثامُ تُعكِّر صَفْوَ الحياة وتُحيلها إلى جَحيم لا يُطاق، حيث يُعاني الناس في أمور عَيْشهم ضمن بيئة قاسية ضاغطة عليهم ، تُفقدهم لَذَّةَ الاستمتاع بمباهج الدُّنيا .

وهذه العُقوبات المَذكورة في الحديث إنَّما تَكون لمُرتكبها في الدُّنيا ، ويَبقى عذاب النار الشديد في الآخِرة ، لِمَن لَم يَتُبْ ، ويَترك الآثامَ والمعاصي . والحديثُ يُحذِّر مِن الذُّنُوب والمعاصي ، ويُوضِّح أنها سبب الكوارث والمصائب والعُقوبات على الناس . وفي الحديث علامة واضحة مِن عَلاماتِ نُبُوَّة مُحمَّد ﷺ .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي البَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ [فَاطِر : ١٢] .

وما يَستوي البَحْرَان، هذا حُلْو شديد العُذوبة ، سائغٌ شُرْبُه ، يَنحدر في الحَلْق بسُهولة بسبب عُذوبته ، وهذا مُر شديد المُلُوحة . وكما لا يَتساوى البَحْرَان : الحُلْو والمُر ، كذلك لا يَستوي المؤمنُ والكافر ، ولا الإيمان والكُفر .

ومِن كُلٍّ مِن البَحْرَيْن تأكلون سَمَكًا طَرِيًّا مُختلف الأنواع والطُّعُوم والأشكال ، وتَستخرجون مِنهما اللؤلؤَ والمَرجانَ للزِّينة والتحلِّي ، وترى السُّفُنَ العظيمة في كُلٍّ مِنهما تَشُقُّ الماءَ بجَرْيها فيه مُقبِلةً ومُدبِرةً بِرِيح واحدة ، وتَحمِل السُّفُنُ على ظَهْرها الرجال والبضائع ولا تَغرَق ، لأنَّها بتَسخير اللَّه تعالى،لتطلبوا بركوب هذه السُّفُن مِن التِّجارة،ولعلَّكم تَشكُرون اللَّهَ على فضله وإنعامه وإحسانه في تَسخير ذلك لكم ، حَيث تَحصُلون على المكاسب والأرباح والبضائع والحُلِيِّ الفاخرة .

وهذه الآية تدلُّ على وَحدانية اللَّه ، وكمال قُدرته ، وبديع صُنعه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٢٦) : ((يقول تعالى مُنَبِّهًا على قُدرته العظيمة في خَلْقه الأشياء المُختلفة . خَلَقَ البَحْرَيْن : العَذب الزُّلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس مِن كِبار وصِغار ، بحَسَب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار والعُمران والبَرَاري والقِفَار ، وهي عَذبة سائغ شرابها لِمَن أراد ذلك ، ﴿ وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، أي : مُر ، وهو البَحْر الساكن الذي تسير فيه السُّفُن الكِبار ، وإنَّما تكون مالحة زُعَافًا مُرَّةً ، ولهذا قال : ﴿ وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ، أي : مُر ، ثُمَّ قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ ، يعني السَّمَك ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ كما قال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَخْرُجُ مِنهُما اللؤلُؤُ والمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان (٢٣) ﴾ [سُورة الرَّحمن]. وقَوله جَلَّ وعلا : ﴿ وَتَرَى الفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ ، أي : تَمْخَرُه وتَشُقُّه بحَيزومها، وهو مُقَدَّمها المُسنَّم الذي يُشبِه جُؤجُؤ الطَّير ، وهو صدره . وقال مُجاهد : تَمخَر الرِّيحُ السُّفُنَ ، ولا يَمخَر الرِّيحَ مِن السُّفُن إلا العِظَام . وقَوله جَلَّ وعلا : ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ ، أي : بأسفاركم بالتِّجارة مِن قُطْر إلى قُطْر ، وإقليم إلى إقليم ، ﴿ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ ، أي : تَشكُرون رَبَّكُم على تَسخيره لكم هذا الخَلْق العظيم ، وهو البَحْر ، تتصرَّفون فيه كَيْفَ شِئتم ، تَذهبون أينَ أردتم ، ولا يَمتنع عليكم شيء مِنه ، بَل بقُدرته قد سَخَّرَ لكم ما في السَّماوات وما في الأرض ، الجميع مِن فَضْله ورحمته)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٤) : ((﴿ وَمَا يَسْتَوِي البَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ . ضَرْب مَثَل للمُؤمن والكافر . والفُرات الذي يَكسِر العَطَشَ ، والسَّائغ الذي يَسهُل انحدارُه ، والأُجَاج الذي يُحرِق بمُلوحته . ... . ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ، استطراد في صِفَة البَحْرَيْن، وما فِيهما مِن النِّعَم، أوْ تَمَام التَّمثيل، والمعنى : كما أنَّهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان مِن حَيث إنَّهما لا يَتساويان فيما هو المَقصود بالذات مِن الماء ، فإنَّه خَالَطَ أحدهما ما أفسده وغَيره عَن كَمَال فِطرته ، لا يتساوى المؤمن والكافر ، وإن اتَّفَقَ اشتراكهما في بَعض الصِّفات كالشَّجاعة والسَّخاوة لاختلافهما فيما هو الخَاصِيَّة العُظمى ، وهي بقاء أحدهما على الفِطرة الأصلية دُون الآخَر ، أوْ تفضيل للأُجَاج على الكافر بما يُشارك فيه العَذب مِن المَنافع . والمُراد بِـ الحِلْيَة اللآلئ واليواقيت ، ﴿ وَتَرَى الفُلْكَ فِيهِ ﴾ في كُل. ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ تَشُقُّ الماءَ بجَرْيِها ، ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ مِن فَضْل اللَّه بالنُّقْلة فيها ، واللام مُتعلِّقة بِـ ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ ، ويَجوز أن تتعلَّق بما دَلَّ عَلَيه الأفعال المَذكورة ، ﴿ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُون ﴾ على ذلك . وحَرْف التَّرَجِّي باعتبار ما يَقتضيه ظاهر الحال)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ الجَوَارِ في البَحْرِ كالأعْلامِ ﴾ [الشُّورى : ٣٢] .

وَمِن علامات اللَّه الدَّالة على وُجوده ووَحدانيته وقُدرته ، ومُلْكه الواسع ، وسُلطانه العظيم ، السُّفن الجارية في البَحْر كأنها الجِبال مِن عَظَمَتها وضخامتها وكِبَر حَجْمها .

لقد سَخَّرَ اللَّهُ البَحْرَ لتجريَ فيه السُّفن بأمره . وهذا مِن حُجَج اللَّه عليكم أيها الناس ، وهو دليلٌ واضح على أن اللَّه قادر على كُل شَيء ، ولا يُعجِزه شَيء ، ولا يَتعذَّر عليه فِعل شَيء أراده. والجواري جَمْع جارية، وهي السفينة التي تسير وتجري في البحر. والأعلامُ جَمْع عَلَم وهو الجبل.

قالت الخَنساء ترثي أخاها صَخْرًا :

وإنَّ صَخْرًا لَتَأتَمُّ الهُداةُ بِهِ كأنهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٣٠): ((وَمِن علاماته الدَّالة على قُدرته السُّفُنُ الجارية في البحر كأنها مِن عِظَمها أعلام . والأعلام : الجبال ، وواحد الجواري جارية ... سُمِّيَت جارية ، لأنها تجري في الماء. والجارية: هي المرأة الشَّابة ، سُمِّيَت بذلك لأنها يَجري فيها ماء الشباب. وقال مُجاهد : الأعلام القُصُور ، واحدها عَلَم، ذَكَره الثعلبي ، وذكر الماوردي أنَّها الجِبال . وقال الخليل : كُل شيء مرتفع عند العرب فهو عَلَم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والبَحْرِ المَسْجُورِ ﴾ [الطُّور : ٦] .

والبَحْرِ المُوقَد نارًا يَوْمَ القِيامة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤٧ و٤٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ والبَحْرِ ﴾ فِيه قَولان: أحدهما أنَّه بَحْر تحت العَرْش ماؤه غليظ ، يُمطَر العِباد مِنه بَعد النَّفْخَة الأُولَى أربعين صباحًا ، فيَنبُتون في قُبورهم ، قاله عليٌّ رضي اللَّهُ عنه . والثاني أنَّه بَحْر الأرض ، ذَكَرَه الماوردي . وفي ﴿ المَسْجُورِ ﴾ أربعة أقوال: أحدها المَملوء ، قاله الحسن وأبو صالح وابن السائب وجميع اللغويين . والثاني أنَّه المُوقَد ، قاله مُجاهد وابن زَيد . وقال شِمْر بن عَطِيَّة : هو بمَنزلة التَّنُّور المَسجور . والثالث أنه اليابس الذي قد ذهب ماؤه ونَضَبَ ، قاله أبو العالية . ورُوِيَ عن الحسن قال : تُسجَر ، يعني البِحَار ، حتى يَذهب ماؤها ، فلا يَبقَى فيها قَطرة . وقَول هَذين يَرجع إلى مَعنى قَول مُجاهد. وقد نُقِلَ في الحديث أنَّ اللَّه تعالى يَجعل البِحَارَ كُلَّها نارًا فَتُزَاد في نار جَهَنَّم. والرابع أنَّ المَسجور المُختلِط عَذبه بمِلْحه ، قاله الربيع بن أنس)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَان ﴾ [الرَّحمن : ١٩] .

أرسلَ اللَّهُ البَحْرَ العَذب والبحرَ المالح ، وجَعلهما يَجتمعان .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٤٤٤) : ((﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ ﴾ العَذب والمالح ، أرسلهما وخَلَّاهما ﴿ يَلْتَقِيَان ﴾)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَان ﴾ [الرَّحمن : ٢٠] .

بَينهما حاجز مِن قُدرة اللَّه تعالى، يَمنعهما مِن الاختلاط والامتزاج. إنَّهما يَلتقيان ولا يَختلطان، أي : لا يَبْغي أحدُهما على الآخَر فَيختلط به .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٠٥٤) : ((﴿ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ ﴾ حَاجِز مِن قُدرة اللَّه ، ﴿ لا يَبْغِيَان ﴾ ، لا يختلطان ولا يُجاوزان ما قدَّر اللَّهُ لهما، فلا المِلْح يَختلط بالعَذب، ولا العَذب يَختلط بالمِلْح)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٤٧): ((قَوله تعالى : ﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ ﴾ . قال ابن عباس : أي أرسلهما ، وقَوله : ﴿ يَلْتَقِيَان ﴾ ، قال ابن زَيد : أي مَنَعَهما أن يَلتقيا بما جَعَلَ بَينهما مِن البَرزخ الحَاجِز الفاصل بينهما . والمُراد بقَوله : ﴿ البَحْرَيْنِ ﴾ المِلْح والحُلْو ، فالحُلْو هذه الأنهار السارحة بين الناس . ... . وقد اختار ابن جرير هَهُنا أنَّ المُراد بالبَحْرَيْن : بَحْر السَّماء وبَحْر الأرض ، وهو مرويٌّ عن مُجاهد وسعيد بن جُبَير وعَطِيَّة وابن أبزى . قال ابن جرير : لأن اللؤلؤ

يتولَّد من ماء السماء وأصداف بَحْر الأرض ، وهذا وإن كان هكذا ، لكن ليس المُراد بذلك ما ذَهَبَ إليه ، فإنَّه لا يُساعده اللفظ ، فإنَّه تعالى قد قال : ﴿ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَان ﴾ ، أي: وجَعَلَ بَينهما بَرْزَخًا ، وهو الحَاجِز مِن الأرض لئلا يَبْغِيَ هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيُفسِد كُلُّ واحد مِنهما الآخَرَ ، ويُزيله عَن صِفَته التي هي مَقصودة مِنه . وما بَين السماء والأرض لا يُسمَّى بَرْزَخًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذا البِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التَّكوير : ٦] .

وإذا البِحَارُ أُوقِدَتْ فاشتعلتْ ، وصارت نارًا تَضطرم وتَلتهب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٣٩) : ((وفي المعنى ثلاثة أقوال : أحدها أُوقِدَتْ فاشتعلتْ نارًا ، قاله عليٌّ وابن عباس . والثاني يَبِسَتْ ، قاله الحَسَن . والثالث مُلِئَتْ بأنْ صارت بحرًا واحدًا ، وكَثُرَ ماؤها ، قاله ابن السائب والفَرَّاء وابن قُتَيبة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذا البِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار : ٣] .

وإذا البِحَارُ فُتِحَ بعضُها إلى بعض ، فصارتْ بحرًا واحدًا ، واختلطَ عَذبُها بمالحها .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢١٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ وإذا البِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ ، أي : فُجِّرَ بعضُها في بعض، فصارت بحرًا واحدًا. قال الحسن: ﴿ فُجِّرَتْ ﴾ ذَهَبَ ماؤها، ويَبِسَتْ ، وذلك أنَّها أوَّلًا راكدة مُجتمعة،فإذا فُجِّرَتْ تفرَّقتْ،فَذَهَبَ ماؤها،وهذه الأشياء بَيْن يَدَي السَّاعة)).

١٤_ النَّبات

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فأنَّى تُؤْفَكُون ﴾ [الأنعام : ٩٥] .

يُبيِّن اللَّهُ للمشركين قُدرته العظيمة ، وصُنعه العجيب ، وتدبيره المُحْكَم ، وحِكمته البالغة ، وفِعله المُتقَن ، مِن أجل أن يَنظُروا ويتأمَّلوا ويعتبروا ويتَّعظوا .

إنَّ اللَّه يَفْلِقُ الحَبَّ (جمع حَبَّة) فيخرج مِنه النبات، ويَفْلِق النَّوى (جمع نَوَاة) فيخرج مِنه الشجر . ويكون النبات والزُّروع والثمار ذات أشكال وألوان وطُعوم مُختلفة ومُتنوِّعة .

والمعنى : هل تستطيع أصنامكم وأوثانكم (آلهتكم المَعبودة مِن دُون اللَّه) أن تَفعل هذا ؟ . إنها عاجزة عن فِعله . فكيف تَعبدونها وهي عاجزة لا تضرُّ ولا تَنفع، وتتركون تَوحيدَ اللَّه الذي شَقَّ الحَبَّ والنَّوى بإخراج النبات والشجر مِنهما ؟! .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٨٩ و٩٠) : ((في معنى الفَلْق قولان : أحدهما أنه بمعنى الخلق فالمعنى : خالق الحَب والنَّوى ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال الضَّحاك ومقاتل . والثاني أن الفَلْق بمعنى الشَّق . ثُمَّ في معنى الكلام قَولان : أحدهما أنَّه فَلَقَ الحَبَّةَ عَن السُّنبلة ، والنَّوَاة عن النَّخلة . روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن والسُّدي وابن زيد. والثاني أنه الشِّقان اللذان في الحَب والنَّوى ، قاله مجاهد وأبو مالك . قال ابن السائب : الحَب ما لَم يكن له نَوى كالبُر والشَّعير ، والنَّوى مِثل نَوى التَّمر)) .

وعن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : كان رسولُ اللَّهُ ﷺ يأمرنا إذا أخذَ أحَدُنا مَضْجَعَه أن يَقول : ((اللهُمَّ رَبَّ السماوات ورَبَّ الأرضِين ، ورَبَّنا ، ورَبَّ كُل شَيء ، وفالقَ الحَبِّ والنَّوى ، ...)) [١٤٢].

عِبارة " فالق الحَب والنَّوى " إشارة إلى رِزق اللَّه ، الذي هو غِذاء الأجسام ، فالحَب يُستعمَل في الطَّعام ، والنَّوى في التَّمر .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ٢٤٣) عن تخصيص " فالق الحَب والنوى " بعد التعميم : ((والتخصيص لفضلها ، أو لكثرة وُجودها في ديار العرب . يعني: يا مَن شَقَّهُما فأخرجَ مِنهما الزَّرْعَ والنخيلَ)) .

يُخرِج اللَّهُ النَّباتَ الطَّرِيَّ مِن الحَب اليابس ، ويُخرِج الحَبَّ اليابسَ مِن النَّبات الطَّرِيِّ .الذي يَفعل هذا الأمرَ البديع هو اللَّه وَحْدَه لا شريك له . فكيفَ تُصرَفون عن الحق بعد هذا البَيَان الواضح ؟، وكيف تُعرِضون عن الإيمان بعد قِيام البُرهان ؟ ، وكيف تُشرِكون باللَّه ، معَ أنَّ دلائل وَحدانيته وقُدرته واضحة أمامكم والحُجَّة قائمة عليكم ولا عُذر لكم ؟ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢١٣) : ((﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ﴾ ، أي : يُخرِج النَّباتَ الحَيَّ مِن الحَب والنَّوى الذي هو كالجَمَاد المَيِّت . ... . وقَوله : ﴿ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ﴾ مَعطوف على ﴿ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى ﴾ ، ثُمَّ فسَّره ثُمَّ عَطَفَ عَلَيه قَوْلَه : ﴿ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ﴾ . وقد عبَّروا عن هذا وهذا بعبارات كُلِّها مُتقاربة مُؤدِّية للمَعنى ، فَمِن قائل: يُخرِج الدَّجاجةَ مِن البَيضة ، وعَكْسه . ومِن قائل : يُخرِج الوَلَدَ الصالحَ مِن الفاجر ، وعَكْسه ، وغَير ذلك مِن العبارات التي تنتظمها الآية وتَشمَلها)) .

---

١٤٢ رواه التِّرمذي في سُننه (٥/ ٤٧٢) برقم (٣٤٠٠) ، وقال : حسن صحيح .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [الرَّعْد : ٣] .

جَعَلَ اللَّهُ في الأرض مِن جميع أنواع الثَّمَرَات زَوْجَيْن اثنَيْن، ذَكَرًا وأُنثى، لتتم عملية الإخصاب والتكاثر بينهما وَفْقَ السُّنة الإلهية الحكيمة [١٤٣]. أو : صِنْفَيْن اثنَيْن : أبيض وأسود، صغيرًا وكبيرًا ، حارًّا وباردًا ، حُلْوًا وحامضًا ، عَذبًا ومَالِحًا ... إلخ .

ومعنى : ﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي : نَوْعَيْن . والزَّوجُ الواحدُ الذي له قريب مِن جِنْسِه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٥٧) : ((وأجرى فيها الأنهارَ والجداول والعُيون ، لِيَسْقِيَ ما جعل فيها مِن الثَّمَرات المُختلفة الألوان والأشكال والطُّعُوم والروائح . ﴿ وَمِن كُلِّ الثمراتِ جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي : مِن كُل شكل صِنفان)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ [الحِجْر : ١٩] .

أنبتَ اللَّهُ في الأرض مِن الزُّروع والثِّمَار مِن كُل شيء مُقَدَّر مَعلوم ، وَفق حِكمة اللَّه وتقديره .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٨٠) : ((﴿ وأنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ ، أي: أنبَتْنا في الأرض مِن كُل شيء مُقدَّر مَعلوم،فَعَبَّرَ عن ذلك بالوَزْن، لأنَّه مِقدار تُعرَف به الأشياء... . وقِيل : مَعنى ﴿ مَوْزُونٍ ﴾ مَقسوم . وقِيل : مَعدود ، والمَقصود مِن الإنبات الإنشاء والإيجاد ... . وقِيل : مَوزون بمِيزان الحِكمة ، ومُقَدَّر بقَدْر الحَاجَة . وقِيل : المَوزون هو المَحكوم بحُسْنه ، كما يُقَال : كلام مَوزون ، أي : حَسَن)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْوَاجًا مِن نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ [طه : ٥٣].

أنعمَ اللَّهُ على خَلْقه ، وذكَّرهم بِنَعمه الجليلة ، فقد أنزلَ اللَّهُ لهم مِن السَّحاب مَطَرًا عَذبًا ، وأخرجَ بالمطر الذي أنزله مِنَ السَّحَاب أنواعَ النباتات المُختلفة في الشَّكْل والمَنظر والطَّعْم والرائحة.والالتفات مِن الغَيبة إلى المُتكلِّم تنبيهًا على عَظَمَة اللَّه، وقُدرته المُطْلَقَة، وحِكمته البالغة.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٥):((﴿ فأخْرَجْنا بِهِ ﴾ عَدَلَ بِه عَن لفظ الغَيبة إلى صِيغة التكلُّم على الحِكاية لكلام اللَّه تعالى ، تنبيهًا على ظُهور ما فيه مِن الدَّلالة على كَمَال القُدرة

---

١٤٣ قال سيد قطب في الظِّلال (٥/ ٧٢): ((هذه حقيقة لَم يعرفها البشر مِن طريق عِلْمهم وبحثهم إلا قريبًا ، وهي أنَّ كُل الأحياء تتألف مِن ذَكَر وأُنثى ، حتى النباتات التي كان مَظنونًا أن ليس مِن جِنْسها ذُكور تَبَيَّن أنها تَحمل في ذاتها الزَّوج الآخَر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مُجتمعة في زهرة أو مُتفرِّقة في العُود)) .

والحِكمة، وإيذانًا بأنه مُطاع تَنقاد الأشياء المُختلفة لمشيئته ... ﴿ أزواجًا ﴾ أصنافًا . سُمِّيَت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ﴿ مِن نباتٍ ﴾ بيان أو صِفة لِـ ﴿ أزواجًا ﴾ وكذلك ﴿ شَتَّى ﴾ .
ويُحتمَل أن يكون صِفة لِـ ﴿ نباتٍ ﴾ ، فإنه مِن حيث إنَّه مصدر في الأصل، يَستوي فيه الواحد والجَمْع، وهو جَمْعُ شَتِيتٍ كمريض ومرضى ، أي مُتفرِّقات في الصُّوَر والأغراض والمنافع ، يَصْلُح بعضها للناس ، وبعضها للبهائم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَتَرَى الأرضَ هَامِدَةً فإذا أنزَلْنا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وأنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحَج : ٥] .

وتَرى الأرضَ مَيتةً يابسةً جافَّةً ، لا نبات فيها ولا زَرْع ، فإذا أنزلَ اللَّهُ عليها المطرَ ، تحرَّكت بالنَّبات ، وانتفخت ، وارتفعت ، وعادت إلى الحياة بَعد مَوتها ، وأخرجتْ مِن كُل صِنف عجيب ، ونَوع حَسَن ، يَسُرُّ الناظرَ بجَمَاله ورَوعته وبهائه .

وفي هذه الآية ، يُقَدِّم اللَّهُ دَليلًا مَحسوسًا على البَعْث . وقدا احتجَّ سُبحانَه بإحياء الأرض المَيتة بإنزال المطر ، على إحياء الأموات مِن قُبورهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٧٧) : ((وقَوله : ﴿ وَتَرَى الأرضَ هَامِدَةً ﴾ ، هذا دليل آخَر على قُدرته تعالى على إحياء المَوتى ، كَما يُحْيي الأرضَ المَيتة الهامدة ، وهي المُقحَلة التي لا يَنبُت فيها شيء . وقال قَتادة : غَبراء مُتهشِّمة . وقال السُّدي : مَيتة ﴿ فإذا أنزَلْنا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وأنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ، أي: فإذا أنزلَ اللَّهُ عَلَيها المطرَ اهتزَّت ، أي: تحرَّكت بالنَّبات، وحَيِيَتْ بَعد مَوتها، وَرَبَتْ، أي: ارتفعت لَمَّا سَكَنَ فيها الثَّرى، ثُمَّ أنبتت ما فِيها مِن الألوان والفُنون مِن ثِمار وزُروع وأشتات النَّبات في اختلاف ألوانها وطُعومه وروائحها وأشكالها ومَنافعها، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ، أي: حَسَن المَنظَر ، طَيِّب الرِّيح)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ أوَلَمْ يَرَوْا إلى الأرضِ كَمْ أنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشُّعَراء : ٧].

الاستفهامُ للتَّوبيخ والتَّقريع لتركهم الاعتبار والاتِّعاظ .

أوَلَم يَنظُروا إلى الأرض ، كَم أخرجَ اللَّهُ فيها بعد أن كانت مَيتة لا نبات فيها ولا زَرْع ، مِن كُل صِنف حَسَن ، ونَوع رائع ، ولَون جميل ، وجِنس محمود ، مِن النَّبات ، مِمَّا يأكل الناسُ والأنعامُ .

وهذا النَّبات مُشتمل على فوائد عديدة ، ومنافع كثيرة ، وتحتاج إلَيه الخلائق لاستمرار حياتها .

وهذا دليل واضح على وَحدانية اللَّه وكمال قُدرته ، وأنَّه وَحْدَه الإله المُستحق للعِبادة . والقادرُ على إخراج النبات من الأرض المَيتة ، قادر على إخراج الأموات من قبورهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٣٧) : ((ذَكَرَ سُبحانَه ما يدلُّ على كَمال قُدرته مِن الأمور الحِسِّية التي يَحصُل بها للمُتأمِّل فيها ، والناظر إليها ، والمُستدل بها أعظم دليل ، وأوضح بُرهان ، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الأرضِ كَمْ أنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ، الهَمزة للتَّوبيخ ، والواو للعَطْف على مُقدَّر ، كما في نظائره ، فنبَّه سُبحانَه على عَظَمَته وقُدرته ، وأن هؤلاء المُكذِّبين المُستهزئين لَوْ نَظروا حَقَّ النَّظَر لَعَلِمُوا أنَّه سُبحانَه الذي يَستحق أن يُعبَد . والمُراد بالزَّوج هُنا الصِّنف . وقال الفَرَّاء : هو اللون . وقال الزَّجاج : مَعنى زَوج : نَوع ، وكريم : محمود . والمعنى : مِن كُل زَوج نافع لا يَقْدِر على إنباته إلا رَبُّ العَالَمِين . والكريم في الأصل : الحَسَن الشَّريف . يُقَال : نخلة كريمة : أي كثيرة الثَّمَرة ، ورَجل كريم : شريف فاضل ، وكتاب كريم : إذا كان مَرْضِيًّا في مَعَانيه . والنَّبات الكريم هو المَرْضِيُّ في مَنَافعه . قال الشَّعبي : النَّاس مِثل نبات الأرض ، فَمَن صار مِنهم إلى الجَنَّة فهو كريم ، ومَن صار مِنهم إلى النار فهو لئيم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأنزلَ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فأنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُم أن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ [النَّمْل : ٦٠] .

يُقدِّم اللَّهُ دليلًا على وَحدانيته وكمال قُدرته . لقد أنزلَ اللَّهُ لأجلكم بِقُدرته مِنَ السَّحَاب مَطَرًا وجَعله رِزْقًا للعباد ، فأنبتَ بالمطر البساتين ذات المنظر الحَسَن والشكل الجميل .

والحدائقُ جَمْع حديقة، وهي البُستان الذي عليه حائط ، فإن لَم يكن عليه حائط فهو البُستان وليس حديقة . وسُمِّيَت الحديقة بهذا الاسم لأنه يُحْدَق عليها ، أي يُحْظَر . والبَهجةُ هي الحُسْن الذي يبتهج بِه مَن رآه . والتَّنَوُّع في أشكال الحدائق وألوانها وطبيعتها يدل على وَحدانية اللَّه .

وَصَرْفُ الكلام مِنَ الغَيبة ﴿ أنزلَ ﴾ إلى التكلُّم ﴿ فأنبَتْنا ﴾ لتخصيص الفِعل بذات اللَّه تعالى، وكَوْنه وَحْدَه هو القادر على إنبات الحدائق ذات الجَمَال والخُضرة والحُسْن والبَهجة ، والمُختلفة في الأشكال والألوان والرَّوائح والطُّعوم، بماء واحد.وهنا تتَّضح قُدرة اللَّه المُطْلَقَة وإبداعه في خَلْقه.

وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٢٧٣) : ((﴿ وأنزلَ لكم ﴾ لأجلكم ﴿ مِنَ السماءِ ماءً فأنبَتْنا بِهِ حدائقَ ذَاتَ بَهجةٍ ﴾ عَدَلَ به مِن الغَيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفِعل بذاته، والتنبيه على أنَّ إنبات الحدائق البَهِيَّة ، المُختلفة الأنواع ، المُتباعدة الطِّباع ، مِن المواد المُتشابهة ، لا يَقْدِر عَلَيه غَيْرُه)) .

﴿ ما كانَ لكم أن تُنبتوا شَجَرَهَا ﴾ . هذه الآيةُ تُشير إلى عَجْز المخلوقات ، وطَلاقةِ القُدرة الإلهية. و﴿ ما ﴾ للنَّفْي، ومعناه الحَظْر التام والمَنع الكامل. ما يَنبغي للبشر ذلك لأنهم لا يَقْدِرُون

عليه. إنهم عاجزون عن إنبات شجرها فَضْلًا عَن ثَمَرها ، ولا يَستطيعون فِعل ذلك ، لأن ذلك إخراج الشَّيء مِن العَدَم إلى الوجود . واللَّهُ وَحْدَه هو القادر على ذلك ، لأنه الخالق القادر على الخَلْق والإيجاد والإبداع . وكُل ما سِوى اللَّه مخلوق عاجز لا يَستحق العبادة ، لعَجْزه عَن الخَلْق والإيجاد كالأصنام والأوثان . واللَّهُ وَحْدَه هو الإله المُستحق للعِبادة لِقُدرته على الخَلْق والإيجاد .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٩٠) : ((﴿ ما كانَ لكم أن تُنبتوا شَجَرَهَا ﴾ أي لَم تكونوا تَقْدِرُون على إنبات أشجارها ، وإنما يَقْدِر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك ، المُتفرِّد به دُون ما سِواه مِن الأصنام والأنداد ، كما يعترف به هؤلاء المشركون ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزُّخْرُف: ٨٧]. ﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ السماءِ ماءً فأحيا بِهِ الأرضَ مِن بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[العنكبوت : ٦٣] . أي هُم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك ، وَحْدَه لا شريك له ، ثُمَّ هُم يَعبدون معه غَيْرَه ، مِمَّا يعترفون أنه لا يَخْلُق ، ولا يَرزق . وإنما يستحق أن يُفْرَد بالعبادة مَن هو المُتفرِّد بالخَلْق والرِّزق)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿والأرضَ مَدَدْناها وأَلْقَيْنا فِيهَا رَوَاسِيَ وأنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[ق:٧].

إنَّ اللَّه بَسَطَ الأرضَ على وجه الماء ومَدَّها ووسَّعها ، وجعل فيها جبالًا ثابتةً راسيةً تَحفظ توازنها ، وتَمنعها مِن الاضطراب بأهلها ، فالأرضُ مُحاطة بالماء مِن كُل الجِهات ، وأنبتَ فيها مِن كُل نَوع مِن النَّبات ، جميل الشَّكل وحَسَن المَنظر ، يَسُرُّ الناظرين إلَيه . وقال النَّسَفي في تفسيره (٤/ ١٧٠) : ((﴿ والأرضَ مَدَدْناها ﴾ دَحَوْناها ﴿ وأَلْقَيْنا فِيها رَوَاسِيَ ﴾ جبالًا ثوابت لَوْلا هي لَمَالت ﴿ وأنبَتْنا فِيها مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صِنف ﴿ بَهِيج ﴾ يبتهج به لِحُسنه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ تَبْصِرَةً وذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب ﴾ [ق : ٨] .

فَعَلَ اللَّهُ ذلك تَبصيرًا للعِباد وتَنبيهًا وتَذكيرًا عن قُدرة اللَّه ودَلالةً عَلَيها ليُبصِّرهم ويُذكِّرهم به ، لكُل عبد راجع إلى اللَّه بالتَّوبة ، ومُطيع له ، ومُتفكِّر في بَديع صُنعه وكمال قُدرته .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٠٩) : ((قَوله : ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ ، يَقول : فَعَلْنا ذلك تَبْصِرَةً لكم أيها الناس يُبصِّركم بها قُدرةَ رَبِّكم على ما يشاء ، ﴿ وذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب ﴾ . يقول : وتذكيرًا مِن اللَّه عَظَمَتَه وسُلطانَه ، وتنبيهًا على وَحدانيته ، ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب ﴾ ، يقول : لكُل عَبْد رَجَعَ إلى الإيمان باللَّه ، والعمل بطاعته)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٠٢) : ((﴿ تَبْصِرَةً وذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب ﴾ ، هُمَا عِلَّتان لِمَا تَقَدَّمَ ، مُنتصبان بالفِعْل الأخير مِنها ، أو بمُقدَّر : أي فَعَلْنا ما فَعَلْنا للتَّبصير والتَّذكير ،

قاله الزَّجاج . وقال أبو حاتم : انتصبا على المَصدرية ، أي : جَعَلْنا ذلك تَبْصِرَةً وذِكرى . والمُنيب الرَّاجع إلى اللَّه بالتَّوبة ، المُتدبِّر في بديع صُنعه وعجائب مَخلوقاته . وفي سِياق هذه الآية تَذكير لمُنكِري البَعْث ، وإيقاظ لهم عَن سِنَة الغَفلة ، وبَيان لإمكان ذلك ، وعدم امتناعه ، فإنَّ القادر على مِثل هذه الأُمور يَقدِر عَلَيه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ونَزَّلْنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فأنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ ﴾ [ق: ٩].

ونزَّل اللَّهُ مِن السَّحَاب مَطَرًا كثيرَ المنافع والخَيرات والبَرَكَات ، يَنفع الناسَ في أُمورهم ، ويُفيدهم في شُؤونهم ، وفيه حياة كُل شيء ، فأخرجَ بهذا المطر البساتينَ الجميلة ، والأشجارَ المُثمرة ، وحَبَّ الزَّرْع المَحصود ، كالبُر والشعير وسائر الحُبوب التي تُحصَد ، ويُقتات مِنها .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٠٢) : ((﴿ونَزَّلْنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ ، أي : نَزَّلْنا مِن السَّحَاب ماءً كثير البَرَكَة ، لانتفاع الناس به في غالب أُمُورهم ، ﴿ فأنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ ﴾ ، أي: أنْبَتْنا بذلك الماء بساتين كثيرة ، ﴿ وَحَبَّ الحَصِيدِ ﴾ ، أي : ما يُقْتَات ويُحصَد مِن الحُبوب. والمعنى : وحَب الزَّرْع الحَصِيد . وخُص الحَب لأنَّه المَقصود، كذا قال البصريون.وقال الكوفيون : هو مِن باب إضافة الشَّيء إلى نَفْسه كمسجد الجامع ، حكاه الفَرَّاء . قال الضَّحاك : حَب الحَصيد البُر والشَّعير . وقِيل : كُل حَب يُحصَد ويُدَّخَر ويُقْتَات)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ [ق : ١٠] .

وأنبتَ اللَّهُ بالمطر الذي نزَّله مِن السَّحَاب شَجَرَ النَّخيل طَويلاتٍ مُستويات،لها ثَمَر مُتراكب ، بَعْضُه فوق بعض ، وسُمِّيَ بذلك لأنَّه يَطلُع .

وتَخصيص النَّخْل بالذِّكر لكثرة فوائدها ومنافعها ومنظرها المَهِيب الرائع .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٠٣) : ((﴿ والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ ، هو مَعطوف على ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ ، أي : وأنْبَتْنا به النَّخْلَ ، وتَخصيصها بالذِّكر مَعَ دُخولها في الجَنَّات للدَّلالة على فَضْلها على سائر الأشجار . وانتصاب ﴿ بَاسِقَاتٍ ﴾ على الحَال ، وهي حال مُقدَّرة، لأنَّها وقت الإنبات لَم تكن باسقة . قال مُجاهد وعِكرمة وقَتادة : الباسقات الطِّوَال . وقال سعيد ابن جُبَير : مُستويات . وقال الحَسَن وعِكرمة والفَرَّاء : موافير حوامل . ... . وجُملة ﴿ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ في مَحَل نَصْب على الحَال مِن ﴿ النَّخْلَ ﴾ . الطَّلْع هو أوَّل ما يَخرج مِن ثَمَر النَّخْل ، يُقَال : طَلَعَ الطَّلْعُ طُلُوعًا ، والنَّضيد المُتراكب الذي نُضِّدَ بعضه على بعض ، وذلك قبل أن ينفتح، فهو نَضِيد في أكمامه ، فإذا خَرَجَ مِن أكمامه فليسَ بنَضِيد)) .

وعن زِياد بن عِلاقة عن عَمِّه قُطْبَة بن مالك _ رضي اللَّهُ عنه _ قال : سمعتُ النبيَّ ﷺ يَقرأ في صَلاة الصُّبْح ق ، فلمَّا أتى على هذه الآية : ﴿ والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ ، قال قُطْبَة: فَجَعَلْتُ أقول له : ما بُسُوقُها ؟ ، فقال : ((طُولُها)) [١٤٤].

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ رِزْقًا للعِبَادِ وأحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كذلكَ الخُرُوجُ ﴾ [ق : ١١] .

أنبتَ اللَّهُ كُلَّ ذلك رِزْقًا للعِباد ، كَي يَنتفعوا به ، ويَستفيدوا مِنه ، وأحيا اللَّهُ بذلك المطر أرضًا جَافَّةً يابسةً ، لا ماء فيها ولا نبات ، فأنبتَ فيها الزَّرْعَ ، وأخرجَ مِنها الثِّمار . كما أحيا اللَّهُ هذه الأرضَ المَيتة ، كذلك يُحييكم بَعد مَوتكم ، ويُخرِجكم مِن قُبوركم ، للحِسَاب والجَزَاء .

وقد شبَّه اللَّهُ في الآية إحياءَ الأموات وإخراجهم مِن قُبورهم بإخراج النَّبات مِن الأرض المَيتة .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤١٠) : ((قَوله : ﴿ رِزْقًا للعِبَادِ ﴾ ، يقول : أنْبَتْنا بهذا الماء الذي أنزلناه مِن السماء هذه الجَنَّات والحَب والنَّخْل قُوتًا للعِباد ، بعضها غذاء ، وبعضها فاكهة ومَتَاعًا. وقَوله: ﴿ وأحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ ، يقول تعالى ذِكْرُه: وأحْيَيْنا بهذا الماء الذي أنزلناه من السماء بَلْدَةً مَيْتًا قد أجدبت وقَحِطَتْ ، فلا زَرْع فيها ولا نَبْت . وقَوله : ﴿ كذلكَ الخُرُوجُ ﴾ ، يَقول تعالى ذِكْرُه : كما أنْبَتْنا بهذا الماء هذه الأرضَ المَيتة فأحْيَيْناها به فأخرجنا نباتَها وزَرْعَها ، كذلك نُخرِجكم يوم القيامة أحياءً مِن قُبوركم مِن بَعد بلائكم فيها بما ينزل عليها من الماء)).

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٨٤): ((﴿ رِزْقًا للعِبَادِ ﴾ ، أي: للخَلْق ﴿ وأحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ ، وهي الأرض التي كانت هامدةً ، فلمَّا نزل الماءُ ، اهتزَّت ورَبَت وأنبتت مِن كُل زوج بهيج، مِن أزاهير وغَير ذلك ، مِمَّا يَحَار الطَّرْف في حُسنها ، وذلك بعدما كانت لا نبات بها ، فأصبحت تهتز خضراء . فهذا مِثال للبَعْث بَعد المَوت والهلاك ، كذلك يُحْيي اللَّهُ المَوتى ، وهذا المُشَاهَد مِن عَظيم قُدرته بالحِس أعظم مِمَّا أنكره الجاحدون للبَعْث)) .

١٥_ الزِّرَاعة

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أعْنَابٍ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إلى ثَمَرِهِ إذا أثمَرَ وَيَنْعِهِ إنَّ في ذَلِكُم لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾ [الأنعام : ٩٩] .

---

١٤٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٤) برقم (٣٧٢٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

واللَّهُ أنزلَ مِن السَّحَاب مَطَرًا ، فأخرجَ به كُلَّ صِنف مِن النَّبات (الحُبُوب والفواكه والثِّمار) ، وفي الآية ﴿ فَأَخْرَجْنا بِهِ ﴾ التفات مِن الغَيبة إلى التَّكَلُّم ، إظهارًا لعَظَمَة اللَّه وقُدرته ، وإبرازًا للعِناية الإلهية ، فأخرجَ اللَّهُ مِن النَّبات شيئًا أخضرَ ، يُخرِج اللَّهُ مِن الخَضِر حَبًّا مُتراكمًا بَعضه فوق بعض كسنابل الحِنطة ونَحْوها، وأخرجَ اللَّهُ مِن طَلْع النَّخْل (أوَّل ما يَخرُج ويَطلُع مِنها) عراجين قريبة مِن المُتناول، تَدَلَّتْ مِن الطَّلْع ، وأخرجَ اللَّهُ بالمطر بساتين مِن أعناب، وأخرجَ أيضًا بالمطر شجرَ الزَّيتون وشجرَ الرُّمَّان ، مُشْتَبِهًا في اللون ، ومُختلفًا في الطَّعْم ، انظُروا أيُّها الناس نَظَرَ استدلال واعتبار إلى ثَمَرِه أوَّل ما يَبدو ونُضْجِه(كَيفية انتقاله مِن حال إلى حال في اللون والرائحة والحَجْم)، إنَّ في خَلْق هذه الثِّمار المُتنوِّعة لَدَلالات واضحة على وَحدانية اللَّه وقُدرته ، لقَوم يُصدِّقون أنَّ الذي أخرجَ هذا النَّبات قادرٌ على إحياء المَوتى . وتَخصيص ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾ بالذِّكْر ، لأنهم المُنتفعون بالآيات ، المُستفيدون مِن المواعظ والحُجَج والبراهين ، بخِلاف الكافرين .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢١٤): ((قَوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي : بِقَدْر مُبَارَكًا ، ورِزقًا للعِباد ، وإحياءً وغِياثًا للخلائق ، رحمة مِن اللَّه بخَلْقه ، ﴿ فَأَخْرَجْنا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقَوله : ﴿ وَجَعَلْنا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ، ﴿ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ ، أي : زَرْعًا وشَجَرًا أخضر ، ثُمَّ بعد ذلك نَخلُق فيه الحَبَّ والثَّمَرَ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ ، أي : يَركب بعضُه بعضًا كالسَّنابل ونَحْوها ، ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ ، أي : جَمْع قِنْو ، وهي عُذُوق الرُّطَب ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ ، أي : قريبة مِن المُتناول ،كما قال عليُّ بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس : ﴿ قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ ، يَعني بالقِنْوَان الدَّانِيَة ، قِصار النَّخْل اللاصقة عُذُوقها بالأرض ، رواه ابن جرير . ... . وقَوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أعْنَابٍ ﴾ ، أي : ونُخرِج مِنه جَنَّاتٍ مِن أعناب، وهذان النَّوعان هُما أشرف الثِّمار عند أهل الحِجاز ، ورُبَّما كانا خِيار الثِّمار في الدُّنيا، كما امتنَّ اللَّهُ بِهما على عِباده في قَوله تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأعنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ ، وكان ذلك قَبل تَحريم الخَمْر، وقال: ﴿ وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِن نَخِيلٍ وأعنابٍ ﴾ . وقَوله تعالى : ﴿ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ ، قال قَتادة وغَيْرُه : مُتشابه في الوَرَق والشَّكل، قريب بعضه من بعض، ومُتخالف في الثِّمار شَكْلًا وطَعْمًا وطَبْعًا ، وقَوله تعالى: ﴿ انظُرُوا إلى ثَمَرِهِ إذا أثمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ ، أي : نُضجه ، قاله البَرَاء بن عازب وابن عباس والضَّحاك وعَطاء الخُرَاساني والسُّدي وقَتادة وغَيرهم ، أي : فَكِّرُوا في قُدرة خالقه مِن العَدَم إلى الوُجود ، بَعد أن كان حَطَبًا صار عِنَبًا ورُطَبًا ، وغَير ذلك مِمَّا خَلَقَ سُبحانَه وتعالى من الألوان والأشكال والطُّعُوم

والرَّوائح كقَوله تعالى : ﴿ وفي الأرضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أعنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلى بَعْضٍ في الأُكُلِ ﴾ الآية ، ولهذا قال ههنا : ﴿ إنَّ في ذَلِكُم ﴾ أيُّها الناس ﴿ لآياتٍ ﴾ ، أي : دَلالات على كَمال قُدرة خالق هذه الأشياء وحِكمته ورحمته ، ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾ ، أي : يُصدِّقون به ، ويتَّبعون رُسُلَه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إذا أثمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِين ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

الآيةُ تدلُّ على قُدرة اللَّه المُطْلَقَة ، وبديع صُنعه . أنعمَ اللَّهُ على عِباده بالنِّعَم الكثيرة المُتنوِّعة كَي يُوحِّدوه ويَشكروه ، فَخَلَقَ لهم بساتين مَبسوطات على الأرض كالبِطِّيخ ، ومَرفوعات على ساق كالنَّخْل . وتخصيص النَّخْل والزَّرع بالذِّكْر معَ أنَّهما داخلان في الجَنَّات ، لِمَا فيهما من الفوائد والمنافع والفضائل ، وخَلَقَ لهم شجرَ النَّخيل وأنواعَ الزَّرع المُختلفة في اللون والطَّعْم والرائحة والحجم ، والزَّيتونَ والرُّمَّانَ مُتشابهًا في اللون والشَّكل ، ومُختلفًا في الطَّعْم . كُلُوا مِن ثَمَر كُل واحد مِن ذلك قبل النُّضْج ، وأعْطُوا زكاته للمُستحقين يَوم الحَصَاد، ولا تُسرِفوا فَتُعْطُوا كُلَّه ، حتى لا يَبقى لعيالكم شيء ، إنَّ اللَّه لا يُحِبُّ المُتجاوزين لأوامره وحُدوده .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٣٤ و١٣٥ و١٣٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ، فيه أربعة أقوال: أحدها أنَّ المَعروشات ما انبسطَ على وجه الأرض فانتشرَ مِمَّا يُعرَّش ، كالكَرْم والقَرْع والبِطِّيخ ، وغَير معروشات : ما قام على ساق كالنَّخْل والزَّرْع وسائر الأشجار . والثاني أنَّ المَعروشات ما أنبته الناسُ ، وغَير مَعروشات : ما خَرَجَ في البَرَاري والجِبال مِن الثِّمار ، رُوِيَا عن ابن عباس . والثالث أنَّ المَعروشات ، وغَير المَعروشات: الكَرْم مِنه ما عُرِّشَ ومِنه ما لم يُعرَّش ، قاله الضَّحاك . والرابع أنَّ المَعروشات الكُرُوم التي قد عُرِّشَ عِنبها ، وغَير المَعروشات سائر الشَّجَر التي لا تُعرَّش ، قاله أبو عُبَيدة . والأُكُل: الثَّمَر . ... . قَوله تعالى : ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إذا أثمَرَ ﴾ ، هذا أمر إباحة . وقِيل : إنَّما قَدَّمَ الأكلَ ليَنهى عَن فِعل الجاهلية في زُروعهم مِن تحريم بَعضها . قَوله تعالى : ﴿ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ . ... . وفي المُراد بهذا الحَق قَولان : أحدهما أنَّه الزكاة ، رُوِيَ عن أنس بن مالك وابن عباس وسعيد ابن المُسيِّب والحَسَن وطاووس وجابر بن زَيد وابن الحنفية وقَتادة في آخرين،فعلى هذا الآية مُحكَمة . والثاني أنَّه حَق غَير الزكاة فُرِضَ يوم الحَصاد ، وهو إطعام مَن حَضَرَ ، وتَرْك ما سَقَطَ مِن الزَّرْع

والثَّمَر، قاله عطاء ومُجاهد . وهل نُسِخَ ذلك أم لا ؟ ، إنْ قُلنا إنَّه أمر وُجوب فهو منسوخ بالزكاة، وإنْ قُلنا إنه أمر استحباب فهو باقي الحُكم . فإن قِيل : هل يجب إيتاء الحَق يَوم الحَصاد ؟ ، فالجواب : إنْ قُلنا إنه إطعام مَن حَضَرَ مِن الفُقراء ، فذلك يكون يوم الحصاد ، وإنْ قُلنا إنه الزكاة فقد ذُكرت عنه ثلاثة أجوبة : أحدها أنَّ الأمر بالإيتاء مَحمول على النَّخيل ، لأنَّ صَدَقَتها تَجِب يَوم الحَصاد ، فأمَّا الزُّروع فالأمر بالإيتاء مِنها مَحمول على وجوب الإخراج ، إلا أنه لا يُمكن ذلك عِند الحَصاد ، فيُؤخَّر إلى زمان التَّنْقية ، ذَكَرَه بعضُ السَّلَف.والثاني أن اليوم ظرف للحق لا للإيتاء فكأنه قال : وآتوا حَقَّه الذي وَجَبَ يوم حصاده بعد التَّنقية . والثالث أنَّ فائدة ذِكْر الحَصَاد أنَّ الحَق لا يَجِب فيه بنَفْس خُروجه وبُلوغه ، إنَّما يجب يوم حُصوله في يد صاحبه ، وقد كان يجوز أن يُتوهَّم أن الحق يلزم بنَفْس نباته قبل قَطْعه ، فأفادت الآية أن الوجوب فِيما يَحصُل في اليد دُون ما يَتلَف ، ذَكَرَ الجوابَيْن القاضي أبو يعلى . وفي قَوله : ﴿ ولا تُسْرِفُوا ﴾ سِتَّة اقوال : أحدها أنَّه تجاوُز المَفروض في الزكاة إلى حَد يُجحِف به ، قاله أبو العالية وابن جُرَيج ، وروى أبو صالح عن ابن عباس أن ثابت بن قَيس بن شَمَّاس صَرَمَ (قَطَعَ) خمسمائة نخلة ثُمَّ قسمها في يوم واحد، فأمسى ولم يَترك لأهله شيئًا ، فَكَرِهَ اللَّهُ تعالى له ذلك ، فنزلت : ﴿ ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفين ﴾ . والثاني أنَّ الإسراف مَنْع الصَّدَقة الواجبة ، قاله سعيد بن المُسيِّب . والثالث أنَّه الإنفاق في المَعصية ، قاله مُجاهد والزُّهري . والرابع أنَّه إشراك الآلهة في الحَرْث والأنعام ، قاله عَطِيَّة العَوفي وابن السائب . والخامس أنَّه خِطاب للسُّلطان لئلا يأخذ فوق الواجب مِن الصَّدَقة ، قاله ابن زيد . والسادس أنَّه الإسراف في الأكل قبل أداء الزكاة ، قاله ابن بَحْر)) .

وقال البَيضاوي في تفسيره(١/٤٥٨):((﴿ وَهُوَ الذي أنشَأَ جَنَّاتٍ﴾ مِن الكُرُوم ﴿مَعْرُوشَاتٍ ﴾ مَرفوعات على ما يَحمِلها ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ مُلْقَيَات على وجه الأرض ، وقِيل : المَعروشات ما غَرَسَه الناسُ فعرَّشوه،وغَير مَعروشات ما نَبَتَ في البَرَاري والجِبال ﴿ والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ ثَمَرُه الذي يُؤكَل في الهَيئة والكَيفية . والضَّمير للزَّرع ، والباقي مَقيس عليه ، أو النَّخْل والزَّرْع داخل في حُكمه لكَونه مَعطوفًا عليه ، أو للجميع على تقدير أكل ذلك ، أو كُل واحد مِنهما ، ومُختلفًا حالًا مُقدَّرة ، لأنَّه لم يكن ذلك عند الإنشاء، ﴿ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ يَتشابه بعض أفرادهما في اللون والطَّعْم ، ولا يتشابه بعضُها ، ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ ﴾ مِن ثَمَر كُل واحد مِن ذلك ، ﴿ إذا أثمَرَ ﴾ وإنْ لَم يُدرِك ولَم يَينَع بَعْد ، وقِيل فائدته رُخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق اللَّه تعالى ، ﴿ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ يُريد به ما كان يُتصدَّق به يوم الحصاد ،

لا الزكاة المُقدَّرة ، لأنها فُرضت بالمدينة ، والآية مَكِّية . وقِيل : الزكاة ، والآية مدنية . والأمر بإيتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يُؤَخَّر عن وقت الأداء ، وليعلم أنَّ الوجوب بالإدراك لا بالتَّنقية . ... . ﴿ ولا تُسْرِفُوا ﴾ في التَّصَدُّق ، ﴿ إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِين ﴾ لا يَرتضي فِعْلَهم)).

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿وفي الأرضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أعنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلى بَعْضٍ في الأُكُلِ إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ [الرَّعْد : ٤] .

وفي الأرضِ بِقَاعٌ مختلفة مَعَ كَوْنها مُتقارِبة ومُتلاصِقة ، يَقْرب بعضُها من بعض مِن الناحية الجغرافية ، لكنها مختلفة مِن حيث طبيعة تكوينها، وفُضِّلَت إحداهما على الأُخرى . فمنها قِطعة سَبْخة مالحة لا تُنبِت شَيْئًا، وفي جوارها قطعة عَذبة طَيِّبة تُنبِت وتنفع. وهذه القِطَعُ مشتركة في الطبيعة المكانية الجغرافية لكنها مُختلفة في طبيعة التكوين ، وهذا يدل على وجود خالق حكيم مُسيطِر عليها، وله حِكمة في أفعاله على وجه دُون وجه ، والأمر ليس عَبَثِيًّا ولا صُدفة ، وإنما هو من دلائل قُدرة اللَّه تعالى . والعِبرة في هذا الأمر أن في الأرض قِطَعًا مُتجاورات ذات طبيعة جُغرافية واحدة ، مِن تُربة واحدة ونَوع واحد ، لكنها مُختلفة مِن حيث المُلوحة والعُذوبة ، وقِلَّة الرَّيْع وكثرة الرَّيْع . وهذا الأمر يدل على قُدرة اللَّه المُطْلَقَة وحِكمته البالغة [١٤٥].

---

١٤٥ قال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٢٦٥) : ((قال الحسن : هذا مَثَل ضَرَبَه اللَّهُ لقلوب بني آدم . الأرض واحدة ، ويَنْزل عليها ماء واحد من السماء ، فَتُخْرِج هذه زهرة وثمرة ، وتُخْرِج هذه سَبْخة ومِلحًا وخَبَثًا، وكذلك الناس خُلِقوا مِن آدم، فَنَزلت عليهم من السماء تذكرة، فَرَقَّت قلوب ، وخَشَعَت وقَسَت قلوب وَلَهَت . قال الحسن : فواللَّهِ ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ ورحمةٌ للمُؤمنينَ ولا يَزيدُ الظالمينَ إلا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢])) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٣٩): ((الأُولَى: قَوله تعالى: ﴿ وفي الأرضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ في الكلام حذف المعنى : وفي الأرض قِطَع مُتجاورات وغَير مُتجاورات ... ثُمَّ حُذِف لِعِلْم السامع . والمتجاورات المدن وما كان عامرًا،وغير متجاورات الصَّحارى وما كان غير عامر. الثانية: قَوله تعالى : ﴿ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أي قُرى مُتدانِيات ، ترابها واحد ، وماؤها واحد ، وفيها زروع وجَنَّات ، ثُمَّ تتفاوت في الثمار ، فيكون البعض حُلْوًا ، والبعض حامضًا ، والغُصن الواحد من الشجرة قد يَختلف الثمر فيه مِن الصِّغر والكِبَر واللون والمطعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد.وفي هذا أدل دليل على=

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٥٧) : ((وقَوْله : ﴿ وفي الأرضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أي : أراضٍ يُجَاوِر بعضُها بَعْضًا ، مَعَ أن هذه طَيِّبة تُنبِت ما يَنفع الناس ، وهذه سَبْخة مالحة لا تُنبِت شَيْئًا . هكذا رُوِيَ عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبَير والضَّحاك وغَير واحد. ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بِقاع الأرض، فهذه تربة حمراء وهذه بيضاء وهذه صفراء وهذه سوداء وهذه مُحجَّرة وهذه سهلة وهذه مُرمَّلة وهذه سميكة وهذه رقيقة، والكُل متجاورات، فهذه بصفتها وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كُله مِمَّا يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ، ولا رَب سِواه)) اهـ .

﴿ وجَنَّاتٌ مِن أعنابٍ ﴾ . وبساتين كثيرة مِن أشجار العنب . ﴿ وزَرْعٌ ونخيلٌ صِنوانٌ وغَيْرُ صِنوانٍ ﴾ . وفي هذه القِطَع المتجاورات أنواع الزُّروع والأشجار والحبوب والنخيل ، مِنها ما يكون مِن أصل واحد مُجتمِع (صِنوان) ، ومِنها مُتفرِّقات مُختلفات الأصول (غَير صِنوان) . والصِّنْوُ من النبات إذا تشابه الشجر، وطلعت اثنتان أو أكثر من أصل واحد ، فالصِّنوان هي النخلات المجتمعة في أصل واحد ، وغَير الصِّنوان هي النخلات المُتفرِّقة ، وكل منها منفردة بأصل ، وكذلك الزروع .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٥٧) : ((وقَوله : ﴿ صِنوانٌ وغَيْرُ صِنوانٍ ﴾ . الصِّنوان : هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرُّمان والتين وبعض النخيل ونَحْو ذلك ، وغير الصِّنوان :

=وَحدانيته وعِظَم صَمَدِيَّتِه،والإرشاد لمن ضَل عن معرفته،فإنه نَبَّه سُبحانَه بِقَوله: ﴿ يُسقَى بماءٍ واحدٍ ﴾ على أن ذلك كُلَّه ليس إلا بِمَشيئته وإرادته،وأنه مَقدور بِقُدرته،وهذا أدل دليل على بُطلان القول بالطَّبْع ، إذْ لَوْ كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لَمَا وقع الاختلاف. وقيل: وَجْه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البِقاع، فمِن تُربة عذبة ومِن تُربة سَبْخة مع تجاورهما ، وهذا أيضًا مِن دَلالات كمال قُدرته جَلَّ وعَزَّ،تعالى عَمَّا يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرًا . الثالثة: ذهبت الكَفَرة ــ لعنهم اللَّهُ ــ إلى أن كُل حادث يَحدث بِنَفْسه لا مِن صانع ، وادَّعَوْا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار،وقد أقَرُّوا بِحُدوثها، وأنكروا مُحْدِثَها،وأنكروا الأعراض، وقالت فرقة بِحُدوث الثمار لا مِن صانع ، وأثبتوا للأعراض فاعلًا. والدليل على أن الحادث لا بُد له مِن مُحْدِث أنه يَحْدُث في وقت ، ويَحْدُث ما هو مِن جِنسه في وقت آخَر ، فلو كان حُدوثه في وقته لاختصاصه به ، لَوَجَبَ أن يَحدث في وقته كُل ما هو مِن جِنسه ، وإذْ بَطَلَ اختصاصه بوقته صَحَّ أن اختصاصه به لأجل مُخَصِّص خَصَّصه به ، ولَوْلا تَخصيصه إيَّاه به ، لَم يكن حُدوثه في وقته أولى مِن حدوثه قبل ذلك أو بعده ، واستيفاء هذا في عِلْم الكلام)) .

ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار . ومِنه سُمِّيَ عَم الرَّجل صِنْو أبيه ... وقال سُفيان الثوري وشُعبة عن أبي إسحاق عن البراء رضي اللَّهُ عنه : الصِّنوان هي النخلات في أصل واحد ، وغَير الصِّنوان المُتفرِّقات . وقاله ابن عباس ومجاهد والضَّحاك وقَتادة)) .

﴿ يُسقَى بماءٍ واحدٍ ونُفضِّل بَعْضَها على بَعْضٍ في الأُكُلِ ﴾ .

الجميعُ يُسْقَى بِنَفْس الماء ، والتُّربة واحدة،ومع ذلك يختلف في النشأة والثمرة. فالثمرات والزروع مختلفة في الطُّعوم والمذاق والألوان والروائح والأشكال. وجميعها له مصدر واحد ذو طبيعة واحدة وهو الماء، ومَعَ هذا فهي مختلفة في كُل شَيء ، وهذا دليل واضح على وجود خالق حكيم ، فَاوَتَ بين الأشياء بِقُدرته ، وخَلَقَها كما يُريد وَفْقَ حِكمته . واختلافُها وتنوُّعها مع اتِّحاد الأصول والأسباب، لا يكون إلا بتخصيص واختيار قادر حكيم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/٣٠٣):((قال المُفسِّرون: الماء الواحد ماء المطر، والأُكُل الثمر، بعضه أكبر مِن بعض،وبعضه أفضل مِن بعض، وبعضه حامض، وبعضه حُلْو، إلى غَير ذلك. وفي هذا دليل على بُطلان قول الطبائعيين، لأنه لو كان حدوث الثمر على طَبْع الأرض والهواء والماء وَجَبَ أن يَتَّفق ما يَحدث لاتِّفاق ما أَوْجَبَ الحدوث،فلمَّا وقع الاختلاف دَل على مُدبِّر قادر)) .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٣١) : ((﴿ وجَنَّاتٌ مِن أعنابٍ وزَرْعٌ ونخيلٌ صِنوانٌ وغَيْرُ صِنوانٍ يُسقَى بماءٍ واحدٍ ونُفضِّل بَعْضَها على بَعْضٍ في الأُكُلِ ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُه : وفي الأرض مَعَ القِطَع المختلفات المعاني ، مِنها بالملوحة والعُذوبة، والخَبَث والطَّيب ، مَعَ تجاورها وتقارب بعضها مِن بعض ، بساتين من أعناب وزَرْع ونخيل ، أيضًا متقاربة في الخِلْقة ، مُختلفة في الطُّعوم والألوان ، مَعَ اجتماع جميعها على شُرْب واحد ، فَمِن طَيِّب طَعْمه مِنها ، حَسَن منظره ، طَيِّبة رائحته ، ومِن حامض طَعْمه ، ولا رائحة له)) .

﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ . إنَّ في ذلك لَدَلالات وعلامات لِمَن يَستعملون عقولَهم بالتفكر والتَّدَبُّر والتحليل والاستدلال والاستنباط. وفي ذلك رَد على القائلين بالطبيعة . ومَن استوعبَ هذه الآيات الباهرة ، وتَدَبَّرَ في خَلْقها ، سيصل إلى الإيمان بخالقها وصانعها ومُوجِدها ، ويَقتنع بأن العبادة لا تَنبغي إلا لِمَن يَقْدِر على فِعل هذا ، بلا شَريك ولا مُساعِد . والقادرُ على فِعل هذه الأشياء ، قُدرته مُطْلَقَة ، وإرادته نافذة في كُل شَيء . وهذا يعني أنه لن يَعْجَز عن بَعْث الناس مِن قبورهم .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٣١) : ((وقَوله : ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في مُخالَفة اللَّه عَزَّ وَجَلَّ بين هذه القِطَع مِن الأرض المتجاورات وثمار جَنَّاتها وزُروعها على ما وَصَفْنا وبَيَّنَّا لَدَليلًا واضحًا،وعِبرة لِقَوم يَعْقِلون اختلاف ذلك، أن الذي خَالَفَ بَيْنه على هذا النَّحْو، هو المُخَالِف بين خَلْقه فيما قَسَمَ لهم مِن هداية وضلال ، وتوفيق وخِذلان ، فَوَفَّقَ هذا وخذل هذا، وهدى ذا وأضل ذا ، ولو شاء لَسَوَّى بين جميعهم ، كما لو شاء سَوَّى بين جميع أُكُل ثمار الجنة التي تشرب شُرْبًا واحدًا، وتُسْقَى سَقْيًا واحدًا، وهي مُتفاضِلة في الأُكُل)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُون ﴾ [النَّحْل : ١٠] . أنزلَ اللَّهُ المطرَ بقُدرته مِن السَّحَاب ، وجَعَلَه عَذبًا زُلالًا ليَشرب مِنه الناسُ ، ولم يَجعله مِلْحًا أُجَاجًا، ويَنبُت بسببه الشَّجَرُ، ويَرعى الناسُ أنعامَهم في هذا الشَّجَر النابت مِن المطر . وهذا الغَوْثُ الإلهيُّ يجيء رحمةً بالعِباد ، فيُخرِجهم مِن الشِّدة إلى الرَّخاء ، ومِن الضِّيق إلى الفَرَج . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢١٦): ((لمَّا استدلَّ سُبحانَه على وُجوده وكَمال قُدرته وبَديع صَنعته بعجائب أحوال الحيوانات، أراد أن يَذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النَّبات، فقال: ﴿ هُوَ الذي أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي مِن جِهة السَّماء وهي السَّحَاب ﴿ ماءً ﴾ ، أي: نَوْعًا مِن أنواع الماء،وهو المطر ﴿ لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ يجوز أن يتعلَّق ﴿ لَكُم ﴾ بِـ ﴿ أنزلَ ﴾ أوْ هو خَبَر مُقدَّم،وشراب مُبتدأ مُؤخَّر،والجُملة صِفة لماء، ﴿ وَمِنْهُ﴾ في مَحَل نَصْب على الحال،والشَّراب اسم لِمَا يُشرَب كالطعام لِمَا يُطعَم،والمعنى:أنَّ الماء النازل مِن السَّماء قِسْمَان : قِسْم يَشربه الناس، ومِن جُملته ماء الآبار والعُيون،فإنَّه مِن المطر لقَوله: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ في الأرضِ ﴾ ، وقِسْم يَحصُل مِنه شَجَر تَرعاه المَوَاشي. قال الزَّجاج : كُل ما يَنبُت مِن الأرض فهو شَجَر، لأن التركيب يدل على الاختلاط، ومِنه تَشَاجَرَ القَوم إذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض ، ومعنى الاختلاط حاصل في العُشب والكَلأ وفِيما له سَاق. وقال ابن قُتَيبة:المُراد مِن الشَّجَر في الآية الكَلأ، وقِيل: الشَّجَر كُل ما له سَاق . ... . ﴿ فِيهِ تُسِيمُون ﴾ ، أي : في الشَّجَر تَرْعَوْنَ مَوَاشيكم ، يُقَال : سَامَت السَّائمة ، تَسُوم سَوْمًا ، رَعَتْ ، فهي سائمة ، وأسَمْتُها : أي أخرجتها إلى الرَّعْي، فأنا مُسِيم وهي مُسامة وسائمة ، وأصل السَّوْم : الإبعاد في المرعى . قال الزَّجاج : أُخِذَ مِن السُّومَة ، وهي : العَلامة ، لأنَّها تُؤَثِّر في الأرض علامات برَعْيها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ والزَّيْتُونَ والنَّخِيلَ والأعنابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ [النَّحْل : ١١] .

يُخْرِجُ اللَّهُ مِن الأرض بهذا المطر الذي أنزله مِن السَّحَاب الزَّرْعَ والزَّيتونَ والنَّخيلَ والأعنابَ ، ومِن كل الفواكه والثِّمار، أي إنَّه سُبحانَه يُخرِج بهذا الماء الواحد الثِّمارَ المُختلفة في اللون والطَّعْم والرائحة والشَّكل .

إنَّ في إنزال المطر وإخراج الثِّمار لَدَلالة واضحة على وَحدانية اللَّه وكمال قُدرته ، لقَوم يتدبَّرون ويتأمَّلون في صُنعه البديع فيؤمنون .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ اللَّه قال : ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ، ولَم يَقُلْ : كُل الثَّمَرَات ، لأنَّ كُل الثَّمَرَات لا تكون إلا في الجَنَّة ، وما أخرجه اللَّهُ مِن الأرض إنَّما هو للتَّذَكُّر والاعتبار والاتِّعاظ .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٥٦٧) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : يُنبِت لكم رَبُّكُم بالماء الذي أنزلَ لكم مِن السَّماء زَرْعَكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم ، ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ، يعني: مِن كُل الفَوَاكه غَير ذلك أرزاقًا لكم ، وأقواتًا وإدامًا وفاكهة ، نِعمةً مِنه عليكم بذلك وتَفَضُّلًا ، وحُجَّة على مَن كَفَرَ بِه مِنكُم ، ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيةً ﴾ ، يَقول جَلَّ ثناؤه: إنَّ في إخراج اللَّه بما يُنزل مِن السماء مِن ماء ما وَصَفَ لكم ﴿ لآيةً ﴾ ، يَقول: لَدَلالة واضحة وعَلامة بَيِّنة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ ، يَقول : لقَوم يَعتبرون مواعظَ اللَّه ، ويتفكَّرون في حُجَجه ، فيتذكرون ويُنيبون)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢١٧) : ((يُنبِت اللَّهُ لكم بذلك الماء الذي أنزله مِن السَّماء، وقدَّم الزَّرْعَ لأنَّه أصل الأغذية التي يعيش بها الناس، وأتبعه بالزَّيتون لكَوْنه فاكهة مِن وَجْه، وإدامًا مِن وَجه، لكَثرة ما فيه مِن الدُّهن، وهو جَمع زَيتونة، ويُقَال للشَّجرة نَفْسها: زَيتونة ، ثُمَّ ذَكَرَ النَّخيل لكَونه غِذاءً وفاكهة ، وهو مَعَ العنب أشرف الفواكه . وجَمْع الأعناب لاشتمالها على الأصناف المُختلفة، ثُمَّ أشار إلى سائر الثَّمَرَات فقال: ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ، ... ، ﴿ إنَّ في ذَلِكَ ﴾ ، أي: الإنزال والإنبات ﴿ لآيةً ﴾ عَظيمة دَالَّة على كَمَال القُدرة ، والتَّفَرُّد بالرُّبوبية ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ في مَخلوقات اللَّه ، ولا يُهمِلون النَّظَرَ في مَصنوعاته)) .

وقال أبو حَيَّان في البحر المُحيط (٥/ ٤٧٩) : ((خَتَمَ الآية بقَوله : ﴿ يَتَفَكَّرُون ﴾ ، لأن النَّظَر في ذلك يَحتاج إلى فَضْل تأمُّل ، واستعمال فِكر ، ألا ترى أنَّ الحَبَّة الواحدة إذا وُضعت في الأرض ومَرَّ عليها زَمَن مُعيَّن لَحِقَها مِن نَدَاوة الأرض ما تنتفخ به فيُشَق أعلاها ، فتَصعد مِنه شَجَرَة إلى الهَواء ، وأسفلها يَغوص مِنه في عُمق الأرض شجرةٌ أُخرى وهي العُرُوق ، ثُمَّ يَنمو الأعلى ويَقْوَى ، وتَخرُج الأوراق والأزهار ، والأكمام والثِّمار ، المُشتملة على أجسام مُختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع ، وذلك بتقدير قادر مُختار ، وهو اللَّه تعالى)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأعنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ [النَّحْل : ٦٧] .

ولكم مِمَّا أنعمَ اللَّهُ به عليكم مِن ثَمَرَات النَّخيل والأعناب ما تتَّخذون مِنه خَمْرًا يُسكِر ، وهذا قبل تحريمها ، ورِزْقًا طَيِّبًا ، وهو ما أحلَّ مِنهما ، كالتَّمْر والزَّبيب والخَل والدِّبْس ، إنَّ في ذلك لَدَلالة واضحة على وَحدانية اللَّه وقُدرته وحِكمته ، لقَوم يَستعملون عُقولَهم في تدبُّر الآيات والحُجَج والبراهين ، والتَّأمُّل في بَديع صُنع اللَّه ، ومَظاهرِ قُدرته .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٥٨) : ((... ، ثَنَّى بذِكْر ما يتَّخذه الناس مِن الأشربة مِن ثَمَرَات النَّخيل والأعناب، وما كانوا يَصنعون مِن النَّبيذ المُسكِر قَبل تَحريمه ، ولهذا امتنَّ به عليهم فقال: ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأعنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ ، دَلَّ على إباحته شَرْعًا قبل تحريمه، ودَلَّ على التَّسوية بَين المُسكِر المُتَّخَذ مِن النَّخْل ، والمُتَّخَذ مِن العِنَب ، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجُمهور العلماء ، وكذا حُكم سائر الأشربة المُتَّخَذة مِن الحِنطة والشَّعير والذُّرَة والعَسَل ، كما جاءت السُّنَّة بتفصيل ذلك ، وليس هذا مَوضع بَسْط ذلك ، كما قال ابن عباس في قَوله: ﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ ، السَّكَر ما حُرِّمَ مِن ثَمَرَتَيْهِما، والرِّزق الحَسَن ما أُحِلَّ مِن ثَمَرَتَيْهِما، وفي رواية : السَّكَرُ حَرَامُه، والرِّزقُ الحَسَنُ حَلالُه،يعني: ما يَبِسَ مِنهما مِن تَمْر وزَبيب، وما عُمِلَ مِنهما مِن طِلاء وهو الدِّبْس ، وخَل ونبيذ حَلال ، يُشرَب قَبل أن يَشتد ، كما وَردت السُّنَّة بذلك ، ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ ، ناسَب ذِكر العَقْل هَهُنا ، فإنَّه أشرف ما في الإنسان ، ولهذا حرَّم اللَّهُ على هذه الأُمَّة الأشربةَ المُسكِرة صِيانةً لعُقولها)) .

وعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ : أنَّه سُئل عن هذه الآية : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ ، قال : ((السَّكَرُ ما حُرِّمَ مِن ثَمَرها ، والرِّزقُ الحَسَنُ ما حَلَّ مِن ثَمَرها)) [١٤٦].

السَّكَرُ : الخَمْرُ نَفْسُها قبل تحريمها ، والرِّزقُ الحَسَنُ: التَّمْرُ والزَّبيب وما أشبَهَهُمَا .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿وأنزَلْنا مِنَ السَّمَاءِ ماءً بِقَدَرٍ فأسْكَنَّاهُ في الأرضِ وإنَّا عَلى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُون﴾ [المؤمنون : ١٨] .

يُذكِّر اللَّهُ الناسَ بنِعمته عليهم، ويَمُنُّ عليهم بإنزال المطر الذي فيه حياة الناس،ونُمُوُّ الأشجار، ونَمَاء الحَيَوانات .

---

١٤٦ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٧) برقم (٣٣٥٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

أنزلَ اللَّهُ مِن السَّحَاب مَطَرًا بمِقدار مُحدَّد مُعيَّن عِنده، حَسَب حاجة الناس،يَكفيهم للمَعيشة، لا كثيرًا يُغرِق الناسَ ويُفْسِد الأرض ، ولا قليلًا بحَيث لا يَكفي الزُّروعَ والثِّمار ، فَجَعَلَ اللَّهُ المطرَ في الأرض ثابتًا مُستقرًّا ، كَي يَستفيد مِنه الناسُ ، ويَنتفعون به وقت حاجتهم إلَيه ، كالماء الذي يَبقى في الينابيع والمُستنقعات ونَحْوها . وكما قَدَرَ اللَّهُ على إنزال المطر ، فهو قادر على إزالته وإذهابه بالتَّغوير في الأرض ، فيموت الناسُ عَطَشًا ، وتجف أراضيهم فلا تُنبِت زَرْعًا ، ولا تُخرِج ثَمَرًا ، وتَهلِك أنعامُهم ومَوَاشيهم . وهذا وعيد أكيد وتهديد شديد لهم .

وتنكيرُ ﴿ ذَهَابٍ ﴾ يُشير إلى كَثرة طُرُقه ، ومُبالَغة في الوعيد والتَّخويف .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٢٥) : ((يَذكر تعالى نِعَمَه على عبيده التي لا تُعَد ، ولا تُحصَى ، في إنزاله القَطْر (المطر) مِن السَّماء بِقَدَر ، أي: بِحَسَب الحاجة ، لا كثيرًا فيُفسِد الأرضَ والعُمران ، ولا قليلًا فلا يَكفي الزُّروعَ والثِّمارَ ، بَل بِقَدْر الحاجة إليه مِن السَّقْي والشُّرب والانتفاع به، حتى إنَّ الأراضي التي تحتاج ماء كثيرًا لزَرعها ، ولا تَحتمل دِمْنتها (مَوضعها) إنزال المطر عليها، يَسُوق إليها الماءَ مِن بلاد أُخرى ، كما في أرض مِصْر ، ويُقَال لها : الأرض الجُرُز (التي لا نبات فيها) ، يَسُوق اللَّهُ إليها ماءَ النِّيل معه طِين أحمر يَجترفه مِن بلاد الحَبَشَة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طِينًا أحمر ، فَيَسْقي أرضَ مِصْر ، ويُقِر الطِّينَ على أرضهم ليَزرعوا فيه، لأنَّ أرضهم سِبَاخ (مالحة) يَغلُب عليها الرِّمال، فسُبحانَ اللطيف الخبير الرحيم الغفور . وقَوله : ﴿ فأسْكَنَّاهُ في الأرضِ ﴾ ، أي : جَعَلْنا الماءَ إذا نزل مِن السَّحَاب يَخلُد في الأرض ، وجَعَلْنا في الأرض قابلية له ، تَشرَبه ، ويتغذَّى به ما فيها مِن الحَب والنَّوَى . وقَوله : ﴿ وإنَّا عَلى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُون﴾ ، أي: لَوْ شِئنا أن لا تُمطِر لَفَعَلْنا، وَلَوْ شِئنا لصرَّفناه عَنكم إلى السِّباخ والبَرَاري والقِفَار لَفَعَلْنا، وَلَوْ شِئنا لَجَعَلْناه أُجَاجًا لا يُنْتَفَع به لشُرب ولا لِسَقْي لَفَعَلْنا، وَلَوْ شِئنا لَجَعَلْناه لا يَنزِل في الأرض بَل يَنجر على وَجْهها لَفَعَلْنا ، وَلَوْ شِئنا لَجَعَلْناه إذا نَزَلَ فيها يَغُور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لَفَعَلْنا ، ولكن بلُطفه ورحمته يُنزِل عليكم الماءَ مِن السَّحَاب عَذبًا فُرَاتًا زُلالًا ، فيُسكِنه في الأرض، ويَسلُكه ينابيع في الأرض، فيَفتح العُيُون والأنهار، ويَسْقي به الزُّروعَ والثِّمارَ، وتَشرَبون مِنه ودوابكم وأنعامكم ، وتغتسلون مِنه ، وتتطهرون مِنه وتتنظفون، فله الحَمْد والمِنَّة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فأنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِن نَخِيلٍ وأعنابٍ لَكُم فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأكُلُون ﴾ [المؤمنون : ١٩]. فأخرجَ اللَّهُ لكم بالمطر بساتينَ مِن نخيل وأعناب . وتَخصيصهما بالذِّكر لكثرة منافعهما ، وتشريفًا لهما، وتنبيهًا عليهما ، وهُما أكثر فواكه العرب .

لكم في هذه البساتين مِن جميع أنواع الفواكه والثِّمار ، تتفكَّهون بهما ، ومِن ثِمار الجَنَّات تأكلون صَيفًا وشِتاءً ، وتُحصِّلون معايشَكم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٨٤): ((بَيَّنَ سُبحانَه ما يَتسبَّب عن إنزال الماء ، فقال: ﴿ فأنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِن نَخِيلٍ وأعنابٍ ﴾ ، أي : أَوْجَدْنا بذلك الماء جَنَّاتٍ مِن النَّوْعَيْن المَذكُورَيْن ، ﴿ لَكُم فِيهَا ﴾ ، أي : في هذه الجَنَّات ﴿ فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ تتفكَّهون بها ، وتتطمعون مِنها. وقِيل: المعنى: ومِن هذه الجَنَّات وُجوه أرزاقكم ومَعَاشكم، كقَوله: فُلان يأكل مِن حِرْفة كذا، وهو بعيد ، واقتصرَ سُبحانَه على النَّخيل والأعناب ، لأنَّها المَوجودة بالطائف والمدينة وما يتَّصل بذلك، كذا قال ابن جرير، وقِيل: لأنها أشرف الأشجار ثمرةً ، وأطيبها منفعةً وطَعْمًا ولَذَّةً . قِيل: المَعنى بقَوله : ﴿ لَكُم فِيهَا فَوَاكِهُ ﴾ أنَّ لكم في هذه الجَنَّات فواكه مِن غَير العِنَب والنَّخيل . وقِيل : المعنى : لكم في هذين النَّوْعَيْن خاصَّة فواكه ، لأنَّ فيهما أنواعًا مُختلفة مُتفاوتة في الطَّعْم واللون. وقد اختلف أهل الفِقه في لَفْظ الفاكهة على ماذا يُطلَق ، اختلافًا كثيرًا ، وأحسن ما قِيل: إنها تُطلَق على الثَّمَرَات التي يأكلها الناس ، ولَيست بقُوت لهم ، ولا طعام ، ولا إدام . واخْتُلِفَ في البُقُول هل تدخل في الفاكهة أم لا ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بالدُّهْنِ وَصِبْغٍ للآكِلِين﴾[المؤمنون: ٢٠].

وأنشأ اللَّهُ لكم بالمطر أيضًا شجرةَ الزَّيتون ، التي أنبتها اللَّهُ في الأصل مِن جَبَل الطُّور ، وهو الجَبَل الذي كلَّم اللَّهُ عَلَيه مُوسى ﷺ . وتخصيص هذه الشَّجَرة بالذِّكْر لشرفها وفضلها وبَرَكتها وكثرة منافعها ، ولأنَّه لا يتعاهدها أحد بالسَّقْي والحَفْر. وقد ذَكَرَها اللَّهُ امتنانًا على عباده ، وتَذكيرًا لهم بنَعمته عليهم .

تُنبِت شَجَرَةُ الزَّيتون الدُّهْنَ ، وهو الزَّيت الذي له منافع عظيمة وفوائد جليلة ، ﴿ وَصِبْغٍ للآكِلِين ﴾ وإدام للآكلين . والصِّبْغُ هو الإدام الذي يُلوِّن الخُبْزَ إذا غُمِسَ فيه ، وهذا سبب تسميته بهذا الاسم . وقد تَفَضَّلَ اللَّهُ على عباده ومَنَّ عليهم بأن جَمَعَ في شجرة الزَّيتون المُبارَكة بين الدُّهْن الذي يُدهَن به ويُسرَج مِنه، وبين الإدام الذي يَصبغ اللقمةَ بغمسها فيه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٦٥ ـ ٤٦٨) : ((قَوله تعالى : ﴿وَشَجَرَةً ﴾ ، هي معطوفة على قَوله : ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ . ... . والمُراد بهذه الشَّجَرة شجرة الزَّيتون . فإن قِيل : لماذا خَصَّ هذه الشجرةَ مِن بَيْن الشَّجَر ؟. فالجواب مِن أربعة أوجه : أحدها لكثرة انتفاعهم بها ، فذكَّرهم مِن نِعَمه ما يَعرِفون ، وكذلك خَصَّ النخيلَ والأعنابَ في الآية الأُولَى لأنهما كانا جُلَّ ثِمار

الحِجَاز وما والاها ، وكانت النَّخيل لأهل المدينة ، والأعناب لأهل الطائف . والثاني لأنهم لا يكادون يتعاهدونها بالسَّقْي ، وهي تُخرِج الثمرةَ التي يكون منها الدُّهْن . والثالث أنها تَنبُت بالماء الذي هو ضِد النار ، وفي ثَمَرتها حياة للنار ومادة لها . والرابع لأنَّ أول زيتونة نَبَتَتْ بذلك المَكان فيما زَعَمَ مُقاتل . قَوله تعالى : ﴿ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ . ... . والطُّور: الجَبَل. وفي معنى (سَيناء) خمسة أقوال: أحدها أنه بمعنى الحَسَن، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وقال الضَّحاك: (الطُّور) الجبل بالسِّريانية، و(سَيناء) الحَسَن بالنَّبطية، وقال عطاء: يُريد الجبل الحَسَن. والثاني أنَّه المُبَارَك، رواه العَوفي عن ابن عباس . والثالث أنَّه اسم حِجارة بعَيْنها ، أُضِيف الجَبَل إلَيها لوُجودها عنده ، قاله مُجاهد . والرابع أنَّ طُور سَيناء: الجبل المُشجَّر ، قاله ابن السائب . والخامس أنَّ سَيناء اسم المكان الذي به هذا الجبل، قاله الزَّجاج. قال الواحدي : وهو أصح الأقوال . قال ابن زيد : وهذا هو الجَبَل الذي نُودِيَ مِنه مُوسى ، وهو بَين مِصْر وأَيْلَة . قَوله تعالى : ﴿ تَنبُتُ بالدُّهْنِ ﴾ . ... . قال [الزَّجاج] : تَنبُت ومعها دُهْن ، كما تقول : جاءني زَيد بالسَّيف ، أي: جاءني ومعه السَّيف . وقال أبو عُبَيدة: معنى الآية : تُنبِت الدُّهْنَ ، والباء زائدة . ... . قَوله تعالى: ﴿ وَصِبْغٍ ﴾ ... قال المُفسِّرون : والمُراد بالصِّبْغ هاهنا الزَّيْت ، لأنَّه يُلوِّن الخُبْزَ إذا غُمِسَ فيه ، والمُراد أنَّه إدام يُصبَغ به)) .

وعن أبي أَسِيد رضي اللَّهُ عنه: عن رسول اللَّه ﷺ قال : ((كُلوا الزَّيْتَ ، وادَّهِنُوا به ، فإنَّهُ مِن شَجَرَة مُبَارَكَة)) [١٤٧].

هذا الحديث يدلُّ على أهمية زَيت الزَّيتون لصِحَّة الإنسان، وضرورة دَهْن الشَّعْر به،وأنَّه يُمكن أن يُستخدَم كغذاء ودواء ، وأنَّ له فوائد عظيمة ، وأنَّ شَجَرَة الزَّيتون حَلَّتْ عليها البَرَكَة الإلهية .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٣) : (((كُلوا الزَّيْتَ) زَيْت الزَّيتون (وادَّهِنُوا بِه) مِن: ادَّهَنَ رأسَه ، على افتعلَ ، طَلاه بالدُّهْن ، وتَوَلَّى ذلك بنَفْسه . قال الزَّين العراقي : والمُراد بالادِّهان دَهْن الشَّعْر به، وقيَّده في رواية بدَهْن شَعْر الرأس ، وعادة العرب دَهْن شُعورهم لئلا تَشَعَّثَ ، لكن لا يُحمَل الأمر به على الإكثار منه، ولا على التقصير فيه، بل بحيث لا تَشَعَّثَ رأسُه فقط (فإنَّه) يَخرُج (مِن شَجَرة مُبَارَكة) لكَثرة ما فيها مِن القُوى النَّفَّاعة ، أو لأنها تَنبت بالأرض المُقدَّسة التي بُورِك فيها ، ويَلزَم مِن بَرَكَة هذه الشَّجَرَة بَرَكَة ما يَخرُج مِنها مِن الزَّيْت)) .

---

١٤٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٢) برقم (٣٥٠٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إلى الأرضِ الجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأكُلُ مِنْهُ أنْعَامُهُم وأنفُسُهُم أفَلا يُبْصِرُون ﴾ [السَّجْدة : ٢٧] .

أوَلَمْ يُشاهدوا كمالَ قُدرة اللَّه، حيث يَسُوق الماءَ (المطر) إلى الأرض اليابسة الجَدباء ، التي لا نبات فيها ، فيُخرِج بذلك الماء زَرْعًا أخضر، وثِمارًا مُتنوِّعة. تأكل مَوَاشيهم مِن العُشب والتِّبْن ، وهُم يَأكلون من الفواكه والحُبُوب، وتتغذَّى أجسامُهم ، فيعيشون ، ويُمارسون حياتهم بكل نشاط . أفلا يَرَوْنَ ذلك بأعينهم ، فيستدلون به على وَحدانية اللَّه وفَضْله وقُدرته المُطْلَقَة ، ويَعلَمون أن القادر على إحياء الأرض المَيتة ، قادر على إحياء المَوتى ، وإخراجهم مِن قُبورهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٦٦) : ((﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إلى الأرضِ الجُرُزِ ﴾ ، أي : أوَلَمْ يَعلَموا بسَوْقنا الماء إلى الأرض التي لا تُنبِت إلا بسَوق الماء إليها . وقِيل : هي اليابسة، وأصله مِن الجَرْز، وهو القَطْع، أي التي قُطع نباتها لعدم الماء، ولا يقال للتي لا تُنبِت أصْلًا كالسِّباخ جُرُز ، لقَوله : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ . قِيل : هي أرض اليمن ، وقِيل: أرض عَدَن . وقال الضَّحاك:هي الأرض العطشى ، وقال الفَرَّاء : هي الأرض التي لا نبات فيها. وقال الأصمعي: هي الأرض التي لا تُنبِت شيئًا . قال المُبَرِّد : يَبعُد أن تكون الأرض بعَيْنها لدخول الألف واللام. ... . ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ ﴾ ، أي : بالماء ﴿ زَرْعًا تَأكُلُ مِنْهُ أنْعَامُهُم ﴾ ، أي : مِن الزَّرْع كالتِّبْن والوَرَق ونَحْوهما مِمَّا لا يأكله الناس ﴿ وأنفُسُهُم ﴾ ، أي: يَأكلون الحُبُوبَ الخارجة في الزَّرْع مِمَّا يَقتاتونه. وجُملة ﴿ تَأكُلُ مِنْهُ أنْعَامُهُم ﴾ في مَحَل نَصْب على الحال ، ﴿ أفَلا يُبْصِرُون ﴾ هذه النِّعَمَ ويَشكرون المُنْعِمَ ، ويُوحِّدونه لكَوْنه المُنفرِد بإيجاد ذلك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إلى طَعَامِهِ ﴾ [عَبَسَ : ٢٤] .

فلينظُر هذا الكافرُ الجاحدُ نَظَرَ تفكُّر وتدبُّر واعتبار ، كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ طعامَه، وقدَّره ودبَّره له ، وجَعَلَه سببًا لحياته وبقائه ونشاطه. وقد ذَكَرَ اللَّهُ رِزْقَ الإنسان كي يَتَّعظ ويَعتبر بما أنعمَ اللَّهُ عَلَيه مِن النِّعَم العظيمة والآلاء الجليلة، فيشكر رَبَّه ، ويُطيعه ، ويَبتعد عن مَعصيته .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٤٢) : ((... ، ثُمَّ شَرَعَ سُبحانَه في تَعداد نِعَمه على عِباده ليَشكروها ، ويَنزجروا عَن كُفرانها بعد ذِكْر النِّعَم المُتعلِّقة بحُدوثه (حُدوث الإنسان) ، فقال: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إلى طَعَامِهِ ﴾ ، أي : يَنظُر كيف خَلَقَ اللَّهُ طعامَه الذي جعله سببًا لحياته؟ وكيف هيَّأ له أسباب المَعَاش يَستعد بها للسَّعادة الأُخْرَوِيَّة ؟ . قال مُجاهد : مَعناه: فلينظر الإنسانُ إلى طعامه ، أي إلى مَدخله ومَخرجه ، والأوَّل أَوْلَى)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَنَّا صَبَبْنا المَاءَ صَبًّا ﴾ [عَبَسَ : ٢٥] .

إنَّ اللَّه بقُدرته العظيمة أنزلَ المطرَ مِن السَّحَاب على الأرض إنزالًا باهرًا عجيبًا . والآيةُ تُبيِّن كيفيةَ إحداث الطَّعام .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٩/ ١١١) : ((﴿ أَنَّا صَبَبْنا المَاءَ صَبًّا ﴾ ، أي : الغَيْث ، بدل اشتمال مِن طَعَامه ، لأنَّ الماء سَبَب لحُدوث الطعام ، فهو مُشتمل عليه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ شَقَقْنا الأرضَ شَقًّا ﴾ [عَبَسَ : ٢٦] .

ثُمَّ شَقَّ اللَّهُ الأرضَ بإخراج النبات مِنها شَقًّا بديعًا عجيبًا . وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٥/ ٥٤٢) : ((﴿ ثُمَّ شَقَقْنا الأرضَ شَقًّا ﴾ ، أي : شَقَقْناها بالنَّبات الخارج مِنها بسبب نزول المطر شَقًّا بديعًا لائقًا بما يَخرُج مِنه في الصِّغَر والكِبَر والشَّكْل والهَيئة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فأنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ [عَبَسَ : ٢٧] .

فأخرجَ اللَّهُ بذلك المطر أنواعَ الحُبُوب المُختلفة ، كالقَمْح والشَّعير ، حَيث يَحصُدها الناسُ ، ويُتَغَذَّى بها ، ويَدَّخرونها . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٥٤٢) : ((ثُمَّ بَيَّنَ سبب هذا الشَّق وما وقع لأجله فقال : ﴿ فأنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ ، يَعني : الحُبُوب الذي يُتَغَذَّى بها . والمعنى : أنَّ النَّبات لا يَزال يَنمو ويتزايد إلى أن يَصير حَبًّا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ [عَبَسَ : ٢٨] .

وعِنَبًا لذيذًا، وقَضْبًا مُفيدًا، وهو القَتُّ الرَّطْب، سُمِّيَ بذلك لأنَّهُ يُقْضَب(يُقْطَع) في كُل الأيام.

وفي زاد المسير (٩/ ٣٣) : ((﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ . قال الفَرَّاء : هو الرَّطْبَة ، وأهل مَكَّة يُسَمُّون القَتَّ القَضْب.قال ابن قُتَيبة:ويُقَال إنَّه سُمِّيَ بذلك لأنه يُقْضَب مَرَّةً بَعد مَرَّةً،أي يُقْطَع)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ [عَبَسَ : ٢٩] .

وأخرجَ اللَّهُ مِن الأرض أشجارَ الزَّيتون والنَّخيل ، وفيهما فوائد كثيرة ، ومنافع مُتعدِّدة .

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٢٠/ ٢٠) : ((أي : وَأَخْرَجْنا كذلك أشجارَ الزَّيتون والنَّخيل ، يَخرُج مِنها الزَّيْت والرُّطَب والتَّمْر)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ [عَبَسَ: ٣٠]. وبساتين كثيرة الأشجار ، مُلتفة الأغصان.

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٣٨) : ((﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ ، غِلاظ الأشجار، واحدها أَغْلَب، ومِنه قِيل : لغليظ الرَّقَبة : أَغْلَب . وقال مُجاهد ومُقاتل : الغُلْب: الشَّجَر المُلتفة بعضها في بعض ، قال ابن عباس : طِوَالًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةً وأبًّا ﴾ [عَبَسَ : ٣١] .

وما يَأكله الناسُ مِن أنواع الفواكه وثِمار الأشجار ، وما تأكله البهائم مِن العُشب والنَّبات ، وقِيل : التِّبْن . وبشكل عام ، إنَّ الأبَّ هو الكَلأ والمَرعى الذي تأكله البهائم ، ولا يَزرعه الناس .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٣٨) : ((﴿ وَفَاكِهَةً ﴾ يُريد ألوان الفواكه ﴿ وأبًّا ﴾ ، يَعني : الكَلأ والمَرعَى الذي لَم يَزرعه الناسُ مِمَّا يَأكله الأنعامُ والدَّواب . قال عِكرمة : الفاكهة ما يأكله الناس ، والأبُّ ما يأكله الدَّواب . ومِثله عن قَتادة قال : الفاكهة لكم ، والأبُّ لأنعامكم . وقال سعيد بن جُبَير عن ابن عباس قال : ما أنبتت الأرضُ مِمَّا يأكل الناسُ والأنعام . ورُوِيَ عن إبراهيم التَّيمي أنَّ أبا بَكْر سُئل عَن قَوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وأبًّا ﴾ ، فقال : أيُّ سَمَاء تُظِلُّني ، وأيُّ أرض تُقِلُّني إذا قُلتُ في كتاب اللَّه ما لا أعْلَم)) اهـ . وعن عُمر بن الخطاب_ رضي اللَّهُ عنه _ أنَّه قال : ﴿ فأنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وأبًّا (٣١) ﴾ ، قال : فَكُلُّ هذا قد عَرَفْناه ، فما الأبُّ ؟ ، ثُمَّ نَقَضَ عَصًا كانت في يده ، فقال : هذا لَعَمْرُ اللَّهِ التَّكَلُّف ، اتَّبِعُوا ما تَبَيَّنَ لكم مِن هذا الكتاب [١٤٨].

تساءلَ عُمر بن الخطاب _ رضي اللَّهُ عنه_ عن معنى الأبِّ ، ثُمَّ مَنَعَ نَفْسَه مِن هذا التساؤل، واعتبرَ أنَّه يتكلَّف ما لا عِلْمَ له به ، وأمرَ باتِّباع ما وضَّحه اللَّهُ ورسولُه في القُرآن الكريم .

والأبُّ مَشهور عِند العرب ، وهو الذي تَرعاه البهائم ، ومِن المُستبعد أنَّ عُمر بن الخطاب _ رضي اللَّهُ عنه _ يَجهَله ، لذلك نَجزِم أنَّه أرادَ تَرهيب الناس مِن تفسير القُرآن بغَير عِلْم ، أوْ قد يَكون ظَنَّ أن الأبَّ له أكثر مِن معنى ، فامتنعَ عن التفسير .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٠٦) : ((هذا مَحمول على أنَّه أراد أن يَعرف شَكْلَه ، وجِنْسَه ، وعَيْنَه ، وإلا فهو وكُل مَن قَرَأ هذه الآية يَعلَم أنَّه مِن نبات الأرض)) .

وعن ابن عباس _ رضي اللَّهُ عنهما_ قال: إنِّي سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ: ((إنَّ اللَّه تباركَ وتعالى أكثرَ ذِكْرَ السَّبْع،فقال: السَّماواتُ سَبْعٌ، والأرضونَ سَبْعٌ))، وقال: ﴿ ثُمَّ شَقَقْنا الأرضَ شَقًّا (٢٦) فأنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(٢٧)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(٢٨)وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا(٢٩)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(٣٠) وَفَاكِهَةً وأبًّا (٣١)﴾، فالحدائقُ مُلْتَفٌّ ، وكُلُّ مُلْتَفٍّ حديقةٌ ، والأبُّ ما أنبتت الأرضُ مِمَّا لا يأكل الناسُ [١٤٩].

---

١٤٨ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٩) برقم (٣٨٩٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١٤٩ رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢١) برقم (٦٢٩٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مَتَاعًا لَكُم ولأنعَامِكُم ﴾ [عَبَسَ : ٣٢] .

أخرجَ اللَّهُ ذلك وأنبته لفائدتكم ومنفعتكم أيها الناس ولأنعامكم في هذه الحياة الدُّنيا . فالناسُ يَأكلون الفواكه ، والدَّواب تأكل العُشبَ . ونِعَمُ اللَّه كثيرة وشاملة وعامَّة ، بعضها طعام للناس ، وبعضها عَلَف للدَّواب . والالتفاتُ في الآية لتكميل الامتنان .

وهذا مَثَل ضَرَبَه اللَّهُ تعالى لبعث المَوتى مِن قُبورهم. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٠٦): ((فيه _ في هذه الآيات _ امتنان ، وفيه استدلال بإحياء النَّبات مِن الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عِظامًا بالية وتُرابًا مُتَمَزِّقًا)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٥٣) : ((وقَوله : ﴿ مَتَاعًا لَكُم ﴾ ، يقول : أنْبَتْنا هذه الأشياء التي يأكلها بنو آدم مَتَاعًا لكم أيها الناس ، ومنفعة تتمتعون بها ، وتنتفعون ، والتي يأكلها الأنعام لأنعامكم . وأصل الأنعام الإبِل ، ثُمَّ تُستعمَل في كُل راعية)) .

١٦_ الحَشَرَات والحَيَوَانات

قالَ اللَّهُ تعالى:﴿ إنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيي أن يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦].

إنَّ اللَّه لا يَخشَى ولا يَترك تَوضيحَ الشَّبَهِ وضَرْبَ المَثَلِ بِبَعُوضة ، تَرْكَ مَن يَسْتحيي مِن ذِكرها لحقارتها وقِلَّة شأنها،فما دُونها في الصِّغَر،إذا عُلِمَ أنَّ فيها عِبرة للمُعتبِرين، وحُجَّة على الجاحدين.

إنَّ اللَّه عِندما ذَكَرَ الذُّبابَ والعنكبوتَ في القُرآن الكريم ، وضَرَبَ للمُشركين به المَثَل ، ووضَّح لهم الشَّبَهَ ، ضَحِكَت اليهودُ ، وقالوا : ما يُشبِه هذا كلام اللَّه ، وما أرادَ بذِكر هذه الأشياء الحقيرة الخسيسة ؟ . وهذا سبب نُزول الآية .

ولَيْسَت البَعُوضةُ مَقصودةً لذاتها في الآية ، لكنَّ القُرآن يُعلِّم الناسَ أن يأخذوا العِبَرَ مِن كُل شيء ، سواءٌ كان صغيرًا أَمْ كبيرًا ، ولا يتوقفوا عِند ظواهر الأشياء . بل يُعْمِلوا عُقولَهم في فهم الآيات القرآنية المُشتملة على الأشباه المُفيدة والأمثال النافعة ، كي يَستفيدوا منها في حياتهم الفكرية والعملية ، ويتَّعظوا ، ويَعتبروا . واللَّهُ لا يَسْتحيي مِن الحَق أن يَذكُر شيئًا كثيرًا أو قليلًا، عظيمًا أو وضيعًا .

قال البيضاوي في تفسيره(١/ ٢٥٤):((فإن التمثيل إنما يُصار إليه لكشف المعنى المُمَثَّل له، ورفع الحجاب عنه، وإبرازه في صورة المُشَاهَد المحسوس ، ليساعد فيه الوهمُ العقلَ ويُصالحه عليه، فإن المعنى الصِّرْف إنما يُدركه العقل معَ مُنازَعة من الوهم ، لأن مِن طَبْعه المَيل إلى الحِس

وحُب المُحَاكَاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكُتب الإلهية ، وفَشَت في عِبارات البُلَغاء وإشارات الحُكماء فَيُمَثَّل الحقير ، كما يُمَثَّل العظيم بالعظيم ، وإن كان المَثَلُ أعظمَ من كل عظيم ، كما مُثِّلَ في الإنجيل غِل الصدور بالنُّخالة ، والقلوب القاسية بالحَصاة ، ومُخاطبة السُّفهاء بإثارة الزنابير . وجاء في كلام العرب : أسمعُ مِن قُرَاد ، وأطْيَشُ مِن فراشة ، وأعزُّ مِن مُخ البَعوض ، لا ما قالت الجَهَلة مِن الكُفَّار_لَمَّا مَثَّلَ اللَّهُ حالَ المنافقين بحال المُسْتَوْقِدِين وأصحاب الصَّيِّب ، وعبادة الأصنام في الوَهْن والضَّعْف ببيت العنكبوت ، وجَعْلها أقل مِن الذُّباب وأخس قَدْرًا منه _: اللَّهُ سبحانه وتعالى أعلى وأجلُّ مِن أن يَضْرِبَ الأمثالَ ويَذكر الذبابَ والعنكبوت)) .

وقال الزمخشري في الكَشَّاف (١/ ٨٣) : ((التَّمثيل إنَّما يُصار إلَيه لِمَا فيه مِن كَشْف المعنى ، ورفع الحِجاب عن الغرض المطلوب، فليس العِظَم والحَقَارة في المَضروب به المَثَل إلا أمرًا تستدعيه حال المُتمثَّل له، ألا ترى إلى الحَق لمَّا كان أبلجَ واضحًا جَلِيًّا، كيف تَمَثَّل له بالضِّياء والنُّور؟ وإلى الباطل لمَّا كان بضِد صِفته كيف تَمَثَّلَ له بالظُّلْمة؟ ولمَّا كان حال الآلهة التي جعلها الكُفارُ أندادًا للَّه تعالى لَيس أحقر منها وأقل، لذلك ضَرَبَ لها المَثَلَ ببَيت العَنكبوت في الضَّعْف والوَهْن : ﴿ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ ، وجُعلت أقل مِن الذُّباب وأخسَّ قَدْرًا : ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وإن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ . والعَجَبُ مِنهم كيف أنكَروا ذلك ، وما زال الناس يَضرِبون الأمثالَ بالبهائم والطيور، والحَشَرَات والهَوَام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم سائرة في حواضرهم وبواديهم)) .

واللوثةُ العقليةُ التي سيطرت على المشركين تتجلى في نظرتهم إلى عناصر المَثَل ، وعدم نظرتهم إلى حِكمة المَثَل والمعنى الماورائي . فَتَوَقَّفوا عِندَ الذباب والعنكبوت والبَعوض ، واعتبروا هذه الأشياء حقيرةً تافهةً ، ولأنها كذلك لا يَصِحُّ أن يَذكرها اللَّهُ تعالى . وهذا يعني أنَّ مُحَمَّدًا افتراها مِن تِلقاء نَفْسه، وجعلها كلامًا للَّه.والمشركون ضائعون في مَتاهة الشُّكوك وظواهر الأشياء . فاللَّهُ تعالى ضَرَبَ الأمثال بهذه المخلوقات الصغيرة لأخذ العِبْرة والمَوعظة ، والوُقوف على الحِكمة الإلهية الجليلة ، والمعنى المقصود ، ومَغْزَى هذه التَّمثيلات والتَّشبيهات . ولَيْسَ القُرآنُ بَحْثًا عِلْمِيًّا عن الحَشَرَات والحَيَوانات . لكنَّ المشركين _ بسبب انحرافهم العَقَدي وقلوبهم المُظلمة _ يُحاولون جاهدين الاصطياد في ماء أفكارهم العَكِر ، وهذا جعل نظرتهم للأمور سطحية وساذجة . وهذا ليس غريبًا ، لأنَّ اللَّه أعمى بصائرَهم ، فلا يَقفون على حقائق الأشياء ، ولا يَغوصون في المعاني العميقة،وهُم لا يَملِكون الدليلَ والبُرهان ، لذلك يَسخَرون ويَستهزئون .

وقد رَدَّ اللَّهُ على الكافرين، وأزالَ باطلَهم ، وأفحمَهم ، وألزمَهم الحُجَّةَ . وأعْلَمَهم أنَّهُ سُبحانَه لا يَسْتَحْيي ولا يَخشَى أن يَذكر البَعُوضةَ في الأمثال ، وما فَوْقَها في الصِّغَر (يعني ما دُونَها) . فالعِبْرةُ بالمعاني التي وراء الظواهر ، والحِكَم العميقة التي يَنبغي البحث عنها . وأصلُ الاستحياء الانقباض عن الشيء خَوْفًا مِنَ التَّلوُّث بالأشياء السَّيئة . وهذا مُحَالٌ على اللَّه تعالى [١٥٠].

وفي فتح القدير للشَّوكاني (١/ ٨٩) : ((قال الرازي : إنَّه تعالى لَمَّا بَيَّنَ الدليلَ كَوْن القرآن مُعْجِزًا أوردَ هاهُنا شُبهة أوردها الكفار قَدْحًا في ذلك ، وأجاب عنها ، وتقرير الشُّبهة أنه جاء في القرآن ذِكْر النَّحْل والعنكبوت والنَّمْل ، وهذه الأشياء لا يَليق ذِكْرُها بكلام الفُصَحاء ، فاشتمال القرآن عليها يَقْدَح في فَصاحته فَضْلًا عَن كَوْنه مُعْجِزًا ، وأجاب اللَّهُ عنها بأن صِغَرَ هذه الأشياء لا تَقْدَح في الفصاحة ، إذا كان ذِكْرُها مُشتمِلًا على حِكمة بالغة)) .

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (١/ ١٠٣) : [وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حُمَيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قَتادة قال : ((لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ العنكبوتَ والذباب ، قال المشركون : ما بالُ العنكبوت والذباب يُذكَران ؟ ، فأنزل اللَّهُ : ﴿ إنَّ اللَّه لا يَستحيي أن يَضرب مثلًا ما بعوضةً فما فَوْقها ﴾))] .

إنَّ الكفار المُعانِدين يتوقفون عند ظواهر الأشياء الواردة في القُرآن مِثل العنكبوت، والذباب ، والنمل، ولا ينظرون إلى ما وراء هذه الأشياء مِن العِبَر الباهرة، ولا يُدرِكون أبعادَ الآياتِ القُرآنية. وبما أن الجاهل عدو نَفْسه ، فإنَّه يُعرِض عن القرآن بسبب جَهْله فيطعن فيه . فهناك عُميان يعتقدون أن المشكلة في نُور الشمس لا في عُيونهم .

وكما قال البوصيري :

قد تُنْكِرُ العَينُ ضَوءَ الشمسِ مِن رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَمِ

وكما قال المتنبي :

لا تَحْقِرَنَّ صَغيرًا في مُخَاصَمَةٍ إنَّ البَعوضةَ تُدمِي مُقْلةَ الأسَدِ

---

١٥٠ قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٤): ((...فقال تعالى: ﴿ إنَّ اللَّه لا يَستحيي ﴾ أي: لا يترك ضَرْبَ الْمَثَل بالبَعُوضة تَرْكَ مَن يَستحي أن يُمثِّل بها لحقارتها.والحياء : انقباض النَّفْس عن القبيح مخافة الذم وهو الوسط بين الوقاحة: التي هي الجراءة على القبائح وعدم الْمُبالاة بها، والخجل: الذي هو انحصار النَّفْس عن الفِعل مُطْلَقًا . واشتقاقه من الحياة ، فإنه انكسار يَعتري القوةَ الحيوانية فَيَرُدُّها عن أفعالها)) .

وفي تهذيب الكمال للمِزّي (٥/ ٩٢) أن أحمد بن عمرو بن المِقدام الرازي قال : ((وَقَعَ الذُّبَابُ على المنصور فَذَبَّه عنه ، فعادَ ، فَذَبَّه حتى أضجرَه ، فدخل جعفر بن مُحمَّد ، فقال له المنصور : يا أبا عبد اللَّه ، لِمَ خَلَقَ اللَّهُ الذُّبَابَ ؟ ، قال : لِيُذِلَّ به الجبابرةَ)) [١٥١].

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ولأُضِلَّنَّهُم ولأُمَنِّيَنَّهُم ولآمُرَنَّهُم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعامِ ولآمُرَنَّهُم فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيطانَ وَلِيًّا مِن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ [النِّساء : ١١٩] .

أخبرَ اللَّهُ عَن الشَّيطان أنَّه سيَصرِف الناسَ عن طريق الحق والهُدى ، ويُلقي في قلوبهم الأماني الباطلة، مِثل : طُول الحياة ، وأن لا بَعث ولا حِسَاب ، ويأمرهم فيُشقِّقون آذانَ الأنعام (البَحِيرة والسَّائبة) كما كانوا يَفعَلون في الجاهلية ، ويأمرهم فيُغيِّرون دِينَ اللَّه بالكُفر والضلال والذُّنُوب والمعاصي ، وتَحليل ما حرَّم اللَّهُ ، وتحريم ما أحَلَّ اللَّهُ . ومَن يُطِع الشَّيطانَ ويَتَوَلَّه، ويَخضع لغَوايته ووساوسه وتزيينه، ويَترك أوامرَ اللَّه وشريعته، فقد خَسِرَ الدُّنيا والآخرة، وهو خالد في عذاب النار ، ولَيس له نصيب في الجَنَّة . وهذا هو الخِزْيُ العظيم ، والخسارة التي ما بعدها خسارة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٠٤و ٢٠٥) : ((قوله تعالى : ﴿ ولأُضِلَّنَّهُم ﴾ ، قال ابن عباس: عن سبيل الهُدى . وقال غَيْرُه : لَيس له مِن الضَّلال سِوى الدُّعاء إلَيه . وفي قَوله: ﴿ ولأُمَنِّيَنَّهُم ﴾ أربعة أقوال : أحدها أنَّه الكذب الذي يُخبرهم به . قال ابن عباس : يقول لَهُم : لا جنة ، ولا نار ، ولا بَعْث . والثاني أنَّه التَّسويف بالتَّوبة ، رُوِيَ عن ابن عباس . والثالث أنَّه إيهامهم أنَّهُم سينالون مِن الآخرة حَظًّا ، قاله الزَّجاج . والرابع أنَّه تزيين الأماني لهم ، قاله أبو سليمان الدمشقي . قَوله تعالى : ﴿ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنعامِ ﴾ ، قال قَتادة وعِكرمة والسُّدي : هو شَق أُذُن البَحِيرة . قال الزَّجاج : ومعنى " يُبَتِّكُنَّ " يُشقِّقن ، ... . وهذا في البَحِيرة ، كانت الجاهلية إذا وَلَدَت الناقةُ خمسة أبطُن، وكان الخامس ذَكَرًا، شَقُّوا أُذُنَ الناقة ، وامتنعوا مِن الانتفاع بها،ولم تُطرَد عَن ماء،ولا مرعى،وإذا لَقِيَها المُعْيي (المُنقطع به) لَم يَركَبها.سوَّل لهم إبليسُ أنَّ هذا قُربة إلى اللَّه تعالى. وفي المُراد بتغيير خَلْق اللَّه خمسة أقوال:أحدها أنَّه تغيير دِين اللَّه ،

---

١٥١ هذا الرد الصاعق من الإمام جعفر الصادق يَكشف كذبَ الشيعة الروافض الذين رَوَوْا عنه أنَّه قال: ((التَّقِيَّةُ دِيني ودِين آبائي)) . لقد كانَ الإمام جعفر صريحًا وصادقًا ، وأجابَ الخليفةَ بجوابٍ صاعق لا يَحتمل التأويل . وهذا يَنسف أكذوبةَ التَّقِيَّة (النِّفاق) التي نَسَبَها الشيعة الروافض إلى أئمة آل البَيت المعروفين بالصِّدق والشجاعة والجرأة في قَول الحق .

رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن في رواية ، وسعيد بن المُسيِّب وابن جُبَير والنَّخَعي والضَّحاك والسُّدي وابن زيد ومُقاتل . وقِيل : معنى تغيير الدِّين تحليل الحرام وتحريم الحلال . والثاني أنَّه تغيير الخَلْق بالخِصَاء ، رواه عِكرمة عن ابن عباس ، وهو مرويٌّ عن أنس ابن مالك ، وعن مُجاهد وقَتادة وعِكرمة كالقَوْلَيْن . والثالث أنَّه التغيير بالوَشْم ، وهو قول ابن مسعود والحسن في رواية . والرابع أنَّه تغيير أمر اللَّه ، رواه أبو شَيبة عن عطاء . والخامس أنَّه عِبادة الشمس والقمر والحِجارة ، وتحريم ما حرَّموا من الأنعام،وإنَّما خُلق ذلك للانتفاع به،قاله الزَّجاج . قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيطانَ وَلِيًّا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، في المُراد بالوَلِيِّ قَولان : أحدهما أنَّه بمعنى الرَّب ، قاله مُقاتل . والثاني مِن المُوَالاة ، قاله أبو سُلَيمان الدمشقي ، فإنْ قال قائل : مِن أين لإبليس العِلْم بالعواقب حتى قال : ﴿ ولأُضِلَّنَّهُم ﴾ . وقال في [الأعراف : ١٧]: ﴿ ولا تَجِدُ أكثرَهُم شاكرين ﴾ . وقال في [بني إسرائيل : ٦٢] ــ يعني في سُورة الإسراء ــ : ﴿ لأحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلا قَلِيلًا ﴾ . فعنه ثلاثة أجوبة : أحدها أنَّه ظَنَّ ذلك ، فتحقَّق ظَنُّه ، وذلك قَوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيهِم إبليسُ ظَنَّهُ ﴾ [سَبَأ : ٢٠] ،قاله الحسن وابن زيد . وفي سبب ذلك الظَّن قَولان : أحدهما أنَّه لمَّا قالَ اللَّهُ تعالى له : ﴿ لأمْلَأنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُم أجْمَعِين ﴾ [ص : ٨٥] ، عَلِمَ أنَّه ينال ما يُريد . والثاني أنَّه لمَّا استزلَّ آدمَ ، قال: ذُرِّية هذا أضعف مِنه . والثاني أنَّ المعنى لأُحَرِّضَنَّ ولأجْتَهِدَنَّ في ذلك ، لا أنَّه كان يَعلَم الغَيْبَ ، قاله ابن الأنباري . والثالث أنَّ مِن الجائز أن يكون عَلِمَ مِن جِهة الملائكة ، بخَبَر مِن اللَّه تعالى ، أن أكثر الخَلْق لا يَشكُرون ، ذَكَرَه الماوردي . فإنْ قِيل : فَلِمَ اقتصرَ على بَعْضِهم ، فقال : ﴿ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ ، وقال : ﴿ ولا تَجِدُ أكثرَهُم شاكرين ﴾ . وقال : ﴿ إلا قَلِيلًا ﴾ ، فعَنه ثلاثة أجوبة : أحدها أنَّه يَجُوز أن يَكُون عَلِمَ مَآلَ الخَلْقِ مِن جِهة الملائكة كَمَا بَيَّنا . والثاني أنَّه لَمَّا لَم يَنَلْ مِن آدم كُلَّ ما يُريد ، طَمِعَ في بَعْض أولاده ، وأَيِسَ مِن بَعْض . والثالث أنَّه لمَّا عَايَنَ الجَنَّةَ والنارَ ، عَلِمَ أنَّهما خُلقتا لِمَن يَسكنهما ، فأشار بالنَّصيب المَفرُوض إلى ساكني النار)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ والدَّمُ وَلَحْمُ الخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ والمُنْخَنِقَةُ والمَوْقُوذَةُ والمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلا مَا ذَكَّيْتُم وما ذُبِحَ عَلى النُّصُبِ وأن تَسْتَقْسِمُوا بالأزلامِ ذَلِكُم فِسْقٌ ﴾ [المائدة : ٣] .

حُرِّمَ عَلَيكم أيُّها المؤمنون أكلُ المَيْتَة ، وهي ما مات حَتْفَ أنفه بدُون ذَبْح شرعيٍّ ، والدَّمُ المَسفوح ، ولَحْمُ الخِنزير .

وهذه الآيةُ هدمٌ لِفعل الجاهلية ، فقد كان أهلُ الجاهلية يَأكلون هذه المُحرَّمات : البهيمة التي ماتت بدُون ذَكاة (ذبح شرعي) ، وكانوا يَشرَبون الدَّمَ المُتجمِّع في جِسْم البعير أو الحَيَوان .

وأهلُ الجاهلية غير معنيين بالحلال والحرام، أو الطهارة والنجاسة. فهم يَفعلون ما يحلو لهم ، ويخترعون شريعتهم الخاصة، ويُؤسسون عليها أحكامَهم التي تعكس طبيعةَ شخصيتهم وسلوكهم . وقد كانوا يَشربون الدمَ بعد جَمْعه بلا نكير . وحينما جاءت الشَّريعةُ الإسلامية ألغت هذا الفعلَ ، ووضَّحت أن الدم حرام . والدمُ نجسٌ باتفاق العلماء لا يُشرَب ولا يُنتفع به .

وتَمَّ تَخصيص" لحم الخِنزير" بالذِّكْر، للتَّنبيه على أنَّه حرام بعَينه، حتى لَوْ ذُبِحَ بشكل شرعيٍّ .

﴿ وما أُهِلَّ لغَير اللَّه به ﴾ ، أي : ما ذُبح فذُكِرَ عليه اسم غَير اللَّه . وقد كان أهلُ الجاهلية يَذبحون لآلهتهم الأصنام ، فيَذكرون اسم غَير اللَّه ـ سُبحانَه وتعالى ـ ، مِثل اللات والعُزَّى .

قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٩٢) : ((أي رفع الصَّوت لغَير اللَّه به ، كقولهم : باسم اللات والعُزَّى عند ذَبْحه)) .

﴿ والمُنخنقةُ ﴾ : هي التي تموت خَنْقًا ، وهو حَبْس النَّفَس ، سَوَاءٌ خنقها إنسان أو خُنقت بحبل وشبهه . وقد كان أهلُ الجاهلية يَخنُقون الشَّاةَ فإذا ماتت أكلوها .

وفي تفسير القُرطبي (٦/ ٤٦): ((وذَكَرَ قَتادة أنَّ أهل الجاهلية كانوا يَخنُقون الشَّاةَ وغَيْرَها، فإذا ماتت أكلوها ، وذُكر نَحْوه ابن عباس)) .

﴿ والمَوقوذةُ ﴾ [١٥٢]: هي التي تُضرَب بشيء ثقيل (حَجَر ، عصا ، ...) حتى تموت . وكان أهلُ الجاهلية يَضربونها ثُمَّ يأكلونها .

وفي تفسير القُرطبي (٦/ ٤٦) : ((قال قَتادة : كان أهلُ الجاهلية يفعلون ذلك ويأكلونه. وقال الضَّحاك : كانوا يَضربون الأنعامَ بالخشب لآلهتهم حتى يَقتلوها فيأكلوها)) .

﴿ والمُتردِّيةُ ﴾ : هي التي تَسقط من موضع عالٍ (كجبل ونَحْوه) فتموت .

﴿ والنطيحةُ ﴾ : هي التي ماتت بسبب نَطْح بهيمة أُخرى لها. ﴿ وما أكل السَّبُعُ ﴾ : أي أكلَ بَعْضَه السَّبُعُ فمات . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١): ((وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضلَ السَّبُع مِن الشَّاة أو البعير أو البقرة أو نَحْو ذلك ، فَحَرَّمَ اللَّهُ ذلك على المؤمنين)) .

---

١٥٢ (وَقَذَ) فُلانًا ـ (يَقِذه) وَقْذًا : ضَرَبَه حتى استرخى وأشرفَ على الموت [انظر المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ص ٦٧٧] .

وقد كان أهلُ الجاهلية يأكلون كل هذه الأصناف التي سَبَقَ ذِكْرُها . وهم يتصرَّفون بحُكم طِباعهم وشَهَواتهم وأحكامهم العقلية القاصرة بلا توجيهات سماوية . وعندما جاءت الشريعةُ المُحمَّدية الإسلامية أحَلَّت الحَلالَ وحَرَّمَت الحرامَ . وبالتالي صار لدى الناس منهج سماوي مُتعلِّق بالأطعمة وتمييز الطَّيب مِن الخبيث ، مِمَّا أدَّى إلى إخراج الناس مِن ظُلمات الجهل إلى نُور العِلْم ، وجَعْلهم يتحركون وَفْق بصيرة نُورانية مُستمدة مِن القُرآن والسُّنَّة ، وليس وَفْق تقليد الآباء ، والمصالح الشخصية ، وأهواءِ النَّفْس ، وحُكمِ العقل القاصر .

﴿ إلا مَا ذَكَّيْتُم ﴾ ، إلا ما أدركتم فيه الرُّوح مِن هذه الأشياء ، فذبحتموه بشكل شرعي قبل المَوت . والآيةُ تدل على استثناء ما يُدرَك ذَكَاته مِن جميع هذه المُحرَّمات .

﴿ وما ذُبِحَ عَلى النُّصُبِ ﴾ . وما ذُبح على اسم الأصنام ، فهو حرام . وكان لأهل الجاهلية حِجارة مَنصوبة يَعبدونها ويَذبحون لها ، ويُشرِّحون اللحمَ عليها ، تعظيمًا لها ، وتقرُّبًا إلَيها .

إنَّ النُّصُب حِجارة مَنصوبة حَول الكعبة يَذبحون عليها تعظيمًا لها ، وتقرُّبًا لأصنامهم ، وقِيل : هي الأصنام ، والمُراد ما ذُبح مِن أجلها .

﴿ وأن تَسْتَقْسِمُوا بالأزلامِ ﴾ . وحُرِّمَ عليكم أن تَطلُبوا القَسْمَ والحُكْمَ ومعرفة الخَير والشَّر باستخدام الأزلام ، وهي قِدَاح لأهل الجاهلية مَكتوب عليها الأمر (افْعَلْ) والنَّهْي (لا تفعل) ، كان أحدُهم إذا أرادَ سَفَرًا أو زواجًا أو أمرًا مُهِمًّا ، ضَرَبَ بالقِدَاح ، فإذا خَرَجَ الأمرُ مضى لشأنه ، وإذا خَرَجَ النَّهْيُ امتنعَ عَن فِعله .

﴿ ذَلِكُم فِسْقٌ ﴾ ، فِعْل هذا الشَّيء وتعاطيه خُروج عن الطاعة إلى المعصية ، وخُروج عن الحلال إلى الحرام .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٧٩ _ ٢٨٥) : ((فأمَّا المُنخنقة ، فقال ابن عباس : هي التي تختنق فتموت ، وقال الحسن وقَتادة: هي التي تختنق بحبل الصائد وغَيره . قُلتُ : والمُنخنقة حرام كيف وَقَعَ ذلك . قال ابن قُتَيبة : والمَوقوذة : التي تُضرَب حتى تُوقَذ، أي: تُشرِف على المَوت ، ثُمَّ تُترَك حتى تموت، وتُؤكَل بغير ذَكَاة . ... . والمُتردية : الواقعة مِن جَبَل أو حائط ، أو في بئر ، يُقَال : تَرَدَّى : إذا سَقَطَ . والنَّطيحةُ : التي تَنطَحها شاة أُخرى ، أو بَقَرة ، ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ ،...، والمُراد: ما افترسه فأكلَ بَعْضَه ، ﴿ إلا مَا ذَكَّيْتُم ﴾ ، أي: إلا ما لحقتم مِن هذا كُلِّه ، وبه حياة ، فذبحتموه . فأمَّا الاستثناء، ففيه قَولان . أحدهما: أنَّه يرجع إلى المَذكور مِن عِند قَوله : ﴿ والمُنْخَنِقَةُ ﴾ . والثاني: أنَّه يرجع إلى ما أكلَ السَّبُعُ خاصَّة، والعُلَماء على الأول.

... . قَوله تعالى : ﴿ وما ذُبِحَ عَلى النُّصُبِ ﴾ ، في النُّصُب قَولان . أحدهما: أنها أصنام تُنصَب، فتُعبَد مِن دُون اللَّه ، قاله ابن عباس والفَرَّاء والزَّجاج، فعلى هذا القَول يكون المعنى: وما ذُبح على اسم النُّصُب ، وقِيل: لأجلها ، فتكون " على " بمعنى " اللام ". ... . والثاني: أنَّها حِجارة كانوا يَذبحون عليها، ويُشرِّحون اللحمَ عليها، ويُعظِّمونها، وهو قَول ابن جُرَيج. ... . قوله تعالى: ﴿ وأن تَسْتَقْسِمُوا بالأزلامِ ﴾ ، قال ابن جرير : أي : وأن تطلُبوا عِلْمَ ما قُسِمَ لكم ، أو لَم يُقْسَم بالأزلام، وهو استفعلت مِن القَسْم ، قَسْم الرِّزق والحاجات . قال ابن قُتَيبة : الأزلام: القِدَاح، واحدها: زَلَم وزُلَم. والاستقسام بها : أن يَضرب بها فيعمل بما يخرج فيها مِن أمرٍ أو نَهْي ، فكانوا إذا أرادوا أن يَقتسموا شيئًا بينهم، فأحَبُّوا أن يَعرفوا قِسْمَ كُل امرئ تعرَّفوا ذلك منها، فأُخِذَ الاستقسام مِن القِسْم وهو النَّصيب. قال سعيد بن جُبَير: الأَزلام: حَصَى بِيض، كانوا إذا أرادوا غُدُوًّا، أو رَوَاحًا، كتبوا في قِدْحَيْن،في أحدهما: أمرني رَبِّي، وفي الآخَر: نهاني رَبِّي، ثُمَّ يَضربون بهما، فأيُّهُما خَرَجَ، عملوا به. وقال مُجاهد: الأزلام سِهَام العرب، وكِعَاب فارس التي يتقامرون بها. وقال السُّدي: كانت الأزلام تكون عِند الكَهَنة.وقال مُقاتل: في بيت الأصنام. وقال قَوم: كانت عِند سَدَنَة الكعبة. قال الزَّجاج: ولا فَرق بَيْن ذلك، وبين قول المُنجِّمين: لا تَخرُج مِن أجل نَجْم كذا، أو اخرُج مِن أجل نَجْم كذا. قَوله تعالى: ﴿ ذَلِكُم فِسْقٌ ﴾ ، في المُشار إليه بذلكم قَولان. أحدهما: أنه جميع ما ذُكِرَ في الآية، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وبه قال سعيد بن جُبَير . والثاني: أنَّه الاستقسام بالأزلام، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والفِسْق : الخُروج عَن طاعة اللَّه إلى معصيته)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ في الأرضِ ولا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أمْثَالُكُم ما فَرَّطْنا في الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِم يُحشَرون ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وما مِن حَيَوان يَمْشي على سطح الأرض ، وما مِن طائر يَطير في الهواء بجناحَيْه ، وقيَّد الطَّيَرَانَ بالجَنَاح تأكيدًا وقَطْعًا لِتَوَهُّم المَجَاز ، لأنَّ غَير الطائر قد يُقَال فِيه : طار ، إذا أسرعَ ، إلا أصناف مُصنَّفة وجماعات مُجنَّسة وطوائف مَخلوقة مِثل الناس ، دبَّر اللَّهُ خَلْقَها وأحوالها وأرزاقها وآجالها ، فالطَّيْرُ أُمَّة ، والدَّواب أُمَّة ، والسِّباع أُمَّة ، مَعروفة بأسمائها ، وهذا دليل واضح على كمال قُدرة اللَّه، وسَعَةِ تَدبيره، وإحاطة عِلْمه بكُل شيء .

ما تَرَكَ وما أغفلَ اللَّهُ في اللوح المَحفوظ شيئًا لَم يَكتبه ، فهو مُشتمل على كُل شيء مِن أُمور المخلوقات ، صغيرها وكبيرها . وقد يَكون المُراد بالكِتاب القُرآن ، فهو مُشتمل على كُل شيء مِن أُمور الدُّنيا والدِّين ، وبيَّن اللَّهُ في القُرآن كُلَّ ما يَحتاجه الناسُ، مُفَصَّلًا أوْ مُجْمَلًا .

ثُمَّ يَجمع اللَّهُ الأُمَمَ كُلَّها مِن الطَّيْر والدَّواب والسِّباع،فيَقضي بَينها، ويُنصِف بَعْضَها مِن بَعْض، حتى إنَّ اللَّه يأخذ للشَّاة الجَمَّاء مِن القَرْناء .

وعن أبي هُرَيرة قال : ((يُحشَر الخَلْقُ كُلُّهُم يَوْمَ القِيامة ، البهائم ، والدَّواب ، والطَّير ، وكُلُّ شيء ، فَيَبْلُغُ مِن عَدْل اللَّه أن يَأخذ للجَمَّاءِ مِنَ القَرْناء ، ثُمَّ يقول : كُوني تُرَابًا ، فذلك : ﴿ يَقولُ الكافرُ يا لَيْتني كُنتُ تُرَابًا ﴾)) [١٥٣].

والجَمَّاء : الشَّاة التي لَيس لها قَرْن ، والقَرْناء : الشَّاة التي لها قَرْن .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٤و٣٥و٣٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ في الأرضِ ﴾ . قال ابن عباس : يُريد كُلَّ ما دَبَّ على الأرض . قال الزَّجاج : وذِكْر الجَنَاحَيْن تَوكيد. وجميع ما خُلِقَ لا يَخلو إمَّا أن يَدِبَّ ، وإمَّا أن يَطِير . قَوله تعالى : ﴿ إلا أُمَمٌ أمْثَالُكُم ﴾ ، قال مُجاهد : أصناف مُصنَّفة . وقال أبو عُبَيدة : أجناس يَعرِفون اللَّهَ ويَعبدونه . وفي معنى (أمثالكم) أربعة أقوال : أحدها أمثالكم في كَون بَعضها يَفقَه عن بعض ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني في معرفة اللَّه ، قاله عطاء . والثالث أمثالكم في الخَلْق والمَوْت والبَعْث، قاله الزَّجاج . والرابع أمثالكم في كَونها تطلُب الغِذاءَ ، وتبتغي الرِّزق ، وتتوقَّى المَهَالِك، قاله ابن قُتَيبة . قال ابن الأنباري : ومَوضع الاحتجاج مِن هذه الآية أنَّ اللَّه تعالى ركَّب في المُشركين عُقُولًا ، وَجَعَلَ لهم أفهامًا ألزمهم بها أن يتدبَّروا أمرَ النبيِّ ﷺ ، ويتمسَّكوا بطاعته ، كما جَعَلَ للطَّيْر أفهامًا يَعرِف بها بعضُها إشارةَ بَعْض ، وهدى الذَّكَرَ مِنها لإتيان الأُنثى . وفي كل ذلك دليل على نَفَاذ قُدرة المُركِّب ذلك فِيها . قَوله تعالى : ﴿ ما فَرَّطْنا في الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ ، في الكِتاب قَولان : أحدهما أنَّه اللوح المحفوظ، روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس : ما تَرَكْنا شيئًا إلا وقد كتبناه في أُمِّ الكِتاب . وإلى هذا المعنى ذهب قَتادة وابن زَيد . والثاني أنَّه القُرآن ، روى عطاء عن ابن عباس : ما تَرَكْنا مِن شَيء إلا وقد بَيَّناه لكم ، فعلى هذا يكون مِن العام الذي أُريد به الخاص ، فيكون المعنى : ما فَرَّطْنا في شيء بكم إلَيه حاجة إلا وبَيَّناه في الكِتاب، إمَّا نَصًّا، وإمَّا مُجْمَلًا ، وإمَّا دَلالة ، كقَوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكتابَ تِبْيانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النَّحْل : ٨٩]. أي: لكُل شيء يُحتاج إليه في أمر الدِّين . قَوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إلى رَبِّهِم يُحشَرون ﴾ ، فِيه قَولان : أحدهما أنَّه الجَمْع يَوم القِيامة . روى أبو ذَر قال : انتطحت شاتان عِند النبيِّ ﷺ ، فقال : " يا أبا ذَر ، أتدري فيما

---

١٥٣ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٥) برقم (٣٢٣١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

انتطحتا ؟ " ، قُلتُ : لا ، قال : " لكنَّ اللَّه يَدْري وسَيَقْضي بَينهما ". وقال أبو هُرَيرة: يَحشُر اللَّهُ الخَلْقَ يَوْمَ القِيامة ، البهائمَ والدَّواب والطَّير ، وكُلَّ شيء ، فَيَبْلُغ مِن عَدْله أن يَأخذ للجَمَّاء مِن القَرْناء، ثُمَّ يَقول : كُوني تُرابًا ، فيقول الكافر: يا لَيْتني كُنتُ تُرابًا ، والثاني أنَّ مَعنى حَشْرها مَوْتها ، قاله ابن عباس والضَّحاك)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ١٦٤) : ((قَوله : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ في الأرضِ ولا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أمْثَالُكُم ﴾ ، الدَّابَّة : مِن دَبَّ يَدِبُّ فهو داب : إذا مشى مَشْيًا فيه تقارُب خَطْو . ... . و ﴿ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ لِدَفْع الإبهام ، لأنَّ العرب تَستعمل الطَّيَرَانَ لغَير الطَّير ، كقَولهم : طِرْ في حاجتي ، أي: أسْرِعْ ، وقِيل : إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحَيْن يُعينه على الطَّيَرَان ، ومع عدم الاعتدال يَميل ، فأعْلَمَنَا سُبحانَه أنَّ الطَّيَرَان بالجناحَيْن ، وقِيل: ذِكْر الجناحَيْن للتأكيد، كَضَرَبَ بيده ، وأبصرَ بعَينيه ، ونَحْو ذلك . والجناح : أحد ناحيتَي الطَّير الذي يتمكَّن به مِن الطَّيَرَان في الهواء ، وأصله المَيْل إلى ناحية مِن النَّواحي ، والمعنى : ما مِن دَابَّة مِن الدَّواب التي تَدِبُّ في أي مكان من أمكنة الأرض،ولا طائر يطير في أي ناحية مِن نواحيها ﴿ إلا أُمَمٌ أمْثَالُكُم ﴾ أي : جماعات مِثْلُكُم ، خَلَقَهم اللَّهُ كما خَلَقَكم ، ورَزَقَهم كما رَزَقَكم ، داخلة تحت عِلْمه وتقديره وإحاطته بكل شيء . وقِيل : أمثالُنا في ذِكْر اللَّه ، والدَّلالة عليه . وقيل : أمثالُنا في كَوْنهم مَحشورين ، رُوِيَ ذلك عن أبي هُرَيرة . وقال سُفيان بن عُيَينة : أي ما مِن صِنف مِن الدَّواب والطَّير إلا في الناس شَبَه مِنه ، فمِنهم مَن يَعدو كالأسد ، ومِنهم مَن يَشرَه كالخِنزير ، ومِنهم مَن يَعْوي كالكلب ، ومِنهم مَن يزهو كالطاووس . وقِيل : أمثالُكم في أنَّ لها أسماء تُعرَف بها ، وقال الزَّجاج : أمثالُكم في الخَلْق والرِّزق والمَوْت والبَعْث والاقتصاص ، والأَوْلَى أن تُحمَل المُمَاثَلَة على كُل ما يُمكن وُجود شَبَه فيه كائنًا ما كان . قَوله : ﴿ ما فَرَّطْنا في الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ ، أي: ما أغْفَلْنا عَنه ، ولا ضَيَّعْنا فيه مِن شَيء ، والمُراد بالكِتاب : اللوح المحفوظ ، فإنَّ اللَّه أثبتَ فيه جميعَ الحوادث ، وقِيل : إنَّ المُراد به القرآن ، أي : ما تَرَكْنا في القُرآن مِن شيء مِن أمر الدِّين ، إمَّا تفصيلًا أو إجمالًا . ... . و" مِن " في ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ مَزيدة للاستغراق . قَوله : ﴿ ثُمَّ إلى رَبِّهِم يُحشَرون ﴾ ، يعني : الأُمَم المَذكورة ، وفيه دَلالة على أنها تُحشَر كما يُحشَر بنو آدم . وقد ذهب إلى هذا جَمْع مِن العُلَماء ، ومِنهم أبو ذَر وأبو هُرَيرة والحَسَن وغَيرهم ، وذهب ابن عباس إلى أن حَشْرها مَوْتها ، وبه قال الضَّحاك ، والأول أرجح للآية ، ولِمَا صَحَّ في السُّنَّة المُطهَّرة مِن أنه يُقاد يَوم القِيامة للشَّاة الجَلْحاء مِن الشَّاة القَرْناء)) .

وروى ابن حِبَّان في صحيحه (١٢/ ٤٧٣) عن عبد اللَّه بن المُغَفَّل قال:قال رسول اللَّه ﷺ : ((لَوْلا أنَّ الكِلابَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لأمرتُ بقتلها ، فاقتلوا مِنها الأسودَ البَهِيم)) .

بيَّنت الشريعةُ الإسلامية أحكامَ التعامل مع الحيوانات، وكيفية الانتفاع بها ، ووضَّحت الحلالَ والحرامَ في هذا المجال . وفي هذا الحديث ، وضَّح النبيُّ ﷺ أنَّ الكِلاب أُمَّة خُلقت لمنافع وفوائد ومصالح ، أوْ أنها أُمَّة تُسبِّح اللَّهَ وتَعبده ، وهو إشارة إلى قَوله : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ في الأرضِ ولا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أمْثَالُكُم ﴾ يعني أنها أمثالُكم في كَونها دالَّة على وُجود اللَّه الصانع الحكيم القادر ، ومُسبِّحة له ، كما قال تعالى : ﴿ وإن مِن شَيء إلا يُسبِّح بحمده ولكن لا تَفْقَهُون تَسبيحَهُم ﴾ [الإسراء : ٤٤]، لذلك مَنَعَ النبيُّ ﷺ مِن قَتل الكِلاب كُلِّها ، واستثنى الأسودَ البهيم ، حيث أمرَ بقتله ، وهو الكلب الأسود الذي لا يُخالطه لَون آخَر ، فهو شَيطان خبيث ، وأضرُّ الكِلاب وأعقرُها . وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٣٤١) : (((لَولا أنَّ الكلاب أُمَّة من الأمم لأمرتُ بقتلها كُلِّها) لكنَّها أُمَّة كاملة فلا آمَرُ بقتلها ، ولا أرتضيه ، لدَلالتها على الصانع وقُدرته وحِكمته ، وتسبيحها بلسان الحال والقال ، وما مِن خَلْق إلا وفيه نَوع حِكمة أو مَصلحة ، وإذا امتنع استئصالها بالقتل (فاقتلوا منها) أخبثَها وأشَرَّها (الأسودَ البهيم) أي الشَّديد السَّواد، فإنه أضَرُّها وأعقرُها، وأبْقُوا ما سِواه ليدلَّ على قُدرة مَن سَوَّاه، ولينتفع بها في نَحْو حَرَس أو زَرْع ، وفيه أن الأُمَّة تُطلَق على كُل جِنس مِن الحَيَوَان)) .

وفي حاشية السِّندي على النَّسائي (٧/ ١٨٥) : ((قال الخَطَّابي : إنَّه كَرِهَ إفناءَ أُمَّة مِن الأُمَم بحيث لا تبقى منها باقية ، لأنه ما خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقًا إلا وفيه نَوع مِن حِكمة ، أي: إذا كان الأمر على هذا ، فلا سبيل إلى قتل كُلِّهِنَّ، فاقتلوا أشرارهنَّ وهُنَّ السُّود البهيم ، الأسود الخالص، أي: وأَبْقُوا ما سِوَاها لتنتفعوا بها في الحراسة، ويُقَال إنَّ السُّود من الكلاب شِرَارها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَمِنَ الأنعامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيطانِ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾ [الأنعام : ١٤٢] . مِن مظاهر التكريم الإلهيِّ للإنسان ، تسخيرُ البهائم والدَّواب له لتسهيل أموره المعيشية ، وشُؤونه الحياتية ، فهي مُنقادةٌ لأمره ، وخاضعة لإرادته ، يَستعملها في شَتَّى المجالات . وهذه نِعمة إلهية عظيمة يجب شُكر اللَّه عليها .

خَلَقَ اللَّهُ للناس مِن الأنعام ما يَحمل الأثقالَ والأغراضَ والبضائعَ ، وما يُفْرَش للذبح ، فيتم الأكل مِنها لحمًا شهيًّا طَيِّبًا ، أوْ قَد يُفْرَش المَنسوج مِن الشَّعْر والصُّوف والوَبَر . ولها استعمالاتٌ أخرى حَسَب وَضْعها ، وحَسَب حاجة الناس ، بما يُحقِّق مصالحَهم ، ويَجلِب النَّفْعَ والفائدةَ لهم .

والحَمُولَةُ هي الصالحة للحَمْل عَلَيها كالإبِل الكِبَار ، والفَرْشُ هي التي لا تصلُح له ، كالإبِل الصِّغار والغَنَم ، وسُمِّيَتْ فَرْشًا لأنها كالفَرْش للأرض لقُربها مِنها .

كُلُوا ما أحلَّ اللَّهُ لكم ذَبْحَه،ولا تتَّبعوا طرائقَ الشَّيطان في التَّحليل والتَّحريم مِن عِند أنفسكم، كفِعل أهل الجاهلية ، إنَّ الشَّيطان لكم عدوٌّ ظاهر العَداوة ، يُريد ضَلالَكم وهلاكَكم، فاحذروا كَيْدَه ومَكْرَه وخُبْثَه ، فقد أخرجَ أباكم آدمَ مِن الجَنَّة ، حسدًا له ، وبَغْيًا عَلَيه .

وعن ابن مسعود ــ رضي اللَّهُ عنه ــ : ﴿ ومن الأنعام حَمولةً وفَرْشًا ﴾ ، قال : ((الحَمُولَةُ ما حَمَلَ مِنَ الإبِل ، والفَرْشُ الصِّغَار)) [١٥٤].

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٤٦): ((قَوله : ﴿ وَمِنَ الأنعامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ ، أي: وأنشأ لكم مِن الأنعام حَمُولَةً وفَرْشًا ، والحَمُولَةُ ما يُحمَل عَلَيها ، وهو يَختص بالإبل، فهي فَعُولة بمعنى فاعلة، والفَرْش : ما يُتَّخَذ مِن الوَبَر والصُّوف والشَّعْر فِرَاشًا يَفترشه الناس، وقِيل : الحَمُولة الإبِل، والفَرْش : الغَنَم، وقِيل : الحَمُولة : كُل ما حُمِلَ عليه مِن الإبِل والبَقَر والخَيْل والبِغَال والحمير، والفَرْش : الغَنَم، وهذا لا يتم إلا على فرض صحة إطلاق اسم الأنعام على جميع هذه المَذكورات، وقِيل : الحَمُولة : ما تُركَب، والفَرْش : ما يُؤكَل لَحْمُه ، ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ مِن هذه الأشياء ﴿ ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيطانِ ﴾ كما فَعَلَ المُشركون من تحريم ما لَم يُحَرِّمْهُ اللَّهُ ، وتحليل ما لَم يُحَلِّلْهُ ﴿ إنَّهُ ﴾ أي الشَّيطان ﴿ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾ مُظهِر للعَداوة ومُكَاشِف بها)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ والأنعامَ خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأكُلُون ﴾ [النَّحْل : ٥].

مِن آيات اللَّه الباهرة خَلْقُ الأنعام (الإبِل والبَقَر والغَنَم) . وهذا مِن حُجَج اللَّه على الناس ، وهو سُبحانَه يمتنُّ على عباده بما خَلَقَ لهم مِن الأنعام ، ويُذكِّرهم بنِعَمه العظيمة عَلَيهم ، كَي يُوحِّدوه ويَشكروه . لقد خَلَقَ اللَّهُ الأنعامَ لتحقيق مصالح الناس ، وجَلْب المنافع لهم ، وخِدمتهم ، وَجَعَلَ أصوافَها وأوبارَها وأشعارَها تَحْمي الناسَ مِن البَرْد، وتَجْلِب لهم الدِّفْء . والمقصود بالدِّفْء اللباس . أي : ما تستدفئون به مِن الأكسية والأبنية التي تَصنعونها مِن أصوافها وأوبارها وأشعارها .

وفي الأنعام منافعُ جَمَّة للناس سِوى الدِّفْء ، كالأطعمة والأشربة ، كما تتجلَّى المنافع في نَسْل الأنعام وتكاثُرها، والجُلُود، والألبان، والرُّكُوب ، وحَمْل الأثقال ، والعمل عَلَيها ، وغَير ذلك . وأيضًا ، إنَّ الناس يَأكلون لَحْمَها ، فيَزدادون قُوَّةً وصِحَّةً وعافيةً ونشاطًا .

---

١٥٤ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٧) برقم (٣٢٣٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٤١) : ((يَمْتَنُّ تعالى على عِباده بِما خَلَقَ لهم مِن الأنعام، وهي الإبِل والبَقَر والغَنَم ، كما فصَّلها في سُورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وبِما جَعَلَ لهم فِيها مِن المصالح والمنافع مِن أصوافها وأوبارها وأشعارها ، يَلبَسون ويَفترشون ، ومن ألبانها يَشرَبون ، ويأكلون مِن أولادها ، وما لهم فيها مِن الجَمَال ، وهو الزِّينة)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ والأنعامَ خَلَقَهَا ﴾ يعني: الإبِل والبَقَر والغَنَم ﴿ لَكُم فِيهَا دِفْءٌ ﴾ ، يعني : مِن أوبارها وأشعارها وأصوافها ملابس ولُحُفًا تستدفئون بها، ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ بالنَّسْل والدَّر والرُّكُوب والحَمْل وغَيْرها ، ﴿ وَمِنْهَا تَأكُلُون ﴾ يعني لُحُومَها)) .

وفي سُنَن ابن ماجة (٢/ ٧٧٣) : عن عُروة البارقي أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((الإبِلُ عِزٌّ لأهلها ، والغَنَمُ بَرَكَة)) .

الإبِلُ عِزٌّ لمالكيها ، لأنَّ فيها اللباس والأكل واللبن والحَمْل والغَزْو ، ويَظهرون في المجتمع كسادة ذَوِي منزلة رفيعة ، يَحترمهم الناسُ ، ويَنظرون إليهم بعَين التقدير والتعظيم .

والغَنَمُ بَرَكَةٌ لمالكيها ، لِمَا فيها مِن اللباس والطعام والشراب وكثرة النَّسْل ، كما أنَّها تَحمِل صاحبَها على التَّواضع . والغَنَمُ زِيادة في النُّمُوِّ والخَير ، ومنافعها كثيرة وظاهرة .

وعن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((... ، والفَخْرُ والخُيَلاءُ في أصحابِ الإبِل ، والسَّكِينَةُ والوَقَارُ في أهلِ الغَنَمِ)) [١٥٥].

الفَخْرُ ، وهو الإعجاب بالنَّفْس وتَعداد محاسن الآباء وَفْق أعراف الجاهلية . والخُيَلاءُ ، وهي التعالي والتكبُّر على الناس واحتقارهم ، هذه الصِّفاتُ تَكون مَوجودة في أصحاب الإبِل. والسَّكِينةُ (التواضع والطُّمأنينة) والوَقَار (الأنَاة والحِلْم) ، هذه الصِّفات تَكون موجودة فِيمَن يَرْعَوْنَ الغَنَمَ. وهذا يدلُّ على أنَّ مُخالطة الحَيَوَان تُؤَثِّر على طِبَاع وصِفات الإنسان ، وتُؤَثِّر في نَفْسِه .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ السَّكِينة مَأخوذة مِن سُكُون القَلْب .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ١٤١ و١٤٢) : (((السَّكِينة) بفَتْح السِّين (في أهل الشَّاء والبَقَر) لأنَّ مِن حِكمة اللَّه في خَلْقه أنَّ مَن اغتذى جِسمه بجُسمانية شيء اغتذت نَفسانيته ذلك الشيء. وقال بعضُهم: إنَّما خَصَّ أهلَ الغَنَم والبَقَر بذلك، لأنَّهم غالبًا دُون أهل الإبِل في التَّوَسُّع والكَثْرة ، وهُما من أسباب الفَخْر والخُيَلاء. وقِيل: أراد بأهل الغَنَم أهل اليَمَن ، لأنَّ غالب

---

١٥٥ رواه البخاري (٤/ ١٥٩٤) برقم (٤١٢٧) واللفظ له ، ومسلم (١/ ٧١) برقم (٥٢) .

مَوَاشيهم الغَنَم والبَقَر ، بخِلاف رَبيعة ومُضَر ، فإنَّهم أصحاب إبِل . وقال المَجد بن تَيْمِيَّة : أصلُ هذا أنَّ اللَّه جَبَلَ بني آدم بَل سائر المخلوقات على التَّفاعل بين الشيئين المُتشابهين ، وكُلَّما كانت المُشَابَهَة أقوى وأكثر ، فالتفاعل في الأخلاق والصِّفات أتم ، حتى يَؤُول الأمرُ إلى أن لا يتميَّز أحدُهما عَن الآخَر إلا بالمعنى ، وكُلَّما كان بَيْن إنسان وإنسان مُشَارَكَة في جِنس خاص ، كان التفاعل فيه أشد ، ثُمَّ بَيْنه وبَين سائر الحَيَوَان مُشَارَكَة في الجِنس المُتوسِّط ، فلا بُد مِن نَوع تفاعُل بقَدْره ، ثُمَّ بَيْنه وبين النَّبات مُشَارَكَة في الجِنس البَعيد مَثَلًا ، فلا بُد مِن نَوع ما مِن المُفَاعَلَة لهذا الأصل، وقع التأثر والتأثير في بني آدم واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمُعَاشَرَة والمُشَاكَلَة ، وكذا الآدمي إذا عاشرَ نَوْعًا مِن الحَيَوَان اكتسبَ بعضَ أخلاقه ، فلذلك صار الخُيَلاء والفَخْر في أهل الإبِل ، والسَّكِينة في أهل الغَنَم ، وصار الجَمَّالون والبَغَّالون فيهم أخلاق مَذمومة مِن أخلاق الجِمَال والبِغَال،وصار الحَيَوَان الإنسيُّ فيه بعض أخلاق الناس مِن العِشْرة والمُؤَالَفَة وقِلَّة النَّفْرة ، فالمُشَابَهَة والمُشَاكَلَة في الأُمور الظاهرة تُوجِب مُشَاكَلَة ومُشَابَهَة في الباطنة، على وجه المُسَارَقَة والتَّدريج الخفي)) .

وفي نَفْس المرجع (٤/ ٤٦٢) : (((الفَخْر) أي ادِّعاء العِظَم والكِبْر (والخُيَلاء) بالضَّم والمَد : الكِبْر والعُجْب (في أهل) البُيُوت المُتَّخذة مِن (الوَبَر) قال الخَطَّابي : إنَّما ذَمَّهُم لاشتغالهم بمُعَالَجَة ما هُم فيه عن أمر دِينهم ، وذلك يُفْضِي إلى قَسوة القَلْب (والسَّكِينة) وهي السُّكُون (والوَقَار) والتَّوَاضع (في أهل الغَنَم) لأنهم غالبًا دُون أهل الإبِل في التَّوَسُّع والكَثْرة ، وهُما مِن أسباب الفَخْر والخُيَلاء ، أي : فاتِّخاذ الغَنَم أَوْلَى مِن اتِّخاذ الإبِل ، لأنَّ هذه تُكسِب خُلُقًا مَذمومًا ، وهَذه خُلُقًا مَحمودًا)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَكُم فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُون ﴾ [النَّحْل : ٦] .

ولكم أيُّها الناس في هذه الأنعام زِينةٌ وحُسْنٌ يُدركه الناظرُ إليها . ويتجلى هذا الحُسْن في وَقْتَيْن : الوقتُ الأول ــ ﴿ حِين تُريحون ﴾ أي : حِين تَرُدُّونها مِن مَراعيها إلى مُرَاحها (المكان الذي تأوي إليه) بالعَشَيِّ . والوقت الثاني ــ ﴿ حِين تَسْرحون ﴾ أي : حِين تبعثونها إلى المَرعَى غُدْوةً. وبالتأكيد ، إنَّ الأنعام أثناء الرَّوَاح تَكون أكثر جمالًا ، لأنها قد رَعَتْ ، وامتلأت ضُروعها ، وعَظُمت أسنمتها . والمَرءُ يَستمتع بمنظرها صحيحةً سمينةً . وتقديم الرَّوَاح ، لأنَّ الفوائد والمنافع تُؤْخَذ مِن الأنعام بَعد الرَّوَاح، ومالكُها يَكون سعيدًا ومُعْجَبًا بها إذا راحت، بسبب جَمَالها الظاهر ، وبُطونها المليئة ، وضُروعها الحافلة . وكُل هذا ناتج عن الرَّعْي .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٠/ ٦٥) : ((وجَمَال الأنعام والدَّواب مِن جَمَال الخِلْقة ، وهو مَرئي بالأبصار مُوافق للبصائر ، ومِن جَمَالها كَثرتها ، وقَول الناس إذا رَأَوْها : هذه نِعَم فُلان ، قاله السُّدي . ولأنها إذا راحت تَوَفَّر حُسْنُها ، وعَظُمَ شأنُها ، وتعلَّقت القُلوب بها ، لأنها إذْ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضُروعًا ، قاله قَتادة . ولهذا المَعنى قَدَّمَ الرَّوَاحَ على السَّرَاح لتكامُل دَرِّها ، وسُرور النَّفْس بها إذْ ذاك ، واللَّهُ أعْلم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢١٢) : ((﴿ وَلَكُم فِيهَا جَمَالٌ ﴾ ، أي : لكم فيها معَ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُه جَمَال ، والجَمَال : ما يُتجمَّل به ويُتَزَيَّن ، والجَمَال : الحُسْن ، والمعنى هُنا : لكم فيها تجمُّل وتزيُّن عِند الناظرين إليها ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُون ﴾ ،أي : في هَذَين الوَقْتَيْن ، وهُما وَقْت رَدِّها مِن مَرَاعيها ، ووَقْت تَسريحها إلَيها ، فالرَّوَاح رُجُوعها بالعَشِيِّ مِن المَرَاعي ، والسَّرَاح : مَسيرها إلى مَرَاعيها بالغَدَاة . يُقَال: سَرَحَت الإبلُ أسْرَحَها سَرْحًا وسُرُوحًا : إذا غَدَوْتَ بها إلى المَرعَى ، وقَدَّمَ الإراحةَ على التَّسريح ، لأنَّ مَنظرها عِند الإراحة أجمل ، وذواتها أحسن ، لكَوْنها في تلك الحالة قد نالت حاجتها مِن الأكل والشُّرب، فَعَظُمَتْ بُطُونُها، وانتفخت ضُرُوعُها، وخَصَّ هَذَين الوَقْتَيْن لأنهما وقت نظر الناظرين إليها ، لأنها عِند استقرارها في الحظائر لا يَرَاها أحد ، وعِند كَونها في مَرَاعيها هي مُتفرِّقة غَير مُجتمعة ، كُل واحد مِنها يَرعَى في جانب)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُم إِلَى بَلَدٍ لَم تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلا بِشِقِّ الأنفُسِ إِنَّ رَبَّكُم لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [النَّحْل : ٧] .

وتَحْمِلُ الأنعامُ أغراضَكم وأحمالَكم الثقيلة ، مِن طَعَام وَمَتَاع وغَيره ، التي تَعجَزون عَن حَمْلها إلى بلد بعيد ، لَم تَكونوا لِتَصِلُوا إلَيه إلا بالتعب والمشقة ، إنَّ رَبَّكُم أيُّها الناسُ الذي سخَّر لكم هذه الأنعام لَرَؤوف رحيم بكم ، حَيث جَعَلَ لكم هذه المنافع والفوائد ، وسهَّل الأمرَ عَلَيكم . وقد امتنَّ اللَّهُ على عباده بخَلْق الأنعام، وتَسخيرها لهم لإراحتهم ، وتَيسير أُمورهم ، وقضاء حوائجهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢١٢) : ((﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُم ﴾ ،الأثقال: جَمْع ثِقْل ، وهو مَتَاع المُسافر مِن طعام وغَيره . وسُمِّيَ ثِقْلًا لأنه يُثقِل الإنسانَ حَمْلُه ، وقِيل : المُراد أبدانهم . ﴿ إلى بَلَدٍ لَم تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلا بِشِقِّ الأنفُسِ ﴾ ، أي : لَم تكونوا واصلين إلَيه لَوْ لَم يكن معكم إبِل تَحمِل أثقالَكم إلا بِشِق الأنفُس ، لبُعده عنكم ، وعدم وجود ما يَحمِل ما لا بُد لكم مِنه في السَّفَر ، وظاهره يتناول كُل بلد بعيدة مِن غَير تَعيين . وقِيل : المُراد بالبلد مَكَّة ، وقِيل : اليَمَن ومِصْر والشَّام ، لأنها متاجر العرب . وشِق الأنفُس : مَشَقَّتها)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٦٦) : ((مَنَّ اللَّهُ سُبحانَه بالأنعام عُمُومًا ، وخَصَّ الإبِلَ هُنا بالذِّكْر في حَمْل الأثقال على سائر الأنعام ، فإنَّ الغَنم للسَّرْح والذَّبْح ، والبَقَر للحَرْث ، والإبِل للحَمْل. ... . في هذه الآية دليل على جَوَاز السَّفَر بالدَّواب، وحَمْل الأثقال عليها،ولكن على قَدْر ما تحتمله مِن غَير إسراف في الحَمْل معَ الرِّفْق في السَّير.وقد أمرَ النبيُّ ﷺ بالرِّفْق بها،والإراحة لها ومُراعاة التَّفَقُّد لِعَلَفها وسَقْيها. وروى مُسلم من حديث أبي هُرَيرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ : " إذا سافرتم في الخِصْب فأعطُوا الإبِلَ حَظَّها مِن الأرض،وإذا سافرتم في السَّنَة فبادروا بها نِقْيَها " [١٥٦]. رواه مالك في المُوَطَّأ عن أبي عُبَيد عن خالد بن مَعْدان، وروى معاوية بن قُرَّة قال : كان لأبي الدَّرداء جَمَل يُقَال له دَمُّون،فكان يقول:يا دَمُّون، لا تُخَاصِمْني عِندَ رَبِّكَ. فالدَّواب عُجم لا تَقْدِر أن تحتال لنَفْسها ما تحتاج إلَيه ، ولا تَقْدر أن تُفْصِح بحَوائجها ، فمنَ ارتفق بمُرافقتها ثُمَّ ضيَّعها من حوائجها فقد ضيَّع الشُّكرَ، وتعرَّضَ للخُصومة بَين يَدَي اللَّه تعالى. وروى مطر بن محمد قال : حدَّثنا أبو داود قال: حدَّثنا ابن خالد قال: حدَّثنا المُسيَّب بن آدم قال : رأيتُ عُمرَ بن الخطاب رضي اللَّهُ عنه ضَرَبَ جَمَّالًا ، وقال : تَحمِل على بَعيرك ما لا يُطيق)) .

---

١٥٦ أمرت الشريعةُ الإسلاميةُ بالرفق بالحَيَوَان ، والإحسان إلَيه ، وعدم إيذائه والإساءة إليه ، وضرورة إعطائه حَقَّه مِن الراحة والطعام كَي يَستطيع السَّيْرَ . ومعنى الحديث : مَن سافرَ في وقت كثرة العُشب ، فيجب أن يُعطيَ الإبلَ (وباقي الدَّواب كالبِغَال والحمير) نصيبَها مِن الرَّعْي والرَّاحة ، وذلك بأن يُبطِئ بها السَّيْرَ،حتى تأخذ نصيبَها مِن الرَّعْي في العُشب . ومَن سافرَ في وقت الجَدْب والقَحْط ، فَلْيُسْرِع السَّيْرَ بها حتى تُوصله إلى هدفه في وقت سريع قبل أن يُصيبها التعب،إذْ إنَّ إبطاء السَّير بها قد يُؤَدِّي إلى التَّعَب والضَّعْف عَن مُواصلة السَّير ، وعدم القُدرة على الوصول إلى الهدف . والنِّقْيُ هو مُخ العَظْم . وقال الْمُناوي في فَيض القدير (١/ ٣٧٠):(((إذا سافرتم في الخِصْب) زَمَن كَثرة النَّبت والعَلَف(فأعطُوا الإبِلَ) ونَحْوها مِن الخَيل والبِغَال والحمير، وخَصَّ الإبل لأنها غالب مراكب العرب (حَظَّهَا) أي نصيبَها (مِن الأرض) أي مِن نباتها بأن تُمكِّنوها مِن الرَّعْي في بعض النهار وفي أثناء السَّير، جعله حَظًّا لأن صاحبها إذا أحسنَ رَعْيَها سَمِنَتْ وحَسُنَتْ في عَينه فينفَس بها ولم يَنحرها، ذَكَرَه الزمخشري. ... .(وإذا سافرتم في السَّنَة) الجَدْب والقَحْط وانعدام النَّبْت أوْ قِلَّته (فأسرعوا عليها السَّيْرَ) لتصل الْمَقصِد وبها بَقِيَّة مِن قُوَّتها لفَقْد ما يُقَوِّيها على السَّيْر . ... . رواية أُخرى وهي : إذا سافرتم في السَّنَة فبادروا بها نِقْيَها ، وأسرعوا عليها السَّيْرَ ما دامت قوية باقية . النِّقْي وهو الْمُخ)) .

وعن أبي هُرَيرةـ رضي اللَّهُ عنهـ عن النبيِّ ﷺ قال : ((إيَّايَ أن تتَّخذوا ظُهُورَ دَوَابِّكم مَنابرَ ، فإنَّ اللَّه إنَّما سَخَّرَها لكم لِتُبَلِّغَكم إلى بلد لَم تكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الأنفُس ، وَجَعَلَ لكم الأرضَ فَعَليها فاقْضُوا حَاجاتِكم)) [١٥٧].

يأمرُ النبيُّ ﷺ بالرِّفق بالحَيَوَان ، ويُحذِّر مِن إيذائه ، خاصَّةً ما يُستعمَل للرُّكُوب . ومعنى الحديث: دَعُوني مِن اتِّخاذ ظُهُور الدَّواب منابر ، أي : الجُلوس عليها عِند الخُطبة . وهذا نهيٌ عن الجُلوس على ظُهُور الدَّواب وهي واقفة ، وتبادل الأحاديث وغَير ذلك . فهذا الأمرُ يُتعبها ، ويُسبِّب لها الأذى . واللَّهُ جَعَلَ وظيفتها حَمْلَ الناس في السَّفَر إلى المناطق البعيدة التي يَصعُب الوُصول إلَيها إلا بعد تعب وشِدَّة، وسخَّر اللَّهُ لكم الأرضَ من أجل الاستفادة مِنها ، والانتفاع بها، فهي التي تَحمِلكم في الخُطَب ، وعِند الحديث ، وفي كُل الأحوال ، فافعلوا على ظَهْر الأرض ما تُريدون، ومَن أرادَ اتِّخاذ المنابر فليجعلها على الأرض، ولا يَجعلها على ظُهور الدَّواب ، رحمةً بها.

أمَّا إذا كان هناك حاجة وضرورة فلا بأس بالجُلوس على ظُهُور الدَّوَاب وهي واقفة، فقد خَطَبَ النبيُّ ﷺ على ناقته وهي واقفة . فعن عمرو بن خارجة : ((أنَّ النبيَّ ﷺ خَطَبَ على ناقته)) [١٥٨].

وفي عَون المَعبود (٧/ ١٦٩) : (((إيَّايَ) المَشهور في التَّحذير : الخِطاب ، وقد يكون بصيغة المُتكلِّم ، قاله في فتح الودود (أن تتَّخذوا ظُهورَ دوابكم منابرَ) قال القاري : والمعنى : لا تجلسوا على ظُهورها فتُوقفونها ، وتحدَّثون بالبَيع والشِّراء وغَير ذلك ، بل انزلوا واقْضُوا حاجاتكم ، ثُمَّ اركبوا . قال الطيبي : كِناية عَن القِيَام عليها ، لأنهم إذا خَطبوا على المنابر قاموا . انتهى (لِتُبَلِّغَكم) أي لتُوصلكم (بالغيه) أي واصلين إليه (إلا بِشِق الأنفُس) بكَسْر أوَّله ، أي: مشقتها وتعبها (وجعلَ لكم الأرضَ) أي بِسَاطًا وقَرَارًا (فَعَلَيها) أي على الأرض، لا على ظُهور الدَّواب (فاقضُوا حاجاتكم) قال الطيبي : الفاء الأُولَى للسَّببية ، والثانية للتعقيب، أي: إذا كان كذلك فعلى الأرض اقضُوا حاجاتكم ، ثُمَّ عقَّبه بقَوله: " فاقضُوا حاجاتكم" تفسيرًا للمُقَدَّر. انتهى. قال الخطابي ما مُحصِّله : إنَّه قد ثبت عنه ﷺ أنَّه خَطَبَ على راحلته واقفًا ، فدلَّ على أنَّ الوُقوف

---

١٥٧ رواه أبو داود في سُننه(٢/ ٣٢)، وأخطأ الألباني في تصحيحه . وفي عَوْن المعبود (٧/ ١٦٩) : ((قال المنذري:في إسناده إسماعيل بن عَيَّاش،وفيه مَقال))اهـ. وقال الْمُناوي في فَيض القدير (٣/ ١٣٤): ((قال ابن القَطَّان: ليس مِثل هذا الحديث يَصِح، لأنَّ فيه أبا مريم مَوْلى أبي هُرَيرة، ولا يُعرَف له حال)).

١٥٨ رواه التِّرمذي في سُننه (٤/ ٤٣٤) برقم (٢١٢١) ، وقال : ((حسن صحيح)) .

على ظُهورها إذا كان لإرْب (حاجة) ، أوْ بُلوغ وَطَر لا يُدرَك معَ النُّزول إلى الأرض جائز ، وأنَّ النَّهْي انصرفَ إلى الوقوف عليها لا لمعنى يُوجبه بأن يَستوطنه الإنسان ، ويتَّخذه مَقْعَدًا فيُتعِب الدَّابَّةَ ، ويَضُرُّ بها مِن غير طائل)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٣/ ١٣٤ و١٣٥) : (((إيَّايَ أن تتَّخذوا) أي: دَعُوني مِن اتِّخاذ (ظُهُورَ دَوَابِّكم منابرَ) يعني : اتركوا جُلوسَكم عليها وهي واقفة ، كما تَجلِسون على المنابر، فإن ذلك يُؤْذيها (فإنَّ اللَّه تعالى إنَّما سخَّرها لكم لِتُبَلِّغَكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الأنفُس ، وَجَعَلَ لكم الأرضَ فَعَلَيها فاقضُوا حاجاتكم) والنَّهْي مَخصوص باتِّخاذ ظُهورها مقاعد لغير حاجة ، أمَّا لحاجة لا على الدوام فجائزة ، بدليل أنَّ المصطفى صَلَّى اللَّهُ عليه وعلى آله وسَلَّمَ خَطَبَ على ناقته وهي واقفة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿والخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَركَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُون﴾ [النَّحْل: ٨].

وخَلَقَ اللَّهُ لكم الخَيْلَ والبِغالَ والحميرَ ، للحَمْل والرُّكُوب ، وجعلها زِينةً لكم مَعَ المنافع والفوائد التي فيها . واحتجَّ بهذه الآية مَن حرَّم لُحومَ الخَيْل . وهذه الحيوانات لها منافع عديدة فهي مُسخَّرة للرُّكُوب ، كما أنها زِينة تَجلِب السُّرورَ والبهجةَ، ويتزيَّن الناسُ بالرُّكُوب عليها .

واللهُ لَم يَقُل:لتركبوها وتتزيَّنوا بها ، وإنَّما قال: ﴿ لِتَركَبُوها وَزِينَةً ﴾ ،وتغييرُ النَّظْم في الآية يدلُّ على أنَّ الرُّكُوب أمر جوهري، والزِّينة عَرَضِيَّة.وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٣٨٧): ((﴿ لِتَركَبُوها وَزِينَةً ﴾ ، أي : لتركبوها وتتزيَّنوا بها زِينة . ... . وتغيير النَّظْم لأنَّ الزِّينة بفِعل الخالق ، والرُّكُوب لَيس بفِعْله ، ولأنَّ المقصود مَن خَلْقها الرُّكُوب ، وأمَّا التَّزَيُّن بها فحاصل بالعَرَض)) .

ويَخلُق اللَّهُ ما لا تَعْلَمون مِن الأشياء الغريبة العجيبة ، وقد يَكون المعنى : ويَخلُق في المُستقبل ما لا تَعْلَمُونه من وسائل النقل الحديثة ، كالسَّيارات والقِطارات والطائرات .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٦٨) : ((قال العلماء : مَلَّكَنا اللَّهُ تعالى الأنعامَ والدَّواب ، وذلَّلها لنا ، وأباحَ لنا تسخيرَها والانتفاع بها رحمةً مِنه تعالى لنا ، وما مَلَكه الإنسانُ وجاز له تَسخيره مِن الحَيَوَان ، فَكِرَاؤُه له جائز بإجماع أهل العِلْم لا اختلاف بَينهم في ذلك . وحُكم كِرَاء (أُجرة استئجار) الرَّواحل والدَّواب مذكور في كُتب الفِقه . لا خِلاف بين العلماء في اكتراء الدَّواب والرواحل للحَمْل عليها ، والسَّفَر بها ، لقَوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أثْقَالَكُم ﴾ الآية)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢١٢) : ((﴿والخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيرَ ﴾ بالنَّصْب عَطْفًا على ﴿ الأنعامَ ﴾ ، أي : وَخَلَقَ لكم هذه الثلاثة الأصناف . ... . وسُمِّيَت الخَيْل خَيْلًا لاختيالها

في مَشْيها ، وواحدُ الخيل خائل ، كضائن واحد الضَّأن ، وقِيل : لا واحد له . ثُمَّ علَّل سُبحانَه خَلْقَ هذه الثلاثة الأنواع بقَوله : ﴿ لِتَركَبُوها ﴾ ، وهذه العِلَّة هي باعتبار مُعظَم منافعها، لأن الانتفاع بها في غَير الرُّكُوب مَعلوم كالتَّحميل عليها ، وَعَطَفَ ﴿ زِينَةً ﴾ على مَحَل ﴿ لِتَركَبُوها ﴾ ، لأنَّه في مَحَل نَصْب على أنَّه عِلَّة لِخَلْقها، ولَم يَقُلْ : لتتزيَّنوا بها ، حتى يُطابِق ﴿ لِتَركَبُوها ﴾ ، لأنَّ الرُّكُوب فِعْل المُخَاطَبِين، والزِّينة فِعل الزائن وهو الخالق. والتحقيق فيه أن الرُّكُوب هو المُعْتَبَر في المَقصود بخِلاف الزِّينة، فإنَّه لا يَلتفت إليه أهلُ الهِمَم العالية، لأنَّه يُورِث العُجْبَ ، فكأنَّه سُبحانَه قال : خَلَقْتُها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضَرَرَ الإعياء والمَشَقَّة، وأمَّا التَّزَيُّن بها فهو حاصل في نَفْس الأمر، ولكنه غَير مقصود بالذات. وقد استدلَّ بهذه الآية القائلون بتحريم لُحوم الخَيْل قائلين بأنَّ التعليل بالركوب يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دُون غَيرها. قالوا : ويُؤيِّد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذِّكْر وإخراجها عن الأنعام، فيُفيد ذلك اتِّحاد حُكمها في تحريم الأكل. قالوا : وَلَوْ كان أكل الخَيْل جائزًا لكانَ ذِكْرُه والامتنان به أَوْلَى مِن ذِكْر الركوب، لأنَّه أعظم فائدة مِنه. وقد ذهب إلى هذا مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعي ومجاهد وأبو عُبَيد وغَيرهم . وَذَهَبَ الجُمهورُ من الفقهاء والمُحدِّثين وغَيرهم إلى حِل لُحوم الخَيْل ولا حُجَّة لأهل القَول الأول في التَّعليل بقَوله : ﴿ لِتَركَبُوها ﴾ ، لأنَّ ذِكْر ما هو الأغلب مِن منافعها لا يُنافي غَيْرَه، ولا نُسلِّم أن الأكل أكثر فائدة مِن الركوب حتى يُذكَر، ويَكون ذِكْرُه أقدم مِن ذِكْر الركوب، وأيضًا لَوْ كانت هذه الآية تدل على تحريم الخَيْل لَدَلَّتْ على تحريم الحُمُر الأهلية، وحينئذ لا يَكون ثَمَّ حاجة لتحديد التَّحريم لها عام خَيْبَر ، وقد قَدَّمْنا أن هذه السُّورة مَكِّية ، والحاصل: أنَّ الأدلة الصحيحة قد دَلَّتْ على حِل أكل لُحوم الخَيْل، فَلَوْ سَلَّمْنا أنَّ في هذه الآية مُتَمَسَّكًا للقائلين بالتَّحريم لكانت السُّنَّة المُطهَّرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال ودافعة لهذا الاستدلال. ... . ﴿ وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُون﴾ ، أي: يَخلُق ما لا يُحيط عِلْمُكم به مِن المخلوقات غَير ما قد عَدَّده هاهُنا . وقِيل: المُراد مِن أنواع الحَشَرَات والهوام ، في أسافل الأرض وفي البحر، مِمَّا لَم يَرَه البشرُ ، ولَم يَسمعوا به ، وقِيل : هو ما أعدَّ اللَّهُ لعباده في الجَنَّة وفي النار ، مِمَّا لَم تَرَه عَين ، ولَم تَسمع به أُذُن ، ولا خَطَر على قلب بَشَر. وقِيل: هو خَلْق السُّوس في النبات ، والدُّود في الفواكه . وقِيل : عَين تحت العَرْش . وقِيل: نَهر مِن النُّور . وقِيل: أرض بَيْضاء. ولا وجه للاقتصار في تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع، بَل المُراد أنَّه سُبحانَه يَخلُق ما لا يَعلَم به العِبادُ، فيَشمل كُلَّ شيء لا يُحيط عِلْمُهم به. والتَّعْبير هُنا بلفظ المُستقبل لاستحضار الصُّورة ، لأنَّه سُبحانَه قَد خَلَقَ ما لا يَعلَم به العِبادُ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وأوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُون ﴾ [النَّحْل : ٦٨] .

ألهمَ اللَّهُ النَّحْلَ ، وأرشدها إلى بناء بُيوتها البديعة في كُوى الجِبال ، وتَجويفِ الأشجار ، وكُلِّ ما يَرفعه الناسُ مِن كَرْم أو سَقْف .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٥٩) : ((المُراد بالوَحْي هُنا الإلهام والهِداية والإرشاد للنَّحْل أن تَتَّخِذ مِن الجِبال بُيُوتًا تأوي إلَيها ، ومِن الشَّجَر ، ومِمَّا يَعرِشُون ، ثُمَّ هي مُحْكَمَة في غاية الإتقان في تسديسها ورَصِّها ، بحيث لا يكون في بيتها خَلَل)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٦٥): ((قَوله تعالى : ﴿ وأوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ ﴾ في هذا الوَحْي قَولان : أحدهما أنَّه إلهام ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس، وبه قال مُجاهد والضَّحاك ومُقاتل. والثاني أنَّه أَمْر ، رواه العَوفي عن ابن عباس . وروى ابن مُجاهد عن أبيه قال: أرسلَ إليها. والنحل زنابير العسل، واحدتها نَحْلة ، و(يَعرِشُون) يَجعلونه عَرِيشًا . ... . ثُمَّ فِيه قَولان: أحدهما ما يَعْرِشُون مِن الكُرُوم ، قاله ابن زَيد . والثاني أنَّها سُقُوف البُيُوت، قاله الفَرَّاء. وقال ابن قُتَيبة : كُل شيء عُرِشَ مِن كَرْم أو نبات أو سَقْف، فهو عَرْش ومَعروش. وقِيل: المُراد بِـ ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُون ﴾ مِمَّا يَبْنُون لهم مِن الأماكن التي تُلقي فيها العَسَلَ ، ولَوْلا التَّسخير ما كانت تأوي إليها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ [النَّحْل : ٦٩] .

ثُمَّ كُلِي أيَّتُها النَّحْلُ مِن كُل ثَمَرَة تشتهينها ، حُلْوِها ومُرِّها ، فإنَّ اللَّه بقُدرته يُحِيلها إلى عَسَل ، فادخلي طُرُقَ رَبِّكِ لطلب الرِّزق في المَرَاعي والجِبال والأشجار ، مُسَخَّرَةً لَكِ ، ومُيَسَّرَةً أمامكِ ، لا تَضِعين في الذهاب أو الإياب . وقد أضافَ اللَّهُ السُّبُلَ إلَيه لأنه خالقها .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٥٩) : ((أَذِنَ لها تعالى إذْنًا قَدَرِيًّا تَسخيريًّا أن تأكل مِن كُل الثَّمَرَات ، وأن تَسلُك الطُّرُقَ التي جَعَلَها اللَّهُ تعالى مُذَلَّلَةً لها ، أي : مُسَهَّلَة عَلَيها حَيث شاءت مِن هذا الجَو العظيم ، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة ، ثُمَّ تَعُود كُل واحدة مِنها إلى بَيتها لا تَحِيد عنه يَمْنَةً ولا يَسْرَةً، بَل إلى بَيْتها وما لها فيه مِن فِرَاخ وعَسَل ، فتبني الشَّمْعَ مِن أجنحتها ، وتقيء العَسَلَ مِن فِيها ، وتَبيض الفِرَاخ مِن دُبُرها ، ثُمَّ تُصبح إلى مَرَاعيها)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٥١): ((﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ، " مِن " للتَّبعيض ، لأنها تأكل النَّوْرَ مِن الأشجار ، فإذا أَكَلَتْهَا ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ ، أي: الطُّرُق التي

فَهَّمَكِ اللَّهُ وعَلَّمَكِ . وأضافها إلى الرَّب ، لأنَّه خالقها ، ومُلهِم النَّحْلَ أن تَسلُكها ، أي : ادْخُلي طُرُقَ رَبِّكِ لِطَلَب الرِّزق في الجِبال ، وخِلال الشَّجَر ، أو اسلُكي ما أكلتِ في سُبُل رَبِّك ، أي : في مَسَالكه التي يُحِيل فيها بقُدرته النَّوْرَ عَسَلًا ، أوْ: إذا أكلتِ الثِّمَارَ في الأمكنة البعيدة فاسلُكي إلى بُيوتك راجعة سُبُل رَبِّكِ ، لا تَضِلِّين فيها . وانتصاب ﴿ ذُلُلًا ﴾ على الحال مِن السُّبُل ، وهي جَمْع ذَلُول : أي مُذَلَّلَة غَير مُتوعِّرة . واختار هذا الزَّجاج وابن جرير ، وقِيل : حال مِن النَّحْل ، يعني : مُطيعة للتَّسخير ، وإخراج العَسَل مِن بُطُونها ، واختار هذا ابن قُتَيبة)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٦٦): ((قَوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ قال ابن قُتَيبة : أي : مِن الثَّمَرَات ، و" كُل " هاهُنا لَيست على العُمُوم . ... . قال الزَّجاج : فهي تأكل الحامضَ ، والمُرَّ ، وما لا يُوصَف طَعْمُه ، فيُحِيل اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِن ذلك عَسَلًا . قَوله تعالى : ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ ، السُّبُل : الطُّرُق ، وهي التي يُطلَب فيها الرَّعْي . والذُّلُل جَمْع ذَلُول . وفي المَوصوف بها قَولان : أحدهما أنَّها السُّبُل ، فالمعنى : اسلُكي السُّبُلَ مُذَلَّلَةً لَكِ ، فلا يتوعَّر عليها مكان سَلَكَتْهُ ، وهذا قَول مُجاهد ، واختيار الزَّجاج . والثاني أنَّها النَّحْل ، فالمعنى : إنَّكِ مُذَلَّلَة بالتَّسخير لبني آدم ، وهذا قَول قَتادة ، واختيار ابن قُتَيبة)) .

يَخْرُجُ مِن بُطون النَّحْل عَسَلٌ مُتنوِّع ومُتعدِّد الألوان: أحمر، أبيض، أصفر. فيه شِفَاء للناس مِن كثير مِن الأمراض، ولَيس كُل الأمراض،وهو قُوَّة للبَدَن والرُّوح معًا.وذِكْرُ العسل للتَّنبيه على فضيلته على سائر المشروبات . وتَنكيرُ ﴿ شِفَاءٌ ﴾ يدلُّ على أنَّ العَسَل شِفاء لبعض الأمراض لا جَميعِها .

وفي زاد المسير (٤/ ٤٦٦) : ((قال الزَّجاج : يَخرُج مِن بُطُونها ، إلا أنَّها تُلقيه مِن أفواهها ، وإنَّما قال : ﴿ مِن بُطُونِهَا ﴾ ، لأنَّ استحالة الأطعمة لا تكون إلا في البَطْن ، فيَخرُج كالرِّيق الدائم الذي يَخرُج مِن فَم ابن آدم)) .

والآيةُ ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ﴾ مُسْتَأنَفَة . وقد عَدَلَ اللَّهُ عِن مُخاطبة النَّحْل ، لِذِكْر نِعَمه على الناس ، وتنبيهًا لهم على عجائب النَّحْل المَخلوق الصَّغير ، وأنَّ خَلْقها وإلهامها لأجلهم ، وبُغية تحقيق مصالحهم ومنافعهم ، وكُل هذا يدلُّ على كمال قُدرة اللَّه تعالى . والجديرُ بالذِّكر أنَّ اللَّه نوَّع ألوانَ العَسَل بِحَسَب نَوعية الغِذاء ، وجَعَلَ طَعْمَ العَسَل مُختلفًا بِحَسَب اختلاف المَرَاعي . وهنا ، تظهر آثارُ قُدرة اللَّه الباهرة. وفي تفسير ابن كثير (٢/ ٧٥٩) : ((قال بعضُ مَن تكلَّمَ على الطِّب النبويِّ : لَوْ قال : فِيه الشِّفاء للناس ، لكان دَوَاء لكل دَاء ، ولكن قال : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ للنَّاسِ ﴾ ، أي : يَصلُح لكُل أحد مِن أدواء باردة ، فإنَّه حار ، والشَّيء يُدَاوَى بِضِدِّه)) .

وقال الرازي في التفسير الكبير (٢٠/ ٧٢) : ((فإن قالوا : كيف يكون شِفَاءٌ للناس وهو يُضِرُّ بالصَّفراء ؟ ، فالجواب أنَّه تعالى لَم يَقُلْ : إنَّه شِفَاءٌ لكُل الناس ، ولكُل داء ، وفي كُل حال ، بَل لَمَّا كان شِفَاء للبَعْض ، ومِن بَعْض الأدواء ، صَلَحَ بأن يُوصَف بأنَّ فِيه شِفَاء)) .

وفي تفسير القُرطبي (١٠/ ١٢٠): ((قال القاضي أبو بكر بن العربي : مَن قال إنَّه القُرآن، بعيد ما أراه يَصِح عَنهُم ، وَلَوْ صَحَّ نَقْلًا لم يَصِح عَقْلًا ، فإنَّ مَسَاق الكلام كُلَّه للعَسَل ، لَيس للقُرآن فِيه ذِكْر . قال ابن عَطِيَّة : وَذَهَبَ قَوم مِن أهل الجَهَالة إلى أنَّ هذه الآية يُراد بها أهل البَيت وبنو هاشم ، وأنَّهم النَّحْل ، وأنَّ الشَّراب القُرآن والحِكمة . وقد ذَكَرَ هذا بعضُهم في مجلس المَنصور أبي جعفر العباسيِّ ، فقال له رَجُل مِمَّن حَضَرَ : جَعَلَ اللَّهُ طعامَكَ وشرابَكَ مِمَّا يَخرُج مِن بُطُون بني هاشم ، فأضحكَ الحاضرين ، وبُهِتَ الآخَرَ ، وظهرت سخافة قَوْله)) .

وفي زاد المسير (٤/ ٤٦٦) : ((قال ابن الأنباريِّ : الغالب على العَسَل أنَّه يعمل في الأدواء (الأمراض) ، ويدخل في الأدوية، فإذا لَم يُوافق آحادَ المرضى، فقد وافق الأكثرين، وهذا كقول العرب : الماء حياة كُل شيء، وقد نرى مَن يَقتله الماءُ ، وإنَّما الكلام على الأغلب)) .

إنَّ في إلهام النَّحْل إلى مَرَاعيها، واجتناء الأزهار والثِّمار ، وجَمْع الشَّمْع والعَسَل ، لآيَة باهرة ودَلالة واضحة وعِبْرَة ظاهرة لِقَوم يتفكَّرون في قُدرة اللَّه المُطْلَقَة ، وحِكمته البالغة، وبديعِ صُنعه .

خَلَقَ اللَّهُ النَّحْلَ (كائنات صغيرة ضعيفة) ، وقدَّر شُؤونَها ، وسخَّرها لأداء وظيفتها ، ويسَّر الطُّرُقَ أمامها،وأخرجَ مِن النَّحْلِ العَسَلَ،وجَعَلَه شِفَاءً للناس،وهي تأكل الحُلْوَ والمُر والحامض والمالح والحشائش الضَّارَّة ، وهذا أمرٌ عجيب ومُدهِش ، يدلُّ على وُجود الصانع ووَحدانيته وعَظَمَته وقُدرته.وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٦١٣):((قَوله: ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في إخراج اللَّه مِن بُطُون هذه النَّحْل:الشَّراب المُختلف الذي هو شِفاء للنَّاس،لَدَلالة وحُجَّة واضحة على مَن سخَّر النَّحْلَ وَهَدَاها لأكل الثَّمَرَات التي تأكل، واتِّخاذها البُيُوت التي تُنحَت مِن الجِبال والشَّجَر والعُروش ، وأخرجَ مِن بُطُونها ما أخرجَ مِن الشِّفَاء للناس ، أنَّه الواحد الذي لَيس كَمِثْله شيء ، وأنَّه لا يَنبغي أن يَكون له شريك ، ولا تَصِح الأُلُوهة إلا له)).

وعن عبد اللَّه بن مسعود قال:قال رسول اللَّه ﷺ:((عَلَيكُم بالشِّفَاءَيْن:العَسَلِ والقُرآنِ)) [١٥٩].

---

١٥٩ رواه ابن ماجة في سُننه (٢/ ١١٤٢) . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٥٩) : ((وهذا إسناد جَيِّد ، تَفَرَّدَ بإخراجه ابن ماجة مرفوعًا)) اهـ. وصحَّحه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٢٢) ووافقه الذهبي.

في العَسَل شِفاء للناس مِن أمراض كثيرة تُصيبهم ، والقُرآن شِفَاء لِمَا في القُلوب ، حَيث يُطهِّرها مِن الشُّبُهَات والشَّهَوَات ، ويَجعل القلبَ نقيًّا ، والإنسانَ طاهرًا .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٣٤٢ و٣٤٣) : (((عَلَيكُم بالشِّفَاءَين : العَسَلِ) لُعَاب النَّحْل ، وله زُهاء مئة اسم (والقُرآنِ) جَمَعَ بَيْنَ الطب البشريِّ والإلهيِّ ، وبين الفاعل الطبيعي والرُّوحاني ، وطِب الأجساد وطِب الأرواح ، والسَّبَب الأرضي والسَّمائي . ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ ﴾ ، قال الطيبي : قَوله : " العَسَلِ والقُرآنِ " تَقسيم للجَمْع ، فَجَعَلَ جِنس الشِّفاء نَوْعَيْن : حقيقي وغَير حقيقي ، ثُمَّ قسَّمه ، نَحْو قَوْلهم : القلم أحد اللسانَيْن ، والخال أحد الأبوَيْن. وقال المظهر : شِفَاء البِئر والنَّهْر : طَرَفُه ، والشِّفاء مِن المَرَض مُوَافاة شِفَاء السَّلامة، فصار اسمًا للبُرْء . قال تعالى في العَسَل : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ للنَّاسِ ﴾ ، وفي القُرآن : ﴿ شِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُور ﴾ [يُونُس : ٥٧] . قال ابن القَيِّم : جِمَاع أمراض القَلْب : الشُّبُهَات والشَّهَوَات ، والقُرآنُ شِفاء لهما ، ففيه مِن البَيِّنات ، والبراهين القطعية ، والدَّلالة على المطالب العالية ، ما لم يتضمَّنه كِتاب سِوَاه ، فهو الشِّفاء بالحقيقة ، لكن ذلك مَوقوف على فَهْمه وتقريره المُراد فيه)) .

وعن عبد اللَّه بن مسعود ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال : ((في القُرآن شِفاءان : القُرآنُ والعَسَلُ ، القُرآنُ شِفَاءٌ لِمَا في الصُّدور ، والعَسَلُ شِفَاءٌ مِن كُل داء)) [١٦٠].

وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال : جاء رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال : إنَّ أخي استطلقَ بَطْنُه ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ : ((اسْقِهِ عَسَلًا))، فَسَقَاهُ، ثُمَّ جاءه، فقال: إنِّي سَقَيْتُه عَسَلًا فَلَم يَزِدْهُ إلا استطلاقًا، فقال له ثلاث مَرَّات، ثُمَّ جاء الرَّابعة، فقال: ((اسْقِهِ عَسَلًا))، فقال: لَقَد سَقَيْتُهُ فَلَم يَزِدْهُ إلا استطلاقًا ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ : ((صَدَقَ اللَّهُ ، وكَذَبَ بَطْنُ أخِيك)) ، فَسَقَاهُ ، فَبَرَأ [١٦١].

أُصِيبَ هذا المريض بالإسهال بسبب فساد هَضْمه ، واعتلال مَعِدته، وقد عَلِمَ النبيُّ ﷺ دَاءَ الرَّجل ودَوَاءَه، فجاءت الوَصفة الطِّبية النَّبوية بِسَقْيِه عَسَلًا ، فازدادَ الإسهالُ . وقد يقول أحدُهم : العَسَل مُسَهِّل ، فكيف يُوصَف العَسَلُ للمُصاب بالإسهال ؟ . لقد عَلِمَ النبيُّ ﷺ طبيعةَ مَرَض الرَّجل ، فوصفَ له العسلَ ، كَي تندفع جَميع الفَضَلات الفاسدة المُجتمعة في المَعِدة ، فتُصبح المَعِدةُ فارغةً ، وتَستعيد نشاطها ، وتستعد لاستقبال الطعام والشراب من جديد .

---

١٦٠ رواه البَيهقي في سُننه (٩/ ٣٤٥) ، وقال : هذا هو الصحيح مَوقوف .

١٦١ رواه مُسلم (٤/ ١٧٣٦) برقم (٢٢١٧) ، والبخاري (٥/ ٢١٥٢) برقم (٥٣٦٠) .

والكَـذِبُ مُختص بـالأقوال ، أمَّـا وصـفُ بـالبَطْن بالكَـذِب ، فهـو إشـارة إلـى أنَّ المُشـكلة فـي البَطْن ، وليس في العسل .

والمقصـودُ بالعِبـارة النبويـة : " صَـدَقَ اللَّـهُ " ، هـو قَولـه تعالى : ﴿ فِيـهِ شِـفَاءٌ للنَّـاسِ ﴾ ، وهـو العَسَل . وهذا تصريح مِن النبيِّ ﷺ بأنَّ الضَّمِير في الآية يَعود إلى الشَّرَاب (العَسَل) .

والمَقصـود بالعبـارة النبويـة : " وكَـذَبَ بَطْـنُ أخيـك " ، أنَّـه لَـم يَصـلُح للشِّـفاء بَعْـد بهـذه الكَمِّيـة التي شَرِبَها . وقد يُؤَخِّر اللَّهُ الشِّفَاءَ لتتم المُدَّة التي قدَّر اللَّهُ فيها الدَّاءَ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ٢٠٣) : ((قال بعضُ العُلَماء : الآية على الخُصُوص ، أي : شِفَاء مِن بَعض الأدواء ، ولبعض الناس . وكان داء هذا المَبطُون مِمَّا يُشفَى بالعَسَل ، وليس في الآية تصريح بأنَّه شِفاء مِن كُل داء ، ولكنْ عَلِمَ النبيُّ ﷺ أنَّ داء هذا الرَّجل مِمَّا يُشفَى بالعسل ، واللَّهُ أعْلم)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٥٩) : ((قال بعضُ العُلَماء بالطِّب : كان هذا الرَّجل عِنده فَضَلات ، فلمَّا سَقَاه عَسَلًا ، وهو حار ، تحلَّلت ، فأسرعت في الاندفاع ، فزاده إسهالًا ، فاعتقدَ الأعرابيُّ أنَّ هذا يَضُرُّه ، وهو مَصلحة لأخيه ، ثُمَّ سقاه فازداد التحليل والدَّفْع ، ثُمَّ سَقَاه فكذلك، فلما انـدفعت الفَضَـلاتُ الفاسـدة المُضِـرَّة بالبَـدَن ، استمسـكَ بَطْنُـه ، وَصَـلَحَ مِزَاجُـه ، وانـدفعت الأسقام والآلام بِبَرَكَة إشارته ، عليه مِن رَبِّه أفضل الصلاة والسلام)) .

وعن أنس بن مالك : قال رسول اللَّه ﷺ : ((عُمْرُ الذُّبَابِ أربعونَ لَيْلَةً ، والذُّبَابُ كُلُّهُ في النَّارِ إلا النَّحْل)) [١٦٢].

هذا الحديثُ يدلُّ على فَضْل النَّحْل وشَرَفه . وكَوْنُ الذُّبَاب في النار لَيس عذابًا له ، وإنما لِيُعذَّب به أهل النار بوُقوعه عَلَيهم .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٥٠) : ((قال الجوهري : يُقَال إنَّه لَيس شيء مِن الطُّيُور يَلَغُ إلا الذُّباب _ يعني : يَشرَب بأطراف لِسانه _ . وقال أفلاطون : الذُّباب أحرص الأشياء حتى إنَّه يُلْقي نَفْسَه في كُل شيء ، ولو كان فيه هلاكُه ، ويتولَّد مِن العُفُونة ، ولا جَفْن للذُّبابة لِصِغَر حَدَقتها ، والجَفْن يَصقُل الحَدَقَةَ ، فالذُّبابة تَصقُل بيَدَيْها ، فلا تزال تَمسَح عَينيها ، ومِن عجيب

---

١٦٢ رواه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٣٠). وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٦٠): ((رجاله ثقات)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٥٠): ((سنده لا بأس به)) .

أمره أنَّ رَجِيعه يَقَع على الثَّوْب الأسْوَد أبيض ، وبالعكس . وأكثر ما يَظهَر في أماكن العُفُونة ، ومَبْدَأ خَلْقه مِنها ، ثُمَّ مِن التَّوَالُد ، وهو مِن أكثر الطيور سِفَادًا ، ورُبَّما بَقِيَ عامَّة اليوم على الأُنثى. ويُحكَى أنَّ بعض الخُلَفاء سأل الشافعيَّ : لأيِّ عِلَّة خُلِقَ الذُّباب؟ ، فقال : مَذَلَّة للمُلُوك . وكانت ألَحَّت عليه ذُبَابة، فقال الشافعيُّ: سألني ولَم يكن عِندي جواب فاستنبطتُه مِن الهَيئة الحاصلة)).

وعن أبي هُرَيرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: ((مَثَلُ بِلالٍ كَمَثَلِ نَحْلَةٍ غَدَتْ تأكلُ مِنَ الحُلْوِ والمُر، ثُمَّ هُوَ حُلْوٌ كُلُّه)) [١٦٣].

هذا الحديثُ يُوضِّح كمالَ قُدرة اللَّه ، فالنحلةُ تأكلُ مِن الحُلْو والمُر ، ثُمَّ يُخرِج اللَّهُ مِنها عَسَلًا حُلْوًا كُلَّه ، كما يُوضِّح فَضْل الصحابيِّ بِلال بن رَبَاح ــ رضي اللَّهُ عنه ــ ومنزلته الرفيعة .

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((... ، وَمَثَلُ المُؤمنِ كَمَثَلِ النَّحْلَة ، أكَلَتْ طَيِّبًا ، وَوَضَعَتْ طَيِّبًا، وَوَقَعَتْ طَيِّبًا ، فَلَم تَفْسُدْ ، ولَم تُكْسَرْ)) [١٦٤].

المؤمنُ كالنَّحْلة ، ذكيٌّ فَطِن ، حياته نظيفة وطاهرة ، يَحرِص على الطَّيبات ، ويَبتعد عن الخبائث،ويَفعل الطاعات، ولا يَقترب مِن المعاصي، ويُساعد الناسَ، ويُحافظ على البيئة،ولا يُسبِّب ضَرَرًا أوْ أذى لأيِّ مخلوق ، فهو ناشرٌ للخَير والمحبة والتسامح في كُل زمان ومكان .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٥١١) : ((قال ابن الأثير : ... ، يُريد نَحْلَة العَسَل ، ووَجْه الشَّبَه حِذْق النَّحْل ، وفِطنته ، وقِلَّة أذاه ، وحَقارته ، ومَنفعته ، وقُنوعه ، وسَعْيه في الليل ، وتَنَزُّهه عن الأقذار ، وطِيب أكله ، وأنَّه لا يَأكل مِن كَسْب غَيْره ، وطاعته لأميره ، وأنَّ للنَّحْل آفاتٍ تَقطَعه عَن عَمَله ، مِنها: الظُّلْمَة والغَيْم والرِّيح والدُّخَان والماء والنار ، وكذلك المُؤمِن له آفات تُفَتِّره عَن عمله: ظُلمة الغَفْلَة ، وغَيم الشَّك ، ورِيح الفِتنة ، ودُخَان الحَرَام ، ونار الهَوَى)).

والجديرُ بالذِّكر أنَّ النبيَّ ﷺ نَهَى عَن قَتْل النَّحْلَة ، وهذا يدلُّ على فَضْلها ومكانتها ، فعن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال : ((إنَّ النبيَّ ﷺ نهى عَن قَتْلِ أربعٍ مِنَ الدَّوَاب : النَّمْلَةِ ، والنَّحْلَةِ ، والهُدْهُدِ ، والصُّرَدِ)) [١٦٥]. والصُّرَد : طائر فوق العُصفُور ، نِصفه أبيض، ونِصفه أَسْوَد .

---

١٦٣ رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٦٣) ، وحسَّنه السُّيوطي في الدُّر المنثور (٥/ ١٤٦) .

١٦٤ رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٤٧) برقم (٢٥٣) وصحَّحه .

١٦٥ رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٧٨٩) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ٢٣٩): ((رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ في جَوِّ السَّمَاءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إلا اللَّهُ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يؤمنون ﴾ [النَّحْل : ٧٩] . هذا مِن الأدلة على وُجود اللَّه ووَحدانيته وقُدرته .

سَخَّرَ اللَّهُ الطَّيْرَ في الهواء بَين السَّماء والأرض، خاضعات لأمر اللَّه تعالى، ومُذَلَّلات للطَّيَرَان بما خَلَقَ لها مِن الأجنحة ، وهيَّأ الأسبابَ المُساعِدة له ، ويَستفيد الناسُ مِن الطَّيْر في تحقيق مصالحهم ومنافعهم ، فالطَّيْرُ مُذَلَّلات لمنافع الناس وَفْق إرادة اللَّه تعالى . وقَوله : ﴿ مُسَخَّراتٍ ﴾ يدلُّ على وُجود مُسَخِّر قادر وحكيم ومُدَبِّر ، مَنَحَها القُدرةَ على الطَّيَرَان ، ومكَّنها مِن التَّصَرُّف . ما يُمْسِكُهُنَّ في الجَوِّ عِند قَبْض أجنحتهنَّ وبَسْطها ويَحميهنَّ مِن الوُقوع على الأرض ، إلا اللَّه . وثِقَلُ أجسادها يَقتضي سُقوطها ، ولا علاقة فوقها ، ولا قاعدة تحتها ، وهذا يَنفي خصائصَ القُوى الطبيعية ، إنَّ في تَسخير الطَّيْر للطَّيَرَان بهذه الشكل البديع ، وخَلْق الجَو المُناسب، لَعَلامات ودَلالات وعِبَرًا لقَوم يُصدِّقون بوَحدانية اللَّه ، وبما جاءت به رُسُلُه الكرام .

وتَخصيص ﴿ لِقَوْمٍ يؤمنون ﴾ لأنَّهُم المُنتفعون بالآيات ، والمُستفيدون مِن الأدلة والبراهين .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٦٢): ((ذَكَرَ سُبحانَه دليلًا على كَمَال قُدرته، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ ، أي : أَلَم يَنظُروا إلَيها حَالَ كَوْنها مُسَخَّرَات ، أي: مُذَلَّلات للطَّيَرَان بما خَلَقَ اللَّهُ لها مِن الأجنحة ، وسائر الأسباب المُواتية لذلك ، كَرِقَّة قَوَام الهَواء ، وإلهامها بَسْط الجَناح وقَبْضه ، كما يَفعل السابحُ في الماء ﴿ في جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ ، أي : في الهواء المُتباعد مِن الأرض في سَمْت (طريق) العُلُوِّ . وإضافته إلى السَّماء لكَوْنه في جانبها ﴿ ما يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في الجَوِّ ﴿ إلا اللَّهُ ﴾ سُبحانَه بقُدرته الباهرة ، فإنَّ ثِقَل أجسامها ، ورِقَّة قَوَام الهواء، يَقتضيان سُقُوطَها ، لأنَّها لَم تتعلَّق بشيء مِن فَوقها ، ولا اعتمدت على شيء تَحتها . ... . ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ ﴾ ، أي : إنَّ في ذلك التَّسخير على تِلك الصِّفة لآياتٍ ظاهرات تدلُّ على وَحدانية اللَّه سُبحانَه ، وقُدرته الباهرة ، ﴿ لِقَوْمٍ يؤمنون ﴾ باللَّهِ سُبحانَه ، وبما جاءت به رُسُلُه مِن الشرائع التي شَرَعَهَا اللَّهُ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ واللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِن بُيُوتِكُم سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِن جُلُودِ الأنعامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُم وَيَوْمَ إقَامَتِكُم وَمِنْ أصْوَافِهَا وأوْبَارِهَا وأشْعَارِهَا أثَاثًا وَمَتَاعًا إلى حِينٍ ﴾ [النَّحْل : ٨٠] .

يُعدِّد اللَّهُ نِعَمَه على الناس كَي يُوحِّدوه ويَشكروه.جَعل اللَّهُ لكم أيُّها الناس مِن بُيُوتكم التي هي مِن الحَجَر والمَدَر (الطِّين اللزج المُتماسك) مَوْضِعًا تَسكُنونه ، وتَرتاحون فيه ، ويَستر عَوراتكم

وحَرَمَكم . وقد خَلَقَ اللَّهُ الخَشَبَ والطِّين والآلات والأدوات ، التي يُمكن بها بناء البَيت وتَجميله وإنشاء سَقْف له .

وجَعَلَ لَكُم مِن جُلود الأنعام بُيُوتًا مِن الشَّعْر والصُّوف والوَبَر (الخِيَام والقِبَاب) ، يَخِفُّ عَلَيكم حَمْلُها ونَقْلُها في التَّرحال والإقامة ، وهذه البُيُوت خفيفة عليكم في السَّفَر والحَضَر .

وجَعَلَ لكم مِن صُوف الغَنَم ، ووَبَر الإبِل ، وشَعْر المَعْز ، ما تَلبَسونه ، وتَفرُشون به بُيوتكم . وهذه الأشياءُ مِن النِّعَم الإلهية العظيمة ، حيث يتم اتِّخاذها أثاثًا للبُيُوت مِثل البُسُط والأكسية ، ومَتَاعًا (تتمتَّعون به) ، إلى مُدَّة زمنية مُعيَّنة ، فإنَّ هذه المَوَاد تبقى زَمَنًا طويلًا بسبب صَلابتها .

وهذا يَدل على حقيقة مُفادها أنَّ اللَّه لَم يَخْلُق الناسَ لِيُعذِّبهم أو يُضيِّق عليهم في مَعَاشهم . بَل خَلَقَهم ليرحمهم في الدُّنيا بتَسهيل أُمورهم ، ويَرحمهم في الآخرة بأن يَمْنحهم النعيمَ الأبديَّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٦٥) : ((يَذكر تبارك وتعالى تَمَامَ نِعَمه على عَبيده بما جَعَلَ لهم مِن البُيُوت التي هي سَكَن لهم ، يأوون إلَيها ، ويستترون بها ، وينتفعون بها ، بسائر وجوه الانتفاع ، وَجَعَلَ لهم أيضًا مِن جُلود الأنعام بُيُوتًا ، أي : مِن الأَدَم ، يَسْتَخِفُّون حَمْلَها في أسفارهم ليَضربوها لهم في إقامتهم في السَّفَر والحَضَر ، ولهذا قال : ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُم وَيَوْمَ إقَامَتِكُم وَمِنْ أصْوَافِهَا ﴾ ، أي: الغَنَم ، ﴿ وأوْبَارِهَا ﴾ ، أي: الإبِل ، ﴿ وأشْعَارِهَا ﴾ ، أي: المَعْز. والضَّمير عائد على الأنعام ﴿ أثَاثًا ﴾ ، أي: تتَّخذون مِنه أثاثًا ، وهو المال . وقِيل : المَتَاع، وقيل : الثِّياب ، والصحيح أعَمُّ مِن هذا كُلِّه ، فإنَّه يُتَّخَذ مِن الأثاث البُسُط والثِّياب وغَير ذلك، ويُتَّخَذ مالًا وتِجارةً . وقال ابن عباس : الأثاث المَتَاع ، وكذا قال مُجاهد وعِكرمة وسعيد بن جُبَير والحَسَن وعطية العَوفي وعَطاء الخُرَاساني والضَّحاك وقَتادة . وقَوله : ﴿ إلى حِينٍ ﴾ ، أي : إلى أجل مُسَمى ، ووقت معلوم)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٦٤): ((قَوله : ﴿ واللَّهُ جَعَلَ لَكُم ﴾ مَعطوف على ما قَبْله ، وهذا المَذكور مِن جُملة أحوال الإنسان ، ومِن تعديد نِعَم اللَّه عَلَيه ، والسَّكَن مَصدَر ، يُوصَف به الواحد والجَمْع، وهو بمعنى مَسكُون ، أي: تَسكُنون فيها وتَهدَأ جَوارحكم مِن الحركة، وهذه نِعمة ، فإنَّ اللَّه سُبحانَه لَوْ شاءَ لَخَلَقَ العبدَ مُضطربًا دائمًا كالأفلاك ، وَلَوْ شاءَ لَخَلَقَه ساكنًا أبدًا كالأرض ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِن جُلُودِ الأنعامِ بُيُوتًا ﴾ ، لمَّا ذَكَرَ سُبحانَه بُيوتَ المُدُن ، وهي التي للإقامة الطويلة ، عقَّبها بذِكْر بُيُوت البادية والرِّحلة ، أي : جَعَلَ لكم مِن جُلود الأنعام وهي الأنطاع والأَدَم بُيوتًا كالخِيَام والقِبَاب ، ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ ، أي : يَخِف عليكم حَمْلُها في الأسفار

وغَيرها ، ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُم ﴾ ، والظَّعْن : سَير أهل البادية للانتجاع ، والتَّحَوُّل مِن مَوضع إلى موضع . ... . ﴿ وَمِنْ أصْوَافِهَا وأوْبَارِهَا وأشْعَارِهَا أثَاثًا ﴾ مَعطوف على ﴿ جَعَلَ ﴾ ، أي : وَجَعَلَ لكم مِن أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها . والأنعام تَعُمُّ الإبِلَ والبَقَرَ والغَنَمَ ، والأصواف للغَنَم ، والأوبار للإبِل ، والأشعار للمَعْز ، وهي مِن جُملة الغَنَم ، فيكون ذِكْر هذه الثلاثة على وجه التَّنويع ، كُل واحد مِنها لواحد من الثلاثة ، أعني الإبِلَ ونَوْعَي الغَنَم . والأثاث مَتَاعُ البَيت ، وأصله الكَثرة والاجتماع . ... . قال الخليل : أثاثًا ، أي : مُنْضَمًّا بعضُه إلى بعض ، مِن أثَّ ، إذا أكثرَ ، قال الفَرَّاء : لا واحد له ، والمَتَاع : ما يُتمتَّع به بأنواع التَّمَتُّع ، وعلى قول أبي زيد الأنصاري : إنَّ الأثاث المال أجمع : الإبِل والغَنَم والعَبيد والمَتَاع ، يَكون عَطْف المَتَاع على الأثاث مِن عَطْف الخاص على العام . وقِيل : إنَّ الأثاث ما يَكتسي به الإنسانُ ويستعمله مِن الغِطَاء والوِطَاء ، والمَتَاع ما يُفْرَش في المنازل ، ويُتَزَيَّن به . ومعنى ﴿ إلى حِينٍ ﴾ إلى أن تَقْضُوا أوطارَكم مِنه ، أوْ : إلى أن يَبْلَى ويَفْنَى ، أوْ : إلى المَوت ، أوْ : إلى القِيَامة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ إنَّ الذينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وإن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب﴾ [الحَج : ٧٣] . ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا بليغًا للآلهة المَعبودة مِن دُون اللَّه ، وهي الأصنام والأوثان . وهذا المثَل يدل على سخافة الآلهة الباطلة (الأصنام والأوثان) وجهلِ عابديها وغبائهم وضلالهم وعنادهم . واللَّهُ يُوضِّح حُجَجَ تَوحيده ودلائلَ عَظَمَته بضَرْب الأمثال لتقريب المعنى إلى عقول الناس وأفهامهم ، بلا تعقيد ولا غُموض .

يا مُشركي مكة ، جَعل اللَّهُ لكم ولآلهتكم المعبودة مِن دُون اللَّه شَبَهًا دقيقًا ومَثَلًا بليغًا ، فأنصِتوا لهذا المَثَل ، واعرفوا مَعناه ، وافهموا أبعادَه ، وتدبَّروه بشكل عميق ، إن آلهتكم الأصنام التي تعبدونها مِن دُون اللَّه ، لن تستطيع خَلْقَ ذُبابة على ضعفها وصِغرها ومهانتها، ولو اجتمعت على ذلك. يعني: لو اجتمعت الأصنامُ والأوثانُ والأندادُ مِن أجل خلق ذُبابة واحدة، لَعَجِزُوا عن ذلك، وما قَدَرُوا عليه . فكيفَ تتَّخذون هذه الأصنامَ العاجزة آلهةً وتعبدونها ؟! . إن الإله المُستحق للعبادة هو اللَّه الخالق القادر على كُل شيء ، ولا يُعجِزه شيء .

والذُّبابُ اسمُ واحد للذَّكَر والأُنثى ، وسُمِّيَ بهذا الاسم لكثرة حركته وسُرعة انتشاره .

وعَجْزُ الأصنام لَم يقف عند هذا الحَد (العَجْز عن خَلْق ذُبابة) ، بل أيضًا ، إن يَأخذ الذبابُ شيئًا مِن الطِّيب الذي كان المشركون يُضمِّخون بِه أصنامَهم تعظيمًا لها وتشريفًا لِقَدْرها ، لَن تَقْدِر

هذه الأصنام (الآلهة الباطلة) أن تسترجعه مِن الذباب رغم ضعفه وحقارته ، وهذا يدل على عَجْز الأصنام وكَوْنها آلهةً مزعومةً وباطلةً ، لأن الإله الحق لا يكون ضعيفًا ولا عاجزًا ولا خاضعًا. كما يدل على ضلال المشركين وعنادهم وجهلهم ، إذ إنهم أشركوا باللَّه الخالق القادر على كل شيء ، وجعلوا الأصنامَ العاجزة الضعيفة شريكةً للَّهِ القويِّ العزيز الذي أوجدَ الأشياء مِن العدم بِقُدرته المُطْلَقَة ، وقَهَر المخلوقاتِ بجبروته وهَيمنته وجَلاله ، فكيفَ تكون الأصنام العاجزة المغلوبة شبيهةً للَّه الخالق القاهر وشريكةً له في أُلوهيته ومُلْكه؟!.إن اللَّه وَحْدَه هو الإله الحق لا شريك له.

ضَعُفَ المُشرِك العابد (الطالب) الذي يَطلب المعونة والنُّصرة والشفاعة والخير مِن الصَّنم ، وَضَعُفَ الصَّنم المعبود (المطلوب) الذي تُطلَب مِنه الحوائج ، ويُتَوَجَّه إليه بالدعاء . كِلاهُما ضعيف حقير وضيع مَهِين .

والأصنام (الآلهة الباطلة) عاجزة وضعيفة أمام الذباب وهو أضعف مخلوقات اللَّه وأحقرها . فكيفَ تكون الأصنام الحقيرة الدنيئة شريكةً للَّه الخالق الرازق المُسيطِر على كل شيء ؟! .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٨٩):((وخُصَّ الذباب لأربعة أمور تَخُصُّه: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره ، وكَثرته . فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يَقْدِر مَن عَبَدوه مِن دُون اللَّه عَزَّ وَجَلَّ على خَلْق مِثْله، ودفع أذِيَّته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهةً معبودين ، وأربابًا مُطاعين ، وهذا مِن أقوى الحُجَّة وأوضح البُرهان)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٥١ و٤٥٢): ((قَوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ . قال الأخفش: إن قِيل : أين المَثَل ؟، فالجواب أنه ليس هاهُنا مَثَل، وإنما المعنى : يا أيها الناس ضُرِبَ لِي مَثَل ، أي شُبِّهَتْ بِيَ الأوثان ، فاستمعوا لهذا المَثَل. وتأويل الآية: جَعل المشركون الأصنامَ شُركائي ، فعبدوها معي ، فاستمعوا حالها، ثُمَّ بيَّن ذلك بِقَوله: ﴿ إنَّ الذينَ تَدْعُونَ ﴾ أي : تَعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ... .وقِيل: إنما خصَّ الذباب لمهانته واستقذاره وكثرته . ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُوا ﴾ يعني : الأصنام ﴿ لَهُ ﴾ أي : لِخَلْقه . ﴿ وإن يَسْلُبْهُمُ ﴾ يعني : الأصنام . قال ابن عباس : كانوا يَطْلُون أصنامَهم بالزَّعفران فيجف ، فيأتي الذباب فيختلسه . وقال ابن جُرَيج: كانوا إذا طَيَّبوا أصنامهم عجنوا طِيبهم بشيء مِن الحَلواء كالعَسَل ونَحْوه ، فيقع عليه الذباب فيسلبها إيَّاه ، فلا تستطيع الآلهة ولا مَن عَبَدَها أن يَمنعه ذلك . وقال السُّدي : كانوا يَجعلون للآلهة طعامًا ، فيقع الذباب عليه ، فيأكل منه . قال ثعلب : وإنما قال : ﴿ لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ فجعل أفعال الآلهة كأفعال الآدميين ، إذ كانوا يُعظِّمونها ويَذبحون لها وتُخَاطَب... . قَوله تعالى:

﴿ ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب . رواه عطاء عن ابن عباس . والثاني الطالب الذباب ، يَطلب ما يَسلبه مِن الطِّيب الذي على الصنم، والمطلوب الصنم، يَطلب الذبابُ مِنه سَلْبَ ما عليه ، رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا . والثالث الطالب عابد الصنم ، يَطلب التقرب بعبادته ، والمطلوب الصنم . هذا معنى قول الضَّحاك والسُّدي)) .

وعن أبي هريرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَن أظلمُ مِمَّن ذَهب يَخلق كَخَلْقي ، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّة ، أو لِيَخْلقوا حَبَّة ، أو شعيرة)) [١٦٦].

لا يوجد أسوأ ولا أظلم مِمَّن قَصَدَ أن يَصنع كصُنع اللَّه في الهيئة،أو يَخلق كَخَلْقه في الصورة، فليخلقوا ذَرَّةً فيها رُوح ، أو يَصنعوا مَخلوقًا مهما كان صغيرًا . وهذا أمر تعجيز .

إنهم عاجزون عن فِعل ذلك ، لأن اللَّه وَحْدَه هو الخالق القادر الذي أوجد المخلوقات من العدم . والعبدُ المخلوق عاجز لأن قُدرته محدودة وضعيفة ، أمَّا اللَّهُ الخالق فلا يُعجِزه شَيء ، لأن قُدرته مُطْلقة ، وإرادته نافذة في كل شيء ، ولا شيء يُوقفها أو يُبطِلها .

والإنسان الذي يُريد أن يتحدَّى اللَّهَ ، ويخلق كَخَلْقه ، أو يَصنع كصُنعه ، قد ظَلَمَ نَفْسَه أشدَّ الظُّلْم ، لأنه أوردها المهالك ، وقادها إلى عذاب النار الأبديِّ ، الذي لا نهاية له ولا انقطاع .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٤/ ٤٨١ و٤٨٢) عن إحدى روايات الحديث: ((" قال اللَّهُ تعالى : ومَن أظلمُ مِمَّن ذهب " ، أي قصد " يَخْلُق خَلْقًا كَخَلْقي " ، أي : ولا أحد أظلم مِمَّن قَصَدَ أن يَصنع كَخَلْقي، وهذا التَّشبيه لا عُموم له، يعني كَخَلْقي مِن بعض الوجوه في فِعل الصورة، لا مِن كل وجه. واسْتُشْكِل التعبير بأظلم ، بأن الكافر أظلم . وأُجِيب بأنه إذا صوَّر الصنم للعبادة كان كافرًا ، فَهُوَ هُوَ ، ويزيد عذابه على سائر الكُفار بِقُبح كُفره . " فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً " نملةً صغيرة ، " أو لِيَخْلُقُوا حَبَّةً " ، أي حبة بُر ، بقرينة ذِكر الشعير ، أو هي أعَم . " أو لِيَخْلُقُوا شَعيرةً " ، والمراد تعجيزهم تارةً بتكليفهم خَلْق حيوان وهو أشد ، وأخرى بتكليفهم خلق جَماد وهو أهْوَن . ومع ذلك لا قُدرة لهم عليه ، وأَخَذَ منه مجاهد حُرمة تصوير ما لا رُوح فيه ، حيث ذَكَرَ الشعيرة وهي جماد ، وخالفه الجمهور استدلالًا بِقَوله في حديث آخَر : " أَحْيُوا ما خَلَقْتُم ". وفيه نوع من التَّرَقِّي في الخساسة ، ونوع من التَّنَزُّل والإلزام . وحُكِيَ أنه وقع السؤال عن حِكمة التَّرَقِّي مِن الذَّرَّة إلى الحَبَّة إلى الشَّعيرة ، فأجاب التَّقي الشمني بديهةً بأن صُنع الأشياء الدقيقة فيه صعوبة ،

---

١٦٦ متفق عليه.البخاري (٦/ ٢٧٤٧) برقم (٧١٢٠)،ومسلم (٣/ ١٦٧١)برقم (٢١١١).

والأمر بمعنى التَّعجيز ، فناسبَ التَّرَقِّي مِن الأعلى للأدنى ، فاستحسنه الحافظ ابن حجر)) اهـ .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ٩١) : ((وأمَّا قَوله تعالى : " فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أو حَبَّةً أو شَعيرةً " ، ومعناه : فليخلقوا ذَرَّة فيها رُوح تتصرَّف بنفْسها كهذه الذَّرَّة التي هي خَلْق اللَّه تعالى ، وكذلك فليخلقوا حَبَّة حِنطة أو شعير ، أي: ليخلقوا حَبَّة فيها طَعْم تُؤكَل وتُزرَع وتَنبت، ويوجد فيها ما يوجد في حَبَّة الحِنطة والشعير، ونَحْوهما مِن الحَبِّ الذي يَخلقه اللَّهُ تعالى، وهذا أمرُ تعجيز ، واللَّهُ أعلم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وإنَّ لَكُم في الأنعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِمَّا في بُطُونِهَا وَلَكُم فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأكُلُون ﴾ [المؤمنون : ٢١] .

وإنَّ لكم أيها الناس في خَلْق الإبِل والبَقَر والغَنَم لَعِظَةً جليلة تعتبرون بها، وتستدلون بها على وَحدانية اللَّه الخالق، وقُدرته المُطْلَقَة ، ونِعَمه الكثيرة . واللَّهُ يُذكِّر عِبادَه بِنَعمه عليهم ، ويمتنُّ عليهم بها كَي يُوحِّدوه ويُطيعوه ويَشكروه. وإذا أدركَ الإنسانُ قيمةَ النِّعمة، أدركَ عَظَمَةَ المُنعِم وقُدرته وحِكمته وفَضْله . وبالتالي ، يَنبغي أن يَشكره قَوْلًا وفِعلًا ، ويلتزم أوامره ، ويجتنب نَواهيه .

واللَّهُ يَسقيكم اللبنَ الذي يَتكوَّن في بطونها ، والذي يصل إلى ضُروعها . وهذا اللبنُ الخالصُ اللذيذُ المُفيد صِحِّيًّا، يتكون بين الأوساخ والدَّم . ومعَ هذا ، يَخرج نَقِيًّا طاهرًا نظيفًا خالصًا شَهِيًّا، ليس عليه لون الدم ، ولا يَحمل رائحة الأوساخ . وهذا يدل بوضوح على كَمَال القُدرة الإلهية .

ولكم في هذه الأنعام منافع كثيرة في ظُهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأوبارها وشُعورها . حيث تركبون ظُهورَها ، وتشربون مِن ألبانَها ، وتَلبَسون مِن أصوافها . وتأكلون مِن لحومها ، فتنتفعون ذهنيًّا وبدنيًّا ، وتزدادون قُوَّةً وصِحَّةً وعافيةً .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٢٥): ((وقَوله : ﴿ وإنَّ لَكُم في الأنعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِمَّا في بُطُونِهَا وَلَكُم فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأكُلُون (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلى الفُلْكِ تُحمَلون (٢٢) ﴾ ، يَذكر تعالى ما جَعل لِخَلْقه في الأنعام مِن المنافع، وذلك أنهم يشربون مِن ألبانها الخارجة مِن بين فَرْث ودم ، ويأكلون مِن حِملانها ، ويَلبَسون مِن أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويَركَبون ظُهورها، ويُحمِّلونها الأحمالَ الثِّقال إلى البلاد النائية عنهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلى الفُلْكِ تُحمَلون ﴾ [المؤمنون : ٢٢] .

وتَحْمِلُون أمتعتكم وبضائعكم وأحمالَكم الثقيلة على الإبِل في البَر ، كما تَحْمِلُون على السُّفُن في البَحْر ، فإنَّ الإبِل سفائن البَر كما أنَّ الفُلْك سفائن البَحْر .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٨٧) : ((كذلك ذَكَرَ الرُّكوبَ عَلَيها لِمَا فيه مِن المَنفعة العظيمة، فقال: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلى الفُلْكِ تُحمَلون ﴾ ، أي : وعلى الأنعام ، فإنْ أُرِيدَ بالأنعام الإبِل والبَقَر والغَنَم ، فالمُراد : وعلى بَعْض الأنعام وهي الإبِل خاصَّة،وإنْ أُرِيدَ بالأنعام الإبِل خَاصَّة فالمعنى واضح، ثُمَّ لمَّا كانت الأنعام هي غالب ما يكون الركوب عليه في البَر ضَمَّ إلَيها ما يكون الركوب عليه في البَحْر ، فقال : ﴿ وَعَلى الفُلْكِ تُحمَلون ﴾ تَتميمًا للنِّعمة ، وتَكميلًا للمِنَّة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿واللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ فَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النُّور: ٤٥].

يُبيِّن اللَّهُ قُدرته المُطْلَقَة على الخَلْق والإيجاد . لقد خَلَقَ اللَّهُ كُلَّ دابة مِن نُطْفَة (المَنِيِّ). والدَّابَّةُ كُل ما دَبَّ على وجه الأرض مِن الحَيَوان ، فَمِنهم مَن يمشي على بَطْنه كالحَيَّات . وَسُمِّيَ الزَّحْف مَشْيًا على الاستعارة أو المُشَاكَلَة . ومِنهم مَن يَمشي على رِجْلَيْن كالإنسان والطَّيْر ، وَمِنهم مَن يَمشي على أربع كالبهائم والسِّباع. ولَم يَذكر مَن يَمشي على أكثر مِن أربع مِثل حشرات الأرض والعناكب ، لأنها في صورة مَن يَمشي على أربع ، واعتمادها إذا مشت على أربع.

يُحْدِثُ اللَّهُ بِقُدرته ما يشاء مِنَ الخَلْق . وما شاءَ كان ، وما لَم يشأ لَم يَكُن . إنَّ اللَّه يَفعل ما يشاء كما يشاء ، وهو قادر على كُل شيء ، لا يُعْجِزه شَيء ، ولا يقف شيء أمام إرادته وقُدرته . وكُلُّ ما سِوى اللَّهِ مَخلوقٌ ، وكُل المخلوقات خاضعة لإرادة اللَّه وقُدرته وسُلطانه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٥): ((﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يشاءُ ﴾ مِمَّا ذَكَر، ومِمَّا لَم يَذْكُر ، بسيطًا ومُرَكَّبًا ، على اختلاف الصُّوَر والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بِمُقتضى مَشيئته ﴿ إنَّ اللَّهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾ فيفعل ما يشاء)) .

و﴿ دَابَّةٍ ﴾ تشمل مَن يَعْقِل وما لا يَعْقِل . وإذا اجتمعَ في سياق واحد مَن يَعْقِل وما لا يَعْقِل ، غَلَبَ مَن يَعْقِل وهو الإنسان، لأنه المُخَاطَب والمُتَعَبَّد والمُكَلَّف ، والعقلُ مَناط التكليف . لذلك قالَ اللَّهُ: ﴿ فَمِنْهُم ﴾ و﴿ مَن يمشي ﴾ ، وهاتان صِيغتان للعاقل. وتذكيرُ الضمير لتغليب العُقلاء . ولغةُ العرب إنما تقوم على تغليب مَن يَعْقِل ، كما يُغلَّب المُذكَّر على المُؤنَّث إذا اجتمعا .

والتعبيرُ عن الأنواع بِـ﴿ مَن ﴾ لِيُوافِق التفصيل الإجمال . وترتيبُ الأنواع على هذا النَّحْو : ١ــ مَن يَمشي على بطنه . ٢ــ مَن يَمشي على رِجْلَيْن . ٣ــ مَن يَمشي على أربع ، لتقديم ما هو أعرف في القُدرة ، والآية جاءت لتوضيح قُدرة اللَّه وتعجيب الناس مِن إبداعه في مخلوقاته . فالماشي على بطنه يمشي بغير الآلة المخلوقة للمشي ، لذلك كان أدلَّ على القُدرة مِن الماشي

على رِجْلَيْن . أي إنَّ الماشي بغير آلة المَشْي أعجب مِمَّن يَمشي بآلة المَشْي . لذلك قُدِّمَ عليه في الذِّكر .والماشي على رِجْلَيْن أدل على القُدرة من الماشي على أربع ، بسبب كثرة آلات المشي في الأربع . وهذا يعني أن اللَّه تعالى قد ذَكَرَ الجِنسَ الأعلى والصِّنفَ الأرقى أوَّلًا .

ثُمَّ ذَكَرَ مَن يَمشي على رِجْلَيْن كالإنسان والطَّير ، لتمام خَلْق الإنسان وحُسن صُورته ، وقُدرة الطَّيْر على الطَّيَرَان وكسر قانون الجاذبية . ثُمَّ ذَكَرَ مَن يَمشي على أربع ، لأنه أفضل الحيوانات وأقواها وأحسنها .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٥٥) : ((وإنما قال : ﴿ مَن يمشي ﴾ ، و" مَن " إنما تُستعمَل فِيمَن يَعْقِل دُون مَن لا يَعْقِل مِن الحيَّات والبهائم ، لأنه ذَكَرَ كُل دابة ، فدخل فيه الناس وغَيرهم. وإذا جمع اللفظ مَن يَعْقِل ومَن لا يَعْقِل ، تُجعَل الغلبة لِمَن يَعْقِل)) .

والجديرُ بالذِّكر أن اللَّه قال : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يشاءُ ﴾ ، ولَم يقل : يخلق ما يشاء . وإظهارُ لفظ الجلالة في موضع الإضمار يدل على تعظيم اللَّه الخالق، وتفخيم شأن مَخلوقاته ، لأن عَظَمَة المخلوقات تدل على عَظَمَة صانعها وخالقها . والعظيمُ يدل على العظيم ، والعظيمُ لا يَصْدُر عنه إلا عظيم. وأيضًا لفظ الجلالة في الآية ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يشاءُ ﴾ يدل على أن المخلوقات إنما هي تحت أحكام الأُلوهية . فالإلهُ وَحْدَه هو القادر على الخَلْق والإيجاد ، والعاجزُ عن الخَلْق لا يكون إلَهًا ، ولا يستحق العبادة . وهذا يدل على بُطلان تعدُّد الآلهة ، لأن جميع الآلهة المعبودة بِغَير حق عاجزة عن الخَلْق والإيجاد ، وبالتالي فهي آلهة باطلة ، وعبادتها باطلة . واللَّهُ وَحْدَه هو الإلهُ القادر على الخَلْق والإيجاد ، لذلك ، إنَّ اللَّه وَحْدَه هو الإله الحق ، والمعبود بحق .

وهذا الاختلاف في الخَلْق يُشير إلى وجود صانع مُختار . ولو كانوا مِن جِنس واحدٍ ، ووَفْق نمط واحد ، لَشَكَّ الكثيرون في الخالق . لذلك كان التنوع والاختلاف في المخلوقات مِن حيث الشكل واللون وطبيعة الحركة ، معَ أنها مِن ماء واحد (نُطفة) دليلًا على وجود الخالق وكمال قُدرته ، وعظيم سُلطانه ، وإبداعه في الخَلْق والإيجاد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٥٣) : ((وفي الماء قَولان : أحدهما أن الماء أصل كُل دَابَّة. والثاني أنه النُّطفة.والمُراد به جميع الحَيَوَان المُشَاهَد في الدُّنيا. وإنما قال : ﴿ فَمِنْهُم ﴾ تغليبًا لِمَا يَعْقِل،وإنما لَم يَذكر الذي يمشي على أكثر مِن أربع لأنه في رأي العَيْن كالذي يمشي على أربع. وقِيل : لأنه يعتمد في المشي على أربع. وإنما سُمِّيَ السائر على بطنه ماشيًا ، لأن كل سائر ومستمر يُقال له : مَاشٍ ، وإن لَم يكن حيوانًا ، حتى إنه يقال : قد مشى هذا الأمر . هذا

قول الزَّجاج . وقال أبو عُبَيدة : إنما هذا على سبيل التشبيه بالماشي ، لأن المشي لا يكون على البطن ، إنما يكون لِمَن له قوائم ، فإذا خلطوا ما له قوائم بما لا قوائم له ، جَاز ذلك ، كما يقولون : أكلتُ خُبْزًا وَلَبَنًا ، ولا يُقال : أكلتُ لَبَنًا)) .

إنَّ التنوع والاختلاف في طبيعة الخَلْق ، وتعدُّد الأشكال والمظاهر في نظام بيئي لا اضطراب فيه ولا تعارض ، يُشير إلى القُدرة الإلهية والحكمةِ الرَّبانية . واللَّهُ لَم يخلق مخلوقاته لكي يَحشرهم في الزاوية ويقضيَ عليهم ويضطرهم إلى أضْيَق المسالك ، بل فتح لهم طريقَ اليُسر . فهو _سُبحانَه_ خلق الدوابَّ وفق أشكال مختلفة، وزوَّدها بأعضاء متباينة، كَي تتأقلم مع بيئتها . فالكائناتُ الصحراوية بحاجة إلى أسلوب حياة يختلف عن أسلوب الكائنات العائشة في الأماكن الباردة . ومن هنا اختلفت طبيعة خَلْق الأجسام الحيوانية . وهكذا تتجلى الحِكمةُ الإلهية في توفير سُبل العيش الهانئ للدواب على اختلاف بيئاتها . والذي يرزق الدوابَّ ولا ينساها ، وهي كائنات غير عاقلة ، فكيف ينسى عبادَه الذين شَرَّفهم بالعقل وكَلَّفهم بإعمار الأرض ؟! .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وقالَ يا أيُّها النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ ﴾ [النَّمْل : ١٦] .

وَوَرِثَ سُلَيمانُ أباه داود في النُّبُوَّة والعِلْم والمُلْك دُون باقي أولاده . ولَيس المقصود وِراثة المال ، فالأنبياء لا يُورَثون ، وما تركوه فهو صَدَقَة ، وقد كان لداود نساء كثيرات وأولاد كثيرون ، وَلَوْ كانت وِراثة مال لكانَ جميع أولاده فيه سَوَاء ، وانقسمَ المالُ على عدد الأولاد ، فَخَصَّ اللَّهُ سُلَيمان بما كان لداود مِن النُّبُوَّة والحِكمة، وزِيدَ له تَسخير الرِّيح وتَسخير الشَّياطين . وهذه الوِرَاثة مَجَازية ، لأنَّ النُّبُوَّةَ لا تُورَث . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤٧٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ ، أي : في المُلْك والنُّبُوَّة ، ولَيس المُراد وِراثة المَال ، إذْ لَوْ كان كذلك لَم يُخَص سُلَيمان وَحْدَه مِن بَين سائر أولاد داود ، فإنَّه قد كان لداود مائة امرأة ، ولكنَّ المُراد بذلك وِراثة المُلْك والنُّبُوَّة ، فإنَّ الأنبياء لا تُورَث أموالُهم)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٣/ ١٤٩) : ((قال مُقاتل : كان سُلَيمان أعظمَ مُلْكًا مِن داود وأقضى مِنه ، وكان داود أشد تَعَبُّدًا مِن سُلَيمان . قال غَيْرُه : ولَم يَبلُغ أحد مِن الأنبياء ما بَلَغَ مُلْكُه ، فإنَّ اللَّه سُبحانَه وتعالى سخَّر له الإنسَ والجِنَّ والطَّيرَ والوَحْشَ ، وآتاه ما لَم يُؤْتِ أحدًا مِن العالَمين ، وَوَرِثَ أباه في المُلْك والنُّبُوَّة ، وقام بَعده بشريعته ، وكُل نبيٍّ جاء بَعد مُوسى مِمَّن بُعث أوْ لَم يُبعَث ، فإنَّما كان بشريعة مُوسى ، إلى أن بُعث المسيح عليه السلام ، فَنَسَخَها)) .

وقال سُلَيمان لبني إسرائيل تَحَدُّثًا بنِعمة اللَّه واعترافًا بفضله : لقد أكْرَمنا اللَّهُ فَفَهَّمَنَا كلامَ الطَّيْر وأصواتَ الحَيَوَانات . وسُلَيمان يتحدَّث بما أنعمَ اللَّهُ عليه ، ويَشكره على نِعمته التي خصَّه بها دُون سائر خَلْقه ، وهي تَعليمه مَنطِق الطَّيْر ، لذلك قدَّمها في الذِّكْر . وسمَّى صَوْتَ الطَّير مَنطِقًا لأنَّه يُفْهَم مِنه كما يُفْهَم مِن كلام الناس . وذِكْر هذه المُعجِزة لدَعوة الناس إلى تَصديقها والإيمان باللَّه تعالى .

وأعطانا اللَّهُ وَوَهَبَ لنا مِن كُل شَيء مِن الخَيرات والبَرَكات في الدُّنيا والآخرة،وأعطانا مِن كُل شيء أعطاه للأنبياء والمُلوك ، إنَّ ما خصَّنا اللَّهُ به مِن النِّعَم لَهُوَ الفضل العظيم الواضح ، الذي لا يَخفَى على أحد . وقد قال سُلَيمان هذا الكلام شُكرًا للَّهِ وتحدُّثًا بنِعمته واعترافًا بفضله ، ولَيس غُرورًا أوْ تكبُّرًا أوْ عُلُوًّا في الأرض .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٧٦) : ((أخبرَ سُلَيمانُ بِنِعَم اللَّه عَلَيه فيما وَهَبَه له مِن المُلْك التام ، والتَّمكين العظيم ، حتى إنَّه سخَّر له الإنسَ والجِنَّ والطَّيْرَ ، وكان يَعرِف لُغَةَ الطَّيْر والحَيَوَان أيضًا ، وهذا شيء لَم يُعْطَه أحد مِن البَشَر فِيما عَلِمْناه مِمَّا أخبرَ اللَّهُ به ورسولُه . ومَن زَعَمَ مِن الجَهَلَة والرَّعَاع أنَّ الحَيَوَانات كانت تَنطِق كنُطْق بني آدم قَبل سُلَيمان بن داود ، كما قد يتفوَّه به كثير من الناس، فهو قَول بلا عِلْم، وَلَوْ كان الأمر كذلك لَم يكن لتخصيص سُلَيمان بذلك فائدة ، إذْ كُلُّهم يَسمع كلامَ الطيور والبهائم ، ويَعرِف ما تقول ، وليس الأمر كما زَعَمُوا ، ولا كما قالوا، بَل لَم تَزَل البهائمُ والطيورُ وسائرُ المخلوقات مِن وَقْت خُلِقَت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمِنوال ، ولكنَّ اللَّه سُبحانَه كان قد أفهمَ سُلَيمانَ ما يتخاطب به الطيور في الهواء ، وما تَنطِق به الحَيَوَانات على اختلاف أصنافها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي مِمَّا يَحتاج إليه المُلْك ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ ﴾ أي: الظاهر البَيِّن للَّه عَلَينا)).

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ١٤٩) : ((قَوله تعالى : ﴿ وقالَ يا أيُّها النَّاسُ ﴾ ، أي: قال سُلَيمان لبني إسرائيل على جِهة الشُّكر لِنِعَم اللَّه : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ ، أي: تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَينا على ما وَرَّثَنا مِن داود مِن العِلْم والنُّبُوَّة والخِلافة في الأرض في أن فَهَّمَنَا مِن أصوات الطَّير المعاني التي في نُفُوسها)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٨٥) : ((قال جماعة مِن المُفسِّرين : إنَّه عُلِّمَ مَنطِق جميع الحَيَوَانات ، وإنَّما ذَكَرَ الطَّيْرَ ، لأنَّه كان جُندًا مِن جُنده يسير معه لتظليله مِن الشَّمس . وقال قَتادة والشَّعبي : إنَّما عُلِّمَ مَنطِق الطَّير خاصَّة ، ولا يعترض ذلك بالنَّمْلة ، فإنَّها مِن جُملة

الطَّير ، وكثيرًا ما تَخرُج لها أجنحة فتطير ، وكذلك كانت هذه النَّمْلة التي سَمع كلامَها ، وفَهِمَه . ومعنى ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كُل شيء تدعو إليه الحاجة ، كالعِلْم والنُّبُوَّة والحِكمة والمال وتَسخير الجِن والإنس والطَّير والرِّياح والوَحْش والدَّواب ، وكُل ما بين السماء والأرض . وجاء سُلَيمان بنُون العَظَمَة ، والمُراد : نَفْسه ، بيانًا لحاله مِن كَونه مُطَاعًا لا يُخَالَف ، لا تكبُّرًا وتعظيمًا لنَفْسه . والإشارة بقَوله : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إلى ما تَقَدَّمَ ذِكْرُه مِن التعليم والإيتاء ، ﴿ لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ ﴾ ، أي : الظاهر الواضح الذي لا يَخفَى على أحد ، أو المُظهِر لفَضيلتنا)) .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٤٨) : ((قَوله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يُؤْتَى الأنبياء والمُلوك ، قال ابن عباس : مِن أمْرِ الدُّنيا والآخِرة . وقال مُقاتل : يعني النُّبُوَّة والمُلْك وتَسخير الجِن والشَّياطين والرِّياح ، ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ ﴾ الزِّيادة الظاهرة على ما أُعْطِيَ غَيْرُنا . ورُوِيَ أنَّ سُلَيمان عليه السلام أُعْطِيَ مُلْكَ مشارق الأرض ومغاربها ، فَمَلَكَ سبعمائة سَنَة وستَّة أشهر . مَلَكَ جميعَ أهل الدُّنيا مِن الجِن ، والإنس ، والدَّواب ، والطَّير ، والسِّباع ، وأُعْطِيَ على ذلك مَنطِق كُل شيء . وفي زَمَانه صُنعت الصَّنائع العجيبة)) .

وعن الشَّعبي قال : أرَّخَ بنو إسحاقَ مِن مَبعَث مُوسى إلى مُلْكِ سُلَيمانَ بنِ داود . قال : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ ، قال : أُخِذَتْ إلَيه النُّبُوَّةُ والرِّسالةُ أن يَهَبَ لَهُ مُلْكًا لا ينبغي لأحد مِن بَعْده ، فَسَخَّرَ له الجِنَّ والإنسَ والطَّيْرَ والرِّيحَ [١٦٧] .

هذا يدلُّ على فَضل اللَّه على النبيِّ سُلَيمان ﷺ ، وإنعامه عليه، وإحسانه إلَيه ، فقد آتاه مُلْكًا عظيمًا لا تُحيط به عُقول الناس ، وخصَّه بنِعَم جليلة لا يُشاركه فيها أحد ، وقد كان عبدًا شَكُورًا .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ الأنبياء لا يُورِّثون ، وما تركوه فهو صَدَقَة . وهُم لَم يَأتوا إلى الدُّنيا لجَمْع حُطامها الفاني ، والاستحواذ على مَتَاعها الزائل ، وتخزين الأموال ، والغرق في المَلَذَّات والشَّهَوَات . لقد أرسلهم اللَّهُ مِن أجل إخراج الناس مِن ظُلمات الجَهْل والكُفر إلى نُور العِلْم والإيمان ، وقد قاموا بأداء وظيفتهم على أكمل وجه ، وبلَّغوا الوَحْيَ السَّماويَّ كاملًا ، بلا زيادة ، ولا نقصان . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٥٠) : ((قد ثبت في الصحيحين مِن غَير وَجْه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : " لا نُورَثُ ، ما تَرَكْنا فَهُوَ صَدَقَة " . وفي رواية عِند التِّرمذي بإسناد صحيح : " نَحْنُ مَعْشَرَ الأنبياءِ لا نُورَث ")) .

---

١٦٧ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٤٤) برقم (٤١٤٠) ، وسكت عنه الذهبي .

وفي مُسند أحمد (٢/ ٤٦٣) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّا مَعْشَرَ الأنبياءِ لا نُورَث)) .

والحِكمة في ذلك أنَّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام كالآباء للأُمَم والشُّعوب ، فأموالُهم للجميع . وأيضًا ، لئلا يُظَن بهم أنَّهُم راغبون في الدُّنيا ، وحريصون على جمع حُطامها الفاني ، ولئلا يَحدُث صراعات على اقتسام أموالهم ومُمتلكاتهم ، وهذا يُسيء إلى مَقَام النُّبُوَّة الرفيع .

وعن عائشة ــ رضي اللَّهُ عنها ــ أنَّ أزواج النبيِّ ﷺ حِينَ تُوَفِّيَ رسولُ اللَّه ﷺ أَرَدْنَ أن يَبْعَثْنَ عُثمانَ إلى أبي بَكْر يَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ ، فقالت عائشة : أَلَيْسَ قال رسولُ اللَّه ﷺ : ((لا نُورَث ، ما تَرَكْنَا صَدَقَة)) [١٦٨].

مِن خصائص الأنبياء التي ميَّزهم اللَّهُ بها رَفْعًا لشأنهم ، وتعظيمًا لقَدْرهم ، أنَّهُم لا يُورَثون ، وإذا تَركوا مالًا فهو صَدَقَة في سبيل اللَّه ، يُوزِّعها وليُّ الأمر على الفقراء والمساكين . ولَيس لِوَرَثة الأنبياء إلا ما يَكفيهم مِن القُوت والطعام . والأنبياءُ ورَّثوا العِلْمَ ، وهو مِيراثُهم المُقدَّس ، وتَركوا أتباعًا يُواصلون مسيرةَ الدَّعوة الإسلامية ، لذلك كان العُلماءُ وَرَثَةَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وعن أبي هُرَيرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: ((لا يَقتسِمُ وَرَثَتِي دِينارًا . ما تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسائي وَمَؤُونةِ عَامِلي فَهُوَ صَدَقَة)) [١٦٩].

هذا دليلٌ على أنَّ النبيَّ ﷺ لا يَرِثُه أحد ، فهو لَم يَجِئْ لجمع حُطام الدُّنيا وتكديس الأموال ، وتوريث عائلته . ما تَرَكَه بعد نفقةِ نسائه ونفقةِ عَامِله ، فهو صَدَقَة . وقد خَصَّ أزواجَه لأنَّه لا يجوز نِكَاحُهُنَّ ، فَجَرَت لهنَّ النَّفَقَة، فإنهنَّ كالمُعْتَدَّات . والعامل هو الذي يَتَوَلَّى أمورَ الرَّجل في أمواله ومُمتلكاته وأعماله، والمقصود بالعامل في الحديث : الخليفة بَعْدَه . وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٢١١): ((قال الطبري: قِيل: كان النبيُّ ﷺ مَلَّكَ كُلًّا مِن أزواجه البَيْتَ الذي هي فيه، فَسَكَنَّ بعده فِيهنَّ بذلك التمليك. وقِيل : إنما لَم يُنازعهنَّ في مَساكنهنَّ ، لأنَّ ذلك مِن جُملة مُؤْنتهنَّ التي كان النبيُّ ﷺ استثناها لهنَّ مِمَّا كان بيده أيام حياته، حيث قال :" مَا تَرَكْتُ بَعد نَفَقَةِ نِسائي ". قال: وهذا أرجح، ويُؤَيِّده أنَّ وَرثتهنَّ لَم يَرِثْنَ عنهنَّ منازلهنَّ ، وَلَوْ كانت البيوت مِلْكًا لهنَّ لانتقلت إلى وَرثتهنَّ.وفي ترك وَرثتهنَّ حُقوقَهم مِنها دَلالة على ذلك،ولهذا زِيدت بُيوتهنَّ في المسجد النبويِّ بعد مَوتهنَّ ، لِعُموم نفعه للمسلمين ، كما فُعِلَ فيما كان يُصرَف لهنَّ مِن النَّفَقَات، واللَّهُ أعْلَم)).

---

١٦٨ متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٤٧٥) برقم (٦٣٤٩)،ومسلم (٣/ ١٣٧٩) برقم (١٧٥٨) .

١٦٩ متفق عليه. البخاري (٣/ ١٠٢٠) برقم (٢٦٢٤)، ومسلم (٣/ ١٣٨٢) برقم (١٧٦٠) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٧٤) : ((قال العُلَماء : والحِكمة في أنَّ الأنبياء صلوات اللَّه عليهم لا يُورّثون أنَّه لا يُؤْمَن أن يكون في الوَرَثَة مَن يتمنَّى مَوْتَه فيَهلِك ، ولئلا يُظَن بهم الرَّغبة في الدنيا لوارثهم ، فيَهلِك الظان ، ويَنفِر الناسُ عنهم)) .

وفي نَفْس المرجع (١٢/ ٨١) : ((ثُمَّ إنَّ جُمهور العُلَماء على أنَّ جميع الأنبياء _ صَلَوَات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين _ لا يُورّثُون)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٢٩) : ((ولأنَّهم أحياء ، ولأنَّه تعالى شرَّفهم بقَطْع حُظوظهم مِن الدُّنيا،وما بأيديهم منها إنَّما هو عاريَّة وأمانة ومنفعة لعيالهم وأُمَمهم. وأمَّا قَوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ ، فالمُراد إرْثُ العِلْم ، وكذا قَول زكريا: ﴿ يَرِثُني ﴾ [مَريم: ٦]. وقد كان (النبيُّ مُحمَّد ﷺ) يُنفِق مِن ماله ، ويتصدَّق بفَضْله ، ثُمَّ تُوُفِّيَ ، فَصَنَعَ الصِّديقُ كفِعْله)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ وَالطَّيْرِ فَهُم يُوزَعون﴾[النَّمْل: ١٧].

وجُمع لسُلَيمان جُنودُه مِن الجِن والإنس والطَّيْر، أي: جُمع له كُل صِنف مِن جُنده على حِدَة، في مَسِير عظيم لهم ، ويُحبَس أوَّلُهم على آخِرهم حتى يَجتمعوا ، لا يَغيب مِنهم أحد ، وهذا يدلُّ على الكثرة العظيمة . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٧٦) : ((أي: وجُمع لِسُلَيمان جُنودُه مِن الجِن والإنس والطَّيْر، يعني: رَكِبَ فيهم في أُبَّهة وعَظَمَة كبيرة في الإنس ، وكانوا هُم الذين يَلُونه ، والجِن وهُم بَعدهم في المَنزلة ، والطَّيْر ، ومَنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حَر أظلَّته مِنه بأجنحتها . وقَوله: ﴿ فَهُم يُوزَعون﴾ أي: يُكَفُّ أوَّلُهم على آخِرهم لئلا يتقدَّم أحد عَن منزلته التي هي مرتبة له. قال مُجاهد : جَعَلَ على كُل صِنف وَزَعَة (وُلاة) يَرُدُّون أُولاها على أُخراها لئلا يتقدَّموا في المَسير كما يفعل المُلوك اليوم)) .

وفي تفسير القرطبي (١٣/ ١٥٢) أنَّ ابن عطية قال : ((واخْتُلِفَ في مُعسكره ومِقدار جُنده اختلافًا شديدًا غَير أنَّ الصحيح أنَّ مُلْكَه كان عظيمًا ملأ الأرضَ ، وانقادات له المَعمورةُ كُلُّها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مَثَلُ الذينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وإنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ لَوْ كانوا يَعْلَمُون ﴾ [العنكبوت: ٤١]. مَثَلُ المُشركين الذين اتَّخَذُوا مِن دُون اللَّه أصنامًا يَعبدونها ويَدْعونها ويَرْجُون نَفْعَها ، ويَنتظرون نَصْرَها ، كَمَثَل العَنكبوت اتَّخذت بَيْتًا لنَفْسها تأوي إلَيه ، لكنَّه لا يَدفَع عنها حَرًّا ولا بَرْدًا، ولا يَحْميها مِن مطر ولا أذى ، وكذلك الأصنام لا تَمْلِك لعابديها نَفْعًا ولا ضَرًّا . وإنَّ أضعف البُيُوت لَبَيْت العَنكبوت لتفاهته وحقارته، ولو كان المُشركون يَعْلَمون أنَّ هذا مَثَلُهم ما عَبَدُوا الأصنامَ التي لا تَضُرُّ ولا تَنفَع .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ١٤٢) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : مَثَلُ الذين اتَّخَذُوا الآلهةَ والأوثانَ مِن دون اللَّه أولياء ، يَرْجُون نَصْرَها ونَفْعَها عند حاجتهم إلَيها في ضعف احتيالهم ، وقُبح رواياتهم ، وسُوء اختيارهم لأنفسهم ، كَمَثَل العَنكبوت في ضَعْفها وقِلَّة احتيالها لنَفْسها ، اتَّخَذَتْ بَيْتًا لنَفْسها كَيما يُكِنَّها ، فَلَم يُغْنِ عَنها شيئًا عِند حاجتها إليه ، فكذلك هؤلاء المشركون لَم يُغْنِ عَنهُم حين نزل بهم أمرُ اللَّه ، وحَلَّ بهم سَخَطُه ، أولياؤهم الذين اتَّخذوهم مِن دون اللَّه شيئًا ، ولَم يَدفَعوا عنهم ما أحلَّ اللَّهُ بهم مِن سَخَطه بعبادتهم إيَّاهم. ... . وقَوله: ﴿ وإنَّ أوْهَنَ البُيُوتِ ﴾ يقول : وإنَّ أضعفَ البُيُوت ﴿ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ لَوْ كانوا يَعْلَمُون ﴾ ، يَقول تعالى ذِكْرُه : لَوْ كان هؤلاء الذين اتَّخَذُوا مِن دُون اللَّه أولياء يَعْلَمُون أنَّ أولياءهم الذين اتَّخذوهم مِن دُون اللَّه في قِلَّة غَنائهم عنهم ، كَغَناء بَيت العَنكبوت عنها ، ولكنَّهم يَجهَلون ذلك ، فيَحسَبون أنَّهم يَنفعونهم ، ويُقَرِّبونهم إلى اللَّه زُلفى)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُم لَهَا مَالِكُون﴾[يس:٧١].

الهمزة للإنكار والتَّعجيب مِن حالهم ، والرُّؤيةُ هي رُؤية القلب . واللَّهُ يُذكِّر عبادَه بما أنعمَ عليهم مِن هذه الأنعام التي سخَّرها لهم ، ويُبيِّن كَمَالَ قُدرته ، كَي يَستدلوا على وُجوده ووَحدانيته .

أوَلَم يَعلَم هؤلاء المُشركون ويَنظروا ويَعتبروا ويتفكَّروا فِيما خَلَقَه اللَّهُ وأبدعه وعَمِلَه ، بدُون واسطة ولا شريك ولا مُساعد . لقد خَلَقَ اللَّهُ لهم الإبِلَ والبَقَرَ والغَنَمَ ، وسخَّرها لهم ، وجَعَلَهم ضابطين وقاهرين لها،ومُنتفعين بها، يتصرَّفون فيها كما شاؤوا. أي: إنَّ اللَّه لَم يَخلُق الأنعام وُحوشًا نافرة مِن الناس ، بَل سخَّرها وأخضعها لهم،حتَّى إنَّ الطِّفل الصغير يَقُود الجَمَلَ الكبيرَ،ويَسُوقه، ويتحكَّم به ، ويُوجِّهه حَيث يُريد .

وذِكْرُ الأيدي ، وإسناد الفِعْل إلَيها، لبيان الاختصاص والتفرُّد بالخَلْق والإبداع والإحداث . والجُملةُ الاسمية : ﴿ فَهُم لَهَا مَالِكُون ﴾ ، تُفيد أنَّ امتلاكهم للأنعام ثابت ومُستقر ومُستمر .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٥٤٣) : ((ذَكَرَ سُبحانَه قُدرتَه العظيمة وإنعامَه على عبيده ، وجَحْد الكُفَّار لِنعَمه ، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ . ... . أي : أوَلَم يَعلَموا بالتفكُّر والاعتبار ﴿ أنَّا خَلَقْنا لَهُم ﴾ ، أي : لأجلهم ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ ، أي: مِمَّا أبْدَعْناه وعَمِلْناه مِن غَير واسطة ، ولا شِركة . وإسناد العمل إلى الأيدي مُبَالَغَة في الاختصاص والتَّفَرُّد بالخَلْق ، كما يَقول الواحد مِنَّا: عَمِلْتُهُ بيدي للدَّلالة على تفرُّده بعمله . ... . ثُمَّ ذَكَرَ سُبحانَه المنافعَ المُترتبة على خَلْق الأنعام ، فقال : ﴿ فَهُم لَهَا مَالِكُون﴾ ، أي: ضابطون

قاهرون ، يتصرَّفون بها كيف شاؤوا ، وَلَوْ خَلَقْناها وحشية لَنَفَرَتْ عنهم ، وَلَم يَقدِروا على ضَبْطها. ويجوز أن يكون المُراد أنها صارت في أملاكهم ، ومَعدودة مِن جُملة أموالهم المَنسوبة إليهم نِسبة المِلْك)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٨) : ((ذكَّرهم قُدرته، فقال:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ ، قال ابن قُتَيبة : يجوز أن يكون المعنى : مِمَّا عَمِلْناه بقُوَّتنا وقُدرتنا . وفي اليَد القُدرة والقُوَّة على العمل ، فتُستعار اليد ، فتُوضَع مَوضعها ، هذا مَجَاز للعرب يَحتمله هذا الحرف ، واللَّهُ أعلم بما أراد . وقال غَيْرُه : ذِكْرُ الأيدي هاهُنا يدلُّ على انفراده بما خَلَق. والمعنى : لَم يُشاركنا أحد في إنشائنا ، والواحد مِنَّا إذا قال: عملتُ هذا بيدي، دَلَّ ذلك على انفراده بعمله . وقال أبو سُلَيمان الدِّمشقي : معنى الآية : مِمَّا أوْجَدْناه بقُدرتنا وقُوَّتنا، وهذا إجماع أنَّه لَم يُرِدْ هاهُنا إلا ما ذَكَرْنا . قَوله تعالى : ﴿ فَهُم لَهَا مَالِكُون﴾ ، فِيه قَولان: أحدهما : ضابطون ، قاله قَتادة ومُقاتل . قال الزَّجاج : ومِثْله في الشِّعْر : أصبحتُ لا أحْمِلُ السِّلاحَ ولا ... أمْلِكُ رأسَ البعير إنْ نَفَرَا ، أي : لا أَضبِط رأسَ البعير . والثاني قادرون عليها بالتَّسخير لهم ، قاله ابن السائب)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاها لَهُم فَمِنْهَا رَكُوبُهُم وَمِنْهَا يَأكُلُون ﴾ [يس : ٧٢] .

سخَّر اللَّهُ الأنعامَ للناس ، وجَعَلَهم يَقْهَرُونها ويُخضعونها لإرادتهم ، وهي لا تَستطيع الاعتراض أو الامتناع ، حتى إنَّ الصَّبي يَقُود الجَمَلَ العظيمَ ، ويَضرِبه ، ويُوجِّهه إلى حَيث شاء ، ولا يَملِك إلا أن يُطيعه ويَخضع لأمره . فمِن هذه الأنعام ما يَركبونه ويُسافرون عَلَيه ويَحمِلون عليه أثقالَهم كالإبِل (سَفائن البَر) ، ومِن الأنعام ما يَأكلون لَحْمَه كالبَقَر والغَنم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٥٤٣) : ((﴿ وَذَلَّلْنَاها لَهُم ﴾ ، أي : جَعَلْناها لهم مُسخَّرة ، لا تَمتنع مِمَّا يُريدون مِنها مِن منافعهم حتى الذَّبْح، ويَقُودها الصبيُّ فتنقاد له ، ويَزجُرها فتنزجر . والفاء في قَوله : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُم ﴾ لتَفريع أحكام التذليل عليه ، أي : فَمِنها مَركُوبهم الذي يَركبونه، كما يُقَال : ناقة حَلُوب ، أي : مَحلُوبة . ... . ومعنى ﴿ وَمِنْهَا يَأكُلُون ﴾ ما يَأكلونه مِن لَحْمها ، و " مِن " للتَّبعيض)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَهُم فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أفَلا يَشْكُرُون ﴾ [يس : ٧٣] .

وللناس في هذه الأنعام فوائد كثيرة ومنافع عديدة _ غَير الرُّكُوب والأكل _ كالأصواف والأوبار والأشعار والجُلُود ، ولهم فيها مَشَارب أيضًا، حيث يَشرَبون مِن ألبانها ، أفلا يَشكُرون اللَّهَ الذي أنعمَ عليهم بهذه النِّعَم العظيمة ، ويَعبدونه وَحْدَه لا شريك له ؟ .

ولَوْلا خَلْق اللَّهُ لهذه الأنعام وتَسخيرها للناس ، لَمَا أمكنَ الاستفادة مِنها ، والانتفاع بها . والغايةُ مِن تَعديد نِعَم اللَّه على الناس هي إقامة الحُجَّة عَلَيهم ، وبيان حقيقة أنَّ اللَّه هُو الإله المُستحق للعبادة ، وَحْدَه لا شريك له .

وذِكْرُ العام ﴿ وَلَهُم فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ﴾ بَعد الخاص ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُم وَمِنْهَا يَأكُلُون ﴾ ، فائدته : تعظيمُ النِّعْمَةِ والمِنَّةِ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٦٢) : ((يَقول تعالى ذِكْرُه : ولهم في هذه الأنعام مَنَافع، وذلك منافع في أصوافها وأوبارها وأشعارها ، باتِّخاذهم مِن ذلك أثاثًا ومَتَاعًا ، ومِن جُلُودها أكنانًا ومشارب يَشرَبون ألبانَها . كما حدَّثنا بِشْر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قَتادة : ﴿ وَلَهُم فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ يَلبَسون أصوافَها ، ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ يَشرَبون ألبانَها . وقَوله : ﴿ أفَلا يَشْكُرُون ﴾ ، يقول : أفلا يَشكُرون نِعْمَتي هذه وإحساني إليهم بطاعتي ، وإفراد الأُلُوهية لي والعبادة ، وترك طاعة الشَّيطان وعِبادة الأصنام)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ اللَّهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأنعامَ لِتَركَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأكُلُون ﴾ [غَافِر : ٧٩].

يُذكِّر اللَّهُ عِبادَه بنِعَمه عَلَيهم . اللَّهُ الذي لا تَصلُح الأُلُوهية والعِبادة إلا له ، خَلَقَ لكم الأنعام (الإبِل والبَقَر والغَنَم) ، وسخَّرها لكم ، مِن أجلكم ، ولتحقيق مصالحهم ومنافعكم ، لِتَركبوا بَعْضَها ، وتأكلوا لُحُومَ بَعْضِها . ومِن الأنعام ما يُؤْكَل كالغَنَم ، ومِنها ما يُؤْكَل ويُركَب كالإبِل .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١١٤) : ((يَقُول تعالى مُمْتَنًّا على عِباده بما خَلَقَ لهم مِن الأنعام ، وهي الإبِل والبَقَر والغَنَم ، فمِنها رَكُوبهم ، ومِنها يَأكلون ، فالإبِل تُركَب وتُؤكَل وتُحلَب ، ويُحمَل عليها الأثقال في الأسفار ، والرِّحال إلى البلاد النائية والأقطار الشاسعة ، والبَقَر تُؤكَل ويُشرَب لَبَنُها ، وتُحرَث عليها الأرض ، والغَنَم تُؤكَل ويُشرَب لَبَنُها ، والجميع تُجَزُّ أصوافُها وأشعارُها وأوبارُها ، فَيُتَّخَذ مِنها الأثاث والثِّياب والأمتعة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَكُم فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً في صُدُورِكُم وَعَلَيْهَا وَعَلى الفُلْكِ تُحمَلون ﴾ [غَافِر : ٨٠] .

ولكم أيها الناس في هذه الأنعام فوائد كثيرة ومنافع عديدة ، في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها ونَسْلها ، وتَحمِل أثقالَكم وأمتعتكم في الأسفار البعيدة . وعلى الإبِل في البَر ، وعلى السُّفُن في البَحْر تُحمَلون. وذِكْرُ الإبِل والفُلْك بسبب العلاقة بينهما ، حيث إنَّ الإبِل سُفُن البَر ، والفُلْك سُفُن البَحْر .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧١٥) : ((﴿ وَلَكُم فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أُخَر غَير الرُّكُوب والأكل ، مِن الوَبَر والصُّوف والشَّعْر والزُّبْد والسَّمْن والجُبْن ، وغَير ذلك ، ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً في صُدُورِكُم ﴾ . قال مُجاهد ومُقاتل وقَتادة : تَحمِل أثقالَكم من بلد إلى بلد ، ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلى الفُلْكِ تُحمَلون ﴾ ، أي : على الإبِل في البَر ، وعلى السُّفُن في البَحْر . وقِيل : المُراد بالحَمْل على الأنعام هُنا حَمْل الوِلْدَان والنِّساء بالهوادج)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ أَوَلَم يَرَوْا إلى الطَّيْرِ فَوْقَهُم صَافَّاتٍ ويَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إلا الرحمنُ إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بصير ﴾ [المُلْك : ١٩] .

أوَلَم ينظر هؤلاء المُشركون نَظَرَ تفكر واعتبار إلى الطيور فوقهم، باسطاتٍ أجنحتها في الجَوِّ عِند طَيَرانها وتحليقها (تصفُّ أجنحتها في الهواء)،وتَقبِض أجنحتها بعد البَسْط (تَضرِب بها جُنُوبها وَقْتًا بعد وَقْت) . وهذا تعريف الطَّيَرَان ومَعناه ، وهو بَسْط الجناح وقَبْضه بَعد البَسْط .

وفي تفسير القرطبي (١٨/ ١٩٠): ((قال أبو جعفر النَّحاس : يُقال للطائر إذا بَسَطَ جناحيه: صاف . وإذا ضَمَّهما فأصاب جَنْبَه : قابض ، لأنه يَقبِضهما)) .

والهمزةُ في ﴿ أَوَلَم يَرَوْا ﴾ للاستفهام ، والمعنى أنهم أهْمَلُوا النظرَ وأغْفَلُوا الرؤيةَ ، ولَم يهتموا بهذا المنظر البديع ، ولَم يتفكروا به ، ولَم يَعتبروا . وهذا المنظرُ الإلهيُّ البديعُ (الطيور في السماء في حالَتَي البَسْط والقَبْض) يدل على أن اللَّه قَد سَخَّرَ الهواءَ للطيور ،كما سَخَّرَ الأرض للبشر . وفي هذا المنظر تظهر آثار قُدرة اللَّه تعالى . ومعروفٌ أن المخلوق يدل على الخالق ، والمصنوع يدل على الصانع ، والأثَر يدل على المُؤثِّر .

وبما أن الأصل والغالب في حركة الطائر هو البَسْط، قالَ اللَّهُ : ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ ، أمَّا القَبْض فهو طارئ ويَتجدَّد مَرَّةً بعد مَرَّةً ، لذلك قالَ اللَّهُ : ﴿ ويَقْبِضْنَ ﴾ ، ولَم يَقُل : قابضات ، كما قال : ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ .

وفي التسهيل لعلوم التَّنْزيل (٤/ ١٣٦) : ((فَإن قِيل : لِمَ لَمْ يَقُل " قابضات " على طريقة ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ ؟ ، فالجواب أنَّ بَسْط الجناحَيْن هو الأصل في الطَّيَرَان ،كما أن مد الأطراف هو الأصل في السِّباحة ، فذكره بصيغة اسم الفاعل ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ لدَوامه وكَثرته ، وأمَّا قبض الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلًا للاستراحة والاستعانة ، فلذلك ذَكَرَه بلفظ الفِعل لِقلَّته)) .

﴿ ما يُمْسِكُهُنَّ إلا الرحمنُ ﴾ ، ما يُمسِك الطيورَ في الجَوِّ وهي تطير ، ويَحفظها مِن السقوط أثناء البَسْط والقَبْض ، إلا اللَّه الخالق القادر على كُل شيء ، الرحمن الرحيم الذي وَسِعَتْ رَحمته

كُل شيء . حيث سَخَّرَ للطيور الهواء رَحمةً مِنه وتفضُّلًا ولُطْفًا ، كما أنه سُبحانَه زوَّد الطيورَ بخصائص تُسهِّل عليها الطيران، كما أن أشكالها تُساعد على ذلك . وفي هذا كُلِّه عِبرة ودليل على وَحدانية اللَّه وقُدرته وحِكمته . والآيةُ تنفي الأوهامَ التي تنسُب حركةَ الطائر إلى قُوى طبيعية وتأثيرات جِسمية وخصائص ذاتية .

وقال الرازي في التفسير الكبير (٣٠/ ٧١) : ((وذلك أنها مَعَ ثِقَلها وضخامة أجسامها ، لَم يكن بقاؤها في جَو الهواء إلا بإمساك اللَّه وحفظه ، وإلهامها إلى كيفية البَسْط والقَبْض المُطابِق للمنفعة مِن رحمة الرحمن)) .

﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بصير ﴾ . إنَّ اللَّه لا يَخفى عليه شَيء . خَلَقَ المخلوقاتِ بلا خطأ ولا خَلَل . يَعْلَم كيف يَخْلُق الأشياء ، ويُبدِع المصنوعات ، ويُدبِّر شُؤون خَلْقه . ولا شَريك له في ذلك .

وفي تفسير الجَلالَيْن (١/ ٧٥٦) : ((المعنى : أَلَم يستدلوا بثبوت الطير في الهواء على قُدرتنا أن نفعل بهم ما تَقَدَّم وغَيره مِن العذاب ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أفَلا ينَظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغَاشِيَة : ١٧] .

هذه الآيةُ تدلُّ على وَحدانية اللَّه الخالق ، وبديعِ صُنعه ، وكمالِ قُدرته ، وحُسْنِ تدبيره .

أفلا يَنظُرون نَظَرَ تفكُّر واعتبار إلى الإبِل (الجِمَال) كَيْفَ خَلَقَها اللَّهُ وَفْق هيئة عجيبة بديعة ، وسخَّرها لهم ، وجَعَلها تَحمِل أثقالَهم ؟ ، وهذا يدلُّ على وَحدانية اللَّه وكمال قُدرته .

وتَخصيص الإبِل بالذِّكْر لأنها كانت كثيرة في أرض العرب ، وخَلْقُها عجيب ، وتمتاز بالقُوَّة والشِّدة ، والصَّبْر على الجُوع والعَطَش ، وحَمْل الأثقال إلى البلاد البعيدة ، ويَستطيع طِفل صغير أن يَقُودها ، ويُسيطر عَلَيها ، وتُؤكَل لحومُها ، ويُنتفَع بأوبارها ، وتُشرَب ألبانُها .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الجَمَل مِن ذَوَات الأربع يَبْرُك ، فتُحمَل عليه الأثقال والأمتعة، وغَيْرُه مِن ذوات الأربع لا يُحمَل عَلَيه إلا وهو قائم .

وقال البَغَوي في تفسيره(١/ ٤٠٩): ((قال أهلُ التَّفسير: لمَّا نَعَتَ اللَّهُ تعالى في هذه السُّورة ما في الجَنَّة عَجِبَ مِن ذلك أهلُ الكفر وكذَّبوه ، فذكَّرهم اللَّهُ تعالى صُنْعَه ، فقال: ﴿ أفَلا ينَظُرُونَ إلى الإبِلِ ﴾ مِن بَين سائر الحَيَوَانات ﴿ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ، وكانت الإبِل مِن عَيش العرب ، لهم فيها منافع كثيرة ، فلمَّا صَنَعَ لهم ذلك في الدُّنيا ، صَنَعَ لأهل الجَنَّة فيها ما صَنَعَ . وتكلَّمت الحُكَماء في وجه تَخصيص الإبِل مِن بَين سائر الحَيَوَانات ، فقال مُقاتل : لأنَّهم لَم يَرَوْا بهيمةً قَط أعظم مِنها ، ولَم يُشاهد الفِيلَ إلا الشاذ منهم . وقال الكلبي : لأنها تَنهَض بحِمْلها وهي باركة . وقال

قَتادة : ذَكَرَ اللَّهُ تعالى ارتفاعَ سُرُر الجَنَّة وفُرُشِها ، فقالوا : كيف نَصعَدها ؟، فأنزلَ اللَّهُ تعالى هذه الآية . وسُئل الحَسَن عن هذه الآية ، وقِيل له : الفِيل أعظم في الأعجوبة ؟ ، فقال : أمَّا الفِيل فالعرب بعيدة العَهْد بها، ثُمَّ هو لا خَير فيه ، لا يُركَب ظَهْرُها ، ولا يُؤكَل لَحْمُها ، ولا يُحلَب دَرُّها، والإبل أعز مال للعرب وأنْفَسُها ، تأكل النَّوى والقَتَّ ، وتُخرِج اللبن. وقيل : إنَّها معَ عِظَمها تَلِين للحِمْل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف حتى إن الصبيَّ الصغير يأخذ بزِمَامها فيذهب بها حيث شاء. وكان شُرَيح القاضي يقول : اخْرُجوا بنا إلى كُنَاسة إسطبل حتى ننظُر إلى الإبِل كيف خُلِقَتْ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٩٨ و٩٩): ((قال العُلَماء : وإنَّما خَصَّ الإبِل مِن غَيرها ، لأنَّ العَرَب لَم يَرَوْا بهيمةً قَط أعظم مِنها ، ولَم يُشاهدوا الفِيلَ إلا الشاذ مِنهم ، ولأنها كانت أنْفَسَ أموالهم وأكثرها، لا تُفارقهم ولا يُفارقونها فيُلاحظون فيها العِبَرَ الدَّالة على قُدرة الخالق ، مِن إخراج لَبَنها مِن بَين فَرْث ودَم ، ومِن عجيب خَلْقها ، وهي على عِظَمها مُذَلَّلَة للحِمْل الثقيل ، وتنقاد للصبيِّ الصغير ، وليس في ذوات الأربع ما يُحمَل عليه وِقْرُه (حِمْلُه) وهو بارك فيُطيق النُّهوض به سِوَاها)) .

وفي التَّسهيل في عُلوم التَّنزيل (٤/ ١٩٦) : ((إنَّما خَصَّ تعالى الإبِلَ بالذِّكْر ، لأنها أفضل دواب العرب ، وأكثرها نفعًا ، ولها تُسمَّى سفينة الصَّحراء ، فانظُر إلى خَلْقها العجيب ، فإنَّها في غاية القُوَّة والشِّدة ، وهي معَ ذلك تنقاد معَ الطِّفْل الضعيف ، وهي تجلس لتضع عليها حُمولتها عن قُرب ، ثُمَّ تقوم بما تَحمِله بما يَنُوء عنه العُصبة أُولُو القُوَّة ، ثُمَّ صَبْرها على الجُوع والعَطَش الأيام المعدودة ، ثُمَّ بُلوغها المسافات الطويلة ، ورَعْيها بكل نبات في البَرَاري ، وغَير ذلك مِن عجائب الخَلْق والتَّكوين ، فسُبحانَ الحكيم العليم !)) .

١٧_ لُغَة الحَيَوَان

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ حَتَّى إذا أتَوْا عَلى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم لا يَحْطِمَنَّكُم سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُم لا يَشْعُرُون ﴾ [النَّمْل : ١٨] .

حَتَّى إذا أتى سُلَيمان وجُنودُه على وادي النَّمْل ، وكان واديًا بالشام كثيرَ النَّمْل ، قالت نملةٌ لرفيقاتها _ وقد رأت جُندَ سُلَيمان _ : ادخُلوا بُيوتَكم . وقد خاطبتهم مُخَاطَبَة العُقَلاء ، لأنها أمرتهم بما يُؤْمَر به العُقَلاء . لا يَكْسِرَنَّكُم سُلَيمان وجُنودُه بأقدامهم ، وهُم لا يَشعُرون بكم ، ولا يَعلَمون بمكانكم ، ولا يُريدون حَطْمَكم (كَسْرَكم) ، وَلَوْ شَعَرُوا لَم يَفعَلوا .

وفي هذا إشارة إلى عِصمة الأنبياء ، وتنزيههم عن الظُّلْم والأذى، وقد أدركت النملةُ أنَّ سُلَيمان نبيٌّ مَعصوم رحيم ، لذلك جاء اعتذارُها بعد تحذيرها . وقد سَمع سُلَيمانُ كلامَها ، وفَهِمَه.

والآيةُ ﴿ وَهُم لا يَشْعُرُون ﴾ وَصْفٌ لهم بالتَّقوى وحِرصهم على عَدَم إيذاء الحَيَوَانات .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٥٠٤) : ((يعني تعالى ذِكْرُه بقَوله : ﴿ حَتَّى إذا أَتَوْا عَلى وَادِ النَّمْلِ ﴾ ، حَتَّى إذا أتى سُلَيمانُ وجُنودُه على وادي النَّمْل ، ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم لا يَحْطِمَنَّكُم سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ ، يقول: لا يَكْسِرَنَّكُم ويَقْتُلَنَّكُم سُلَيمانُ وجنودُه ﴿ وَهُم لا يَشْعُرُون ﴾ ، يَقول : وهُم لا يَعلَمون أنهم يَحْطِمُونكم . حَدَّثنا ابن بشار قال : ثنا عبد الرحمن ويحيى قالا : ثنا سفيان عن الأعمش عن رَجُل يُقَال له الحَكَم عن عَوف في قَوله : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أيُّها النَّمْلُ ﴾ ، قال : كان نَمْلُ سُلَيمان بن داود مِثْلَ الذُّبَاب)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٦٠ _١٦٢) : ((قَوله تعالى : ﴿ حَتَّى إذا أَتَوْا ﴾، أي : أشْرَفُوا ﴿ عَلى وَادِ النَّمْلِ ﴾ ، وفي مَوضعه قَولان : أحدهما أنَّه بالطائف ، قاله كَعْب ، والثاني بالشَّام ، قاله قَتادة . قَوله تعالى : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ ، ... ، أي: صاحت بصَوت ، فلمَّا كان ذلك الصَّوت مفهومًا عبَّر عنه بالقَول ، ولمَّا نَطَقَ النملُ كما يَنطِق بنو آدم أُجْرِيَ مَجرَى الآدميين، فقِيل: ﴿ ادْخُلُوا ﴾ ، وألهمَ اللَّهُ تِلك النَّملة معرفةَ سُلَيمان مُعْجِزًا له ، وقد ألهمَ اللَّهُ النملَ كثيرًا مِن مصالحها تَزيد به على الحَيَوَانات ، فمِن ذلك أنها تَكسِر كُلَّ حَبَّة تدَّخرها قِطعتَيْن لئلا تَنبُت ، إلا الكُزْبرة فإنَّها تَكسِرها أربع قِطَع ، لأنَّها تَنبُت إذا كُسِرَت قِطعتَيْن ، فسُبحانَ مَن ألهمها هذا . وفي صِفة تِلك النَّملة قَولان: أحدهما: أنها كانت كهَيئة النَّعجة ، قال نَوف الشَّامي : كان النَّمْل في زمن سُلَيمان بن داود كأمثال الذئاب.والثاني:كانت نملة صغيرة . ... . قَوله تعالى: ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُم ﴾ ... والحَطْم : الكَسْر ، والحُطَام : ما تَحَطَّم . قال مُقاتل : سَمع سُلَيمانُ كَلامَها من ثلاثة أميال . وفي قَوله : ﴿ وَهُم لا يَشْعُرُون ﴾ قَولان : أحدهما : وأصحاب سُلَيمان لَم يَشعُروا بكلام النَّملة ، قاله ابن عباس . والثاني : وأصحاب سُلَيمان لا يَشْعُرون بمكانكم ، لأنَّها عَلِمَتْ أنَّه مَلِك لا بَغْيَ فيه ، وأنَّهم لَوْ عَلِمُوا بالنَّمْل ما تَوَطَّؤوهم ، قاله مقاتل)) .

وفي صَفوة التفاسير (١١/ ٨ و٩) : ((قال بعضُ العُلَماء : هذه الآية ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم ﴾ مِن عجائب القُرآن، لأنَّها بلفظة " يا " نادت،" أيُّها " نَبَّهَتْ ، " النَّمْل" عَيَّنَتْ، " ادخُلوا " أَمَرَتْ ، " مساكنكم " نَصَّتْ ، " لا يَحطمنكم " حَذَّرَتْ ، " سُلَيمان " خَصَّتْ، "وجُنوده " عَمَّت ، " وهُم لا يَشعرون " اعتذرت ، فيا لها مِن نَملة ذكية !!)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِن قَوْلِهَا وقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى وَالِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحِين ﴾ [النَّمْل: ١٩].

فتبسَّم سُلَيمانُ تَعَجُّبًا مِن كلام النَّمْلة ، أو سُرُورًا مِن ثنائها عَلَيه ، إذْ إنَّ ﴿ وَهُم لا يَشْعُرُون ﴾ وَصْفٌ لهم بالتَّقوى ، وأنَّهُم لا يُلْحِقُون الضَّرَرَ بالمخلوقات . و التَّبَسُّم هو أغلبُ ضَحِك الأنبياء . وقال : رَبِّ أَلْهِمْني ووَفِّقْني لشُكر نِعَمك العظيمة وآلائك الجليلة عليَّ وعلى أبي وأُمِّي ، ووَفِّقْني لعمل الخَير والطاعات ، وأدْخِلْني الجَنَّةَ معَ عِبادك الصالحين ، أي: في زُمْرَة أنبيائك أوْ أوليائك .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٧٦) : ((أوردَ ابن عساكر مِن طريق إسحاق بن بِشْر عن سعيد عن قَتادة عن الحَسَن أنَّ اسم هذه النَّمْلَة حرس ، وأنَّها مِن قبيلة يُقَال لهم بنو الشيصان ، وأنها كانت عَرْجاء ، وكانت بقَدْر الذئب ، أي: خافت على النَّمْل أن تَحطِمها الخُيُولُ بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، فَفَهِمَ ذلك سُلَيمان عليه السلام مِنها ، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِن قَوْلِهَا وقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى وَالِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي : أَلْهِمْني أن أشكر نِعمتك التي مَنَنْتَ بها عليَّ مِن تعليمي مَنطِق الطَّيْر والحَيَوَان، وعلى والديَّ بالإسلام لك، والإيمان بك، ﴿ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ ، أي : عَمَلًا تُحِبُّه وترضاه ﴿ وأَدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحِين ﴾ ، أي : إذا تَوَفَّيْتَني فألْحِقْني بالصالحين مِن عِبادك ، والرَّفيق الأعلى مِن أوليائك . ومَن قال مِن المُفسِّرين إنَّ هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغَيره ، وإنَّ هذه النَّمْلة كانت ذات جناحَيْن كالذُّبَاب أوْ غَير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها . وعن نَوف البِكَالي أنَّه قال : كان نَمْلُ سُلَيمان أمثالَ الذئاب ، هكذا رأيتُه مضبوطًا بالياء المُثناة مِن تحت ، وإنَّما هو بالباء المُوحَّدة ، وذلك تَصحيف ، واللَّهُ أعلم . والغَرَض أنَّ سُلَيمان عليه السلام فَهِمَ قَوْلَها وتَبَسَّمَ ضاحكًا مِن ذلك ، وهذا أمر عظيم جِدًّا . وقد قال ابن أبي حاتم : حَدَّثَنا أبي ، حَدَّثَنا مُحمَّد ابن بشَّار ، حَدَّثَنا يزيد بن هارون ، أنبأنا مِسْعَر عن زيد العَمِّي عن أبي الصِّديق الناجي قال : خرج سُلَيمان بن داود عليهما السلام يَستسقي ، فإذا هو بنَمْلة مُستلقية على ظَهْرها ، رافعة قوائمها إلى السماء ، وهي تقول : اللهُمَّ إنَّا خَلْق مِن خَلْقِك ، ولا غِنَى بنا عن سُقياك ، وإلا تَسْقِنَا تُهْلِكْنا ، فقال سُلَيمان : ارجعوا ، فقد سُقيتم بدَعوة غَيركم . وقد ثبت في الصحيح عِند مسلم من طريق عبد الرزاق ، عن مَعْمَر عن هَمَّام عن أبي هُرَيرة عن النبيِّ ﷺ قال : " قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الأنبياء نَمْلَةٌ، فأمرَ بقرية النَّمْل فأُحْرِقَتْ ، فأوحى اللَّهُ إليه : أفي أن قَرَصَتْكَ نَملةٌ أهلكتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَم تُسَبِّح ؟ فَهَلَّا نملة واحدة ؟ ")) .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٦٢) : ((﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِن قَوْلِهَا ﴾ تَعَجُّبًا مِن حَذَرها وتَحذيرها، واهتدائها إلى مصالحها، وسُرُورًا بما خصَّه اللَّهُ تعالى به مِن إدراك هَمْسها وفَهْم غَرَضها، ولذلك سَألَ توفيقَ شُكره ، ﴿ وقالَ رَبِّ أَوْزِعْني أنْ أشكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ ، أي: اجْعَلْني أَزَعُ شُكرَ نِعمتك عِندي، أي أكُفُّه وأرتبطه لا يَنفلت عَنِّي بحيث لا أنفكُّ عَنه . ... . ﴿ التي أنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى وَالِدَيَّ ﴾ ، أَدْرَجَ فيه ذِكْر والدَيْه تكثيرًا للنِّعمة ، أوْ تعميمًا لها ، فإنَّ النِّعمة عليهما نِعمة عليه، والنِّعمة عليه يَرجع نَفْعُها إليهما سِيَّما الدِّينية ، ﴿ وأنْ أعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ إتمامًا للشُّكر، واستدامة للنِّعمة ، ﴿ وأدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحين ﴾ في عِدَادهم الجَنَّةَ)) .

وقال الثعالبي في تفسيره (٣/ ١٥٨) : ((قَوله تعالى : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِن قَوْلِهَا ﴾ ، التَّبَسُّم هُوَ ضَحِك الأنبياء فى غالب أمرهم، لا يَلِيق بِهم سِوَاه، وكان تَبَسُّمُه سُرُورًا بنِعمة اللَّه تعالى عليه في إسماعه وتفهيمه.وفي قَول النَّملة: ﴿ وَهُم لا يَشْعُرُون ﴾ ثناء على سُلَيمان وجُنوده يتضمَّن تنزيههم عن تعمُّد القبيح ، ثُمَّ دَعا سُلَيمانُ عليه السلام رَبَّه أن يُعينه ويُفَرِّغه لشُكر نِعمته، وهذا معنى إيزاع الشُّكْر . وقال الثعلبي وغَيْرُه : " أوْزِعْني " مَعناه : أَلْهِمْني . وكذلك قال العراقي)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٨٧) : ((﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِن قَوْلِهَا ﴾ ، ... ،على قِراءة الجمهور يَكُون ﴿ ضَاحِكًا ﴾ حَالًا مُؤكِّدة ، لأنَّه قد فُهم الضَّحِك مِن التَّبَسُّم . وقِيل : هي حال مُقدَّرة ، لأنَّ التَّبَسُّم أوَّل الضَّحِك . وقِيل : لمَّا كان التَّبَسُّم قد يكون للغضب ، كان الضَّحِك مُبَيِّنًا له . وقِيل : إنَّ ضَحِك الأنبياء هو التَّبَسُّم لا غَيْر . ... . وكان ضَحِك سُلَيمان تَعَجُّبًا مِن قَوْلها وفَهْمها واهتدائها إلى تحذير النَّمْل، ﴿ وقالَ رَبِّ أَوْزِعْني أنْ أشكُرَ نِعْمَتَكَ التي أنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى وَالِدَيَّ ﴾ . ... . قال في الكَشَّاف : وحقيقة أوْزِعْني : اجْعَلْني أَزَعُ شُكْرَ نِعَمك عِندي ، وأَكُفُّه وأرتبطه لا ينفلت عَنِّي حتى لا أنفكَّ شاكرًا لك ، انتهى . قال الواحدي : أَوْزِعْني ، أي : أَلْهِمْني أن أشكرَ نِعمتك التي أنعمتَ عليَّ. يُقَال : فُلان مُوزَع بكذا، أي : مُولَع به ، انتهى . ... . ومعنى ﴿ وَعَلى وَالِدَيَّ ﴾ : الدُّعَاء مِنه بأن يُوزِعه اللَّهُ شُكرَ نِعمته على والدَيْه ، كما أوزعه شُكرَ نِعمته عليه ، فإنَّ الإنعام عليهما إنعام عليه ، وذلك يَستوجب الشُّكر مِنه للَّه سُبحانَه ، ثُمَّ طَلَبَ أن يُضيف اللَّهُ له لواحق نِعَمه إلى سوابقها ، ولا سِيَّما النِّعَم الدِّينية ، فقال : ﴿ وأنْ أعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ ، أي : عَمَلًا صالحًا تَرْضاه مِنِّي ، ثُمَّ دعا أن يَجعله اللَّهُ سُبحانَه في الآخِرة دَاخِلًا في زُمْرَة الصالحين ، فإنَّ ذلك هو الغاية التي يتعلَّق الطَّلَب بها ، فقال : ﴿ وأدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحِين ﴾ ، والمعنى : أَدْخِلْني في جُملتهم ، وأَثْبِت اسْمِي في أسمائهم ، واحْشُرْني في

زُمْرَتهم إلى دار الصالحين ، وهي الجَنَّة . اللهُمَّ وإنِّي أدعوكَ بما دعاكَ به هذا النبيُّ الكريم فَتَقَبَّلْ ذلك مِنِّي ، وتَفَضَّلْ عليَّ به ، فإنِّي وإن كُنتُ مُقَصِّرًا في العمل ، فَفَضْلُك هو سبب الفَوز بالخَير، فهذه الآية مُنادية بأعلى صَوت ، وأوضح بَيان ، بأنَّ دُخول الجَنَّة التي هي دار المؤمنين بالتَّفَضُّل مِنك ، لا بالعمل مِنهم ، كما قال رسولُك الصادق المصدوق فِيما ثبت عنه في الصحيح: " سَدِّدُوا وقَارِبُوا واعْلَمُوا أنَّه لَن يَدخل أحدٌ الجَنَّةَ بعمله " ، قالوا : ولا أنتَ يا رسول اللَّه ؟ ، قال : " ولا أنا إلا أن يَتَغَمَّدَني اللَّهُ برحمته " . فإذا لَم يكن إلا تفضُّلك الواسع ، فترك طَلَبه مِنك عَجْز ، والتَّفريط في التَّوَسُّل إليك بالإيصال إليه تَضييع)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فقالَ مَالِيَ لا أرى الهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الغائبين ﴾[النَّمْل: ٢٠].

بَحَثَ سُلَيمانُ عَن جَماعة الطَّيْر . والتَّفَقُّد تَطَلُّب ما غابَ عَنك ، وتعرُّف أحواله . والطَّيْرُ اسم جِنس لكُل ما يَطِير . لقد طَلَبَ سُلَيمانُ ما فَقَدَه مِن الطَّيْر ، وأرادَ معرفة حال ما غابَ مِنها ، وكانت الطَّيْرُ تَصحَبه في سَفَره وتُظِلُّه بأجنحتها ، فسألَ عن سبب عدم رُؤيته الهُدهُد ، بَلْ هُو غائب ، وذهبَ دُون إذْن سُلَيمان .

وكان الهُدهُد يرى الماءَ تحت الأرض ، ويدلُّ على مواضعه ، فتستخرجه الشَّياطينُ بأمر سُلَيمان لحاجته إلَيه ، فطلبَ سُلَيمانُ الهُدْهُدَ يومئذ فلم يَجِدْه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٧٨) : ((قال مُجاهد وسعيد بن جُبَير وغَيْرُهما عَن ابن عباس وغَيره: كان الهُدهُد مُهندسًا يدلُّ سُلَيمانَ عليه السلام على الماء، إذا كان بأرضٍ فَلاةٍ،طَلَبَه، فنظرَ له الماءَ في تُخُوم الأرض ، كما يرى الإنسانُ الشيءَ الظاهر على وَجْه الأرض ، ويعرف كَم مساحة بُعْده مِن وجه الأرض ، فإذا دَلَّهُم عليه ، أمرَ سُلَيمانُ عليه السلام الجَانَّ، فَحَفَرُوا له ذلك المكان ، حتى يستنبط الماءَ مِن قَرَاره ، فنزل سُلَيمانُ عليه السلام يَوْمًا بفَلاة مِن الأرض ، فتفقَّد الطَّيْرَ ليرى الهُدْهُدَ، فلم يَرَه ، ﴿ فقالَ مَالِيَ لا أرى الهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الغائبين ﴾ . حَدَّثَ يَوْمًا عبد اللَّه بن عباس بنَحْو هذا ، وفي القوم رَجُل من الخوارج ، يُقَال له نافع بن الأزرق ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس ، فقال له : قِفْ يا ابن عباس ، غُلِبْتَ اليَوم ، قال : وَلِمَ ؟ ، قال : إنَّكَ تُخبِر عَن الهُدهُد أنَّه يَرى الماءَ في تُخُوم الأرض ، وإنَّ الصبيَّ لَيَضَع له الحَبَّة في الفَخ ويحثو على الفَخ تُرَابًا فيجيء الهُدْهُدُ ليأخذها ، فيقع في الفَخ ، فيَصيده الصبيُّ ، فقال ابن عباس : لَوْلا أن يَذهب هذا فيَقول : رَدَدْتُ على ابن عباس لَمَا أَجَبْتُه ، ثُمَّ قال له : وَيْحَكَ ، إنَّه إذا نَزَلَ القَدَرُ ، عَمِيَ البَصَرُ ، وذَهَبَ الحَذَرُ ، فقال له نافع : واللَّهِ لا أُجادلك في شيء مِن القُرآن أبدًا)) .

وفي صَفوة التفاسير(١١/١٤):((أَخَذَ بعضُ العُلَماء مِن قَوله تعالى:﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ استحباب تَفَقُّد المَلِك لأحوال الرَّعِيَّة ، وكذلك تفقُّد الأصدقاء ، والإخوان ، والخِلَّان . وأنشدَ بعضُهم :

سَنَّ سُلَيمانُ لَنَا سُنَّةً وكانَ فِيمَا سَنَّهُ مُقْتَدَى
تَفَقَّدَ الطَّيْرَ على مُلْكِهِ فقال : مالِيَ لا أرى الهُدْهُدا ؟)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[النَّمْل : ٢١].

عندما عَرَفَ سُلَيمانُ أنَّ الهُدهُد غائب ، أقسمَ أن يُعذِّبه تعذيبًا مُؤْلِمًا مُوجِعًا بِنَتْف رِيشه ، ورَمْيه في الشَّمس للهَوَام ، أوْ بقَطْع حُلقومه ، ليَكون عِبْرَةً للطُّيُور . أوْ يجب على الهُدهُد أن يُقَدِّم بُرهانًا ظاهرًا على عُذره ، وحُجَّةً واضحة عَلى غَيبته ، تُنقِذه مِن العذاب والهلاك .

وجازَ لسُلَيمان تعذيب الهُدهُد ، لِمَا رَأى في ذلك مِن المصلحة والفائدة والمَنفعة ، كما جازَ ذَبْح الطُّيور والبهائم للأكل وغَيره . وتَسخيرُ الطَّيْر لسُلَيمان لا يتم إلا بالسياسة والتأديب .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٨٨) : ((﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾ ، اختلَفوا في هذا العذاب الشديد ، ما هو ؟ . فقال مُجاهد وابن جُرَيج : هو أن يَنتِف رِيشَه جميعًا. وقال يزيد بن رومان : هو أن يَنتِف رِيشَ جَنَاحَيْه . وقِيل : هو أن يَحبِسه معَ أضداده . وقِيل : أن يَمنعه مِن خِدمته . وفي هذا دليل على أنَّ العُقوبة على قَدْر الذَّنْب لا على قَدْر الجَسَد . ... . والسُّلطان المُبين هو الحُجَّة البَيِّنة في غَيبته)) اهـ . وعن ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما : في قَوله تعالى : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ، قال : ((أنتِفُ رِيشَه)).قال ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما:((كان سُلَيمانُ بنُ داودَ يُوضَع له سِتُّ مائةِ ألفِ كُرسيٍّ، ثُمَّ يَجِيءُ أشرافُ الإنسِ حَتَّى يَجلِسوا مِمَّا يَلِيه، ثُمَّ يَجِيءُ أشرافُ الجِنِّ حَتَّى يَجلِسوا مِمَّا يَلِي الإنسَ، ثُمَّ يَدْعُو الطَّيْرَ فَيُظِلُّهم،ثُمَّ يَدْعُو الرِّيحَ فَتَحْمِلُهُم، فَيَسِيرُ في الغَدَاةِ الواحدةِ مَسيرةَ شَهْر،فَبَينما هُوَ يَسِير في فَلاة إذِ احتاجَ إلى الماءِ فجاءَ الهُدْهُدُ فَجَعَلَ يَنقُر الأرضَ فأصابَ مَوضعَ الماء،فجاءت الشياطينُ فَسَلَخَتْ ذلكَ المَوْضِعَ كما تَسْلُخُ الإهَابَ فأصابوا الماءَ)) ، فقال نافع بن الأزرق :يا وَقَّاف ، أرأيتَ الهُدْهُدَ كَيف يَجِيءُ فَيَنقُر الأرضَ فيُصيب مَوضعَ الماء ، وهو يجيء إلى الفَخ وهو يُبصِره حَتَى يقع في عُنُقه ؟ ، فقال ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما : ((إنَّ القَّدَرَ إذا جاءَ حَالَ دُونَ البَصَر)) [١٧٠].

---

١٧٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٠) برقم (٣٥٢٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هذا الحديثُ يُوضِّح سَعَةَ المُلْك العظيم الذي مَنَحَه اللَّهُ لسُلَيمان ﷺ ، فهو مُسيطر بإذن اللَّه على الإنس والجِن والطَّيْر والرِّيح ، كما يُوضِّح وظيفة الهُدهُد في اكتشاف الماء تحت الأرض ، ثُمَّ قِيام الشَّياطين بِكَشْط مَوضع الماء ، كما تَكشِط الجِلْدَ ، أي: حَفَرُوا حتَّى وَجَدُوا الماءَ .

وعلى الرَّغم مِن قُدرة الهُدهُد الفائقة على رؤية الماء تحت الأرض كما يُرى الماء في الزُّجاجة، إلا أنَّ صَبِيًّا يَستطيع أن يَنصِب له فَخًّا،فيقع فيه دُون أن يَرَاه ولا يَنتبه إلَيه،لأنَّه إذا جاءَ القَدَرُ عَمِيَ البَصَرُ ، وإذا جاءَ الحَيْنُ غطَّى العَيْن. والحَيْنُ: الأجل. ولا يَنفع الذَّكاء والمهارة معَ القَضَاء والقَدَر.

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فقالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأ بِنَبَأ يَقِينٍ ﴾ [النَّمْل : ٢٢] .

غابَ الهُدْهُدُ زمانًا يسيرًا ، ثُمَّ جاء فقالَ لسُلَيمان : عَلِمْتُ ما لَم تَعْلَمْهُ أنتَ وجُنودُك . والإحاطةُ العِلْمُ بالشَّيء مِن جميع جِهاته . وهذا رَد واضح على مَن زَعَمَ أنَّ الأنبياء تَعلَم الغَيْبَ . وأتَيْتُكَ مِن مدينة سَبَأ باليَمَن بِخَبَرٍ صادقٍ ، لا شَك فيه . وهكذا حَمَى نَفْسَه مِن العذاب والذَّبْح.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٦٣): ((﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ زَمَانًا غَيْرَ مَدِيد، يُريد به الدَّلالة على سُرعة رُجوعه خَوْفًا مِنه . ... . ﴿ فقالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ ، يعني : حال سَبَأ . وفي مُخاطبته إيَّاه بذلك تنبيه له على أنَّ في أدنى خَلْق اللَّه تعالى مَن أحاطَ عِلْمًا بِمَا لَم يُحِطْ بِه ، لتتحاقر إلَيه نَفْسُه ، ويتصاغر لَدَيه عِلْمُه . ...)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ١٦٣) : ((وفي الآية دليل على أنَّ الصَّغير يقول للكبير ، والمُتعلِّم للعَالِم : عِندي ما لَيس عِندك ، إذا تَحَقَّقَ ذلك وتَيَقَّنَه . هذا عُمر بن الخطاب معَ جَلالته ــ رضي اللَّهُ عنه ــ وعِلْمه ، لَم يكن عِنده عِلْم بالاستئذان . وكان عِلْم التَّيَمُّم عِند عَمَّار وغَيره، وغابَ عن عُمر وابن مسعود حتى قالا : لا يَتَيَمَّم الجُنُب . وكان حُكْم الإذْن في أن تَنفِر الحائضُ عند ابن عباس ، ولَم يَعْلَمْه عُمر ، ولا زيد بن ثابت . وكان غَسْل رأس المُحْرِم مَعلومًا عِند ابن عباس ، وخَفِيَ عن المِسْوَر بن مَخْرَمة . ومِثْلُه كثير فلا يُطوَّل به .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنِّي وَجَدتُ امرأةً تَمْلِكُهُم وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النَّمْل : ٢٣] .

رأى الهُدْهُدُ أمرًا غريبًا عجيبًا ، وهذا سبب غِيابه . وَجَدَ مَلِكَةً لهم اسمها بَلقيس ، يُطيعونها، ويَخضعون لها، وتُسيطر عليهم، وأُعْطِيَتْ مِمَّا يُعطَى المُلوك مِن سَعَة المال وكثرة الرِّجال والسِّلاح، ولها سرير كبير تَجلِس عَلَيه ، مُزَخْرَف بالذَّهَب ، ومُكلَّل بالياقوت والزَّبرجد .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ١٦٤) : ((قَوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدتُ امرأةً تَمْلِكُهُم ﴾ . لمَّا قال الهُدهُد : ﴿ جِئْتُكَ مِن سَبَأ بِنَبَأ يَقِينٍ ﴾ ، قال سُلَيمان : وما ذلك الخَبَر؟ ، قال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُ امرأةً تَمْلِكُهُم ﴾ ، يَعني : بَلقيس بنت شَرَاحيل تَملِك أهلَ سَبَأ . ويُقَال : كَيف خَفِيَ على سُلَيمان مكانُها وكانت المَسافة بَين مَحَطِّهِ وبَين بلدها قريبة ، وهي مِن مسيرة ثلاث بين صَنعاء ومَأرب؟، والجواب أنَّ اللَّه تعالى أخفى ذلك عَنه لمصلحة ، كما أخفى على يَعقوب مكان يُوسُف. ويُروَى أن أحد أبَوَيها كان مِن الجِن . قال ابن العربي : وهذا أمر تُنكره المُلحِدة ، ويقولون : الجِن لا يَأكلون ، ولا يَلدون ، كَذَبُوا ، لَعَنَهم اللَّهُ أجمعين. ... . روى البخاريُّ مِن حديث ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا بَلَغَه أنَّ أهل فارس قد مَلَّكُوا بِنتَ كِسرى ، قال : " لَن يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أمْرَهُم امرأةً ". قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نَص في أنَّ المرأة لا تكون خليفة ، ولا خِلاف فيه. ونُقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولَم يَصِح ذلك عنه ، ولعلَّه نُقل عنه كما نُقل عن أبي حَنيفة أنَّها إنَّما تَقضي فيما تَشهَد فيه ، وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق، ولا بأن يُكتَب لها مسطور بأنَّ فُلانة مُقدَّمة على الحُكم ، وإنما سبيل ذلك التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير. وقد رُوِيَ عن عُمر أنه قدَّم امرأةً على حِسبة السُّوق ، ولَم يَصِح ، فلا تلتفتوا إليه ، فإنَّما هو من دسائس المُبتدعة في الأحاديث. وقد تناظرَ في هذه المسألة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفَرَج بن طَرَار شيخ الشافعية ، فقال أبو الفَرَج : الدليل على أن المرأة يجوز أن تَحكُم أنَّ الغرض من الأحكام تنفيذ القاضي لها، وسَماع البَيِّنة عليها ، والفَصْل بَين الخُصوم فيها، وذلك مُمكن مِن المرأة كإمكانه من الرَّجل . فاعترض عليه القاضي أبو بَكْر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى ، فإنَّ الغرض منه حفظ الثُّغُور ، وتدبير الأمور ، وحِماية البَيْضة ، وقَبْض الخَرَاج ، ورَدُّه على مُستحقه ، وذلك لا يتأتى مِن المَرأة كَتَأتِّيه مِن الرَّجل . قال ابن العربي : ولَيس كلام الشَّيْخَيْن في هذه المسألة بشيء ، فإنَّ المَرأة لا يتأتَّى منها أن تَبرُز إلى المجلس، ولا تُخالط الرِّجال، ولا تُفاوضهم مُفاوَضة النظير للنظير، لأنَّها إن كانت فتاة حُرِّمَ النَّظر إليه وكلامها ، وإن كانت بَرْزَة (عاقلة عفيفة رَزينة) لَم يَجمَعها والرِّجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم ، وتكون مُناظِرة لهم ، ولَن يُفْلِح قَط مِن تَصَوَّرَ هذا ولا مَن اعتقده . قَوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مُبَالَغَة ، أي: مِمَّا تحتاجه المملكة. وقيل: المعنى أُوتِيَتْ مِن كُل شيء في زمانها شيئًا، فحُذف المفعول، لأنَّ الكلام دَلَّ عَلَيه. ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : سرير ، ووَصْفه بالعِظَم في الهَيْئة ورُتبة السُّلطان . قِيل : كان مِن ذَهَب تَجلِس عَلَيه . ... .

الزمخشري : فإن قُلتَ : كَيف سَوَّى الهُدهُد بَين عَرش بَلقيس وعَرش اللَّه في الوَصْف بالعظيم؟ ، قُلتُ : بَيْن الوَصْفَيْن بَوْن عظيم ، لأنَّ وَصْف عَرْشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عُروش أبناء جِنسها مِن المُلوك ، ووَصْف عَرْش اللَّه بالعظيم تعظيم له بالنِّسبة إلى ما خَلَقَ مِن السَّماوات والأرض . قال ابن عباس : كان طُول عَرْشها ثمانين ذِرَاعًا ، وعَرْضه أربعين ذِرَاعًا ، وارتفاعه في السَّماء ثلاثين ذِرَاعًا ، مُكَلَّل بالدُّر ، واليَاقوت الأحمر ، والزَّبرجد الأخضر . قَتادة : وقوائمه لُؤلُؤ وَجَوْهَر ، وكان مُستَّرًا بالدِّيباج والحرير ، عَلَيه سَبعة مغاليق . مُقاتل : كان ثمانين ذِرَاعًا ، وارتفاعه مِن الأرض ثمانون ذِرَاعًا ، وهو مُكَلَّل بالجواهر . ابن إسحاق : وكان يَخدِمها النِّسَاء ، وكان معها لِخَدمتها ستمائة امرأة . قال ابن عَطِيَّة : واللازم مِن الآية أنَّها امرأة مَلَكَتْ عَلى مدائن اليمن ، ذات مُلْك عظيم ، وسرير عظيم ، وكانت كافرة مِن قَوم كُفَّار)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٦٥ و١٦٦) : ((﴿ إنِّي وَجَدتُ امرأةً تَمْلِكُهُم ﴾ يعني : بَلقيس ، ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، قال الزَّجاج : معناه : مِن كُل شيء يُعْطَاه المُلوك ويُؤْتَاه الناس . والعَرْش : سرير المَلِك . قال قَتادة : كان عَرْشُها مِن ذَهَب، قوائمه مِن جَوْهَر مُكَلَّل باللؤلؤ ، وكان أحد أبَوَيْها مِن الجِن ، وكان مُؤخَّر أحد قَدَميها مِثل حَافِر الدَّابَّة . وقال مُجاهد : كانَ قَدَمَاها كَحَافِر الحِمَار . وقال ابن السائب : لَم يكن بِقَدَمَيْها شيء ، إنَّما وَقَعَ الجِنُّ فيها عند سُلَيمان بهذا القَول ، فلمَّا جَعل لها الصَّرْح بانَ له كَذِبُهم . قال مُقاتل : كان ارتفاع عرشها ثمانين ذِرَاعًا في عَرْض ثمانين ، وكانت أُمُّها مِن الجِن . قال ابن جرير : وإنَّما صار هذا الخَبَر عُذرًا للهُدهُد ، لأنَّ سُلَيمان كان لا يرى لأحد في الأرض مَملكة سِواه، وكان مع ذلك يُحِبُّ الجِهَادَ، فلمَّا دَلَّهُ الهُدْهُدُ على مَملكةٍ لغَيره ، وعلى قَوْمٍ كَفَرَة يُجاهدهم ، صارَ ذلك عُذرًا له)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿ وَجَدتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ للشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أعْمَالَهُم فَصَدَّهُم عَنِ السَّبِيلِ فَهُم لا يَهْتَدُون ﴾ [النَّمْل : ٢٤] .

وَجَدَ الهُدْهُدُ المَلِكَةَ بَلقيس وَقَوْمَها جميعًا مَجُوسًا يَعْبُدون الشَّمْسَ ، ولا يَعبُدون اللَّهَ الإلهَ المُستحق للعبادة ، وَحْدَه لا شريك له ، وحسَّن لهم الشَّيطانُ ما هُم فيه مِن الكُفْر (عِبادة الشَّمس مِن دُون اللَّه تعالى) ، فمنعهم بسبب ذلك التَّزيين والإضلال عن طريق الحق والصواب ، فهُم لا يَهتَدون إلى اللَّه وتَوحيده .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٥٠٩) : ((يَقول تعالى مُخْبِرًا عَن قِيل الهُدهُد لسُلَيمان ، مُخْبِرًا بعُذره في مَغيبه عَنه : ﴿ إنِّي وَجَدتُ امرأةً تَمْلِكُهُم ﴾ ، يَعني : تَملِك سَبَأ ، وإنَّما صار هذا

الخَبَر للهُدهُد عُذرًا وحُجَّة عِند سُلَيمان دَرَأَ به عنه ما كان أُوعِدَ به ، لأنَّ سُلَيمان كان لا يرى أنَّ في الأرض أحدًا له مَملكة معه ، وكان مع ذلك ﷺ رَجُلًا حُبِّبَ إليه الجِهاد والغَزْو ، فلمَّا دَلَّهُ الهُدهُد على مُلْك بمَوضِع مِن الأرض هو لِغَيره ، وقَوم كَفَرَة يَعبدون غَيْرَ اللَّه ، له في جِهادهم وغَزْوهم الأجر الجزيل ، والثواب العظيم في الآجِل ، وضَم مملكة لغَيره إلى مُلْكه ، حَقَّتْ للهُدهُد المَعذرة ، وصَحَّتْ له الحُجَّة في مَغيبه عن سُلَيمان . وقَوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، يَقول : وأُوتِيَتْ مِن كُل شَيء يُؤْتَاه المَلِك في عاجل الدُّنيا مِمَّا يكون عِندهم مِن العَتَاد والآلة. ... . وقَوله: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ ، يَقول : ولها كُرسي عظيم ، وعُنِيَ بالعظيم في هذا المَوضع : العظيم في قَدْره وعِظَم خَطَره ، لا عِظَمه في الكِبَر والسَّعَة . ... . وقَوله : ﴿ وَجَدتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، يَقول : وَجَدْتُ هذه المَرأةَ مَلِكَة سَبَأ ، وقَوْمَها مِن سَبَأ، يَسجُدون للشَّمْس فيَعبدونها مِن دُون اللَّه . وقَوله : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أعْمَالَهُم ﴾ ، يَقول : وحسَّن لهم إبليسُ عِبادتهم الشَّمْس ، وسُجودهم لها مِن دُون اللَّه ، وحَبَّبَ ذلك إلَيهم ﴿فَصَدَّهُم عَنِ السَّبِيلِ﴾ يقول : فَمَنعهم بتزيينه ذلك لهم أن يتَّبعوا الطريقَ المستقيم ، وهو دِين اللَّه الذي بَعَثَ به أنبياءه. ومعناه : فَصَدَّهم عن سبيل الحق ، ﴿ فَهُم لا يَهْتَدُون ﴾ ، يَقول : فَهُم لِمَا قد زيَّن لهم الشَّيطانُ ما زَيَّنَ مِن السُّجود للشمس مِن دُون اللَّه ، والكُفر به ، لا يهتدون لسبيل الحق ولا يَسلكونه ولكنهم في ضَلالهم الذي هم فيه يتردَّدون)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٣/ ٢٠٩): ((ولا يَبْعُد مِن الهُدهُد التَّهَدِّي إلى معرفة اللَّه تعالى، ووُجُوب السُّجود لُه ، وحُرمة السُّجود للشَّمْس ، إلهامًا مِن اللَّه له ، ألهمه وغَيْرَه مِن الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة ، التي لا يَكاد العُقَلاء الرَّجَاح العُقول يهتدون لها)) .

١٨_ الإحياء

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُصَوِّرُكُم في الأرحامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عِمران : ٦] .

يَخلُق اللَّهُ البَشَرَ في أرحام أُمَّهاتهم كما يشاء، مِن ذَكَرَ وأُنثى، وأبيض وأسود ، وطويل وقصير، وحسن وقبيح، وتام وناقص ، وشقي وسعيد . وتصويرُ البشر في أرحام أُمَّهاتهم مِن نُطَف آبائهم ، يدل على قُدرةِ اللَّه المُطْلَقَة ، وإتقانِ فِعْله ، وإحاطةِ عِلْمه بكُل شيء. كما أنَّ أحوال الخَلْق وأطواره إنَّما هي بمشيئة اللَّه وحِكمته وإرادته النافذة في كل شيء .

وأصلُ الرَّحِم مِن الرَّحمة لأنَّها مِمَّا يُتَرَاحَم بِه .

وهذه الآيةُ تدل على عَظَمَة الصانع وكماله ، وتُبطِل عبادةَ أيِّ مخلوق ، كائنًا مَن كان ، لأن كُل مخلوق كان في رَحِم أُمِّه ، وهذا يُشير إلى عُبوديته وخُضوعه لِقُوَّة اللَّه العُليا. ولو كان هذا المخلوقُ إِلَهًا خالقًا لَصَوَّرَ ما في الأرحام، وما وُجِد في رَحِم أُمِّه . إن وُجود المخلوق في رَحِم أُمِّه يعني أنه عبد ضعيف عاجز خاضع لخالقه .

وذِكْرُ التصوير في الأرحام يُنبِّه الناسَ ، ويُرشدهم إلى حقيقة عِيسى ﷺ ، فهو عبد مَخلوق كان في رَحِم أُمِّه مَريم عليها السلام . ولو كان إِلَهًا كما يزعم النصارى ، لَخَلَقَ ما في الأرحام وصَوَّرَه ، وَلَمَا وُجِد في رَحِم أُمِّه . إن وُجود عِيسى في رَحِم أُمِّه دليلٌ على أنه عبد مخلوق محصور خاضع لِمَن خَلَقَه وصَوَّره، والإلهُ لا يَكون خاضعًا ولا محصورًا. والآية ترد على النصارى ، وتُبطِل أُلوهيةَ المسيح المزعومة ، وتُثبِت أُلوهيةَ اللَّه وَحْدَه ، بلا شريك ، ولا نِد ، ولا صاحبة ، ولا ولد .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ١٦٩) : ((اللَّه الذي يُصوِّركم ، فيجعلكم صُوَرًا أشباحًا في أرحام أُمَّهاتكم كيف شاء وأحب ، فيجعل هذا ذَكَرًا وهذا أُنثى ، وهذا أسود وهذا أحمر، يُعرِّف عباده بذلك أن جميع مَن اشتملت عليه أرحام النساء ، فَمِمَّن صَوَّره وخَلَقه كيف شاء، وأن عيسى ابن مريم مِمَّن صَوَّره في رَحِم أُمِّه وخَلَقه فيها كيف شاء وأحب ، وأنه لو كان إِلَهًا لَم يكن مِمَّن اشتملت عليه رَحِم أُمِّه ، لأنَّ خالَّاق ما في الأرحام ، لا تكون الأرحام عليه مُشتملة ، وإنما تشتمل على المخلوقين)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى في السَّمَاواتِ والأرضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [الرُّوم : ٢٧] .

إنَّ اللَّه يُنشِئ الخَلْقَ مِن العَدَم ، ويُوجِده بعد أن لَم يكن شيئًا ، ثُمَّ يُميته ويُفنيه ، ثُمَّ يُحييه بعد الموت للجزاء والحساب ، وهو هَيِّن عليه ، وأمرٌ بسيط إلى جانب قُدرة اللَّه المُطْلَقَة ، وما شَيء على اللَّه بعزيز .

وإعادةُ الخَلْق بَعد مَوتهم أهْوَن على اللَّه وأسهل وأيسر مِن بَدْء الخَلْق،وَفْق المنظور الإنساني. واللَّهُ لا يُعجِزه شَيء ، وإرادته نافذة في كُل شيء . ولا شَيء في قُدرة اللَّه بعضه أهْوَن مِن بعض ، لأن كُل الأشياء مُستوية وخاضعة للَّه ، وما أراده اللَّهُ كانَ ، وما لَم يُرِدْهُ لَم يكن. ولا يُوجد عند اللَّه سهل وصعب ، فالسهولةُ والصعوبةُ تتعلقان بالمخلوقات . أمَّا الخالقُ فهو مُسيطِر على كُل شيء، ولا يُعجِزه شيء ، ولا يقف أمام إرادته شَيء . وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٢١) : ((﴿ وَهُوَ الذي يَبدأ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ﴾ أمَّا بَدْء خَلْقه فَبِعُلُوقه في الرَّحِم قبل ولادته ، وأمَّا إعادته فإحياؤه بعد

الموت بالنفخة الثانية للبعث، فَجَعَلَ ما عُلِمَ من ابتداء خَلْقه دليلًا على ما يَخفى مِن إعادته ، استدلالًا بالشاهد على الغائب ، ثُمَّ أكَّدَ ذلك بِقَوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾)) .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٩٠٣) : عن أبي هريرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((قال اللَّهُ : كَذَّبَني ابنُ آدم ، ولَم يكن له ذلك ، وشَتَمَني ولَم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إيَّايَ فقوله : لن يُعيدني كما بَدَأني ، وليس أولُ الخَلْقِ بأهْوَنَ عَلَيَّ مِن إعادته ، وأمَّا شَتْمُه إيَّايَ فَقَوله : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، وأنا الأحد الصَّمَد ، لَم أَلِدْ وَلَم أُولَدْ ، وَلَم يَكُن لِي كُفُوًا أحد)) .

إنَّ البعثَ ثابتٌ نقلًا وعقلًا . وقد خاطب اللَّهُ الناسَ بما يَعقِلون، فَذَكَرَ ــ سُبحانَه ــ أن البعث أهْوَن وأيسر مِن بَدْء الخَلْق . ومَن قَدَرَ على الإنشاء مِن العَدَم ، كان البعث أهون عليه وأسهل، وَفق المنطق البشريِّ. واللَّهُ تعالى كُل شيء عِنده هَيِّنٌ ، فلا يُعجِزه شيء ، وكُل شيء خاضع لإرادته ومشيئته وقُدرته وحِكمته،فالبَداءةُ والبعثُ كلاهما سهل يسير وعلى السَّواء بالنسبة لِقُدرة اللَّه وإرادته النافذة في كل شيء . ﴿ وإذا قَضى أَمرًا فإنما يقول له كُن فَيَكون﴾ . وما أراده اللَّهُ كائن لا مَحالة ، وواقع بلا شَك . ولا توجد عوائق أو موانع أمام إرادة اللَّه ومشيئته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٩٧و٢٩٨) : ((قَوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وفيه أربعة أقوال : أحدها أن الإعادة أهْوَن عَلَيه مِن البداية ، وكُلٌّ هَيِّن عَلَيه ، قاله مجاهد وأبو العالية . والثاني أن ﴿ أَهْوَنُ ﴾ بمعنى هَيِّن . فالمعنى : وَهُوَ هَيِّن عَلَيه ... والثالث أنه خاطبَ العباد بما يَعْقِلون فأعلمهم أنه يجب أن يكون عِندهم البعث أسهل مِن الابتداء ، في تقديرهم وحُكمهم ، فَمَن قَدَرَ على الإنشاء كان البعثُ أَهْوَن عَلَيه ، هذا اختيار الفَرَّاء والمُبَرِّد والزَّجاج، وهو قَول مُقاتل . وعلى هذه الأقوال الثلاثة تكون الهاء في ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عائدة إلى اللَّه تعالى . والرابع أن الهاء تعود على المخلوق ، لأنه خَلَقَه نُطفةً ثم عَلَقة ثم مُضغة ، ويوم القيامة يَقول له : كُن ، فَيَكُون. رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وهو اختيار قُطْرُب)) .

﴿ ولهُ المَثَلُ الأعلى في السماواتِ والأرضِ ﴾ . وللَّهِ الوصفُ الأعلى (لا إلهَ إلا اللَّهُ) في السماوات والأرض ، لَيْسَ كَمِثْلِه شَيء ، فهو الواحدُ الأحدُ ، الفردُ الصَّمَد . له القُدرة العُليا، والحِكمة التَّامة، والعِلْم الشامل ، وصِفات الجَلال والجَمَال والكَمَال. لا شريك له ، ولا نِد ، ولا صاحبة، ولا ولد . لا أحد يُساويه ، ولا يُدانيه . لا يُشْبِه شَيْئًا ، ولا يُشْبِهُهُ شَيء . ولا تُحيط بِه الأفكار والخواطر . تَنَزَّه عن النقائص والعُيوب ، وتعالى عَن كُل ما لا يَلِيق به ، وتَفَرَّد بالإحياء والإماتة والبَعْث . سُبحانَه وتعالى .

﴿ وَهُوَ العزيزُ الحكيم ﴾ ، وهو القادر على إنشاء الخَلْق وإماتته وإحيائه ، القاهرُ لكل شيء ، العزيز في مُلْكه ، فلا يُغالَب ، ولا يُناقَش ، ولا يُسْتَدْرَك عَلَيه . والحكيمُ في خَلْقه ، وكُل أفعاله على مُقتضى الحِكمة والمصلحة . وهو مُنَزَّهٌ عن العبث والفَوضى .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا السَّمَاواتِ والأرضَ وما بَيْنَهُما في سِتَّةِ أيَّامٍ وما مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] .

هذه الآيةُ تكذيب مِن اللَّه لليهود. إنَّ اللَّه نَزَّهَ ذَاتَه العَلِيَّةَ عَن كُل عَيْب ، وقَدَّسَ نَفْسَه عَن كُل نقص. فقد خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ (الأجرام العظيمة) وما بينهما في ستة أيام ، ولَم يَمَسَّه تعب ولا إعياء ولا إرهاق . واللَّهُ لَم يَقُلْ : وما أصابنا مِن لُغوب . بَل قال : ﴿ وما مَسَّنا مِن لُغوب ﴾ ، والتعبير بالمَس يدل على انتفاء التعب جُملةً وتفصيلًا . ولا يوجد تعب نهائيًّا ، مهما كان قليلًا وبسيطًا . وانتفاءُ التعب عن اللَّه لِتَنَزُّهِهِ عن صفات المخلوقين ، ولعدم المُمَاسَّة بَينه وبَين غَيره .

واليهودُ زعموا أن اللَّه خَلَقَ السماواتِ والأرضَ في سِتَّة أيام ، أوَّلها يوم الأحد ، وآخرها الجُمُعة ، واستراحَ يوم السَّبت ، فجعلوه يوم راحة . وهذا يدل على أهوائهم وأكاذيبهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢٢): ((ذَكَر المفسِّرون أن اليهود قالت: خَلَقَ اللَّهُ السماواتِ والأرضَ وما بينهما في ستة أيام ، آخرها يوم الجُمُعة ، واستراح يوم السَّبت ، فلذلكَ لا نعمل فيه شيئًا . فَنَزلت هذه الآية ، فأكْذَبَهم اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوله : ﴿ وما مَسَّنا مِن لُغوب ﴾ . قال الزَّجاج : واللغوب : التَّعَب والإعياء)) .

١٩_ الصِّحة

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ إنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ وَلَحْمَ الخِنزِيرِ وما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولا عَادٍ فلا إثمَ عَلَيْهِ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٧٣] .

يَذكُر اللَّهُ في هذه الآية بعضَ الأمور المُحرَّمة كي يبتعد عنها الناس، ويلتزموا بالطيبات. إذْ إنَّ الخبائث والمُحرَّمات لها أثر سلبي على الإنسان، روحيًّا وماديًّا. حيث تنقله إلى عوالم الفساد والضِّيق ، وهذا ينعكس على السلوك الاجتماعي بشكل عام ، مِمَّا يُولِّد حالة ارتباك في المجتمع ، وغياب معاني الطهارة عن مَساره وهويته . وإذا غرق المجتمع في مستنقع الخطايا، فإن الجميع سيدفع الثمن ، وعندئذ تقترب نهاية المجتمع وانكسار الحضارة . وإذا انتشرت في المجتمع حالة الانهيار والفوضى والشَّك فلن يَنجوَ أحدٌ ، وسوف تعمُّ الكارثةُ الجميعَ بلا تمييز .

وعندما يقوم الفردُ بحماية مجتمعه من السلبيات ، فهو في الحقيقة يَحمي نَفْسَه وأُسرته قبل كُل شَيء. والذنوبُ لا تنحصر خطورتها في ذاتها فَحَسْب ، لأن ضررها يصل إلى سلوك الفرد والجماعة ، ويتسلل خطرها ليشمل كل مفاصل المجتمع البشري ، مِمَّا يؤدي إلى انتشار الفوضى، وبث الفُرقة والتنازع بين الأفراد . وعندئذ تتوقف حركة الإنتاج ، وتؤول حركةُ التاريخ الاجتماعي إلى شكل للفراغ والعَبث . والذنوبُ لها تأثير بالغ على الطبيعةِ النَّفْسية للبشر ، والحَرَاكِ الاجتماعي ، والروابطِ الإنسانية ، وعلاقاتِ الإنتاج والإعمار والتنمية. إنها مِثل النار المنتشرة في الهشيم لا يمكن التَّنبؤ بمداها . كما أن الذنوب تستأصل النقاءَ والطهارة من مفاصل المجتمع ، فيتحول الفرد إلى آلة استهلاكية متوحشة، ويتكرس المجتمعُ كمستنقع للروائح الكريهة والمناظر القبيحة والمحتوى السَّيئ. وعندئذ يندم الجميعُ على تقصيرهم ، ولكن بعد فَوَات الأوان .

لقد حَرَّمَ اللَّهُ المَيْتَةَ ، وهي ما فارقته الرُّوح مِن غَير ذبح شرعيٍّ . ويُستثنى من التحريم مَيْتةُ البَحْر . فعن جابر بن عبد اللَّه ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أن النبيَّ ﷺ سُئِلَ عَن ماء البحر، فقال : ((هُوَ الطَّهُورُ مَاؤه، الحِلُّ مَيْتَتُه)) [١٧١].

والدَّمُ السائل مُحرَّم.أمَّا الدم المُختلِط باللحم وعُروقه فليس بحرام لأنه يصعب الاحتراز منه، كما أن في تحريمه مشقة كبرى على الناس،وقد جاءت الشريعةُ لرفع الحَرَج، وكُلما ضَاقَ الأمرُ اتَّسعَ . والخِنزيرُ بجميع أجزائه مُحَرَّمٌ ، وإنما خُصَّ اللحم بالذِّكر لأنه مُعظَم ما يُؤكَل مِن الحيوان .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٢١٠) : ((أجمعت الأُمَّة على تحريم شَحْم الخِنزير . وقد استدل مالك وأصحابه على أن مَن حَلَفَ ألا يأكل شحمًا فأكل لحمًا لَم يَحْنَثْ بأكل اللحم . فإن حَلف ألا يأكل لحمًا فأكل شَحْمًا حَنَث ، لأن اللحم معَ الشَّحم يقع عليه اسم اللحم، فقد دخل الشَّحمُ في اسم اللحم ، ولا يَدخل اللحم في اسم الشَّحم . وقد حَرَّم اللَّهُ تعالى لحمَ الخِنزير ،

---

١٧١ رواه ابن حِبَّان في صحيحه (٥١٤) برقم(١٢٤٤)،وابن خُزَيمة في صحيحه (١/٥٨)برقم (١١٢). أمَّا حديث " أُحِلَّتْ لنا مَيْتَتان ودَمَان : فأمَّا الميتتان فالحوت والجراد ، وأمَّا الدَّمَان فالكَبِد والطُّحال "، فقد رواه أحمد في مسنده (٢/ ٩٧) وابن ماجة في سُننه (٢/ ١١٠٢) . والحديثُ ضعيف ، ففي سنده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. ضعَّفه ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١) اهـ . وقال ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ٢٦) : ((ضعيف متروك . وقال أحمد : حديثه هذا مُنكَر)) اهـ . وذَكَر الشَّوكاني في نَيل الأوطار (٩/ ٢٢) أن أحمد وابن المديني ضعَّفاه .

فنابَ ذِكر لحمه عن شحمه ، لأنه دخل تحت اسم اللحم)) اهـ . وقال السَّيد سابق في فقه السُّنة (١/ ١٩) : ((ويجوز الخرز بشَعر الخِنزير في أظهر قَول العلماء)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧٥) : ((والمَيْتَةُ ــ في عُرْف الشَّرْع ــ اسم لكل حيوان خَرجتْ رُوحُه بِغَير ذَكَاة (ذَبْح شرعيٍّ). وقِيل إنَّ الحِكمة في تحريم المَيْتَة أن جُمود الدم فيها بالمَوت يُحدِث أذًى للآكِل . وقد يُسمَّى المذبوح في بعض الأحوال مَيْتة حُكْمًا ، لأن حُكمه حُكم الميْتة كذبيحة المُرتد . فأمَّا الدم ، فالمُحرَّم مِنه المسفوح لِقَوله تعالى : ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ [الأنعام : ١٤٥] . قال القاضي أبو يعلى : فأمَّا الدَّم الذي يبقى في خَلَل اللحم بعد الذبح، وما يبقى في العُروق فهو مُباح . فأمَّا لحم الخِنزير فالمراد جُملته ، وإنما خُصَّ اللحم لأنه مُعظَم المقصود . قال الزَّجاج : الخِنزير يشتمل على الذكر والأنثى)) .

﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ . وهو ما ذُبِحَ على غَير اسم اللَّه . يعني: ما ذُبِحَ للأنصاب والأصنام والأنداد والطواغيت . ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولا عَادٍ فلا إثمَ عَلَيْهِ ﴾ . أباحَ اللَّهُ تناولَ هذه المُحرَّمات للضرورة والحاجة ، في غَير بَغْي ، ولا عُدوان ، وهو مُجاوَزة الحَد . وقِيل : غَير خارج على المسلمين ، ولا مُتَعَدٍّ عليهم بقطع الطريق. والاضطرارُ إمَّا أن يكون بدافع الجوع، أو تحت التهديد . فَمَن ألْجَأتْهُ الضرورة والاضطرار إلى أكل هذه المُحرَّمات ، فلا إثم عليه في أكلها ، ولا حَرَج عليه في ذلك .

والجديرُ بالذِّكر أن الإباحة للاضطرار ، فيتم تقديرها بِقَدْرها ، فيأكل مِن المُحرَّمات بحيث يسدُّ رَمَقَه ، ويبقى على قَيْد الحياة ، دُون الوصول إلى حالة الشِّبَع .

﴿ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رحيم ﴾ . إنَّ اللَّه غفور لِمَن أكلَ الحرامَ عند الاضطرار، رحيم بِه ، إذْ أحلَّ له الحرام في هذه الحالة المخصوصة ، ورخَّص له فيها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧٥و١٧٦) : ((ومعنى: ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾، ما رُفِعَ فيه الصوت بتسمية غَير اللَّه ... . قَوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ أي : أُلْجِئ بضرورة ... . وفي قَوله : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ولا عَادٍ ﴾ أربعة أقوال : أحدها أن معناه غَير بَاغٍ على الوُلاة ، ولا عَادٍ يقطع السبيل ، هذا قول سعيد بن جُبَير ومجاهد . والثاني غَير باغٍ في أكله فوق حاجته ، ولا مُتَعَدٍّ بأكلها وهو يجد غَيرها، هذا قول الحسن وعِكرمة وقتادة والربيع . والثالث غَير باغ أي مُسْتَحِل ، ولا عَادٍ ، غَير مُضْطَر ، رُوِيَ عن سعيد بن جُبَير ومقاتل. والرابع غَير بَاغٍ شَهْوَتَه بذلك ، ولا عَادٍ بالشِّبَع منه ، قاله السُّدي . معنى الضرورة في إباحة المَيْتَة أن يخاف على نَفْسه أو بعض أعضائه .

سُئِل أحمد رضي اللَّهُ عنه عن المُضْطَر إذا لَم يَأكل المَيْتة ، فَذَكَر عن مسروق أنه قال : مَن اضْطُرَّ فَلَم يأكل فمات دخل النار . فأمَّا مِقدار ما يَأكل فنقل حنبل يأكل مِقدار ما يُقِيمه عن الموت . ونقل ابن منصور يأكل بِقَدْر ما يَستغني ، فظاهر الأُولَى أنه لا يجوز له الشِّبَع ، وهو قول أبي حنيفة والشافعي ، وظاهر الثانية جواز الشِّبَع ، وهو قول مالك)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إذا قُمْتُم إلى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُم وأيْدِيَكُم إلى المَرَافِقِ وامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُم وأرْجُلَكُم إلى الكَعْبَيْنِ وإن كُنتم جُنُبًا فاطَّهَّرُوا وإن كُنتم مَرْضَى أوْ عَلى سَفَرٍ أوْ جَاءَ أحَدٌ مِنكُم مِنَ الغائِطِ أوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُم وأيْدِيكُم مِنْهُ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ ولَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لعلكم تَشْكُرُون ﴾ [المائدة : ٦] .

هذه آيةُ الوضوء التي حدَّدت كيفية الاستعداد قبل الدخول في الصلاة ، حيث غسل الوجه واليدين إلى المرافق ، ومسح الرأس، وغسل الرِّجْلين إلى الكعبَيْن. والترتيبُ أحد فرائض الوضوء ، فلم يثبت عن النبيِّ ﷺ أنه خالف هذا الترتيب . والعباداتُ توقيفية تستند إلى الاتباع لا الابتداع .

يا أيُّها الذين صَدَّقْتُم بِوَحدانيةِ اللَّهِ ونُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ، إذا أردتم الصلاةَ وأنتم مُحْدِثُون (على غَير طُهْر)، فاغسلوا الوجوه والأيدي إلى المرافق،وامسحوا رؤوسكم،واغسلوا أرجلكم مع الكعبين.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٢٩٨) : ((وللعلماء في المراد بالآية قَولان : أحدهما إذا قُمتم إلى الصلاة مُحْدِثين فاغتسلوا ، فصار الحَدَث مُضْمَرًا في وجوب الوضوء ، وهذا قول سعد بن أبي وقاص وأبي موسى الأشعري وابن عباس والفقهاء . والثاني أن الكلام على إطلاقه من غير إضمار ، فيجب الوضوء على كل مَن يُريد الصلاة ، مُحْدِثًا كان أو غَير مُحْدِث، وهذا مرويٌّ عن عليٍّ رضي اللَّه عنه وعِكرمة وابن سيرين، ونُقِل عنهم أن هذا الحُكْم غير منسوخ ، ونُقِل عن جماعة من العلماء أن ذلك كان واجبًا ثم نُسِخ بالسُّنة ، وهو ما روى بُرَيدة أن النبيَّ ﷺ صلى يوم الفتح خمس صَلَوَات بوُضوء واحد. فقال له عمر: لقد صنعتَ شيئًا لَم تكن تصنعه ، فقال: " عَمْدًا فعلتُه يا عُمر ")) اهـ . وقال الزمخشري في الكشَّاف (١/ ٤٧٤) : ((وفائدة المجيء بالغاية ﴿ إلى الكَعْبَيْنِ ﴾ لدفع ظَن مَن يَحسَبها مَمسوحة ، لأن المَسْح لَم تُضرَب له غاية في الشريعة)) اهـ . وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((وَيْلٌ للأعقاب مِن النار)) [١٧٢].

---

١٧٢ متفق عليه . البخاري (١/٤٨) برقم (٩٦) ، ومسلم (١/ ٢١٤) برقم (٢٤١) .

العَقِبُ مُؤخَّر القَدَم . والمعنى : هلاك وعذاب لأعقاب أرجلكم مِن عذاب نار جهنم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ١٢٩) : ((فَتَوَاعَدَهَا بالنار لعدم طهارتها ، ولو كان المسح كافيًا لَمَا تَوَاعَدَ مَن ترك غَسْل عَقِبَيْه)) .

وهذا الحديث يردُّ على الشِّيعة الروافض الذين يقولون إنَّ الرِّجْلَيْن فَرْضهما المَسْح لا الغُسل .

والآيةُ واضحة وصريحة لأن ﴿ وأرْجُلَكُم ﴾ جاءت بالنَّصْب ، لأنها معطوفة على المغسول ، وجِيء بالمسح بين المغسولات لإفادة الترتيب.والترتيبُ فَرْض في الوُضوء، والوُضوء يَبطُل بدُونه .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٨٤) : عن عائشة ــ رضي اللَّهُ عنها ــ : سَقطتْ قِلادةٌ لي بالبَيداء ونحن داخلون المدينة ، فأناخَ النبيُّ ﷺ ونزل ، فَثَنَى رأسَه في حِجْري راقدًا. أقبل أبو بكر فَلَكَزَني لَكْزَةً شديدة . وقال : حَبستِ الناسَ في قِلادة ؟!، فَبِي المَوت ، لمكان رسول اللَّه ﷺ ، وقد أوجعني ، ثم إن النبيَّ ﷺ استيقظَ ، وحَضرت الصُّبْحُ ، فَالْتُمِسَ الماءُ فلم يُوجَدْ ، فَنَزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ الآية . فقال أُسَيد بن حُضَير : لقد بارَكَ اللَّهُ للناس فيكم يا آل أبي بَكْر ، ما أنتم إلا بَرَكَة لهم [١٧٣].

إنَّ اللَّه يُخفِّف عن الناس ولا يَضطرهم إلى أضْيَق المسالك . فقد أنزل هذه الآيةَ ليُرشِد المؤمنين إلى كيفية التصرف في حال القِيام إلى الصلاة . كما بيَّن لهم الإجراءات الواجب اتباعها.

ولَم يتركهم لأهوائهم أو أمزجتهم الشخصية . وقد جاءت الشريعةُ لرفع الحَرَج عن الناس ، فلا مكان للضِّيق والمشكلات والمُنغِّصات فيها . والأمر كُلما ضاق اتَّسع .

قال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٥) : ((قد اختلف أهل العِلم في هذا الأمر عند إرادة القِيام إلى الصلاة ، فقالت طائفة : هو عام في كل قِيام إليها سواءٌ كان القائم مُتَطَهِّرًا أوْ مُحْدِثًا ، فإنه ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضَّأ ... وقال جماعة : هذ الأمر خاص بمن كان مُحْدِثًا. وقال آخرون : المراد إذا قُمتم من النوم إلى الصلاة ، فيعم الخِطاب كل قائم من نوم)) .

وفي صحيح البخاري (١/ ٨٧) : عن عمرو بن عامر ، عن أنس قال : ((كان النبيُّ ﷺ يتوضأ عِند كُل صلاة)) . قُلتُ : كَيف كُنتم تَصنَعون ؟ ، قال : ((يُجْزِئ أحَدَنَا الوُضُوءُ ما لَم يُحْدِثْ)) .

---

١٧٣ (فثنى رأسه) وضعه.(راقدًا) أي يريد الرُّقود والنوم.(لكزني) دفعني في صدري بِكَفِّه.(فبي الموت) أي كاد يَنْزل بي الموت من شدة الوجع، ولَم أتحرك حتى لا أُزعِج رسول اللَّه ﷺ. (فيكم) بسببكم .

لا يُمكن إنكار أهمية الوُضوء في الطهارة والتطهر قبل الدخول إلى حضرة اللَّه تعالى ، والاتصال معه عبر الصلاة . فالوضوءُ سلاح المؤمن ، ويمنح كلَّ أعضائه نورًا وبهجة ، فليس هو مجرَّد إسالة الماء على بعض الأعضاء ، بل هو نظام حياة متكامل يضع المؤمنَ في أقصى مدى النُّور . والنبيُّ ﷺ كان حريصًا على الوضوء عند كل صلاة . وهذه هي حالة الكمال الإيماني ، مع أن هذا الأمر ليس بواجب. فيجوز للمسلم أن يُصلِّيَ كل الصلوات بوضوء واحد ، فالعِبرةُ في انتقاض الوضوء أم لا. وفضلُ الوضوء عام في الحياة الدنيا ، حيث يجعل المؤمنَ واثقًا بنَفْسه، في أعلى درجات النظافة والتطهر ، مُقْبِلًا على اللَّه تعالى وهو في شكل نُوراني حَسَن . ويتعدى فضلُ الوضوء إلى الحياة الآخرة . حيث إنَّ الوُضوء يُساهم في رفع درجة المؤمن يوم القيامة ، ومجيئه طاهرًا شريفًا مُكتمل الهيئة ، وفي أفضل حال ، ظاهرًا وباطنًا . مظهره طاهر ، وجوهره طاهر .

وعن أبي هريرة ــ رضي اللَّهُ عنه ــ أن النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ أُمَّتي يُدْعَوْنَ يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلين من آثار الوُضوء ، فَمَن استطاعَ مِنكم أن يُطيل غُرَّته فليفعل)) [١٧٤].

إنَّ الأُمَّة المُحمَّدية الإسلامية تأتي يوم القيامة يَعلوها البَياضُ الوهاج، والصَّفاءُ الباهر ، نتيجة الوُضوء في الحياة الدنيا الذي منحهم النظافة والتألق والبياض المنتشر مِن غَير عِلَّة . فيتحوَّلون إلى كائنات بشرية نُورانية ، لأنهم ــ في الدُّنيا ــ التزموا أوامرَ اللَّه تعالى في الطهارة والتطهر والاستعداد للصلاة ، فيأتون في الآخرة ، وعليهم الوَقارُ الناصع ، حيث وجوههم مشرقة ، وأجسادهم طاهرة نقية . والوضوءُ ليس عمليةً ميكانيكية أو تعاملًا عَبَثِيًّا مع الماء . إنه منظومة إيمانية وأخلاقية واجتماعية متكاملة ، وحالة إيمانية شاملة يتعدى أثرُها إلى الحياة الآخرة .

وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺسَأله رَجل:يا رسول اللَّه،وكيف تعرف أُمَّتك مِن بين الأمم، ما بين نُوح إلى أُمَّتك؟،قال:((غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِن أثر الوُضوء، ولا يكون لأحدٍ مِنَ الأُمَم غَيْرِهم ، ...)) [١٧٥].

خَصَّ اللَّهُ الأُمَّةَ المُحمَّدية الإسلامية بالمَجْد والشَّرَف والرِّفْعَة في الدُّنيا والآخرة إكرامًا لرسولها مُحمَّد ﷺ ، وليس هذا تَكَبُّرًا أو اعتناقًا لِخُرافة نَقاء العِرْق ، بَل إنها الحقيقة الساطعة . فالمسلمون وَحْدَهم على الحق ، وهُم حَمَلةُ كَلِمة اللَّه ورسالته على كوكب الأرض . وإذا زالوا فإنَّ اللَّه لَن يُعْبَد في الأرض أبَدًا .

---

١٧٤ متفق عليه . البخاري (١/ ٦٣) برقم (١٣٦) ، ومسلم (١/ ٢١٦) برقم (٢٤٦) .

١٧٥ رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٢٠) برقم (٣٧٨٤) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي .

والنبيُّ ﷺ يَعرِف أُمَّتَه يوم القيامة بين الأُمم الكثيرة بالنُّور الظاهر على وجوهها مِن أثَر الوُضوء. وقد ذهب بعضُ العلماء إلى أنَّ الوضوء مِن خصائص الأُمَّة المُحمَّدية دُون باقي الأُمم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(٣/ ١٣٥):((قال أهل اللغة : الغُرَّة بَياض في جَبهة الفَرَس ، والتَّحجيل بَياض في يَدَيها ورِجْلَيْها . قال العلماء : سَمَّى النُّورَ الذي يكون على مواضع الوضوء يَوْمَ القيامة غُرَّةً وتَحجيلًا ، تَشبيهًا بِغُرَّة الفَرَس ، واللَّهُ أعلم)) .

﴿ وإن كُنتم جُنُبًا فاطَّهَّرُوا ﴾ . وإن أصابتكم جَنابة ، فتطهَّروا مِنها بِغَسْل جميع البدن بالماء ، قبل دُخولكم في الصلاة. والمعنى: بالِغوا في تطهير أبدانكم ، ولا يكون ذلك إلا بِغَسْل جميع البدن .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٥) : ((أي : فاغتسلوا بالماء . وقد ذهب عمر ابن الخطاب وابن مسعود إلى أن الجُنُب لا يَتيمَّم البَتَّة ، بل يَدَع الصلاةَ حتى يجد الماء استدلالًا بهذه الآية ، وذهب الجمهور إلى وجوب التَّيَمُّم للجَنابة مع عدم الماء . وهذه الآية هي للواجد ، على أن التطهر هو أعم من الحاصل بالماء ، أو بما هو عِوَض عنه مع عدمه وهو التراب . وقد صَحَّ عن عمر وابن مسعود الرجوع إلى ما قاله الجمهور ، للأحاديث الصحيحة الواردة في تَيَمُّم الجُنُب مع عدم الماء)) .

﴿ وإن كُنتم مَرْضَى أوْ عَلى سَفَرٍ ﴾ . وإن كُنتم مَرضى يضرُّكم استعمال الماء ، أو كُنتم مُسافرين ولَم تجدوا الماء . وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٤٧١) : ((يعني بِقَوله جَل ثناؤه : إن كُنتم جرحى أو مُجَدَّرين وأنتم جُنُب. وأمَّا قَوله : ﴿ أوْ عَلى سَفَرٍ ﴾ ، فإنه يقول : وإن كنتم مُسافرين وأنتم جُنُب)) .

﴿ أوْ جَاءَ أحَدٌ مِنكُم مِنَ الغائِطِ ﴾ . أو جاءَ أحدُكم مِن مَوضع البُراز . يعني : قضى أحدُكم حاجته وهو مُسافر . وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ١٣٦) : ((أي : أحدثَ)) .

﴿ أوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ . أو جامعتم النساءَ ، ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ . إذا لَم تجدوا الماءَ بعد طلبه والبحث عنه ، فاقْصِدُوا الترابَ الطاهرَ للتيمُّم به .

﴿ فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُم وأيْدِيكُم مِنْهُ ﴾ . فامسحوا وجوهكم وأيديكم مع المِرْفَقَيْن بالتراب بضربتين . وقد بَيَّنت السُّنةُ كيفيةَ التَّيَمُّم . والباء للإلصاق . وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٢٠) : ((فيه دليل على أنه يَجب مسح الوجه واليدين بالصعيد ، وهو التراب)) اهـ . وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ١٣٦) : ((وبَيَّنت السُّنة أن المراد استيعاب العُضْوَيْن بالمَسْح)) .

﴿ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

فَرَضَ اللَّهُ على المؤمنين الوُضوءَ والغُسْل والتَّيَمُّم ، للتخفيف عنهم ، وتسهيل أمورهم ، وعدم إحراجهم ، ولا التضييق عليهم . والشَّريعةُ جاءت لرفع الحَرَج عن الناس ، وليس حَشْرهم في الزاوية الضَّيقة . وقد جعل اللَّهُ الدِّينَ واسعًا ورَحْبًا حِين رخَّص في التيمم .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٤٧١) : ((ما يُريد اللَّهُ بما فرض عليكم من الوضوء إذا قُمتم إلى صلاتكم ، والغُسل من جَنَابتكم ، والتيمم صعيدًا طَيِّبًا عند عدمكم الماء ﴿ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ ﴾ لِيُلْزِمَكُم في دِينكم مِن ضِيق ولا لِيُعْنِتكم فيه)) .

﴿ ولَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لعلكم تَشْكُرُون ﴾ .

يُريد اللَّهُ _ بفَضْله وكَرَمه _ أن يُطهِّركم بالوُضوء والغُسل والتَّيَمُّم مِن الأحداث والجَنابة والذُّنوب . والوُضوءُ تكفير للذُّنوب .

وَلِيُكْمِل نِعمته عليكم بالهداية إلى الإيمان ، وبيان شرائع الدِّين الحنيف القائمة على اليُسر والتسهيل والتَّوسعة ورفع الحَرَج ، والترخيص في التَّيَمُّم عِند المَرَض والسَّفَر . وتَمَام النِّعمة دُخول الجَنَّة ، والنَّجاة مِن النار ، وَلِتَشكروا اللَّهَ على نِعَمه العظيمة التي لا تُعَدُّ ، ولا تُحصَى ، وتُطيعوا أوامرَه، وتجتنبوا نَواهيه . وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٤٧١) : ((ولكن اللَّه يريد أن يُطهِّركم بما فرض عليكم من الوضوء من الأحداث ، والغُسل من الجَنابة ، والتيمُّم عند عدم الماء ، فَتُنَظِّفوا ، وتُطهِّروا بذلك أجسامَكم مِن الذُّنوب)) .

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ قال : ((الوُضوء يُكفِّر ما قَبْلَه)) [١٧٦].

إنَّ الوُضوء يَمحو الذُّنوبَ والخطايا ، يعني الصغائر . فينبغي الحرص عليه بفرائضه وسُننه .

وفي صحيح مسلم (١/ ٢١٦) : عن عُثمان بن عَفَّان قال : قال رسول اللَّه ﷺ : ((مَن تَوَضَّأ فأحسنَ الوُضوءَ ، خَرجت خطاياه مِن جَسَده ، حتى تَخْرُجَ مِن تحت أظفاره)) .

هذا يدل على أهمية الإتيان بالوُضوء على الوجه الأمثل ، دُون خَلَل ولا نَقْص ، والحِرص على فرائضه وسُننه وآدابه ، وتجنُّب مَنهياته ، لأن الوضوء تكفير للذُّنوب والخطايا ، وتطهير للجسد معنويًّا وماديًّا . وهكذا ، يُصبح المسلم طاهرًا من دَنَس الآثام ، ونظيفًا مِن كُل شائبة .

---

١٧٦ رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٥١) . وفي فَيض القدير للمُناوي (٦/ ٣٧٥) : ((قال المنذري والهيثمي : سنده صحيح)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ في الأرضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أخِيهِ ﴾ [المائدة : ٣١] .

أرسلَ اللَّهُ غُرابًا يَنبُش التُّرابَ بمِنقاره وبِرِجْلَيْه ، ويُثيره مِن الأرض على غُراب مَيت حتى واراه. والغايةُ مِن إرسل اللَّه للغُراب هي تَعليم القاتل (قابيل) طريقة سَتر جُثَّة أخيه المقتول (هابيل).

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٤٧) : ((قِيل : إنَّه لمَّا قَتَلَ أخاه ، لَم يَدْرِ كَيف يُواريه، لكَوْنه أوَّل مَيت مات مِن بني آدم ، فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابَيْن أخَوَيْن ، فاقتتلا ، فَقَتَلَ أحدُهما صاحبَه ، فَحَفَرَ له ، ثُمَّ حَثَا عَلَيه)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٣٨): ((قَوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ ﴾ قال ابن عباس : حَمَلَه على عاتقه ، فكان إذا مشى تخطُّ يداه ورِجْلاه في الأرض ، وإذا قَعَدَ وَضَعَه إلى جَنْبه حتى رأى غُرَابَيْن اقتتلا ، فَقَتَلَ أحدُهما الآخَرَ ، ثُمَّ بَحَثَ له الأرض حتى واراه بَعد أن حَمَلَه سنين . وقال مُجاهد: حَمَلَه على عاتقه مائة سنة.وقال عطية:حَمَلَه حتى أرْوَح (تغيَّرت رائحته) . وقال مُقاتل : حَمَلَه ثلاثة أيام . وفي المُراد بسَوْأة أخيه قَولان : أحدهما عَورة أخيه ، والثاني: جِيفة أخيه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿يا بَني آدمَ خُذوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِين ﴾ [الأعراف : ٣١] .

الخِطابُ للناس كُلِّهم:الْبَسُوا أجملَ ثيابكم وأطهرها،واعتنوا بنظافتكم عند كُل صلاة أو طَواف.

وهذه الآية تُوضِّح ضرورة أن يكون المؤمن في أحسن هيئة ، وأن يتزيَّن بأجمل الثياب عند الصلاة أو الطواف. لذلك، يُستحب التجمُّل والتزيُّن عن كل صلاة ، خصوصًا صلاة الجُمُعة ، ويوم العيد، والتَّطَيُّب، واستخدام السِّواك، وارتداء أجمل الثياب. وأفضلُ الثياب البَيَاض . والصلاةُ مُناجاةٌ للَّه تعالى، فَيُستحَب لها التزيُّن والتجمُّل والتعطر ، ويجب التطهُّر وسَتر العَورة . والزينةُ لها أثرٌ بالغ في بعث الراحة النفسية. كما أنها توفِّر الاستعدادَ الضروري للدخول في العبادة بكل ثقة وطمأنينة وراحة. وإذا كان المرءُ يتزين بأبهى حُلَّة حين يذهب لمقابلة مسؤول كبير أو شخصية مهمة، فما بالك حين يذهب إلى الصلاة ويقف بين يَدَي مَلِك الملوك ؟!.فعليه أن يكون في أجمل صورة وأبهى زينة. وَلِكُلِّ جوهرٍ نقيٍّ مظهرٌ رائعٌ ،كما أن فساد الصورة يُشير إلى فساد المضمون .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٦٧): ((هو خِطاب لجميع العالَم وإن كان المقصود بها مَن كان يَطُوف مِن العرب بالبَيت عُرْيَانًا،فإنَّه عام في كل مسجد للصلاة،لأن العِبرة للعموم لا للسبب.

ومِن العُلَماء مَن أنكرَ أن يكون المراد به الطواف، لأن الطواف لا يكون إلا في مسجد واحد ، والذي يَعُمُّ كُل مسجد هو الصلاة ، وهذا قول مَن خَفِيَ عليه مقاصد الشريعة)) .

والمؤمنُ يتزينُ لربِّه تعالى مَلِكِ الملوك . وقد كان العربُ في الجاهلية يَطوفون بالبيت عُراةً ، وهذا مُنافٍ للفِطرة السليمة، والأدب مع اللَّه تعالى، واحترامِ المساجد ، وسَترِ العَورات . ويتعارض بالكُلِّية مع مبادئ الحضارة البشرية ، ومدنية الإنسان ، وسُمُوِّه ، ورُقُيِّه .

والعُري إجراء بدائي يتصادم مع نُضوج الفكر البشري ، والتقدمِ الإنساني . والمؤمنُ ينبغي أن يأتيَ إلى المسجد في أبهى حُلَّة . رائحته طَيِّبة ، وثيابه نظيفة . فهو كائنٌ متميز يستمد شَرَفَه من شَرف المكان الذي يتوجه إليه (المسجد) . ولا بد أن يكون في هيئة حسنة لأنه سيقف بين يَدَي اللَّه تعالى بكل انضباط وخشوع . وهذا لا يتأتى إلا إذا جهَّز نَفْسَه ظاهرًا وباطنًا .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٣٢٠) عن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عنهما ــ قال: ((كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عُريانة ، فتقول: مَن يُعيرني تَطْوَافًا ؟ [١٧٧]، تجعله على فَرْجها ، وتقول : اليوم يَبدو بَعْضُه أو كُلُّه...فَمَا بَدا مِنه فلا أُحِلُّه.فَنَزلت هذه الآية:﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾)).

قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٦٥): ((ونقل ابن حزم الاتفاق على أن المراد سَتر العَورة)).

إن أهل الجاهلية كانوا يرتعون في مأزق العُري وكشف العَورات،خصوصًا في البيت الحرام. وهذا يدل على جهلهم باللَّه تعالى، وفسادِ عقائدهم المُختلِطة بالهوى والجهل والكفر، فأراد اللَّهُ تعالى أن يرشدهم إلى الأخلاق العالية ، وسَتر العَورات ، والالتزام بالهيئة الحسنة البعيدة كُل البُعد عن العُري ، والانحرافِ الأخلاقي . والحرصُ على الزينة عند الصلاة والطواف مِن شأنه أن يرتقيَ بإنسانية الإنسان ، وينتشلها من مستنقع الرذيلة والتعري . لقد نَزلت الآيةُ في الذين كانوا يَطوفون بالكعبة عُراةً . والآيةُ دليلٌ واضح على وُجوب سَتْر العَوْرة في الصلاة . فيجب على الناس سَتر عَوراتهم عند الصلاة والطواف. وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٦٧) : ((دَلَّت الآية على وُجوب سَتْر العَورة. وذهب جمهور أهل العِلم إلى أنها فرض من فروض الصلاة . وقال الأبهري : هي فرض في الجُملة ، وعلى الإنسان أن يَستُرها عن أعين الناس في الصَّلاة وغَيرها)) .

---

١٧٧ قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨/ ١٦٢):((وهو ثوب تَلبَسه المرأة تطوف به. وكان أهل الجاهلية يطوفون عُراة، ويَرمُون ثيابهم، ويتركونها مُلقاة على الأرض ، ولايأخذونها أبدًا ، ويتركونها تُداس بالأرجل)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٨٦و١٨٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ يا بَني آدمَ خُذوا زِينَتَكُم ﴾ سبب نزولها أن ناسًا من الأعراب كانوا يَطوفون بالبيت عُراة ، الرجال بالنهار، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تُعلِّق على فَرْجها سُيُورًا (قطعة جِلدية)،وتقول: اليوم يبدو بعضُه أو كُلُّه ... وما بدا منه فلا أُحِلُّه . فَنَزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . وقال أبو سَلَمَة بن عبد الرحمن : كانوا إذا حَجُّوا فأفاضوا مِن مِنًى ، لا يَصلُح لأحد منهم في دِينه الذي اشترعوا أن يَطُوف في ثَوْبَيْه فَيُلقيهما ، حتى يَقضيَ طَوَافَه ، فَنَزلت هذه الآية . وقال الزُّهري: كانت العرب تطوف بالبيت عُراة إلا الحُمْس قُرَيش وأحلافها ، فَمَن جاء مِن غَيرهم وضع ثيابه ، وطاف في ثَوْبَي أحْمُس، فإن لَم يجد مَن يُعيره مِن الحُمْس ألقى ثيابَه وطاف عُريانًا ، فإن طاف في ثياب نَفْسه جعلها حرامًا عليه إذا قضى الطواف ، فلذلك جاءت هذه الآية . وفي هذه الزِّينة قَولان : أحدهما أنها الثياب، ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه وَرد في سَتْر العَورة في الطواف ، قاله ابن عباس والحسن في جماعة، والثاني أنه وَرد في سَتْر العَورة في الصلاة ، قاله مجاهد والزَّجاج. والثالث أنه ورد في التَّزَيُّن بأجمل الثياب في الجُمَع والأعياد ، ذَكَره الماوردي . والثاني أن المُراد بالزِّينة المُشط ، قاله أبو رَزِين)) .

﴿ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِين ﴾ . وكُلُوا مِن طَيِّبات ما رَزَقَكم اللَّهُ ، واشرَبُوا ما أحَلَّ لكم مِن الأشربة . وكان أهلُ الجاهلية لا يَأكلون أيام حَجِّهم إلا قُوتًا، ولا يأكلون دَسَمًا ، يُعظِّمون بذلك حَجَّهم ، فقال المسلمون : نحن أحقُّ أن نفعل ، فنزلت الآية .

ولا تُسرِفوا بتحريم الحلال ، أو بأكل الحرام ، أو بالإفراط في الأكل والشُّرب ، وإلحاق الضَّرَر بالنَّفْس والمال، إنَّ اللَّه لا يَرتضي فِعْلَ المُتجاوزين حُدُودَه، ولا يُثيبهم ، ولا يُدخلهم الجَنَّةَ. واللَّهُ لا يُحِبُّ المُتجاوزين حُدُودَه في الحلال والحرام،ولكن يُحِب أن يُحلَّل حلالُه، ويُحرَّم حرامُه.

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٨١) : ((قال بعضُ السَّلَف : جَمَعَ اللَّهُ الطبَّ كُلَّه في نِصف آية ، ﴿ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا ﴾ . وقال البُخاري : قال ابن عباس : كُلْ ما شِئتَ ، والْبَسْ ما شِئتَ ، ما أخطأتك خَصْلتان : سَرَف ومَخِيلة . وقال ابن جرير : حَدَّثنا مُحمَّد ابن عبد الأعلى، حَدَّثنا مُحمَّد بن ثَور عن مَعْمَر عن ابن طاوس عن أبيه، عن ابن عباس قال: أحلَّ اللَّهُ الأكلَ والشُّرْبَ ما لَم يَكُن سَرَفًا أوْ مَخِيلة . إسناده صحيح)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٦٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا ﴾ ، قال ابن عباس : أحلَّ اللَّهُ في هذه الآية الأكلَ والشُّرْبَ ، ما لَم يكن سَرَفًا أو مَخِيلة (كِبْرًا) ، فأمَّا ما تدعو الحاجة إليه ، وهو ما سَد الجَوْعَة ، وسكَّن الظَّمَأ ، فمَندوب إلَيه عَقْلًا وشَرْعًا ، لِمَا

فِيه مِن حِفظ النَّفْس ، وحِراسة الحَوَاس ، ولذلك وَرد الشَّرْع بالنَّهْي عَن الوِصَال (ألا يُفطِر يَوْمَيْن أو أيَّامًا) ، لأنَّه يُضعِف الجَسَدَ ، ويُميت النَّفْسَ ، ويُضعِف عن العبادة ، وذلك يَمنع منه الشَّرْع ، ويَدفعه العقل ، ولَيس لِمَن مَنَعَ نَفْسَه قَدْرَ الحاجة حَظ مِن بِر ، ولا نصيب مِن زُهد، لأنَّ ما حَرَمَها مِن فِعل الطاعة بالعَجْز والضَّعْف أكثر ثوابًا وأعظم أجرًا . وقد اخْتُلِف في الزائد على قَدْر الحاجة على قَوْلَيْن : فقِيل : حرام ، وقِيل : مكروه . قال ابن العربي : وهو الصحيح ، فإنَّ قَدْر الشِّبَع يَختلف باختلاف البُلدان والأزمان والأسنان . ثُمَّ قِيل : في قِلَّة الأكل منافع كثيرة ، مِنها أن يكون الرَّجل أصَح جِسْمًا ، وأجْوَد حِفظًا ، وأزكى فَهْمًا ، وأقل نَوْمًا ، وأخَف نَفَسًا . وفي كثرة الأكل كَظ المَعِدة (إثقالها) ، ونَتْن التُّخَمَة ، ويتولَّد مِنه الأمراض المُختلفة ، فيَحتاج مِن العلاج أكثر مِمَّا يحتاج إليه القليل الأكل . وقال بعضُ الحكماء : أكبرُ الدَّواء تقدير الغِذاء . ... . قَوله تعالى : ﴿ ولا تُسْرِفُوا ﴾ ، أي : في كَثرة الأكل ، وعَنه يكون كَثرة الشُّرْب ، وذلك يُثقِل المَعِدَةَ، ويُثَبِّط المَعِدة ، ويُثبِّط الإنسانَ عَن " خِدمة رَبِّه " ، والأخذ بحَظِّه مِن نوافل الخير ، فإنْ تَعَدَّى ذلك إلى ما فَوقه مِمَّا يَمنعه القِيام بالواجب عليه ، حَرُمَ عَلَيه ، وكان قد أسرف في مَطعَمه ومَشرَبه)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٨٨) : ((ونُقل أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعليِّ بن الحُسَين بن واقد: لَيس في كتابكم مِن عِلْم الطب شيء ، فقال عليٌّ: قد جَمَعَ اللَّهُ تعالى الطبَّ في نِصف آية مِن كِتابنا ، قال : ما هِيَ ؟ ، قال : قَوله تعالى : ﴿ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا ﴾ . قال النصراني : ولا يُؤْثَر عن نَبِيِّكم شيء مِن الطِّب ، فقال : قَد جَمَعَ رَسُولُنا عِلْمَ الطب في ألفاظ يسيرة ، قال : وما هِيَ ؟ ، قال : " المَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ ، والحِمْيَةُ رأسُ الدَّواء ، وعَوِّدُوا كُلَّ بَدَنٍ ما اعتادَ " ، فقال النصراني : ما تَرَكَ كتابُكم ولا نَبِيُّكم لجالينوس طِبًّا . قال المُصنِّف:هكذا نقلتُ هذه الحِكاية، إلا أن هذا الحديث المَذكور فيها عن النبيِّ ﷺ لا يَثبُت. وقد جاءت عنه في الطِّب أحاديث قد ذَكَرْتُها في كتاب (لَقَط المنافع في الطب))) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٩١) : ((﴿يا بَني آدمَ خُذوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِين ﴾ ، هذا خِطاب لجميع بني آدم ، وإنْ كان واردًا على سبب خاص ، فالاعتبار بعُموم اللفظ ، لا بخُصوص السَّبب . والزِّينة ما يتزيَّن به الناس مِن المَلبوس . أُمِرُوا بالتَّزَيُّن عِند الحُضور إلى المساجد للصَّلاة والطَّوَاف . وقد استدلَّ بالآية على وُجوب سَتْر العَوْرة في الصَّلاة ، وإليه ذهب جُمهور أهل العِلْم ، بَل سَتْرها واجب في كل حال مِن الأحوال ، وإنْ كان الرَّجل خاليًا ، كما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة . والكلام على العَورة ،

وما يَجِب سَتْرُه مِنها مُفصَّل في كُتب الفُروع . قَوله : ﴿ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا ﴾ . أمَرَ اللَّهُ سُبحانَه عِبادَه بالأكل والشُّرب ، ونهاهم عن الإسراف ، فلا زُهْد في تَرك مَطعَم ولا مَشرَب ، وتاركه بالمَرَّة قاتل لنَفْسه ، وهو من أهل النار ، كما صَحَّ في الأحاديث الصحيحة ، والمُقلِّل مِنه على وجه يَضعُف به بَدَنُه ، ويَعجَز عَن القِيام بما يجب عليه القِيام به من طاعة أو سَعْي على نَفْسه وعلى مَن يَعُول ، مُخالِف لِمَا أمرَ اللَّهُ به ، وأرشدَ إليه . والمُسرِف في إنفاقه على وَجْه لا يَفعَله إلا أهل السَّفَه والتَّبذير مُخالِف لِمَا شَرَعَه اللَّهُ لعباده ، واقع في النَّهْي القُرآنيِّ ، وهكذا مَن حَرَّمَ حَلالًا أوْ حَلَّلَ حَرَامًا ، فإنَّه يَدخل في المُسرفين ، ويَخرج عَن المُقتصدين . ومِن الإسراف الأكل لا لحاجة ، وفي وَقْتِ شِبَع)) .

وعن عمرو بن شُعَيب عن أبيه عن جَدِّه : أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : ((كُلُوا واشرَبُوا وتَصَدَّقوا في غَير سَرَف ولا مَخِيلة ، إنَّ اللَّه تعالى يُحِبُّ أن يُرى أثرُ نِعمته على عَبْده)) [١٧٨] .

أباحَ اللَّهُ للناس أن يَأكلوا مِن الطَّيبات ، ويَشربوا مِن الأشربة الحَلال ، ويتصدَّقوا بأموالهم ، بدُون سَرَف (إسراف) وهو تجاوز الحَد ، ولا مَخِيلة (تكبُّر) .

وهذا يدلُّ على أنَّ الشريعة نظَّمت أُمورَ الناس ، وحقَّقت مصالحَهم ، وجَلَبَتْ لهم المنافع والفوائد ، ولم تَجِئْ لتُضيِّق عليهم ، وإنما جاءت للتَّوسيع عليهم ، ورفع الحَرَج عنهم ، وعدم اضطرارهم إلى أضْيَق المسالك ، وقد سَمَحَتْ بالتَّمَتُّع بملذات الحياة دُون إفراط ولا تكبُّر ، لأنهما يُفسِدان النَّفْسَ ، ويُحطِّمان الجَسَدَ ، ويُتلِفان المالَ ، فتَضيع دُنيا العبد وآخرتُه . وهذا يدلُّ على أهمية الاعتدال والتَّرشيد، وضرورة التَّحَكُّم بالشَّهَوات والمَلَذَّات ، وخَيْرُ الأمورِ أوسطُها.

ويجب على العبد أن يَشكر اللَّهَ على نِعَمه العظيمة ، وآلائه الجليلة ، وفَضْله الكبير ، وذلك بإظهار نِعَم اللَّه عليه مُقِرًّا ومُعْتَرِفًا بها ، دُون رِياء ، ولا مُباهاة ، ولا غُرور ، ولا تكبُّر على الناس . وهذا يدلُّ على خُطورة البُخْل وحِرمان النَّفْس مِن الطَّيبات .

واللَّهُ يُحِبُّ أن يُظهِر العَبْدُ نِعَمَ اللَّه عَلَيه ، وفَضْلَه عليه بما رزقه مِن مال أوْ جاه ، فيَلبَس ثيابًا نظيفةً وجميلةً، تَليق بحاله،لإظهار نِعمة اللَّه عَلَيه،بدُون إسراف ولا تكبُّر.وهذا اعتراف بفَضْل اللَّه، وشُكْرٌ له على نِعَمه ، واستعانة بها على طاعته . وعلى العبد أن يتَّخذ نِعَمَ اللَّه طريقًا إلى جَنَّته ، ولَيس وسيلةً لمُراءاة الخَلْق ، والاستعلاء عليهم . ومِن شُكر النِّعَم إظهارُها، ومِن كُفرانها كِتمانُها.

---

١٧٨ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٠) برقم (٧١٨٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٤٦) : (((كُلُوا واشرَبُوا وتَصَدَّقُوا والْبَسُوا في غَير إسراف) أي مُجاوزة حَد (ولا مَخِيلة) كَعَظِيمة ، بمعنى الخُيَلاء ، وهو التَّكَبُّر، وقِيل: بوَزْن مَفْعَلَة ـ يعني مَخْيَلَة ـ مِن اختالَ إذا تَكَبَّرَ . أي : بلا عُجْب ولا كِبْر . ... . ولَفْظ رِواية النَّسَائي وابن ماجة : " كُلُوا واشرَبُوا وتَصَدَّقُوا ما لَم يُخالطه إسراف ولا مخيلة "، وهذا الخبر جامع لفضائل تَدبير المَرء نَفْسَه ، والإسراف يُضِرُّ بالجسد والمعيشة ، والخُيَلاءُ تُضِرُّ بالنَّفْس ، حيث تُكسِبها العُجْبَ ، وبالدُّنيا حيث تَكسب المَقْتَ مِن الناس ، وبالآخِرة حيث تَكسَب الإثمَ)) .

وفي نَفْس المرجع (٢/ ٢٩٣) : (((إنَّ اللَّه يُحِبُّ أن يُرى) بالبناء للمجهول (أثرُ نِعمته) أي : إنعامه (على عبده) ، قِيل : معنى يرى مزيد الشُّكر للَّه تعالى ، العمل الصالح والثَّناء والذِّكْر له بما هو أهله والعَطْف والتَّرَحُّم والإنفاق مِن فَضْل ما عِنده في القُرب ﴿ وأحْسِن كَمَا أحسنَ اللَّهُ إلَيْك ﴾ ، والخَلْق كُلُّهم عِيَال اللَّه ، وأحبُّهم إليه أنفعهم لعِيَاله ، فيُرى في أثر الجِدَة (الثروة) عليه زِيًّا وإنفاقًا وشُكرًا ، هذا في نِعمة اللَّه ، أمَّا في النِّعْمَة الدِّينية فبأن يُرى على العبد نَحْو استعماله للعِلْم فيما أمر به ، وتهذيب الأخلاق ، ولِين الجانب ، والحِلْم على السَّفيه ، وتعليم الجاهل ، ونشر العِلْم في أهله ، ووَضْعه في مَحَلِّه بتواضع ولِين جانب في أُبَّهة واحتشام ، وفي وُلاة الأُمور بالرِّفق بالرَّعِيَّة ، وإقامة نواميس العدل فيهم ، ومُعاملتهم بالإنصاف ، وترك الاعتساف ، إلى غَير ذلك مِن سائر ما يجب عليهم ، ويَطَّرِد ذلك في كُل نِعمة معَ أنَّ نِعَمه تعالى لا تُحصَى)) .

وفي نَفْس المرجع (٢/ ٢٩٨) : (((إنَّ اللَّه تعالى يُحِبُّ أن يرى) بضم الياء وفتحها ، فعلى الضَّم الرُّؤية تعود للناس ، وعلى الفَتْح تعود إلى اللَّه ، لأنَّه يَرى الأشياءَ على ما هِيَ ، فيَرى الموجودَ مَوجودًا ، والمَعدوم معدومًا (أثر نِعمته على عَبْده) لأنَّه سُبحانَه يُحب ظُهورَ أثر نِعمته على عبده ، فإنَّه مِن الجَمَال الذي يُحبه ، وذلك مِن شُكره على نِعَمه ، وهو جَمَال باطن ، فيجب أن يُرى على عبده الجَمَال الظاهر بالنِّعْمَة ، والجَمَال الباطن بالشُّكر عليه ، ولأجل محبته تعالى للجَمَال أنزلَ لعباده لِبَاسًا يُجمِّل ظواهرَهم ، ويُقَوِّي تجمُّلَ بواطنهم ، فهو يُحب لعبده التَّجَمُّل حتى (في مأكله ومَشرَبه) أي مَأكوله ومَشروبه حتى يرى أثر الجِدَة عليه ، وعلى مَن عليه مُؤنته ، مِن زوجة وخادم وغَيرهما ، قُوتًا ومَلْبَسًا ومَسْكَنًا ، وغَير ذلك مِمَّا يَليق بأمثاله وأمثالهم عُرْفًا)) .

إنَّ المُسلم مُعتدل ووسطي في أفكاره وسُلوكه ، وبعيد كُل البُعد عن الإفراط والتَّفريط ، وهو مُحافظ على صِحَّته ونشاطه ، ويَحرِص على الأكل والشَّراب باعتدال وتوازن ، دُون إسراف ، حتى يَحْمِيَ نَفْسَه مِن المُشكلات الصِّحية ، ويُحافظ على نَفْسِه وجسده ، ويَقْدِر على أداء الطاعات .

وعن المِقدام بن مَعْدِي كَرِب الكِندي ـ رضي اللَّهُ عنه ـ قال : سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول : ((ما ملأ آدميٌّ وِعَاءً شَرًّا مِن بَطْنِه، حَسْبُ ابنِ آدمَ ثلاثُ أُكْلاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَه ، فإنْ كانَ لا مَحَالة، فَثُلُثٌ طَعَامٌ ، وَثُلُثٌ شَرَابٌ ، وثُلُثٌ لِنَفَسِه)) [١٧٩].

يُشبِّه النبيُّ ﷺ بَطْنَ الإنسان بالوعاء الذي يَحفظ الطعامَ والشَّراب ، وكما أن الإنسان يَحرِص على امتلاء أوعيته ، كذلك يَحرِص على امتلاء بَطْنه . وامتلاءُ البَطْن شَر عظيم ، لأنَّه يُسبِّب أمراضًا كثيرة ومُشكلات صِحية ، ويَجعل العبدَ عاجزًا عن أداء العبادات والطاعات ، مِمَّا يُؤَدِّي إفساد دِين العَبْد ودُنياه . ولَم يُحذِّر النبيُّ ﷺ مِن هذه المُشكلة الخطيرة فَحَسْب ، بَل أيضًا قَدَّمَ إجراءً وِقَائيًّا ، وحَلًّا واقعيًّا . يَكفي الإنسان أن يتناول مِن الطَّعَام أُكَيلات قليلة ، يتقوَّى بها ، ويُقِمْنَ ظَهْرَه ، دُون الوُصول إلى حَد الشِّبَع ، فإذا كان لا بُد مِن الاستزادة مِن الطَّعَام ، وتجاوز هذا القَدْر ، فينبغي جَعْل البَطْن ثلاثة أثلاث ، ثُلُث للطعام ، وثُلُث للشَّرَاب ، وثُلُث للنَّفَس ، لأنَّ الرِّئة تحتاج إلى مساحة للتَّنَفُّس . وامتلاءُ البَطْن يُسبِّب ضِيقَ التَّنَفُّس ، ويُشكِّل خطرًا حقيقيًّا على صِحَّة الإنسان ، وهُنا تَظهر أهمية هذا التَّقسيم الثلاثي ، لأنَّه الضَّمانة للحفاظ على الصِّحة .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٥٢٨) : ((قال القُرطبي في شرح الأسماء : لَوْ سَمع بُقراط بهذه القِسمة ، لَعَجِبَ مِن هذه الحِكمة . وقال الغَزَّالي قَبْله في باب كَسْر الشَّهْوَتَيْن مِن الإحياء : ذُكِرَ هذا الحديث لبعض الفلاسفة ، فقال : ما سمعتُ كلامًا في قِلَّة الأكل أحكم مِن هذا . ولا شك في أنَّ أثر الحِكمة في الحديث المَذكور واضح ، وإنَّما خصَّ الثلاثة بالذِّكْر لأنها أسباب حياة الحَيَوان ، ولأنَّه لا يَدخل البَطْن سِواها . وهَل المُراد بالثُّلُث التساوي على ظاهر الخبر ، أو التَّقسيم إلى ثلاثة أقسام مُتقاربة ، مَحَل احتمال ، والأوَّل أَوْلَى)) .

وفي نَفْس المرجع (١٠/ ١٢٨) : ((إذا كان لا بُد من الزِّيادة على اللُّقَيْمَات ، فليقتصر على الثُّلُث ، فهو إذْن بالاقتصار على الثُّلُث ، لا أمر يقتضي الوُجُوب ، ولا الاستحباب)) .

وقال المُناوي في فَيض القدير (٥/ ٥٠٢) : (((ما ملأ آدميٌّ وِعَاءً شَرًّا مِن بَطْنه) لِمَا فاته مِن خُيُور كثيرة (جَمْع خَيْر) ، جعل البطن وعاء كالأوعية التي تُتَّخَذ ظُرُوفًا تَوْهِينًا لشأنه ، ثُمَّ جَعَلَه شَرَّ الأوعية ، لأنها تُستعمَل في غَير ما هي له . والبَطْن خُلِقَ لأن يتقوَّم به الصُّلْب بالطعام ، وامتلاؤه يُفْضِي إلى فساد الدِّين والدُّنيا ، فيكون شَرًّا مِنها . ووَجْه تحقُّق ثُبوت الوَصْف في

---

١٧٩ رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٧) برقم (٧٩٤٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

المُفضَّل عليه أنَّ مَلْء الأوعية لا يَخلُو عَن طمع ، أو حِرص في الدُّنيا ، وكِلاهما شَر على الفاعل . والشِّبَع يُوقِع في مداحض ، فيَزيغ صاحبُه عن الحَق ، ويَغلِب عليه الكَسَل ، فيَمنعه مِن التَّعَبُّد ، ويَكثُر فيه مواد الفُضُول ، فيَكثر غضبُه وشَهْوته ، ويَزيد حِرصه ، فيُوقعه في طلب ما زاد على الحاجة . قال بعضُهم : الشِّبَع نهرٌ في النَّفْس يَرِدُه الشَّيطان ، والجُوع نَهْر في الرُّوح تَرِدُه الملائكة (بحَسْب ابن آدم) أي يَكفيه (أكلات) بفتح الهمزة والكاف جمع أكلة . بالضَّم وهي اللقمة ، أي : يَكفيه هذا القَدْر في سَد الرَّمَق ، وإمساك القُوَّة ، ولهذا قال (يُقِمْنَ صُلْبَه) أي ظَهْرَه ، تسمية للكُل باسم جُزئه ، إذْ كُل شيء مِن الظَّهْر فيه فَقَار فهو صُلْب ، كِناية عن أنَّه لا يتجاوز ما يحفظه مِن السُّقوط ، ويتقوَّى به على الطاعة ، وفي رواية بدل أُكَلات لُقَيمات . قال الغَزَّالي : وهذه الصِّيغة في الجَمْع للقِلَّة فهو لِمَا دُون العَشَرَة (فإن كان لا مَحَالة) مِن التَّجاوز عمَّا ذكر فلتكن أثلاثًا (فثُلُث) يَجعله (لطعامه) أي مَأكوله (وثُلُث) يَجعله (لشَرابه) أي مَشروبه (وثُلُث) يَدَعه (لِنَفَسِه) بالتَّحريك ، يعني أن يَبقى مِن مَلْئِه قَدْر الثُّلُث ، ليتمكن من التَّنَفُّس ، ويَحصُل له نَوع صَفاء ورِقَّة ، وهذا غاية ما اختير للأكل ، وهو أنفعها للبدن والقلب ، فإن البطن إذا امتلأ طعامًا ضاق عن الشراب ، فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النَّفَس ، وعُرِّضَ للكَرْب والثِّقَل ، ولمَّا كان في الإنسان ثلاثة أجزاء : أرضي ومائي وهوائي ، قُسِّمَ طعامه وشرابه ونَفَسه إلى الأجزاء الثلاثة ، وتُرك الناري لقَول جَمْع مِن الأطباء : ليس في البَدَن جُزء ناري ، ذَكَرَه ابن القَيِّم . وقال القرطبي : وَلَوْ سَمع بُقْراط هذه القِسمة لَعَجِبَ مِن هذه الحِكمة. وقال الغَزَّالي: ذُكِرَ هذا الحديث لبعض الفلاسفة فقال : ما سمعتُ كلامًا في قِلَّة الأكل أحكم مِنه ، وإنَّما خصَّ الثلاثة بالذِّكْر ، لأنها أسباب حياة الحَيَوَان)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مَرْيَم : ٢٥] .

وحَرِّكي إلى نَفْسِكِ جِذعَ النَّخْلة اليابسة ، يتساقط عليك الرُّطُب الشَّهِيُّ الطَّري . وكان السَّلَفُ يَستحبون للنُّفَساء الرُّطَبَ مِن أجل مَرْيَم رضي اللَّهُ عنها. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١١) : ((﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذعِ النَّخْلَةِ ﴾ ، وأمِيليه إلَيْكِ ، والباء مَزيدة للتأكيد،أوْ افعلي الهَزَّ والإمالة به، أوْ﴿ وَهُزِّي ﴾ الثَّمَرَةَ بِهَزِّه. والهَزُّ تحريك بجَذب ودَفْع . ... . رُوِيَ أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر، وكان الوقت شتاء، فهزَّتها فجعلَ اللَّهُ تعالى لها رأسًا وخُوصًا ورُطَبًا.وتَسليتها بذلك لِمَا فيه مِن المُعجِزات الدَّالة على بَراءة ساحتها، فإنَّ مِثْلَها لا يُتَصَوَّر لِمَن يرتكب الفواحش، والمُنبِّهة لِمَن رآها على أنَّ مَن قَدَرَ أن يُثمِر النَّخلةَ اليابسة في الشِّتاء ، قَدَرَ أن يُحبِّلها مِن غَير فَحْل)) .

وفي صَفوة التفاسير (٨/ ٣٨): ((قال المُفسِّرون : أمَرَها بهَزِّ الجِذع اليابس لِتَرى آيةً أُخرى في إحياء مَوَات الجِذع ، بَعد رُؤيتها عَين الماء العَذب الذي جرى جدولًا ، وذلك ليَسكُن ألَمُها ، وتَعلَم أنَّ ذلك كرامةً مِن اللَّه لها)) .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٥٦٦): ((وروى عَبْد بن حُمَيد من طريق شَقِيق بن سَلَمَة قال: لَوْ عَلِمَ اللَّهُ أنَّ شيئًا للنُّفَساء خَير مِن الرُّطَب لأمرَ مَرْيَمَ به . ومن طريق عَمرو بن مَيمون قال : لَيس للنُّفَساء خَير مِن الرُّطَب أو التَّمْر . ومِن طريق الرَّبيع بن خُثَيم قال : لَيس للنُّفَساء مِثْلُ الرُّطَب ، ولا للمريض مِثْل العَسَل . أسانيدها صحيحة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو يَعلَى من حديث عليٍّ رفعه قال : " أطْعِمُوا نُفَسَاءكم الوُلَّدَ الرُّطَبَ ، فإنْ لَم يَكُن رُطَبٌ فَتَمْر ، ولَيس مِن الشَّجَر شجرةٌ أكرمُ على اللَّه مِن شَجَرَة نزلت تَحتها مَرْيَم " . وفي إسناده ضَعْف)) .

وعن ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما وعن مُرَّة عن عبد اللَّه قالا:خَرَجَتْ مَرْيَمُ إلى جانب المِحراب بحَيْض أصابها، فلمَّا طَهُرَتْ إذْ هِيَ برَجُل معها ، وهو قَوله : ﴿ فأرْسَلْنا إلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾، وهو جِبريلُ عَلَيه السلام، فَفَزِعَتْ مِنه، فقالت: ﴿ إنِّي أعُوذُ بالرَّحمنِ مِنكَ إن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ قال: ﴿ إنَّما أنا رسولُ رَبِّكِ لأهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾ الآية، فخرجتْ وعَلَيها جِلبابُها فأخذَ بِكُمِّها، فَنَفَخَ في جَيْب دِرْعها، وكان مَشقوقًا مِن قُدَّامها، فدخلت النَّفخةُ صَدْرَها فَحَمَلَتْ، فَأَتَتْهَا أُخْتُها امرأةُ زَكريا لَيلةً تَزورها، فلمَّا فَتَحَتْ لها البابَ الْتَزَمَتْهَا ، فقالت امرأةُ زكريا : يا مَريم ، أشَعَرْتِ أنِّي حُبْلَى ؟، فقالت مريم أيضًا: أشَعَرْتِ أنِّي حُبْلَى، فقالت امرأةُ زكريا : فإنِّي وَجَدْتُ ما في بَطْني يَسْجُدُ للذي في بَطْنِك، فذلك قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ ، فَوَلَدَتْ امرأةُ زكريا يَحْيَى ، ولمَّا بَلَغَ أن تَضَعَ مريمُ خَرَجَتْ إلى جانب المِحراب، فأجاءها المَخَاضُ إلى جِذع النَّخْلة، قالت استحياءً مِن الناس: ﴿ يا لَيْتني مِتُّ قَبْلَ هَذا وكُنتُ نَسْيًا مَنسِيًّا (٢٣) فناداها﴾ جِبريلُ ﴿ مِن تَحْتِها ألا تَحْزَني قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إلَيْكِ بِجِذعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) ﴾ ، فَهَزَّتْهُ فأجرى لها في المِحراب نَهْرًا ، والسَّرِيُّ : النَّهْر ، فتساقطت النَّخلةُ رُطَبًا جَنِيًّا، فلمَّا وَلَدَتْهُ ذَهَبَ الشَّيطانُ فأخبرَ بني إسرائيلَ أنَّ مَرْيَمَ وَلَدَتْ ، فلمَّا أرادوها على الكلام ، أشارت إلى عِيسى، فتكلَّم عِيسى فقال: ﴿ إنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانيَ الكِتابَ وَجَعَلَني نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَني مُبَارَكًا ﴾ ، فلمَّا وُلِدَ عِيسى لَمْ يَبْقَ في الأرض صَنم يُعبَد مِن دُون اللَّهِ إلا وَقَعَ ساجدًا لِوَجْهِه [١٨٠].

---

١٨٠ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٤٨) برقم (٤١٥٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وما أجملَ قَولَ القائل :

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ في الأمْرِ كُلِّهِ ... وَلا تَرْغَبَنْ في العَجْزِ يَوْمًا عَنِ الطَّلَبْ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَم ... وَهُزِّي إلَيْكِ الجِذعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ
وَلَوْ شَاءَ أنْ تَجْنِيهِ مِنْ غَيْرِ هَزَّةٍ ... جَنَتْهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبْ

وقالَ اللَّهُ تعالى:﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُم وَلْيُوفُوا نُذُورَهُم وَلْيَطَّوَّفُوا بالبَيْتِ العَتِيقِ ﴾[الحَج: ٢٩].

يَخرُجون مِن الإحرام ، بإزالة وَسَخَهم ، وتنظيف أنفسهم ، وذلك بِحَلْق الرَّأس ، وقَص الشارب والأظافر ، ونَتْف الإبْط ، وحَلْق العانة ، وارتداء الثَّوب . وهذا يدلُّ على اعتناء الإسلام بالصِّحة والنَّظافة والجَمَال. وَلْيُوفُوا ما أوجبوه على أنفسهم طاعةً للَّهِ مِن الهدايا والضَّحايا ، والأمرُ للوُجوب. وَلْيَطُوفوا حَوْل الكَعْبة طَوَافَ الإفاضة ، وهو مِن أركان الحَج ، ويَكون بهذا الطَّوَاف تَمَام التَّحَلُّل. والبَيت العَتيق ، أي : القديم ، سُمِّيَ بذلك لأنَّه أوَّل بَيت وُضع للناس ، أوْ : لأنَّ اللَّه أعتقه مِن تسلُّط الجبابرة إلى يَوم القِيامة . أمَّا الحَجَّاج بن يُوسُف الثَّقَفي فإنَّما قَصَدَ إلى إخراج ابن الزُّبَير ، ولَم يتسلَّط على الكَعْبة المُشرَّفة .

وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ٣٨٠): ((﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُم ﴾ ، التَّفَث : الوَسَخ والقَذارة، مِن طُول الشَّعْر والأظفار والشَّعَث ، تقول العرب لِمَن تَستقذره : ما أتفثكَ ، أي : أوسخكَ . والحاجُّ أشعث أغبر، لَم يَحلِق شَعْرَه، ولَم يُقَلِّم ظُفْرَه، فقضاء التَّفَث: إزالة هذه الأشياء. ﴿ لْيَقْضُوا تَفَثَهُم ﴾ ، أي : ليُزيلوا أدرانَهم ، والمُراد مِنه الخُروج عن الإحرام بالحَلْق، وقَص الشارب، ونَتْف الإبْط، والاستحداد ، وقَلْم الأظفار، ولُبْس الثِّياب . ... . قَوله تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُم ﴾ ، قال مُجاهد : أرادَ نَذرَ الحَج والهَدْي ، وما يَنذِر الإنسانُ مِن شيء يكون في الحَج ، أي : لِيُتِمُّوها بقَضائها. وقيل: المُراد مِنه الوَفَاء بما نذر على ظاهره. وقيل: أراد به الخُروج عَمَّا وَجَبَ عليه ، نَذَرَ أو لَم يَنذِر. والعرب تقول لكُل مَن خَرَجَ عن الواجب عَليه : وَفَّى بِنَذره . ... . ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بالبَيْتِ العَتِيقِ ﴾ ، أراد به الطَّوَاف الواجب عَلَيه ، وهو طَوَاف الإفاضة يَوم النَّحْر بَعْد الرَّمْي والحَلْق)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٢٦ و٤٢٧): ((قَوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُم ﴾ فيه أربعة أقوال . أحدها: حَلْق الرَّأس، وأخذ الشارب، ونَتْف الإبْط، وحَلْق العَانَة، وقَص الأظفار، والأخذ مِن العَارِضَيْن (عَارِضَي لِحْيته) ، ورَمْي الجِمَار، والوُقوف بِعَرَفَة، رواه عطاء عن ابن عباس. والثاني : مَنَاسِك الحَج ، رواه عِكرمة عن ابن عباس ، وهو قول ابن عُمر. والثالث: حَلْق الرَّأس ،

قاله مُجاهد . والرَّابع : الشَّعْر، والظُّفْر، قاله عِكرمة . والقَول الأوَّل أصح ، لأنَّ التَّفَث : الوَسَخ، والقَذَارة مِن طُول الشَّعْر والأظفار والشَّعَث . وقضاؤه : نَقْضه وإذهابه . والحاج مُغبَّر شَعِث لَم يَدَّهن ، ولَم يَستحدَّ ، فإذا قَضَى نُسْكَه ، وخَرَجَ مِن إحرامه بالحَلْق، والقَلْم، وقَص الأظفار، ولُبْس الثِّياب ، ونَحْو ذلك ، فهذا قَضاء تَفَثه . قال الزجاج : وأهل اللغة لا يَعرِفون التَّفَثَ إلا مِن التَّفسير ، وكأنه الخروج مِن الإحرام إلى الإحلال . قَوله تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُم ﴾ . ... . قال ابن عباس : هُوَ نَحْر ما نذروا مِن البُدْن . وقال غَيْرُه : ما نَذروا مِن أعمال البِرِّ في أيَّام الحَج ، فإنَّ الإنسان رُبَّما نَذَرَ أن يتصدَّق إنْ رَزَقَه اللَّهُ رُؤيةَ الكَعْبة ، وقد يكون عليه نُذُور مُطْلَقَة ، فالأفضل أن يُؤَدِّيَها بِمَكَّة . قَوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بالبَيْتِ العَتِيقِ ﴾ ، هذا هو الطَّوَاف الواجب، لأنَّه أُمِرَ به بعد الذَّبْح ، والذَّبْح إنَّما يكون في يوم النَّحْر ، فدلَّ على أنَّه الطَّوَاف المَفروض . وفي تَسمية البَيْت عَتِيقًا أربعة أقوال . أحدها : لأنَّ اللَّه تعالى أعتقه مِن الجَبَابرة . روى عبد اللَّه ابن الزُّبَير عن رسول اللَّه ﷺ قال : " إنَّما سمَّى اللَّهُ البَيْتَ : العَتِيق ، لأنَّ اللَّهَ أعتقه مِن الجَبَابرة ، فَلَم يَظْهَرْ عَلَيه جَبَّار قَط " . وهذا قَول مُجاهد وقَتادة . والثاني: أنَّ مَعنى العَتِيق: القديم، قاله الحَسَن، وابن زيد . والثالث : لأنَّه لَم يُمْلَكْ قَط ، قاله مُجاهد في رواية وسُفيان بن عُيَينة . والرَّابع : لأنَّه أُعْتِقَ مِن الغَرَق زَمَانَ الطُّوفان ، قاله ابن السائب)) .

٢٠_ الإشارة إلى ازدواجية المادة

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

ومِن كُلِّ شَيء ، خَلَقَ اللَّهُ صِنْفَيْن ونَوْعَيْن مُخْتَلِفَيْن ، كالذَّكَر والأُنثى ، والسَّماء والأرض ، والشَّمْس والقَمَر ، والبَر والبَحْر ، والسَّهْل والجَبَل ، والصَّيف والشِّتاء ، والليل والنهار ، والنُّور والظلام ، والخَير والشَّر ، والسَّعادة والشَّقاء ، والهُدى والضَّلال ، والإيمان والكُفر ، والجَنَّة والنار،والمَوْت والحياة، والإنس والجِن، والحُلْو والحامض ، والبَيَاض والسَّوَاد ، والصِّحة والمَرَض، وأمثال ذلك .

وهذا يعني أنَّ جميع المخلوقات أزواج ، حتَّى الحَيَوانات والنَّبَاتات . وهذا دليل واضح على عَظَمَة اللَّه القادر على إيجاد الضِّدَّيْن ، وأنَّ الأحَدِيَّة لا تَنبغي إلا للَّه وَحْدَه . وهو الواحد في ذاته، والواحد في صِفاته. والمخلوقات المُركَّبة تدلُّ على وُجود صانع قادر مُختار ركَّبها وأبدعَ صُنْعَها.

﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾ ، كَي تتذكَّروا عَظَمَةَ اللَّه ، فتُؤمنوا بِه ، وتُصدِّقوا بقُدرته المُطْلَقَة ، وتَعْلَمُوا أنَّ خالقَ هذه الأزواج واحدٌ أحَد ، فَرْدٌ صَمَد ، فتَعبدوه وَحْدَه بلا شريك ولا نِد .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٧٢) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وَخَلَقْنا مِن كُلِّ شيء خَلَقْنا زَوْجَيْن ، وترك خَلَقْنا الأُولَى استغناءً بدَلالة الكلام عليها . واخْتُلِفَ في معنى ﴿ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ﴾ ، فقال بعضُهم : عَنَى به : ومِن كُلِّ شيء خَلَقْنا نَوْعَيْن مُخْتَلِفَيْن ، كالشَّقاء والسَّعادة ، والهُدى والضَّلالة ، ونَحْو ذلك . ذِكْر مَن قال ذلك : حَدَّثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا ابن عُلَيَّة ، قال: ثنا ابن جُرَيج ، قال : قال مُجاهد ، في قَوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ﴾ ، قال : الكُفر والإيمان ، والشَّقاوة والسَّعادة ، والهُدى والضَّلالة ، والليل والنَّهار ، والسَّماء والأرض ، والإنس والجِن . حَدَّثنا ابن بشار، قال: ثنا إبراهيم بن أبي الوزير، قال: ثنا مروان بن معاوية الفزاريُّ، قال : ثنا عَوف عن الحسن في قَوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ﴾ ، قال: الشمس والقمر. وقال آخَرُون: عَنى بالزَّوْجَيْن: الذَّكَر والأُنثى . ذِكْر مِن قال ذلك : حَدَّثني يُونُس قال : أخبرنا ابن وَهْب، قال: قال ابن زيد، في قَوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ﴾ ، قال: ذَكَرًا وأُنثى ، ذاك الزَّوجان . ... . وأَوْلَى القَوْلَيْن في ذلك قَول مُجاهد، وهو أنَّ اللَّه تبارَكَ وتعالى، خَلَقَ لكُلِّ ما خَلَقَ مِن خَلْقِه ثانيًا له، مُخالفًا في مَعناه، فكُلُّ واحد مِنهما زَوْج للآخَر، ولذلك قِيل: خَلَقْنا زَوْجَيْن. وإنَّما نبَّه جَلَّ ثناؤه بذلك مِن قَوْله على قُدرته على خَلْق ما يشاء خَلْقَه مِن شيء، وأنَّه ليس كالأشياء التي شأنها فِعل نَوع واحد دُون خِلافه، إذْ كُلُّ ما صِفته فِعل نَوع واحد دون ما عَداه ، كالنار التي شأنها التسخين، ولا تَصلُح للتبريد، وكالثلج الذي شأنه التبريد، ولا يَصلُح للتسخين ، فلا يجوز أن يُوصَف بالكمال، وإنَّما كَمال المَدْح للقادر على فِعل كُلِّ ما شاء فِعْلَه مِن الأشياء المختلفة والمُتَّفقة . وقَوله : ﴿ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾ يقول: لِتَذَكَّرُوا وتَعتبروا بذلك، فتَعلَموا أيُّها المشركون باللَّه أنَّ رَبَّكم الذي يَستوجب عليكم العِبادة هو الذي يَقْدِر على خَلْق الشَّيء وخِلافه، وابتداع زَوْجَيْن مِن كُلِّ شيء، لا ما لا يَقْدِر على ذلك)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٤٨) : ((قَوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ﴾ أي صِنْفَيْن ونَوْعَيْن مُخْتَلِفَيْن. قال ابن زيد: أي ذَكَرًا وأُنثى وحُلْوًا وحامضًا، ونَحْو ذلك. مُجاهد: يعني الذَّكَرَ والأُنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنُّور والظلام، والسهل والجبل، والجِن والإنس، والخَير والشَّر، والبُكْرَة والعَشِيَّ، وكالأشياء المُختلفة الألوان مِن الطُّعوم والأرابيح والأصوات. أي جعلنا هذا كهذا دَلالة على قُدرتنا، ومَن قَدَرَ على هذا فَلْيَقْدِرْ على الإعادة. وقِيل : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ﴾ لِتَعْلَمُوا أنَّ خالق الأزواج فَرْد،فلا يُقَدَّر في صِفته حَرَكة ولا سُكون، ولا ضِياء ولا ظَلام ، ولا قُعود ولا قِيام ، ولا ابتداء ولا انتهاء، إذْ هُوَ عَزَّ وَجَلَّ وِتْر﴿لَيْسَ كَمِثْله شَيء﴾[الشُّورى:١١].﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون﴾)).

وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٢٤١):((﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مِن الأجناس ﴿ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ﴾ نَوْعَيْن ﴿ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾ ، فتَعلَمون أنَّ التَّعَدُّد مِن خَواص المُمكِنات ، وأنَّ الواجب بالذات لا يَقْبَل التَّعَدُّدَ والانقسامَ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَان ﴾ [الرَّحمن : ٥٢]. في الجَنَّتَيْن مِن جميع أنواع الفواكه والثِّمار نَوْعَان ، غريب ومعروف ، أوْ رَطْب ويابس ، وكِلاهما حُلْو ، حتى المُر في الدُّنيا كالحَنْظَل ، يَكون حُلْوًا . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٩٩) : ((والمعنى : أنَّ في الجَنَّتَيْن مِن كُل نَوع يُتَفَكَّه به ضَرْبَيْن ، يُستلَذ بكُل نَوع مِن أنواعه . قيل : أحد الصِّنْفَيْن رَطْب ، والآخَر يابس ، لا يَقْصُر أحدُهما عن الآخَر في الفَضْل والطِّيب)) .

٢١_ الإشارة إلى عدم فَنَاء المادة

قالَ اللَّهُ تعالى:﴿وما تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُها ولا حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يَابِسٍ إلا في كِتَابٍ مُبِين ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

لا تَسقط ورقة من الشجر ، إلا ويَعلَم اللَّهُ متى سَقطت ، وأين سَقطت ، وكَم تدور في الهواء . أي إنَّ اللَّه يَعلَم زمان سُقوطها ومكانه وأحوالها . وهذا يدل على إحاطة عِلْم اللَّه بالجُزئيات وأدقِّ التفاصيل.وتخصيص حال السُّقوط بالذِّكر يدل على أنَّ اللَّه يَعْلَم أحوال الورقة كُلَّها، قبل سُقوطها، وأثناء سُقوطها ، وبعد سُقوطها. إنَّ ﴿ ما ﴾ للنَّفْي ، و﴿ مِن ﴾ للاستغراق . أي : يَعلم عدد الأوراق وأحوالها وأوضاعها قبل السُّقوط وبعده . وهذه مُبالَغة حقيقية في إحاطة عِلْم اللَّه بالجُزئيات والتفاصيل . وقال البَغَوي في تفسيره (١/ ١٥٠) : ((﴿ وما تَسْقُطُ مِن وَرقةٍ إلا يَعْلَمُها ﴾ يريد ساقطة وثابتة، يعني: يَعلَم عَدَدَ ما يَسقط من ورق الشجر، وما يبقى عليه . وقِيل : يَعْلم كَم انقلبت ظَهْرًا لبطن ، إلى أن سقطت على الأرض)) اهـ . وفي زاد المسير (٣/ ٥٤) : ((قال الزَّجاج: المعنى أنه يَعْلَمها ساقطة وثابتة ، كما تقول : ما يجيئك أحد إلا وأنا أعرفه ، ليس تأويله أعرفه في حال مَجيئه فقط)) اهـ.وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٨٤) : ((أي : ويَعْلَم الحركات حتى مِن الجمادات ، فما ظَنُّك بالحيوانات ولا سِيَّما المُكَلَّفون مِنهم مِن جِنِّهم وإنسهم ؟!)) .

وفي الدُّر المنثور (٣/ ٢٧٨) : ((وأخرج الخطيب في تاريخه بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال : " ما مِن زرع على الأرض ، ولا ثمار على أشجار إلا عليها مكتوب بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، هذا رِزق فُلان بن فُلان " . وذلك قَوله تعالى : ﴿ وما تَسْقُطُ مِن وَرقةٍ إلا يَعْلَمُها ولا حَبَّةٍ في ظُلماتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كِتابٍ مُبين ﴾)) .

﴿ولا حَبَّةٍ في ظُلماتِ الأرضِ ﴾ . ولا حَبَّة صغيرة في التراب تحت الأرض (باطن الأرض) أو الأماكن المظلمة_ والمقصود في أشد أحوال الخفاء والتَّغيُّب_ إلا يَعلَمها ، ويَعلم كُل شيء عنها . وفي تفسير القرطبي(٧/٥):((وقِيل: ... ولا حَبَّة إلا يَعْلَم متى تُنبِت، وَكَم تُنبِت، وَمَن يَأكلها)) .

﴿ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كِتابٍ مُبين ﴾ . ولا شَيء فيه رُطوبة ولا يُبوسة إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ ، وقد أثبتَ اللَّهُ ذلك كُلَّه في كتاب قبل أن يَخلُق الخَلْقَ ، واللَّهُ يَعلَمه إجمالًا وتفصيلًا . ووصفُ الرُّطوبة واليُبوسة يَعُمُّ جميعَ الموجودات والكائنات، وهو عبارة عن كُل شَيء. فالشَّيءُ إمَّا أن يَكون رَطْبًا أو يابسًا ، ولا توجد حالة ثالثة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٤) : ((وفي الرَّطْب واليابس خمسة أقوال : أحدها أن الرَّطْب الماء ، واليابس البادية . والثاني الرَّطْب ما يُنبِت ، واليابس ما لا يُنبِت . والثالث الرَّطْب الحي ، واليابس الميت . والرابع الرَّطْب لسان المؤمن يَذكر اللَّهَ ، واليابس لسان الكافر لا يَتحرَّك بِذِكْر اللَّه . والخامس أنهما الشيء ينتقل من إحدى الحالتين إلى الأخرى ، فهو يَعلَمه رَطْبًا ، ويَعلمه يابسًا . وفي الكتاب المُبين قَولان : أحدهما أنه اللوح المحفوظ ، قاله مقاتل . والثاني أنه عِلْمُ اللَّهِ المُتْقَنُ ، ذَكَره الزَّجاج . فإن قِيل : ما الفائدة في إحصاء هذه الأشياء في كتاب ؟، فعنه ثلاثة أجوبة: ذَكَرَهُنَّ ابن الأنباري . أحدها أنه أحصاها في كتاب لتقف الملائكة على نفاذ عِلْمه . والثاني أنه نَبَّه بذلك عباده على تعظيم الحساب وأعلمهم أنه لا يفوته ما يصنعون، لأن مَن يُثبِت ما لا ثواب فيه ولا عقاب، فهو إلى إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع . والثالث أن المُراد بالكتاب العِلْم ، فالمعنى أنها مُثْبَتة في عِلْمه)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْناكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُم وَمِنْهَا نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه : ٥٥].

مِنَ الأرض خَلَقَكُم اللَّهُ أيُّها الناسُ ، فإنَّ أباكم آدم ﷺ مَخلوق مِن تُراب الأرض.ويُعيدكم اللَّهُ بعد مماتكم إلى الأرض ، فتُدفَنون فِيها ، وتتفرَّق أجزاؤكم ، حتى تَصيروا تُرَابًا مِن جِنس الأرض . وَمِنَ الأرض يُخرجكم اللَّهُ يَوم البَعْث مَرَّةً أُخرى ، كما أخرجكم عِند ابتداء خَلْقكم ، حَيث يَجمع أجسادَكم ، ويَرُد أرواحَكم ، ويَبعثكم للحِسَاب والجَزاء ، والخُلود في الجَنَّة ، أو الخُلود في النار.

خَلَقَ اللَّهُ الناسَ مِنَ الأرض ، وفيها يُعيدهم بالمَوت والدَّفْن ، ومِنها يُخرجهم بالبَعْث ليوم القِيامة . وَخَلْقُ الناس مِن الأرض إخراج لهم مِنها ، وهذا هو الإخراج الأوَّل . وإخراج الناس مِن الأرض (إحياؤهم مِن قُبورهم) للبَعْث والحِساب ، هو الإخراج الثاني . لذلك قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى ﴾ ، أي : مَرَّةً أُخْرَى بَعْد البَعْث ، كما أخرجكم مِنها أوَّلًا عِند خَلْق

آدم ﷺ مِنَ الأرض . ولا شَكَّ أنَّ كُل " مَرَّة أُخرى " لها مَرَّة أُولَى . والمُراد بإخراج الناس مِن الأرض (إحيائهم مِن قُبورهم) أنَّ اللَّه يُؤَلِّف أجزاءهم المُتفرِّقة المُختلِطة بالتُّراب ، ويَرُد إلَيهم أرواحهم ، ويُرجِعهم كما كانوا أحياء ، ويُخرِجهم إلى المَحْشَر .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ اللَّه قالَ:﴿وفِيها﴾ ولم يَقُلْ:وإلَيها،للدَّلالة على الاستقرار الطويل في الأرض.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٦) : ((﴿ مِنْهَا خَلَقْناكُم ﴾ فإنَّ التُّراب أصل خِلْقة أوَّل آبائكم ، وأوَّل مواد أبدانكم، ﴿ وفِيها نُعِيدُكُم ﴾ بالمَوت وتَفكيك الأجزاء ، ﴿ وَمِنها نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى ﴾ بتأليف أجزائكم المُتَفَتِّتة المُخْتَلِطَة بالتُّراب على الصُّوَر السابقة، ورَد الأرواح إليها)).

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٤٢٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : مِنَ الأرض خَلَقْنَاكُم أيُّها الناس فأنشأناكم أجسامًا ناطقة ، ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُم ﴾ . يقول : وفي الأرض نُعيدكم بَعْد مَماتكم فَنُصَيِّركم تُرَابًا كَما كُنتم قَبْل إنشائنا لكم بَشَرًا سَوِيًّا، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُم ﴾ . يقول:ومِنَ الأرض نُخرِجكم كَما كُنتم قَبْل مماتكم أحياءً، فنُنشِئكم مِنها كَما أنشأناكم أوَّل مَرَّة. وقَوله: ﴿ تَارَةً أُخْرَى﴾ . يقول: مَرَّةً أخرى. كَمَا حَدَّثَنا بِشْر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قَتادة: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى ﴾ ، يَقول:مَرَّةً أُخرى.حَدَّثَني يُونُس قال: أخبرنا ابن وَهْب قال: قال ابن زَيد في قَوله : ﴿ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ، قال: مَرَّةً أُخرى الخَلْق الآخَر. قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذن : مِنَ الأرض أخرجناكم ، ولم تكونوا شَيْئًا خَلْقًا سَوِيًّا، وسَنُخْرِجكم مِنها بَعد مَماتكم مَرَّةً أُخرى، كما أخرجناكم مِنها أوَّلَ مَرَّة)) .

وعن أبي أُمَامة قال: لَمَّا وُضِعَتْ أُمُّ كُلثومٍ ابنةُ رسول اللَّه ﷺ في القَبْر ، قال رسولُ اللَّه ﷺ : ((﴿ مِنْهَا خَلَقْناكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُم وَمِنْهَا نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى ﴾)) [١٨١].

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أإذا مِتْنَا وكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : ٣] .

يُخبِر اللَّهُ عن تعجُّب الكافرين مِن المَعَاد . والاستفهامُ الإنكاري لاستبعاد البَعْث ، وجَوابه مَحذوف. قال الكافرون: أئذا مِتنا وصارت أجسادُنا تُرابًا ، كَيْفَ سَنَحْيا ونرجع إلى ما كُنَّا عَلَيه ؟ . إنَّ الرَّد إلى الحياة بعيد ومُستحيل ، ولا يُمكِن أن نُبعَث بعد المَوت . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٨٢) : ((﴿ أإذا مِتْنَا وكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ ،أي : يَقولون : أئِذا مِتنا وبَلِينا ، وتقطَّعت الأوصالُ مِنَّا ، وصِرنا تُرابًا ، كيف يُمكن الرُّجوع بَعد ذلك إلى هذه البِنية والتَّركيب ؟ ، ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ ، أي : بَعيد الوُقوع ، والمعنى أنَّهم يَعتقدون استحالته وعدم إمكانه)) .

---

١٨١ رواه أحمد في مُسنده (٥/ ٢٥٤). وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٦٠) : ((وإسناده ضعيف)).

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنا ما تَنقُصُ الأرضُ مِنْهُم وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظ ﴾ [ق : ٤] .

قد عَلِمَ اللَّهُ ما تأكلُ الأرضُ مِن أجسامهم ولُحومهم وعِظامهم ودمائهم وأشعارهم بعد مَوتهم ، فلا يَغِيب عن اللَّه شيء حتى تتعذَّر عليه الإعادة . ومعَ عِلْم اللَّه الواسع ، عِنده سُبحانَه كِتاب حافظ لعَدَدهم وأسمائهم ، وهو اللوح المَحفوظ الذي يَحوي جميعَ الأشياء المُقدَّرة . وسمَّاه اللَّهُ حَفِيظًا ، لأنَّ كُل شيء مَحفوظ فيه ، لا يتغيَّر ، ولا يتبدَّل ، ولا يَزُول .

ومَن أحاطَ بكُل شيء عِلْمًا ، وعَلِمَ ما تأكله الأرضُ مِن أجساد المَوتى ، قادرٌ على بَعْثهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٨٢) : ((قال اللَّهُ تعالى رَدًّا عَلَيهم : ﴿ قَدْ عَلِمْنا ما تَنقُصُ الأرضُ مِنْهُم ﴾ ، أي : ما تأكل مِن أجسادهم في البِلَى ، نَعلَم ذلك ، ولا يَخفَى عَلَينا أين تفرَّقت الأبدان ، وأين ذهبت ، وإلى أين صارت ، ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظ ﴾ ، أي : حافظ لذلك ، فالعِلْم شامل ، والكِتاب أيضًا فيه كُل الأشياء مَضبوطة . قال العَوفي عن ابن عباس ــ رضي اللَّهُ عَنهما ــ في قَوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنا ما تَنقُصُ الأرضُ مِنْهُم ﴾ ، أي : ما تأكل مِن لُحومهم وأبشارهم وعِظامهم وأشعارهم ، وكذا قال مُجاهد وقَتادة والضَّحاك وغَيرهم)) .

٢٢ــ الضَّغْط الجَوِّي

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلامِ وَمَن يُرِدْ أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

مَن شاءَ اللَّهُ هِدايته للإيمان بِه وبرسوله ﷺ ، قَذَفَ في قلبه نُورَ الحق ، فصارَ صَدْرُه واسعًا مُنَوَّرًا يَستقبل تعاليمَ الدِّين بِحُب وسُرور واستعداد كامل ، بدون عوائق ولا ضِيق . وتصير طِباعُه لَيِّنة ، وصِفاته حميدة ، ويُوفِّقه اللَّهُ إلى الصِّراط المستقيم ، ويُثبِّته عَلَيه ، ويُسهِّل عليه فِعل الطاعات ، واجتناب المعاصي . وتوسيعُ الصَّدر علامة الهِداية للإسلام . إنَّ اللَّه يَخلُق الإيمانَ في القلب،ويَفتح صَدْرَ الإنسان كَي يَستقبل الإسلام بِحُب وقَبول . وشَرْحُ الصدر هو تسهيل الإيمان وتَحبيبه إلى النَّفْس ، وإعداد القلب لقَبوله بلا عوائق ، والرِّضا بِه بلا ضغوطات . والصدر عبارة عن القلب ، لأن مستقر القلب في الصدر . وإذا أرادَ اللَّهُ بالعبد خَيْرًا ، فإنه يُوسِّع قلبه للتَّوحيد والإيمان بِه . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٥٠) : ((﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أن يَهْدِيَه ﴾ يُعرِّفه طريقَ الحق ويُوفِّقه للإيمان ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلامِ ﴾ فَيَتَّسِع له وينفسح فيه مجاله، وهو كِناية عن جَعْل النَّفْس قابلة للحق ، مُهَيَّأة لِحُلوله فِيها ، مِصفاة عَمَّا يَمنعه ويُنافيه)) .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٣٣٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : فَمَن يُرِد اللَّهُ أن يَهْدِيَه للإيمان بِه وبرسوله وما جاء به مِن عِند رَبِّه فَيُوَفِّقه له ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلامِ ﴾ يقول: فَسَحَ صَدْرَه لذلك، وهَوَّنه عَلَيه ، وسَهَّله له بِلُطْفه ومَعونته ، حتى يستنير الإسلام في قلبه ، فَيُضِيء له، ويَتَّسع له صَدْرُه بالقَبول)) اهـ . وفي زاد المسير (٣/ ١١٩و١٢٠) : ((قال ابن الأعرابي : الشَّرْح الفتح. قال ابن قُتَيبة : ومِنه يُقال: شَرَحْتُ لك الأمرَ، وشَرَحْتُ اللحمَ إذا فَتَحْتُه. وقال ابن عباس : يَشرح صَدْرَه ، أي يُوسِّع قَلْبَه للتوحيد والإيمان. وقد روى ابن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلامِ ﴾ ، فَقِيل له : يا رسول اللَّه ، وما هذا الشَّرْح ؟ قال : " نور يَقذفه اللَّهُ في القلب فينفتح القلب " ، قالوا : فهل لذلك مِن أَمَارة؟، قال : " نعم " ، قِيل : وما هِيَ ؟ . قال : " الإنابة إلى دار الخُلود ، والتجافي عن دار الغُرور ، والاستعداد للمَوت قبل نزوله ")) .

﴿ وَمَن يُرِدْ أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّمَاءِ ﴾ . ومَن يُرِد اللَّهُ إضلالَه عن طريق الهُدى ، وإبعادَه عن نُور الحق ، يَجعل صَدْرَه شديدَ الضِّيق ، لا يتَّسع للإيمان ، ولا ينشرح للخَير ، ولا يتقبَّل الهُدى ، كأنَّما يُحاول الصُّعودَ إلى السَّماء ، ويَطلُب أمرًا مُستحيلًا . والمعنى : يَصعُب عَلَيه الإيمان ، كما يَصعُب عَلَيه صُعود السَّماء . والآيةُ رَد واضح على القَدَرِيَّة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٥٠): ((﴿ وَمَن يُرِدْ أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ بحَيث يَنْبُو (يَنفِر) عَن قَبول الحَق ، فلا يدخله الإيمان . ... . ﴿ كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّمَاءِ ﴾ ، شبَّهه _ مُبالغةً في ضِيق صَدْره _ بمَن يُزاول ما لا يَقْدِر عليه ، فإنَّ صُعود السماء مَثَل فِيما يَبعُد عن الاستطاعة ، ونبَّه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصُّعود ، وقِيل : معناه كأنما يتصاعد إلى السَّماء نُبُوًّا (نُفُورًا) عَن الحَق ، وتباعُدًا في الهَرَب مِنه)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٢١) : ((والمعنى: كأنَّه قَد كُلِّفَ أن يَصْعَدَ إلى السَّماء إذا دُعِيَ إلى الإسلام مِن ضِيق صَدْره عَنه . ويجوز أن يكون المعنى: كأنَّ قلبه يَصْعَد في السماء نُبُوًّا عَن الإسلام والحِكمة. وقال الفَرَّاء: ضَاقَ عليه المذهب، فَلَم يَجِدْ إلا أن يَصْعَدَ في السَّماء، ولَيس يَقْدِر على ذلك . وقال أبو علي: يَصَّعَّد ويَصَّاعد ، مِن المَشَقَّة وصُعوبة الشيء)) .

٢٣_ الصُّعُود إلى الفَضَاء

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُون ﴾ [الحِجْر : ١٤].

الكُفَّارُ يَنطلقون من موقف مُسبق رافض للإيمان ، سواءٌ ظَهرت الآياتُ أمامَهم أَم لَم تَظهَر . وسواءٌ جاءهم رسول أَم لَم يَجِئْهُم .

والآيةُ تُشير إلى جهل الكفار، وعنادهم ، وقَسوة قلوبهم ، وإصرارهم على الكُفر والاستهزاء .

لَوْ فَتح اللَّهُ على كفار مكة بابًا من السماء ، فَظَلَّت الملائكةُ يَصْعَدون فيه أمام أعين الكفار ، والكفارُ يَرَوْنَ الملائكةَ عِيانًا ، ويُشاهدونهم بلا حِجاب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٨٦) : ((وفي المُشار إِلَيهم بهذا الصُّعود قَولان : أحدهما أنهم الملائكة ، قاله ابن عباس والضَّحاك. فالمعنى: لَوْ كُشِفَ عن أبصار هؤلاء فَرَأَوْا بابًا مَفتوحًا في السماء ، والملائكة تَصعَد فِيه لَمَا آمَنوا به . والثاني أنهم المشركون ، قاله الحسن وقتادة، فيكون المعنى : لَوْ وَصَّلْنَاهم إلى صُعود السماء لَم يَستشعروا إلا الكفر لِعنادهم)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَقَالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُون ﴾ [الحِجْر : ١٥].

الآيةُ تدل على مُكابَرة المشركين للحق، وعِنادهم الشديد، وصلابة كُفرهم، وقلوبهم القاسية .

لَوْ فَتح اللَّهُ على المشركين بابًا من السماء ، وَرَأَوا الملائكةَ يَصعدون فِيه رَأْيَ العَين ، لَقَالَ المشركون إنما سُدَّتْ أبصارُنا بالسِّحْر،وحُبِسَت عن النظر، ثُمَّ اختاروا رأيًا آخَر: بَل سَحَرَنا مُحمَّد، ونحن واقعون تحت تأثير سِحْره فلا نُبْصِر .

ومَن وَصَلَ إلى هذه المرحلة، فلا فائدة من إرشاده ، ولا جَدوى من مَوعظته . ولَن يَنتفع بأيَّة آيةٍ مهما كانت عظيمةً ، ولَن يتأثر بأيَّة مُعجِزة مهما كانت خارقةً للعادة . وكلمةُ الحَصْر ﴿ إِنَّما ﴾ وكلمةُ الإضراب ﴿ بَلْ ﴾ تُشيران إلى يقين المشركين بأنَّ ما يُشاهدونه غير حقيقي ، بَل هو باطل خُيِّلَ إِلَيهم بتأثير السِّحْر.وفي فتح القدير للشَّوكاني (٣/ ١٧٦): ((﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُون ﴾ أضْرَبوا عن قَولهم : سُكِّرت أبصارُنا . ثُمَّ ادَّعَوا أنهم مسحورون : أي سَحَرَهم مُحمَّد ﷺ . وفي هذا بيان لِعنادهم العظيم الذي لا يُقْلِعهم عنه شَيء من الأشياء ، كائنًا ما كان . فإنهم إذا رَأَوْا آيةً تُوجِب عَلَيهم الإيمانَ باللَّه وملائكته وكُتبه ورُسله ، نَسَبوا إلى أبصارهم أنَّ إدراكها غير حقيقي لِعَارض السَّكْر ، أو أنَّ عُقولهم قد سُحِرَت ، فصارَ إدراكُهم غير صحيح . وَمَن بَلَغ في التَّعنت إلى هذا الحد ، فلا تَنفع فيه موعظة ، ولا يَهتدي بآية)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ سَنُرِيهِم آياتِنا في الآفَاقِ وفي أنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٥٣] .

إنَّ اللَّه سَيُظْهِر لهؤلاء المشركين الأدلةَ والحُجَج والبراهين التي تدل على وَحدانيةِ اللَّه وقُدرته، وصِدقِ القُرآنِ، وصِحَّةِ نُبُوَّة مُحمَّد ﷺ . وهذه الأدلةُ الإلهيةُ الباهرة تنقسم إلى قِسْمَيْن: خارجية (في الآفاق)، وداخلية (في أنفسهم) . الآياتُ الإلهيةُ في الآفاق (جَمْع أُفُق وهو الناحية) هي:

السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب والجبال والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والبِحَار والأشجار ، وغَيرها . أمَّا الآياتُ الإلهية في أنفسهم ، هي : أعضاء الإنسان وحواسُّه وأجهزته المُعقَّدة ، كالجهاز التنفسي والعصبي والهضمي والتناسلي ، وغَيرها .

حتى يتَّضح ويَظهر لهم أن القُرآنَ كلامُ اللَّه الذي جاء بِه مُحمَّد ﷺ حَقًّا وصِدْقًا ، وأن الإسلام هو الدِّين السماوي الوحيد . وبذلك تُقام عليهم الحُجَّة ، ولا عُذر لهم في كُفرهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٧/ ٢٦٧و٢٦٨): ((قَوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسهم ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها في الآفاق فَتْح أقطار الأرض ، وفي أنفسهم فتح مكة ، قاله الحسن ومجاهد والسُّدي . والثاني أنها في الآفاق وقائع اللَّه في الأمم الخالية ، وفي أنفسهم يوم بَدْر ، قاله قتادة ومقاتل . والثالث أنها في الآفاق إمساك القَطْر (المطر) عن الأرض كُلِّها ، وفي أنفسهم البلايا التي تكون في أجسادهم ، قاله ابن جُرَيج . والرابع أنها في الآفاق آيات السماء كالشمس والقمر والنجوم ، وفي أنفسهم حوادث الأرض، قاله ابن زيد. وحُكِيَ عن ابن زيد أن التي في أنفسهم سبيل الغائط والبَوْل ، فإن الإنسان يأكل ويشرب مِن مكان واحد ويَخرج من مَكَانَيْن . والخامس أنها في الآفاق آثار مَن مضى قبلهم مِن المُكذِّبين ، وفي أنفسهم كَوْنهم خُلقوا نُطَفًا ثُمَّ عَلَقًا ثُمَّ مُضَغًا، ثُمَّ عِظامًا ، إلى أن نُقِلوا إلى العقل والتمييز ، قاله الزَّجاج . قَوله تعالى : ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لهم أنَّهُ الحقُّ ﴾ في هاء الكِناية قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى القرآن ، والثاني إلى جميع ما دعاهم إليه الرسول . وقال ابن جرير : معنى الآية : حتى يَعْلَموا حقيقة ما أنزلنا على مُحمَّد ، وأَوْحَيْنا إلَيه مِن الوعد له ، بأنَّا مُظهِرو دِينه على الأديان كُلِّها)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ اسْتَطَعْتُم أن تَنفُذُوا مِنْ أقطارِ السَّمَاواتِ والأرضِ فانفُذُوا لا تَنفُذُون إلا بِسُلطان ﴾ [الرَّحمن : ٣٣] .

إنْ قَدَرْتُم على الخُروج من جوانب السَّماوات والأرض وأطرافهما ، فاخْرُجوا مِن مَلَكُوت اللَّه ، واهْرُبوا مِن قضائه ، وخَلِّصُوا أنفُسَكم مِن عِقابه ، والأمرُ للتَّعجيز . لا تَقْدِرُون على الخُروج إلا بقُوَّة وقَهْر، وأنَّى لكم ذلك ؟ . أي : لا قُوَّة لكم على الخُروج .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٥٠) : ((أي : لا تَستطيعون هَرَبًا مِن أمر اللَّه وقَدَره ، بَل هُو مُحيط بكم ، لا تَقْدِرُون على التخلُّص مِن حُكمه ، ولا النُّفُوذ عَن حُكمه فيكم ، أيْنَما ذَهبتم أُحِيط بكم ، وهذا في مَقَام الحَشْر ، الملائكة مُحدِقة بالخلائق سَبْع صُفوف مِن كُل جانب ، فلا يَقْدِر أحد على الذهاب ﴿ إلا بِسُلطان ﴾ ، أي : إلا بأمر اللَّه)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٩٤) : ((﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ ﴾ ، قَدَّمَ الجِنَّ هُنا لكَوْن خَلْق أبيهم مُتقدِّمًا على خَلْق آدم ، ولوُجود جِنسهم قَبل جِنس الإنس ، ﴿ إنِ اسْتَطَعْتُم أن تَنفُذُوا مِنْ أقطارِ السَّمَاواتِ والأرضِ ﴾ ، أي : إنْ قَدَرْتُم أن تَخرجوا من جوانب السَّماوات والأرض ونواحيهما هَرَبًا مِن قَضَاء اللَّه وقَدَره ، ﴿ فانفُذُوا ﴾ مِنها ، وخَلِّصُوا أنفُسَكم . يُقَال : نَفَذَ الشيءُ من الشيء: إذا خَلَصَ مِنه كما يَخلُص السَّهْم ﴿ لا تَنفُذُون إلا بِسُلطان ﴾ ، أي: لا تَقْدِرُون على النُّفُوذ إلا بقُوَّة وقَهْر ، ولا قُوَّة لكم على ذلك ولا قُدرة . والسُّلطان : القُوَّة التي يتسلَّط بها صاحبُها على الأمر ، والأمر بالنُّفُوذ أمرُ تعجيز . قال الضَّحاك : بَينما الناس في أسواقهم إذ انفتحت السماء ، ونزلت الملائكة ، فَهَرَبَ الجِنُّ والإنس ، فتُحدِق بهم الملائكةُ ، فذلك قَوله : ﴿ لا تَنفُذُون إلا بِسُلطان ﴾ . قال ابن المبارك : إنَّ ذلك يكون في الآخِرة . وقال الضَّحاك أيضًا : معنى الآية : إن استطعتم أن تَهرُبوا مِن المَوت فاهرُبوا . وقِيل : إن استطعتم أن تَعلَموا ما في السَّماوات والأرض فاعْلَمُوه ، ولَن تَعْلَمُوه إلا بسُلطان ، أي : بِبَيِّنة مِن اللَّه . وقال قَتادة : مَعناها: لا تَنفُذون إلا بمُلْك، ولَيس لكم مُلْك. وقِيل: الباء بمعنى إلى ، أي: لا تَنفُذون إلا إلى سُلطان)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١١٥ و١١٦): ((قَوله تعالى: ﴿ أن تَنفُذُوا ﴾ ، أي: تَخرُجوا. يُقَال: نَفَذَ الشيءُ من الشيء، إذا خَلَصَ مِنه كالسَّهْم يَنفُذ مِن الرَّمِيَّة. والأقطار النواحي والجوانب. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال : أحدها إن استطعتم أن تَعلَموا ما في السَّماوات والأرض فاعْلَمُوا، قاله ابن عباس . والثاني إن استطعتم أن تَهرُبوا مِن المَوت بالخُروج من أقطار السماوات والأرض فاهرُبوا واخرجوا مِنها. والمُراد أنكم حَيثما كُنتم أدرككم المَوت، هذا قَول الضَّحاك ومُقاتل في آخرين. والثالث إن استطعتم أن تَجُوزوا أطرافَ السماوات والأرض فتُعجِزوا رَبَّكُم حتى لا يَقْدِر عليكم فَجُوزوا . وإنَّما يُقَال لهم هذا يَوم القيامة ، ذَكَرَه ابن جرير . قَوله تعالى : ﴿ لا تَنفُذُون إلا بِسُلطان ﴾ ، فِيه ثلاثة أقوال : أحدها لا تَنفُذون إلا في سُلطان اللَّه ومُلْكه ، لأنَّه مالك كُل شيء ، قاله ابن عباس . والثاني لا تَنفُذون إلا بحُجَّة ، قاله مُجاهد . والثالث لا تَنفُذون إلا بمُلْك ، ولَيس لكم مُلْك ، قاله قَتادة)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾ [الرَّحمن : ٣٤] .

بأيِّ نِعَم اللَّه يا مَعْشَر الجِن والإنس تُكذِّبان ؟ ، إنَّ نِعَم اللَّه عَلَيكما عظيمة وكثيرة ، لا تُعَدُّ ، ولا تُحصَى . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٢٠١) : ((فإنَّ نِعَمَه كُلَّها لا يتيسَّر تكذيب شيء مِنها ، كائنة ما كانت ، فكيف بهذه النِّعَم الجليلة والمِنَن الجَزيلة ؟)) .

وعن جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنهما قال:لمَّا قرأ رسولُ اللَّه ﷺ سُورةَ الرَّحمن على أصحابه حتى فَرَغَ قال : ((ما لي أراكم سُكُوتًا ، لَلْجِنُّ كانوا أحسنَ مِنكُم رَدًّا ، ما قرأتُ عَلَيهم مِن مَرَّةٍ ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾ ، إلا قالوا: ولا بشَيء مِن نِعمتك رَبَّنا نُكذِّب، فَلَكَ الحَمْدُ)) [١٨٢].

خَضَعَ الجِنُّ للَّه ، واعترفوا بفضله وكَرَمه ونِعمه ، ولم يُنكِروا شيئًا مِن ذلك ، ولَم يَجحَدوه ، وحَمِدُوا اللَّهَ تعالى،وهذا يدلُّ على إيمانهم وشُكرهم للَّه على نِعمه العظيمة الكثيرة التي لا تُحصَى.

وفي تُحفة الأحوذي (٩/ ١٢٦ و١٢٧) : ((قَوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾ ، الخِطاب للإنس والجِن ، أي : بأيِّ نِعمة مِمَّا أنعمَ اللَّهُ به عليكم تُكذِّبون ، وتَجحَدون نِعَمَه بتَرك شُكره ، وتَكذيب رُسُله ، وعِصيان أمره . (لا بشَيء) مُتعلِّق بنُكذِّب الآتي ، (رَبَّنا) بالنَّصْب على حَذف حرف النِّداء . أي : لا نُكذِّب بشَيء مِنها (فَلَكَ الحَمْد) أي : على نِعمك الظاهرة والباطنة . ومِن أتَمِّها نِعمة الإيمان والقُرآن)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُوَاظٌ مِن نارٍ ونُحَاسٌ فلا تَنتَصِرَان ﴾ [الرَّحمن : ٣٥] .

يُرسَل عَلَيكما أيُّها الثَّقَلان (الجِن والإنس) يَوم القِيامة لهب النار الحامية ، ونُحَاسٌ مُذاب ، يُصَبُّ على رؤوسكم ، فلا يَنصُر بعضُكم بعضًا ، ولا تَستطيعان الامتناعَ مِن عُقوبة اللَّه وعَذابه ، لأنَّ أمر اللَّه واقع لا مَحَالة ، وكائن بلا شَك ، ولا أحد يَقْدِر على رَدِّه أو مَنْعه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١١٦) : ((قَوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُما ﴾ ، فَثَنَّى على اللفظ ، وقد جَمَعَ في قَوله : ﴿ إنِ اسْتَطَعْتُم ﴾ على المعنى. فأمَّا الشُّواظ ، ففيه ثلاثة أقوال: أحدها أنَّه لَهَب النار ، قاله ابن عباس . وقال مُجاهد : هو اللهب الأخضر المُنقطع من النار . والثاني الدُّخَان ، قاله سعيد بن جُبَير . والثالث النار المَحضة ، قاله الفَرَّاء . وقال أبو عُبَيدة : هي النار التي تأجَّج لا دُخَان فيها . ... . وفي (النُّحَاس) قَولان : أحدهما أنَّه دُخَان النار ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جُبَير والفَرَّاء وأبو عُبَيدة وابن قُتَيبة والزَّجاج . ... . والثاني أنَّه الصُّفْر المُذاب ، يُصَبُّ على رؤوسهم ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال مُجاهد وقَتادة . قال مُقاتل : والمُراد بالآية كُفَّار الجِن والإنس ، يُرسَل عَلَيهما في الآخرة لَهَب النار . والصُّفْر الذائب ، وهي خمسة أنهار تَجْري مِن تَحت العَرْش على رؤوس أهل النار ، ثلاثة أنهار على مِقدار الليل، ونَهران على مِقدار نهار الدُّنيا، ﴿ فلا تَنتَصِرَان ﴾ أي: فلا تَمْتَنِعان مِن ذلك)) .

---

١٨٢ رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٥) برقم (٣٧٦٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

صَدَرَ للمؤلف

الدراسات الدينية :

١_ حقيقة القرآن . ٢_ أركان الإسلام . ٣_ أركان الإيمان . ٤_ النبيُّ مُحمَّد ، صَلَّى اللَّهُ عليه وآلِه وسَلَّم. ٥_ دراسات منهجية في القرآن والسُّنة. ٦_ العُلوم والفُنون في القُرآن. ٧_ دراسات منهجية في القُرآن والتوراة والإنجيل . ٨_ الإنسان والعلاقات الاجتماعية . ٩_ بحوث في الفكر الإسلاميِّ . ١٠_ منهج الكافرين في القرآن . ١١_ التناقض في التوراة والإنجيل . ١٢_ صورة اليهود في القرآن والسُّنة والإنجيل . ١٣_ عقائد العرب في الجاهلية .

الأدب والثقافة والفكر :

١٤_ فلسفة المُعلَّقات العَشْر . ١٥_ النظام الاجتماعي في القصيدة (المأزق الاجتماعي للثقافة . كلام في فلسفة الشِّعْر) . ١٦_ صرخة الأزمنة (سِفر الاعتراف) . ١٧_ مشكلات الحضارة الأمريكية . ١٨_ حياة الأدباء والفلاسفة العالميين .

الشِّعر :

١٩_ الأعمال الشعرية الكاملة (مجلد واحد)

الرواية :

٢٠_ أشباح الميناء المهجور

٢١_ جبل النظيف

فِهْرِس

مقدمة.....5

١_ فَضْل العِلْم والعُلَماء.....7

٢_ ذَم الجَهْل والجَاهِلين.....29

٣_ الحَث على التَّفَقُّه في الدِّين.....32

٤_ الحَث على التفكر واستخدام العقل.....37

٥_ الحَث على نشر العِلْم وعدم كِتمانه.....57

٦_ المُجَادَلَة بغَير عِلْم.....79

٧_ الفَلَك.....81

٨_ الكواكب.....101

٩_ التَّقويم.....108

أ _ عِدَّة الشُّهُور.....108

ب_ الشَّهْر الحَرَام.....113

ج _ الأشهُر المَعْلُومات.....124

د _ شَهْر رَمَضَان.....126

هـ _ اليَوم عِند اللَّه.....129

١٠_ المِلاحَة.....138

١١_ الفُنُون.....147

١٢_ البَيان والبَلاغة.....156

١٣_ الشِّعْر والشُّعَراء.....159

١٤_ الحقائق العِلْمِيَّة.....172

١_ دَعوة الإنسان إلى اكتشاف الحقائق العِلمية.....172

٢_ الإنسان في الكَون.....180

٣_ نَشأة الحياة.....185

٤_ الإنسان وخَلْقه.....189

٥_ حَقائق في الكَون.....269
٦_ الرِّيح والرِّياح.....287
٧_ السَّحَاب.....302
٨_ الغَيث.....311
٩_ حَرَكَة الأرض.....316
١٠_ الإشارة إلى طَبَقَات الأرض (الجيولوجيا).....320
١١_ الليل والنهار.....326
١٢_ الجِبَال.....329
١٣_ البَحْر.....339
١٤_ النَّبات.....355
١٥_ الزِّراعة.....362
١٦_ الحَشَرَات والحَيَوَانات.....378
١٧_ لُغة الحَيَوَان.....421
١٨_ الإحياء.....430
١٩_ الصِّحة.....433
٢٠_ الإشارة إلى ازدواجية المادة.....451
٢١_ الإشارة إلى عدم فَنَاء المادة.....453
٢٢_ الضغط الجَوي.....456
٢٣_ الصُّعُود إلى الفَضَاء.....457
صَدَرَ للمؤلف.....462
فِهْرِس.....463

تَمَّ الكِتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالى